

THE BOOK WAS DRENCHED

— THE ENDING BOOK —

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190505

UNIVERSAL
LIBRARY

كتاب
عَلَمُ الْإِسْلَامِ

مقالات

مِشْكَاةُ بَرِّ الْعَرَبِ

على الحد الثاني

عَلَمُ الْإِسْلَامِ

جمع الابر اويس شيخو اليسوعي

حق الطبع محفوظ للطباعة

في مطبعة الامام المرساين اليسو

ببروت سنة ١٨٨٩

OSMANIYA UNIVERSITY LIBRARY

Call No. ٨٩٢٥٤٢٥٦٧ Accession No ١٨١٢١

Author شمعون، الواسع المسمى 18127

٢٠٠٠
Title علم الادب : حقائق المشاعر العرب

This book should be returned on or before the date last marked below.

كتاب

علم الادب

مقالات

لمشائير العرب

على الجزء الثاني

من

علم الادب

جمع الاب لويس شيخو اليسوعي



حق الطبع محفوظ للمطبعة

طبع في مطبعة الآباء اليسوعيين

بيروت سنة ١٨٨٩

مَقَالَتٌ

لبعض مشاهير كتاب العرب

في الخطابة والشعر

القسم الأول

في علم الخطابة

الفصل الأول

في تعريف الخطابة وأقسامها ومنافعها

البحث الأول

في تحديد الخطابة وما تشتمل عليه بوجه الاجمال

(عز كليات الالباء ومقدمة امر حلدون ورسائل امر مينا)

(راجع صفحة ٣ من الجزء الثاني من علم الادب)

الخطابة في اللغة كالحطاب وهي الكلمة أو اللفظ المتواضع
عليه المقصود به افهام من هو متعهي لفهمه وهو يطلق على الكلام
النفسي الموجه نحو الغير للافهام. وعند الحكماء الخطابة هي
القياس المفيد ترغيب الجمهور وحملهم على المراد منهم وما يجب أن

يُسْتَعْمَلُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَقَالَاتِ. وَلَمَّا ظَهَرَ أَرِسْطُو فِي يُونَانَ وَهَذَبَ
مَبَاحِثَ الْمَنْطِقِ وَرَتَّبَ مَسَائِلَهُ وَفُصِّلَتْ وَجَعَلَهُ أَوَّلَ الْعُلُومِ الْحِكْمِيَّةِ
وَفَاتِحَتَهَا جَعَلَ الْخُطَابَةَ أَحَدَ أَقْسَامِهَا الثَّانِيَةِ. وَهَذِهِ الْأَقْسَامُ تَشْتَمِلُ
عَلَى ثَمَانِيَةِ كُتُبٍ أَرْبَعَةٌ مِنْهَا فِي صُورَةِ الْقِيَاسِ وَهِيَ كُتُبُ الْمَقُولَاتِ
وَالْإِعْبَارَةِ وَالْقِيَاسِ وَالْبُرْهَانِ وَأَرْبَعَةٌ فِي مَادَّتِهِ وَهِيَ كُتُبُ الْجَدَلِ
وَالسُّفْسُطَةِ وَالْخُطَابَةِ وَالشَّعْرِ. وَذَلِكَ أَنَّ الْمَطْلُوبَ التَّصْدِيقِيَّةَ عَلَى
أَحَدٍ فَمِنْهَا مَا يَكُونُ الْمَطْلُوبُ فِيهِ الْيَقِينَ بِطَبْعِهِ وَهُوَ تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ
الْكُتُبُ الْأَرْبَعَةُ الْأُولَى. وَمِنْهَا مَا يَكُونُ الْمَطْلُوبُ فِيهِ الظَّنُّ وَهَذَا
تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ الْكُتُبُ الْأَرْبَعَةُ الْآخَرَى. وَفِيهَا تَدْخُلُ الْخُطَابَةُ.
وَتُرْجِمَتْ كُلُّهَا فِي أَلْفَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَكُتِبَتْهَا وَتَدَاوَلَهَا فَلَايِسَةُ الْإِسْلَامِ
بِالشَّرْحِ وَالْتَّخْيِصِ كَمَا فَعَلَ الْفَارَابِيُّ وَأَبْنُ سَيَّاسٍ وَأَبْنُ رُشْدٍ مِنْ فَلَايِسَةِ
الْأَنْدَلُسِ. وَلِأَبْنِ سَيَّاسٍ كِتَابُ الْإِثْقَاءِ اسْتَوْعَبَ فِيهِ عُلُومَ الْفَلَسَفَةِ
كُلُّهَا. ثُمَّ جَاءَ الْمُتَأَخِّرُونَ فَغَيَّرُوا أَصْطِلَاحَ الْمَنْطِقِ وَحَصَرُوا مَطَالِبَهُ فِي
كُتُبِ خَمْسَةِ الْبُرْهَانِ وَالْجَدَلِ وَالْخُطَابَةِ وَالشَّعْرِ وَالسُّفْسُطَةِ وَرَبَّمَا يَلُمُّ
بَعْضُهُمْ بِأَلْيَسِيرِ مِنْهَا إِمَامًا وَأَنْفَلَوْهَا كَانَ لَمْ تَكُنْ هِيَ أَلْمَهْمُ الْمُعْتَمَدُ
فِي الْفَنِّ. وَأَمَّا الَّذِي يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ كِتَابُ الْخُطَابَةِ فَهُوَ تَعْرِيفُ الْمَقَالِييسِ
الْخُطَابِيَّةِ الْبَلَاغِيَّةِ النَّافِعَةِ فِي مُحَاطَبَاتِ الْجُمْهُورِ عَلَى سَبِيلِ الْمَشَاوِرَاتِ
وَالْمُخَاصَمَاتِ فِي الْمَشَاجِرَاتِ أَوْ الْمَذَحِ أَوْ الذَّمِّ أَوْ الْحِيلِ النَّافِعَةِ فِي
الْإِسْتِعْطَافِ وَالْإِسْتِمَاةِ وَالْإِغْرَاءِ وَتَصْغِيرِ الْأَمْرِ وَتَعْظِيمِهِ وَوُجُوهِ
الْمُعَازِيرِ وَالْمُعَاتَبَاتِ وَوُجُوهِ تَرْتِيبِ الْكَلَامِ فِي كُلِّ قِصَّةٍ وَخُطْبَةٍ

البحث الثاني

في تعريف الخطابة وموضوعها

(من تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لاسن رشد)

(راجع صفحة ٥ من الجزء الثاني من علم الادب)

(قَالَ) الْخَطَابَةُ هِيَ قُوَّةٌ تَتَكَلَّفُ الْإِقْتَاعَ الْمُسْكِنَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمَفْرَدَةِ . وَتَعْنِي (بِأَقْوَى) الصَّنَاعَةُ الَّتِي تَفْعَلُ فِي الْمَقَامَيْنِ . وَلَيْسَ تَتَّبِعُ غَايَتَهَا فَعَلَهَا ضَرُورَةً . وَتَعْنِي (بِتَكَلُّفٍ) أَي تَذَلُّلٌ بِجَهْدِهَا فِي اسْتِقْصَاءِ فِعْلِ الْإِقْتَاعِ الْمُسْكِنِ فِي ذَلِكَ الشَّيْءِ . الَّذِي فِيهِ الْقَوْلُ وَذَلِكَ يَكُونُ بَغَايَةً مَا يُمَكِّنُ فِيهِ . وَتَعْنِي بِقَوْلِهِ : (فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمَفْرَدَةِ) أَي فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ . الْمَفْرَدَةِ الْمَوْجُودَةِ فِي مَقُولَةٍ مِنَ الْمَقُولَاتِ الْعَشْرِ (١) . وَهَذَا هُوَ الْقَضْلُ الَّذِي تَنْفَصِلُ بِهِ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ عَنْ سَائِرِ الصَّنَائِعِ الَّتِي يُظَنُّ أَنَّهَا قَدْ تُتَّبَعُ فِي الْأُمُورِ الَّتِي تَنْظُرُ فِيهَا . وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ صِنَاعَةٍ إِنَّمَا هِيَ مُعَلَّةٌ أَي مُبَرِّهَنَةٌ وَمُتَّبِعَةٌ فِي الْجَنْسِ الَّذِي تَنْظُرُ فِيهِ لَا فِي جَمِيعِ الْأَجْنَاسِ . مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ الطَّبَّ إِنَّمَا يُعَلِّمُ عَلَى طَرِيقِ

(١) المقولة لفئة المفعول من القول والثناء للمبالغة بمعنى الملفوظ وهي في اصطلاح الحكماء ما جاء عنه القول وأبرز فيه الحكم من الاحساس العالبة المجردة من الحسوسات التي ليس فوقها حس . والمقولات عشر : الجوهر والكم والكيف والاضافة والمعمل والانفعال (ويقال لصا يفعل وينفعل) والزمان والمكان (ويقال لصا متى واين) والهيئة والوضع (ويقال لصا ان يكون له والموضوع)

البرهان ويُقنع في الصحة والمرض وفي أنواعهما . وكذلك الهندسة
إنما تُعلم على طريق البرهان وعلى طريق الإقناع في الأنظمة
والأشكال التي توجد في الأجسام . وأما الخطابة فهي تتكلف
الإقناع في جميع الأشياء في أي مقولة كانت وأي جنس كان ولذلك
ليس تُنسب إلى جنس خاص .

البحث الثالث

في المناسبة الموجودة بين الجدل والخطابة

(عن تلخيص كتاب خطابة أرسطاطاليس لابن رشد)

(قال) إن صناعة الخطابة تُناسبُ صناعةَ الجدل . وذلك أن
كليهما يؤمنان غايةً واحدةً وهي مخاطبة الغير إذ كانت هاتان
الصناعتان ليس يستعملهما الإنسان بينه وبين نفسه كالحال في
صناعة البرهان بل إنما يستعملهما مع الغير وتشتريكان ينحو من
الأنحاء في موضوع واحد إذ كان كلاهما يتعاملان النظر في جميع
الأشياء ويوجد استعمالهما مشتركاً للجميع . أعني كل واحد من الناس
يستعمل بالطبع الأقاويل الجدلية والأقاويل الخطيئة . وإنما كان
ذلك كذلك لأنه ليست واحدة منها علماً من العلوم مفرداً بذاته
وذلك أن العلوم لها موضوعات خاصة ويستعملها أضاف من الناس
خاصة . ولكن من جهة أن هذين (أي الخطابة والجدل) ينظران
في جميع الموجودات وجميع العلوم تنظر في جميع الموجودات فقد

تُوجَدُ جَمِيعُ الْعُلُومِ مُشَارِكَةً لَهَا بِتَحْوِيلِ مَا . وَإِذَا صَدَّاتِ هَاتَانِ
الصِّنَاعَتَانِ مُشْتَرَكَتَيْنِ فَقَدْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ النَّظَرُ فِيهَا إِصْنَاعَةً
وَاحِدَةً وَهِيَ صِنَاعَةُ الْمُنْطِقِ

البحث الرابع

في ان الخطابة تتحرى للتصديق اكثر منها للتأثير

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد بتصرف)

(راجع صفحة ٦ من الجزء الثاني من علم الادب)

وَرَأَى مَنْ رَأَى أَنَّ اسْتِعْمَالَ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي لَهَا تَأْسِيرٌ فِي
التَّصْدِيقِ فِي تَثْبِيتِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُرَادُ تَثْبِيتُهَا بِطَرِيقِ الْخُطَابَةِ هُوَ
الصَّوَابُ . وَخَلِيقٌ إِنْ اسْتَقْبَلَ أَحَدُ هَذَا الْقَانُونِ أَنْ يَكُونَ
بِاسْتِعْمَالِهِ بَصِيرًا فِي هَذِهِ الصِّنَاعَةِ لَيْبًا أَرِيئًا . وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ
الْأُورَاقَ الَّتِي مِنْ خَارِجٍ لَيْسَ لَهَا كَبِيرُ جَدْوَى فِي هَذِهِ الصِّنَاعَةِ أَنَّ
الَّذِي يَرُومُ أَنْ يُثْبِتَ شَيْئًا بَيْنَ يَدَيِ الْحُكَّامِ فَهُوَ إِمَّا أَنْ يُثْبِتَ
أَنَّ الشَّيْءَ مَوْجُودٌ أَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ فَقَطْ أَعْنِي أَنَّهُ كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ .
وَذَلِكَ إِذَا حَدَّدَ صَاحِبُ الشَّرِيعَةِ أَنَّ ذَلِكَ الشَّيْءَ الَّذِي فِيهِ الشُّكُّو
عَظِيمٌ أَوْ يَسِيرٌ وَأَنَّهُ عَدْلٌ أَوْ جَوْرٌ . وَإِمَّا أَنْ يُثْبِتَ الْأَمْرَيْنِ وَذَلِكَ
إِذَا لَمْ تُحَدِّدِ الشَّرِيعَةُ ذَلِكَ الشَّيْءَ الَّذِي فِيهِ الْكَلَامُ . فَأَمَّا اسْتِعْمَالُ
الْإِنْفِعَالَاتِ فِي تَثْبِيتِ أَنَّ الْأَمْرَ جَوْرٌ أَوْ عَدْلٌ فَقَعْرٌ مُمَكِّنٌ . وَذَلِكَ
أَنَّ الْإِنْفِعَالَ بِالرَّحْمَةِ أَوْ الْبُغْضَةِ إِنَّمَا يَكُونُ لَشَيْءٍ جُزْئِيٍّ وَالْعَدْلُ

وَأَجُورُ أُمُورٍ كُليَّةٌ. وَأَمَّا اسْتِعْمَالُهَا فِي أَنَّ الْأَمْرَ كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ
فَلَهُ فِي ذَلِكَ تَأْثِيرٌ لِكُنْهُ لَيْسَ يُوجِبُ أَنَّ الْأَمْرَ كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ
بِالذَّاتِ بَلْ إِنَّمَا يُعِيلُ الْحُكْمَ إِلَى أَنْ يَقُولُوا إِنَّهُ صَدَقَ فِيمَا ادَّعَى
أَوْ لَمْ يَصْدُقْ وَمِنْ غَيْرِ أَنْ يَحْدُثَ لِلْحَاكِمِ أَوْ الْمُنَاطِرِ بِذَلِكَ تَصَدِيقٌ
زَائِدٌ بِالشَّيْءِ الَّذِي فِيهِ الْكَلَامُ

(قَالَ) وَقَدْ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ السُّنَنُ هِيَ الَّتِي تُحَدِّدُ أَنَّ الْأَمْرَ
جَوْرٌ أَوْ عَدْلٌ وَتُقَوِّضُ أَنَّ الْأَمْرَ وَجَدَ مِنْ هَذَا الشَّخْصِ أَوْ لَمْ
يُوجَدْ إِلَى الْحُكْمِ. وَبِالْجَمْعِ فَتُقَوِّضُ إِلَيْهِمُ الْأُمُورَ الْيَسِيرَةَ وَذَلِكَ
لِشَيْئَيْنِ : (الْأَوَّلُ) أَنَّهُ قُلٌّ مَا يُوجَدُ حَاصِكٌ يَقْدِرُ أَنْ يُمَيِّزَ الْأُمُورَ
عَلَى كُنْهَا فَيَضَعُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ جَوْرٌ وَهَذَا عَدْلٌ إِلَّا فِي الْأَقْلِ مِنْ
الزَّمَانِ وَاصْطَرَّ الْحُكْمُ الْمُوجُودِينَ فِي الْمَدِينِ لَيْسَ لَهُمْ هَذِهِ
الْقُدْرَةُ. (وَالثَّانِي) فَلِإِنَّ الْوُقُوفَ عَلَى أَنَّ الشَّيْءَ عَدْلٌ أَوْ جَوْرٌ
يَحْتَاجُ فِيهِ وَاضِعُ السُّنَنِ إِلَى زَمَانٍ طَوِيلٍ وَذَلِكَ لَا يُمَكِّنُ فِي الزَّمَانِ
الْيَسِيرِ الَّذِي يَقَعُ فِيهِ التَّنَاطُرُ فِي الشَّيْءِ بَيْنَ يَدَيِ الْحُكْمِ فَلَمَّا كَانَ
هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ يَضَعُ أَنْ يُقَوِّضَ إِلَى الْحُكْمِ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ عَدْلٌ
أَوْ جَوْرٌ نَافِعٌ أَوْ ضَارٌّ بَلْ إِنَّمَا يُقَوِّضُ إِلَيْهِمُ أَنَّ الْأَمْرَ وَقَعَ مِنْ
هَذَا الشَّخْصِ أَوْ لَمْ يَقَعْ وَذَلِكَ إِيْيَانُهُ وَلِأَنَّهُ أَمْرٌ لَا يُمَكِّنُ أَنْ
يَضَعَهُ صَاحِبُ السُّنَّةِ



البحث الخامس

في فوائد علم الخطابة

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لاس رشد بنصر ف)

(راجع صفحة ٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

(قال) وَلِلْخُطَابَةِ مَنَفَعَتَانِ إِحْدَاهُمَا أَنْ يَحْتَّ الْحُطِيبُ الْمَدَنِيْنَ عَلَى
الْأَعْمَالِ الْفَاضِلَةِ . وَذَلِكَ أَنَّهُمْ بِالطَّبَعِ يَمِيلُونَ إِلَى ضِدِّ الْفَضَائِلِ
الْعَادِلَةِ فَإِذَا لَمْ يُضْبَطُوا بِالْأَقَاوِيلِ الْخُطِيبِيَّةِ غَلَبَتْ عَلَيْهِمْ أَغْدَادُ الْأَفْعَالِ
الْعَادِلَةِ . وَذَلِكَ شَيْءٌ مَذْمُومٌ يَسْتَحِقُّ فَاعِلُهُ التَّأْيِيبَ وَالتَّوْبِيخَ أَغْنِي
الَّذِي يَمِيلُ إِلَى ضِدِّ الْأَفْعَالِ الْعَادِلَةِ أَوِ الْمَدِيرِ الَّذِي لَا يَضْبُطُ
الْمَدَنِيِّينَ بِالْأَقَاوِيلِ الْخُطِيبِيَّةِ عَلَى الْفَضَائِلِ الْعَادِلَةِ الَّتِي هِيَ فَضَائِلُ
بَيْنِ الْإِنْسَانِ وَبَيْنَ غَيْرِهِ أَغْنِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَشَارِكِ لَهُ فِي أَيْ شَيْءٍ
كَانَتْ الشَّرَكَةُ لَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ . (وَالْمَنْفَعَةُ الثَّانِيَّةُ) أَنَّهُ لَيْسَ
كُلُّ صِنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ النَّاسِ يَنْبَغِي أَنْ يُسْتَعْمَلَ مَعَهُمُ الْبُرْهَانُ
فِي الْأَشْيَاءِ النَّظَرِيَّةِ الَّتِي يُرَادُ مِنْهُمْ اعْتِقَادُهَا . وَذَلِكَ إِمَّا لِأَنَّ
الْإِنْسَانَ قَدْ نَشَأَ عَلَى مَشْهُورَاتٍ تَخَالِفُ الْحَقَّ فَإِذَا سَلَكَ بِهِ نَحْوَ
الْأَشْيَاءِ الَّتِي نَشَأَ عَلَيْهَا سَهْلَ اقْتِنَاعِهِ . وَإِمَّا لِأَنَّ فِطْرَتَهُ لَيْسَتْ مُعَدَّةً
لِقَبُولِ الْبُرْهَانِ أَصْلًا . وَإِمَّا لِأَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ بَيَانُهُ لَهُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ
الْيَسِيرِ الَّذِي يُرَادُ مِنْهُ وَقُوعُ التَّصَدِيقِ فِيهِ . فَلِهَذَا قَدْ نَضَطَرُّ إِلَى أَنْ
نُحْصِلَ التَّصَدِيقَ بِالْمَقَدَّمَاتِ الْمُشْتَرَكَةِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْمُخَاطَبِ أَغْنِي

بِالتَّحْمُودَاتِ. وَهَذِهِ الْمُنْفَعَةُ تُشَارِكُ هَذِهِ الصِّنَاعَةَ فِيهَا صِنَاعَةُ الْجَدَلِ
كَمَا ذَكَرْنَا ذَلِكَ فِي كِتَابِ الْجَدَلِ. وَهَذِهِ الصِّنَاعَةُ يُمَكِّنُهَا الْإِقْنَاعُ فِي
الْمُتَضَادِّينِ جَمِيعًا كَمَا يُمْكِنُ ذَلِكَ فِي الْقِيَاسِ الْجَدَلِيِّ. وَذَلِكَ أَنَا
قَدْ نُقْنِعُ فِي الْجَانِبِ أَنَّهُ أَسَاءَ وَأَنَّهُ لَمْ يُسَيِّءْ وَلَسْتُ أَعْنِي أَنَا نَفْعُ
الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ بَلْ نَفْعُ هَذَا فِي وَقْتٍ وَهَذَا فِي وَقْتٍ
يُحَسَّبُ الْإِنْفَعُ. وَذَلِكَ أَنَّهُ كَثِيرًا مَا يَكُونُ الشَّيْءُ نَافِعًا فِي وَقْتٍ
وَضَدَّهُ نَافِعًا فِي وَقْتٍ آخَرَ. وَأَيْضًا فَإِنَّهُ إِذَا كَانَتْ الْأَشْيَاءُ الَّتِي
تُثَبِّتُ الشَّيْءَ وَضَدَّهُ عِنْدَنَا عَتِيدَةً وَسَمِيعَةً مُتَكَلِّمًا قَدْ أَقْنَعَ فِي
الضِّدِّ الَّذِي لَيْسَ بِعَدْلِ امْتِكِنَّا بِهِذِهِ الْقُوَّةُ أَنْ نَقْضَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ.
فَهَاتَانِ الْمُنْفَعَتَانِ مَوْجُودَتَانِ فِي الْقُدْرَةِ الَّتِي فِي هَذِهِ الصِّنَاعَةِ عَلَى
الْإِقْنَاعِ فِي شَيْءٍ مِنْ الصَّنَائِعِ الْقِيَاسِيَّةِ إِلَّا فِي هَاتَيْنِ الصَّنَاعَتَيْنِ هُمَا
مُتَيَّاتَانِ بِالطَّبَعِ وَعَلَى السَّوَاءِ لِلْإِقْنَاعِ فِي كِلَا الْمُتَقَابِلَيْنِ. أَعْنِي أَنَّهُ
لَيْسَ وَاحِدَةٌ مِنْهُمَا تَوْجِدُ أَشَدَّ اسْتِعْدَادًا لِلْإِقْنَاعِ فِي أَحَدِ الْمُتَقَابِلَيْنِ
مِنْهَا فِي الْآخِرِ بَلْ الْإِسْتِعْدَادُ الْمَوْجُودُ فِيهَا عَلَى الْإِقْنَاعِ فِي الْمُتَقَابِلَيْنِ
هُوَ عَلَى السَّوَاءِ. فَأَمَّا الْأَشْيَاءُ الْمَوْضُوعَةُ لِهَاتَيْنِ الصَّنَاعَتَيْنِ أَعْنِي الْأَشْيَاءَ
الَّتِي فِيهَا تُقْنِعُ فَلَيْسَ اسْتِعْدَادُهَا إِقْبُولُ الْإِقْنَاعِ عَلَى السَّوَاءِ أَيْضًا
إِذَا كَانَتْ الْأُمُورُ الَّتِي تُقْنِعُ فِيهَا صَادِقَةً كَانَتْ الْأَقَاوِيلُ الْخَطِيئَةُ
وَالْجَدَلِيَّةُ الَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِيهَا أَفْضَلُ وَأَبْلَغُ. . . فَقَدْ اسْتَبَّحْنَا مِنْ هَذَا
أَنَّ هَذِهِ الصِّنَاعَةَ لَيْسَ تَنْظُرُ فِي أَحَدِ الْمُتَقَابِلَيْنِ وَلَكِنَّهَا تَنْظُرُ
فِيهِمَا عَلَى السَّوَاءِ كَالْحَالِ فِي الْجَدَلِ وَأَنَّهَا نَافِعَةٌ لِهَذَا جِدًّا. وَلَيْسَ عَمَلُ

هذه الصناعة أن تُشنع ولا بُدَّ ، أعني أنه ليس يتبع فعلها الاقتناع
 ضرورة كما يتبع فعل التجار وجود الكرسي ضرورة إذا لم يكن
 هنالك عائق من خارج بل عملها هو أن تُعرَف جميع المنفعات في الشيء
 وتأتي بها في ذلك الشيء وإن لم يقع إقناع . وأحال فيها في هذا
 المعنى كآحال في صناعات كثيرة مثل صناعة الطب فإنه ليس فعلها
 الإبراء ولا بُدَّ . بل إنما فعلها أن تبلم من ذلك غاية الشيء الممكن
 فعله في ذلك الشيء المقصود بالإبراء . ولذلك قد يشارك في أفعال
 هذه الصنائع من ليس من أهلها مثل أن يرى من ليس بطبيب
 ويُشنع من ليس بحطيب لكن الفعل الحقيقي إنما هو لصاحب
 الصناعة . وذلك أن الغاية تتبع فعل هذا على الأكثر وذلك على
 الأقل . وكما أن في الجدَل ما هو قياس وما يُظنُّ به أنه قياس
 وليس بقياس وهو القياس السوفسطائي كذلك في الأقاويل المنفعة
 المستعملة في هذه الصناعة ما هو مُقنع وما يُظنُّ به أنه مُقنع من غير
 أن يكون كذلك . لكن لما كان السوفسطائي ليس إنما يكون
 سوفسطائي من قبل القوة والملكة التي بها يفعل الأقاويل
 السوفسطائية بل إنما هو سوفسطائي من قبل ما يقصده بتلك
 الأقاويل من الكرامة والخيرات الخارجة وذلك لإيهاه أنه
 حكيم وكان الجدلي إنما هو جدلي بالملكة الحاصلة له عن الصناعة
 فبالواجب لم تكن الأقاويل السوفسطائية جزءا من صناعة الجدَل
 أعني التي يُظنُّ بها أنها مقاييس جدلية من غير أن تكون جدلية

إِذَا اسْتَعْمَلْتَ نَحْوَ هَذِهِ الْغَايَةِ . وَأَمَّا إِذَا اسْتَعْمَلْتَ عَلَى طَرِيقِ
 الْإِمْتِحَانِ فَهِيَ جُزْءٌ مِنْهَا . وَأَمَّا الْخُطِيبُ فَلَمَّا كَانَ خُطِيبًا مِنْ أَجْلِ
 الْأُمُورِ الَّتِي مِنْ خَارِجِ مِثْلِ الْكَرَامَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَنِ سَائِرِ
 الْخَيْرَاتِ أَوْ مِنْ قِبَلِ مَلَكَ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ كَانَتْ الْأَقَاوِيلُ الَّتِي
 يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا مُثْنَعَةٌ وَلَيْسَتْ بِمُثْنَعَةٍ جُزْءًا مِنْ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ . لِأَنَّ
 الْمَقْصُودَ بِهَذِهِ الْأَقَاوِيلِ فِي هَذِهِ الصِّنَاعَةِ قَدْ يَكُونُ بِعَيْنِهِ مَقْصُودَ
 السُّوفِسْطَائِيِّ . وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ بِهَذِهِ
 الصِّنَاعَةِ مِنَ الَّذِي يُرَادُ إِقْنَاءُهُ إِنَّمَا هُوَ الْفِعْلُ أَوْ الْإِنْفِعَالُ فَإِذَا
 حَصَلَ ذَلِكَ مِنْهُ فَلَا فَرْقَ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ حُصُولُهُ عَنْ أَقَاوِيلٍ هِيَ
 مُثْنَعَةٌ فِي الْحَقِيقَةِ أَوْ عَنْ أَقَاوِيلٍ يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا مُثْنَعَةٌ وَلَيْسَتْ بِمُثْنَعَةٍ .
 فَإِنْ كَانَ هَذَا الْفِعْلُ الْمَقْصُودُ مِنَ الْمُخَاطَبِ أَوْ الْإِنْفِعَالُ حَيْرًا مَا
 لَهُ لَا لِلْخُطِيبِ كَانَتْ الْأَقَاوِيلُ الَّتِي يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا مُثْنَعَةٌ وَلَيْسَتْ
 بِمُثْنَعَةٍ دَاخِلَةً فِي هَذِهِ الصِّنَاعَةِ بِالنَّجْهِةِ الَّتِي دَخَلَتْ فِي صِنَاعَةِ الْجَدَلِ
 الْأَقَاوِيلُ الَّتِي يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا جَدَلِيَّةٌ إِذْ لَمْ يُقْصَدْ بِهَا مَقْصَدُ السَّفْسَاطَةِ .
 وَلِنْ كَانَ مَقْصَدُ الْخُطِيبِ خَيْرًا يَأْلُهُ مِنَ الْخَيْرَاتِ الَّتِي يَقْصِدُهَا
 السُّوفِسْطَائِيُّونَ كَانَ الْقَوْلُ الَّذِي يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ مُثْنَعٌ وَلَيْسَ بِمُثْنَعٍ
 مِنْ جِهَةِ مَا هُوَ سُّوفِسْطَائِيٌّ جُزْءًا مِنْ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ إِذْ قَدْ يُشَارِكُ
 الْخُطِيبُ السُّوفِسْطَائِيَّ فِي غَايَتِهِ . فَلِذَلِكَ قَدْ تَدْخُلُ الْأَقَاوِيلُ
 السُّوفِسْطَائِيَّةُ فِي هَذِهِ الصِّنَاعَةِ وَلَا تَدْخُلُ فِي صِنَاعَةِ الْجَدَلِ



المبحث السادس

في ان الخطابة صناعة اصلها في طبع الانسان

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(راجع صفحة ٨ من الجزء الثاني من علم الادب)

وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ يُوجَدُ مُسْتَعْمِلًا لِخَوْرٍ مَا مِنْ أُنْحَاءِ الْبَلَاغَةِ
وَمُنْتَهَيَا مِنْهَا إِلَى مِقْدَارٍ مَا وَذَلِكَ فِي صَنْفِي الْأَقَاوِيلِ الَّذِينَ أَحَدُهُمَا
الْمُظَاهَرَةُ وَالثَّانِي التَّعْلِيمُ وَالْإِرْشَادُ . وَكَثُرَ ذَلِكَ فِي الْمَوْضُوعَاتِ
الْخَاصَّةِ بِهَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَهِيَ مِثْلُ الشِّكَايَةِ وَالْإِعْتِذَارِ وَسَائِرِ الْأَقَاوِيلِ
الَّتِي فِي الْأُمُورِ الْخِزْيَةِ . وَيُوجَدُ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَبْلُغُونَ مَقْصُودَهُمْ
بِهَذَا الْفِعْلِ . فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ بِالِاتِّفَاقِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَفْعَلُهُ
بِالِإِعْتِيَادِ وَبِمَلَكَهٍ ثَابِتَةٍ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ الَّذِي يَفْعَلُ هَذِهِ الصَّنَاعَةَ
بِمَلَكَهٍ ثَابِتَةٍ أَفْضَلُ مِنَ الَّذِي يَفْعَلُهَا بِالِاتِّفَاقِ . وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ
كَذَلِكَ فَالَّذِي يَفْعَلُهَا بِمَلَكَهٍ ثَابِتَةٍ وَعِلْمٍ بِالسَّبَبِ الَّذِي بِهِ يَفْعَلُ
فِعْلَهُ يَكُونُ أَتَمَّ وَأَفْضَلَ . وَهَذَا أَمْرٌ يَعْرِفُهُ الْجُمْهُورُ فَضْلًا عَنْ
الْخَوَاصِّ . وَلِذَلِكَ كَانَ وَاجِبًا أَنْ تُثَبَّتَ أَجْزَاءُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ فِي
كِتَابٍ وَلَا يُقْتَصَرُ عَلَى مَا يُوجَدُ مِنْ ذَلِكَ بِالطَّبْعِ فَقَطْ وَلَا بِالِإِعْتِيَادِ
فِي كَثِيرٍ مِنَ الصَّنَائِعِ الْقِيَاسِيَّةِ



الفصل الثاني

في بلاغة الخطيب

البحث الاول

في تعريف البلاغة الجديرة بالخطيب

(عن كتاب الصاعتين المختصار)

قَالَ مَعْرُ أَبُو الْأَشْعَثِ قُلْتُ رِيبَةَ الْهِنْدِيِّ أَيَّامَ اجْتَلَبَ يَحْيَى
أَبْنُ خَالِدٍ أَطْبَاءَ الْهِنْدِ : مَا الْبَلَاغَةُ عِنْدَ أَهْلِ الْهِنْدِ . قَالَ بَهْهَ :
عِنْدَنَا فِي ذَلِكَ صَحِيفَةٌ مَكْتُوبَةٌ وَلَكِنِّي لَا أُحْسِنُ تَرْجُمَتَهَا وَلَمْ
أَعَالِجْ هَذِهِ الصَّاعَةَ فَأَتَى مِنْ نَفْسِي بِالْقِيَامِ بِمُخَصَّصِهَا وَلَطِيفِ
مَعَانِيهَا . (قَالَ أَبُو الْأَشْعَثِ) فَتَلَقَّيْتُ تِلْكَ الصَّحِيفَةَ الْمُرْجَمَةَ فَإِذَا
فِيهَا : أَوَّلُ الْبَلَاغَةِ اجْتِمَاعُ آلَةِ الْبَلَاغَةِ وَذَلِكَ أَنْ يَكُونَ الْخَطِيبُ
رَابِطَ أَجَاشٍ سَاكِنِ الْجَوَارِحِ مُتَخَيِّرًا لِلْفِظِ لَا يُكَلِّمُهُ سَيِّدَ الْأَمَّةِ
بِكَلَامِ الْأَمَّةِ وَالْمُلُوكِ بِكَلَامِ السُّوْقَةِ وَيَكُونُ فِي كَلَامِهِ التَّصَرُّفُ فِي
كُلِّ طَبَقَةٍ وَلَا يُدَقِّقُ الْمَعَانِي كُلَّ التَّدْرِيقِ وَلَا يُفْقِحُ الْأَلْفَاظَ كُلَّ الشَّقِيقِ
وَيُصَفِّيهَا كُلَّ التَّصْفِيَةِ وَيَهْدِيهَا كُلَّ التَّهْدِيَةِ وَلَا يَفْعَلُ ذَلِكَ حَتَّى
يُصَادَفَ حَكِيمًا وَفَيْلَسُوفًا عَظِيمًا . وَمَنْ تَعَوَّدَ حَذْفَ فُضُولِ الْكَلَامِ
وَرِاسْقَاطَ مُشْتَرَكَاتِ الْأَلْفَاظِ وَنَظَرَ فِي صِاعَةِ الْمُنْطِقِ عَلَى جِهَةِ

الصَّنَاعَةُ وَالْمِبَالَةُ فِيهَا لَا عَلَى جِهَةٍ الْأَعْرَاضِ (١) وَالْتَصِفُ وَلَا عَلَى
وَجْهِ الْأَسْطِرَافِ وَالْتَّظَرُفِ (٢) لَهَا . (قَالَ) وَأَعْلَمُ أَنَّ حَقَّ الْمَعْنَى
أَنْ يَكُونَ الْأَنْيَمُ لَهُ طَبَقًا وَتِلْكَ الْحَالُ وَفَقًا وَلَا يَكُونَ الْأَنْيَمُ
فَاضِلًا وَلَا مُقْتَصِرًا وَلَا مُشْتَرَكًا وَلَا مُضَنَّيًا وَيَكُونُ تَصْفِيحُهُ لِمَصَادِيرِ
كَلَامِهِ بِقَدَرِ تَصْفِيحِهِ لِمَوَارِدِهِ وَيَكُونُ لَفْظُهُ مُرَوَّنًا وَمَعْنَاهُ نَبِيْرًا
وَاضِحًا وَمَدَارُ الْأَمْرِ عَلَى إِنْفِهَامِ كُلِّ قَوْمٍ بِقَدَرِ طَاقَتِهِمْ وَالْحَسْلُ
عَلَيْهِمْ عَلَى قَدَرِ (٣) مَنَازِلِهِمْ وَأَنْ تُؤَايِيَهُ اللَّهُ وَيَتَصَرَّفَ مَعَهُ أَدَاتُهُ
وَيَكُونَ فِي الثُّمَةِ لِنَفْسِهِ مُعْتَدِلًا وَفِي حُسْنِ الظَّنِّ أَوْدَعَهَا تَهَاوُنَ
الْأَمِينِ وَإِنْ تَجَاوَزَ مِقْدَارَ الْحَقِّ فِي الثُّمَةِ ظَلَمَهَا وَأَوْدَعَهَا ذُلَّ
الْمُظْلُومِينَ وَلِكُلِّ ذَلِكَ مِقْدَارٌ مِنَ الشُّغْلِ وَلِكُلِّ شُغْلٍ مِقْدَارٌ مِنَ
الْوَهْنِ وَلِكُلِّ وَهْنٍ مِقْدَارٌ مِنَ الْجَهْلِ

فَقَوْلُهُ : (أَوَّلُ الْبَلَاغَةِ اجْتِمَاعُ آتَةِ الْبَلَاغَةِ) أَيِ أَوَّلِ آتَاتِ الْبَلَاغَةِ جُودَةُ
الْقَرِيحَةِ وَطَلَاوَةُ اللِّسَانِ وَذَلِكَ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَقْدِرُ الْعَبْدُ عَلَى
اِسْتِثَابِهِ لِنَفْسِهِ وَاجْتِلَابِهِ لَهَا . وَمِنْ النَّاسِ مَنْ إِذَا خَلَا بِنَفْسِهِ وَأَعْمَلَ
فِكْرَهُ آتَى بِالْبَيَانِ الْعَجِيبِ وَالْكَلَامِ الْبَدِيعِ الْمُصِيبِ وَأَسْتَحْجَجَ
الْمَعْنَى الرَّائِقَ وَجَاءَ بِاللَّفْظِ الرَّائِعِ . وَإِذَا حَاوَرَ وَنَظَرَ قَصَرَ وَتَأَخَّرَ
فَحَقُّ هَذَا أَنْ لَا يَتَعَرَّضَ لِارْتِجَالِ الْخُطْبِ وَلَا يُجَارِي أَصْحَابَ
الْبَدَايَةِ فِي مَسَدَانِ الْقَرِيضِ وَيَكْتَفِي بِتَنَاجُجِ فِكْرِهِ وَالنَّاسُ فِي

(١) و يروى على جهة الاعتراض (٢) وفي نسخة الاستطراف والسطرف

(٣) و يروى في اقدار

صِنَاعَةُ الْكَلَامِ عَلَى طَبَقَاتٍ مِنْهُمْ مَنْ إِذَا حَاوَرَ وَنَظَرَ أَبْلَغَ وَأَجَادَ
وَإِذَا كَتَبَ وَأَمْلَى أَخْلَ وَتَحَلَّفَ . وَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا أَمْلَى بَرَزَ وَإِذَا
حَاوَرَ وَكَتَبَ قَصَرَ . وَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا كَتَبَ أَحْسَنَ وَإِذَا حَاوَرَ وَأَمْلَى
أَسَاءَ . وَمِنْهُمْ مَنْ يُحْسِنُ فِي جَمِيعِ هَذِهِ الْحَالَاتِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُسِيءُ
فِيهَا كُلِّهَا فَأَحْسَنُ حَالَاتِ الْمُسِيءِ الْأَمْسَاكُ وَأَحْسَنُ حَالَاتِ الْحَسَنِ
الَّتَوْسُطُ فَإِنَّ الْإِسْثَارَ يُورِثُ الْإِمْلَالَ وَقَلَّ مَا يَتَجَوَّضُ صَاحِبُهُ مِنْ
الزَّلَلِ وَالْعَيْبِ وَالْخَطْلِ . وَلَيْسَ يَتَّبِعِي لِلْحَسَنِ فِي أَحَدِ هَذِهِ الْفُنُونِ
الْمُسِيءُ فِي غَيْرِهِ أَنْ يَتَجَاوَزَ مَا هُوَ مُحْسِنٌ فِيهِ إِلَى مَا هُوَ مُسِيءٌ فِيهِ
فَإِنْ اضْطَرَّ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ إِلَى تَجَاوُزِهِ فَخَيْرُ سُبُلِهِ فِيهِ قَصْدُ
الِاخْتِصَارِ وَتَجَنُّبُ الْإِسْثَارِ وَالْإِهْذَارِ لِيَقْلَّ السَّقْطُ فِي كَلَامِهِ وَلَا
يَكْثُرَ الْعَيْبُ فِي مَنْطِقِهِ . وَقِيلَ لِابْنِ الْمُقَفَّعِ لِمَ لَا تُطِيلُ الْقَصَائِدَ .
قَالَ : لَوْ أَطْلَيْتَهَا عُرِفَ صَاحِبُهَا . يُرِيدُ أَنْ السُّحْدَ يَنْشَبُ بِالْقَدِيمِ فِي
الْقَلِيلِ مِنَ الْكَلَامِ فَإِذَا طَالَ اخْتَلَّ فَعُرِفَ أَنَّهُ كَلَامٌ مَوْلُودٌ عَلَى
أَنَّ السَّابِقَ فِي مِيَادِينِ الْبَلَاغَةِ إِذَا كَثُرَ سَقَطَ فَكَيْفَ الْمُقَصِّرُ عَنْ
غَايَتِهَا وَاسْتَحْلَفُ عَنْ أَمْدِهَا . وَمِنْ تَمَامِ آلَاتِ الْبَلَاغَةِ التَّوَسُّعُ فِي
مَعْرِفَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَوُجُوهِ الْأَسْتِعْمَالِ لَهَا وَالْعِلْمُ بِفَاخِرِ الْأَلْفَاظِ
وَسَاقِطِهَا وَمُتَخَيِّرِهَا وَرَدِّدِهَا وَمَعْرِفَةُ الْمَقَامَاتِ وَمَا يَضِلُّ فِي كُلِّ وَاحِدٍ
مِنْهَا مِنَ الْكَلَامِ فِي غَيْرِ ذَلِكَ

وَقَوْلُهُ : (وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْخَطِيبُ رَاطِبُ الْجَلِيشِ سَاكِنِ النَّفْسِ)
هَذَا لِأَنَّ الْخَيْرَةَ وَالْدَّهْشَ يُورِثَانِ الْخُبْسَةَ وَالْحَصَرَ وَهُمَا سَبَبَا الْأَرْتَاكِجِ .

وَالْإِفْحَامَ . وَبَلَغَكَ مَا أَصَابَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ أَوَّلَ مَا صَعِدَ الْمِنْبَرَ
فَارْتَجَحَ عَلَيْهِ فَقَالَ : إِنَّ الَّذِينَ قَبْلِي كَانُوا يُعِدُّونَ لِهَذَا الْمَقَامِ مَقَالًا وَأَنْتُمْ
إِلَى إِمَامٍ عَادِلٍ أَخْرَجُ مِنْكُمْ إِلَى إِمَامٍ قَائِلٍ وَسَتَائِيكُمْ الْخُطْبَةُ
عَلَى وَجْهَيْهَا . وَصَعِدَ بَعْضُ الْعَرَبِ مِنْبَرًا بِحُرَّاسَانَ فَارْتَجَحَ عَلَيْهِ فَقَالَ
حِينَ تَزَلُ :

فَإِنْ لَمْ أَكُنْ فِيكُمْ خَطِيبًا فَإِنِّي بِسَيْفِي إِذَا جَدَّ الْوَعْدُ جَلِيبُ
وَمِنْ حُسْنِ الْإِعْتِدَارِ عِنْدَ الْإِرْتَجَاحِ مَا أَخْبَرَنَا أَبُو أَحْمَدَ عَنْ دَاوُدَ بْنِ
عَلِيٍّ قَالَ : فَلَمَّا قَالَ (أَمَّا بَعْدُ) أَمْتَعَ عَلَيْهِ الْكَلَامُ ثُمَّ قَالَ : أَمَّا بَعْدُ
فَقَدْ نَجِدُ الْمُعْسِرَ وَيُعْسِرُ الْمُوسِرُ وَيَقْلُ الْحَدِيدُ وَيَقْطَعُ الْكَلِيلُ . وَإِنَّمَا
الْكَلَامُ بَعْدَ الْإِفْحَامِ كَأَنَّهُ لَشِرَاقٌ بَعْدَ الظَّلَامِ وَقَدْ يَغْرِبُ الْبَيَانُ وَيَعْتَقِمُ
الصَّوَابُ وَإِنَّمَا اللِّسَانُ مُضْغَةٌ مِنَ الْإِنْسَانِ يَفْسُرُ بِفُتُورِهِ (١) إِذَا
تَكَلَّمَ وَيُثَوِّبُ بِأَنْبَاطِهِ إِذَا أُرْتَجَلَ . آلا وَإِنَّا لَا نَنْطِقُ بِطَرَاوِلٍ لَا نَسْكُتُ
حَصْرًا بَلْ نَسْكُتُ مُعْتَسِرِينَ وَنَنْطِقُ مُرْشِدِينَ . وَتَحْنُ بَعْدَ ذَلِكَ
أُمَرَاءُ الْقَوْلِ فِينَا وَشَجَّتْ أَعْرَاقُهُ وَعَلَيْنَا شُطِيفَتُ أَغْصَانِهِ وَلَكِنَّا تَهَدَّلَتْ
فَرْشُهُ فَتَتَحَيَّرُ مِنْهُ مَا أَهْلَوْلَى وَعَذَبَ وَنَطْرَحُ مِنْهُ مَا أَتَمْلُوحَ وَخَبُثَ .
وَمِنْ بَعْدِ مُقَاوَنَاتِنَا هَذَا نُقَامُ وَمِنْ بَعْدِ أَيَّامِنَا أَيَّامٌ . وَعَلَامَةُ سُكُونِ
نَفْسِ الْخَطِيبِ وَرَبَاطَةِ جَانِبِهِ هُدُوهُ فِي كَلَامِهِ وَتَهْلُهُ فِي مَنْطِقِهِ .
قَالَ ثُمَامَةُ : كَانَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى جَانِبُهُ هُدُوهُ فِي كَلَامِهِ وَتَهْلُهُ فِي
مَنْطِقِهِ . وَقَالَ ثُمَامَةُ : كَانَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى أَنْطَقَ النَّاسَ قَدْ جَمَعَ الْهُدُوَّ

وَالسَّهْلَ وَالْجَزَالَ وَالْحَلَاوَةَ وَلَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ نَاطِقٌ يَسْتَعْنِي عَنْ
الْإِشَارَةِ لَكَانَهُ

وَقَوْلُهُ : (مُتَّخِيزٌ أَلَا لِفَاطِظٍ) فَلِأَنَّ مَدَارَ الْبَلَاغَةِ عَلَى تَخْيِيرِ اللَّفْظِ
وَتَخْيِيرِهِ أَضْعَبُ مِنْ جَمْعِهِ وَتَأْلِيْفِهِ. وَقَوْلُهُ : (وَيَكُونُ فِي قَوْلِهِ فَضْلٌ
الْتَّصَرُّفِ فِي كُلِّ طَبَقَةٍ) وَهُوَ أَنْ يَكُونَ صَانِعُ الْكَلَامِ قَادِرًا عَلَى
جَمِيعِ ضُرُوبِهِ مُتَمَسِّكًا مِنْ جَمِيعِ فُنُونِهِ لَا يَغْتَاصُ عَلَيْهِ قِسْمٌ مِنْ
أَقْسَامِهِ فَإِنْ كَانَ شَاعِرًا تَصَرَّفَ فِي وَجُوهِ الشِّعْرِ مَدِيحِهِ وَهَجَائِهِ
وَمَرَاثِيهِ وَعِصْفَاتِهِ وَمَمَاجِرِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَصْنَافِهِ. وَلِاخْتِلَافِ قُوَى
النَّاسِ فِي الشِّعْرِ وَفُنُونِهِ مَا قِيلَ : كَانَ أَمْرُهُ الْقَيْسِ أَشْعَرَ النَّاسِ إِذَا
رَكِبَ وَالنَّابِغَةُ إِذَا رَهَبَ وَزُهَيْرٌ إِذَا رَغِبَ وَالْأَعَشَى إِذَا طَرِبَ .
وَكَذَلِكَ الْكَاتِبُ رُبَّمَا تَقَدَّمَ فِي ضَرْبٍ مِنَ الْكِتَابَةِ وَتَأَخَّرَ فِي غَيْرِهِ
وَسَهَّلَ عَلَيْهِ نَوْعٌ مِنْهَا وَعَسَرَ نَوْعٌ آخَرُ وَاخْبَرَ أَحْمَدُ بْنُ يُونُسَ
قَالَ : أَمَرَنِي الْمَأْمُونُ أَنْ أَكْتُبَ إِلَى النَّوَاحِي فِي الْأَسْتِكْثَارِ مِنَ
الْقَنَادِيلِ فِي الْمَسَاجِدِ . فَبِتُ لَا أَذْرِي كَيْفَ أَحْتَذِي فَأَتَانِي آتٍ فِي
مَنَامِي فَقَالَ : قُلْ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ عِمَارَةَ الْمَسَاجِدِ وَأُنْسًا لِلسَّابِقَةِ
وَإِذَاءَةً لِلْمُتَّخِيزِينَ وَنَفْيًا لِمَكَائِنِ الرِّيبِ وَتَنْزِيهًا لِبُيُوتِ اللَّهِ حَلًّا
وَعَزًّا مِنْ وَحْشَةِ الظُّلَمِ . فَأَنْتَبَهْتُ وَقَدْ انْفَتَحَ لِي مَا أُرِيدُ فَأَتَدَاتُ
بِهَذَا وَأَتَمَّتْ عَلَيْهِ. وَالْمَقْدَمُ فِي صِنْعَةِ الْكَلَامِ هُوَ الْمُسْتَوَلِي عَلَيْهِ مِنْ
جَمِيعِ جِهَاتِهِ الَّتِي تَمَسْكُنُ مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِهِ وَبِهَذَا فَضَّأُوا جَرِيرًا عَلَى
الْفَرَزْدَقِ وَقَالُوا : كَانَ لَهُ فِي الشِّعْرِ ضُرُوبٌ لَا يَعْرِفُهَا الْفَرَزْدَقُ . وَسُئِلَ

بَعْضُهُمْ عَنْ أَبِي نُوَّاسٍ وَمُسْلِمٍ قَدْ ذَكَرَ أَنَّ أَبَا نُوَّاسٍ أَشْعَرُ لِيَتَصَرَّفَهُ فِي
وُجُوهِ الشَّعْرِ وَكَثْرَتِهِ مَذَاهِبُهُ فِيهِ. (قَالَ) وَمُسْلِمٌ جَارٍ عَلَى وَتِيرَةٍ لَا
يَتَغَيَّرُ عَنْهَا. وَابْلَغُ مِنْ هَذِهِ الْمَثَلَةِ أَنْ يَتَفَنَّ صَانِعُ الْكَلَامِ فِي قَوْلِهِ
أَيُّ يَأْتِي مَرَّةً بِالْجَزْلِ وَأُخْرَى بِالسَّهْلِ فَيَلِينُ إِذَا شَاءَ وَيَشْتَدُّ إِذَا
أَرَادَ. وَمِنْ هَذَا الْوَجْهِ فَضَّلُوا جَرِيرًا عَلَى الْفَرَزْدَقِ وَأَبَا نُوَّاسٍ عَلَى
مُسْلِمٍ . . .

وَقَوْلُهُ: (وَلَا يُكَلِّمُ سَيِّدَ الْأُمَّةِ بِكَلَامِ الْأُمَّةِ وَلَا الْمُلُوكَ
بِكَلَامِ السُّوقَةِ) لِأَنَّ ذَلِكَ جَهْلٌ بِالْمَقَامَاتِ وَمَا يَضُحُّ فِي كُلِّ وَاحِدٍ
مِنْهَا مِنَ الْكَلَامِ. وَقَدْ أَحْسَنَ الَّذِي قَالَ: بِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ.
وَرُبَّمَا غَلَبَ سُوءُ الرَّأْيِ وَقِلَّةُ الْعَقْلِ عَلَى بَعْضِ عُلَمَاءِ الْعَرَبِيَّةِ فَيُجَاوِزُونَ
السُّوقِيَّ وَالْمَلَاوِكَ الْأَعْجَمِيَّ بِالْفَاطِظِ أَهْلِ نَجْدٍ وَمَعَانِي أَهْلِ السَّرَاةِ.
كَأَبِي عَلْقَمَةَ إِذْ قَالَ لِحُجَّامِهِ: أَشَدُّ لِقَصَبِ الْمَلَّازِمِ وَأَرْهَفُ دُبَابِ
الْمَشَارِطِ وَأَمِيرُ السِّنَحِ وَأَسْخَلُ الرِّشَحِ وَخَفِيفُ الْوَطْءِ وَتَحْجِلُ الدَّرْعِ
وَلَا تُكْرِهَنَّ آيَاءُ وَلَا تَمْنَعَنَّ آيَاتُ. فَقَالَ لَهُ الْحُجَّامُ: لَيْسَ لِي عِلْمٌ
بِالْحُرُوبِ. وَآخَرُ أَبُو الْمَغَازِلِ الضَّنْبِيُّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كَانَ لَنَا جَارٌ
بِالْمُكُوفَةِ لَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا بِالْغَرِيبِ فَخَرَجَ إِلَى ضَيْعَةٍ لَهُ عَلَى حِجْرِ مَعَهَا
مَرْءٌ. فَأَفْلَتَتْ فَذَهَبَتْ وَمَعَهَا مَرْءُهَا فَخَرَجَ يَسْأَلُ عَنْهَا فَرَّ بِحَيَاطٍ
فَقَالَ: يَا ذَا النَّصَاحِ وَذَاتِ السُّمِّ الطَّاعِنَ بِهَا فِي غَيْرِ وَغَى لِعَلِّهِ عَدَى
هَلْ رَأَيْتَ الْخَيْفَانَةَ الْقَبَاءَ يَتَّبِعُهَا الْحَاسِنُ الْمُسْرَهْفُ (١) كَانَ

غُرَّتْهُ الْقَمَرُ الْأَذْهَرُ يُنِيرُ فِي حُضْرِهِ كَالْخَلْبِ الْأَجْرَدِ (١) . فَقَالَ
 الْحَيَّاطُ أَظْلَمَ فِي بَرٍّ لَخْلَجٍ (٢) . فَقَالَ : وَيْلَكَ وَمَا تَقُولُ قَتَبَكَ اللَّهُ
 فَمَا أَعْلَمُ رَطَانَتَكَ . فَقَالَ : لَعَنَ اللَّهُ أَبْغَضَنَا لَفْظًا وَأَخْطَانَا مَنْطِقًا
 وَقَوْلُهُ : (وَلَا يُدَقِّقُ الْمَعَانِي كُلَّ التَّدْقِيقِ) قَالَ أَبُو هِلَالٍ : لِأَنَّ
 الْغَايَةَ فِي تَدْقِيقِ الْمَعْنَى سَبِيلٌ إِلَى تَعْيِينِهِ وَتَعْيِينُ الْمَعْنَى لَكُنْهٌ إِلَّا
 إِذَا أُريدَ بِهِ الْأَلْفَاظُ وَكَانَ فِي تَعْيِينِهِ قَائِدَةٌ وَمِثْلُ اثْبَاتِ (٣)
 الْمَعَانِي وَمَا يَجْرِي مَعَهَا مِنَ اللَّحُونِ الَّتِي اسْتَعْمَلُوهَا وَكَنُوا بِهَا عَنِ الْمُرَادِ
 لِبَعْضِ الْغَرَضِ . فَأَمَّا مَنْ أَرَادَ الْإِبَانَةَ فِي تَدْيِجٍ أَوْ صِفَةِ شَيْءٍ
 فَأَتَى بِإِغْلَاقٍ دَلَّ عَلَى عَجْزِهِ فِي الْإِبَانَةِ وَقُصُورِهِ عَنِ الْإِفْصَاحِ .
 وَقَوْلُهُ : (وَلَا يُنْقِجُ الْأَلْفَاظَ كُلَّ التَّنْقِيجِ) فَتَنْقِجُ اللَّفْظُ أَنْ
 يُبْنَى مِنْهُ بِنَاءٌ لَا يَكْثُرُ فِي الْأَسْتِعْمَالِ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ
 الْوَرْدَاءُ : أَحْسَنَ اللَّهُ إِبَانَتَكَ . فَقَالَ لَهُ الْوَزِيرُ : عَجَلَ اللَّهُ إِمَاتَتَكَ .
 وَيَدْخُلُ فِي تَنْقِيجِ اللَّفْظِ اسْتِعْمَالُ وَحْشِيَّتِهِ وَتَرْكُ سَلِسِهِ . وَقَدْ أَخَذَ
 الرُّوَاةُ عَلَى زُهَيْرٍ قَوْلَهُ :

تَقِيُّ نَقِيٍّ لَمْ يُكْثِرْ غَنِيمَةً بِنَهْكَةٍ ذِي الْقُرْبَى وَلَا بِحَقْلَدٍ
 فَاسْتَبَشَعُوا (أَحْقَلَدَ) وَهُوَ السَّيِّئُ الْخُلُقِ وَقَالُوا : لَيْسَ فِي لَفْظِ زُهَيْرٍ
 أَنْكَرٌ مِنْهُ . قَالَ أَبُو عُثْمَانَ : رَأَيْتُهُمْ يَرِيدُونَ فِي كُتُبِهِمْ هَذَا الْكَلَامَ
 فَإِنْ كَانُوا إِثْمًا رَوَوْهُ وَدَوَّنُوهُ لِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى فَصَاحَةٍ وَبَلَاغَةٍ فَقَدْ

(١) وفي رواية : ينير في خضره كالخلب الآخر (٢) وبيروى : في غمر بلخ

(٣) وفي رواية : آيات المعاني

بَاعَدَهُ اللَّهُ مِنْ صِفَةِ الْبَلَاغَةِ وَالْفَصَاحَةِ. وَإِنْ كَانُوا فَعَلُوا ذَلِكَ لِأَنَّهُ غَرِيبٌ فَأَيَّاتٌ مِنْ شِعْرِ الْحَجَّاجِ وَالطَّرِمَاحِ وَأَشْعَارِ هُذَيْلٍ يَأْتِي لَهُمْ مَعَ الرَّصْفِ الْحَسَنِ عَلَى أَكْثَرِ مِنْ ذَلِكَ. وَلَوْ خَاطَبْتُ الْأَصَمِيَّ بِمِثْلِ هَذَا الْكَلَامِ لَظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيَجْهَلُ بَعْضُهُ وَهَذَا خَارِجٌ عَنْ عَادَةِ الْبُلْغَاءِ

وَقَوْلُهُ: (وَيُصَفِّيَا كُلَّ التَّصْفِيَةِ وَيُهْذِبِيَا كُلَّ التَّهْذِيبِ) فَتَصْفِيَّتُهُ تَقْرِئُهُ مِنَ الْوَحْشِيِّ وَتَنْفِي الشَّوَاعِلِ عَنْهُ وَتَهْذِيبُهُ وَتَبْرِئُهُ مِنَ الرَّدِيِّ الْمُرْذُولِ وَالسُّوْقِيِّ الْمُرْدُودِ فَمِنْ الْكَلَامِ الْمُهْذَبِ قَوْلُ بَعْضِ الْكُتَّابِ: مِثْلُكَ أَوْجَبَ حَقًّا لَا يَجِبُ عَلَيْهِ وَتَسْمَحُ بِحَقِّ يَجِبُ لَهُ وَقِيلَ وَاصِحَ الْعَذْرِ وَأَسْتَكْثَرَ قَلِيلَ الشُّكْرِ لَا زَالَتْ آيَادُكَ فَوْقَ شُكْرِ أَوْلِيَائِكَ وَنِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ فَوْقَ آمَالِهِمْ فِيكَ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ آخَرٍ: مَا أَنْتَ بِإِلَى غَايَةٍ مِنْ شُكْرِكَ إِلَّا وَجَدْتُ وَرَاءَهَا حَادِثًا مِنْ بَرَكَ فَلَا زَالَتْ آيَادُكَ مَمْدُودَةٌ بَيْنَ أَمَلٍ لَكَ تَبْلُغُهُ وَأَمَلٍ فِيكَ تَحْقِيقُهُ حَتَّى تَتَمَلَّى مِنَ الْأَعْمَارِ أَطْوَلَهَا وَتَتَالَ مِنْ الدَّرَجَاتِ أَفْضَلَهَا. وَقَوْلُ أَحْمَدَ بْنِ يُوسُفَ: يَوْمَئِذٍ لَيْنُ الْحَوَائِثِ وَطَيُّ النَّوَاجِي وَهَذِهِ مِمَّا قَدْ تَهَالَتْ بِوَدْقِهَا وَضَحِكَتْ إِبَاعِيسُ غَيْبِهَا وَلَامِعَ بَرَقِهَا وَأَنْتَ قُطْبُ السُّرُورِ وَنِظَامُ الْأُمُورِ فَلَا تَغِبْ عَنَّا فَعِلْ (١) وَلَا تُفْرِدْنَا (٢) فَتَسْتَوْحِشَ فَإِنَّ الْحَبِيبَ بِجَبِّهِ كَثِيرٌ وَبِمُسَاعَدَتِهِ جَدِيرٌ وَقَوْلُهُ: (وَلَا تَفْعَلْ ذَلِكَ حَتَّى تُصَادَفَ حَكِيمًا وَفِيلْسُوفًا عَظِيمًا وَمَنْ

(١) فِي رَوَايَةٍ: فَتَقِلْ (٢) وَيُرْوَى: وَلَا تُفْرِدْ عَنَّا

تَعَوَّدَ حَذْفَ فُضُولِ الْكَلَامِ وَمُشْتَرَكَاتِ الْأَلْفَاظِ وَمَنْ نَظَرَ فِي
الْمَنْطِقِ عَلَى جِهَةِ الصَّنَاعَةِ فِيهَا لَا عَلَى جِهَةِ الْأَسْطُرَافِ وَالْأَسْطُرُفِ
لَهَا، فَقَوْلُ يَنْبَغِي أَنْ يَتَكَلَّمَ بِفَاخِرِ الْكَلَامِ وَتَادِيرِهِ وَرَصِيدِهِ
وَمُخَكَّرِهِ عِنْدَ مَنْ يَفْهَمُهُ عَنْهُ وَيَقْبَلُهُ مِنْهُ يَمِّنُ عَرَفَ الْمَعَانِي
وَالْأَلْفَاظِ عِلْمًا شَافِيًا لِنَظَرِهِ فِي اللُّغَةِ وَالْأَعْرَابِ وَالْمَعَانِي عَلَى جِهَةِ
الصَّنَاعَةِ لَا كَمَنْ أَسْطُرَفَ شَيْئًا مِنْهَا نَظَرَ فِيهِ نَظْرًا غَيْرَ كَامِلٍ أَوْ
أَخَذَ مِنْ أَطْرَافِهِ وَتَنَاولَ مِنْ أَطْرَافِهِ فَحَلَّى بِأَسْبِهِ وَخَلَا مِنْ وَسْبِهِ
فَإِذَا سَمِعَ لَمْ يَفْقَهُ وَإِذَا سُئِلَ لَمْ يَنْقُ وَإِذَا تَكَلَّمَ عِنْدَ مَنْ هَذِهِ
صِفَتُهُ ذَهَبَتْ فَائِدَةُ كَلَامِهِ وَشَاعَتْ مَنَفَعَةُ مَنْطِقِهِ. لِأَنَّ الْعَامِّيَّ
إِذَا كَلَّمْتَهُ بِكَلَامِ الْعُلِيَّةِ سَخِرَ مِنْكَ وَزَرَى عَلَيْكَ. كَمَا رَوَى عَنْ
بَعْضِهِمْ أَنَّهُ قَالَ لِبَعْضِ الْعَامَّةِ: يَمَّ كُنْتُمْ تَنْتَقِبُونَ الْبَارِحَةَ
(يَعْنِي عَلَى النَّبِيِّ). فَقَالَ: بِالْحَمَالِينَ. وَلَوْ قَالَ لَهُ: (أَيْشُ كَانَ
نَقْلَكُمْ) لَسَلِمَ مِنْ سَخَرِيَّتِهِ. فَيَنْبَغِي أَنْ يُخَاطَبَ كُلُّ فَرِيقٍ بِمَا يَعْرِفُونَ
وَيَتَجَنَّبَ مَا يَجْهَلُونَ

وَأَمَّا قَوْلُهُ: (مَنْ تَعَوَّدَ حَذْفَ فُضُولِ الْكَلَامِ الْخ) هُوَ أَنْ
يُنْقِطَ مِنَ الْكَلَامِ مَا يَكُونُ الْكَلَامُ مَعَ اسْقَاطِهِ تَامًا غَيْرَ
مَنْقُوصٍ وَلَا يَكُونُ فِي زِيَادَتِهِ فَائِدَةٌ. وَذَلِكَ وَمِثْلُ مَا رَوَى عَنْ
مُعَاوِيَةَ أَنَّهُ قَالَ لِصُحَّارِ الْعَبْدِيِّ: مَا الْبَلَاغَةُ فَقَالَ: أَنْ تَقُولَ فَلَا
تُخْطِئْ، وَتُسْرِعَ فَلَا تُبْطِئْ. ثُمَّ قَالَ: أَقْلَانِي هَوَانٌ (لَا تُخْطِئْ، وَلَا
تُبْطِئْ). فَالْقَى اللَّفْظَيْنِ لِأَنَّ فِي الْأَوَّلِيِّ أَبْقَى غَنَى عَنْهُمَا وَعِوَضًا مِنْهُمَا.

فَأَمَّا إِذَا كَانَ فِي زِيَادَةِ الْأَلْفَاظِ قَائِدَةٌ فَذَلِكَ مَحْمُودٌ وَهُوَ مِنْ بَابِ
التَّذْيِيلِ. وَقَوْلُهُ: (وَمُشْتَرَكَاتِ الْأَلْفَاظِ) قَوْوَانٌ أَنْ يُرِيدَ الْإِبَانَةَ
عَنْ مَعْنَى فَيَأْتِي بِالْأَلْفَاظِ لَا تَدُلُّ عَلَيْهِ خَاصَّةً بَلْ يَشْتَرِكُ مَعَهُ مَعَانٍ
أُخَرُ فَلَا يَعْرِفُ السَّامِعُ أَيُّهَا أَرَادَ. وَرَبَّمَا أَسْتَبْهَمَ الْكَلَامَ فِي نَوْعٍ
مِنْ هَذَا الْجِنْسِ حَتَّى لَا يُوقِفَ عَلَى مَعْنَاهُ إِلَّا بِالشَّوْهِهِمْ. فَمِنْ الْجِنْسِ
الْأَوَّلِ قَوْلُ جَرِيرٍ:

لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ آخِرَ عَهْدِكُمْ يَوْمَ الرَّحِيلِ فَعَلْتُ مَا لَمْ أَفْعَلْ
فَوَجَّهَ الْأَشْتِرَالِكُ فِي هَذَا أَنَّ السَّامِعَ لَا يَدْرِي إِلَى أَيِّ شَيْءٍ
أَشَارَ مِنْ أَفْعَالِهِ فِي قَوْلِهِ (فَعَلْتُ مَا لَمْ أَفْعَلْ) أَرَادَ أَنْ يَبْكِيَ
إِذَا رَحَلُوا أَوْ يَهْمَ عَلَى وَجْهِهِ مِنَ الْفَمِّ الَّذِي لِحْقَهُ أَوْ يَبْعُوهُمْ فِي
الْمُضِيِّ عَلَى عِزْمَةِ الرَّحِيلِ أَوْ يَأْخُذَ مِنْهُمْ شَيْئًا يَتَذَكَّرُهُمْ بِهِ أَوْ يَدْفَعُ
إِلَيْهِمْ شَيْئًا يَذْكُرُونَهُ بِهِ أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَحْوِزُ أَنْ يَفْعَلَهُ الْخَلِيلُ عِنْدَ
فِرَاقِ أَحَبِّتِهِ. فَلَمْ يُبَيِّنْ عَنْ غَرَضِهِ وَأَخْوَجَ إِلَى أَنْ يَسْأَلَهُ عَمَّا أَرَادَ
فِعْلُهُ عِنْدَ رَحِيلِهِمْ. وَلَيْسَ هَذَا كَقَوْلِهِمْ: (لَوْ رَأَيْتَ عَلِيًّا بَيْنَ الدَّعَيْنِ).
لِأَنَّ دَلِيلَ الْإِسْأَلِ وَالْإِسْكَائِيَةِ فِي هَذَا الْكَلَامِ بَيِّنٌ وَأَمَارَةٌ
النُّقْصَانِ فِي بَيْتِ جَرِيرٍ وَاضِحَةٌ فَمَنْ يَسْمَعُهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ
الْبَلَاغَةِ يَسْتَبْرِدُهُ وَيَسْتَعِثُّهُ وَيَسْتَرْجِعُ الْآخَرَ وَيَسْتَحْيِدُهُ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ
سَعِيدِ بْنِ مَالِكٍ الْأَزْدِيِّ:

وَأَنَّكَ لَوْ لَاقَيْتَ سَعْدَ بْنَ مَالِكٍ لَلَّاقَيْتَ مِنْهُ بَعْضَ مَا كَانَ يَفْعَلُ
فَلَمْ يُبَيِّنْ عَمَّا أَرَادَ بِقَوْلِهِ: (لَلَّاقَيْتَ) أَحْيَا أَرَادَ أَمْ شَرًّا إِلَّا

أَنْ تَسْمَعَ مَا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ فَيَتَّبِعَنَّ مَعْنَاهُ وَأَمَّا فِي نَفْسِ أَلَيْتِ
فَلَا يَتَّبِعَنَّ مَعْرَاهُ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ :

وَقُمْنَا فَقُلْنَا بَعْدَ أَنْ أُودِعَ الثَّرَى بِهِ مَا يُقَالُ فِي السَّحَابَةِ تُقَامُ
قَوْلُ النَّاسِ فِي السَّحَابِ إِذَا انْتَلَعَ عَلَى وُجُوهِ فَفَنَّهُمْ مَنْ يَمْدَحُهُ
وَمِنْهُمْ مَنْ يَذُمُّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ حُبُّ انْتِلَاعِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَكْرَهُ انْتِلَاعَهُ
عَلَى حَسَبِ مَا كَانَتْ حَالَاتُهَا عِنْدَهُمْ وَمَوَاقِعُهَا مِنْهُمْ فَلَمْ يُبَيِّنْ
بِقَوْلِهِ مَعْنَى يَعْتمِدُهُ السَّامِعُ. عَلَى أَنَّ الْمُخْتَجَّ لَهُ لَوْ قَالَ : إِنَّ أَكْثَرَ
الْعَادَةِ فِي السَّحَابِ أَنْ يُحْمَدَ آثَرُهُ وَيُثْنَى عَلَيْهِ بَعْدَهُ لَمَّا كَانَ ذَمُّدَاهُ.
وَلَمْ أُرِدْ عَيْبَ أَبِي تَمَّامٍ بَلَا قُلْتُ وَأَنَا أَرَدْتُ الْإِخْبَارَ عَنْ وُجُوهِ
الْإِشْتِرَاكِ وَذِكْرِ مَا يَتَشَعَّبُ مِنْهُ وَمَا يَقْرُبُ مِنْ كَابِهِ وَيَنْظُرُ إِلَيْهِ
مِنْ قَرِيبٍ أَوْ بَعِيدٍ. وَمِنْ اللَّفْظِ الْمُشْتَرَكِ قَوْلُ أَبِي نُوَّاسٍ :

وَخَبْنُ مَا يُخْبَنُ مِنْ آخِرٍ مِنْهُ وَالطَّائِنِ آمَهَارُ (١)

الْأَمَهَارُ هَاهُنَا جَمْعُ مَهْرٍ وَنَ قَوْلِهِمْ : مَهْرٌ يَمُورُ مَهْرًا. وَالْمَصَادِرُ لَا
تَجْتَمِعُ وَلَا يَشْكُ سَامِعُ هَذَا الْكَلَامِ أَنَّهُ يُرِيدُ جَمْعَ مَهْرٍ فَيُشْكِلُ
الْمَعْنَى عَلَيْهِ. وَخَطَبَ نَعَضُ الْمُسْكَاكِينَ فَقَالَ فِي صِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى :
لَا يُقَاسُ بِأَقْيَاسٍ وَلَا يُدْرَكُ بِأَلْسِنٍ. أَرَادَ جَمْعَ لِمَسِّ فَانْعَابِ
السَّجْعِ وَأَخْطَأَ الْمَعْنَى. وَأَمَّا مَا بَيَّنَّاهُمْ فَلَا يُعْرَفُ مَعْنَاهُ إِلَّا بِالتَّوَهُّمِ. وَبِئْسَ
الْكَلَامُ الْخَالِي مِنْ الْأَشْتِمَالِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ لِأَخِي لَهُ أَرَادَ فِرَاقَهُ :

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِ وَفِي دِيوَانِ أَبِي نُوَّاسٍ :

وَخَبْنُ مَا يُخْبَنُ مِنْ بَعْدِهِ مِنْهُ وَالطَّائِنِ آمَهَارُ

لَمَّا تَصَفَّحْتُ أَخْلَاقَكَ فَوَجَدْتُهَا مُبَايِنَةً لِشَأْنِي زَانِغَةً عَنْ قَصْدِ
طَرِيقَتِي صَدَرَتْ عَلَيْهَا رِيَاضَةٌ لِنَفْسِي عَلَى الصَّبْرِ لِمَسَاوِي أَخْلَاقِ
الْمُعَاشِرِينَ وَلِهَذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْعُدْوَانِ فِي جَمِيعِ الْعَالَمِينَ. وَالَّذِي رَجَوْتُ
مِنْ مَرَّةٍ خِصَالِكَ بِمَا أَقَابَهَا بِهِ مِنَ التَّجَاوُزِ وَأَنْتَحَبُ عَنْ سُوءِ آثَارِهَا
أَذْيَالِ التَّنَاضِي. وَأَنْتَ مَعَ ذَلِكَ لَا تُقَوِّمُ أَعْوَجَاجَ مَذَاهِبِكَ وَلَا
يَعْطِفُ بِكَ الرَّأْيُ عَلَى رُشْدِكَ. فَلَمَّا فَتِنْتَ حِيلَتِي فِيكَ وَأَنْتَقَطَعْتُ
أَسْبَابَ أَمَلِي مِنْكَ وَرَأَيْتُ الدَّاءَ لَا يُزِيدُ عَلَى التَّعْهُدِ بِالِدَوَاءِ
إِلَّا فُسَادًا وَأَخْرَقَ عَلَى التَّرْقِيعِ إِلَّا اتِّسَاعًا قَدَّمْتُ أَلْيَاسَ مِنْكَ عَلَى
الرَّجَاءِ فِيكَ فَاحْتَسَبْتُ أَيَّامِي الْمَسَافَةِ فِي اسْتِصْلَاحِي لَكَ

وَقَوْلُهُ : (وَحَقُّ الْمَعْنَى أَنْ يَكُونَ لَهُ الْأَسْمُ طَبَقًا) أَيِ
يَكُونَ الْأَسْمُ طَبَقًا لِلْفِظِ بِقَدْرِ الْمَعْنَى غَيْرَ زَائِدٍ عَلَيْهِ وَلَا نَاقِصٍ
عَنْهُ فَكَانَ كَالطَّبَقِ عَلَى الْإِنَاءِ لَا يَنْقُصُ مِنْهُ شَيْءٌ

وَقَوْلُهُ : (وَلَا يَكُونَ الْأَسْمُ فَاضِلًا وَلَا مُقْصِرًا) فَهَذَا دَاخِلٌ فِي
الْأَوَّلِ مِنْ قَوْلِهِ : وَحَقُّ الْمَعْنَى أَنْ يَكُونَ لَهُ الْأَسْمُ طَبَقًا . وَمِثَالُ
الْفَاضِلِ مِنَ اللَّفْظِ عَنِ الْمَعْنَى قَوْلُ عُرْوَةَ بْنِ أَذْيَنَةَ :

وَأَسْقِ الْعَدُوَّ بِكَأْسِهِ وَأَعْلَمْ لَهُ بِالْغَيْبِ أَنْ قَدْ كَانَ قَبْلُ سَقَاكُمَا
وَأَجْزِ الْكَرَامَةَ مَنْ تَرَى أَنْ لَوْ لَهُ يَوْمًا بَذَلْتَ كَرَامَةً لِحَزَاكُمَا

وَمَعْنَى هَذَا الْكَلَامِ مَحْضُورٌ تَحْتَ ثَلَاثِ كَلِمَاتٍ : إِنْجِزْ كَلَامًا
بِفِعْلِهِ . وَكَانَ السُّكُوتُ إِعْرُوزَةً خَيْرًا مِنْهُ . وَمِنْ الْكَلَامِ الْفَاضِلِ
عَنْ مَعْنَاهُ قَوْلُ أَبِي الْعِيَالِ الْهَذَلِيِّ .

ذَكَرْتُ أَخِي فَعَاوَدَنِي صُدَاعُ الرَّأْسِ وَالْوَصَبُ
 فَذَكَرُ الرَّأْسِ مَعَ الصَّدَاعِ فَضِلُّ
 وَالْمَقْصَرُ مِنَ الْكَلَامِ مَا لَا يُنْبِئُكَ بِمَعْنَاهُ عِنْدَ سَمَاعِكَ إِيَّاهُ
 وَيُخَوِّجُكَ إِلَى شَرْحِ كَبَيْتِ الْحَارِثِ بْنِ حِلْزَةَ :
 وَالْعَيْشُ خَيْرٌ فِي ظِلَالِ النُّوْلِ رَنَّ رَامَ كَدًّا
 وَقَوْلُهُ : (وَلَا مُضَمَّنًا) التَّضْيِينُ أَنْ يَكُونَ الْفَضْلُ الْأَوَّلُ
 مُفْتَقِرًا إِلَى الْفَضْلِ الثَّانِي وَالْبَيْتُ الْأَوَّلُ مُخْتِجًا إِلَى الْآخِرِ كَقَوْلِ
 الشَّاعِرِ :

كَانَ الْقَلْبَ لَبَّةً قِيلَ يُغْدَى بِلَيْلِي الْعَامِرِيَّةِ أَوْ يَرَاخُ
 نَظْمًا غَرَّهَا شَرْكَ فَبَاتَتْ تُجَادِبُهُ وَقَدْ عَلِقَ الْجَنَاحُ
 فَلَمْ يَتِمَّ الْمَعْنَى إِلَّا فِي الْبَيْتِ الثَّانِي وَهُوَ قَبِيحٌ . وَمِثَالُهُ مِنْ
 نَثْرِ الْكِتَابِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ : وَجَعَلَ سَيِّدَنَا آخِذَا مِنْ كُلِّ مَا دُعِيَ
 وَيُدْعَى بِهِ فِي الْأَعْيَادِ بِأَجْزَلِ الْأَقْسَامِ وَأَوْفَرِ الْأَعْدَادِ
 وَقَدْ تُسَمَّى اسْتِعَارَتُكَ الْأَنْصَافَ وَالْأَبْيَاتَ مِنْ شِعْرِ غَيْرِكَ
 وَإِدْخَالُكَ إِيَّاهُ فِي أَثْنَاءِ قَصِيدَتِكَ تَضْيِينًا . وَبَاقِي كَلَامِهِ
 يَتَضَمَّنُ صِفَةَ الْمُشْكَلِ لَا صِفَةَ الْكَلَامِ إِلَّا قَوْلُهُ : (وَيَكُونُ تَضْفِئُهُ
 لِمَوَارِدِهِ بِقَدْرِ تَضْفِئِهِ لِمَصَادِرِهِ) وَسَنَأْتِي عَلَى الْكَلَامِ فِي هَذَا
 وَنَسْتَقْصِيهِ فِي فَضْلِ الْمَقَاطِعِ وَالْمَبَادِي

البحث الثاني

في وسائل الاقتناع التي يتخذها الخطيب البليغ

(من تلخيص كتاب أرسطاطاليس في الخطابة لاس رشد)

أَمَّا الْأَشْيَاءُ الَّتِي تَفْعَلُ التَّصْدِيقَاتِ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ فَمِنْهَا مَا هِيَ صِنَاعِيَّةٌ وَتِلْكَ هِيَ الَّتِي وَجُودُهَا لِاخْتِيَارِنَا وَرَوَيْتِنَا وَنَحْنُ الْفَاعِلُونَ لَهَا. وَمِنْهَا مَا هِيَ غَيْرُ صِنَاعِيَّةٍ وَهِيَ الَّتِي لَيْسَ وَجُودُهَا لِاخْتِيَارِنَا وَرَوَيْتِنَا مِثْلُ الشُّهُودِ وَالْتَعْذِيبِ وَالْعُقُودِ وَمَا أَشَبَهُ ذَلِكَ. وَالْأَشْيَاءُ الصَّنَاعِيَّةُ الَّتِي نَحْنُ الْفَاعِلُونَ لَهَا مِنْهَا أَشْيَاءٌ قَدْ تَقَدَّمَ غَيْرُنَا فَصَنَعَهَا مِثْلُ الْإِخْتِجَاجِ بِالْأَمْنَالِ السَّائِرَةِ الَّتِي قَدْ وَضَعَتْ وَاشْتَهَرَتْ وَمِنْهَا مَا تَخْتَرِعُهَا نَحْنُ عِنْدَ الْقَوْلِ فِي الشَّيْءِ الَّذِي فِيهِ الْإِقْنَاعُ وَنَسْتَنْبِطُهَا. فَأَمَّا التَّصْدِيقَاتُ الَّتِي نَفْعُهَا نَحْنُ وَتَخْتَرِعُهَا فِيهِ ثَلَاثَةٌ أَنْوَاعٍ : (أَحَدُهَا) إِثْبَاتُ الْمَتَكَلِّمِ فَضِيلَةَ نَفْسِهِ الَّتِي يَكُونُ بِهَا أَهْلًا أَنْ يُصَدَّقَ وَأَنْ يَكُونَ عِنْدَ التَّكَلُّمِ بِهَيْئَةٍ فِي وَجْهِهِ وَأَعْضَائِهِ شَأْنًا أَنْ نُوَقِّعَ التَّصْدِيقَ بِالشَّيْءِ الْمَتَكَلِّمِ فِيهِ مِثْلُ التَّوَدِّعِ وَالْوَقَارِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَالْفَضِيلَةُ الَّتِي شَأْنُهَا هَذَا هِيَ الَّتِي يَعْنِي أَرِسْطُو بِالْكَفِيَّةِ. وَالْهَيْئَةُ الَّتِي شَأْنُهَا هَذَا هُوَ الَّذِي يَعْنِي بِالْسَمْتِ. وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لِلْفَضِيلَةِ تَأْثِيرًا فِي التَّصْدِيقِ أَنَّ الْحَالِحِينَ الْفَاضِلِينَ يُصَدِّقُونَ سَرِيعًا

دُونَ قَوْلٍ يَتَكَلَّفُونَهُ فِي الشَّيْءِ. وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ فِي الْأُمُورِ الظَّاهِرَةِ
لِحَسَنِ الَّتِي يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ أَحْسَوْهَا. مِثْلُ قَوْلِهِمْ: إِنَّهُ شَرِبَ أَوْ قَتَلَ.
فَأَمَّا إِخْبَارُهُمْ عَنِ الْأُمُورِ الْخَفِيَّةِ عِنْدَ الْحَسَنِ وَهِيَ الَّتِي يُظَنُّ أَنَّهُ خَفِيَ
عَنْهُمْ مَا أَحْسَوْا مِنْ ذَلِكَ أَوْ وَهَمُوا فِيهِ إِذَا كَانَ ذَلِكَ الشَّيْءُ
مُمْكِنًا أَنْ يَكُونَ فِيهِ الْحَسَنُ فَلَيْسَ يُتَدَقُّونَ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَدْعُونَهَا
فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ دُونَ أَنْ يَسْتَعْمِلُوا فِي تَثْبِيتِ ذَلِكَ الشَّيْءِ
الْقَوْلَ. وَعَلَيْهِ قَدْ أَخْطَأَ الَّذِينَ ذَكَرْنَا أَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا فِي الْخَطَابَةِ
فَذَهَبُوا إِلَى أَنَّ الْفَضِيلَةَ وَالْإِنَانَةَ إِنَّمَا هِيَ نَافِعَةٌ فِي بَابِ الْأَنْفِعَالِ
فَقَطْ. وَأَمَّا (الصَّنْفُ الثَّانِي مِنْ التَّضْدِيقَاتِ) فَهُوَ الصَّنْفُ الَّذِي
يَكُونُ بِأَنْ يَكْسِبَ السَّامِعُ بِالْقَوْلِ أَنْفِعَالًا مَا يُوجِبُ لَهُ التَّضْدِيقَ
بِالشَّيْءِ الَّذِي فِيهِ الْقَوْلُ. فَإِنَّهُ لَيْسَ تَضْدِيقُنَا بِالشَّيْءِ وَاقْرَارُنَا بِهِ
وَنَحْنُ فِي حَالِ الْفَرَحِ أَوْ الْحُزَنِ تَضْدِيقًا وَاحِدًا. وَكَذَلِكَ إِذَا كُنَّا
فِي حَالِ السُّخْطِ عَلَى الشَّيْءِ أَوْ حَالِ الرِّضَا عَنْهُ. وَهَذِهِ هِيَ الْأَشْيَاءُ
الَّتِي تَكَلَّمْنَا فِيهَا أَوْلَانَاكَ الَّذِينَ ذَكَرْنَا أَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا فِي هَذِهِ
الصِّنَافَةِ. وَأَمَّا (الصَّنْفُ الثَّلَاثُ مِنْ هَذِهِ التَّضْدِيقَاتِ) فَهُوَ تَثْبِيتُ
الشَّيْءِ بِالْكَلَامِ الْمُنْفَعِ أَوْ مَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ مُنْفَعٌ وَذَلِكَ فِي الْأُمُورِ
الْجُزْئِيَّةِ الَّتِي تُنْفَعُ فِيهَا هَذِهِ الصِّنَافَةُ. وَإِذَا كَانَتِ التَّضْدِيقَاتُ إِنَّمَا
تَكُونُ فِي هَذِهِ الصِّنَافَةِ بِهَذِهِ الْوُجُوهِ فَهُوَ بَيِّنٌ أَنَّ الَّذِي يَقْدَرُ أَنْ
يُنْفَعُ الْإِقْتِنَاعُ الْمُمْكِنُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِنَّمَا هُوَ الَّذِي
يَكُونُ عَالِمًا بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: (أَوَّلُهَا) مَرْقَةُ الْأَقَاوِيلِ الْمُنْفَعَةِ. (وِثَانِيهَا)

مَعْرِفَةُ الْأَخْلَاقِ وَالْفَضَائِلِ . (وَثَلَاثُهَا) مَعْرِفَةُ الْأَنْفِعَالَاتِ (١)
وَذَلِكَ بِأَنَّهُ يَعْرِفُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ الْأَنْفِعَالَاتِ مَا هُوَ وَمِنْ آيَةٍ
شَيْءٌ يَكُونُ وَسَيِّئٌ يَكُونُ وَكَيْفَ يَكُونُ . وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ
فَهَذِهِ الصِّنَاعَةُ كَأَنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنْ دِينَاةِ الْكَلَامِ وَالصِّنَاعَةِ الْخَلْقِيَّةِ
أَعْنِي الْمَدَنِيَّةِ . وَإِنَّمَا لَمْ يُوجَدْ لِمَنْ تَقَدَّمَ قَوْلٌ مُسْتَوْفٍ فِي أَجْزَائِهَا
إِمَّا مِنْ قَبْلِ جَهْلِهِمْ وَإِمَّا مِنْ قَبْلِ أَنَّهُمْ صَنَعُوا عَلَى غَيْرِهِمْ وَتَجَلَّوْا
عَلَيْهِمْ بِمَا وَقَفُوا عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ لِمَكَانِ الْخَيْرَاتِ الَّتِي وَنَ خَارِجٍ .
فَهَذِهِ الصِّنَاعَةُ هِيَ جُزْءٌ مِنْ صِنَاعَةِ الْمُنَاطِقِ وَهِيَ شَبِيهَةٌ بِالْجَدَلِ
فِي أَنَّهَا تَنْظُرُ فِي كَيْلِ الْمُتَقَابِلِينَ وَفِي أَنَّهَا لَيْسَا يَنْظُرَانِ فِي شَيْءٍ
مَحْدُودٍ نَظَرًا يَبْلُغَانِ بِهِ الْيَقِينَ لَكِنْ إِنَّمَا يَبْلُغَانِ مِنَ النَّظَرِ مَا
دُونَ الْيَقِينِ

(١) هذا التقسيم قد اخذهُ عن أرسطاطليس كل من تكلموا في الخطابة
وما هيئكَ به من تقسيم يفي بالمقصود ويتسل كل اجزاء الخطابة والفرع يدعون
هذه الاقسام الثلاثة (Preuves, motifs oratoires, passions)



الفصل الثالث

في الاقاويل المقنعة

البحث الاول

في ان الخطيب لا بد له للاقتناع من معرفة القياس وعلم المنطق

(من تلخيص كتاب ارسطاطاليس في الخطابة لابن رشد)

مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ مَعْلُومٌ أَنَّ الْأَشْيَاءَ الْمُنْسُوبَةَ إِلَى هَذِهِ الصَّنَاعَةِ
إِنَّمَا يُقْصَدُ بِهَا التَّصْدِيقُ وَالْإِعْتِرَافُ مِنَ الْمُخَاطَبِ بِالشَّيْءِ الَّذِي فِيهِ
الدَّعْوَى وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِتَثْبِيتِ الشَّيْءِ عِنْدَ الْمُعْتَرِفِ بِهِ. وَذَلِكَ
أَنَا نَعْتَرِفُ بِالشَّيْءِ الَّذِي رَأَيْنَا أَنَّهُ قَدْ تَبَتَّ عِنْدَنَا وَالشَّيْءِ الَّذِي
تَثْبُتُ بِهِ الْأَشْيَاءُ عَلَى طَرِيقِ الْخَطَابَةِ هُوَ الضَّمِيرُ (١) لِأَنَّ هَذَا هُوَ
أَصْلُ التَّصْدِيقِ وَعَمُودُهُ فِي الْأُمُورِ الَّتِي تُوقَعُ هَذَا التَّحْوُّ مِنْ التَّصْدِيقِ
أَعْنِي التَّصْدِيقَ الْبَلَاغِيَّ. وَالضَّمِيرُ هُوَ نَوْعٌ مِنَ الْقِيَاسِ وَمَعْرِفَةِ
الْقِيَاسِ جُزْءٌ مِنْ صِنَاعَةِ الْمُنْطِقِ فَقَدْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ صَاحِبُ
الْمُنْطِقِ هُوَ الَّذِي يَنْظُرُ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ إِمَّا فِي كُلِّهَا وَإِمَّا فِي أَحْزَاءِ
مِنْهَا. وَبَيِّنُ أَنْ الَّذِي يَعْرِفُ الْقِيَاسَ مِنْ كَمِ شَيْءٍ يَلْتَزِمُ وَيَكُونُ وَمَتَى
يَكُونُ فَهُوَ أَقْدَرُ عَلَى عَمَلِ الضَّمِيرِ مِمَّنْ يَعْرِفُ الضَّمِيرَ فَقَطْ دُونَ أَنْ

(١) يريد بالضمير القياس الاصمائي (Enthymème) وهو القياس

الذي قدّرت إحدى مقدّميه إماماً الكبير وإماماً الصغير

تَعْرِفَ الْقِيَاسَ الَّذِي هُوَ جَنْسُهُ . وَالَّذِي يَزِيدُ عَلَى هَذَا فَيَعْلَمُ لِمَاذَا
تُعْمَلُ الضَّمَائِرُ وَالْفُضُولُ الَّتِي بَيْنَ الضَّيِيرِ وَبَيْنَ سَائِرِ الْمَقَايِيسِ الَّتِي
تُسْتَعْمَلُ فِي الصَّائِحِ الْآخَرِ فَهُوَ أَقْدَرُ مِنْ ذَلِكَ . وَالْمَعْرِفَةُ بِهَذَا كُنْهٌ
إِنَّمَا هُوَ لِصِنَاعَةِ الْمُنْطِقِ . فَإِنَّ لِلْقُوَّةِ الْوَاحِدَةِ بِعَيْنِهَا آغَى لِلصِّنَاعَةِ
الْوَاحِدَةِ بِعَيْنِهَا أَنْ تُعْرِفَ الشَّيْءَ الَّذِي هُوَ حَقٌّ وَالَّذِي هُوَ شَيْبٌ
بِالْحَقِّ . وَالتَّضَدِّيقَاتُ الْخَطِيئَةُ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ حَقًّا فَهِيَ شَيْبَةٌ بِالْحَقِّ
وَأَيْضًا فَإِنَّ النَّاسَ مُتَمَيِّضُونَ بِطَبِيعَتِهِمْ كُلَّ التَّهْيِيسَةِ نَحْوَ الْوُقُوفِ عَلَى
الْحَقِّ نَفْسِهِ . وَهُمْ أَكْثَرُ ذَلِكَ يَمُوتُونَ وَيَمُوتُونَ عَنْهُ . وَالْحُدُودَاتُ
وَهِيَ الَّتِي تَكُونُ مِنْهَا الضَّمَائِرُ شَيْبَةٌ بِالْحَقِّ مِنْ قَبْلِ أَنَّهَا نَائِبَةٌ عِنْدَ
الْجُمْهُورِ مَنَابَ الْحَقِّ . وَالشَّيْبُ بِالْحَقِّ قَدْ يَدْخُلُ فِي عِلْمِ الْحَقِّ
الَّذِي هُوَ عِلْمُ الْمُنْطِقِ . وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ هَكَذَا فَقَدْ اسْتَبَانَ أَنَّ
قُصُورَ هَؤُلَاءِ فِيمَا تَكَلَّمُوا فِيهِ مِنْ أَمْرِ الْخَطَابَةِ إِنَّمَا كَانَ مِنْ أَجْلِ
أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ بِالْمُنْطِقِ وَأَنَّ سَائِرَ مَنْ تَكَلَّمَ فِي
الْخَطَابَةِ وَمَنْ يَسْتَعْمِلُ الْأَقَاوِيلَ الْخَطِيئَةَ فَقَطُّ مِنْ غَيْرِ أَنْ
يَتَقَدَّمُوا فَيَعْرِفُوا هَذِهِ الْأَشْيَاءَ الَّتِي هِيَ عَمُودُ الْبَلَاغَةِ إِنَّهُمْ إِنَّمَا
يَتَكَلَّمُونَ فِي أَشْيَاءٍ تَجْرِي مِنَ الْبَلَاغَةِ مَجْرَى التَّزْيِينِ وَالتَّشْبِيهِ
الَّذِي يَكُونُ فِي ظَاهِرِ الشَّيْءِ وَصَفَتِهِ لَا فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَنْزِلُ
مِنْهَا بَثْرَةٌ مَا بِهِ قِيَامُ الشَّيْءِ وَوُجُودُهُ وَإِنْ كَانَ قَدْ يُظَنُّ بِمَا فَعَلُوا
مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُمْ قَدْ بَلَغُوا الْغَايَةَ مِنَ الْأَقَاوِيلِ الْاِقْتِصَاعِيَّةِ وَجَرَوْا فِي
ذَلِكَ عَلَى طَرِيقِ الصَّوَابِ وَالْعَدْلِ

البحث الثاني

في الطريق اي الدليل وتقسيه (*)

(من كتاب المواقف لعبد الرحمان اليعقوبي)

(راجع صفحة ١١ من الجزء الثاني من علم الادب)

الطَّرِيقُ هُوَ الْمَوْصِلُ إِلَى الْمَقْصُودِ وَحَدُّهُ هُوَ مَا يُمَكِّنُ التَّوَصُّلَ
بِصَحِيحٍ أَلْتَّظَرُّ فِيهِ إِلَى مَطْلُوبٍ. وَلَمَّا كَانَ الْإِدْرَاكُ إِمَّا تَصَوُّرًا أَوْ
تَصْدِيقًا فَكَذَا الْمَطْلُوبُ. فَإِنْ كَانَ تَصَوُّرًا سُمِّيَ طَرِيقَهُ مُعَرَّفًا
وَأِنْ كَانَ تَصْدِيقًا سُمِّيَ دَلِيلًا وَهُوَ يَشْمَلُ الظَّنِّيَّ وَالْقَطْعِيَّ وَقَدْ
يُخَصُّ بِالْقَطْعِيِّ، وَيُسَمَّى الظَّنِّيُّ إِمَارَةً وَقَدْ يُخَصُّ بِمَا يَكُونُ وَنَ
الْمَعْلُولِ عَلَى الْعِلَّةِ وَيُسَمَّى عَكْسُهُ تَغْلِيلًا

شرح هذه المقالة للسيد الجرجاني

(*) قال : (الطريق) اي ما يقع فيه النظر (وهو الموصل — الى
المقصود) توسط النظر . (وحدّه) اي تحديده ونفسيه الى اقسامه الاولى (هو)
اي الطريق (ما يمكن التوصل بصحيح الطرف فيه الى مطلوب) اعتبر الامكان لان
الطريق لا يخرج عن كونه طريقاً بعدم التوصل بل يكفيه امكانه . وقيد النظر
بالصحيح لان العاسد لا يستلزم المطلوب فلا يمكن ان يتوصل به اليه اذ ليس في
نفسه وسيلة له . واراد بالنظر فيه ما يعم النظر في نفسه والنظر في احواله
ليتناول المعرد الذي من شأنه انه اذا نظر في احواله اوصل الى المطلوب كالعالم
مثلاً فانه يسمى عندهم دليلاً . ويتناول ايضاً التصورات المتعددة غير مأخوذة
مع الترتيب وحينئذ يلزم تناوله للمقدمات اذ لم تؤخذ مع ترتيبها . واطلق المطلوب

البحث الثالث

في المواضع

(عن تلخيص كتاب ارسطو في الخطابة لابن رشد)

(راجع صفحة ٥ من الجزء الثاني من علم الادب)

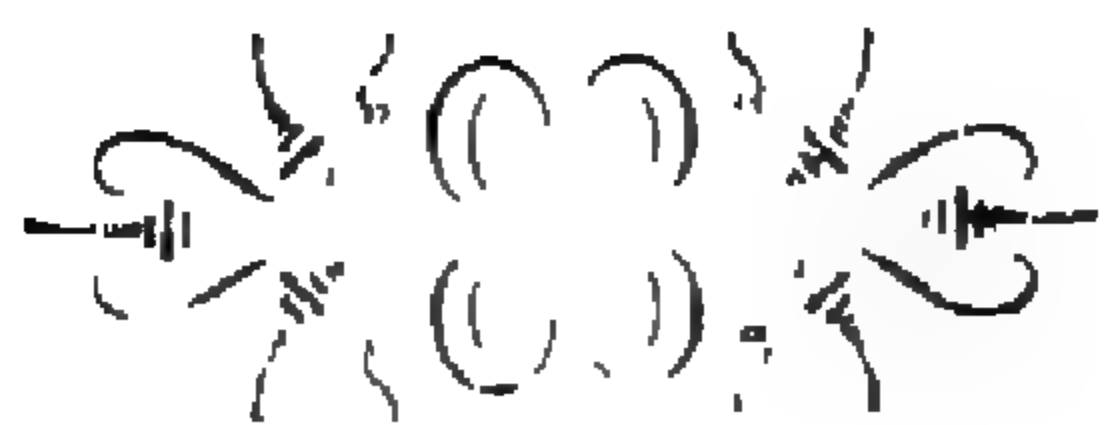
(قَالَ) كُلُّ مَا كَانَ الْقَوْلُ أَكْثَرَ عُمُومًا كَانَ أَكْثَرَ مُوَائِدَةً وَتَأْتِيهَا لِأَن يَسْتَعْمَلَ فِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ . وَكُلَّمَا كَانَ أَقْلَ عُمُومًا كَانَ آخَرَى أَنْ يَكُونَ جُزْءًا مِنْ صِنَاعَةٍ مُخْصُوصَةٍ . وَلِذَلِكَ كَانَتْ الْمَوَاضِعُ مِنَ الْقِيَاسَاتِ الْخُطْبِيَّةِ وَالْقِيَاسَاتِ الْجُدِّيَّةِ . وَذَلِكَ أَنَّ الْمَوَاضِعَ تُوجَدُ تَعَمُّ الْأُورَ الْمُنْطِقِيَّةِ وَالطَّبِيعِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ أَغْنِي الْأَرَادِيَّةَ . وَذَلِكَ مِثْلُ مَوَاضِعِ الْأَقْلِ وَالْأَكْثَرِ (*) فَإِنَّهَا لَيْسَ

(*) يريد بمواضع الأقل والأكثر المقالة في غير الاصداد (راجع الجزء

الثاني من علم الادب صفحة ٢٩)

ليتناول المطلوب التصوري والتصديقي . (ولما كان الإدراك إما تصورًا أو تصديقًا فكذا المطلوب) الإدراكي الذي يطلب بالظر . (فان كان) المطلوب (تصورًا سمي طريقة) الذي يمكن ان يتوصل بالنظر فيه اليه (معرفًا) . (وان كان) المطلوب (تصديقًا سمي) طريقة (دليلًا وهو) اي الدليل بالمعنى المذكور (يشمل الظني) الموصل الى الظن كالنعم الرطب الموصل الى ظر المطر (والقطعي) الموصل الى الحزم والقطع كالعلم الموصل الى العلم بوجود الصانع . (وقد يخص) الدليل (بالقطعي) . (ويسمى الظني اشارة وقد يخص) الدليل ايضًا مع التخصيص الاول (بما يكون) الاستدلال فيه (من المعلول) كالحمى (على العلة) كتمن الاخلاط ويسمى هذا برهانًا اثباتيًا (ويسمى عكسه) وهو ما يستدل فيه من العلة على المعلول (تعليلًا) وبرهانًا لمبنيًا

تُفَعِّلُ مِنْهَا الْمَقَايِيسُ فِي صِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثِ الَّتِي ذَكَرْنَا
 بَلْ فِي جَمِيعِهَا إِذْ كَانَتْ لَا تُسْتَعْمَلُ نَفْسُهَا وَإِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ قُوَّتُهَا. وَأَمَّا
 الْأَنْوَاعُ فَهِيَ الْمَقَدِّمَاتُ الْخَاصَّةُ بِصِنَاعَةٍ صِنَاعَةٍ مِنَ الصَّنَائِعِ الْجُزْئِيَّةِ مِثْلُ
 الْمَقَدِّمَاتِ الَّتِي تُعْمَلُ مِنْهَا الْمَقَايِيسُ فِي الْأُمُورِ الطَّبِيعِيَّةِ فَإِنَّهَا لَا تُعْمَلُ
 مِنْهَا الْمَقَايِيسُ فِي الْأُمُورِ الْخَلْقِيَّةِ وَلَا الَّتِي فِي الْأُمُورِ الْخَلْقِيَّةِ تُعْمَلُ
 مِنْهَا الْمَقَايِيسُ فِي الْأُمُورِ الطَّبِيعِيَّةِ. وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ هَكَذَا فَإِذَا
 الْمَوَاجِيعُ لَا يُؤَلَّفُ مِنْهَا قِيَاسٌ فِي صِنَاعَةٍ مُخْصُوصَةٍ إِذَا مَا يُتَصَوَّرُ مِنْهَا
 هُوَ عَامٌّ لِأَكْثَرٍ مِنْ صِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ. وَأَمَّا الْأَنْوَاعُ فَهِيَ الَّتِي
 تُؤَلَّفُ مِنْهَا الْمَقَايِيسُ الَّتِي تَلْتَمِ مِنْهَا الصِّنَاعَةُ الَّتِي يَتَكَلَّفُ الْأَنْوَاعُ
 مُخْصُوصَةً بِهَا. لَكِنَّ الْأَنْوَاعَ الَّتِي نَحْنُ عَاذُهُونَ فِي هَذَا الْكِتَابِ عَلَى
 ذِكْرِهَا لَيْسَتْ هِيَ مُقَدِّمَاتُ يَقِينِيَّةٍ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ
 لَكَانَتْ الْمَقَايِيسُ الْخُطْبِيَّةُ مَقَايِيسَ يَقِينِيَّةٍ وَلَمْ تَكُنْ مَقَايِيسَ
 جَذَلِيَّةٍ فَضْلًا عَنْ خُطْبِيَّةٍ. وَالضَّمَائِرُ الْمَعْمُولَةُ فِي هَذِهِ الصِّنَاعَةِ أَكْثَرُ
 ذَلِكَ إِنَّمَا تُؤَلَّفُ مِنْ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ مَا كَانَ مِنْهَا خَاصًا بِجِنْسٍ جِنْسٍ
 مِنْ أَجْنَاسِ الْخُطَابَةِ الثَّلَاثَةِ وَمَا كَانَ مِنْهَا عَامًّا لِلْأَجْنَاسِ الثَّلَاثَةِ
 الَّتِي تُحَدِّدُ بَعْدُ



البحث الرابع

في التعريف والحد والرسم

(من كتاب الشفاء لابن سينا والمواقف للابن العربي وغيرهما)

(راجع صفحة ١٢ من علم الخطابة)

التعريف عند أهل العربية هو جعل الذات مشاراً بها إلى خارج. إشارة وضعية ويقابها التأكيد. وعند المنطقيين هو الطريق الموصل إلى المطالب التصوري ويسمى معرفاً وقولاً شارحاً أيضاً ويسمى هذا أيضاً عند الأصوليين. وذلك المطالب التصوري يسمى معرفاً ومحدوداً. والجملة فالمعرف ما يكتسب به التصور فخرج ما يحصل بطريق الخدس وما يحصل من الملزومات البينة من العلم باللوازم فإن الأكساب إنما هو بالنظر. وقال المنطقيون: لا بد في التعرف من مميزات فإن كان المميز ذاتياً سمي التعرف حدّاً وإن كان عرضياً سمي التعرف رسماً. وقال المتقدمون: إن الرسم منه تامة يميز الرسوم من كل ما يغايره وهو يتركب من الجنس القريب والخاصة كتعريف الإنسان بالحيوان الضاحك. ومنه ناقصة يميزه عن بعض ما يغايره ويكون بالخاصة وخذها أو بها وبالجنس البعيد كتعريف الإنسان بالضاحك أو بالجسم الضاحك أو بعرضيات تختص بجملتها بحقيقة واحدة كقولنا في

تَعْرِيفِ الْإِنْسَانِ : إِنَّهُ مَا شِ عَلَى قَدَمَيْهِ عَرِيضُ الْأَطْفَارِ بَادِي الْبَشَرَةِ
مُسْتَقِيمُ الْقَامَةِ ضَحَّاكٌ بِالطَّبَعِ . وَصَرَّحُوا بِأَنَّ الْمَسَاوَاةَ شَرْطُ جُلُودَةِ
الرَّسْمِ وَجَوَزُوا الرَّسْمَ بِالْأَعْمِ وَالْأَخْصِ وَآيَدَ ذَلِكَ بِأَنَّ الْمَعْرِفَ
لَا بُدَّ أَنْ يُفِيدَ التَّمْيِزَ عَنْ بَعْضِ الْأَغْيَارِ كَمَا يَشْتَضِيهِ تَعْرِيفُهُمْ
لِلْمَعْرِفِ بِمَا يَسْتَلْزِمُ مَعْرِفَتَهُ . فَإِنَّ الْمَعْرِفَةَ تَقْتَضِي التَّمْيِزَ فِي الْجُمْلَةِ .
وَأَمَّا التَّمْيِزُ عَنْ جَمِيعِهَا فَلَيْسَ بِشَرْطٍ لِأَنَّ التَّصَوُّرَاتِ الْمَكْتَسِبَةَ
كَذَا قَدْ تَكُونُ بِوَجْهِ خَاصٍّ بِالشَّيْءِ ، إِمَّا ذَاتِيٍّ أَوْ عَرَضِيٍّ كَذَلِكَ
تَكُونُ بِوَجْهِ عَامٍّ ذَاتِيٍّ أَوْ عَرَضِيٍّ . فَيُمَيِّزُ أَنْ يَكُونَ كَاسِبٌ كُلِّ
مِنْهُمَا مَعْرِفًا فَأُلْمَسَاوَاةَ شَرْطٌ لِلْمَعْرِفِ التَّامِّ دُونَ غَيْرِهِ حَدًّا كَانَ
أَوْ رَسْمًا

قَالَ الْأَيْمِيُّ : (*) الْمَعْرِفُ تَحِبُّ مَعْرِفَتُهُ قَبْلَ الْمَعْرِفِ فَيَكُونُ
غَيْرَهُ أَوْ أَجْلَى مِنْهُ فَلَا يُعَرَّفُ بِمَا لَا يُعَرَّفُ إِلَّا بِهِ بِمَرْتَبَةٍ أَوْ أَكْثَرَ .

شرح مقالة الأبي الجرجاني

يقول : (المَعْرِفُ تَحِبُّ مَعْرِفَتُهُ قَبْلَ) معرفة (المَعْرِفِ) لأن معرفته طريق إلى
معرفة وسبب لها فلا بد أن تتقدمها . (فَيَكُونُ غَيْرَهُ) إذا لو كان عينه لم يكن
الشيء معلوماً قبل أن يكون معلوماً (أو) يكون أيضاً (أجل منه) إذا لو ساواه في
الحلأ ، أو كان أخفى منه لم يكن معلوماً قبله . (وَلَا يُعَرَّفُ) هذا تفريع على كونه
أجل أي لا يعرف الشيء . (بِمَا لَا يُعَرَّفُ إِلَّا بِهِ) فإنه لا يكون أجل منه سواء توقف
معرفة على معرفته (مَرْتَبَةٍ) واحدة ويسمى دوراً صريحاً كقولك : الشمس
كوكب نهارى والنهار زمان = كونه الشمس طالعة . (أو أَكْثَرَ) ويسمى دوراً
مضمرأ كقولك : الحركة خروج الشيء من القوة إلى الفعل بالتدريج والتدرج
وقوع الشيء في زمان والزمان مقدار الحركة . (وَلَا بُدَّ) إشارة إلى شرط آخر للمعرفة
أي لا بد من (أن يساويه في العموم والخصوص ليحصل) به (التميز) . (إذا لولاه)

وَلَا بُدَّ أَنْ يُسَاوِيَهُ فِي الْعُمُومِ وَالْخُصُوصِ لِيُحْصَلَ التَّمَيُّزُ إِذَا لَوْلَاهُ
لَدْخَلَ فِيهِ غَيْرُ الْمَعْرُوفِ فَلَمْ يَكُنْ مَانِعًا وَمُطْرَدًا . أَوْ خَرَجَ عَنْهُ بَعْضُ
أَفْرَادِهِ فَلَمْ يَكُنْ جَامِعًا وَمُعَكِّسًا وَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ تَمَيُّزٍ فَإِنْ كَانَ
ذَاتِيًا سَمِّيَ حَدًّا وَإِلَّا سَمِيَ رَسْمًا . وَعَلَى التَّقْدِيرَيْنِ فَإِنْ ذُكِرَ
فِيهِ تَمَامُ الذَّاتِيَّةِ الْمَشْتَرَكِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ أَلْمَسِيَ بِالْجُنْسِ الْقَرِيبِ
فَتَمَامٌ وَإِلَّا فَنَاقِصٌ . وَالْمَرْكَبُ يُخَدُّ دُونَ الْبَسِيطِ فَإِنْ تَرَكَّبَ عَنْهُمَا
غَيْرُهُمَا حَدٌّ بِهِمَا وَإِلَّا فَلَا . وَكُلُّ كَسْمٍ لَهُ خَاصَّةٌ بِأَنَّهُ يُرْسَمُ وَإِلَّا فَلَا .

اي لولا كونه مساويا (لدخل فيه غير المعروف) على تقدير كونه اعم مطلقا او
من وجه (فلم يكن مانعا) من دخول غير المعروف فيه (و) لا (مطردا) وهو ان
يكون بحيث كما صدق على شيء صدق عليه المعروف ايضا . (او خرج عنه بعض افراده)
على تقدير كونه اخص اما مطلقا او من وجه (فلم يكن جامعاً) لجميع افراد المعروف
(و) لا (معكسا) وهو ان يكون بحيث يصدق على كل ما صدق عليه المعروف .
واسم ان اشتراط المساواة في التصديق مما ذهب اليه المتأخرون اذ حينئذ يحصل
التميز التام بحيث يمتاز جميع افراد المعروف عن جميع ما ندلعا ولايات من شيء منها
بعبرها . . . (ولا بد فيه) اي في المعروف (من مظهر مساوٍ معروف) (فان كان) المميز
(ذاتيا سمي) المعروف (حدا) (و الا سمي رسما) . وعلى التقديرين فان ذكر فيه تمام
الذاتي المشترك بينه وبين غيره المسمى بالجنس القريب وتام (اما حد تام مركب
من الجنس والفصل القريبين واما رسم تام مركب من الخاصة والجنس القريب .
(والا فناقص) اما حد ناقص سواء كان الفصل وحده او مع الجنس البعيد او
المرص العام عند من يجوز اخذه في الحد . واما رسم ناقص بالخاصة وحدها او مع الجنس
البعيد او المرص العام عند من يجوز اخذه في الرسم . (والمركب) اذا لم يكن بديهي
التصور (مجرد) باحزانه حدا تاما وناقصا (دون البسيط) فانه لا يمكن تعديده اذ لا
جرء له (فان تركب عنهما) عن المركب والبسيط (عبرهما) ولا يكون ذلك العبر
بديهي التصور (حد بهما والا فلا) مجرد بهما اذ لم يقعا جرة الشيء (وكل) متصور
(كيمي) مركب او بسيط (له خاصة) شاملة لازمة (بيمة) بحيث يكون تصورهما

فَإِنْ كَانَ مُرَكَّبًا أَمَكْنَ رَسْمُهُ التَّامُّ وَإِلَّا فَالْناقِصُ. وَهَهُنَا نَوَعَانِ
آخَرَانِ مِنَ التَّعْرِيفِ الْأَوَّلِ بِأَلِثَالِ وَهُوَ بِالْحَقِيقَةِ تَعْرِيفٌ بِأَلِشَاجَةِ.
فَإِنْ كَانَتْ مُفِيدَةً لِلتَّمْيِيزِ فَهِيَ خَاصَّةٌ فَيَكُونُ رَسْمًا نَاقِصًا وَإِلَّا
لَمْ تَصْلُحْ لِلتَّعْرِيفِ. وَالثَّانِي التَّعْرِيفُ اللَّفْظِيُّ وَهُوَ أَنْ لَا يَكُونَ اللَّفْظُ

مُسْتَلْزَمًا لِتَصَوُّرِهِ (برسم. والا) أي وان لم تكن له خاصة كذلك (فلا) برسم. (فان
كان) ذلك الكسبي الذي له تلك الخاصة (مركبًا امكن رسمه التام) بتركيب
جنسه القريب مع خاصته (والا فالناقص. وههنا نوعان آخران من التعريف الاول)
التعريف (بالمثال) سواء كان جزئيًا للمعرف كقولك الاسم كزبد والفعل كضرب
او لا يكون جزئيًا له كقولك: العلم كاللور والحبل كالطلمة. (وهو بالحقبة
تعريف بالمشاجة) التي بين ذلك المعرف وبين المثال. (فان كانت) تلك المشاجة
(مفيدة للتميز فهي خاصة) لذلك المعرف (فيكون) التعريف بها (رسمًا ناقصًا)
داخلًا في الاقسام الاربعة المذكورة للمعرف (والا) أي وان لم تكن تلك المشاجة
مفيدة للتمييز (لم تصلح للتعريف) مما ليس التعريف بالمثال قسيمًا على حدة. ولما كان
استنباس العقول القاصرة بالامتانة أكثر شاع في محاضرات المتعلمين التعريفات بها
(والثاني التعريف اللفظي. وهو ان لا يكون اللفظ واضح الدلالة) على معنى (يفسر
بلفظ اوضح دلالة) على ذلك المعنى كقولك: الغضنر الاسد. وليس هذا تعريفًا حقيقيًا
يراد به افادة تصور غير حاصل. اما المراد تعيين ما وضع له لفظ الغضنر من بين
سائر المعاني لباثفت اليه ويعلم انه موضوع بارائه فآله الى التصديق وهو طريقة
اهل اللغة وخارج عن المعرف الحقيقي واقسامه الاربعة التي ذكرت. وحقيقة ان
يكون بالفاظ معددة مرادفة فان لم يوجد ذكر مركب يقصد به تعيين المعنى لا
تفصيله. واعلم ان التعريف الحقيقي الذي يقصد به تحصيل ما ليس بمحاصل من
التصورات ينقسم الى قسمين: احدهما ما يقصد به تصور مفهومات غير معلومة
الوجود في الخارج ويسمى تعريفًا بحسب الاسم. فاذا علم متلاً مفهوم الجنس
اجمالاً واريد تصويره بوجه اكمل فان فصل نفس مفهومه باجزائه كان ذلك حدًا
له اسميًا. وان ذكر في تعريفه عوارضه كان ذلك له رسمًا اسميًا. والثاني ما يقصد
به تصور حقائق موجودة ويسمى تعريفًا بحسب الحقيقة اما حدًا او رسمًا...

وَاضَحَ الدَّلَالَةَ فَيَفْسِّرَ بِلَفْظٍ أَوْضَحَ دَلَالَةً . ثُمَّ إِنَّهُ يُقَدِّمُ فِي التَّعْرِيفِ
الْأَعْمُ وَيُخْتَارُ عَنْ الْأَلْفَاظِ الْغَرِيبَةِ الْوَحْشِيَّةِ وَعَنِ الْمَشْتَرَكِ وَالْحَاجِزِ
بِلا قَرِينَةٍ وَبِالْجُمْلَةِ فَمَنْ كُلِّ لَفْظٍ غَيْرِ ظَاهِرٍ الدَّلَالَةَ عَلَى الْمَقْصُودِ

البحث الخامس

في الكلي والمجزئي

(من كتاب التمام لابن سينا وتعريفات السيد الحراني وشرح الشنسية

(راجع صفحة ١٦ من الجزء الثاني من علم الادب)

الْكَلِّيُّ عِنْدَ الْمُنْطَقِيِّينَ هُوَ الْمَفْهُومُ الَّذِي لَا يَمْنَعُ تَصَوُّرُهُ مِنْ
وُقُوعِ شَرَكَةٍ كَثِيرِينَ فِيهِ بِحَيْثُ يُكُنْ تَقْسِيمُهُ إِلَى أَجْزَاءٍ . وَالْمُعْتَبَرُ
فِي الْكَلِّيِّ امْكَانُ فَرْضِ صِدْقِهِ عَلَى كَثِيرِينَ سِوَاهُ كَانَ صَادِقًا أَوْ
لَمْ يَكُنْ وَسِوَاهُ فَرْضِ الْعَقْلِ بِصِدْقِهِ أَوْ لَمْ يَفْرَضْ قَطُّ . وَيَقَابَلُهُ

(ثم انه يقدم في التعريف الاعم) لكونه اظهر عند العقل فتقدمه اولى ولان الاخص
قيد له محصص اياه فكان تقديمه عليه السب وما يقال من انه واجب في الحد التام
محصل لمزونه الصوري حتى اذا اُجر الجنس فيه كان حداً ناقصاً فليس بشيء . اذ
ليس للحد التام جزء خارج عن اجراء الماهية المحصورة في الجنس والفصل . (ويعتبر)
فيه (عن الالفاظ الغريبة الوحشية) التي لا يفهم السامع معناها فيحتاج الى تفسيرها
فتطول المسافة ولذلك ما يختلف بالقياس الى السامعين فان اصطلاحات كل قوم
مشهورة عند اربابها غريبة عند غيرهم . (وعن المشترك والمجاز بلا قرينة) ظاهرة
فيتردد السامع حينئذ في المشترك بين المصور وغيره ويتبادر ذهنه في المجاز الى
غيره . (وبالحسنة فمن كل لفظ غير ظاهر الدلالة على المقصود) وذلك لانه يصدر
الاظهار والتوضيح فلا بد من ظهور الدلالة

الجزئي وهو المفهوم مما يتركب منه ومن غيره شيء سواء كان
موجوداً في الخارج أو في العقل. والكلية تقسيمات فهو إما
حقيقي وهو الذي مرّ تحديده. وإما إغرافي وهو ما أندرَج تحته
شيء آخر في نفس الأمر وهو أخص من الكلّي الحقيقي.
والكلّي أيضاً إما جنس أو نوع أو فصل أو خاصة أو عرض
عام. ويقسم أيضاً إلى كلّي طبيعي أو عقلي على حسب ما
يكون موجوداً في الخارج أو يفترضه العقل وأعلم أن كل مفهوم
آخر سواء كانا كليتين أو جزئيتين أحدهما كلياً والآخر جزئياً
فالنسبة بينهما منحصرة في أربع: المساواة. والعنوم. مطلقاً.
والعنوم من وجه. والمباينة الكلية. وذلك أنه إن لم يتصادقا على
شيء أصلاً فهما متباينان تبايناً كلياً. وإن تصادقا فإن تلاقهما في
الصدق فهما متساويان وإلا فإن استلزم صدق أحدهما صدق
الآخر فبيدهما عنوم وخصوص من وجه وكل منهما: (أعم) من
الآخر من وجه وهو كونه شاملاً للآخر ولغيره. (وأخص) منه
من وجه وهو كونه مشمولاً للآخر فالمساواة بينهما أن يصدق
كل منهما بالفعل على كل ما صدق عليه الآخر سواء وجب ذلك
الصدق أو لا

وأعلم أن في الكتابة والخطابة والشعر موقفاً للكلّي
والجزئي. وعند البديعيين نوع يعرفونه بحصر الجزئي وإحاطته
بالكلّي. فحصر الجزئي هو أن يأتي الالكلم إلى نوع من

الأنواع فيجعله جنساً تعظيماً له وتنفخياً لأمره بعد أن يمحصر جميع أقسامه. والمراد عندهم بالأنوع أعم من أن يكون صادقاً على متعدد ذهنًا كما هو النوع المفهود عند علماء المنطق أو لا يصدق إلا على فرد واحد كالجزئي المعروف عندهم. والمراد بالكلي الجنس وهو ما صدق على متعدد اختلفت حقيقة أفرادِهِ. ومثال ذلك عندهم كقول المتذنب:

هي الغرض الأقدى ورؤيتك ألتى

ومثل ذلك الدنيا وانت الخلائق

فقد قصد تعظيم تذوحيه فجعل نزهه الذي هو جزئي كلياتاً وهو الدنيا وجعل ذاته التي هي جزئية كلية وهي الخلائق. وأما حصر أقسام الجزئي فلأن العالم عبارة عن حيوان ونبات وجماد. والمثل شامل لها

البحث السادس

في الجنس والنوع

(عن السيف الأمدي وشرح الشسبة واعجاة لابن مينا)

(راجع صفحة ١٧ من علم الخطابة)

الجنس في اللغة الضرب في كل شيء وهو أعم من النوع. يقال: الإنسان نوع والحيوان جنس. ويراد به عند أهل العربية الماهية. وكل ما دل على شيء وعلى كل ما أشبهه وبالنظر إلى

هَذَا قِيلَ أَيْضًا أَلْجِنْسُ أَيْضًا مَوْضُوعٌ لِلْمَاهِيَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ . وَأَلْجِنْسُ
 عِبَارَةٌ عَنْ كُلِّيٍّ مَقُولٌ عَلَى كَثِيرِينَ مُخْتَلِفِينَ بِالْأَغْرَاضِ دُونَ الْحَقَائِقِ .
 وَقِيلَ أَيْضًا . أَلْجِنْسُ هُوَ الْمَقُولُ عَلَى أَفْرَادٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنْ حَيْثُ الْمَقَاصِدُ
 وَالْأَحْكَامُ . وَالتَّوَعُّ كَلِّيٌّ مَقُولٌ عَلَى أَفْرَادٍ مُتَّفِقَةٍ مِنْ حَيْثُ الْمَقَاصِدُ
 وَالْأَحْكَامُ . مُخْتَلِفِينَ بِالْعَدَدِ فَقَطْ كَالْإِنْسَانِ فَإِنَّهُ مَقُولٌ عَلَى زَيْدٍ
 وَعَمْرٍو وَبَكْرٍ فِي جَوَابٍ مَاهُ . وَرَبَّمَا أُطْلِقَ أَلْجِنْسُ عَلَى الْإِنْسَانِ
 أَلْعَامِ سِوَاهُ كَانَ جِنْسًا عِنْدَ الْفَلَاسِيفَةِ أَوْ نَوْعًا . كَالْحَرِّ وَالْعَبْدِ مَثَلًا
 فَهُمَا نَوْعَانِ يَنْدَرِجَانِ فِي حُكْمٍ وَاحِدٍ وَيَشْتَرِكَانِ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ .
 ثُمَّ إِنْ أَلْجِنْسُ يُقَامُ إِلَى قَرِيبٍ وَبَعِيدٍ لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ الْجَوَابُ عَنْ
 الْمَاهِيَةِ وَعَنْ جَمِيعِ مُشَارِكَاتِهَا فِي ذَلِكَ أَلْجِنْسُ وَاحِدًا فَهُوَ قَرِيبٌ .
 وَيَكُونُ الْجَوَابُ ذَلِكَ أَلْجِنْسُ فَقَطْ كَالْحَيَوَانَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْإِنْسَانِ
 وَعَنْ جَمِيعِ مَا يَشَارِكُهُ فِي الْحَيَوَانِيَّةِ كَالْفَرَسِ وَالْغَنَمِ وَالْبَقَرِ وَنَحْوِهَا .
 وَإِنْ كَانَ الْجَوَابُ عَنْهَا وَعَنْ جَمِيعِ مُشَارِكَاتِهَا فِي ذَلِكَ أَلْجِنْسُ
 مُتَعَدِّدًا فَهُوَ بَعِيدٌ وَيَكُونُ الْجَوَابُ هُوَ غَيْرُهُ كَالْجِنْسِ اللَّامِي
 بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْإِنْسَانِ فَإِنَّهُ جَوَابٌ عَنِ الْإِنْسَانِ وَعَنْ بَعْضِ
 مُشَارِكَاتِهَا فِيهِ كَالنَّبَاتَاتِ . . وَالْأَجْنَاسُ تَتَرْتَّبُ مُتَصَاعِدَةً وَالْأَنْوَاعُ
 مُتَنَازِلَةً إِلَى أَنْ تَبْلُغَ إِلَى جِنْسٍ لَيْسَ فَوْقَهُ جِنْسٌ آخَرُ وَهُوَ أَلْجِنْسُ
 الْعَالِي وَإِلَى نَوْعٍ لَيْسَ تَحْتَهُ نَوْعٌ آخَرُ وَهُوَ أَلْجِنْسُ الْمَفْرَدُ



البحث السابع

في تعريف العلة والمعلول

(من كتاب المواصف لعبد الرحمن الايجي)

راجع صفحة ٢٠ من علم الخطابة

إِذْ عَلِمَ أَنَّ الْعِلِّيَّةَ وَالْمَعْلُولِيَّةَ مِنَ الْعَوَارِضِ الشَّامِلَةِ لِلْمَوْجُودَاتِ عَلَى سَائِلِ التَّقَابُلِ كَالْإِمْكَانِ وَالْوُجُوبِ، وَتَصَوَّرَ أَحْتِيَاجَ الشَّيْءِ إِلَى غَيْرِهِ ضَرُورِيًّا، فَالْحُتَّاجُ إِلَيْهِ يُسَمَّى عِلَّةً وَالْحُتَّاجُ مَعْلُولًا. وَالْعِلَّةُ إِمَّا جُزْءُ الشَّيْءِ أَوْ خَارِجٌ عَنْهُ، (وَالْأَوَّلُ) إِنْ كَانَ بِهِ الشَّيْءُ بِالْفِعْلِ كَالْهَيْئَةِ لِلْسَّرِيرِ فَهُوَ الصُّورَةُ، وَإِنْ كَانَ بِالْقُوَّةِ كَالْخَشَبِ لَهُ فَهُوَ الْمَادَّةُ، وَهَذَا أَمَّا بِاعتباراتٍ مُخْتَلِفَةٍ: فَمَادَّةٌ إِذَا تَتَوَارَدُ عَلَيْهَا الصُّورُ الْمُخْتَلِفَةُ، وَقَابِلٌ مِنْ جِهَةٍ أَسْتَعْدَادِهَا لِلصُّورِ، وَعَنْصَرٌ إِذَا مِنْهَا يُبْتَدَأُ التَّرَكِيبُ، وَإِسْطَقْسٌ إِذَا إِلَيْهَا يَنْتَهِي التَّحْلِيلُ، وَهَاتَانِ عِلَّتَانِ لِلْمَاهِيَةِ كَمَا أَنَّهُمَا عِلَّتَانِ لِلْوُجُودِ فَتُخَصَّنِ بِأَسْمِ عِلَّةِ الْمَاهِيَةِ، (وَالثَّانِي) إِمَّا مَا بِهِ الشَّيْءُ كَالنَّجَارِ لِلْسَّرِيرِ وَهُوَ الْفَاعِلُ، وَإِمَّا لِأَجْلِ الشَّيْءِ كَالْجُلُوسِ عَلَيْهِ لَهُ وَهُوَ الْغَايَةُ، وَهَاتَانِ تُخَصَّنِ بِأَسْمِ عِلَّةِ الْوُجُودِ، وَالْأَوَّلِيَّانِ لَا تُوجَدَانِ إِلَّا لِلْمَرْكَبِ، وَالْغَايَةُ لَا تَكُونُ إِلَّا لِفَاعِلٍ بِإِلْخِيَارٍ، وَقَدْ تُسَمَّى فَائِدَةُ فِعْلِ الْمَوْجِبِ غَايَةً أَيْضًا تَشْبِيهًا، وَالْغَايَةُ مَعْلُوءَةٌ فِي الْخَارِجِ وَإِنْ كَانَتْ عِلَّةً فِي الذِّهْنِ فَلَهَا عِلَاقَةٌ

العلية والمعلولية. ويسمى جميع ما يحتاج إليه الشيء علة تامة وهي
قد تكون علة فاعلية أو مع الغاية كما في البسيط. وقد تكون
مجتبة من الأربع كما في المركب... والفرق بين العلة والشرط
أن العلة مطردة فحينما وجدت وجد الحكم وتأثيرها بالذات. أما
الشرط فيتوقف عليه تأثير المؤثر لا ذاته كقبضة الخطب للاخراق
إذ النار لا تؤثر في الخطب بالاخراق إلا بعد أن يكون ياسا

الفصل الرابع

في آداب الخطابة

البحث الأول

في آداب كلام الخطيب

(من كتاب الدنيا والدين للماوردي)

(راجع صفحة ٣٨ من الجزء الثاني من علم الادب)

أَعْلَمُ أَنَّ لِلْكَلامِ آدَابًا إِنْ أَغْفَلَهَا أَلْتَسْكِمُ أَذْهَبَ رَوْقَ
كَلَامِهِ وَطَسَّ بَهْجَةً بَيَانِهِ وَلَهَا النَّاسُ عَنْ مَحَاسِنِ فَضْلِهِ بِمِثَالِهِ آدَابِهِ
فَعَدَلُوا عَنْ مَنَاقِبِهِ بِذِكْرِ مَثَالِهِ. (فمن آدابه) أَنْ لَا يَتَجَاوَزَ فِي
مَدْحٍ وَلَا يُسْرِفَ فِي ذَمٍّ وَإِنْ كَانَتْ الْإِثْرَاهَةُ عَنِ الذَّمِّ كَرَمًا.
وَالْتَجَاوَزَ فِي الْمَدْحِ مَلَقًا يَصْدُرُ عَنْ مَهَابَةٍ وَالسَّرْفُ فِي الذَّمِّ أَنْتِقَامًا

يُضَدُّ عَنْ شَرِّهِ. وَكِلَاهُمَا شَيْنٌ وَإِنْ سَلِمَ مِنَ الْكَذِبِ. عَلَى أَنْ
السَّلَاطَةُ مِنَ الْكَذِبِ فِي الْمَدْحِ وَالذَّمِّ مُتَعَدِّةٌ لَاسِيًّا إِذَا مَدَحَ
تَقَرُّبًا وَذَمَّ تَحَقُّقًا. وَحُكِيَ عَنِ الْأَخْنَفِ بْنِ قَيْسٍ أَنَّهُ قَالَ سَهَرْتُ
لَيْلَتِي أَفْكَرَ فِي كَلِمَةٍ أُرْضِي بِهَا سُلْطَانِي وَلَا أُسْخِطُ بِهَا رَبِّي قَوْمًا
وَجَدْتُهَا. وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: إِنَّ الرَّجُلَ لَيَدْخُلُ عَلَى
السُّلْطَانِ وَمَعَهُ دِينُهُ فَيُخْرِجُ وَمَا مَعَهُ دِينُهُ. قِيلَ: وَكَيْفَ ذَلِكَ.
قَالَ: يُرْضِيهِ بِمَا يَسْخِطُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ. وَسَمِعَ ابْنُ الرُّومِيِّ رَجُلًا
يَصِفُ رَجُلًا وَيُبَالِغُ فِي مَدْحِهِ فَأَنْشَأَ يَقُولُ:

إِذَا مَا وَصَفْتَ أَمْرًا لَا مَرِيءَ فَلَا تَغُلْ فِي وَصْفِهِ وَأَقْصِدِ
فَإِنَّكَ إِنْ تَغُلْتَ تَغُلَّ الظُّنُّ نَ فِيهِ إِلَى الْأَمَدِ الْأَبَدِ
فَيُضَالُ مِنْ حَيْثُ عَظُمَتْهُ لِفَضْلِ الْغَيْبِ عَلَى الشَّهَدِ

(وَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ لَا تَبْعَثَ الرُّغْبَةَ وَالرُّهْبَةَ عَلَى الْإِسْرَافِ
فِي وَعْدٍ أَوْ وَعِيدٍ يَفْجُرُ عَنْهَا وَلَا يَقْدِرُ عَلَى الْوَفَاءِ بِهَا. فَإِنْ مَنْ
أَظْلَقَ بِهَا لِسَانَهُ وَأَرْسَلَ فِيهَا عِمَانَهُ وَلَمْ يَسْتَشْقِلْ مِنَ الْقَوْلِ مَا
يَسْتَشْقِلُهُ مِنَ الْعَمَلِ عَارَ وَعْدِهِ نَكْثًا وَوَعِيدِهِ عَجْزًا. (وَمِنْ آدَابِهِ)
إِنْ قَالَ قَوْلًا حَقَّقَهُ بِفِعْلِهِ وَإِذَا تَكَلَّمَ بِكَلَامٍ صَدَّقَهُ بِفِعْلِهِ فَإِنْ
أَرْسَلَ الْقَوْلَ اخْتِيَارًا وَالْعَمَلَ بِهِ اضْطِرَارًا وَلَيْنَ يَفْعَلْ مَا لَمْ يَقُلْ
أَحْمَلُ مِنْ أَنْ يَقُولَ مَا لَمْ يَفْعَلْ. وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: أَحْسَنُ
الْكَلَامِ مَا لَا يُحْتَاجُ فِيهِ إِلَى الْكَلَامِ أَيَّ يَكْتَفِي بِالْفِعْلِ مِنْ
الْقَوْلِ. وَقَالَ مُحَمَّدُ الْوَرَّاقُ:

الْقَوْلُ مَا صَدَّقَهُ الْفِعْلُ وَالْفِعْلُ مَا وَكَّدَهُ الْعَقْلُ
 لَا يَثْبُتُ الْقَوْلُ إِذَا لَمْ يَكُنْ يُقَالُهُ مِنْ تَحْتِهِ الْأَصْلُ
 (وَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ يُرَاعِيَ تَخَارِجَ كَلَامِهِ بِحَسَبِ مَقَاصِدِهِ
 وَأَعْرَاضِهِ فَإِنْ كَانَ تَرْغِيبًا قَرَنَهُ بِاللَّيْنِ وَاللُّطْفِ. وَإِنْ كَانَ تَرْهيبًا
 خَاطَهُ بِالْخَشَوْنَةِ وَالْعُنْفِ. فَإِنَّ لَيْنَ اللَّفْظِ فِي التَّرْهيبِ وَخَشَوْنَتَهُ فِي
 التَّرْغِيبِ خُرُوجٌ عَنْ مَوْضِعَيْهَا وَتَقْطِيلٌ لِلْمَقْصُودِ بِهَا فَيَصِيرُ الْكَلَامُ
 لَفْوًا وَالْفَرَضُ الْمَقْصُودُ هَوًا. وَقَدْ قَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ الدِّيلِيُّ لِأَبْنِهِ :
 يَا بَنِيَّ إِنْ كُنْتَ فِي قَوْمٍ فَلَا تَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ مِنْ هُوَ فَوْقَكَ
 فَيَهْزَأُ بِكَ. وَلَا بِكَلَامٍ مِنْ هُوَ دُونَكَ فَيَزِدُّوكَ. (وَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ
 لَا يَرْفَعَ بِكَلَامِهِ صَوْتًا مُسْتَنَكِرًا وَلَا يَتَرَجَّعَ لَهُ أَتْرَعًا مُسْتَهْجِنًا
 وَلِيَكْفَ عَنْ حَرَكَةٍ تَكُونُ طَيْشًا وَعَنْ حَرَكَةٍ تَكُونُ عِيًا. فَإِنْ
 نَقَصَ الطَّيْشَ أَكْثَرَ مِنْ فَضْلِ الْبَلَاغَةِ. وَقَدْ حُكِيَ أَنَّ الْحُجَّاجَ قَالَ
 لِأَعْرَابِيٍّ : أَخْطِيبُ أَنَا. قَالَ : نَعَمْ لَوْلَا أَنَّكَ تُكْثِرُ الرَّدَّ وَتَشِيرُ
 بِالْيَدِ وَتَقُولُ أَمَّا بَعْدُ. (وَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ يُتَجَوَّزَ فِي هَجْرِ الْقَوْلِ
 وَمُسْتَهْجِنِ الْكَلَامِ وَلِيَعْدِلَ إِلَى الْكِفَايَةِ عَمَّا يُسْتَهْجَنُ صَرِيحُهُ
 وَيُسْتَهْجَنُ فَصِيحُهُ لِيَبْلُغَ الْفَرَضَ وَلِسَانَهُ تَرَهُ وَأَدَبُهُ مَصُونٌ كَمَا أَنَّهُ
 يَصُونُ لِسَانَهُ عَنْ ذَلِكَ فَهَكَذَا يَصُونُ عَنْهُ سَمْعُهُ فَلَا يَسْمَعُ خَمًّا وَلَا
 يُضْغِي إِلَى فُحْشٍ فَإِنَّ سَمَاعَ الْفُحْشِ دَاعٍ إِلَى إِظْهَارِهِ وَذَرِيعَةٌ إِلَى
 إِنْكَارِهِ وَإِذَا وَجِدَ عَنِ الْفُحْشِ مُعْرِضًا كَفَّ قَائِلُهُ وَكَانَ إِعْرَاضُهُ
 أَحَدَ التَّكْيِيدَيْنِ كَمَا أَنَّ سَمَاعَهُ أَحَدَ الْبَاعِثَيْنِ. وَأَنْشَدَنِي أَبُو الْحَسَنِ

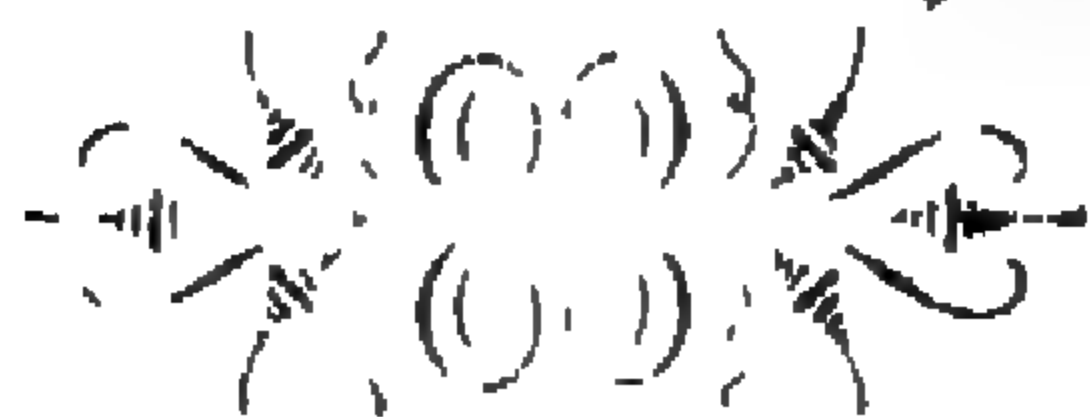
أَبْنُ الْحَارِثِ الْهَاشِمِيُّ :

تَحَرَّ مِنْ الطُّرُقِ أَوْسَاطَهَا وَعَدَّ عَنْ الْمَوْضِعِ الْمُنْتَبِهَ
وَسَمِعَكَ صُنْ عَنْ قَبِيحِ الْكَلَامِ كَصَوْنِ اللِّسَانِ عَنِ النُّطْقِ بِهِ
فَإِنَّكَ عِنْدَ اتِّبَاعِ الْقَبِيحِ شَرِيكٌ لِقَائِلِهِ فَأَنْتَبِهَ
وَمِمَّا يَجْرِي مَجْرَى فُحْشِ الْقَوْلِ وَهَجْرِهِ فِي وَجُوبِ اجْتِنَائِهِ وَلزُومِ
تَنَكُّهِهِ مَا كَانَ شَنِيعَ الْبَدِيعَةِ مُسْتَكْرَ الظَّاهِرِ وَإِنْ كَانَ عُقْبُ
التَّأَمُّلِ سَلِيمًا وَبَعْدَ الْكَشْفِ وَالرُّوْيَةِ مُسْتَقِيمًا كَالَّذِي رَوَاهُ الْأَزْدِيُّ
عَنِ الصَّوَلِيِّ لِبَعْضِ الْمُتَكَلِّمِينَ مِنَ الشُّعْرَاءِ :

إِنِّي شَيْخٌ كَبِيرٌ كَافِرٌ بِاللَّهِ سِيرِي

أَنْتَ رَبِّي وَإِلَهِي رَازِقُ الطِّفْلِ الصَّغِيرِ

يُرِيدُ بِقَوْلِهِ (كَافِرٌ) أَيُّ لَا يَسُّ لِي أَنَّ الْكُفْرَ التَّغْطِيَّةُ. وَلِذَلِكَ
سَمِيَ الْكَافِرُ بِاللَّهِ كَافِرًا لِأَنَّهُ قَدْ غَطَّى نِعْمَةَ اللَّهِ بِمَعْصِيَتِهِ. وَقَوْلُهُ :
(بِاللَّهِ سِيرِي) يُقْسِمُ عَلَيْهَا أَنْ تَسِيرَ. وَقَوْلُهُ : (أَنْتَ رَبِّي) يَعْنِي رَبِّي
وَلِذَلِكَ مِنْ التَّرْبِيَةِ. وَإِلَهِي رَازِقُ الطِّفْلِ الصَّغِيرِ كَمَا أَنَّهُ رَازِقُ الْوَلَدِ
الْكَبِيرِ. فَانْظُرْ إِلَى هَذَا أَنْتَ كَلَّفَ الشَّيْخَ وَالتَّعَقُّقَ الْبَشِيعَ مَا
أَعْتَاضَ مِنْ حَيْثُ الْبَدِيعَةِ إِذَا سَلِمَ بَعْدَ الْفِكْرِ وَالرُّوْيَةِ إِلَّا لَوْ مَا
إِنْ حَسُنَ فِيهِ الظَّنُّ أَوْ ذَمًّا إِنْ قَوِيَ فِيهِ الْإِرْتِيَابُ. وَقَلْنَا يَكُونُ
ذَلِكَ إِلَّا مِنْ خَائِعٍ بَطَرٍ أَوْ مُرْتَابٍ أَيْثَرٍ



المبحث الثاني

في خصال الخطيب

(عن الماوردي والعراقي ببعض تصرف)

(راجع صفحة ٣٩ من علم الخطابة)

إِنَّ الْخَطِيبَ الْحَرِيَّ بِالْإِرْشَادِ مَنْ قَدْ اسْتَكْمَلَتْ فِيهِ خَمْسُ
خِصَالٍ : (إِحْدَاهُنَّ) عَقْلٌ كَامِلٌ مَعَ تَجَرِبَةٍ سَالِفَةٍ فَإِنَّ بَكْثَرَةَ
التَّجَارِبِ تَصِحُّ الرُّوْيَةُ . وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ : اسْتَرْشِدُوا الْعَاقِلَ
تُرْتَدُّوا وَلَا تَعُصِرْهُ فَنُتَدِّمُوا . وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْحَسَنِ لِابْنِهِ مُحَمَّدٍ :
أَحْذَرُوا شُورَةَ الْجَاهِلِ وَإِنْ كَانَ نَاصِحًا كَمَا تُحْذَرُ عَدَاوَةُ الْعَاقِلِ
إِذَا كَانَ عَدُوًّا فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يُورِطَكَ بِشُورَتِهِ فَيَنْهَبِقُ رَأْيَكَ
مَكْرَ الْعَاقِلِ وَتَوْرِيطُ الْجَاهِلِ . وَقِيلَ لِرَجُلٍ مِنْ عَدُسٍ : مَا أَكْثَرُ
صَوَابَكُمْ . قَالَ : نَحْنُ أَلْفُ رَجُلٍ وَفِينَا حَازِمٌ وَنَحْنُ نَطِيعُهُ فَكَاثَرًا
أَلْفُ حَازِمٍ . وَكَانَ يُقَالُ إِيَّاكَ وَمَشَاوَرَةَ رَجُلَيْنِ شَابٍ مُتَجَبِّ
بِنَفْسِهِ قَلِيلِ التَّجَارِبِ فِي غَيْرِهِ أَوْ كَبِيرٍ قَدْ أَخَذَ الدَّهْرَ مِنْ عَقْلِهِ كَمَا
أَخَذَ مِنْ جِسْمِهِ . وَقِيلَ فِي مَثُورِ الْحُكْمِ : كُلُّ شَيْءٍ لَا يَحْتَاجُ إِلَى
الْعَقْلِ وَالْعَقْلُ يَحْتَاجُ إِلَى التَّجَارِبِ . وَلِذَلِكَ قِيلَ : الْيَوْمَ تَهْتِكُ لَكَ عَنْ
الْأَسْتَارِ الْكَامِنَةِ . وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ : التَّجَارِبُ لَيْسَ لَهَا غَايَةٌ
وَالْعَاقِلُ مِنْهَا فِي زِيَادَةٍ . وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ : مَنْ اسْتَعَانَ بِذَوِي
الْعُقُولِ فَإِنَّ بِذَلِكَ الْمَأْمُولَ . وَقَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ الدِّيَلِيُّ :

وَمَا كُلُّ ذِي نُفُوحٍ بِمُؤْتِيكَ نُفُوحَهُ وَلَا كُلُّ مُؤْتِي نُفُوحِهِ بِسَبَبٍ
وَلَكِنْ إِذَا مَا اسْتَجْمَعَا عِنْدَ صَاحِبٍ فَحَقَّ لَهُ مِنْ طَاعَةٍ بِنَصِيبٍ
(وَالْخُصْلَةُ الثَّانِيَّةُ) أَنْ يَكُونَ الْخَطِيبُ ذَا دِينٍ وَتَقَى فَإِنَّ
ذَلِكَ عِمَادُ كُلِّ صَلاَحٍ وَبَابُ كُلِّ نَجَاحٍ وَمَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ الدِّينُ فَهُوَ
مَأْمُونُ السَّرِيرَةِ مُوَفَّقُ الْعَزِيمَةِ. (وَالْخُصْلَةُ الثَّلَاثَةُ) أَنْ يَكُونَ
نَاصِحًا وَدُودًا فَإِنَّ النُّصْحَ وَالْمُودَّةَ يُصَدِّقَانِ الْفِكْرَةَ وَيُخَفِّضَانِ الرَّأْيَ.
وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: لَا تُشَاوِرْ إِلَّا الْحَازِمَ غَيْرَ الْحُسُودِ وَاللَّيِّبَ
غَيْرَ الْحُقُودِ وَإِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةُ النِّسَاءِ فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَى الْآفَنِ وَعَزَمَهُنَّ
إِلَى الْوَهْنِ. وَقَالَ بَعْضُ الْأَدَبَاءِ مَشُورَةُ الْمُشْفِقِ الْحَازِمِ ظَفَرٌ
وَمَشُورَةُ غَيْرِ الْحَازِمِ خَطَرٌ وَقَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ:

أَصْفَ ضَمِيرًا لَمْ تَعْبَثْهُ وَأَنْسَيْنِي إِلَى نَاصِحٍ تَشَاوَرُهُ
وَأَرْضَ مِنْ أَرَى فِي مَوَدَّتِهِ بِمَا يُؤْذِي إِلَيْكَ ظَاهِرُهُ
مَنْ يَكْشِفُ النَّاسَ لَمْ يَجِدْ أَحَدًا تَنْصَحُ مِنْهُمْ لَهُ بِرَأْيِهِ
أَوْشَكَ أَنْ لَا يَدُومَ وَضَلُّ اخٍ فِي كُلِّ زَلَالَةٍ تُنَاسِفُهُ

(وَالْخُصْلَةُ الرَّابِعَةُ) أَنْ يَكُونَ سَائِمَ الْفِكْرِ مِنْ هَمٍّ قَاطِعٍ
وَعَمَلٍ شَاغِلٍ. فَإِنَّ مَنْ عَارَضَتْ فِكْرُهُ شَوَائِبُ الْهَمِّ لَا يَسْلَمُ لَهُ
رَأْيٌ وَلَا يَسْتَقِيمُ لَهُ خَاطِرٌ. وَكَانَ كِنَرِي إِذَا دَهَمَهُ أَمْرٌ بَعَثَ إِلَى
مَرَاذِيئِهِ فَاسْتَشَارَهُمْ فَإِنْ قَصَّرُوا بِالرَّأْيِ ضَرَبَ قَهَارِمَتَهُ وَقَالَ: أَبْطَأْتُمْ
بَارِزَاتِهِمْ فَأَخْطَأُوا فِي آرَائِهِمْ. وَقَالَ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ الْقُدُّوسِ:
وَلَا مُبِيرَ كُنْزِي نُفُوحٍ وَتَقْدِيرَةٍ فِي مُشْكِلِ الْأَمْرِ فَأَحْذَرُ ذَلِكَ مُنْتَهِيًا

(وَالْخُصْلَةُ الْخَامِسَةُ) أَنْ لَا يَكُونَ لَهُ فِي الْأَمْرِ الْمُسْتَشَارُ
غَرَضٌ يُتَابَعُهُ وَلَا هَوًى يُسَاعِدُهُ فَإِنَّ الْأَغْرَاضَ جاذِبَةٌ وَالْهَوًى صَادٌّ
وَالرَّأْيَ إِذَا عَارَضَهُ الْهَوًى وَجاذِبَتُهُ الْأَغْرَاضُ فَسَدَ. وَقَدْ قَالَ
الْفَضْلُ بْنُ الْعَبَّاسِ بْنِ عَتَبَةَ بْنِ أَبِي لَهَبٍ :

وَقَدْ يُحْكِمُ الْأَيَّامُ مَنْ كَانَ جَاهِلًا

وَيَزِيدِي الْهَوًى ذَا الرَّأْيِ وَهُوَ لَيْبٌ

وَيُخَمِّدُ فِي الْأَمْرِ الْفَتَى وَهُوَ مُخْطِئٌ :

وَيُعْذَلُ فِي الْإِحْسَانِ وَهُوَ مُصِيبٌ

فَإِذَا اسْتَكْمَلْتَ هَذِهِ الْخُصَالَ الْخَمْسَ فِي رَجُلٍ كَانَ أَهْلًا
لِلْإِشَادَةِ وَالْمَشُورَةِ وَمَعْدِنَا الرَّأْيِ فَلَا تَغْدِلْ عَنْ اسْتِشَارَتِهِ أَعْتِبَادًا
عَلَى مَا تَتَوَهَّمُهُ مِنْ فَضْلِ رَأْيِكَ وَثِقَةً بِمَا تَسْتَشِيرُهُ مِنْ صِحَّةِ رَوِيَّتِكَ.
فَإِنَّ رَأْيَ غَيْرِ ذِي الْحَاجَةِ أَسْلَمُ وَهُوَ مِنَ الصَّوَابِ أَقْرَبُ لِلْخُلُوصِ
أَلْفِكْرِ وَخُلُوصِ الْخَاطِرِ مَعَ عَدَمِ الْهَوًى وَارْتِفَاعِ الشَّهْوَةِ وَقَدْ وَرَدَ فِي
الْحَدِيثِ : إِنَّ رَأْسَ الْعَقْلِ بَعْدَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ التَّوَدُّدُ إِلَى النَّاسِ وَمَا
اسْتَغْنَى مُسْتَبِدُّ بِرَأْيِهِ وَمَا هَلَكَ أَحَدٌ عَنْ مَشُورَةٍ فَلِذَا أَرَادَ اللَّهُ
بِعَبْدٍ هَلَكَةً كَانَ أَوَّلَ مَا يُهْلِكُهُ رَأْيُهُ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ :
الْإِسْتِشَارَةُ عَيْنُ الْهُدَايَةِ وَقَدْ خَاطَرَ مَنْ اسْتَغْنَى بِرَأْيِهِ. وَقَالَ لُقْمَانُ
الْحَكِيمُ : لَا تَنْهَ شَاوِرَ مَنْ جَرَّبَ الْأُمُورَ فَإِنَّهُ يُعْطِيكَ مِنْ رَأْيِهِ مَا
قَامَ عَلَيْهِ بِالْفَلَاحِ وَأَنْتَ تَأْخُذُهُ بِمَجَانًا. وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ : يَنْصِفُ
رَأْيُكَ مَعَ أَخِيكَ فَشَاوِرْهُ لِيَكْمَلَ الرَّأْيُ

المبحث الثالث

في طباع الناس على اختلاف اطوار الحياة

(من كتاب مشهد الاحوال لفتح الله مراش)

(راجع صفحة ٤٣ من علم الخطابة)

(حَالُ الطُّفُولِيَّةِ) هَذَا هُوَ الدَّوْرُ الْأَوَّلُ لِحَيَاةِ الْإِنْسَانِ . وَالْغُلُوبَةُ الْأُولَى فِي طَرِيقِ الزَّمَانِ . حَيْثُمَا يُقَالُ لِلدَّاخِلِ طِفْلٌ مَوْلُودٌ . وَلِلخَارِجِ شَيْخٌ مَفْقُودٌ . وَلَمَّا كَانَ الْإِنْسَانُ فِي هَذَا الْمَدْخَلِ عَدِيمُ الْبَصِيرَةِ . خَالِي السَّرِيرَةِ . عَارِيًا مِنْ كُلِّ الْكَمَالَاتِ الْأَدَبِيَّةِ . غَيْرَ حَاصِلٍ عَلَى تَمَامِ الْوُضَائِفِ الْعَقْلِيَّةِ . فَلَا يَرَى إِلَّا مَا يَقُومُ قُرْبَهُ . وَلَا يَشْعُرُ إِلَّا بِمَا يَسْتَعْطِفُ قَلْبَهُ . فَيَلْعَبُ بِالْثَرَابِ وَيَذَرِيهِ . وَيَعْبَثُ بِالتُّبْرِ وَيُزْرِيه . وَيَسْخَرُ بِالْمَقْبُولَاتِ وَالْمَرْدُودَاتِ . وَيَضْحَكُ عَلَى كُلِّ أَلْوَجُودَاتٍ . فَلَا يَهْتَمُّ إِلَّا بِطَلَبِ الْغِذَاءِ . وَلَا يَحْفَلُ إِلَّا بِمَا يُورِثُ الْأَذَى . وَإِذَا لَا يَبْرَحُ طَائِشًا بِحِفَّةِ نُذْيِهِ . وَضَائِعًا فِي تِيهِ نَيْتِهِ . فَلَا يَسْمَعُ دَوِيَّ ضَوْضَاءِ الْعَوَالِمِ . وَلَا رَوِيَّ قَوَافِي الْعِظَائِمِ . بَيْنَمَا يَكُونُ بَاصِيًا تَحْتَ تَأْثِيرَاتِهَا وَقَوَائِلِهَا . وَمُتَحَرِّكًا وَسَاكِينًا تَحْتَ جَوَازِمِهَا وَعَوَاقِمِهَا . وَمُسْرِعًا فِي طَرِيقِ حَيَاتِهِ إِلَى الدُّخُولِ فِي أَنْبَوَائِهَا . وَالْعَوَاصِي فِي عُجَابِهَا . فَلَيْتَ عَيْنُهُ تَرَى مَا يَسْتَقْبِلُهُ مِنَ الْأَوْصَابِ . وَمَا يَسْتَنْظِرُهُ مِنَ الْأَلْتَابِ . فَمَا أَتَدْنِي إِلَّا رَمْزُ الرَّدَى فِي طَلَبِ الْقَوْتِ . وَمَا أَتَمُودُ إِلَّا إِشَارَةُ التَّابُوتِ

(حَالُ الْفُتُورَةِ) هَذَا هُوَ الدَّوْرُ الثَّانِي لِلْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ . وَالْمَسَاحَةُ
الْأُولَى لِإِنْتِشَارِ الْقُوَى الْعَقْلِيَّةِ أَوْ الثَّلْثُ الْأَوَّلُ فِي طَرِيقِ الْأَجَلِ .
وَمَسَلِكِ الْعَمَلِ . فَيَضَعُ الْإِنْسَانُ عَلَيْهِ وَيَنْظُرُ الْعَالَمَ بِعَيْنَيْهِ . فَيَرَاهُ
مَشْهُدًا بَدِيعَ الْجَمَالِ . وَمَلْعَبًا تَلْعَبُ بِهِ الْأَمْالُ . وَتَرْقُصُ فِيهِ
الْمَلَذَاتُ وَالْأَمَانِي . وَتَحُومُ حَوْلَهُ الْبَشَائِرُ وَالنَّهَائِي . فَتَشْغُلُهُ شُؤْلُ هَذَا
الظُّهُورِ . وَتَلْعَبُ بِرَأْسِهِ حِمْيَةُ هَذِهِ الْأُمُورِ . فَيَسِيْتُ سَكْرَانٍ بِالْأَفْرَاحِ .
وَمَاخُودًا بِرَيْنِ تِلْكَ الْأَقْدَاحِ . فَيَبْسِمُ مَدَى الْأَوْقَاتِ . وَلَا يَعْلَمُ مَا
الْآفَاتُ . اذْ يَظَلُّ مُلْتَفًّا بِكِسَاءِ الْأَمْالِ . وَمُحْتَفًّا بِأَوْهَامِ الْأَعْمَالِ .
وَلَا يَنْظُرُ إِلَّا إِلَى ذَاتِهِ . وَلَا يَحْفِلُ إِلَّا بِصِفَاتِهِ . هَائِمًا فِي مَلَاهِي
دُنْيَاهُ . وَمُتَهَافِتًا عَلَى حَدَاثَةِ قُورَاهُ . وَهَكَذَا يَهْوِطُ فِي وَادِي هَذَا
الْعَالَمِ الْمَلِيمِ . وَيَخْجِطُ فِي ذَلِكَ الْبَحْرِ الْخِضَمِ . وَلَا يَزَالُ بَيْنَ هُبُوبِ
وَأَنْكِبَابِ . إِلَى أَنْ يَنْشَلَهُ الصَّوَابُ . وَيُذِرْكَهُ الشَّبَابُ

(حَالُ الشُّبُورِيَّةِ) أَمَّا الشُّبُورِيَّةُ فَهِيَ الدَّوْرُ الثَّالِثُ لِلْأَجَلِ . وَتَحَلُّ الْكَدِّ
وَالْعَمَلِ . وَمَوْقِعُ الْيَأْسِ وَالْأَمَلِ . حَيْثُمَا يُوجَدُ الْإِنْسَانُ ضَائِعًا فِي مَفَازَةِ
الْعُسْرِ . حَايِرًا فِي تَشْوِقِ النَّهْيِ وَالْأَمْرِ . فَيَرَى نَفْسَهُ قَائِمًا فِي وَسْطِ
هَذِهِ الدُّنْيَا . مُنْطَقًا بِكَافَّةِ الْأَشْيَاءِ . مُلْتَطِّمًا بِأَوْجِ الْعَالَمِ وَأَهْوَالِهِ .
مَضْرُوعًا وَمَاخُودًا بِضَجَائِهِ وَضَوْغَانِهِ . وَهَكَذَا تَنْهَضُ فِي قَلْبِهِ ثَوْرَةُ
الْحَوَاسِ . وَتَتَشَبُّ فِي دِمَاعِهِ نَارُ الْوَسْوَاسِ . وَتَضْفِرُ فِي سَرِيرَتِهِ رِيحُ
الْأَهْجَاسِ . فَيَنْدَفِعُ إِلَى مُنَازَلَةِ الْأَقْدَارِ وَالْأَيَّامِ . وَمُقَابَلَةِ الْحَقَائِقِ
وَالْأَوْهَامِ . فَتَارَةً تَهْبُ بِهِ الْأَمْالُ إِلَى أَوْجِ الْأَفْرَاحِ وَالْمَسَرَّاتِ .

وَطَوْرًا تَكْبُ بِهِ الْخَبَيَاتُ فِي حَضِيضِ الْأَتْرَاحِ وَالْحَسَرَاتِ . يَرَى
الْعَالَمَ قَرِيبَ الْمَنَالِ . فَيَنْدَفِعُ وَرَاءَهُ عَلَى نُيُونِ الْأَهْوَالِ . حَتَّى إِذَا
مَا ظَفِرَ بِالْبَعْضِ طَعِمَ بِالْكُلِّ . وَإِذَا فَازَ بِالسَّجْمِ رَغِبَ فِي الظِّلِّ .
فَلَا يَكُونُ إِلَّا مُضْغَةً فِي آفَوَاهِ الطَّامِعِ . وَكَرَّةً تَتَلَقَّهَا الْقَوَامِعُ .
وَذَلِكَ إِنَّمَا يُوجَدُ مُهَيَّطًا لِحَوَادِثِ الْجَدَثَانِ . وَمُسْتَقْطًا لِأَحَادِثِ
الزَّمَانِ . وَلَا تَزَالُ زَهْرَةٌ هَذَا الشَّبَابِ الزَّاهِي بَيْنَ ذُبُولٍ وَأَقْتِرَارٍ .
وَلَا يَبْرَحُ تَذُرُّ هَذَا الْمَعْرِ الْبَاهِي بَيْنَ خُسُوفٍ وَأَسْفِرَارٍ . إِلَى أَنْ
تَبْثُرَ الشَّجْوَحُ تَابَحَ تِلْكَ الزَّهْرَةِ . وَيَضَعُ الْهَرَمُ وَجْهَ هَانِيكَ الْقِرَّةِ .
حَيْثُمَا يَسْقُطُ الشَّبَابُ مِنْ فَرْشِهِ . وَيَرْتَفِعُ الْمَشِيبُ عَلَى عَرْشِهِ

(حَالُ الشَّجْوَحَةِ) فَلَا يَزَالُ الْإِنْسَانُ سَائِرًا فِي طَرِيقِ عُمرِهِ
سَيِّدَ الْمَسَافِرِ فِي الْقِفَارِ . إِلَى أَنْ يَبْلُغَ رَابِعَ الْأَذْوَارِ . وَهُوَ دَوْرُ الدُّنْيَا .
هَذَا إِذَا أَمْسَكَهُ الْخَلَاصُ مِنْ أُلُوصِ الْحَوَادِثِ . وَالْمَنَاصُ مِنْ أَسَدِ
الْكَوَارِثِ . وَنَهَبَةِ الْأَعْرَاضِ . وَقَتْلَةِ الْأَمْرَاضِ فَيَلْبِثُ هُنَاكَ مَنُوكًا
مِنْ تَعَبِ الْمَيِّدِ . وَمَخْضَرِ التَّأْيِيدِ . إِذْ يَبُودُ مُخْتَبِئًا تَحْتَ أَحْمَالِ الْحَيَاةِ
وَأَثْقَالِهَا . وَمَرْمُوضًا مِنْ عَمَدَاتِ الدُّنْيَا وَأَهْوَالِهَا . فَتَضَعُ ضَوْضَاءُ
حَوَاسِهِ وَهَوَاجِسِهِ . وَيَخْرُسُ رَيْنُ أَنْفَاسِهِ وَوَسَاوِسِهِ . فَيَكْفُ بَصَرُهُ .
وَيَجْفُ فِكْرُهُ . وَيَقِلُّ ذَوْقُهُ . وَيَكْثُرُ شَوْقُهُ . وَيَجْلُ حَتَّى بِأَنْفَاسِهِ .
وَيَزِيدُ جَرْمُهُ عَلَى النَّفْسِ . وَيَجُودُ بِأَنْفَاسِهِ . فَإِذَا التَّقَتِ إِلَى وَدَائِهِ
وَرَأَى الدُّنْيَا الَّتِي قَطَعَهَا . وَالطَّرِيقَ الَّتِي تَتَبَّعَهَا . ظَهَرَتْ لَهُ الْأَشْيَاءُ
أَشْبَاحَ الْأَدْلَامِ . وَمَلَايِبَ أَوْهَامِهِ . وَكُلُّهَا تَجْرِي تَهَيُّدُهُ إِلَى الزَّوَالِ .

كَالطَّيْفِ وَالْخَيَالِ . قَيْضُكَ عَلَى الْجَمِيعِ . ضَحِكَ الْبَطْلُ الرُّضِيعِ . أَمَّا
إِذَا التَّفَتَ إِلَى الْأَمَامِ . وَطَامِعَ بَبَقِيَّةِ الْأَيَّامِ . حَنَّ إِلَى الْوُجُودِ .
وَهَامَ بِحُبِّ الْخُلُودِ . وَلَا يَزَالُ الْمَاضِي يَدْفَعُهُ . وَالْحَاضِرُ يَرُدُّهُ .
وَالْمُسْتَقْبَلُ يُطْعِمُهُ . حَتَّى تَحْتَطِفَ بِمَامَةِ نَفْسِهِ بُرَاةُ الْمَنِيِّ . وَتَسْلِبَهُ
كُلَّ بُغْيَةٍ وَأُمْنِيَةٍ . فَيَهْبِطَ هُبُوطَ الْبُذْيَانِ . وَيَغُورَ فِي قَبْرِ الْمَسِيانِ .
حِينَ تَتَرَجَّعُ الْكَلِمَاتُ جُزْئِيَّاتِهَا . وَتَسْرُدُ الْجُمُوعَاتُ مُفْرَدَاتِهَا

البحث الرابع

في سياسة الخطيب مع الجمهور ومواخاة طباعهم

(عن رسائل خط للعاراني تصرف)

(راجع صفحة ٤٥ ، من الجزء الثاني من علم الادب)

إِنَّ الْخَطِيبَ إِذَا مَا أَرَادَ بُلُوغَ غَايَتِهِ وَحُسْنَ سِيَاسَةِ نَفْسِهِ فِي
أُمُورِهِ فَلْيَتَوَخَّ طِبَاعَهُمْ وَتَتَوَنَّ أَخْلَاقَهُمْ وَتَبَايُنَ أَخْوَالِهِمْ . قَالَ
أَفَلَاطُونُ : لِكُلِّ أَمْرٍ حَقِيقَةٌ . وَلِكُلِّ زَمَانٍ طَرِيقَةٌ . وَلِكُلِّ
إِنْسَانٍ خَلِيقَةٌ . فَعَايِلِ النَّاسَ عَلَى خَلَائِقِهِمْ وَالتَّيَسَّرَ مِنْ الْأُمُورِ
حَقَائِقُهَا وَأَجْرِ مَعَ الزَّمَانِ عَلَى طَرَائِقِهِ (اهـ) . وَهَذِهِ قَوَائِينُ تَنْفَعُ الْخَطِيبَ
فِي مُتَصَرِّفَاتِهِ مَعَ كُلِّ طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ طَبَقَتِهِ وَمَنْ دُونَهُ وَمَنْ فَوْقَهُ
عَلَى سَبِيلِ الْإِيحَازِ وَالْإِخْتِصَارِ . عَلَى أَنَّهُ لَا يَنْمُغُ قَوْلُنَا هَذَا مِنْ ذِكْرِ
مَا يَخْتَصُّ بِاسْتِعْمَالِهِ طَائِفَةٌ دُونَ طَائِفَةٍ وَوَاحِدٌ وَاحِدٌ مِنْهُمْ فِي وَقْتِ

دُونَ وَقْتٍ وَمَعَ قَوْمٍ دُونَ قَوْمٍ إِذِ الْوَاحِدُ مِنَ النَّاسِ لَا يُمَكِّدُهُ
 أَنْ يَسْتَقْسِلَ فِي كُلِّ وَقْتٍ مَعَ كُلِّ أَحَدٍ كُلَّ ضَرْبٍ مِنْ ضُرُوبِ
 السِّيَاسَاتِ. وَنُقَدِّمُ لِذَلِكَ مُقَدِّمَاتٍ وَنَهَا أَنْ نَقُولَ إِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ
 مِنَ النَّاسِ مَتَى مَا رَجَعَ إِلَى نَفْسِهِ وَتَأَمَّلَ أَحْوَالَهَا وَآخَوَالَ غَيْرِهِ
 مِنْ فِئَاتِ النَّاسِ وَجَدَ نَفْسَهُ فِي رُتَبَةٍ يَشْرِكُهُ فِيهَا طَائِفَةٌ مِنْهُمْ .
 وَوَجَدَ فَوْقَ رُتَبَتِهِ طَائِفَةٌ هُمْ أَعْلَى مَرْتَبَةً مِنْهُ بِجِهَةٍ أَوْ جِهَاتٍ. وَوَجَدَ
 دُونَهَا طَائِفَةٌ هُمْ أَوْضَعُ مِنْهُ بِجِهَةٍ أَوْ جِهَاتٍ. لِأَنَّ الْمَلِكَ الْأَعْظَمَ مَثَلًا
 وَإِنْ وَجَدَ نَفْسَهُ فِي مَحَلٍّ لَا يَرَى لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ فِي زَمَانِهِ مَثَلَهُ
 أَعْلَى مِنْ مَثَرَاتِهِ فَإِنَّهُ مَتَى تَأَمَّلَ حَالَهُ نِعْمًا وَجَدَ مِنْهُمْ مَنْ يَفْضَلُهُ
 بِنَوْعٍ مِنَ الْفَضِيلَةِ الْفَضْلِيَّةِ إِذْ لَيْسَ فِي أَجْزَاءِ الْعَالَمِ مَا هُوَ
 كَامِلٌ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ. وَكَذَلِكَ الْوَضِيعُ الْخَامِلُ الَّذِي يُجَدُّ
 فِي نَفْسِهِ أَشْيَاءٌ لَمْ يَفْزُ بِهَا مَنْ هُوَ فَوْقَهُ. فَقَدْ صَحَّ مَا وَصَفْنَا. وَيَنْتَفِعُ
 الْخَطِيبُ بِاسْتِعْمَالِ السِّيَاسَاتِ مَعَ هَذَا. الطَّبَقَاتِ الثَّلَاثِ... وَنَقُولُ
 أَيْضًا إِنَّ أَنْفَعَ الطَّرِيقِ الَّتِي يَسْلُكُهَا الْخَطِيبُ فِي ذَلِكَ تَأَمُّلُ أَحْوَالِ
 النَّاسِ وَأَعْمَالِهِمْ وَمُتَصَرِّفَاتِهِمْ، أَشْهَدُهَا وَمَا غَابَ عَنْهَا بِمَا سَمِعَهُ
 وَتَنَامَى إِلَيْهِ مِنْهَا وَأَنْ يُعِينَ النَّظَرَ فِيهَا وَيُمَيِّزَ خَاسِنَهَا وَمَسَاوِيَهَا
 وَبَيْنَ النَّافِعِ وَالضَّارِّ لَهُمْ مِنْهَا. ثُمَّ لِيَجْتَهِدَ فِي التَّمَسُّكِ بِخَاسِنِهَا وَحَضْرِ
 النَّاسِ عَلَى طَلَبِهَا لِيَسْأَلُوا مِنْ مَنَافِعِهَا مِثْلَ مَا نَالَهُ مِنْ تَقَدُّمِهِمْ وَيَجْتَهِدَ
 فِي التَّنْكِيبِ عَنْ مَسَاوِيئِهَا لِئَامَنَ مِنْ مَضَارِهَا وَيَسْلَمَ مِنْ غَوَائِلِهَا
 مِثْلَ مَا سَلِمُوا. وَنَقُولُ أَيْضًا إِنَّ لِكُلِّ شَخْصٍ مِنْ أَشْخَاصِ

الإناس قوتين إحداهما ناطقة والأخرى بهيمة ولكل واحد منهما
 نزاع غالب. ونزاع القوة البهيمية نحو اللذات العاجلة الشهوانية مثل
 أنواع الغذاء ونزاع القوة الناطقة نحو الأمور المحمودة العواقب..
 فعلى كل من يرشد الجمهور ويحفظهم على نيل الفضائل أن لا
 يتغافل عن تنزيههم على ما هو أصح لهم وأن لا يهملهم فإنه متى
 ما أهملهم تحركوا نحو الطرف الآخر الذي هو البهيمي. وإذا
 تحركوا نحوه تشبهوا ببعض منه حتى إذا أراد ردّهم عما تحركوا
 نحوه لحقه من النصب أضعاف ما كان يلحقه إذا لم يكن أهملهم.
 ونقول أيضا إن الخطيب لا ينبغي في جميع متصرفاته من أن يلقي
 الجمهور ما يلا إلى أمر محمود أو أمر مذموم. وله في كل واحد
 من الأمرين فائدة وموضع رياضة للتصرف وهو أن يحاول دفع
 السامعين إلى ذلك الأمر المحمود الذي يلقاه إن وجد السبيل إلى
 الدفع إليه وينزيههم على فضيلته ويوجب عليهم التمسك بها متى
 وجد الفرصة لذلك. وإذا يلقاه الأمر المذموم فيجتهد في التذير
 منه والتجنيب منه. وإن لم يجد إلى ذلك سبيلا فليزيههم على
 الاعتبار بمن تألّم مضرًا مثلها. فقد ظهر أن الخطيب في جميع
 أحواله جلها ودقيقها خيرها وشرها وموضع الرياضة لنفسه وإرشاد
 الجمهور. وإذا تيقن ذلك فينبغي أن يقدم على سياسة الأحوال
 بقلب قوي ونية صادقة وعدر واسع وثقة أن ما يأتيه من ذلك
 وإن قلّ يجدي عليه نفعًا يجلّ. ونبدأ بتعهد الخطيب للرؤساء إنه

يَحِبُّ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ مُلَازِمًا لِمَا هُوَ فِي صَدَدِهِ مُوَاطِبًا عَلَى مَا فُوضَ
إِلَيْهِ وَلَا يَخْشَى الْمَلَالَ وَخُصُوصًا مِنَ الْمُلُوكِ. وَأَنْ يَكُونَ مُجْتَهِدًا فِي
طَلَبِ وَجْهِ حَسَنِ كُلِّ مَا يَطْلُبُهُ مِنْهُمْ إِذَا لَا شَيْءَ مِنَ الْأُمُورِ
فِي الْعَالَمِ إِلَّا وَلَهُ وَجْهَانِ أَحَدُهُمَا جَمِيلٌ وَالْآخَرُ قَبِيحٌ فَلْيَطْلُبْ كُلَّ
أَمْرٍ مِنْ أُمُورِهِ وَجْهًا جَمِيلًا يَصْرِفُهُ إِلَيْهِ وَيَتَكَلَّفْ لِدِكْرِهِ بِحَضْرَتِهِ
فَإِنَّ الْخَطِيبَ الْمَفُوضَ إِلَيْهِ تَذِيرُ ذَلِكَ الرَّئِيسِ كَالسَّيْلِ الْمُحْدَرِ مِنَ
الرُّبُوعِ إِنْ أَرَادَ الْمَرْءُ أَنْ يُوَاجِهَهُ أَهْلَكَ نَفْسَهُ وَآتَى عَلَيْهِ السَّيْلُ
فَاغْرَقَهُ. وَإِنْ سَعَى مَعَهُ وَعَلَى جَانِبِيهِ وَتَلَطَّفَ لِيَصْرِفَهُ إِلَى النَّاحِيَةِ
بِأَنْ يَطْرَحَ فِي بَعْضِ حَوَائِيهِ مَقْدَارًا مِنَ الشَّدَدِ وَيَطْرُقَ لَهُ مِنْ
الْجَانِبِ الْآخِرِ لَا يَنْشَبُ أَنْ يَصْرِفَهُ إِلَى حَيْثُ شَاءَ. فَيَنْبَغِي لَهُ كَذَلِكَ
أَنْ يَسْتَعِزَّ بِمَعَ الرَّئِيسِ فِي صَرْفِ وَجْهِهِ عَمَّا يُرِيدُ صَرْفَهُ عَنْ أَمْرٍ
يُرِيدُ أَنْ يُجْرَى مَعَهُ فِيمَا هُوَ جَارٍ تَحْوَهُ وَلَا يُوَاجِهَهُ وَإِنْ كَانَ فِي
غَايَةِ الْإِنْسِاطِ مَعَهُ وَلَا يُقَرَّرُ بِمَا يُلْقَى مِنْهُ إِلَى النَّاسِ مِمَّا يُسْتَقْبَحُ
فَسِيَانِ بَيْنَ الْخَبَرِ وَالْإِقْرَارِ. وَيَنْبَغِي أَنْ يَتَلَطَّفَ كُلُّ التَّلَطُّفِ فِي
مِثْلِ الْمَنَافِعِ مِنْ جِهَةِ الرُّؤَسَاءِ بِأَنْ لَا يُدْلَجَ فِي السُّؤَالِ وَلَا يُدِيحُ
وَلَا يُظْهِرَ الطَّمَعَ وَالشَّرَّ مِنْ نَفْسِهِ وَيَجْتَهِدَ فِي أَنْ يَطْلُبَ مِنَ
الرُّؤَسَاءِ أَسْبَابَ الْمَنَافِعِ لَا الْمَنَافِعَ أَنْفُسَهَا. وَلْيَجْتَهِدْ فِي أَنْ يُظْهِرَ
فِي كُلِّ مَا يَقُولُ وَيَفْعَلُ أَنَّهُ إِنَّمَا يَفْعَلُهُ زِينَةً وَجَمَالًا لِلرَّئِيسِ لَا
لِنَفْسِهِ وَأَنَّهُ يُرِيدُ وَجْهَ الصَّلَاحِ فِي خِلَافِ مَا يَأْتِيهِ وَيَذْكُرُ لَهُ فِي
الْوَقْتِ بَعْدَ الْوَقْتِ عَلَى سَبِيلِ الْحِكَايَاتِ عَنْ غَيْرِهِ وَالْحِيلِ اللَّطِيفَةِ

بَعْضَ مَا يَغْرِضُ مِمَّا هُوَ فِيهِ. فَإِنَّهُ مَتَى مَا اسْتَعْمَلَ هَذِهِ الطَّرِيقَ لَا يَنْشَبُ أَنْ يَعُودَ الْحَالُ بِرَأْيِهِ.. وَأَنْ يَعْلَمَ أَنَّ لِلرُّؤَسَاءِ هِمًّا يَنْفَرِدُونَ بِهَا عَنْ سِوَاهُمْ مِنَ النَّاسِ وَهِيَ أَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ فِي جَمِيعِ مَنْ دُونِهِمْ الْإِسْتِخْدَامَ وَالْإِسْتِعْبَادَ وَفِي أَنْفُسِهِمُ الْإِعَابَةَ فِي جَمِيعِ مَا يَأْتُونَ وَإِنَّمَا يَخْذُلُ هَذَا بِهَيْمَتِهِمْ لِكثْرَةِ مَدْحِ النَّاسِ لَهُمْ وَإِظْهَارِهِمْ أَعْمَالَهُمْ وَتَضْوِيهِمْ آرَاءَهُمْ

فَهَذِهِ قَوَائِنُ يَنْتَفِعُ بِاسْتِعْمَالِهَا الْخَطِيبُ فِي مَعَاشِرِ الرُّؤَسَاءِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَسْتَعْمِلَهَا الْمُرَادُّ مَعَ الْأَكْفَاءِ فَسَنَذْكُرُ مِنْهَا جَمَلًا وَنَقُولُ إِنَّ الْأَكْفَاءَ لَا يَخْلُو مِنْ أَنْ يَكُونُوا أَدْدِقَاءَ أَوْ أَعْدَاءَ أَوْ لَيْسُوا بِأَدْدِقَاءَ وَلَا أَعْدَاءَ. وَالْأَدْدِقَاءُ عِشْقَانِ أَحَدُهُمَا الْأَعْفِيَاءُ الْخُصَاصُونَ فِي الصَّدَاقَةِ فَيَنْبَغِي لِلْمُسْتَكَلِمِ أَنْ يُدِيمَ مُلَاطَفَتَهُمْ وَتَوَهُدَ أَسْبَابَهُمْ وَإِهْدَاءَ مَا يَسْتَحْسِنُهُ وَمَا يَتَيَسَّرُ لَهُ إِلَيْهِمْ فِي كُلِّ وَقْتٍ. وَيَجِبُ الْحَالُ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ بِذَلِكَ بِغَيْرِ أَنْ يُظْهَرَ مِنْهُ مَلَالًا أَوْ تَقْصِيرًا وَيَجْتَهِدُ فِي الْإِكْثَارِ مِنْهُمْ غَايَةَ الْجُهْدِ فَإِنَّ الصَّدِيقَ زَيْنُ الْمَرْءِ وَعَظْمَةُ وَعَوْنُهُ وَنَاصِرُهُ وَمُذْبِعُ قَضَائِهِ وَكَاتِمُ هَفَوَاتِهِ وَمُخْفِي زَلَّاتِهِ وَمِمَّا كَانَ هُوَ لَاءَ أَكْثَرَ كَانَتْ أَخْوَالُ الْخَطِيبِ فِيمَا بَيْنَهُمْ أَحْسَنَ وَأَقْوَمَ. وَالصَّنْفُ الْآخَرُ آيُ الْأَدْدِقَاءِ فِي الظَّوَاهِرِ عَنْ لَا صِدْقٍ فِيمَا يُظْهَرُ وَهُوَ بَلْ يَنْشَبُ وَتَصْنَعُ فَيَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ أَنْ يُعَامِلَهُمْ بِمُدَارَاةٍ وَيُحْسِنَ إِلَيْهِمْ وَلَا يُظْلِمَهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَسْرَارِهِ وَخَصُوصًا مِنْ غُيُوبِهِ. وَلْيَجْتَهِدْ فِي اسْتِمَالَتِهِمْ وَالصَّبْرِ مَعَهُمْ وَوَعَامَلَتِهِمْ بِحَسَبِ الظَّاهِرِ

دُونَ أَخْذِهِمْ بِالْبَاطِنِ وَلَا يَأْخُذُهُمْ بِالتَّقْصِيرِ فَإِنَّهُ مِمَّا عَمِلَ ذَلِكَ
 يُرْجَى صَلَاحُهُمْ وَرُجُوعُهُمْ إِلَى مُرَادِهِ وَعَلَهُمْ يَصِيرُونَ فِي رُتَبَةِ
 الْأَصْفِيَاءِ لَهُ . أَمَّا الْأَكْفَاءُ الْأَعْدَاءُ فَيَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ أَنْ يَتَجَلَّدَ لَهُمْ
 وَيَكْشِفَ دَسَائِسَهُمْ وَدَغَلِ نِيَّاتِهِمْ . وَأَمَّا سَائِرُ النَّاسِ الَّذِينَ لَيْسُوا
 بِصَادِقِينَ وَلَا عَدُوِّ فَهُمْ طَبَقَاتٌ سَنَذَرُ جُلُهَا فَمِنْهُمْ الصُّلَحَاءُ الَّذِينَ
 يَتَبَرَّعُونَ بِالنَّصِيحَةِ قَالُوا جِبُّ أَنْ لَا يَذْكُرَ كُلُّ مَا يُنْهَى إِلَيْهِ
 وَيَعِزُّ عَلَى قَلْبِهِ أَوَّلًا بَانَ لَا يَغْتَرُ بِكُلِّ قَوْلٍ يَسْمَعُهُ بَلْ يَتَأَمَّلُ
 أَقَاوِيلَهُمْ وَيَتَعَرَّفَ أَغْرَاضَهُمْ غَايَةَ التَّعَرُّفِ لِيَقِفَ مَعَ مَعْرِفَةِ أَغْرَاضِهِمْ
 عَلَى حَقِيقَةِ أَقَاوِيلِهِمْ فَإِذَا لَاحَ لَهُ وَجْهُ الصَّوَابِ حَقِيقَةً بَادَرَ إِلَى
 إِنْفَاقِ الْأَمْرِ . وَمِنْهُمْ الصُّلَحَاءُ وَهُمْ أَنْاسٌ يَتَبَرَّعُونَ لِإِصْلَاحِ
 مَا بَيْنَ النَّاسِ فَجِبُّ عَلَى الْخَطِيبِ أَنْ يَدَحَّهُمْ أَبَدًا عَلَى مَا يَفْعَلُونَهُ
 وَأَنْ يَنْشَبَهُ بِهِمْ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ فَإِنْ مَذَاهِبُهُمْ مَرْضِيَّةٌ عِنْدَ
 كُلِّ النَّاسِ وَمِمَّا مَالَ الْخَطِيبُ إِلَيْهِمْ عُرِفَ بِالْخَيْرِ وَحَسَنِ
 النِّيَّةِ . وَمِنْهُمْ السُّفَهَاءُ فَجِبُّ عَلَى الْخَطِيبِ أَنْ لَا يُؤَاتِيَهُمْ وَلَا
 يُقَابِلَهُمْ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ السَّفَاهَةِ بَلْ يَتَلَقَّاهُمْ أَبَدًا بِحِلْمٍ رَزِينٍ
 وَتُكُونُ بَلِيغَ لِيَأْسُوا مِنْ مَنَالَتِهِمْ بِمَا هُمْ فِيهِ وَلَا يُؤْذُوهُ بَعْدَ
 ذَلِكَ مَتَى يَلْقُوهُ بِالْمُشَامَةِ فَجِبُّ أَنْ يَتَلَقَّاهُمْ بِقِلَّةِ الْأَكْرَبَاتِ .
 وَمِنْهُمْ أَهْلُ الْكِبَرِ وَالْمُنَاقَشَةِ فَجِبُّ أَنْ يُقَابِلَهُمْ بِمِثْلِهِ لِأَنَّهُ إِنْ
 تَوَاضَعَ لَهُمْ أَحْسُوا مِنْهُ بِضَعْفٍ وَنَوَّهُوا أَنْ فَعَلَهُمْ ذَلِكَ صَوَابٌ
 وَأَنَّهُ لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنَ التَّوَاضُعِ لَهُمْ . وَمَتَى تَكَبَّرَ الْمَرْءُ عَلَيْهِمْ

وَكَاثِرُهُمْ فِي الْأَحْوَالِ وَتَاذُوا بِهِ عَلِمُوا أَنَّ الذَّنْبَ فِي ذَلِكَ لَهُمْ
وَرَجَعُوا إِلَى التَّوَّاضُعِ.

وَأَمَّا الَّذِي يَذْبُغِي لِلْخُطِيبِ أَنْ يَسْتَعِينَهُ مَعَ مَنْ دُونَهُ مِنَ
النَّاسِ فَإِنَّا نَصِفُ مِنْهُ مَا تيسَّرَ وَنَقُولُ : فَمِنْهُمْ الضُّعَفَاءُ فَتَجِبُ أَنْ
يَتَعَهَّدَهُمْ بِالْمُؤَاسَاةِ وَرَقَّةِ الْكَلَامِ بِغَايَةِ مَا أَمَكَّهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ
يُخِلَّ بِأَحْوَالِ أَنْفُسِهِ. وَمِنْهُمْ الْمُتَعَلِّمُونَ فَإِنْ كَانُوا أُولَى طَبَائِعِ رَدِيئَةٍ
يَقْصِدُونَ الْعُلُومَ لِيَسْتَغِيلُوهَا فِي الشُّرُورِ فَعَلَى الْخُطِيبِ أَنْ يَحْمِلَهُمْ
عَلَى تَهْذِيبِ الْأَخْلَاقِ وَلَا يَعْلِمُهُمْ شَيْئًا يَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَسْتَغِيلُونَهُ فِيمَا لَا
يَجِبُ وَيَجْتَهِدُ فِي كَشْفِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ رَدَاءَةِ الطَّبَعِ لِيَحْذَرَهُمْ مِنْهُ.
وَمِنْهُمْ الْبُلْدَاءُ الَّذِينَ لَا يُرْجَى ذِكَاؤُهُمْ وَبَرَاعَتُهُمْ فَيَنْبَغِي أَنْ يُحْشَهُمْ
عَلَى مَا هُوَ أَعْوَدُ عَلَيْهِمْ. وَمِنْهُمْ الْمُتَعَلِّمُونَ ذَوُوا الْأَخْلَاقِ الطَّاهِرَةِ
وَالطَّبَائِعِ الْجَيِّدَةِ فَيَجِبُ أَنْ لَا يَدَّخِرَهُمْ شَيْئًا مِمَّا عِنْدَهُ مِنَ الْعُلُومِ.
فَهَذِهِ أَصُولٌ وَقَوَائِينُ مَتَى مَا اسْتَغْلَمَهَا الْخُطِيبُ فِي كَلَامِهِ وَقَاسَ
عَلَيْهَا فِي مُتَصَرِّفَاتِ أُمُورِهِ وَأَسْبَابِهِ اسْتَقَامَتْ بِهِ أَخْرَاجُهُ وَجَعَّ فِي
الْقَوْمِ كَلَامُهُ



الفصل الخامس

في الاخلاق والاهواء

البحث الاول

في تعريف الاخلاق

(من كتاب تهذيب الاحلاق لركبأب عدي)

(راجع صفحة ٣ من الجزء الثاني من علم الادب)

انَّ الْخُلُقَ هُوَ حَالٌ بِهِ يَفْعَلُ الْإِنْسَانُ أَعْمَالَهُ بِسَلَا رَوِيَّةٍ وَلَا
أَخْتِيَارٍ. وَالْخُلُقُ قَدْ يَكُونُ فِي بَعْضِ النَّاسِ غَرِيزَةً وَطَبْعًا وَفِي بَعْضِ
النَّاسِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالرِّيَاضَةِ وَالْإِجْتِهَادِ. وَقَدْ يُوجَدُ فِي كَثِيرٍ
مِنَ النَّاسِ بَغِيرِ رِيَاةٍ وَلَا تَعْلَمِ كَأَشْجَاءَةٍ وَالْجُلْمِ وَالْعِفَّةِ وَالْعَدْلِ
وغير ذلك من الأخلاق الحمودة وكثير من الناس من يوجد فيهم
ذلك. فمنهم من يصير إليه بالرياضة ومنهم من يبقى على عادته
ويجري على مسيرته. فإما الأخلاق المذمومة فلانها في كثير من
الناس كالنجس والخبث والتشرر فإن هذه العادات غالبية على أكثر
الناس ما لكثرة لهم متسلطة عليهم بل قيل لا يوجد في الناس من
يخلو من خلق مكرهه ويسلم من جميع العيوب ولكنهم يتفاضون

فِي ذَلِكَ كَمَا يَتَفَاضِلُونَ فِي الْأَخْلَاقِ الْحَمْدُودَةِ. وَقَدْ يَخْتَلِفُ النَّاسُ
فِي الْأَخْلَاقِ الْحَمْدُودَةِ بِالتَّفَاوُلِ إِلَّا أَنَّ التَّجْبُورِينَ عَلَى الْأَخْلَاقِ
الْجَمِيلَةِ قَلِيلُونَ جِدًّا وَالْمُبْغِضِينَ لَهَا كَثِيرُونَ. فَأَمَّا التَّجْبُورُونَ عَلَى
الْأَخْلَاقِ السَّيِّئَةِ فَكُثُرُ النَّاسِ لِأَنَّ الْغَالِبَ عَلَى طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ
الشَّرُّ. وَذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا اسْتَرْسَلَ مَعَ طَبِيعِهِ وَلَمْ يَسْتَعْرِضْ
الْفِكْرَ وَلَا التَّسْيِيرَ وَلَا الْحَيَاءَ وَلَا التَّحْفُظَ فِي جَمِيعِ أَعْمَالِهِ كَانَ الْغَالِبُ
عَلَيْهِ اخْلَاقُ الْبَهَائِمِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِنَّمَا يَتَيَذَّرُ عَنِ الْبَهَائِمِ
بِالْفِكْرِ وَالتَّسْيِيرِ فَقَطُّ فَإِذَا لَمْ يَسْتَعْرِضْهَا كَانَ مُشَارِكًا لَهَا فِي
عَادَاتِهَا وَالشَّهَوَاتِ مُسْتَوِيَّةً عَلَيْهِ وَالْحَيَاءُ غَائِبٌ عَنْهُ وَالْغَضَبُ مُسْتَقْبَرٌ
بِهِ وَالسَّكِينَةُ غَيْرُ حَاضِرَةٍ عِنْدَهُ وَالْجُرْصُ وَالْاِحْتِشَادُ دَائِدُهُ وَالشَّرُّ
لَا يُفَارِقُهُ. وَإِذَا كَانَ النَّاسُ مَطْبُورِينَ عَلَى الْأَخْلَاقِ الرَّدِيئَةِ
مُنْقَادِينَ لِلشَّهَوَاتِ الدَّنِيئَةِ وَقَعَ الْإِفْتِقَارُ إِلَى الشَّرَائِعِ وَالسُّنَنِ
وَالسِّيَاسَاتِ الْحَمْدُودَةِ وَعَظُمَ الْإِثْتِفَاعُ بِالْمُلُوكِ الْحَمَانِ السَّيِّدِ
لِيَرُدُّوا الظَّالِمَ عَنْ ظُلْمِهِ وَيَنْصَحُوا الْغَاصِبَ عَنْ غَضَبِهِ وَيَعَاوُوا الْفَاجِرَ
عَلَى فُجُورِهِ وَيَقْسَعُوا الْجَائِعَ حَتَّى يَعُودَ إِلَى الْإِعْتِدَالِ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ.
أَمَّا الْأَخْلَاقُ الْمَكْرُوهَةُ فِي طَبَاعِ النَّاسِ فَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّظَاهَرُ بِهَا
وَيُنْقَادُ إِلَيْهَا وَهُمْ أَشْرَارُ النَّاسِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَنَبَّهُ بِجُودَةِ الْفِكْرِ وَقُوَّةِ
التَّسْيِيرِ عَلَى قَبْحِهَا فَيَأْتِفُ مِنْهَا وَتَحْتَجُّعُ لِاخْتِيَابِهَا (١) وَذَلِكَ يَكُونُ
عَنْ طَبْعِ كَرِيمٍ وَنَفْسٍ شَرِيفَةٍ. وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَتَنَبَّهُ لِذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ

إِذَا نُتِبَ عَلَيْهِ أَحْسَنُ بِقُجْبِهِ فَرَبَّمَا حَمَلَ نَفْسَهُ عَلَى ثَرْكِهِ . وَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا
تَنَبَّهَ إِلَى مَا فِيهِ مِنَ النَّقَائِصِ أَوْ نُتِبَ عَلَيْهَا وَرَامَ الْعُدُولَ عَنْهَا تَعَذَّرَ
عَلَيْهِ ذَلِكَ وَلَمْ يُطَاوِعْهُ طَبْعُهُ وَلَوْ كَانَ مُؤَثِّرًا لِلْعُدُولِ عَنْهَا مُجْتَهِدًا فِي
ذَلِكَ . وَهَذِهِ الطَّائِفَةُ تَحْتَاجُ أَنْ تُرْتَدَّ إِلَى طَرِيقِ التَّدْرِبِ وَالْتِمَاعِ
بِالْعَادَاتِ الْحَسَنَةِ حَتَّى تَصِيرَ إِلَيْهَا عَلَى التَّدْرِيجِ . وَمِنْ النَّاسِ مَنْ
إِذَا تَنَبَّهَ عَلَى الْأَخْلَاقِ الرَّدِيئَةِ أَوْ نُتِبَ عَلَيْهَا فَلَا يُجِنُّ إِلَى تَجَنُّبِهَا وَلَا
تَسْمَحُ نَفْسُهُ بِفِرَاقِهَا بَلْ يُؤْثِرُ الْأَضْرَارَ عَلَيْهَا مَعَ عِلْمِهِ بِرَدَائِئِهَا
وَقُجْبِهَا وَهَذِهِ الطَّائِفَةُ لَيْسَ إِلَى تَهْدِيئِهَا طَرِيقٌ إِلَّا بِالْقَهْرِ
وَالْعُقُوبَةِ إِنْ لَمْ يَرُدَّهَا التَّخْوِيفُ وَالتَّرْهِيبُ . فَأَمَّا الْأَخْلَاقُ الْحَسَنَةُ
فَإِنَّهَا وَإِنْ كَانَتْ فِي بَعْضِ النَّاسِ غَرِيزِيَّةً فَلَيْسَتْ فِي جَمِيعِهِمْ
فَعَلَى الْبَاقِينَ أَنْ يَصِيرُوا إِلَيْهَا بِالتَّدْرِبِ وَالزِّيَادَةِ وَيُرْتَقُوا إِلَيْهَا
بِالْإِعْتْيَادِ وَالتَّأَلُّفِ وَقَدْ يُوجَدُ فِي بَعْضِ النَّاسِ مَنْ لَا يَقْبَلُ
طَبْعُهُ الْعَادَاتِ الْحَسَنَةَ وَلَا الْأَخْلَاقَ الْجَمِيلَةَ وَذَلِكَ يَكُونُ لِرَدَائَةِ
جَوْهَرِهِ وَحُبِّ غَضْرِهِ . وَهَذِهِ الطَّائِفَةُ مِنْ جُمْلَةِ الْأَشْرَارِ الَّذِينَ لَا
يُرْجَى صَلَاحُهُمْ . وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقْبَلُ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْلَاقِ
الْحَسَنَةِ وَيَأْتِفُ طَبْعُهُ عَنْ بَعْضِهَا فَلَا يُعَدُّ هَذَا نَبَرًا بَلْ تَكُونُ
رُتْبَتُهُ فِي الْخَيْرِ وَالتَّهْدِيبِ بِحَسَبِ مُحَاسِنِهِ



البحث الثاني

في الاخلاق الحسنة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لركريا بن عدي)

(راجع صفحة ٤٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

أَمَّا الْأَخْلَاقُ الَّتِي تُعَدُّ فَضَائِلَ فَإِنَّ مِنْهَا (الْعِفَّةُ) وَهِيَ ضَبْطُ
النَّفْسِ عَنِ الشَّهَوَاتِ وَقَسْرُهَا عَلَى الْإِسْتِغْنَاءِ بِمَا يُقِيمُ أَوْدَ الْجَسَدِ
وَيَحْفَظُ صِحَّتَهُ فَقَطُّ وَاجْتِنَابُ السَّرَفِ وَالْتِقَاصِيرِ فِي جَمِيعِ اللَّذَاتِ
وَقَصْدِ الْإِعْتِدَالِ . وَأَنْ يَكُونَ مَا يُقْتَدَرُ عَلَيْهِ مِنَ الشَّهَوَاتِ عَلَى
الْوَجْهِ الْمُسْتَحَبِّ الْمُنْتَفِقِ عَلَى الْأَرَاخَاءِ بِهِ وَفِي أَوْقَاتِ الْحَاجَةِ الَّتِي لَا
غِنَاءَ عَنْهَا وَعَلَى الْقَدْرِ الَّذِي لَا يَحْتَاجُ إِلَى أَكْثَرِ مِنْهُ . وَهَذِهِ الْحَالَةُ هِيَ
غَايَةُ الْعِفَّةِ

(وَمِنْهَا أَيْضًا الْقَنَاعَةُ) وَهِيَ الْإِقْتِصَارُ عَلَى مَا سَمَحَ بِهِ الْعَيْشُ
وَالرِّضَى بِمَا تَسَهَّلَ مِنَ الْمَعَاشِ وَتَرَكَ الْجِرَاصَ عَلَى اكْتِسَابِ الْأَمْوَالِ
وَطَلَبِ الْمَرَاتِبِ الْعَالِيَةِ مَعَ الرِّغْبَةِ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ وَإِثَارِهِ وَالْمِيلِ إِلَيْهِ
وَقَهْرِ النَّفْسِ عَلَى ذَلِكَ وَالْقَنَعِ بِالْيُسِيرِ مِنْهُ . وَهَذَا الْخُلُقُ يُسَمَّى
مِنْ أَوَاسِطِ النَّاسِ وَأَصَاغِرِهِمْ قَامًا أَلْمُوكُ وَالْعُظَمَاءُ فَلَيْسَ ذَلِكَ
مُسْتَحْسَنًا مِنْهُمْ وَلَا تُعَدُّ الْقَنَاعَةُ مِنْ فَضَائِلِهِمْ

(وَمِنْهَا التَّصَوُّنُ) وَهُوَ التَّحْفُظُ مِنَ التَّبَدُّلِ . فَمِنْ التَّصَوُّنِ التَّحْفُظُ

مِنَ اهْزَلِ الْقَبِيحِ وَمُخَالَطَةِ أَهْلِهِ وَخُضُورِ مَجَالِسِهِ وَضَمَطِ اللِّسَانِ عَنِ
الْفُحْشِ وَذِكْرِ الْخُذَاءِ وَالْمَزْحِ وَالْتَحْنِيفِ وَخَاصَّةً فِي الْحَافِلِ وَمَجَالِسِ
الْمُخْتَشِعِينَ إِذَا لَا أُهْبَةُ لِمَنْ يُسْرِفُ فِي الْمَزْحِ وَيَفْخِشُ فِيهِ . وَمَنْ
الْتَصَوَّنَ إِلَّا نَقَبَاضُ عَنِ أَدْنِيَاءِ النَّاسِ وَأَصَاغِرِهِمْ وَمَصَادَقَتِهِمْ وَمَجَالِسَتِهِمْ
وَالْتَحَرُّزَ مِنَ الْعَيْشَةِ الزَّرِيَّةِ وَالتَّسَابِ الْأَمْوَالِ مِنَ الْوُجُوهِ
الْحَبِيسَةِ وَالسَّرَفِ عَنْ طَائِبِ الْحَاجَاتِ مِنْ إِيَّامِ النَّاسِ وَسَفَلَتِهِمْ
وَالْتَوَاضِعِ لِمَنْ لَا قَدَرَهُ وَالْإِقْلَالَ مِنَ الْبُرُورِ أَعْنِي الطَّوَافَ مِنْ
غَيْرِ اضْطِرَّارٍ وَالتَّبَسُّدَ بِالْجَاوِسِ فِي الْأَسْوَاقِ وَقَوَارِعِ الطُّرُقِ مِنْ
غَيْرِ حَاجَةٍ حَيْثُ إِنَّ الْإِكْثَارَ مِنْ ذَلِكَ لَا يَنْجُو مِنَ الْعُيُوبِ
فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ قَدَرًا كَمَا قِيلَ مَنْ ظَهَرَ أَسْهُهُ وَخَفِيَ جِسْمُهُ

(وَمِنْهَا الْحِلْمُ) وَهُوَ تَرْكُ الْإِنْتِقَامِ عِنْدَ شِدَّةِ الْغَضَبِ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى
ذَلِكَ وَهَذَا الْحَالُ مَحْمُودٌ مَا لَمْ يُؤَدَّ إِلَى ثَلَمٍ جَاهٍ أَوْ فَسَادِ سِيَاسَةٍ وَهُوَ
بِالْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ أَحْسَنُ لَأَنَّهُمْ أَقْدَرُ عَلَى الْإِنْتِقَامِ مِنْ مُغْضِبِيهِمْ .
وَلَا يُعَدُّ فَضِيلَةً جَاهُ الصَّغِيرِ عَلَى الْكَبِيرِ وَإِنْ كَانَ قَادِرًا عَلَى مُقَابَلَتِهِ
فِي الْحَالِ فَإِنَّهُ وَإِنْ أَمْسَكَ عَنْهُ فَإِنَّمَا يُعَدُّ ذَلِكَ مِنْهُ خَوْفًا لَا جَلَمًا
(وَمِنْهَا الْوَقَارُ) وَهُوَ الْإِمْسَاكُ عَنْ فُضُولِ الْكَلَامِ وَالْعُشْبِ
وَكَثْرَةِ الْإِشَارَةِ وَالْحَرَكَةِ فِيمَا يُسْتَعْنَى عَنْ اتِّحْرَاكِ فِيهِ وَقِلَّةُ الْغَضَبِ
وَالِإِسْغَاءِ عِنْدَ الْإِسْتِفْهَامِ وَالتَّوَقُّفُ عِنْدَ الْجَوَابِ وَالتَّحْفُظُ عِنْدَ السَّرْعَةِ
وَالْمُبَادَرَةُ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ . وَمِنْ قَبِيلِ الْوَقَارِ أَيْضًا الْحَيَاءُ وَهُوَ
غَضُّ الطَّرْفِ وَالْإِنْقِبَاضُ مِنَ الْكَلَامِ حِشَّةً لِلْمُسْتَحْيِينَ مِنْهُ وَهَذِهِ

الْعَادَةُ مَحْمُودَةٌ مَا لَمْ تَكُنْ صَادِرَةً عَنْ عِيٍّ أَوْ عَجْزٍ
 (وَمِنْهَا الْوُدُّ) وَهُوَ الْحُبُّ الْمَعْتَدِلُ مِنْ غَيْرِ إِتِّبَاعِ الشَّهْوَةِ
 وَالْوُدُّ مُسْتَحْسَنٌ مِنَ الْإِنْسَانِ إِذَا كَانَ لِأَهْلِ الْفَضْلِ وَالْتُّبْلِ
 وَذَوِي الْوَقَارِ وَالْأَلْبَةِ وَالْمُتَمَيِّزِينَ مِنَ النَّاسِ . فَأَمَّا التَّوَدُّدُ إِلَى أَرَاذِلِ
 النَّاسِ وَأَصَاغِرِهِمْ وَأَهْلِ الْخِلَاعَةِ وَمَا شَابَهُهُمْ فَكَرُوهٌ حَذَاءٌ . وَحُسْنُ
 الْوُدِّ مَا تَسَجَّتُهُ عَلَى مِنْوَالٍ مُنَاسِبٍ لِلْفَضَائِلِ وَهُوَ أَوْثَقُ الْوُدِّ وَاثْبَتُهُ
 فَأَمَّا مَا كَانَ أَبْتَدَاؤُهُ اجْتِمَاعًا عَلَى هَزَلٍ أَوْ طَلَبِ لَدَّةٍ وَمَا شَابَهُ ذَلِكَ
 فَنِيسٌ بِمَحْمُودٍ وَلَا بَاقٍ وَلَا ثَابِتٌ وَرُبَّمَا أَفْضَى إِلَى الشَّرِّ .

(وَمِنْهَا الرَّحْمَةُ) وَهِيَ خُلُقٌ مُرَكَّبٌ مِنَ الْوُدِّ وَالْجَرَعِ وَالرَّحْمَةُ لَا
 يَكُونُ إِلَّا لِمَنْ يَظْهَرُ مِنْهُ لِرَاحِمِهِ خِلَّةٌ مَكْرُوهَةٌ إِمَّا نَقِصَةٌ فِي
 نَفْسِهِ وَإِمَّا مَخِئَّةٌ عَارِضَةٌ لَهُ . فَالرَّحْمَةُ هِيَ مَحَبَّةٌ لِلْمَرْحُومِ مَعَ جَرَعٍ . وَنَ
 أَحَالَةٍ آتَى رَحِمَ لِأَجْلِهَا . وَهَذِهِ أَحَالَةُ مُسْتَحْسَنَةٍ مَا لَمْ تَخْرُجْ بِصَاحِبِهَا
 عَنْ الْعَدْلِ وَلَمْ تَنْتَسِبْ بِهِ إِلَى أَجْزَائِهِ وَإِلَى فَسَادِ السِّيَاسَةِ . وَلَيْسَتْ
 بِمَحْمُودَةٍ رَحْمَةُ الْقَاتِلِ عِنْدَ الْقَوَدِ وَأَجَانِي عِنْدَ الْقِصَاصِ .

(وَمِنْهَا الْوَفَاءُ) وَهُوَ الصَّبْرُ عَلَى مَا يَبْذُلُهُ الْإِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ
 وَيَرْهَنُ بِهِ لِسَانَهُ وَعَدَمُ الْخُرُوجِ مِمَّا يَضُمُّهُ وَلَوْ كَانَ مُفْرَطًا وَلَا
 يُعَدُّ وَفَاءً مَنْ لَمْ يَلْحَقْهُ بَوْفَانُهُ أَذِيَّةٌ وَلَوْ قَلِيلَةٌ وَكُلَّمَا أَضَرَّ بِهِ الدُّخُولُ
 تَحْتَ مَا حُكِمَ بِهِ عَلَى نَفْسِهِ كَانَ أَبْلَغَ فِي الْوَفَاءِ . وَهَذَا الْخُلُقُ
 مَحْمُودٌ يَنْتَفِعُ بِهِ جَمِيعُ النَّاسِ فَإِنْ مَنْ عُرِفَ بِالْوَفَاءِ كَانَ مَقْبُولَ
 الْقَوْلِ عِنْدَ النَّاسِ فِي جَمِيعِ مَا يَعِدُ بِهِ وَمَنْ كَانَ مَقْبُولًا كَانَ عَظِيمَ

الْجَاهِ إِلَّا أَنْ أَنْتَفَاعَ الْمُلُوكِ هَذَا الْخَلْقِ أَنْفَعُ وَحَاجَّتُهُمْ إِلَيْهِ أَشَدُّ
لِأَنَّهُ مَتَى عَرَفَ مِنْهُمْ قِلَّةَ الْوَفَاءِ لَمْ يُوثِقْ بِمَوَاعِيدِهِمْ وَلَمْ تَتِمَّ
أَغْرَاضُهُمْ وَلَمْ تَسْكُنِ الْيَمِّ جُنْدُهُمْ وَأَعْوَانُهُمْ

(وَمِنْهَا إِذَا: الْأَمَانَةُ) وَهُوَ التَّعَفُّفُ عَمَّا يَتَصَرَّفُ الْإِنْسَانُ فِيهِ
مِنْ مَالٍ غَيْرِهِ وَمَا يُوثِقُ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ الْأَغْرَاضِ وَالْحَرَمِ مَعَ الْقُدْرَةِ
عَلَيْهِ وَرَدِّ مَا يُسْتَوْدَعُ إِلَى مُودِعِهِ

(وَمِنْهَا كَيْتَانِ السِّرِّ) وَهَذَا الْخَلْقُ مُرَكَّبٌ مِنْ الْوَقَارِ وَإِذَا
الْأَمَانَةِ. فَإِنْ إظهار السِّرِّ مِنْ قُدُولِ الْكَلَامِ. وَلَيْسَ بِوَقُورٍ مَنْ
تَكَلَّمَ بِالْفُضُولِ وَالْفُضُولِي نَاقِصُ الشَّرَفِ. فَكَمَا أَنَّ مَنْ أَسْتَوْدَعَ
مَالًا فَأَخْرَجَهُ إِلَى غَيْرِ مُودِعِهِ فَقَدْ حَقَرِ الْأَمَانَةَ كَذَلِكَ مَنْ أَسْتَوْدَعَ
سِرًّا فَأَخْرَجَهُ إِلَى غَيْرِ صَاحِبِهِ فَقَدْ حَقَرِ الْأَمَانَةَ أَيْضًا. وَكَيْتَانِ السِّرِّ
مَحْمُودٌ مَنْ جَمِيعِ النَّاسِ وَخَاصَّةً مَنْ يَخْتَبِئُ السُّلْطَانُ وَأَوْلِيَاءُ الْأُمُورِ
فَإِنْ اخْرَاجَهُ أَسْرَارَهُمْ قَبِيحٌ فِي نَفْسِهِ يُوْذِي إِلَى ضَرْبٍ عَظِيمٍ وَبَلَاءٍ
جَسِيمٍ

(وَمِنْهَا التَّوَاضُّعُ) وَهُوَ تَرْكُ التَّرَوُّسِ وَإِظهارُ الْخُذُولِ وَكَرَاهِيَّةُ
التَّعْظِيمِ وَالزِّيَادَةِ فِي الْأَكْرَامِ وَأَنْ يَتَّخِذَ الْإِنْسَانُ الْمُبَاهَاةَ بِمَا
فِيهِ مِنَ الْفَضَائِلِ وَالْمَفَاخِرَةِ بِالْمَالِ وَالْجَاهِ وَأَنْ يَتَعَوَّزَ مِنَ الْأَعْجَابِ
وَالْكِبَرِ. وَلَا يُحْمَدُ التَّوَاضُّعُ إِلَّا مِنْ أَكْبَرِ النَّاسِ وَرُؤَسَائِهِمْ وَأَهْلِ
الْفَضْلِ وَالْعِلْمِ وَأَمَّا مَا سِوَى هَؤُلَاءِ فَلَا يَكُونُونَ مُتَوَاضِعِينَ
بِالتَّوَاضُّعِ لِأَنَّ الضَّعْفَ هِيَ مُحَلُّهُمْ وَمَرْتَبَتُهُمْ وَلَوْ كَانُوا غَيْرَ مُتَضَعِينَ

(وَمِنْهَا الْبَشَرُ) وَهُوَ إِظْهَارُ الشُّرُورِ لِمَنْ يَلْقَاهُ إِلَّا نَسَانُ مِنْ
إِخْوَانِهِ وَأَوْدَادِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَوْلِيَايِهِ وَمَعَارِفِهِ وَالتَّبَسُّمُ عِنْدَ الْإِلْقَاءِ. وَهَذَا
الْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ وَهُوَ مِنَ الْمُلُوكِ وَالْعُظَمَاءِ أَحْسَنُ
لِأَنَّ الْبَشَرَ مِنَ الْمُلُوكِ وَالْوُلَاةِ تَتَأَلَّفُ بِهِ قُلُوبُ الرِّعِيَّةِ وَالْأَعْوَانِ
وَالْحَاشِيَةِ وَيَزْدَادُ بِهِ تَحَبُّبًا إِلَيْهِمْ وَلَا يُعَدُّ سَعِيدًا مِنَ الْمُلُوكِ أَوْ الْوُلَاةِ
مَنْ كَانَ مُبْغِضًا لِرِعِيَّتِهِ لِأَنَّ ذَلِكَ رُبَّمَا أَدَّى إِلَى فَسَادِ أَمْرِهِ
وَزَوَالِ حُكْمِهِ وَمُلْكِهِ

(وَمِنْهَا صِدْقُ اللَّهِجَةِ) وَهُوَ الْإِخْبَارُ عَنِ الشَّيْءِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ
وَهَذَا الْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مَا لَمْ يُؤَدَّ إِلَى ضَرَرٍ مُفْرِطٍ فَإِنَّهُ لَيْسَ
بِمُسْتَحْسَنٍ عِنْدَ الْإِنْسَانِ إِنْ سُئِلَ عَنْ فَاحِشَةٍ كَانَ أَرْكَبَهَا فَاتَهُ لَا
يَفِي حُسْنُ صِدْقِهِ بِمَا يَلْحَقُهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْعَارِ وَالْمَقْصَةِ الْبَاقِيَةِ
الْأَازِمَةِ. وَكَذَلِكَ أَيْسَ يَحْسُنُ صِدْقُهُ إِذَا سُئِلَ عَنْ مُسْتَجِيرِ اسْتِجَارَةٍ
فَأَخْفَاهُ وَلَا إِنْ سُئِلَ عَنْ جَنَائِدٍ مَتَى صَدَقَ عَنْهَا عُوْقَبَ عَلَيْهَا عُقُوبَةٌ
مُؤَلِّمَةٌ. وَالصِّدْقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ وَهُوَ مِنَ الْمُلُوكِ وَالْعُظَمَاءِ
أَحْسَنُ فَلَا يَسْمَهُمُ الْكَذِبُ مَا لَمْ يَعْدِ الصِّدْقُ عَلَيْهِمْ بِضَرَرٍ

(وَمِنْهَا سَلَامَةُ النَّيِّتِ) وَهُوَ اتِّعَاقُ الْخَيْرِ بِجَمِيعِ النَّاسِ وَتَسْكُبُ
الْخُبْرَ وَالْغِيْلَةَ وَالْمَكْرَ وَالْحَدِيْعَةَ وَهَذَا الْخُلُقُ مُخَوِّدٌ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ
إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ يَضْلَعُ لِلْمُلُوكِ الْخُلُقُ بِهِ دَائِمًا وَقَدْ لَا يَتِمُّ أَمْلَكُهُمْ إِلَّا
بِاسْتِغْمَالِ الْمَكْرِ وَالْحِيلِ وَالْإِغْتِيَالِ مَعَ الْأَعْدَاءِ وَلَكِنْ لَا يَحْسُنُ
بِهِمْ اسْتِغْمَالُهُ مَعَ أَخْصَانِهِمْ وَأَصْفِيَايِهِمْ وَأَهْلِ طَاعَتِهِمْ

(وَمِنْهَا السَّخَاءُ) وَهُوَ بَذْلُ أَلْمَالِ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ وَلَا اسْتِحْقَاقٍ .
 وَهَذَا الْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مَا لَمْ يَنْتَهِ إِلَى السَّرَفِ وَالتَّبَذِيرِ فَإِنْ مَنَ بَذَلَ
 جَمِيعَ مَا يَمْلِكُهُ لِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ لَا يُسَمَّى سَخِيًّا بَلْ يُسَمَّى مُبَذِّرًا
 وَمُضَيِّعًا . وَالسَّخَاءُ فِي سَائِرِ النَّاسِ فَضِيلَةٌ مُسْتَحْسَنَةٌ وَأَمَّا فِي الْمُلُوكِ
 وَالْأَوْلِيَاءِ فَأَمْرٌ وَاجِبٌ لِأَنَّ الْجُبْنَ يُؤَدِّي إِلَى الضَّرَرِ الْعَظِيمِ فِي
 الْأَحْكَامِ . وَالسَّخَاءُ وَالْبَذْلُ تَرْتَبِطُ بِهِمَا قُلُوبُ الرِّعِيَّةِ وَالْجُنُودِ
 وَالْأَغْوَانِ فَيَعْظُمُ الْإِنْتِفَاعُ بِهِ

(وَمِنْهَا الشُّجَاعَةُ) وَهِيَ الْأَقْدَامُ عَلَى الْمَكَارِهِ وَالْمَهَالِكِ عِنْدَ
 الْحَاجَةِ إِلَى ذَلِكَ وَثَبَاتُ الْجَاشِ أَيِ الْقَلْبِ عِنْدَ الْخَوَافِ وَالْإِسْتِهَانَةِ
 بِالْمَوْتِ . وَهَذَا الْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ وَهُوَ بِالْمُلُوكِ
 وَأَعْوَاذِهِمُ أَلْيَقُ وَأَحْسَنُ بَلْ لَيْسَ يُسْتَحَقُّ لِلْمَلِكِ مَنْ عَدِمَ هَذِهِ
 الْخِصْلَةَ . وَكَثَرُ النَّاسِ أَخْطَارًا وَآخِرُجُهُمْ إِلَى اقْتِحَامِ أَعْمَرَاتِهِمْ
 الْمُلُوكُ وَالْحُكَّامُ فَالشُّجَاعَةُ إِذَا وَنَ أَخْلَاقِهِمْ الْخَاصَّةُ بِهِمْ

(وَمِنْهَا الْمُنَافَسَةُ) وَهِيَ مُنَازَعَةُ النَّفْسِ إِلَى التَّشَبُّهِ بِالْفَعْلِ فِيمَا
 يَرَاهُ وَيَرْغَبُ فِيهِ لِنَفْسِهِ وَالْإِجْتِهَادُ فِي التَّرَقِّيِ إِلَى دَرَجَةٍ أَعْلَى مِنْ
 دَرَجَتِهِ . وَهَذَا الْخُلُقُ مَحْمُودٌ إِذَا سَكَتَ الْمُنَافَسَةُ فِي الْفَضَائِلِ وَالْمَرَاتِبِ
 الْعَالِيَةِ أَوْ فِيمَا يُكْسِبُ مَجْدًا وَسُودَدًا فَأَمَّا فِي غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ اتِّبَاعِ
 الشَّهَوَاتِ وَالْمُبَاهَاةِ بِاللَّذَاتِ وَأَزْيِنَةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَمَكْرُوهٌ جِدًّا

(وَمِنْهَا الصَّبْرُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ) وَهَذَا الْخُلُقُ مُرَكَّبٌ مِنْ الْوَقَارِ
 وَالشُّجَاعَةِ وَهُوَ مُسْتَحْسَنٌ جِدًّا مَا لَمْ يَكُنِ الْجَزَعُ نَافِعًا وَالْحُزْنُ وَالْقَلَقُ

مُجْدِيًا وَلَا اجْتِهَادُ دَافِعَةٌ ضَرَرُ تِلْكَ الشَّدَائِدِ فَمَا أَحْسَنَ الصَّبْرَ إِذَا
عَدِمْتَ الْحِيلَةَ وَمَا أَقْبَحَ الْجَزَعَ إِذَا لَمْ يَكُنْ مُفِيدًا

(وَمِنْهَا عِظَمُ الْهِمَّةِ) وَهُوَ اسْتِصْغَارُ مَا دُونَ النِّهَايَةِ مِنْ مَعَالِي
الْأُمُورِ وَطَلَبُ الْمَرَاتِبِ السَّامِيَةِ وَاسْتِحْقَاقُ مَا يَجُودُ بِهِ الْإِنْسَانُ عِنْدَ
الْعَطِيَّةِ وَالْإِسْتِحْقَافُ بِأَوَاسِطِ الْأُمُورِ وَطَلَبُ الْغَايَاتِ وَالتَّهَؤُنُ بِمَا
يَمْلِكُهُ وَبَذْلُهُ لِمَنْ يَسْأَلُهُ مِنْ غَيْرِ أَمْتِنَانٍ وَلَا اعْتِدَادٍ بِهِ. وَهَذَا الْخُلُقُ
مِنْ خُصُوصِيَّاتِ الْمُلُوكِ وَالْحُكَّامِ وَقَدْ نَحْسَنُ بِالرُّؤُسَاءِ وَالْعِظَمَاءِ
وَمَنْ تَسْمُو نَفْسُهُ إِلَى مَرَاتِبِهِمْ . وَمَنْ عِظَمَ الْهِمَّةُ الْأَذَقَةُ وَالْحَمِيَّةُ
وَالْغَيْرَةُ . فَالْأَذَقَةُ هِيَ بُعْدُ النَّفْسِ عَنِ الْأُمُورِ الدُّنْيَا وَالْحَمِيَّةُ وَالْغَيْرَةُ
مَعَ الْقَضْبِ عِنْدَ الْإِحْسَاسِ بِالنَّقْصِ . وَتَلْحَقُ الْإِنْسَانُ الْغَيْرَةُ عَلَى
الْحَرَمِ لِأَنَّ فِي التَّعَرُّضِ لَهَا عَارًا وَنَقْصَةً فَإِنْ أُلْتَمَعَرِضَ لِلْحَرَمِ
مُهْتَضِمٌ لِصَاحِبِهَا وَمُتَصَرِّفٌ فِي غَيْرِ حَقِّ لَهُ وَالْإِهْتِظَامُ نَقِصَةٌ
وَمِنْ أَعْظَمِ الْهِمَّةِ الْأَذَقَةُ مِنْهُ . وَهَذَا الْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ جَدًّا مِنْ جَمِيعِ
النَّاسِ

(وَمِنْهَا الْعَدْلُ) وَهُوَ التَّقْطِطُ اللَّازِمُ لِلِاسْتِزَاءِ وَأَسْتِعْمَالِ
الْأُمُورِ فِي مَوَاضِعِهَا وَأَوْقَاتِهَا وَوُجُوهِهَا وَتَقَادِيرِهَا مِنْ غَيْرِ سَرَفٍ
وَلَا تَقْصِيرٍ وَلَا تَقْدِيمٍ وَلَا تَأْخِيرٍ



البحث الثالث

في الاخلاق الرديئة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لوكرياس عدي)

فَأَمَّا الْأَخْلَاقُ الرَّدِيَّةُ الَّتِي تُعَدُّ نَقَائِصَ وَمَعَائِبَ فَإِنَّ مِنْهَا
الْفُجُورَ وَهُوَ الْإِنْهَالُ فِي الشَّهَوَاتِ وَالْإِسْتِكْثَارَ مِنْهَا وَإِذَا رُ الْذَّاتِ
وَالْأَدَمَانُ عَلَيْهَا وَأَزَتْكَابُ الْفَدَاحِشِ وَالْمُخَاهَرَةُ بِهَا وَبِالْجِلْمَةِ الدَّرْفُ
فِي جَمِيعِ الشَّهَوَاتِ. وَهَذَا الْخُلُقُ مَكْرُوهٌ جِدًّا يَهْدِمُ الْحَيَاءَ وَيَذْهَبُ
بِمَاءِ الْوَجْهِ وَيَخْرُقُ حِجَابَ الْحُشَّةِ

(وَمِنْهَا الْفُتْرَةُ) وَهُوَ الْجُرْصُ عَلَى اسْتِثَابِ الْأَمْوَالِ وَجَمْعِهَا
وَطَائِبِهَا مِنْ كُلِّ وَجْهِ وَلَوْ قُبِحَ طَرِيقُ اسْتِثَابِهَا وَالْمُتَاوَشَةُ عَلَيْهَا
وَالْإِسْتِكْثَارُ مِنَ الْقَنِيَّةِ وَادِّخَارُ الْأَعْرَاصِ. وَهَذَا الْخُلُقُ مَكْرُوهٌ مِنْ
جَمِيعِ النَّاسِ إِلَّا مِنْ أُنْدُوكِ وَالْحُكَّامِ فَإِنَّ كَثْرَةَ الْأَمْوَالِ
وَالذِّخَائِرِ وَالْأَعْرَاضِ تُعِينُهُمْ وَتُرِيدُهُمْ هَيْبَةً فِي نَفُوسِ رَعِيَّتِهِمْ
وَأَعْوَانِهِمْ وَأَعْدَائِهِمْ وَأَضْدَادِهِمْ

(وَمِنْهَا التَّبَذُّلُ) وَهُوَ أَطْرَاحُ الْحُشَّةِ وَتَرْكُ التَّحَفُّظِ وَالْإِسْتِثَارِ
مِنْ الْهَزْلِ وَاللَّهْوِ وَمُخَالَطَةُ السُّفَهَاءِ وَحُضُورُ مَجَالِسِ السُّخْفِ وَالْهَزْلِ
وَالْفُحْشِ وَالشُّفُوهِ بِالْحُلَا وَدِكْرُ الْأَعْرَاضِ وَالْمَزْحِ وَالْجُلُوسُ فِي
الْأَسْوَاقِ وَعَلَى قَوَارِعِ الطُّرُقِ وَالتَّكْسِبُ بِالْمَعَايِشِ الزَّرِّيَّةِ وَالتَّوَاضُّعُ

لِلسُّفَلَاءِ وَهَذَا الْخُلُقُ قَبِيحٌ بِجَمِيعِ النَّاسِ
 (وَمِنْهَا السَّفَهُ) وَهُوَ ضِدُّ الْحِلْمِ وَهُوَ سِرْعَةُ الْغَضَبِ وَالطَّنْشِ
 مِنْ يَسِيرِ الْأُمُورِ وَالْمُبَادَرَةُ فِي الْبَطْشِ وَالْإِيْقَاعُ بِالْمُؤْذِي وَالسَّرَفُ
 فِي الْعُقُوبَةِ وَإِيْهَارُ الْجَزَعِ مِنْ آذَنِي ضَرَرٍ وَالسَّبُّ الْفَاحِشُ. وَهَذَا الْخُلُقُ
 مُسْتَقْبَحٌ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ إِلَّا أَنَّهُ بِالْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ أَقْبَحُ مِنْهُ بِغَيْرِهِمْ
 (وَمِنْهَا الْخُرْقُ) وَهُوَ كَثْرَةُ الْكَلَامِ وَالْخُرْكَ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ
 وَشِدَّةُ الصَّحِكِ وَالْمُبَادَرَةُ إِلَى الْأُمُورِ مِنْ غَيْرِ تَوَقُّفٍ وَسُرْعَةُ
 الْجَوَابِ وَهَذَا الْخُلُقُ مُسْتَقْبَحٌ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ وَهُوَ بِأَهْلِ الْعِلْمِ
 وَذَوِي النِّبَاهَةِ أَقْبَحُ. وَمِنْ قَبِيلِهِ قِلَّةُ الْإِحْتِشَامِ لِمَنْ يَجِبُ احْتِشَامُهُ
 وَالْجَاهَرَةُ بِالْأَجُوبَةِ الْغَلِيْظَةِ الْفُظَّةِ الْمُسْتَشْنَعَةِ وَهَذَا الْخُلُقُ مَكْرُوهٌ
 وَخَاصَّةً بِذَوِي الْوَقَارِ

(وَمِنْهَا الْهَوَى) وَهُوَ إِفْرَاطُ الْحُبِّ وَالسَّرَفُ فِيهِ. وَهَذَا الْخُلُقُ
 مَكْرُوهٌ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ يَحْمِلُ صَاحِبُهُ عَلَى الْفُجُورِ وَأَرْكَابِ
 الْفَوَاحِشِ وَكَثْرَةِ التَّبَدُّلِ وَقِلَّةِ الْحَيَاءِ وَهُوَ يَشِينُ الْإِنْسَانَ كَثِيرًا
 (وَمِنْهَا الْقَسَاوَةُ) وَهَذَا الْخُلُقُ مُرَكَّبٌ مِنَ الْغَضِّ وَالشَّجَاعَةِ
 وَهُوَ التَّهَوُّنُ بِمَا يَلْحَقُ الْغَيْرَ مِنَ الْأَلَمِ وَالْآذَى. وَهَذَا الْخُلُقُ مَكْرُوهٌ
 مِنْ كُلِّ أَحَدٍ إِلَّا مِنْ الْجُنْدِ وَأَصْحَابِ السَّلَاحِ وَالْمُتَوَلِّينَ
 الْحُرُوبَ فَإِنَّ ذَلِكَ غَيْرُ مَكْرُوهٍ مِنْهُمْ إِذَا كَانَ فِي مَوْضِعِهِ
 (وَمِنْهَا الْقَدْرُ) وَهُوَ الرُّجُوعُ عَمَّا يَبْذُلُهُ الْإِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ
 وَيَضْمَنُ الْوَفَاءَ بِهِ. وَهَذَا الْخُلُقُ مُسْتَقْبَحٌ إِنْ كَانَ لِصَاحِبِهِ فِيهِ مَضْلَعَةٌ

وَمَنْفَعَةٌ. وَهُوَ بِالْمُلُوكِ وَالْحُكَّامِ أَقْبَحُ وَأَضْرُفَانٌ مَنْ عُرِفَ مِنْهُمْ
بِالْقَدْرِ لَمْ يَرْكُنْ إِلَيْهِ أَحَدٌ وَلَمْ يَثِقْ بِهِ إِنْسَانٌ فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ
فَسَدَ نِظَامُ مُلْكِهِ

(وَمِنْهَا الْخِيَانَةُ) وَهِيَ الْأَسْتِبدَالُ بِمَا يُؤْتَمَنُ الْإِنْسَانُ عَلَيْهِ مِنْ
الْأَمْوَالِ وَالْأَعْرَاضِ وَالْحَرَمِ وَتَمْلِكُ مَا يُسْتَرَدَعُ وَتُجَبُّ أَحَدُهُ مُودِعِهِ .
وَمِنْ الْخِيَانَةِ أَيْضًا طَيُّ الْأَخْبَارِ إِذَا نَدَبَ الْإِنْسَانُ لِتَأْدِيتِهَا وَتَحْرِيفِ
الرِّسَائِلِ إِذَا حَمَلَهَا وَصَرَفَهَا عَنْ وَجْهَيْهَا . وَهَذَا الْخُلُقُ أَفْنَى الْخِيَانَةِ
مَكْرُوهٌ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ وَيَثْلُمُ أَجَاهَ وَيَقْطَعُ وَجُوهَ الْمَعَاشِ

(وَمِنْهَا إِفْشَاءُ السِّرِّ) وَهَذَا الْخُلُقُ مُرَكَّبٌ مِنَ الْخُرْقِ وَالْخِيَانَةِ
فَإِنَّهُ لَيْسَ بِوَأْدٍ مَنْ لَمْ يَضْبُطْ لِسَانَهُ وَلَمْ يَتَّسِعْ صَدْرُهُ لِحِفْظِ مَا
يُسْتَسَرُّ بِهِ وَالسِّرُّ أَحَدُ الْوَدَائِعِ وَإِفْشَاؤُهُ نَقِيعَةٌ عَلَى صَاحِبِهِ
فَالْمُفْشِي بِالسِّرِّ خَائِنٌ وَهَذَا الْخُلُقُ قَبِيحٌ جِدًّا وَخَاصَّةً بَيْنَ يَضْحَبِ
الْمُلُوكِ وَأَوْلِيَاءِ الْأُمُورِ وَيَتَدَاخَلُ مَعَهُمْ . وَمِنْ قَبِيلِ إِفْشَاءِ السِّرِّ
أَيْضًا الْغِيبةُ وَالنَّسِيئةُ وَهِيَ أَنْ يُبْلَغَ إِنْسَانٌ إِنْسَانًا عَنْ آخِرِ قَوْلَا
مَكْرُوهًا وَهَذَا الْخُلُقُ قَبِيحٌ جِدًّا وَلَوْ لَمْ يُسْتَسَرَّ أَيْضًا بِمَا يَسْمَعُهُ أَوْ
يَبْلُغُهُ فَنَقْلُهُ إِلَى مَنْ يَسْكُرُهُ قَبِيحٌ لِأَنَّهُ فِي ذَلِكَ إِيقَاعٌ وَخَشْيَةٌ بَيْنَ
الْمُبْلَغِ وَالْمُبْلَغِ عَنْهُ وَذَلِكَ غَايَةُ الشَّرِّ

(وَمِنْهَا الْكِبَرُ) وَهُوَ اسْتِعْظَامُ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ وَاسْتِحْسَانُ مَا
فِيهِ مِنْ الْفَضَائِلِ وَالْإِسْتِهَانَةُ بِالنَّاسِ وَاسْتِصْغَارُهُمْ وَالتَّرْفُّعُ عَلَى مَا
يَحِبُّ التَّوَاضُّعُ لَهُ . وَهَذَا الْخُلُقُ مَكْرُوهٌ جِدًّا وَمُضِرٌّ بِصَاحِبِهِ لِأَنَّهُ

مَنْ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ لَمْ يَسْتَزِدْ مِنْ أَكْتَسابِ الْأَدَبِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَزِدْ
بَقِيَ عَلَى نَقْصِهِ إِذَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَخْلُو مِنَ النِّقْصِ قَبْلَ مَا يَنْتَهِي
إِلَى غَايَةِ الْكَمَالِ. وَأَيْضًا فَإِنَّ هَذَا الْفِعْلَ يُبْعِثُهُ عِنْدَ النَّاسِ وَمَنْ
تَبِعْهُ النَّاسُ سَاءَتْ أَخْوَالُهُ

(وَمِنْهَا الْعُبُوسُ) وَهُوَ التَّقَطُّبُ عِنْدَ الْإِلْقَاءِ وَقَلَّةُ التَّبَسُّمِ وَإِظْهَارُ
الْكِرَاهِيَةِ. وَهَذَا الْخُلُقُ مُرَكَّبٌ مِنَ الْكِبَرِ وَغِلَظِ الطَّنَعِ فَإِنَّ قِلَّةَ
الْبَشَاشَةِ هِيَ اسْتِهَانَةٌ بِالنَّاسِ وَالْإِسْتِهَانَةُ بِالنَّاسِ تَكُونُ مِنَ الْإِعْجَابِ
وَالْكِبَرِ وَقِلَّةِ التَّبَسُّمِ أَيْضًا خَاصَّةٌ عِنْدَ إِقْدَاءِ الْإِخْوَانِ تَكُونُ مِنَ
غِلَظِ الطَّنَعِ. وَهَذَا الْخُلُقُ مُسْتَقْبَحٌ وَخَاصَّةً بِالرُّؤَسَاءِ وَالْأَوَاضِلِ

(وَمِنْهَا الْكَذِبُ) وَهُوَ الْإِخْبَارُ عَنِ الشَّيْءِ بِخِلَافِ مَا هُوَ
عَلَيْهِ. وَهَذَا الْخُلُقُ مَكْرُوهٌ وَهُوَ بِالْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ أَكْثَرُ قُبْحًا
لِأَنَّ الْيَسِيرَ مِنَ النِّقْصِ بِشَيْنِهِمْ

(وَمِنْهَا الْخُبْثُ) وَهُوَ إِضَارَةُ الشَّرِّ الْغَيْرِ وَإِظْهَارُ الْخَيْرِ لَهُ رِيَاءً
وَأَسْتِعْمَالُ الْحِيلَةِ وَالْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ فِي الْمَعَامَلَاتِ وَهَذَا الْخُلُقُ
مَكْرُوهٌ جِدًّا. (وَمِنْ قَبِيلِ الْخُبْثِ الْخِقْدُ) وَهُوَ إِضَارَةُ الشَّرِّ لِلْجَارِي إِذَا لَمْ
يَتِمَّكَنْ مِنَ الْإِنْتِقَامِ مِنْهُ فَيُخْفِي إِلَى وَقْتِ الْفُرْصَةِ وَهَذَا الْخُلُقُ
مِنْ أَخْلَاقِ الْأَشْرَارِ وَهُوَ مَذْمُومٌ جِدًّا

(وَمِنْهَا الْخُلُفُ) وَهُوَ مَنَعُ الْمُسْتَغْنِي مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى إِعْطَائِهِ.
وَهَذَا الْخُلُقُ مَكْرُوهٌ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ وَخَاصَّةً الْمُلُوكِ وَالْعُظَمَاءِ
وَذَلِكَ لِأَنَّ الْبُخْلَ يُبْعِثُ مِنْهُمْ أَكْثَرُ مِمَّا يُبْعِثُ مِنْ غَيْرِهِمْ وَيَقْدَحُ

فِي حُكْمِهِمْ وَيُغْضُّهُمْ إِلَى رَعِيَّتِهِمْ
(وَمِنْهَا الْخُبْنُ) وَهُوَ تَوَهُّمُ الْخَوَافِ وَتَمَكُّنُهَا فِي الْعَقْلِ بِدُونِ
طَائِلٍ وَعَدَمُ الْإِقْدَامِ عَلَى الْأُمُورِ عِنْدَ الزُّومِ وَالرُّغْبِ مِنْ مُوَاجَهَةِ
ذَوِي الْأَمْرِ عِنْدَ الْإِقْتِضَاءِ . وَهَذَا الْخُلُقُ مَكْرُوهٌ إِلَّا أَنَّهُ بِالْجُنُودِ
وَأَصْحَابِ الْحُرُوبِ مُضِرٌّ جِدًّا

(وَمِنْهَا الْحَسَدُ) وَهُوَ التَّالُمُ مِمَّا يَرَاهُ الْإِنْسَانُ لِنَفْسِهِ وَنَ الْخَيْرِ
وَيَجِدُهُ فِيهِ مِنَ الْفَضَائِلِ وَالْأَجْتِهَادِ فِي إِعْدَامِ الْغَيْرِ مَا هُوَ لَهُ . وَهَذَا
الْخُلُقُ مَكْرُوهٌ وَقَبِيحٌ بِكُلِّ أَحَدٍ

(وَمِنْهَا الْجَزَعُ عِنْدَ الشَّدَةِ) وَهَذَا الْخُلُقُ مُرَكَّبٌ وَنَ الْخُرْقِ
وَالْخُبْنِ . وَهُوَ مُسْتَقْبَحٌ جِدًّا إِذَا لَمْ يَكُنْ مُخْدِيًا نَفْعًا وَأَمَّا إِظْهَارُهُ
لِلْحِيلَةِ عِنْدَ الْوُقُوعِ فِي الشَّدَةِ أَوْ لِاسْتِغَاثَةِ مُغِيثٍ أَوْ اجْتِلَابِ مُعِينٍ
لِلْمُسَاعَدَةِ فَغَيْرُ مَكْرُوهٍ وَلَا يُعَدُّ نَقِيصَةً

(وَمِنْهَا بَغْزُ الْهِمَّةِ) وَهُوَ ضَعْفُ النَّفْسِ عَنْ طَلَبِ الْمَرَاتِبِ
الْعَالِيَةِ وَقُضُورُ الْأَمَلِ عَنْ مُنَوعِ الْغَايَاتِ وَاسْتِكْثَارُ الْيَسِيرِ مِنَ
الْفَضَائِلِ وَاسْتِعْظَامُ الْقَلِيلِ مِنَ الْعَطَايَا وَالْإِعْتِدَادُ بِذَلِكَ وَالرِّضَى
بِأَوَاسِطِ الْأُمُورِ وَأَصَاغِرِهَا . وَهَذَا الْخُلُقُ قَبِيحٌ بِكُلِّ أَحَدٍ وَهُوَ
بِالْمُلُوكِ وَالْأَظْمَاءِ أَقْبَحُ كُلِّ أَيْسَ يُسْتَحَقُّ لِلْإِعْتِبَارِ مِنْ عَفْوَرتِ هِمَّتِهِ
(وَمِنْهَا الْجَوْرُ) وَهُوَ الْخُرُوجُ عَنِ الْعَدْلِ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ
كَأَخْذِ الْأَمْوَالِ مِنْ غَيْرِ وَجِبْهَاتِ الْحِلَالِ وَالْمُطَالَبَةِ بِمَا لَا يَجِبُ مِنَ
الْحَقُوقِ وَفِعْلِ الْأَشْيَاءِ فِي غَيْرِ مَوَازِعِهَا وَلَا أَوْقَاتِهَا وَلَا عَلَى الْقَدْرِ

الَّذِي يَجِبُ لَهَا وَعَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يُسْتَحَبُّ فِيهَا وَمِنْ قَبِيلِ ذَلِكَ
السَّرَفُ وَالتَّبَذِيرُ أَيْضًا

البحث الرابع

في بعض الاخلاق التي تكون في بعض الناس
فضيلة وفي بعضهم رذيلة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لذكريا بن عدي)

(مِنْهَا حُبُّ الْكَرَامَةِ) وَهُوَ أَنْ يُسَرَّ الْإِنْسَانُ بِالْعَظِيمِ
وَالْتَّجِيلِ وَالْمُقَابَلَةِ بِالْمَدْحِ وَأَشْيَاءَ الْجَمِيلِ . وَهَذَا الْخَلْقُ مَحْمُودٌ فِي
الْأَحْدَاثِ وَالصِّيَّانِ لِأَنَّ مَحَبَّةَ الْكَرَامَةِ تَحْتُثُّهُمْ عَلَى الرِّغْبَةِ فِي أَكْتِسَابِ
الْفَضَائِلِ . وَذَلِكَ أَنَّ أَحَدَثَ وَالصَّبِيَّ إِذَا مُدِّحًا عَلَى فَضِيلَةٍ وَجِدَتْ
فِيهَا كَانَ ذَلِكَ دَاعِيًا لَهُمَا إِلَى الْإِزْدَادِ فِي الْفَضَائِلِ . وَأَمَّا الْفَاضِلُ
مِنَ النَّاسِ فَإِنَّ ذَلِكَ يُعَدُّ مِنْهُمْ نَقِصَةً . لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِنَّمَا يُمدَحُ
عَلَى الْفَضِيلَةِ إِذَا كَانَتْ مُسْتَعْرَبَةً مِنْهُ أَمَّا إِذَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الْفَضْلِ
فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُسَرَّ أَوْ يَسْتَعْرَبَ مَا يَظْهَرُ مِنْهُ مِنَ الْفَضَائِلِ . وَكَذَلِكَ
الْإِكْرَامُ وَالتَّجْمِيلُ إِذَا كَانَ زَائِدًا عَلَى اسْتِحْقَاقِهِ فَإِنَّهُ يَجْرِي مَجْرَى
الْمَلَقِ وَالسُّرُورِ بِالْمَلَقِ غَيْرُ مَحْمُودٍ لِأَنَّهُ مِنْ جِنْسِ الْخَدِيعَةِ

(وَمِنْهَا حُبُّ الزَّيْنَةِ) وَهُوَ التَّصَنُّعُ بِأَنْسِ الثِّيَابِ الْفَاحِشَةِ
وَرُكُوبِ الْخَيْلِ وَكَثْرَةِ الْخَدَمِ وَالْحَشَمِ . وَهَذَا مُسْتَحْسَنٌ مِنَ الْمُلُوكِ
وَالْعُظَمَاءِ وَالْأَحْدَاثِ وَالظُّرَفَاءِ وَالنِّسَاءِ . فَأَمَّا الرُّهْبَانُ وَالزُّهَّادُ

وَالشُّيُوخُ وَأَهْلُ الْعِلْمِ وَخَاصَّةً الْخُطَبَاءُ وَالنَّوَائِظُونَ وَرُؤَسَاءُ الدِّينِ
فَإِنَّ التَّصَنُّعَ بِالرِّيَاسَةِ مُسْتَحْتَجٌّ مِنْهُمْ وَالْمُسْتَحْسَنُ بِهِمْ هُوَ لُبْسُ
الْحُسْنِ وَكَرَاهِيَةُ التَّعَمُّرِ وَازْدِرَاءُ بُيُوتِ الصَّلَاةِ

(وَمِنْهَا لُحْجَازَةٌ عَلَى الْمَدْحِ) وَهُوَ مُجَازَاةٌ مَنْ يَمْدَحُ الْإِنْسَانَ
وَيَشْكُرُهُ فِي الْحَاجِلِ وَالْحَافِلِ . وَهَذَا الْخَلْقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنَ الْمُلُوكِ
وَالرُّؤَسَاءِ لِأَنَّهُ يَدْعُو الْمَادِحَ إِلَى الْإِزْدِيَادِ فِي مَدْحِهِ فَيَكْتَسِبُ
الْمَدْحُوحُ ذِكْرًا جَمِيلًا يَبْقَى إِلَى الدَّهْرِ . وَمَنْ قَضَائِلُ الْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ
بَقَاءُ ذِكْرِهِمْ الْجَمِيلِ . وَمَا يُحِبُّهُمْ نَمَاعُ الْمَدْحِ مِنَ الْمَادِحِ . مُوَاجَهَةٌ
قَدْ لِكَ غَيْرُ مُسْتَحَبٍّ مِنْهُمْ لِأَنَّهُ مِنْ جِنْسِ الْمَلَقِ وَحُبُّ الْمَلَقِ مَكْرُوهٌ
لِكُونِهِ مِنْ قَبْلِ الْخَدِيعَةِ كَمَا تَقَدَّمَ . فَأَمَّا إِيْشَارُهُمْ أَنْ يَشَارَ ذِكْرُهُمْ
وَمَدْحُهُمْ وَتَنَاقُلُ النَّاسِ لَهُ وَبَقَاؤُهُ بَعْدَهُمْ فَإِنَّهُ مَحْمُودٌ . وَنُجَازَاةُ الْمَادِحِ
مُسْتَحْسَنَةٌ مِنَ الْمُلُوكِ وَمَنْعُهُمْ مُسْتَحْتَجٌّ وَعَارٌ عَلَيْهِمْ لِأَنَّ ذَلِكَ يَدْعُو
إِلَى ذَمِّهِمْ وَذَمُّهُمْ يَبْقَى أَيْضًا إِلَى الدَّهْرِ فَيُنَاشِيهِ لَهُمْ ذِكْرًا قَبِيحًا
وَذَلِكَ مَكْرُوهٌ مِنَ الْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ . أَنَا أَعَاغِرُ النَّاسِ فَحَسَنُهُمْ جَزَاءُ
الْمَادِحِ لَهُمْ غَيْرُ مُسْتَحْسَنٍ لِأَنَّ الْمَادِحَ إِذَا مَدَحَ الدَّيْنِيَّ مِنَ النَّاسِ
فَأِنَّمَا يَخْدَعُهُ فَإِذَا أَجَازَهُ اعْتَقَدَ أَنَّهُ أَخَذَ مِنْهُ تِلْكَ الْجَازِيَةَ بِالْحِيلَةِ .
وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ إِذَا مَدَحُوا بِمَا لَيْسَ فِيهِمْ يُبَادِرُونَ إِلَى مُجَازَاةِ
الْمَادِحِ فَيَكُونُونَ قَدْ وَضَعُوا الشَّيْءَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ فَلَوْ صَرَفُوا ذَلِكَ
الشَّيْءَ إِلَى الصُّفَاءِ وَأَهْلِ الْمَسْكَنَةِ كَانَ ذَلِكَ أَجْمَلَ بِهِمْ وَأَلْيَقَ
(وَمِنْهَا الزُّهْدُ) وَهُوَ قِلَّةُ الرَّغْبَةِ فِي الْأَمْوَالِ وَالْإِذْخَارِ وَغَيْرِهَا

وَأَيُّدَارُ الْقَنَاعَةِ بِمَا يَقِيمُ الرَّمَقَ وَالْإِسْتِحْقَافُ بِالذُّنْيَا وَمَحَاسِنِهَا وَلَذَاتِهَا
وَقِلَّةُ الْأَكْتِرَاتِ بِأَرَاتِبِ الْعَالِيَةِ وَاسْتِصْغَارُ الْمُلُوكِ وَمَمَالِكِهِمْ
وَأَرْبَابِ الْأَمْوَالِ وَأَمْوَالِهِمْ. وَهَذَا الْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ جِدًّا مِنْ الْعُلَمَاءِ
وَرُؤَسَاءِ الدِّينِ وَالْخُطَبَاءِ وَالْوِاعِظِينَ وَمَنْ يُرَغِبُ النَّاسَ فِي الْمَعَادِ
وَالْبَقَاءِ بَعْدَ الْمَوْتِ. فَأَمَّا الْمُلُوكُ وَالْعُظَمَاءُ: فَإِنَّ ذَلِكَ غَيْرُ مُسْتَحْسَنٍ
مِنْهُمْ وَلَا لَائِقٌ بِهِمْ لِأَنَّ الْمَلِكَ إِذَا أَظْهَرَ الزُّهْدَ صَارَ نَاقِصًا إِذَا كَانَ
مُلْكُهُ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِاِحْتِشَادِ الْأَمْوَالِ وَالْأَعْرَاضِ وَأَدْخَارِهَا لِيُدَبَّرَ
بِهَا مُلْكُهُ وَيَعُونَهُ بِوَاسِطَتِهَا حَوَازَتُهُ وَيَقْتَدِرَ بِهَا رَعِيَّتُهُ وَهَذَا مُضَادٌّ
لِلزُّهْدِ فَإِنَّهُ إِذَا تَرَكَ الْأَذْخَارَ أَبْطَلَ مُلْكُهُ وَصَارَ مَعْدُودًا فِي
جَمَلَةِ الْمُلُوكِ الْخَائِدِينَ عَنْ طَرِيقِ السِّيَاسَةِ

فَهَذِهِ الْأَقْسَامُ أَتَى ذِكْرَ نَهَايِهَا هِيَ أَخْلَاقُ جَمِيعِ النَّاسِ
أَمَّا الْمَعْدُودَةُ مِنْهَا الْمَعْدُودَةُ فَضَائِلُ فَقَلَمًا تَجْتَمِعُ كُلُّهَا فِي
إِنْسَانٍ وَاحِدٍ وَأَمَّا الْمَذْمُومَةُ مِنْهَا الْمَعْدُودَةُ فَنَقَائِصُ وَمَعَابِ
فَقَلَمًا يَوْجَدُ إِنْشَاءً يُجَلُّو مِنْ جَمِيعِهَا حَتَّى لَا يَكُونَ فِيهِ خُلُقٌ مَكْرُوهٌ
وخاصةً مَنْ يَرُوضُ نَفْسَهُ وَيُؤَدِّبُهَا. فَإِنَّ مَنْ لَا يَتَعَمَّلُ لِضَمِّ نَفْسِهِ
وَيَتَفَقَّدُ عُيُوبَهُ لَمْ يَخُلْ مِنْ عُيُوبٍ كَثِيرَةٍ وَإِنْ لَمْ يَحْسَبْ بِهَا وَلَمْ يَفْطَنْ
إِلَيْهَا. وَإِذَا كَانَ الْحَالُ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ كَانَ أَوَّلَى الْأُمُورِ
بِالْإِنْسَانِ أَنْ يَتَفَقَّدَ أَخْلَاقَهُ وَيَتَأَمَّلَ عُيُوبَهُ وَيَجْتَهِدَ فِي إِصْلَاحِهَا
وَنَفْيِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَيَتَّبِعَ الْأَخْلَاقَ الْحَمِيدَةَ وَيَحْمِلَ نَفْسَهُ عَلَى
اعْتِيَادِهَا وَالتَّحَقُّقِ بِهَا لِأَنَّ النَّاسَ إِذَا تَفَاضَلُوا عَلَى الْحَقِيقَةِ بِفَضَائِلِهِمْ

لَا كَمَا يَتَّقِدُ الْجَاهِلُ وَالْعَامَّةُ أَنَّهُمْ يَتَفَاضِلُونَ بِأَحْوَالِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ
وَكَثْرَةِ ذَخَائِرِهِمْ. وَأَفْتَحَارُ أَكْثَرُ النَّاسِ بِالْأَمْوَالِ وَالذَّخَائِرِ وَالْآلَاتِ
وَتَعْظِيمِهِمُ الْاَغْنِيَاءَ وَذَوِي آجَاهٍ لَيْسَ فِي مَحَلِّهِ. وَذَلِكَ لِأَنَّ كَثْرَةَ
أَلْمَالِ إِنَّمَا تَتَفَاضَلُ بِهَا أَحْوَالُ النَّاسِ وَأَمَّا نُفُوسُهُمْ فَلَا تَكُونُ
أَفْضَلَ مِنْ نُفُوسِ غَيْرِهِمْ بِكَثْرَةِ أَلْمَالِ. وَذَلِكَ لِأَنَّ الْفَاجِرَ السَّيِّئَ
الْجَاهِلَ الشَّرِيرَ وَإِنْ حَوَى أَمْوَالًا عَظِيمَةً فَلَا تَكُونُ بِأَفْضَلٍ مِنْ
الْعَاقِلِ الْحَكِيمِ الْخَيْرِ الْعَالِمِ وَلَوْ كَانَ فَقِيرًا بَلْ إِنَّمَا يَكُونُ
بِكَثْرَةِ أَمْوَالِهِ أَغْنَى مِنْهُ إِذَا كَانَ ذَلِكَ مُعْسِرًا فَقِيرًا وَأَمَّا التَّفْضِيلُ
فَلَا يَكُونُ إِلَّا بِكَثْرَةِ الْفَضَائِلِ فَقَطْ. وَلَكِنْ إِنْ اجْتَمَعَ بِالْإِنْسَانِ
مَعَ الْاِخْلَاقِ الْحَمِيدَةِ وَالْعَادَاتِ الْمُسْتَحْسِنَةِ الْغِنَى وَالثَّرْوَةُ أَيْضًا
فَلَعَمْرِي أَنَّهُ يَكُونُ أَحْسَنَ حَالًا مِنَ الْفَاقِلِ الْمُعْسِرِ لِأَنَّ ذَلِكَ
مِنْ خِمَّةِ سَعَادَاتِ الْإِنْسَانِ وَخَاصَّةً إِذَا كَانَ فَاضِلًا عَادِلًا عَاقِلًا
يَصْرِفُ مَالَهُ فِي وَجْهِهِ وَيُنْفِقُهُ فِي حَقِّهِ وَيَتَّقَدُّ بِهِ مَنْ يَحِبُّ عَلَيْهِ
وَلَا يَتَهَامَلُ فِي مَكْرَمَةٍ تَزِيدُ فِي مَحَاسِنِهِ

أَمَّا النَّاِقِصُ الْجَاهِلُ السَّيِّئُ الْعَادَاتِ فَإِنَّ الْغِنَى رُبَّمَا زَادَهُ
نَقْصًا وَغُيُوبًا وَأَضَافَ إِلَى مَعَايِبِهِ غُيُوبًا أُخْرَى. وَلَا يُعَدُّ بِخَيْرٍ
مَنْ لَا مَالَ لَهُ وَإِنْ كَانَ الْجَمَلُ مِنْ طَبْعِهِ لِأَنَّ فَقْرَهُ يُخْفِي ذَلِكَ
مِنْهُ وَمَتَى لَمْ يَظْهَرِ مِنْهُ هَذَا الْأَمْرُ فَلَا يُعَابُ عَلَيْهِ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ
إِنَّمَا يُعَابُ بِمَا يَظْهَرُ مِنْهُ وَأَمَّا مَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَإِسَارٍ وَلَمْ يَجِدْ بِهِ
ظَهَرَ بُخْلُهُ فَيَصِيرُ أَلْمَالُ جَالِبًا عَلَيْهِ عَارًا. وَأَيْضًا فَإِنَّ أَكْثَرَ الْفُجُورِ

وَالْحَظُورَاتِ وَالشَّهَوَاتِ الرَّدِيَّةِ لَا تُنَالُ غَالِبًا إِلَّا بِالْأَمْوَالِ
فَالْفَقِيرُ الْمُعْسِرُ وَإِنْ كَانَ فَجُورًا فَلَا يَكَادُ يَظْهَرُ ذَلِكَ مِنْهُ أَمَّا إِذَا
كَانَ ذَا مَالٍ تَمَكَّنَ مِنْ شَهَوَاتِهِ فَتَظْهَرُ حِينَئِذٍ عُيُوبُهُ . وَبَاءَ عَلَيْهِ
يَكُونُ الْغِنَى مَكْسِبًا لِصَاحِبِهِ أَحْيَانًا عُيُوبًا وَنَقَائِصَ وَالْفَقْرُ فَضَائِلَ
وَمَحَاسِنَ . فَيَنْتَجِجُ مِنْ ذَلِكَ إِذَا انَّ النَّاسَ لَا تَتَفَاضَلُ حَقِيقَةُ بِالْأَمْوَالِ
وَالذَّخَائِرِ كُلِّ انَّمَا يَتَفَاضَلُونَ بِالْآدَابِ وَالْحَاسِنِ الذَّائِتَةِ . فَالْخَلِيقُ
بِالْإِنْسَانِ أَنْ يَسُوسَ نَفْسَهُ بِالْآدَابِ الْمُسْتَحْسَنَةِ وَيَسْأَلَ بِهَا
الطَّرِيقَ الْحَمُودَةَ فَإِنَّهُ بِذَلِكَ يَكُونُ مُحَبُّوبًا عِنْدَ النَّاسِ مَقْبُولًا
لَدَيْهِمْ مَعْظَمًا فِي نَفُوسِهِمْ مَفْضَلًا عَنْ غَيْرِهِ مُوقَّرًا عِنْدَ الرُّؤَسَاءِ
وَالْمُلُوكِ مَقْبُولَ الْقَوْلِ عَظِيمَ أَجَاهِ

فَهَذِهِ حَالَةُ الْعَظَمَةِ الْحَقِيقَةِ الْمَكْتَسَبَةِ بِالْأَمْوَالِ لِأَنَّ أَلْمَالَ
قَدْ تَلَحُّقَهُ الْمَصَائِبُ فَإِذَا فَارَقَ صَاحِبُهُ سَقَطَتْ مَنَزِلَتُهُ مِنْ نَفُوسِ النَّاسِ
وَسَاوَى الْعَامَّةِ وَالشُّوْقَةِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمَعْظَمَ لَهُ كَانَ مَالُهُ لَا نَفْسُهُ
فَمَتَى زَالَ ذَلِكَ أَلْمَالُ لَمْ يَبْقَ لَهُ شَيْءٌ يُعَظَّمُ مِنْ أَجَلِهِ . وَلَيْسَ
كَذَلِكَ الْعَالَمُ النَّفِيسُ الْفَاضِلُ الْمُهَذَّبُ الْإِخْلَاقُ لِأَنَّ عَظَمَتَهُ
بِفَضَائِلِهِ وَهِيَ غَيْرُ مُفَارِقَةٍ لَهُ فَهُوَ مُعْتَبَرٌ دَائِمًا وَمَعْظَمٌ مِنْ أَجْلِ
ذَاتِهِ لَا لِشَيْءٍ خَارِجٍ عَنْهُ



المبحث الخامس

في الارتياض بمكارم الاخلاق (*)

(من كتاب تهذيب الاخلاق لكرتاس عدي)

وَيَا أَنَا الرَّائِبَ فِي سِيَاسَةِ نَفْسِهِ الْوُثْرَ تَهْذِيبِ أَخْلَاقِهِ إِذَا
 نَبِهَ عَلَى خُلُقٍ مَذْمُومٍ وَجَدَ فِيهِ وَاحِبًا اجْتِنَابَهُ رُبَّمَا صَعَبَ عَلَيْهِ
 إِلَّا بُتِّقَالَ عَنْهُ مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ وَرُبَّمَا لَمْ يَنْلِ التَّخْلُصَ مِنْهُ وَلَمْ يُطَاوِعْهُ
 طَبْعُهُ أَوْ رُبَّمَا اسْتَحْسَنَ أَيْضًا خُلُقًا مَحْمُودًا لَا يَجِدُهُ لِنَفْسِهِ وَآثَرَ التَّحَلُّقَ
 بِهِ لَمْ تَسْمَحْ لَهُ عَادَتُهُ وَلَمْ يَصِلْ إِلَى مُرَادِهِ. لِذَلِكَ وَجَبَ أَنْ نَرْتُمَ
 الْمُرَائِغِينَ فِي السِّيَاسَةِ الْمُتَحَوِّدَةِ طُرُقًا يَتَدَبَّرُونَ بِهَا وَيَتَدَرَّجُونَ فِيهَا
 حَتَّى يَنْتَهُوا إِلَى مُرَادِهِمْ مِنْ ائْتِيَادِ الْأَخْلَاقِ الْجَمِيلَةِ وَلَا نَطْبَاعِ عَلَيْهَا
 وَتَجَنُّبِ الْأَخْلَاقِ الْقَبِيحَةِ وَالتَّفَرُّغِ مِنْهَا وَهَذَا تَذَكُّرُ طَرِيقِ الْإِرْتِيَاضِ
 بِالْأَخْلَاقِ الْمُتَحَوِّدَةِ وَالتَّعَمُّلِ لِإِئْتِيَادِهَا لِكَيْ يُمَكِّنَ لِلرَّائِبِ
 أَنْ يَتَحَلَّقَ بِهَا فَنَقُولُ:

إِنَّهُ لَأَمْرٌ مُقَرَّرٌ أَنَّ سَبَبَ اخْتِلَافِ الْأَخْلَاقِ فِي النَّاسِ هُوَ
 اخْتِلَافُ قُوَى النَفْسِ الثَّلَاثِ فِيهِمْ وَهِيَ الشَّهْوَانِيَّةُ وَالْعَظِيمَةُ وَالنَّاطِقَةُ
 وَأَنَّ إِصْلَاحَ الْأَخْلَاقِ هُوَ تَذْلِيلُ الشَّهْوَانِيَّةِ مِنْهَا وَالْعَظِيمَةِ وَتَمْيِزُ

(.) اعلم ان ما بقوله ما لكرتاس بن عدي في سياسة الانسان نفسه يصلح
 للخطيب لسياسة غيره. لانه موكل بتعسين طباع الجمهور موضح اليه حملهم
 على الخير وصرفهم عن مضار الاهواء المنحرفة

عَادَاتِ النَّفْسِ النَّاطِقَةِ وَاسْتِعْمَالِ الْحَمُودِ مِنْ أَفْعَالِنَا. فَطَرِيقُ التَّدرِجِ
لِاسْتِعْمَالِ الْعَادَاتِ الْجَمِيلَةِ وَالْعَدُولِ عَنِ الْعَادَاتِ الْقَبِيحَةِ هُوَ التَّدرِجُ
فِي تَذَلُّلِ هَاتَيْنِ الْقُوَّتَيْنِ

أَمَّا النَّفْسُ الشَّهَوَانِيَّةُ فَالطَّرِيقُ إِلَى قَهْمِهَا أَنْ يَتَذَكَّرَ الْإِنْسَانُ فِي أَوْقَاتِ
شَهَوَاتِهِ وَعِنْدَ شِدَّةِ الْعَرَمِ إِلَى لَذَاتِهِ أَنَّهُ يُرِيدُ تَذَلُّلَ نَفْسِهِ الشَّهَوَانِيَّةِ
فَيَعْدِلُ عَمَّا تَأَوَّتْ نَفْسُهُ إِلَيْهِ مِنَ الشَّهْوَةِ الرَّدِيئَةِ إِلَى مَا هُوَ مُسْتَحْسَنٌ
مِنْ جِنْسِ تِلْكَ الشَّهْوَةِ وَهُوَ تَقَرُّقُ عَلَى ارْتِضَائِهِ وَيَقْتَصِرُ عَلَيْهِ. فَإِنْ لَمْ
تَذَكَّرْ شَهَوَاتُهُ يَعْلَمُهَا وَيَعْدَهَا فَإِنْ سَكَنْتِ اتَّصَرَ وَإِلَّا عَاوَدَ الْفِعْلُ
مِنْ الْوَجْهِ الْمُسْتَحْسَنِ. فَإِنَّهُ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ وَكُرَّرَهُ كَفَتِ النَّفْسُ وَإِذَا
اسْتَمَرَّ عَلَى هَذَا الْحَالِ آلَفَتْ هَذِهِ الْعَادَةَ وَتَأَنَّنَتْ بِهَا وَاسْتَوْحِشَتْ
مِمَّا سِوَاهَا. وَيَنْبَغِي لِمَنْ أَرَادَ قَهْمَ نَفْسِهِ الشَّهَوَانِيَّةِ أَنْ يَكْثُرَ مِنْ
مُجَالَسَةِ الزُّهَادِ وَالرُّهْبَانِ وَالنُّسَاكِ وَأَهْلِ الْوَرَعِ وَالْوَاعِظِينَ وَيَلَازِمَ
مُجَالِسِ الرُّؤَسَاءِ وَأَهْلِ الْعِلْمِ فَإِنْ هُوَ لَا، وَخَاصَّةً رُؤَسَاءَ الدِّينِ
يُعْظِمُونَ مَنْ كَانَ مَعْرُوفًا بِأَعْلَى وَيَسْتَرْزُونَ مَنْ كَانَ فَاجِرًا مِنْهُمْ كَمَا
فُجِّالَسَتْهُ وَمُلَازِمَتُهُ لِهَذِهِ الْمَجَالِسِ تَضْطَرُّهُ إِلَى التَّحَوُّنِ وَالشَّعْفِ
وَالْتَّجَمُّلِ لِدَوَقِهِمْ إِنْ لَمْ يَسْتَرْزَوْهُ وَيَغْضَبُوا مِنْهُ وَيَلْحَقَ بِرُتْبَةٍ مَنْ
يُعْظَمُ فِي الْحَافِلِ وَالْمَجَالِسِ. وَيَنْبَغِي لَهُ أَيْضًا أَنْ يُدِيمَ النَّظَرَ فِي
كُتُبِ الْأَخْلَاقِ وَالسِّيَاسَةِ وَأَخْبَارِ الزُّهَادِ وَالرُّهْبَانِ وَالنُّسَاكِ وَأَهْلِ
الْوَرَعِ وَيَتَجَنَّبَ مَجَالِسَ الْخُلَعَاءِ وَالسُّفَهَاءِ وَالْمُنْهَمِكِينَ وَمَنْ يُكْثِرُ
الْهَزْلَ وَاللَّعِبَ وَحِينَئِذٍ يَلْحَقُ بِرُتْبَةٍ وَيُعْظَمُ فِي الْحَافِلِ. وَكَثُرَ مَا

يَحِبُّ لَهُ أَنْ يَتَجَنَّبَ الْسُّكْرَ فَلَا نَهَ مِمَّا يُشِيرُ نَفْسُهُ الشَّهَوَانِيَّةَ وَيَقْوِيَهَا
وَيَحْجَاهَا عَلَى التَّهْتِكِ وَأَرْتِكَابِ الْفَوَاحِشِ وَالْمُجَاهَرَةِ بِهَا... وَيَبْغِي لِمَنْ
أَرَادَ قَمَعَ نَفْسِهِ الشَّهَوَانِيَّةَ أَنْ يُقِلَّ مِنَ اسْتِمَاعِ الْغِنَاءِ وَخَاصَّةً مِنَ
النِّسَاءِ الْمُتَصَبِّعَاتِ وَالشَّبَابِ الظُّرَفَاءِ فَإِنَّ السَّمَاعَ قُوَّةٌ عَظِيمَةٌ فِي إِثَارَةِ
الشَّهْوَةِ... أَمَّا الطَّعَامُ فَيَبْغِي أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ غَايَتَهُ هُوَ الشَّبَعُ لِذَلِكَ أَلَمْ
الْجُوعِ. وَفَإِخْرُ الطَّعَامِ وَدِينُهُ جَمِيعُهُمَا مُشْبَعَانِ فَلَيْسَ لِلْمُبَانَّةِ فِي
تَحْوِيلِ الطَّعَامِ الْكَثِيرِ حَظٌّ وَلَا فَائِدَةٌ. وَالْأَوَّلَى هِيَ التَّوَسُّطُ فِي
أَنْوَاعِ الْمَأْكَلِ وَأَنْ يَكُونَ مِنَ الْخَافِضِ الَّذِي نَشَأَ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ
وَأَعْتَادَهُ وَأَلْفَهُ... وَطَرِيقُ التَّدْرِجِ إِلَى الْإِقْتِصَارِ فِي الطَّعَامِ هُوَ أَنْ
يُبَادِرَ ذُو الشَّهْوَةِ إِلَى آيٍ يَتِيٍّ وَجَدَهُ مِنَ الْمَأْكَلِ فَإِنْ كَانَ
الْمُشْتَهَى الَّذِي تَأَقَّتْ نَفْسُهُ إِلَيْهِ حُلُومًا فَلَا آيَ حَلَاوَةٍ وَجَدَهَا
وَأِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا مَا يَشْتَهِيهِ مِنَ الطَّعَامِ فَإِنَّهُ إِذَا تَنَاوَلَ
الْإِنْسَانُ مِنْ ذَلِكَ تَكَرَّرًا وَشَبَعَ مِنْهُ سَكَنَتْ شَهْوَتُهُ وَكَفَّتْ
نَفْسُهُ بَعْدَ ذَلِكَ

وَيَبْغِي لِمَنْ أَحَبَّ الْعِفَّةَ أَنْ يَكُونَ أَبَدًا مُتَقَيِّظًا ذَاكِرًا لِمَا يَلْحَقُ
الْفَاجِرَ وَالْهَيْمَ وَالشَّرَّهَ وَالْمُتَهْتِكَ مِنَ الْقَبَاحَةِ وَالْعَارِ فِي الدُّنْيَا جَاعِلًا
ذَلِكَ دَيْدَنَهُ وَشِعَارَهُ وَمُدَاوِمًا عَلَى ذِكْرِهِ. فَإِنَّ نَفْسَهُ حِينَئِذٍ تُبْغِضُ
الشَّهَوَاتِ الرَّدِيئَةَ وَتَشْتَاقُ إِلَى التَّعَفُّفِ وَالْقَنَاعَةِ وَتَطْرَبُ عِنْدَ الْعُدُولِ
عَنِ الْفَوَاحِشِ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهَا وَتُرْتَاحُ لِمَا يُنْشَرُ عَنْهَا وَمَا يَبْلُغُهَا عَنْ
النَّاسِ مِنَ الشَّاءِ الْجَمِيلِ عَلَى صَاحِبِهَا. فَهَذَا هُوَ طَرِيقُ رِيَاضَةِ النَّفْسِ

إِلَى قَهْرِ الْقُوَّةِ الشَّهْوَانِيَّةِ وَتَذْلِيلِهَا وَقَمْعِهَا آغْنِي طَرِيقَ الْإِرْتِيَاضِ
بِالْعَادَاتِ الْحَمُودَةِ الْمَرْضِيَّةِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالشَّهَوَاتِ وَاللَّذَاتِ الدَّيْنِيَّةِ
فَأَمَّا النَّفْسُ الْغَضَبِيَّةُ فَإِنَّ طَرِيقَ قَمْعِهَا وَتَذْلِيلِهَا هُوَ أَنْ يَصْرِفَ
الْإِنْسَانُ هِمَّتَهُ إِلَى تَفَقُّدِ السُّفَهَاءِ الَّذِينَ يُسْرِعُ إِلَيْهِمُ الْغَضَبُ فِي
أَوْقَاتِ طَيْشِهِمْ وَحِدَتِهِمْ وَيُلَاحِظُ تَسْفُهُمْ عَلَى أَخْصَامِهِمْ وَعُقُوبَتِهِمْ
لِحَدَمِهِمْ وَعَيْبِهِمْ فَإِنَّهُ يُشَاهِدُ إِذَا ذَاكَ مَنْظَرًا شَنِيعًا يَأْتِي مِنْهُ
الْخَاصُّ وَالْعَامُّ وَأَنْ يَتَذَكَّرَ فِي أَوْقَاتِ غَضَبِهِ وَعِنْدَ جُنَايَاتِ خَدَمِهِ
وَعَيْبِهِ وَوُثُوبِ إِخْوَانِهِ وَأَوْلَادِهِ فِي جَمِيعِ مُحَاوَرَاتِهِ وَمُعَامَلَاتِهِ مَا
شَاهَدَهُ مِنْ أَوَائِكَ . فَإِنَّهُ إِذَا تَفَكَّرَ فِيمَا كَانَ اسْتَحْفَهُ مِنْهُمْ
فَتَنَكَّرَ بِذَلِكَ سُورَةَ غَضَبِهِ وَيُخَيِّمُ عَمَّا هُمْ بِالْإِقْدَامِ عَلَيْهِ مِنْ
السَّبِّ وَالْوُثُوبِ فَإِنْ لَمْ يَكْفِ بِالْكُلِّيَّةِ قَصَرَ وَلَمْ يَنْتَبِهْ إِلَى غَايَةِ
النُّفْسِ

وَيَنْبَغِي لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَهْوَ نَفْسَهُ الْغَضَبِيَّةَ أَنْ يَتَذَكَّرَ فِي
أَوْقَاتِ غَضَبِهِ عَلَى مَنْ يُؤْذِيهِ أَوْ يَتَجَنَّى عَلَيْهِ أَنَّهُ لَوْ كَانَ هُوَ الْحَاجِي
مَا الَّذِي كَانَ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُقَابَلَ بِهِ عَلَى جُنَايَتِهِ فَإِنَّهُ بِهَذَا الْفِعْلِ يَفْتَقِدُ
أَنْ دَرَكَ تِلْكَ الْجُنَايَةَ وَذَلِكَ الْأَذَى يَسِيرٌ . حَتَّى إِذَا اعْتَقَدَ ذَلِكَ
كَانَتْ مُقَابَلَتُهُ لِلْحَاجِي الْمُؤْذِي بِحَسَبِ اعْتِقَادِهِ خَفِيفَةً وَحِينَئِذٍ لَا
يُسْرِفُ فِي الْإِنْتِقَامِ وَلَا يُفْحِشُ فِي الْغَضَبِ فَتَمَّ فَعْلَ ذَلِكَ دَائِمًا
وَجَعَلَهُ دَيْدَنًا وَتَفَقَّدَ مَعَايِبَ السُّفَهَاءِ . وَمَنْ يُسْرِعُ إِلَيْهِ الْغَضَبُ لَمْ
يُبْعِدْ أَنْ تَنَكَّرَ نَفْسُهُ الْغَضَبِيَّةُ وَتَنْقَادَ إِلَيْهِ وَإِذَا اسْتَمَرَّ عَلَى هَذَا

العمل مدة صار له خلقا وعادة

ويُنْبَغِي لِمَنْ رَغِبَ فِي تَذَلُّلِ قُوَّتِهِ الْغَضَبِيَّةِ أَنْ يَتَجَنَّبَ حَمْلَ السِّلَاحِ
فِي مَجَالِسِ الشَّرَابِ وَحُضُورِ مَوَاضِعِ الْفِتَنِ وَمَقَامَاتِ الْحُرُوبِ وَفِي
مَجَالَةِ الْأَنْرَارِ وَيَتَجَنَّبَ مُعَاشَرَتَهُمْ وَمُخَالَطَةَ الشَّرْطِ فَإِنَّ هَذِهِ
الْمَوَاضِعَ تُكْسِبُ قَسَاوَةَ الْقَلْبِ وَتُغْلِظُهُ وَتُعْدِمُهُ الرَّأْفَةَ فَتَشْدُ
إِذَلِكَ الْقُوَّةُ الْغَضَبِيَّةُ فَإِذَا أَرَادَ تَذَلُّلَهَا وَتَسْكِينَهَا يَجِبُ أَنْ يَجْعَلَ
مُجَاسَّةَ لِأَهْلِ الْوَقَارِ وَالشُّيُوخِ وَالرُّؤَسَاءِ وَالْأَفَاضِلِ وَمَنْ يَقِلُّ غَضَبُهُ
وَيَكْثُرُ جِلْمُهُ وَوَقَارُهُ

وَيُنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَجَنَّبَ الْمُسْكِرَ مِنَ الشَّرَابِ فَإِنَّهُ يُهَيِّجُ الْقُوَّةَ
الْغَضَبِيَّةَ أَكْثَرَ مِمَّا يُهَيِّجُ الْقُوَّةَ الشَّهْوَانِيَّةَ . . .

وَيُنْبَغِي لِمَنْ أَرَادَ تَذَلُّلَ قُوَّتِهِ الْغَضَبِيَّةِ وَالشَّهْوَانِيَّةِ مَعًا أَنْ
يَسْتَعْمَلَ فِي جَمِيعِ مَا يَفْعَلُهُ الْفِكْرَ وَلَا يَقْدِمُ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا بَعْدَ أَنْ
يُرَوِّي فِيهِ وَيَجْعَلَ الْفِكْرَةَ وَاتِّعَاعَ الرَّأْيِ دَيْدَنَهُ وَعَادَتَهُ فَإِنَّ الرَّأْيَ
وَجُودَةَ الْفِكْرِ يُقْتَنِجَانِ لَهُ السَّفَةَ وَبِزْرَعَةَ الْغَضَبِ وَالْإِنْهَالِكَ فِي
الشَّهَوَاتِ وَاتِّعَاعِ اللَّذَاتِ . فَإِذَا اسْتَقْبَحَ ذَلِكَ أَخْجَمَ عَنْهُ وَعَدَلَ إِلَى
مَا يَقْتَضِيهِ الرَّأْيُ وَالْفِكْرُ وَإِنْ لَمْ يَزِدْغِ بِالْكَلِمَةِ لَا بُدَّ أَنْ يُؤَثِّرَ
فِيهِ ذَلِكَ فَيَتَحَرَّ عَمَّا يُرِيدُ التَّسْرِعَ إِلَيْهِ

وَمَلَاكُ الْأَمْرِ فِي تَهْذِيبِ الْأَخْلَاقِ وَضَبْطِ الْقُوَّةِ الشَّهْوَانِيَّةِ
وَالْقُوَّةِ الْغَضَبِيَّةِ هِيَ الْقُوَّةُ النَّاطِقَةُ فَإِنَّ يَهْدِيهِ الْقُوَّةُ تَكُونُ جَمِيعُ
الْتِيَّاتَاتِ فَإِذَا كَانَتْ قُوَّةً مُتَمَكِّنَةً مِنْ صَاحِبِهَا أَمَكَتْهُ أَنْ

يُسوسَ بِهَا قُوَّتِهِ الْبَاقِيَتَيْنِ وَيَكْفِ نَفْسَهُ عَنْ جَمِيعِ الْقَبَائِحِ وَيَتَّبِعَ
أَبَدًا مَحَاسِنَ الْأَخْلَاقِ وَإِذَا لَمْ تَكُنْ قُوَّةً فِي صَاحِبِهَا كَانَتْ
مَغْمُورَةً خَافِيَةً

قَالَ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَعْتَمِدَهُ فِي سِيَاسَةِ أَخْلَاقِهِ هُوَ أَنْ يُرَوِّضَ هَذِهِ
الْقُوَّةَ، وَتُرَوِّضُهَا إِنَّمَا يَكُونُ بِالْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ فَإِنَّهُ إِذَا نَظَرَ فِي هَذِهِ
الْعُلُومِ وَدَقَّقَ النَّظَرَ فِيهَا وَدَرَسَ كُتُبَ الْأَخْلَاقِ وَالسِّيَاسَةِ وَدَارَمَ عَلَيْهَا
تَيَقَّظَتْ نَفْسُهُ وَتَذَهَّبَتْ مِنْ شَهَوَاتِهَا وَانْتَعَشَتْ مِنْ حَمُولِهَا وَاحْسَتْ
بِفَضَائِلِهَا وَارْتَفَتْ مِنْ رَذَائِلِهَا لِأَنَّ هَذِهِ الْقُوَّةَ إِنَّمَا تَضَعُفُ وَتَتَخَفُ
إِذَا عَدِمَتْ الْفَضَائِلَ وَالْمَذَاقِبَ وَاسْتَوَلَتْ عَلَيْهَا الرَّذَائِلُ، أَمَّا إِذَا
اُقْتَنَتِ الْفَضَائِلُ وَاسْتَسَبَّتِ الْأَدَابُ تَيَقَّظَتْ مِنْ غَشِيَتِهَا وَثَارَتْ
بِزُكْرِيهَا وَقَوِيَّتْ بَعْدَ ضَعْفِهَا، وَفَضَائِلُ هَذِهِ الْقُوَّةِ هِيَ الْعُلُومُ
الْعَقْلِيَّةُ وَخَاصَّةً مَا دَقَّ مِنْهَا فَإِذَا ارْتَاضَ الْإِنْسَانُ بِهَا شَرُفَتْ نَفْسُهُ
وَعَظُمَتْ هِمَّتُهُ وَقَوِيَ فِكْرُهُ وَتَمَكَّنَ مِنْ نَفْسِهِ وَمَلَكَ أَخْلَاقَهُ
وَقَدَّرَ عَلَى إِصْلَاحِهَا وَأَنْقَادَ لَهُ طَبْعُهُ وَسَهَلَ عَلَيْهِ تَهْدِيئُهُ وَأَذْغَنْتْ لَهُ
الْقُوَّةُ الْفَضِيلَةَ وَالشَّهَوَانِيَّةُ وَهَانَ عَلَيْهِ قَوْمُهَا وَتَهَذَّبَتْ بِهَا

وَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَبْتَدِئَ بِهِ مَنْ يُحِبُّ سِيَاسَةَ أَخْلَاقِهِ هُوَ النَّظَرُ
فِي كُتُبِ الْأَخْلَاقِ وَالسِّيَاسَاتِ ثُمَّ الْإِرْتِيَاضُ بِعُلُومِ الْحَقَائِقِ فَإِنْ
أَشْرَفَ مَا يَكُونُ لِلنَّفْسِ إِذَا رَاصَتْ حَقَائِقَ الْأُمُورِ وَأُطْلِئَتْ عَلَى
هَيْئَاتِ الْمَوْجُودَاتِ فَتَشْرُفَتْ نَفْسُ الْإِنْسَانِ وَعَلَتْ هِمَّتُهُ رَقِيَ إِلَى
مَرَاتِبِ الْفَضْلِ

وَمَا يُضْلِحُ النَّفْسَ النَّاطِقَةَ وَيُقَوِّمُهَا أَيْضًا مُجَالَسَةُ أَهْلِ الْعِلْمِ
وَمُخَالَطَتُهُمْ وَالْإِقْتِدَاءُ بِأَخْلَاقِهِمْ وَعَوَانِدِهِمْ وَخَاصَّةً أَصْحَابُ عُلُومِ
الْحَقَائِقِ وَالْمُتَيْقِظُونَ مِنْهُمْ الْمُسْتَعْمِلُونَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ مَا تَقْتَضِيهِ
عُلُومُهُمْ وَتُوجِبُهُ عُقُولُهُمْ

أَمَّا تَمَيُّزُ عَادَاتِ النَّفْسِ النَّاطِقَةِ وَأَسْتِعْمَالُ مَا حَسُنَ فِيهَا وَأَطْرَاحُ
مَا قَبِحَ فَإِنَّمَا يُمَكِّنُ وَيَتَسَهَّلُ إِذَا رَاضَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ النَّاطِقَةَ فَإِنَّمَا
إِذَا أَرَادَتْ بِالْعُلُومِ الْحَقِيقَةِ وَتَيَقَّظَتْ وَتَشَرَّفَتْ أَرِنَتْ مِنْ
الْعَادَاتِ الْمُسْتَقْبَحَةِ وَتَذَرَّتْ عَنِ التَّدْنِيسِ بِهَا فَيَهْوَنُ حِينَئِذٍ عَلَى
الْإِنْسَانِ تَجَنُّبُ مَا يُسْتَكْرَهُ مِنَ الْعَادَاتِ وَيَغْلِبُ عَلَيْهِ اسْتِحْسَانُ
الْأَخْلَاقِ الْحَمِيدَةِ الْجَبِيَّةِ وَالْخَلْقِ بِهَا

فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ جَمِيعِ مَا ذَكَرْنَاهُ أَنَّ طَرِيقَ الْإِرْتِيَاضِ بِالْأَخْلَاقِ
الْحَمِيدَةِ وَالْتِمَاضِ لِأَعْيَادِهَا وَاتِّبَاعِ الْحَمْدِ الْمَرْضِيِّ مِنْهَا وَتَرْكُ
الْمَذْمُومِ الْمُسْتَقْبَحِ وَتَذَايُلِ قُوَّةِ الشَّهْوَةِ الْفَضِيئَةِ وَضَطِّهَا وَقَهْرُهَا هُوَ
إِصْلَاحُ الْقُوَّةِ النَّاطِقَةِ وَتَقْوِيَتُهَا وَتَحْلِيلُهَا بِالْفَضَائِلِ وَالْآدَابِ
وَالْحَسَنَاتِ فَإِنَّ ذَلِكَ هُوَ آلَةُ السِّيَاسَةِ وَمَرْكَبُ الرِّيَاضَةِ

وَمَنْ يَتِمَّ كُنْ مِنْ كِتَابِ الْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْإِيمَانِ فِيهَا
وَتَعَدَّرَ عَلَيْهِ ذَلِكَ فَلْيَبْدُلْ جَهْدَهُ فِي تَدْقِيقِ الْفِكْرَةِ وَمُجَاهَدَةِ
النَّفْسِ وَيُصَوِّرِ الْفَرْقَ مَا بَيْنَ عَادَتِهِ الْقَبِيحَةِ وَالْجَبِيَّةِ وَيَنْظُرْ أَيْهَا
أَجْدَى عَلَيْهِ وَأَنْفَعُ وَأَيْهَا أَجْدَرُ عَاقِبَةً وَأَبْقَى عَلَى الْآيَامِ فَإِنَّهُ
إِذَا صَدَقَ مَا تَاكَّدَتْهُ نَفْسُهُ وَجَدَ أَنَّ شَهْوَاتِهِ وَلَذَائِثَهُ إِنَّمَا هِيَ مُدَّةٌ

وَقَدْ اسْتَعْمَلَهَا فَقَطُّ أَمَّا بَعْدَ مُفَارَقَتِهَا فَلَيْسَتْ بِبَاقِيَةٍ عَلَيْهِ وَلَا نَافِعَةٌ
لَهُ وَتُجَدُّ عَارَهَا وَشِدَّتُهَا بَاقِيًا إِلَى الدَّهْرِ مُتَدَاوِلًا فِيمَا بَيْنَ النَّاسِ يُعَابُ
بِهِ وَيُزْرَى عَلَيْهِ. وَكَذَلِكَ فِي شِدَّةِ الْغَضَبِ وَالْإِسْرَاعِ إِلَى الْإِنْتِقَامِ
وَالسَّبِّ وَالْفُحْشِ فَتَى انْخَلَّتْ غَمْرَتُهُ وَسَكَنَتْ ثَوْرَتُهُ تَأْمَلُ أَمْرَهُ
فَرَأَى أَنَّ مَا فَعَلَهُ كَانَ قَبِيحًا وَلَمْ يَجِدْهُ مُجْدِيًا وَلَا مُفِيدًا وَقَدْ صَارَ
مَا فَعَلَهُ وَقْتُ الْغَضَبِ نَقِصَةً يَوْمَ بِهَا وَمَعِيرَةً يُسَبُّ عَلَيْهَا. وَرُبَّمَا
ارْتَكَبَ حَالَ الْغَضَبِ جُنَايَاتٍ كَثِيرَةً يُعَاقَبُ عَلَيْهَا وَبُؤْدَبُ مِنْ
أَجْلِهَا. كَذَلِكَ الْعَادَاتُ الْمَكْرُوهَةُ فِي النَّفْسِ اللَّاطِقَةُ هِيَ أَيْضًا غَيْرُ
نَافِعَةٍ وَلَا مُجْدِيَةٍ لِلْإِنْسَانِ نَفْعًا كَالْحَسَدِ مَثَلًا وَالْحَقْدِ وَالْحُنْثِ
وَأَمْثَالِ هَذِهِ إِذَا لَا يَتَفَعُّ بِهَا صَاحِبُهَا وَإِنْ أَسْتَفْعَ كَانَ شَرًّا مُنْقَمَةً
وَمَعَ ذَلِكَ فَهِيَ مُضِرَّةٌ لَهُ لِأَنَّ مَنْ تَشَرَّرَ قَصْدُهُ النَّاسُ بِالشَّرِّ
وَأَسْتَعْدُوا لِأَذْيَتِهِ وَتَعَمَّدُوا لِلْإِضْرَارِ بِهِ وَتَوَقَّوْهُ وَأَحْتَرَزُوا مِنْهُ
وَكَرَهُوا نَفْعَهُ وَقَصَرُوا عَلَيْهِ وَجُوهَ الْخَيْرِ. . . فَإِذَا حَاسِبَ الْإِنْسَانُ
نَفْسَهُ وَأَجَادَ فِكْرَتَهُ وَتَمَيَّزَهُ عِلْمٌ أَنَّ الضَّرَرَ فِي مَسَاوِي الْأَخْلَاقِ
أَكْثَرُ مِنَ النِّفْعِ بِهَا وَأَنَّ الَّذِي يَعُدُّ فِيهَا نَفْعًا فَلَيْسَ هُوَ بِنَفْعٍ عَلَى
الْحَقِيقَةِ وَإِذَا كَانَ نَفْعًا فَهُوَ يَسِيرٌ جَدًّا وَغَيْرُ بَاقٍ وَلَا مُسْتَعِيرٌ وَإِنْ
هَذَا السَّيْرِ الَّذِي يَعُدُّ نَفْعًا لَا يَفِي بِالضَّرَرِ الْكَثِيرِ وَالْعَارِ الدَّائِمِ.
الْمُتَّصِلُ . . .

وَيَنْبَغِي لِمَنْ أَرَادَ سِيَاسَةَ أَخْلَاقِهِ أَنْ يَجْعَلَ غَرَضَهُ مِنْ كُلِّ
فَضِيلَةٍ غَايَتَهَا وَنَهَايَتَهَا وَلَا يَقْنَعَ مِنْهَا بِأَدُونِ الْغَايَةِ وَلَا يَرْضَى إِلَّا

بِأَعْلَى دَرَجَةٍ فَإِنَّهُ إِذَا جَعَلَ ذَلِكَ غَرَضَهُ كَانَ حَرِيًّا أَنْ يَتَوَسَّطَ فِي
الْفَضَائِلِ وَيَلْغُ فِيهَا رُتْبَةً مُرَضِيَةً إِنْ قَاتَتْهُ الدَّرَجَةُ الْعُلْيَا وَأَمَّا إِنْ
قَنَعَ بِالتَّوَسُّطِ يَمَنْ أَنْ يُقْصَرَ عَنْ بُلُوغِهِ فَبَقِيَ فِي أَدْنَى الْمَرَاتِبِ
وَيَفُوتُهُ الْمَطْلُوبُ وَلَا يَطْمَعُ أَبَدًا فِي التَّامِّ.

فَهَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ هُوَ طَرِيقُ الْأَرْتِيَّاسِ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَنْهَجُ
التَّدْرِجِ فِي تَحْمُودِهَا وَكَيْفِيَّةُ تَهْدِيئِهَا فَإِذَا أَخَذَ الْإِنْسَانُ بِتَدْرِيبِ
نَفْسِهِ بِهِ وَأَكْثَرَ مِنْ مُرَاعَاتِهِ وَتَعَهُّدِهِ صَارَتْ لَهُ الْفَضَائِلُ دَيْنًا
وَالْحَاسِنُ خَلْقًا وَطَبْعًا

هَذَا وَقَدْ بَقِيَ عَلَيْنَا أَنْ نَذْكُرَ أَوْصَافَ الْإِنْسَانِ التَّامِّ
الْجَامِعِ لِلْحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ... فنَقُولُ إِنَّ الْإِنْسَانَ التَّامَّ هُوَ الَّذِي
لَمْ تَفُتْهُ فَضِيلَةٌ مِنَ الْفَضَائِلِ وَلَمْ تَشْهَدْ رَذِيلَةٌ مِنَ الرَّذَائِلِ وَهَذَا
أَحَدُ قَلَمَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ إِنْسَانٌ وَإِذَا انْتَهَى إِلَيْهِ افْتِرَاضًا كَانَ
أَشْبَهَ بِنَفْسِ النَّاسِ. وَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ مَضْرُوبٌ بِأَنْوَاعِ النِّقْصِ
مُسْتَوِلٌ عَلَى طَبْعِهِ ضُرُوبُ الشَّرِّ وَمَا عَلَى ذَلِكَ فَقَلَمًا يَخْلُصُ مِنْ
جَمِيعِهَا حَتَّى تَسْلَمَ نَفْسُهُ مِنْ كُلِّ غَيْبٍ وَمَنْقُصَةٍ وَتُحِيطَ بِهِ كُلُّ
فَضِيلَةٍ وَمَنْقِبَةٍ حَسَنَةٍ فَالتَّامُّ وَإِنْ كَانَ عَزِيزًا بَعِيدَ الدَّمَاوِلِ إِلَّا أَنَّهُ
مُمْكِنٌ وَهُوَ غَايَةُ مَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ فَإِذَا صَدَقَتْ عَزِيمَتُهُ
وَأَعْطِيَ الْأَجْتِهَادَ حَقَّهُ كَانَ مُمَكِّنًا لَهُ أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْغَايَةِ
الْمَقْصُودَةِ الْمُنْتَهَى هُوَ لَهَا تِلْكَ الَّتِي تَسْمُو نَفْسُهُ إِلَيْهَا

أَمَّا تَفْصِيلُ ذَلِكَ هُوَ أَنْ يَكُونَ مُتَفَقِّدًا لِجَمِيعِ أَخْلَاقِهِ مُتَقِظًا

لِسَائِرِ مَعَايِهِ مُتَحَرِّزًا مِنْ دُخُولِ نَقْصٍ عَلَيْهِ مُسْتَعْمِلًا لِكُلِّ فَضِيلَةٍ
مُجْتَهِدًا فِي بُلُوغِ الْغَايَةِ عَاشِقًا لِصُورَةِ الْكَمَالِ مُسْتَلِذًا بِمُجَاسِنِ
الْأَخْلَاقِ مُتَقَيِّظًا لِمَذْمُومِ الْعَادَاتِ مُعْتَذِرًا بِتَهْذِيبِ نَفْسِهِ غَيْرَ
مُسْتَكْرِهٍ لَمَّا يَقْتَضِيهِ مِنَ الْفَضَائِلِ مُسْتَعْظِمًا لِلْيَسِيرِ مِنَ الرَّدَائِلِ
مُسْتَضْفِرًا لِلرُّتَبَةِ الْأَعْلَى مُسْتَحْقِرًا لِلْغَايَةِ الْقُصْوَى بَرِيءًا مِنَ التَّمَامِ دُونَ مَحَلِّهِ
وَالْكَمَالِ أَقْلًا أَوْ صَافِيَةً . .

فَمَا أَوْلَى مَنْ نَظَرَ فِي هَذِهِ الْأَقْوَالِ وَتَصَفَّحَهَا وَفَهِمَ مَضْمُونَهَا
وَتَدَبَّرَهَا وَآخَذَ نَفْسَهُ بِاسْتِعْمَالِ مَا تَبَيَّنَ فِي فُصُولِهِ وَسَاقَ أَخْلَاقَهُ
عَلَى التَّطَرُّقِ إِلَى مَا فُتِنَ فِي أَبْوَابِهِ وَاجْتَهَدَ كُلَّ الْجُتْهَادِ فِي تَكْمِيلِ
نَفْسِهِ وَأَسْتَفْرَغَ غَايَةَ الْوُسْعِ فِي طَلَبِ التَّمَامِ . وَمَا أَقْبَحَ النِّقْصَ
بِالْقَدْرِ عَلَى التَّمَامِ وَالْعُجْزَ عَنِ الْمُقْتَدِرِ



الفصل السادس

في تنسيق الخطابة وبيان القضية والقياس

البحث الأول

في مبادئ الخطابة والافتتاحات

من كتاب الصنائع لابن ملال العسكري تنصُرُف

(راجع صفحة ٧٧ من عام الخطابة)

قَالَ بَعْضُ الْكُتَّابِ : أَمْعَارُ الْكُتَّابِ أَحْسِنُوا الْإِبْتِدَاءَاتِ
فَإِنَّهُمْ دَلَالَةُ الْبَيَانِ . وَذَلِكَ أَنْ يَجْعَلَ الْخَطِيبُ فَاتِحَةً كَلَامِهِ وَأَوَّلَهُ
دَائِلًا عَلَى الْمَقْصُودِ الَّذِي دَعَاهُ لِإِقَامِهِ فَيَنْظُرُ إِلَى الْغَرَضِ الْمَطْلُوبِ
فَيَجْعَلُ التَّحْيِيدَ أَوْ الدَّعَاءَ أَوْ التَّمْضِيْنَ مُشْعِرًا بِذَلِكَ فَإِنَّهُ مِنْ أَعْلَى
مَرَاتِبِ الْبَلَاغَةِ وَإِنَّمَا خُصَّتِ الْإِبْتِدَاءَاتُ بِالْإِخْتِيَارِ لِأَنَّهَا أَوَّلُ مَا
يَطْرُقُ السَّمْعَ مِنَ الْكَلَامِ فَإِذَا كَانَ الْإِبْتِدَاءُ مُؤْنِقًا بَدِيعًا رَشِيقًا
لَانْقِاطًا بِالْمَعْنَى الْوَارِدِ بَعْدَهُ تَوَفَّرَتِ الدَّوَاعِي لِاسْتِمَاعِ مَا يَحْيِي بَعْدَهُ
فَيَقْرَعُ أَسْمَاعَهُمْ شَيْءٌ بَدِيعٌ أَيْسَرُ لَهُمْ بِمِثْلِهِ عَهْدٌ فَيَرْغَبُونَ أَنْ
يَسْتَمِعُوا مَا بَعْدَهُ لِفَهْمِهِ . وَلِذَا جَعَلَ الْكُتَّابُ وَالْوَاعِظُونَ أَكْثَرَ
الْإِبْتِدَاءَاتِ بِالْحَمْدِ لِلَّهِ لِأَنَّ النَّفْسَ تَتَشَوَّقُ لِلشَّاءِ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ دَاعِيَةٌ

إِلَى الْأَسْتِمَاعِ . وَقَدْ قِيلَ : كُلُّ كَلَامٍ لَا يُبْتَدَأُ فِيهِ بِالْحَمْدَةِ فَهُوَ
 آتَرٌ . وَحَقِيقَةُ هَذَا الْبَابِ أَنْ يُجْعَلَ مَطْلَعُ الْكَلَامِ مِنْ الْخُطْبِ أَوْ
 الرَّسَائِلِ أَوْ الشُّعْرِ دَالًّا عَلَى الْمَعْنَى الْمَقْصُودِ مِنْ ذَلِكَ الْكَلَامِ . إِنْ
 فَتَحْنَا فَفَتْحًا وَإِنْ كَانَ هُنَا فِهْنًا أَوْ كَانَ عَزَاءً فَعَزَاءً وَكَذَلِكَ يَجْرِي
 الْحُكْمُ فِي غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَعَارِنِ . وَقَائِدَتُهُ أَنْ يُعْرَفَ مِنَ الْكَلَامِ
 مَا الْمُرَادُ بِهِ وَيُسْتَفْتَحَ الْمُتَكَلِّمُ أَبْوَابَ الْأَسْمَاعِ وَيُسْتَحْضِرَ الْأَذْهَانَ
 لِلْأَسْتِمَاعِ . وَهَذَا الشَّعْبُ عَظِيمُ النِّفَعِ لِمَنْ حَقَّقَهُ وَلَا يُفْتَحُ بَابُهُ إِلَّا
 لِمَنْ طَرَقَهُ وَقَدْ يُسَمَّى أَيْضًا هَذَا النَّوعُ بِرِأَاةِ الْإِسْتِهْلَالِ وَيَأْتِي
 عَنْهُ الْكَلَامُ فِي الْقِسْمِ الثَّانِي مِنْ هَذَا الْجُمُوعِ عِنْدَ الْكَلَامِ عَنْ
 الشُّعْرِ

المبحث الثاني

في القضية والقياس

(من كتاب شرح مطالع السعود وكتابات أبي الفداء والشفاء لارسيدي باختصار)

(راجع صفحة ٩٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

الْقَضِيَّةُ قَوْلٌ يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ لِقَائِلِهِ إِنَّهُ صَادِقٌ فِيهِ أَوْ كَاذِبٌ وَهِيَ
 مَجْمُوعُ الْمَعْلُومَاتِ الْأَرْبَعَةِ وَهِيَ الْحَكْمُ عَلَيْهِ وَالْحَكْمُ بِهِ وَالنِّسْبَةُ
 الْحَكْمِيَّةُ وَالْحُكْمُ وَإِذْرَاكَ هَذِهِ الْأَرْبَعَةُ تَصْدِيقٌ . وَالْقَضِيَّةُ إِمَّا حَلِيَّةٌ
 وَإِمَّا شَرْطِيَّةٌ . قَالُوا : إِنْ كَانَ الْحَكْمُ عَلَيْهِ وَالْحَكْمُ بِهِ قَضِيَّتَيْنِ
 عِنْدَ التَّحْلِيلِ أَيْ عِنْدَ حَذْفِ مَا يَدُلُّ عَلَى الْعِلَاقَةِ بَيْنَهُمَا مِنَ النِّسْبَةِ

الْحَكْمِيَّةُ سُمِّيَتْ شَرْطِيَّةً وَإِلَّا سُمِّيَتْ حَكْمِيَّةً . فَإِنَّ قَوْلَنَا مَثَلًا : (زَيْدٌ نَائِمٌ) . قَضِيَّةٌ حَكْمِيَّةٌ . لِأَنَّ طَرَفَيْهَا مُفْرَدَانِ عِنْدَ التَّحْلِيلِ وَيُسَمَّى الطَّرْفُ الْأَوَّلُ مِنَ الْقَضِيَّةِ الْحَكْمِيَّةِ وَهُوَ الْمُخْبَرُ عَنْهُ مَوْضُوعًا وَالثَّانِي مُخْمُولًا . وَقَوْلُنَا : (إِنْ كَانَتْ الشَّمْسُ طَالِعَةً فَالنَّهَارُ وَجُودٌ) قَضِيَّةٌ شَرْطِيَّةٌ . لِأَنَّهُ إِذَا حَذَفْنَا (إِنْ وَالْفَاءَ) الْمَوْجِبَتَيْنِ لِرَبْطِ بَقِي : (الشَّمْسُ طَالِعَةً) (وَالنَّهَارُ وَجُودٌ) وَهُمَا قَضِيَّتَانِ . وَالْقَضِيَّةُ الْحَكْمِيَّةُ إِمَّا شَخْصِيَّةٌ وَهِيَ الَّتِي يَكُونُ الْحَكْمُ عَلَيْهِ فِيهَا جُزْئِيًّا مُعَيَّنًا كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ كَاتِبٌ . وَإِمَّا كَلِّيَّةٌ وَهِيَ الَّتِي يَكُونُ الْحَكْمُ عَلَيْهِ فِيهَا كَلِّيًّا يَشْمَلُ جَمِيعَ أَفْرَادِ الْمَوْضُوعِ . وَتَكُونُ كِلَاهُمَا إِمَّا مُوجِبَةً وَإِمَّا سَالِبَةً . وَإِنَّمَا يُنْحَكَمُ فِي الْقَضِيَّةِ الشَّرْطِيَّةِ عَلَى التَّعْلِيلِ وَهُوَ وَجُودُ إِحْدَى قَضِيَّتَيْهَا مُعَلَّقٌ عَلَى وَجُودِ الْأُخْرَى أَوْ عَلَى نَفْيِهَا وَهِيَ قِسْمَانِ مُتَّصِلَةٌ وَهِيَ الَّتِي يُنْحَكَمُ فِيهَا بِأَزْوَاجِ قَضِيَّةٍ أُخْرَى أَوْ لَا لُزُومَهَا وَهِيَ الَّتِي تُوجِبُ التَّلَازُمَ بَيْنَ جُزْئَيْهَا تَحْوِي : لَوْ كَانَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا . وَمَنْفَصِلَةٌ وَهِيَ الَّتِي يُنْحَكَمُ فِيهَا بِإِمْتِنَاعِ اجْتِمَاعِ قَضِيَّتَيْنِ فَكَثُرَ فِي الصِّدْقِ وَهِيَ الَّتِي جُزْأَاهَا مُتَعَانِدَانِ تَحْوِي : الْعَالَمُ إِمَّا قَدِيمٌ أَوْ حَادِثٌ . وَيُسَمَّى الطَّرْفُ الْأَوَّلُ مِنَ الْقَضِيَّةِ الشَّرْطِيَّةِ مُقَدِّمًا وَالثَّانِي تَالِيًا . وَلَا بُدَّ مِنْ رَابِطٍ بَيْنَ الْمَوْضُوعِ وَالْمُخْمُولِ

وَلِلْقَضِيَّةِ أَقْسَامٌ غَيْرُ هَذِهِ مِنْهَا (الْقَضِيَّةُ الْبَسِيطَةُ) وَهِيَ الَّتِي حَقِيقَتُهَا أَوْ مَعْنَاهَا إِمَّا إِيجَابٌ فَقَطْ نَحْوُ : كُلُّ إِنْسَانٍ حَيَوَانٌ بِالضَّرُورَةِ .

وَأَمَّا سَلْبُ فَقَطْ نَحْوُ : لَا شَيْءَ مِنْ الْإِنْسَانِ يَحْجَرُ بِالضَّرُورَةِ . وَمِنْهَا
(الْقَضِيَّةُ الْمُرَكَّبَةُ) وَهِيَ الَّتِي حَقِيقَتُهَا مُلْتَبِئَةٌ مِنْ إِيحَابٍ وَسَلْبٍ
مَعَ نَحْوِ : كُلُّ إِنْسَانٍ ضَاحِكٌ لَا دَائِمًا . وَمِنْهَا (الْقَضِيَّةُ النَّظَرِيَّةُ)
وَهِيَ الَّتِي يُسْأَلُ عَنْهَا وَيُطْلَبُ بِالدَّلِيلِ اثْبَاتُهَا فِي الْعِلْمِ . فَهِيَ مِنْ
حَيْثُ أَنَّهَا يُسْأَلُ عَنْهَا تُسَمَّى مَسْأَلَةً . وَمِنْ حَيْثُ يُطْلَبُ حُصُولُهَا
مَطْلَبًا . وَمِنْ حَيْثُ تُسْتَخْرَجُ مِنَ الْأَرَاهِينِ نَتِيجَةٌ . وَمِنْ حَيْثُ يُبْتَنَى
عَلَيْهَا الشَّيْءُ أَصُولًا . وَمِنْ حَيْثُ أَنَّهَا مُنْطَبِقَةٌ عَلَى جُزْئِيَّاتٍ مَوْضُوعَةٍ
تَتَعَرَّفُ أَحْكَامُهَا مِنْهَا قَاعِدَةٌ . وَمِنْ حَيْثُ يَتَأَلَّفُ مِنْهَا الْحُجَّةُ مُقَدِّمَةٌ
وَقَضِيَّةٌ . وَمِنْ حَيْثُ تَحْتَمِلُ الصِّدْقَ وَالْكَذِبَ خَبَرًا

البحث الثالث

في القياس واقسامه وانواعه

(من كتاب النجاة لابن سينا والكليات لابي الهيثم)

(راجع صفحة ٩٧ من علم الخطابة)

وَأَمَّا الْقِيَاسُ فَهُوَ قَوْلٌ مُؤَلَّفٌ مِنْ قَضَايَا إِذَا وُضِعَتْ لَرِمَ عَنْهَا
بِذَاتِهَا لَا بِالْعَرَضِ قَوْلٌ آخَرُ اضْطِرَّارًا كَقَوْلِنَا : الْعَالَمُ مُتَغَيِّرٌ وَكُلُّ
مُتَغَيِّرٍ حَادِثٌ فَإِنَّهُ مُؤَلَّفٌ مِنْ قَضِيَّتَيْنِ وَلَزِمَ عَنْهُمَا أَنَّ الْعَالَمَ حَادِثٌ
وَهُوَ الْقِيَاسُ الْعَقْلِيُّ وَالْمُنْطَقِيُّ . وَالْقَوْلُ الْآخِرُ يُسَمَّى مَطْلُوبًا قَبْلَ
إِقَامَةِ الدَّلِيلِ عَلَيْهِ . وَنَتِيجَةٌ بَعْدَ تَرْكِيبِ الْقِيَاسِ لَهُ وَإِقَامَةِ الدَّلِيلِ

عَلَيْهِ وَيُسَمَّى بِالرَّذْفِ أَيْضًا. وَمَوْضُوعُ النَّتِيجَةِ هُوَ الْحَدُّ الْأَصْغَرُ
وَالْحَكْمُ فِيهَا هُوَ الْحَدُّ الْأَكْبَرُ. وَمَا كُرِّرَ فِي الْقَضِيَّتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ
يُسَمَّى حَدًّا أَوْسَطَ. وَيَدْعُونَ الْقَضِيَّةَ الْمَشْتَمِلَةَ عَلَى الْحَدِّ الْأَكْبَرِ
مُقَدِّمَةً كُبْرَى وَالْمَشْتَمِلَةَ عَلَى الْحَدِّ الْأَصْغَرِ مُقَدِّمَةً صُغْرَى. وَتَجْمُوعُ
الْمُقَدِّمَةِ الصُّغْرَى بِالْكُبْرَى فِي الْقِيَاسِ يُعْرَفُ بِالصَّرْبِ. وَنِسْبَةُ
الْحَدِّ الْأَوْسَطِ إِلَى الْأَصْغَرِ وَالْأَكْبَرِ هُوَ الشَّكْلُ. وَاشْكَالُ
الْقِيَاسِ أَرْبَعَةٌ لِأَنَّ الْأَوْسَطَ إِنْ كَانَ مَحْمُولًا فِي الصُّغْرَى مَوْضُوعًا
فِي الْكُبْرَى فَهُوَ (الشَّكْلُ الْأَوَّلُ) كَقَوْلِكَ: كُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ
وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ. وَشَرْطُ إِتَّاجِ هَذَا الشَّكْلِ إِيْحَابُ الصُّغْرَى
وَكُلِّيَّةُ الْكُبْرَى وَهُوَ يَخْتَصُّ بِأَنَّهُ يُنْتِجُ الْمَوْجِبَةَ الْكُلِّيَّةَ. وَبَاقِي
الْأَشْكَالِ لَا يُنْتِجُ الْمَوْجِبَةَ الْكُلِّيَّةَ بَلْ إِمَّا مُوجِبَةَ حُرِّيَّةٍ أَوْ
سَالِبَةٍ. وَإِنْ كَانَ الْحَدُّ الْأَوْسَطُ مَحْمُولًا فِي الصُّغْرَى وَالْكُبْرَى فَهُوَ
(الشَّكْلُ الثَّانِي) كَقَوْلِكَ: كُلُّ إِنْسَانٍ حَيَوَانٌ وَلَا شَيْءٌ مِنْ
الْجَمَادِ بِحَيَوَانٍ فَلَا شَيْءٌ مِنَ الْجَمَادِ بِإِنْسَانٍ. وَكَقَوْلِ الْبَعْضِ: كُلُّ
غَائِبٍ مَجْهُولُ الصِّفَةِ وَكُلُّ مَا يَصِحُّ بَيَعُهُ لَيْسَ بِمَجْهُولِ الصِّفَةِ وَالنَّتِيجَةُ
كُلُّ غَائِبٍ لَا يَصِحُّ بَيَعُهُ. وَشَرْطُ إِتَّاجِهِ اخْتِلَافُ مُقَدِّمَتَيْهِ فِي
الْإِيْحَابِ وَالسَّلْبِ وَكُلِّيَّةِ كُبْرَاهُ وَمِنْ خَوَاصِهِ أَنَّهُ لَا يُنْتِجُ إِلَّا
سَالِبَةً. وَإِنْ كَانَ الْأَوْسَطُ مَوْضُوعًا فِي الصُّغْرَى وَالْكُبْرَى فَهُوَ
(الشَّكْلُ الثَّلَاثُ) نَحْوُ كُلِّ إِنْسَانٍ حَيَوَانٌ وَكُلُّ إِنْسَانٍ نَاطِقٌ
فَبَعْضُ الْحَيَوَانِ نَاطِقٌ. وَشَرْطُ إِتَّاجِهِ أَنْ تَكُونَ صُغْرَاهُ مُوجِبَةً

وَأَنْ تَكُونَ إِحْدَى مُقَدِّمَتَيْهِ كُفَيَّةٌ وَمِنْ خَوَاضِعِهِ أَنْ تُنْتِجَتَهُ لَا
تَكُونَ إِلَّا جُزْئِيَّةً. وَإِنْ كَانَ الْحَدُّ الْأَوْسَطُ عَكْسَ الْأَوَّلِ بَانَ
يَكُونُ مَوْضُوعًا فِي الصَّغَرَى نَحْوَلَا فِي الْكُبْرَى فَهُوَ (الشَّكْلُ
الرَّابِعُ) كَقَوْلِكَ: كُلُّ إِنْسَانٍ حَيَوَانٌ وَكُلُّ نَاطِقٍ إِنْسَانٌ فَبَعْضُ
الْحَيَوَانِ نَاطِقٌ

وَالْقِيَاسُ يُقَدِّمُ إِلَى كَامِلٍ وَغَيْرِ كَامِلٍ وَالْقِيَاسُ الْكَامِلُ هُوَ
الْقِيَاسُ الَّذِي يَكُونُ لَزُومٌ مَا يَلْزَمُ عَنْهُ بَيِّنًا عِنْدَ وَضْعِهِ فَلَا يَحْتَاجُ
أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّ ذَلِكَ لَازِمٌ عَنْهُ. وَالْغَيْرُ الْكَامِلُ هُوَ الَّذِي يَلْزَمُ عَنْهُ
شَيْءٌ وَلَكِنْ لَا يَكُونُ بَيِّنًا فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ أَنَّ ذَلِكَ يَلْزَمُ عَنْهُ.
بَلْ إِذَا أُريدَ أَنَّ نُبَيِّنَ ذَلِكَ بَيِّنَ شَيْءٍ آخَرَ لِكِنَّهُ غَيْرُ خَارِجٍ مِنْ
جُمْلَةِ مَا قِيلَ بَلْ إِمَّا نَقِيضُ مَا قِيلَ أَوْ عَكْسُهُ تَغْيِيرُ شَيْءٍ مِنْهُ
وَأَفْتِرَاضُهُ. وَالْقِيَاسُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مَا يَلْزَمُ مِنْهُ لَيْسَ هُوَ وَلَا نَقِيضُهُ
مَقُولًا فِيهِ بِالْفِعْلِ بِوَجْهِ بَلْ بِالْقُوَّةِ وَيُسَمَّى قِيَاسًا اقْتِرَائِيًّا كَقَوْلِكَ:
كُلُّ جِسْمٍ مُؤَافٍ وَكُلُّ مُؤَافٍ مُخَدَّثٌ سَيِّئٌ بِهِ لِاقْتِرَائِهِ الْخُدُودِ فِيهِ.
وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مَا يَلْزَمُ مِنْهُ هُوَ أَوْ نَقِيضُهُ مَقُولًا فِيهِ بِالْفِعْلِ وَيُسَمَّى
قِيَاسًا اسْتِثْنَائِيًّا كَقَوْلِكَ: إِنْ كَانَتِ النَّفْسُ لَهَا فِعْلٌ بِذَاتِهَا فَهِيَ
قَائِمَةٌ بِذَاتِهَا لَكِنْ لَهَا فِعْلٌ بِذَاتِهَا فَهِيَ قَائِمَةٌ بِذَاتِهَا



المبحث الثالث

في ملحقات القياس

(من كتاب شرح المطالع وشرح الشسبية والكلبات لابي القفا)

(راجع صفحة ١١١ من علم الخطابة)

وَلَا قِسَامَ الْقِيَاسِ مُلْحَقَاتٌ أُخْرَى يُقْسَمُ إِلَيْهَا . (أَوَّلُهَا) الْقِيَاسُ
الْمُرَكَّبُ وَهُوَ قِيَاسُ رَكْبٍ مِنْ مَقْدَمَاتٍ يَتَّبِعُ مَقْدَمَتَانِ مِنْهَا نَتِيجَةٌ
وَهِيَ مَعَ الْمَقْدَمَةِ الْأُخْرَى نَتِيجَةٌ أُخْرَى وَلَا تَرَالُ نَتَائِجُ بَعْضُهَا
مَقْدَمَاتُ لِبَعْضٍ إِلَى أَنْ يَحْصَلَ الْمَطْلُوبُ . فَإِنْ صُرِّحَ بِنَتَائِجِ تِلْكَ
الْأَقْسِمَةِ سَمِيَ مَفْضُولَ النَتَائِجِ لَوْ ضَلَّ تِلْكَ النَتَائِجُ بِالْمَقْدَمَاتِ
كَقَوْلِكَ : كُلُّ كَاتِبٍ إِنْسَانٌ وَكُلُّ إِنْسَانٍ حَيَوَانٌ فَكُلُّ كَاتِبٍ
حَيَوَانٌ . وَكُلُّ حَيَوَانٍ ذُو حِسٍّ فَكُلُّ كَاتِبٍ ذُو حِسٍّ . وَكُلُّ ذُو
حِسٍّ جِسْمٌ فَكُلُّ كَاتِبٍ جِسْمٌ . وَإِنْ لَمْ يُصْرِّحْ بِنَتَائِجِ تِلْكَ
الْأَقْسِمَةِ سَمِيَ مَفْضُولَ النَتَائِجِ وَمَطْوِيَّهَا كَقَوْلِكَ : كُلُّ كَاتِبٍ إِنْسَانٌ .
وَكُلُّ إِنْسَانٍ حَيَوَانٌ . وَكُلُّ حَيَوَانٍ ذُو حِسٍّ . وَكُلُّ ذِي حِسٍّ نَامٌ .
وَكُلُّ نَامٍ جِسْمٌ فَكُلُّ كَاتِبٍ جِسْمٌ . (وَالثَّانِي) قِيَاسُ الْخَلْفِ . وَهُوَ
قِيَاسُ اسْتِثْنَائِيٍّ يُقْصَدُ فِيهِ إِثْبَاتُ الْمَطْلُوبِ بِإِبْطَالِ نَقِيضِهِ كَمَا إِذَا
قِيلَ كُلُّ نَبَاتٍ نَامٌ وَلَا شَيْءٌ مِنَ الْجَمَادِ يَنَامُ . فَلَا شَيْءٌ مِنَ النَّبَاتِ
بِجَمَادٍ . فَيُقَالُ لَوْ لَمْ يَكُنِ الْمَطْلُوبُ حَقًّا آيَ لَا شَيْءٍ مِنَ النَّبَاتِ
بِجَمَادٍ لَصَدَقَ نَقِيضُهُ آيَ بَعْضُ النَّبَاتِ جَمَادٌ . لَكِنْ لَوْ كَانَ هَذَا

الْتَقِيضُ حَقًّا لَمَّا صَدَقَ كَوْنُ كُلِّ نَبَاتٍ نَامِيًّا . وَقَدْ سَمِيَ هَذَا الْقِيَاسُ
خَلْفًا لِأَنَّ الْتَمَسِيكَ بِهِ يُثَبِّتُ مَطْلُوبَهُ مِنْ خَلْفِهِ أَيَّ مِنْ وَرَائِهِ .
(وَالثَّلَاثُ) قِيَاسُ الِاسْتِقْرَاءِ وَهُوَ قَوْلُ : «وَلَفَّ مِنْ قَضَايَا التَّشْمِيلِ
عَلَى الْحُكْمِ عَلَى الْجُزْئِيَّاتِ لِإِثْبَاتِ الْحُكْمِ الْكُلِّيِّ» . وَيُحَدِّثُ أَيْضًا
الْحُكْمُ عَلَى كُلِّيٍّ لَوْجُودِهِ فِي أَكْثَرِ جُزْئِيَّاتِهِ وَقِيلَ أَيْضًا : هُوَ أَصَحُّ
الْجُزْئِيَّاتِ لِإِثْبَاتِ حُكْمِ كُلِّيٍّ ثُمَّ الِاسْتِقْرَاءُ قِسْمَانِ (تَامٌّ) وَيُسَمَّى
قِيَاسًا مُفْتَمًا وَهُوَ أَنْ يُسْتَدَلَّ بِجَمِيعِ الْجُزْئِيَّاتِ وَيُحْكَمَ عَلَى الْكُلِّ
وَهُوَ قَلِيلٌ الِاسْتِعْمَالِ كَمَا يُقَالُ : كُلُّ جِسْمٍ إِمَّا حَيَوَانٌ أَوْ نَبَاتٌ
أَوْ جَمَادٍ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا مُتَخَيِّزٌ فَيُتَلَبَّحُ أَنَّ كُلَّ جِسْمٍ مُتَخَيِّزٌ وَهُوَ
يُفِيدُ الْيَقِينَ . (وَنَاقِصٌ) وَهُوَ أَنْ يُسْتَدَلَّ بِأَكْثَرِ الْجُزْئِيَّاتِ فَقَطْ
وَيُحْكَمَ عَلَى الْكُلِّ وَهُوَ قِسْمُ الْقِيَاسِ وَلِذَا عُدَّ مِنْ لَوَاحِقِ
الْقِيَاسِ وَتَوَابِعِهِ وَهُوَ يُفِيدُ الظَّنَّ كَقَوْلِنَا : كُلُّ حَيَوَانٍ يَتَحَرَّكُ فَكُنْهُ
الْأَسْفَلُ عِنْدَ الْمَضْغِ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ وَالْفَرَسَ وَالْجَمَارَ وَالْبَقَرَ وَغَيْرَ
ذَلِكَ مِمَّا تَتَّبَعْنَاهُ كَذَلِكَ . فَإِنَّهُ يُفِيدُ الظَّنَّ بِجَوَازِ التَّخْلُفِ كَمَا فِي
الْتِمْسَاحِ . (وَالرَّابِعُ) قِيَاسُ التَّشْمِيلِ وَهُوَ إِثْبَاتُ حُكْمٍ فِي جُزْئِيٍّ
لِثْبُوتِهِ فِي جُزْئِيٍّ آخَرَ لِمَعْنَى مُشْتَرَكٍ بَيْنَهُمَا مُؤَثِّرٍ فِي ذَلِكَ الْحُكْمِ
كَقَوْلِكَ : الْعَالَمُ مُؤَلَّفٌ فَهُوَ مُحْدَثٌ كَالْمَدِيَّةِ لِأَنَّ كُلَّيْهَا مُرَكَّبٌ
مِنْ أَجْزَاءٍ وَهُوَ يُقَسَّمُ إِلَى تَشْمِيلٍ قَطْعِيٍّ يُفِيدُ الْيَقِينَ وَإِلَى غَيْرِ
قَطْعِيٍّ يُفِيدُ الظَّنَّ

أَمَّا أَنْوَاعُ الْقِيَاسِ فَخَمْسَةٌ . (أَحَدُهَا) الْقِيَاسُ الْبُرْهَانِيُّ وَهُوَ

مَا رُكِبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ يَقِينَةٍ كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ إِنْسَانٌ فَهُوَ قَابِلُ
 الْعِلْمِ . (وَالثَّانِي) الْجَدْلِيُّ وَهُوَ مَا رُكِبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ مَشْهُورَةٍ
 يَسْلَمُ بِهَا أَحْضَمٌ وَلَا يَقْوَى عَلَى انْكَارِهَا لِشَهَرَتِهَا بَيْنَ الْجُمْهُورِ
 نَحْوُ : الْعَالَمُ مُتَغَيِّرٌ فَهُوَ مُحْدَثٌ . (وَالثَّالِثُ) الْخَطَائِيُّ وَهُوَ مَا
 رُكِبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ مَقْبُولَةٍ يُرَادُ بِهَا تَرْعِيبُ السَّامِعِ أَوْ تَرْهِيْبُهُ نَحْوُ :
 لِحَالَةٍ يُرْفَعُ فِيهَا مُنْجَاةٌ لِلْإِنْسَابِ . وَإِهْمَالُهَا مَعْصِيَةٌ فَهُوَ مُمْلِكٌ .
 (وَالرَّابِعُ) الشِّعْرِيُّ وَهُوَ مَا رُكِبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ مُخَيَّلَةٍ تُؤَثِّرُ
 فِي أَنْفُسٍ بَسِطًا أَوْ قَصَا حَادِقَةً كَانَتْ أَوْ كَاذِبَةً نَحْوُ : الْخَمْرُ
 قَرْمِيَّةٌ سَاطِعَةٌ فَهِيَ تَهْجُ الْظَرَّ أَوْ هِيَ مُرَّةٌ مُهَوَّعةٌ فَهِيَ تُزْجِعُ
 أَنْفُسَ . (وَالخَامِسُ) الْمُغَالَطِيُّ وَهُوَ مَا رُكِبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ كَاذِبَةٍ
 سَدِيقَةٍ بِالْحَادِقَةِ كَقَوْلِكَ عَنْ بُرْجِ الْأَسَدِ : هَذَا أَسَدٌ فَهُوَ يُرَارُ .
 وَالْعَمْدَةُ فِي الْخُطَابَةِ عَلَى الرَّهَانِ الْخَطَائِيِّ ذِي الْمَقَدَّمَاتِ الْمَقْبُولَةِ

البحث الرابع

في القياسات المستعملة في الخطابة واخصها القياس الاضماري
 والتمثيل

(من تلخيص خطابة ارسطو لاس رشدي)

(راجع الصفحة ١٠٨ من الجزء الثاني من علم الادب)

نَقُولُ إِنَّ الْأَقَارِيلَ الَّتِي يَكُونُ بِهَا الْإِثْبَاتُ وَالْإِبْطَالُ كَمَا
 إِنَّهَا فِي صِنَاعَةِ الْجَدْلِ صِنْفَانِ أَحَدُهُمَا الْإِسْتِقْرَاءُ وَمَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ

أَسْتَقْرَاءُ وَالصَّنْفُ الثَّانِي الْقِيَاسُ وَمَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ قِيَاسٌ كَذَلِكَ
الْأَقَاوِيلُ الْمُشْتَبَهَةُ فِي الصَّنَاعَةِ وَالْمُبْطَلَةُ صِنْفَانِ أَحَدُهُمَا شَبِيهٌ بِالْأَسْتِقْرَاءِ
وَهُوَ الْمِثَالُ وَالْآخَرُ شَبِيهٌ بِالْقِيَاسِ وَهُوَ الضَّمِيرُ وَالضَّمِيرُ الَّذِي
يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ ضَمِيرٌ وَلَيْسَ بِضَمِيرٍ يُشَبِّهُهُ الَّذِي يُظَنُّ بِهِ هُنَالِكَ أَنَّهُ
قِيَاسٌ وَلَيْسَ بِقِيَاسٍ . وَكَذَلِكَ الْمِثَالُ الَّذِي يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ مِثَالٌ
وَلَيْسَ بِمِثَالٍ يُشَبِّهُهُ الْأَسْتِقْرَاءُ الَّذِي يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ أَسْتِقْرَاءٌ وَلَيْسَ
بَأَسْتِقْرَاءٍ . فَالضَّمِيرُ هُوَ الْقِيَاسُ الْخَطِيئُ وَالْمِثَالُ هُوَ الْأَسْتِقْرَاءُ الْخَطِيئُ .
وَالْخُطْبَاءُ إِذَا تَوَقَّلَ أَمْرُهُمْ ظَهَرَ أَنََّّهُمْ يَفْعَلُونَ جَمِيعَ التَّضَدِيقَاتِ
أَتَى تَكُونُ بِالْقَوْلِ بِهَذَيْنِ الصَّنَفَيْنِ أَعْنَى إِمَّا بِالْمِثَالِ وَإِمَّا بِالضَّمِيرِ .
وَذَلِكَ أَنََّّهُمْ يَوْمُونَ بِفِعْلِهِمْ هَذَا أَنْ يَتَشَبَّهُوا بِالْأَسْتِقْرَاءِ وَالْقِيَاسِ .
وَالَّذِي يَفْعَلُونَ مِنْ ذَلِكَ إِنَّْمَا يَفْعَلُونَهُ بِمَا هُوَ مِثَالٌ فِي الْحَقِيقَةِ أَوْ
بِمَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ كَذَلِكَ وَتَبَيَّنَ فِي كِتَابِ الْقِيَاسِ أَنَّ كُلَّ تَضَدِيقٍ
فَإِنَّهُ يَكُونُ بِالْقِيَاسِ وَأَنَّ الْأَسْتِقْرَاءَ وَالْمِثَالَ إِنَّْمَا يُفِيدَانِ
التَّضَدِيقَ بِمَا فِيهِمَا مِنْ قُوَّةِ الْقِيَاسِ . فَأَمَّا مَا هُوَ الْقِيَاسُ وَمَا الْفَضْلُ
بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَرَهَانِ فَقَدْ قِيلَ فِي كِتَابِ الْجَدَلِ وَقَدْ تَبَيَّنَ هُنَالِكَ
أَيْضًا الْفَرْقُ بَيْنَ الْقِيَاسِ وَالْأَسْتِقْرَاءِ . وَالْأَسْتِقْرَاءُ وَالْمِثَالُ يَشْتَرِكَانِ
فِي أَنَّ كِلَيْهِمَا يُشْتَبَانِ أَنَّ هَذَا الشَّيْءَ موجودٌ كَذَا أَوْ غَيْرُ موجودٍ كَذَا
مِنْ أَجْلِ وجودِ ذَلِكَ الشَّيْءِ أَوْ لَا وجودِهِ فِي شَبِيهِهِ . وَالضَّمِيرُ
وَالْقِيَاسُ يَشْتَرِكَانِ فِي أَنَّ كِلَيْهِمَا قَوْلٌ يُوضَعُ فِيهِ شَيْءٌ فَيُلْزَمُ عَنْهُ
شَيْءٌ آخَرُ . وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ هَكَذَا فَهُوَ بَيِّنٌ أَنَّ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ

هَذَيْنِ الْجَنَسَيْنِ مِنَ الْقَوْلِ نَوْعًا خُطْبِيًّا وَنَوْعًا جَدَلِيًّا وَنَوْعًا بُرْهَانِيًّا
وَنَوْعًا سُوفِطَانِيًّا. فَإِنَّهُ كَمَا يُوجَدُ الْأَسْتِقْرَاءُ وَالْقِيَاسُ فِي هَذِهِ
الصَّنَائِعِ كَذَلِكَ يُوجَدُ فِي الْخُطَابَةِ الْمِثَالُ وَالضَّمِيرُ وَإِنَّمَا يُخْتَلَفُ فِي
هَذِهِ الصَّنَائِعِ بِجِهَةِ الْأَسْتِعْمَالِ أَنِّي فِي صِنَاعَةِ الْبُرْهَانِ وَصِنَاعَةِ
الْجَدَلِ . وَالْقِيَاسُ فِي الْحَدَلِ أَوْثَقُ مِنَ الْأَسْتِقْرَاءِ وَالْمِثَالِ فِي
الْخُطَابَةِ أَقْعُ مِنَ الضَّمِيرِ لِأَنَّ الضَّمِيرَ يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ الْعِبَادُ أَكْثَرَ
مَنْ تَطَرَّقَ إِلَى الْمِثَالِ وَسَبَبُ هَذَا سَخُورُ بِهِ فِيمَا بَعْدُ وَكَذَلِكَ كَيْفَ
تَسْتَعْمِلُ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ . فَأَمَّا الْآنَ فَيَنْبَغِي أَنْ نَحْدِدَ هَذَيْنِ الطَّرِيقَيْنِ
مِنَ الْإِقْتِنَاعِ أَنِّي الضَّمِيرَ وَالْمِثَالِ فَقُولُ :

إِنَّ الْقَوْلَ الْمَقْبُوعَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مُقْتَضًى لِوَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ أَوْ
لِجَمَاعَةٍ مِنَ النَّاسِ أَوْ لِأَكْثَرِ النَّاسِ . وَأَيْضًا مِنْهُ مَا يَكُونُ إِقْنَاعُهُ
فِي أَمْرِ كُنْهِ وَمِنْهُ مَا يَكُونُ فِي أَمْرِ جُرْئِي . وَكِلَا هَذَيْنِ مِنْهُ مَا
يَكُونُ إِقْنَاعُهُ بَيْنًا بِنَفْسِهِ وَمِنْهُ مَا يَكُونُ إِقْنَاعُهُ بِغَيْرِهِ . وَالَّذِي
يَكُونُ إِقْنَاعُهُ بِغَيْرِهِ فِي الْجُزْئِيَّاتِ دَرَبَانِ (أَحَدُهُمَا) أَنْ يَقُولَ
الْقَائِلُ : إِنْ كَذَا إِنَّمَا هُوَ كَذَا لِمَوْضِعٍ كَذَا . وَمِثْلُ قَوْلِ الْقَائِلِ :
إِنَّ شَرَابَ السَّكَّجِيِّينَ يَنْتَفِعُ فَلَنَا لِأَنَّهُ مُحْدُومٌ . وَهَذَا هُوَ الَّذِي
يُسَمَّى الضَّمِيرَ . (وَالضَّرْبُ الثَّانِي) أَنْ يَقُولَ : إِنْ كَذَا إِنَّمَا كَانَ
كَذَا لِأَنَّهُ مِثْلُ كَذَا . مِثْلُ أَنْ يَقُولَ : إِنْ فَلَانَا يَنْتَفِعُ بِشَرَابِ
السَّكَّجِيِّينَ لِأَنَّهُ فَلَانَا أَنْتَفَعَ بِهِ . وَهَذَا هُوَ الَّذِي يُسَمَّى الْمِثَالِ .
وَالْمَقْنَعَاتُ الَّتِي هِيَ مُقْنَعَةٌ عِنْدَ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ فَلَيْسَ تَسْتَعْمِلُهَا

هَذِهِ الصَّنَاعَةُ لِأَنَّ ذَلِكَ غَيْرُ مُتَّاهٍ وَغَيْرُ مَعْلُومٍ عِنْدَ الْمُتَعَمِّلِ
لَهَا وَإِذَلِكَ لَيْسَتْ تَسْتَعْمِلُ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ مِنَ الْمَقَدَّمَاتِ الْحَمُودَةِ
أَعْنِي الْمَقُولَةَ مَا كَانَ مَقْبُولًا عِنْدَ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ . وَتِلْكَ هِيَ
الْأَرَاءُ الْخَادِثَةُ لِلنَّاسِ عِنْدَ الشُّوقِ وَالْهَوَى بَلْ إِنَّمَا تَسْتَعْمِلُ
الْحَمُودَ عِنْدَ الْأَكْثَرِ أَوِ الْجَمِيعِ عَلَى مِثْلِ مَا تَسْتَعْمِلُهُ صِنَاعَةُ
الْجَدَلِ . وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ هَكَذَا فَالَّذِي يَفْتَرِقُ بِهِ الْقِيَاسُ
الْمُسْتَعْمَلُ فِي صِنَاعَةِ الْجَدَلِ وَفِي صِنَاعَةِ الْبُرْهَانِ مِنَ الضَّمِيرِ الْمُسْتَعْمَلِ
فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ أَنَّ الْقِيَاسَ يُرْتَّبُ التَّرْتِيبَ الَّذِي يَكُونُ بِهِ الْقَوْلُ
مُنْتِجًا بِالضَّرُورَةِ . وَأَمَّا الْخَبِيرُ فَإِنَّهُ تَرْتَّبُ مَقَدَّمَاتُهُ التَّرْتِيبَ الَّذِي
هُوَ مُعْتَادٌ عِنْدَ الْجُمْهُورِ أَنْ يَقْبَلَ . وَذَلِكَ هُوَ بِخِلَافِ التَّرْتِيبِ
الضَّمَائِيِّ فَإِنَّ النَّاسَ يَسْتَرَيُّونَ بِالْقَوْلِ الْأَرِيضِ عَنِ الْقَوْلِ الْجَمَاعِيِّ
وَيَرَوْنَ أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا لَزِمَ مِنْ جِهَةِ الصَّنَاعَةِ لَا مِنْ جِهَةِ الْأَمْرِ فِي
نَفْسِهِ . وَأَيْضًا فَإِنَّ التَّرْتِيبَ الْخَدْعِيَّ يَقْتَضِي أَنْ يُصْرَحَ فِيهِ بِجَمِيعِ
الْمَقَدَّمَاتِ الضَّرُورِيَّةِ فِي بَيَانِ ذَلِكَ الْمَطْلُوبِ وَالْجُمْهُورُ لَا
يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَفْهَمُوا لَزُومَ النَتِيجَةِ الَّتِي تَلْزَمُ عَنْ مُقَدَّمَاتٍ كَثِيرَةٍ .
وَأَيْضًا فَلَهُمْ لَا يُبَاعِدُونَ بَيْنَ النَتِيجَةِ وَالشَّيْءِ الَّذِي تَلْزَمُ عَنْهُ النَتِيجَةُ
أَعْنِي أَنَّهُمْ لَا يُصْرَحُونَ فِي الْمَقَايِيسِ بِالْمَقَدَّمَتَيْنِ جَمِيعًا مِمَّا النَتِيجَةُ
بَلْ إِنَّمَا يَأْتُونَ بِمُقَدِّمَةٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ يُرَدُّونَهَا بِالنَتِيجَةِ . مِثْلُ أَنَّهُمْ
يَقُولُونَ : هَذَا يَدُورُ بِاللَّيْلِ فَهُوَ لَصٌّ . وَلَا يَقُولُونَ : كُلُّ مَنْ يَدُورُ
بِاللَّيْلِ فَهُوَ لَصٌّ وَهِيَ الْمَقَدَّمَةُ الْكُبْرَى . وَأَيْضًا فَإِنَّ الضَّمَائِرَ لَمَّا

كَانَتْ تُصْنَعُ فِي الْأَكْثَرِ فِي الْأُمُورِ الْمُمْكِنَةِ وَذَلِكَ بَيْنَ فِي
 الْأُمُورِ الْمَشَاوِرَةِ فَلِأَنَّهُ لَيْسَ يُشِيرُ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ بِأَمْرٍ ضَرُورِيٍّ
 الْوُجُودِ وَلَا مُتَّبِعِ الْوُجُودِ وَكَانَتْ الْمَقْدَمَةُ الْكُبْرَى فِي أَمْثَالِ
 هَذِهِ الْمَوَادِّ كَاذِبَةٌ بِأَجْزَاءِهَا يُصْرَحُوا بِهَا فِي الْمَقَابِيِسِ الَّتِي
 يَسْتَعْمِلُونَهَا فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ لِئَلَّا يُظُنَّ بِكَذِبِهَا . وَأَيْضًا فَلَمَّا كَانَتْ
 الْمَقَابِيِسُ الْخَيِّدَةُ الصَّنْعَةُ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ إِنَّمَا هِيَ أَحَدُ صِنْفَيْنِ إِمَّا
 الْمَقَابِيِسُ الَّتِي تُؤَلَّفُ مِنَ الْمَقْدَمَاتِ الثَّابِتَةِ إِفْنَاعُهَا بِنَفْسِهِ وَإِمَّا مِنْ
 مُقَدَّمَاتٍ تَتَّبِعُ مُقَدَّمَاتِهَا بِمَقْدَمَاتٍ أُخَرَ تَخْطُ بِهَا وَإِلَّا لَمْ يَتَّبِعَنَّ
 حُجْمُهَا . فَقَدْ يُلْحَقُ صَرُورَةٌ فِي هَذَا الصَّنْفِ الْمَائِي أَنْ يَغْسَرَ تَأْلِيْفُ
 الْمَقْدَمَاتِ وَتَرْتِيبُهَا التَّرْتِيبَ الصَّاعِي لِمَكَانِ كَثْرَةِ الْمَقْدَمَاتِ وَطُولِ
 الزَّمَانِ الَّذِي يُصْرَحُ فِيهِ بِجَمِيعِهَا وَتُرْتَّبُ تَرْتِيبًا صَّاعِيًا وَذَلِكَ لِشَيْءٍ
 لَا يُسَاعِدُ عَلَيْهِ الْحُكْمُ بَلْ يُجْعَلُونَ لِكَلِمَةٍ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ أَنْ يَكُونَ
 كَلَامُهُمْ بَسِيطًا غَيْرَ مُتَكَلِّفٍ فِيهِ صَعْدَةٌ عَلَى الْجَهْدِ فِي ذَلِكَ فَإِنَّهُ
 مَتَى كَانَ الْكَلَامُ لَيْسَ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ كَانَ غَيْرَ مُقْنِعٍ . وَذَلِكَ
 فِي الْأَمْرَيْنِ اللَّذَيْنِ يَكُونُ فِيهِمَا الْإِقْبَاعُ أَغْنِي فِي أَنَّ الشَّيْءَ مَوْجُودٌ
 أَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ وَفِي أَنَّهُ إِذَا وَجَدَ مَحْمُودٌ أَوْ غَيْرُ مَحْمُودٍ . وَكَذَلِكَ
 إِذَا اسْتَعْمَلَ التَّضَدِّيقَ بِطَرِيقِ اخْتِزَافِ الْأَشْيَاءِ وَاسْتَقْصَى وَجِعَ عَلَى
 طَرِيقِ الْأَسْتِقْرَاءِ عَرَضَ الْعُسْرِ الَّذِي وَصَفَاهُ مِنْ الطُّولِ وَالْكَثْرَةِ .
 وَإِذَا كَانَ هَذَا هَكَذَا فَإِذَا كَانَ الْقِيَاسُ الْخَطِيئُ وَهُوَ الضَّيِّقُ وَالْإِثْمَالُ إِنَّمَا
 يَكُونَانِ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا الْقِيَاسُ وَالْإِسْتِقْرَاءُ بِإِطْلَاقٍ وَتِلْكَ

الْأَشْيَاءَ مَاخُوذَةً بِحَالٍ غَيْرِ الْحَالِ الَّتِي أُخِذَتْ بِهَا فِي الْقِيَاسِ
وَالِاسْتِقْرَاءِ . فَإِذَا اسْتَعْمِلْتَ تِلْكَ الْأَشْيَاءَ بِالْحَالِ الَّتِي بُرِّينَ فِي
كِتَابِ الْقِيَاسِ عَادَ الْإِمْتِنَانُ اسْتِقْرَاءً وَالضَّمِيرُ قِيَاسًا . وَإِذَا أُخِذَتْ
بِهَذِهِ الْحَالِ الَّتِي ذَكَرْنَا عَادَ الْإِسْتِقْرَاءُ مِثَالًا وَالْقِيَاسُ ضَمِيرًا .
وَتِلْكَ الْحَالُ هِيَ اخْذُ الْقِيَاسِ وَالِإِعْتِبَارُ بِمُقَدَّمَاتٍ قَلِيلَةٍ وَجِدَةٍ
فَإِنَّ الْإِقْتِنَاعَ إِنَّمَا يَكُونُ أَكْثَرَ ذَلِكَ بِالْمُقَدَّمَاتِ الَّتِي هِيَ فِي
غَايَةِ الظُّهُورِ وَحَذْفِ مَا خَفِيَ مِنْهَا وَإِذَا كَانَ الْحُجُودُ فِي
هَذِهِ الصَّاعَةِ أَنْ يُحْذَفَ اللَّازِمُ عَنْهُ وَيُوثَقَ بِالشَّيْءِ الَّذِي يَلْزَمُ
إِذَا أُخْبِرَ بِاللَّازِمِ وَالْمَلْزُومِ فَكَأَنَّهُ قَدْ ذَكَرَ الشَّيْءَ مَرَّتَيْنِ فَيَكُونُ
هَذَا فِي بَادِي الرَّأْيِ . وَعَلَى هَذَا فَلَا يَصْرَحُ بِالْخُذِ الْاَوْسَطِ فِي
الْقِيَاسِ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً وَلَا فِي الْإِعْتِبَارِ إِلَّا بِشَيْءٍ وَاحِدٍ فَيَكُونُ
الْقِيَاسُ ضَرْوَرَةً ضَمِيرًا أَوْ مُحْذُوفًا إِحْدَى مُقَدَّمَتَيْهِ وَهَذَا سُمِّيَ ضَمِيرًا
إِذَا كَانَتْ إِحْدَاهُمَا مُضَرَّةً وَيَكُونُ الْإِسْتِقْرَاءُ ضَرْوَرَةً تَمِيلًا

البحث الخامس

في مقدمات القياسات الخطبية

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) وَمُقَدَّمَاتُ الْقِيَاسَاتِ الْخَطْبِيَّةِ قَدْ تَكُونُ ضَرْوَرِيَّةً وَذَلِكَ
فِي الْأَقْلِ وَتَكُونُ مُمَكِّنَةً وَذَلِكَ فِي الْاَكْثَرِ لِأَنَّ أَكْثَرَ النَّحْصِ
الْجُهْورِيَّ إِنَّمَا هُوَ فِيمَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ بِحَالٍ وَيُمْكِنُ إِلَّا يَكُونَ

بِتِلْكَ الْحَالِ. وَذَلِكَ بَيْنَ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُشَارُ بِهَا وَذَلِكَ أَنَّهَا كُلُّهَا
أُمُورٌ مَفْعُولَةٌ لِلْإِنْسَانِ لَا ضَرُورِيَّةَ الْوُجُودِ وَلَا مُتَّبِعَةَ الْوُجُودِ .
وَالنَّاتِجُ الضَّرُورِيَّةُ فَإِنَّهَا تَكُونُ بِالذَّاتِ عَنْ مُقَدَّمَاتِ ضَرُورِيَّةٍ
وَالْمُمْكِنَةُ عَنْ مُقَدَّمَاتِ مُمَكِّنَةٍ. وَالضَّمَامُ مِنْهَا مَا يَكُونُ عَنْ مُقَدَّمَاتِ
مَحْمُودَةٍ وَمِنْهَا مَا يَكُونُ مِنَ الدَّلَائِلِ. وَأَعْنِي بِالْمُقَدَّمَاتِ الْمَحْمُودَةِ
الَّتِي لَيْسَتْ دَلَالًا. مِثْلُ أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُشْكَرَ الْمُنْعِمُ وَأَنْ يُسَاءَ
إِلَى الْمُسِيءِ. وَأَعْنِي بِالذَّلَائِلِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى وُجُودِ شَيْءٍ
أَوْ هَذَا الصَّنْفَانِ مِنَ الْمُقَدَّمَاتِ يُوجَدَانِ فِي الْمَوَادِّ الضَّرُورِيَّةِ
وَالْمُمْكِنَةِ أَعْنِي الْمَحْمُودَاتِ وَالذَّلَائِلِ. وَأَيْسَ يُوجَدَانِ فِي الْمُمْكِنَةِ
عَلَى الْأَكْثَرِ فَقَطْ كُلٌّ وَفِي الْمُمْكِنَةِ عَلَى التَّسَاوِي. وَهِيَ الَّتِي
نَسَبَتْهَا إِلَى الْمُقَدَّمَاتِ الْمُمْكِنَةِ عَلَى الْأَكْثَرِ نِسْبَةً الَّتِي عَلَى الْأَكْثَرِ
إِلَى الضَّرُورِيِّ وَهِيَ نِسْبَةُ الْكُلِّ مِنَ الْقَبْضِ وَذَلِكَ أَنَّ الْخِدْقَ
فِي الضَّرُورِيَّةِ أَعْمُ مِنَ الْخِدْقِ فِي الْمُمْكِنَةِ عَلَى الْأَكْثَرِ إِذَا
كَانَتِ الضَّرُورِيَّةُ تُوجَدُ بِكُلِّ الْمَوْضُوعِ وَالْمُمْكِنَةُ عَلَى الْأَكْثَرِ لَا
تُوجَدُ لِكُلِّهِ. وَكَذَلِكَ نِسْبَةُ الْمُمْكِنَةِ عَلَى التَّسَاوِي إِلَى الْمُمْكِنَةِ
عَلَى الْأَكْثَرِ هِيَ هَذِهِ النِّسْبَةُ أَعْنِي أَنَّ الْمُمْكِنَةَ عَلَى الْأَكْثَرِ
تَصْدُقُ مِنْ مَوْضُوعَاتِهَا عَلَى أَكْثَرٍ رِمًا تَصْدُقُ الْمُمْكِنَةُ عَلَى
التَّسَاوِي. وَالذَّلَائِلُ الْمَأْخُودَةُ حَدًّا أَوْسَطَ مِنْهَا مَا هُوَ أَعْمُ مِنَ
الْطَّرَفِ الْأَضْفَرِ وَأَخْصُ مِنَ الْأَكْثَرِ وَمِنْهَا مَا هُوَ أَعْمُ مِنَ
الْطَّرَفَيْنِ. وَمِنْهَا مَا هُوَ أَخْصُ مِنْهُمَا. أَمَّا الَّذِي هُوَ أَعْمُ مِنَ الطَّرَفِ

الْأَصْغَرُ وَأَخْصُّ مِنَ الْأَكْبَرِ فَإِنَّهُ يَأْتِلِفُ ضَرُورَةً فِي الشَّكْلِ
 الْأَوَّلِ. وَإِذَا كَانَ فِي الْمَادَّةِ الْمُمَكِّنَةِ عَلَى الْأَكْثَرِ فَهُوَ الَّذِي
 يَعْرِفُهُ الْقَدَمَاءُ بِالْأَشْبِهِ. وَمِثَالُهُ فِي الْمَادَّةِ الضَّرُورِيَّةِ: هَذِهِ أَنْثَى الْحَيَوَانِ
 لَهَا لَبَنٌ فَهِيَ قَدْ وَلَدَتْ. وَفِي الْمُمَكِّنَةِ عَلَى الْأَكْثَرِ: فَلَانٌ يُعَدُّ
 السِّلَاحَ وَيَجْمَعُ الرِّجَالَ وَلَيْسَ قُرْبَهُ عَدُوٌّ فَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَعْصِيَ الْمَلِكَ.
 وَمِثَالُ الْمُمَكِّنَةِ عَلَى التَّسَارِي: فَلَانٌ قَدْ تَعَبَ وَالْمُتَعَبُ مَخْمُومٌ
 فَفَلَانٌ مَخْمُومٌ. وَهَذَا هُوَ الَّذِي يُعْرَفُ بِالْمُشَبِّهِ. وَأَمَّا مَا هُوَ أَعَمُّ
 مِنَ الطَّرَفَيْنِ فَإِنَّهُ يَأْتِلِفُ فِي الشَّكْلِ الثَّانِي إِلَّا أَنَّهُ غَيْرُ مُنْتَجِعٍ إِلَّا
 فِي بَادِي الرَّأْيِ. مِثَالُ ذَلِكَ فِي الْمَادَّةِ الْمُمَكِّنَةِ عَلَى الْأَكْثَرِ
 قَوْلُ الْقَائِلِ: سُقْرَاطُ يَتَنَفَّسُ مُتَوَاتِرًا وَالْمَخْمُومُ يَتَنَفَّسُ مُتَوَاتِرًا فَسُقْرَاطُ
 مَخْمُومٌ. فَهَاتَانِ الْمَقْدَمَتَانِ صَادِقَتَانِ وَالنتيجةُ قَدْ تَكُونُ كَاذِبَةً إِذَا
 قَدْ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ تَنَفَّسُ سُقْرَاطَ مُتَوَاتِرًا لِمَوْضِعِ إِنْخِصَارِهِ.
 وَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ خَافِيًا عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ إِذَا رَأَوْا فِي أَمْثَالِ هَذِهِ
 الْمَقْدَمَاتِ الصَّادِقَةَ أَنَّهَا تَنْتِجُ كَذِبًا ظَنُّوا لِذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ انْطَوَى فِيهَا
 كَذِبٌ فَيَرُومُونَ أَنْ يُعَايِدُوا الْمَقْدَمَاتِ فَيَعْسِرُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ لِمَكَانِ
 صِدْقِهَا فَيَتَحَيَّرُونَ لِذَلِكَ. وَأَمَّا الَّتِي هِيَ أَخْصُّ مِنَ الطَّرَفَيْنِ فَتَنْتِجُ فِي
 الشَّكْلِ الثَّلَاثِ جُزْئِيًّا لَا كُلِّيًّا لَكِنْ نَتَّخِذُ نَتِيجَتَهُ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ
 كَلِمَةً. مِثَالُ ذَلِكَ فِي الْمَادَّةِ الضَّرُورِيَّةِ قَوْلُ الْقَائِلِ: الْأَشْيَاءُ كُلُّهَا
 فِي كُرَّةِ الْعَالَمِ وَالْأَشْيَاءُ كُلُّهَا فِي الزَّمَانِ فَالزَّمَانُ كُرَّةُ الْعَالَمِ. وَفِي
 الْمُمَكِّنَةِ قَوْلُ الْقَائِلِ: الْحُكَمَاءُ عُدُوٌّ لِأَنَّ سُقْرَاطَ حَكِيمٌ وَعَدْلٌ.

وَالدَّلَائِلُ الَّتِي تَكُونُ فِي الشَّكْلِ الثَّالِثِ وَالثَّانِي تُخَصُّ بِأَسْمِ
 أَعْلَامَةٍ وَمَا كَانَ مِنْهَا فِي الشَّكْلِ الْأَوَّلِ يُخَصُّ بِأَسْمِ الدَّلِيلِ .
 وَالَّذِي فِي الشَّكْلِ الثَّانِي هُوَ أَخَصُّ بِأَسْمِ أَعْلَامَةٍ مِنَ الثَّالِثِ
 كَمَا أَنَّهُ مَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ فِي الْمُسْكِنَةِ الْأَنْثَرِيَّةِ يُخَصُّ بِأَسْمِ
 الْأَشْيَاءِ وَإِنْ كَانَ فِي الْمُسْكِنَةِ عَلَى التَّسَاوِي خُصَّ بِأَسْمِ الضَّمِيرِ
 الْمُسْتَبْهِ . فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ مَا هِيَ الْحُجُودَاتُ وَالِدَّلَائِلُ
 وَالْعَلَامَاتُ وَمَا الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا . لَكِنْ الَّذِي تَبَيَّنَ مِنَ الْأَقَاوِيلِ
 الْقِيَاسِيَّةِ عَلَى الْحَقِيقَةِ إِنَّمَا هُوَ فِي كِتَابِ الْقِيَاسِ فَإِنَّهُ هَذَا تَبَيَّنَ مَا
 هُوَ الْقِيَاسُ وَكَمْ أَجْنَاسُ الْأَقَاوِيلِ الْقِيَاسِيَّةِ وَتَبَيَّنَ فِي جِنْسِ جِنْسٍ
 وَهِيَ مَا هُوَ قِيَاسٌ وَمَا لَيْسَ بِقِيَاسٍ . وَأَمَّا (الْمِثَالُ) فَقَدْ بَيَّنَّا فِيمَا تَقَدَّمَ
 أَنَّهُ اسْتِقْرَاءٌ مَا لَكِنْ يَبَيِّنُ الْاسْتِقْرَاءُ بِأَنَّهُ لَيْسَ يُصَارُ فِيهِ لَا مِنْ
 الْجُزْئِيِّ إِلَى بَيَانِ الْأَمْرِ الْكُلِّيِّ كَمَا يُصَارُ فِي بَعْضِ أَنْوَاعِ
 الْاسْتِقْرَاءِ وَلَا مِنْ الْكُلِّيِّ إِلَى الْجُزْئِيِّ كَمَا قَدْ يُصَارُ فِي
 بَعْضِ أَنْوَاعِ الْاسْتِقْرَاءِ . وَذَلِكَ إِذَا بَيَّنَّا بِالْكُلِّيِّ الَّذِي أُثْبِتَ
 بِالْاسْتِقْرَاءِ جُزْئِيًّا آخَرَ غَيْرَ الْجُزْئِيَّاتِ الَّتِي أُثْبِتَ بِهَا الْكُلِّيُّ بِاسْتِقْرَائِهَا
 وَيُؤَافِقُهُ فِي أَنَّهُ يَصِيرُ مِنْ جُزْئِيٍّ إِلَى جُزْئِيٍّ لِاجْتِمَاعِهِمَا فِي أَمْرٍ
 كُلِّيٍّ . وَذَلِكَ إِذَا جُمِعَا فِي الْاسْتِقْرَاءِ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا أَعْنِي أَنَّ يَصِيرُ فِيهِ
 مِنَ الْجُزْئِيِّ إِلَى الْكُلِّيِّ ثُمَّ مِنَ الْكُلِّيِّ إِلَى جُزْئِيٍّ آخَرَ فَإِنَّا
 فِي هَذَا الْفِعْلِ قَدْ صِرْنَا مِنْ جُزْئِيٍّ إِلَى جُزْئِيٍّ يَتَوَسَّطُ الْكُلِّيُّ
 كَالْحَالِ فِي الْمِثَالِ فَإِنَّ الْمِثَالَ إِنَّمَا يَصِيرُ فِيهِ مِنْ جُزْئِيٍّ إِلَى جُزْئِيٍّ

لَا شَرَّ أَكْهَمَا فِي أَمْرِ كَلْبِي إِذَا كَانَ الْحُكْمُ الْمَقُولُ مِنْ أَحَدِهِمَا
إِلَى الْآخَرِ مَوْجُودًا لِلْجُزْئِيِّ الْأَعْرَفِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ الْكَلْبِيِّ أَوْ
يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ يُوجَدُ لَهُ مِنْ جِهَتِهِ وَإِلَّا لَمْ تَصِحَّ النَّقْلَةُ مِنْ جُزْئِي إِلَى
جُزْئِيٍّ أَعْنِي إِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا كَلْبِي وَكَانَ وَجُودُ ذَلِكَ الْحُكْمِ
مِنْ أَجْلِهِ لِلْجُزْئِيِّ الْأَعْرَفِ. وَمِثَالُ مَا يَعْزِضُ مِنْ هَذَا فِي الْأَسْتِقْرَاءِ
أَعْنِي إِذَا كَانَتْ النَّقْلَةُ مِنْ جُزْئِيٍّ إِلَى جُزْئِيٍّ بِتَوَسُّطِ النَّقْلَةِ إِلَى
الْكَلْبِيِّ قَوْلُ بَنٍ قَالَ: أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنْ فُلَانًا طَلَبَ أَنْ يَكُونَ مِنْ
جُمْلَةِ الْعَسِيسِ وَقَدْ كَانَ مِنْ جُمْلَةِ عَدُوِّكَ فَلَا تُبْعِجْ لَهُ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يُرِيدُ
أَنْ يَفْتِكَ بِأَمْلِكِ لِأَنَّ فُلَانًا طَلَبَ ذَلِكَ مِنْ فُلَانٍ الْمَلِكِ وَفُلَانًا مِنْ
فُلَانٍ الْمَلِكِ لَا قَوَامَ يُعَدِّدُهُمْ فَفَتَكُوا بِمُلُوكِهِمْ. فَإِنْ قَارِنَ هَذَا
الْقَوْلَ قَدْ جَعَلَ النَّقْلَةَ فِيهِ مِنْ جُزْئِيٍّ إِلَى جُزْئِيٍّ بِتَوَسُّطِ الْكَلْبِيِّ
الَّذِي هُوَ: إِنْ كُلٌّ مِنْ طَلَبَ أَنْ يَدْخُلَ فِي الْحَرَسِ يَمْنُ كَانَ فِي
جُمْلَةِ عَدُوِّ الْمَلِكِ فَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَفْتِكَ بِهِ. إِلَّا إِنْ هَذَا الْكَلْبِيُّ الَّذِي
أَرْتَسَمَ فِي النَّفْسِ بِالثَّوْقَةِ وَإِنْ لَمْ يُصْرَحْ بِهِ يَسْتَعْمِلُ النَّقْلَةَ مِنْ
جُزْئِيٍّ إِلَى جُزْئِيٍّ إِذَا كَانَتْ النَّقْلَةُ إِلَيْهِ فِي الذِّهْنِ مِنْ أَكْثَرِ
الْجُزْئِيَّاتِ كَانَ اسْتِقْرَاءً وَإِنْ كَانَ مِنْ وَاحِدٍ مِنْهَا أَوْ مِنْ الْأَقْلِ
كَانَ تَحْمِيلًا. (قَالَ) فَأَمَّا الْقَوْلُ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُقَالُ لَهَا مِثَالَاتُ
فَقَدْ يُكْتَفَى هَاهُنَا بِهَذَا الْقَدْرِ الْمَعْطَى مِنْهَا

وَأَمَّا الْقَوْلُ فِي فُضُولِ الضَّمَايِرِ مِنْ جِهَةِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي مِنْهَا
تُعْمَلُ فَإِنَّ الْقَوْلَ فِيهَا غَاوِضٌ وَخَفِيٌّ وَهُوَ عَظِيمٌ الْغَنَاءُ فِيهَا نَقْصِدُهُ

هَاهُنَا. وَسَبَبُ تَعْمُودِهِ أَنَّ الضَّمَائِرَ تَكُونُ فِي جَمِيعِ الْمَقُولَاتِ
 الْعَشْرِ كَمَا تَكُونُ الْقِيَاسَاتُ الْجَدَلِيَّةُ لَكِنْ مِنَ الضَّمَائِرِ مَا يَكُونُ فِي
 الْمَوَادِّ الَّتِي فِي الصَّنَائِعِ. مِثْلَ الضَّمَائِرِ الَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِي الْأُمُورِ
 الْكُلِّيَّةِ وَالْجُزْئِيَّةِ فِي صِنَاعَةِ الطِّبِّ وَغَيْرِهَا مِنَ الصَّنَائِعِ. وَهَذِهِ
 قَبْلِي أَنْ تُسْتَعْمَلَ فِي هَذِهِ الصَّنَائِعِ عَلَى نَحْوِ اسْتِعْمَالِ الْبَرَاهِينِ فِي
 تِلْكَ الصَّنَاعَةِ لَا عَلَى مَا يَسْتَعْمَلُهَا الْخُطِيبُ فِي الْمَادَّةِ الَّتِي تَخْصُ
 الْخُطَابَةَ مِثْلَ أَنْ يَأْتِيَ بِهَا جُزْءًا مِنْ خُطْبَةٍ. وَسَائِرُ الْأَشْيَاءِ الَّتِي
 تَكُونُ بِهَا الْأَقَاوِيلُ الْخُطْبِيَّةُ أَمْ فِعْلًا وَأَنْفَذًا مِمَّا يُذَكَّرُ بَعْدُ. وَمِنْ
 الضَّمَائِرِ مَا يَكُونُ فِي الْأُمُورِ الَّتِي تَخْصُ هَذِهِ الصَّنَاعَةَ بِحَسَبِ مَا
 تَبَيَّنَ مِنْ نَفْعَتِهَا وَهِيَ الْأُمُورُ الْإِرَادِيَّةُ وَهَذِهِ هِيَ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ
 تُسْتَعْمَلَ عَلَى جِهَةٍ مَا يَسْتَعْمِلُ الْخُطَبَاءُ الْأَقَاوِيلَ الْخُطْبِيَّةَ. وَمِنْ هَذِهِ
 الْأَشْيَاءِ يَنْبَغِي أَنْ تُعَدَّ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ الْأَشْيَاءُ الَّتِي هِيَ فُضُولُ
 الضَّمَائِرِ لَا مِنْ تِلْكَ الْمَوَادِّ الَّتِي تَحْتَوِي عَلَيْهَا صِنَاعَةُ صِنَاعَةٍ

الفصل السابع

في التفنيد

البحث الاول

في المناظرة والمجدال

(عن رسائل الفارابي واس سيبا ومقدمة ابن خلدون وآداب البحث المسموقدي)

(راجع الصفحة ١١٦ من علم الخطابة)

أَلْمَاضِرَةُ عَالِمٌ يُعْرِفُ بِهِ كَيْفِيَّةَ اثْنَاتِ الْمَطْلُوبِ وَنَفْيِهِ أَوْ نَفْيِ دَائِلِهِ مَعَ الْخُذْمِ . وَالْآدَابُ الطَّرِيقُ . وَمَوْضُوعُ هَذَا الْعِلْمِ الْأَدِلَّةُ وَنَحِثُ أَنَّهَا يُثَبَّتُ بِهَا الْمُدْعَى عَلَى الْغَيْرِ . وَمَبَادِئُهُ أُمُورٌ بَيِّنَةٌ بِنَفْسِهَا . وَالْغَرَضُ مِنْهُ تَحْصِيلُ مَا كَمَةِ طَرِيقِ الْمَاضِرَةِ لِئَلَّا يَقَعَ الْخَطُ فِي الْبَحْثِ فَيَتَضَحَّ الصَّوَابُ . وَتُطْلَقُ الْمَاضِرَةُ أَيْضًا فِي اضْطِلَاحِ أَدِلِّ هَذَا الْعِلْمِ عَلَى الظَّرِّ مِنْ أَجَابَيْنِ فِي اللَّسْبَةِ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ إِظْهَارًا لِلصَّوَابِ . وَقِيلَ أَيْضًا هِيَ تَوَجُّهُ الْخُصْمَيْنِ فِي اللَّسْبَةِ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ إِظْهَارًا لِلصَّوَابِ أَيْ تَوَجُّهُ الْمُتَخَاصِمَيْنِ اللَّذَيْنِ مَطْلَبُ أَحَدِهِمَا غَيْرُ مَطْلَبِ الْآخَرِ إِذَا تَوَجَّهَا فِي اللَّسْبَةِ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ التَّوَجُّهُ فِي النَّفْسِ كَمَا كَانَ لِلْحُكَمَاءِ الْأَشْرَاقِيِّينَ وَكَانَ غَرَضُهُمْ مِنْ ذَلِكَ إِظْهَارُ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ . وَالْمَسَائِلُ الْعِلْمِيَّةُ تَتَرَايِدُ يَوْمًا فَيَوْمًا بِتَلَاْحُقِ الْأَفْكَارِ

وَالْأَنْظَارِ فَلْتَفَاوَتْ مَرَاتِبُ الطَّبَائِعِ وَالْأَذْهَانِ لَا يَخْلُو عِلْمٌ مِنْ
الْعُلُومِ عَنْ تَصَادُمِ الْآرَاءِ وَتَبَايُنِ الْأَفْكَارِ وَإِدَارَةِ الْكَلَامِ مِنْ
الْجَرَحِ وَالتَّعْدِيلِ وَالرَّدِّ وَالْقَبُولِ إِلَّا أَنَّهُ بِشُرُوطٍ مُقْتَبَرَةٍ مَشْرُوطُ
وَبِرْعَايَةِ الْأُصُولِ مَنُوطٌ وَإِلَّا لَكَانَ مُكَابَرَةً غَيْرَ مَسْمُوعَةٍ . فَلَا بُدَّ
مِنْ قَانُونٍ يَعْرِفُ مَرَاتِبَ النِّجَاحِ عَلَى وَجْهِ يَتَمَيَّزُ بِهِ الْقَبُولُ عَمَّا هُوَ
مَرْدُودٌ وَتِلْكَ الْقَوَائِينُ هِيَ عِلْمُ آدَابِ النِّجَاحِ

أَمَّا الْجِدَالُ فَهُوَ عِلْمٌ يَنْجُثُ عَنْ الطَّرِيقِ الَّتِي يُقْتَدَرُ بِهَا عَلَى إِبْرَامِ
وَنَقْشٍ وَهُوَ مِنْ فُرُوعِ عِلْمِ النَّظَرِ وَمَبْنَى لِعِلْمِ الْخِلَافِ . أَخُوذُ مِنْ
الْجِدَالِ الَّذِي هُوَ أَحَدُ أَجْزَاءِ مَا حِثَّ الْمَلْطِقُ . وَمَبَادِئُهُ بَعْضُهَا مُبْتَدَأٌ
فِي عِلْمِ النَّظَرِ وَبَعْضُهَا خَطَائِيَّةٌ وَبَعْضُهَا أُمُورٌ عَادِيَّةٌ . وَلَهُ اسْتِدَادٌ مِنْ
عِلْمِ الْمُنَاطَرَةِ الْمَشْهُورِ بِآدَابِ النِّجَاحِ . وَمَوْضُوعُهُ تِلْكَ الطَّرِيقُ وَالْعَرَضُ
مِنْهُ تَخْصِيلُ مِلْكَةِ النِّقْشِ وَالْإِبْرَامِ وَقَائِدُهُ كَثِيرَةٌ فِي الْأَحْكَامِ
الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ مِنْ جِهَةِ الْإِلْزَامِ عَلَى الْمُخَالِفِينَ . وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يُقَالَ إِنَّ
عِلْمَ الْجِدَالِ هُوَ عِلْمُ الْمُنَاطَرَةِ لِأَنَّ الْمَالَ وَنَهْمًا وَاحِدًا إِلَّا أَنَّ الْجِدَالَ
أَخْصَ مِنْهُ . وَيُؤَيِّدُهُ كَلَامُ ابْنِ خَلْدُونٍ فِي الْمَقْدَّمَةِ حَيْثُ قَالَ :
وَأَمَّا الْجِدَالُ فَهُوَ مَعْرِفَةُ آدَابِ الْمُنَاطَرَةِ الَّتِي تَجْرِي بَيْنَ أَهْلِ
الْمَذَاهِبِ الْفِقْهِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ بَابُ الْمُنَاطَرَةِ فِي الرَّدِّ
وَالْقَبُولِ مُتَّسِمًا وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُنَاطِرِينَ فِي الْأَسْتِدْلَالِ وَالْجَوَابِ
بُرْسِلَ عِنَانُهُ فِي الْإِخْتِجَاجِ . وَمِنْهُ مَا يَكُونُ صَوَابًا وَمِنْهُ مَا يَكُونُ
خَطَاً فَاحْتِجَ الْآيَةُ إِلَى أَنْ يَضَعُوا آدَابًا وَأَحْكَامًا يَقِفُ الْمُتَنَاطِرَانِ

عِنْدَ حُدُودِهَا فِي الرَّدِّ وَالْقَبُولِ وَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ الْمُسْتَدِلِّ
وَالْحُجُبِ وَحَيْثُ يَسُوعُ لَهُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَدِلًّا وَكَيْفَ يَكُونُ
مَخْصُوصًا مُنْقَطِعًا وَمَحَلُّ اعْتِرَاضِهِ أَوْ مُعَارَضَتِهِ وَأَيْنَ يَحِبُّ عَلَيْهِ
السُّكُوتُ وَلِخَصِيهِ الْكَلَامُ وَالْإِسْتِدْلَالُ. وَلِذَلِكَ قِيلَ فِيهِ إِنَّهُ
مَعْرِفَةٌ بِالْقَوَاعِدِ مِنَ الْحُدُودِ وَالْآدَابِ فِي الْإِسْتِدْلَالِ الَّتِي يَتَوَصَّلُ
بِهَا إِلَى حِفْظِ رَأْيٍ وَهَذِهِ كَانَ ذَلِكَ الرَّأْيُ مِنَ النُّقْشِ أَوْ غَيْرِهِ.
وَهِيَ طَرِيقَتَانِ طَرِيقَةُ الْبَزْدَوِيِّ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٤٨٢ هـ (١٠٩٠ م) وَهِيَ
خَاصَّةٌ بِالْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ مِنَ النَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ وَالْإِسْتِدْلَالِ. وَطَرِيقَةُ
رُكْنِ الدِّينِ الْعَمِيدِيِّ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) وَهِيَ عَامَّةٌ فِي
كُلِّ دَلِيلٍ يُسْتَدَلُّ بِهِ مِنْ أَيْ عِلْمٍ كَانَ. وَكَثْرَةُ اسْتِدْلَالٍ وَهُوَ
مِنَ الْمُنَاجِي الْحَسَنَةِ وَالْمُعَاطَاتِ فِيهِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ كَثِيرَةٌ وَإِذَا
اعْتَبَرْنَا النَّظَرَ الْمَطْلُوعِي كَانَ فِي الْغَالِبِ أَشْبَهُ بِالْقِيَاسِ الْمُعَاطَلِيِّ
وَالسُّوْفِيَّاتِيِّ. إِلَّا أَنَّ صُورَ الْأَدِلَّةِ وَالْأَقْيَسَةِ فِيهِ مُحْفُوظَةٌ مُرَاعَاةً
تُتَخَرَّى فِيهَا طُرُقُ الْإِسْتِدْلَالِ كَمَا يَنْبَغِي وَهَذَا الْعَمِيدِيُّ هُوَ أَوَّلُ
مَنْ كَتَبَ فِيهَا وَنُسِبَتِ الطَّرِيقَةُ إِلَيْهِ وَوَضَعَ الْكِتَابَ الْمُسَمَّى
بِالْإِرْشَادِ مُحْتَصِرًا وَتَبِعَهُ مَنْ جَاءَ بَعْدَهُ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ كَالنَّسْفِيِّ
الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٧١٠ هـ (١٣١٠ م) وَغَيْرُهُ جَاءُوا عَلَى آثَرِهِ وَسَلَكُوا مَسَلَكَهُ
وَكَثُرَتْ فِي الطَّرِيقَةِ التَّالِيفُ وَهِيَ لِهَذَا الْعَهْدِ مَهْجُورَةٌ لِنَقْصِ الْعِلْمِ
وَالتَّعْلِيمِ فِي الْأَمْصَارِ الْإِسْلَامِيَّةِ

البحث الثاني

في آداب المناظرة

(من كتاب اجا الولد للعراقي)

(راجع الصفحة ١٢٤ من علم الخطابة)

لَوْ وَقَعَ مَسْئَلَةٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ نَخْصٍ أَوْ قَوْمٍ وَكَانَ إِرَادَتُكَ فِيهَا أَنْ تَظْهَرَ الْحَقُّ وَلَا تُضَيِّعَ حَارَ لَكَ الْبَحْثُ. لَكِنْ لِيَتْلِكَ الْإِرَادَةُ عَلَامَتَانِ أَحَدَاهُمَا أَنْ لَا تَفْرُقَ بَيْنَ أَنْ يَتَكَشَّفَ الْحَقُّ عَلَى لِسَانِكَ أَوْ عَلَى لِسَانِ غَيْرِكَ. وَثَانِيَهُمَا أَنْ يَكُونَ الْبَحْثُ فِي الْحَلَاءِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِي أَلْمَلِ وَأَسْمَعِ إِنِّي أَذْكُرُ لَكَ هُنَا فَائِدَةً. أَعْلَمْ أَنَّ السُّؤَالَ عَنِ الْمَشْكِلَاتِ عَرَضُ مَرَضِ الْقَلْبِ إِلَى الطَّبِيبِ وَالْجَوَابُ لَهُ سَمْعٌ لِإِصْلَاحِ مَرَضِهِ وَأَعْلَمْ أَنَّ أَجَاهِلِينَ الْمَرْضَى قُلُوبُهُمْ وَالْعُلَمَاءُ الْأَطِبَاءُ. وَالْعَالِمُ النَّاقِصَ لَا يُحْسِنُ الْمَعَالِجَةَ وَالْعَالِمُ الْكَامِلَ لَا يُعَالِجُ كُلَّ مَرَضٍ بَلْ يُعَالِجُ مَنْ يَرْجُو فِيهِ قَوْلَ الْمَعَالِجَةِ وَالْإِصْلَاحِ وَإِذَا كَانَتْ الْعِلَّةُ مُزْمِنَةً أَوْ عَقِيمًا لَا تَقْبَلُ الْعِلَاجَ فَحَذَاقَةُ الطَّبِيبِ فِيهِ أَنْ يَقُولَ: هَذَا لَا يَقْبَلُ الْعِلَاجَ فَلَا يَشْتَغِلُ بِدَوَائِهِ وَمُعَاجَلَتِهِ لِأَنَّ فِيهِ تَضْيِيعَ الْعُذْرِ

إِعْلَمْ أَنَّ مَرَضَ الْجَهْلِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْوَاعٍ أَحَدُهُمْ يَقْبَلُ الْمَعَالِجَةَ وَالْبَاقِي لَا يَقْبَلُ الْعِلَاجَ. وَأَمَّا الْمَرَضُ الَّذِي يَقْبَلُ الْعِلَاجَ

فَهُوَ أَنْ يَكُونَ مُسْتَرِشِدًا عَالِمًا عَاقِلًا فَهَمَّا لَا يَكُونُ مَغْلُوبَ الْحَسَدِ
وَالْغَضَبِ وَحُبِّ الْجَاهِ وَالْأَمَالِ وَالشَّهْوَةِ وَيَكُونُ طَالِبَ الطَّرِيقِ
الْمُسْتَقِيمِ وَلَمْ يَكُنْ سُؤَالُهُ وَاعْتِرَاضُهُ عَنْ حَسَدٍ وَتَقَتُّ وَفَتْحَانِ
وَبَحْثٍ. وَهَذَا يَقْبَلُ الْعِلَاجَ فَتَجُوزُ أَنْ تَشْتَغَلَ بِجَوَابِ سُؤَالِهِ أَلَمْ يَجِبْ
عَلَيْكَ إِجَابَتُهُ. أَمَّا الَّذِي لَا يَقْبَلُ الْعِلَاجَ أَحَدُهُمْ مَنْ كَانَ سُؤَالُهُ
وَاعْتِرَاضُهُ عَنْ حَسَدِهِ وَبُغْضِهِ وَالْحَسَدُ لَا يَقْبَلُ الْعِلَاجَ لِأَنَّهُ مِنْ
الْعِلَّةِ الْمُزِمَّةِ فَكُلَّمَا تَجَيَّهَ بِأَحْسَنِ الْخَوَابِ وَأَفْصَحِهِ وَأَوْضَحِهِ لَا
يَزِيدُ لَهُ ذَلِكَ إِلَّا غَيْظًا وَحَسَدًا فَالطَّرِيقُ أَنْ لَا تَشْتَغَلَ بِجَوَابِهِ:

كُلُّ الْعَدَاوَةِ قَدْ تُرْجَى إِرَاكُهَا إِلَّا عَدَاوَةُ مَنْ عَادَاكَ عَنْ حَسَدٍ
فَيُبَغْيِي لَكَ أَنْ تُعْرِضَ عَنْهُ وَتَتْرَكَهُ مَعَ مَرَجِهِ قَالَ فَأَعْرِضْ
عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِي وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ وَالْدُنْيَا وَتَعَّ هَوَاهُ
فَتَرَدَّى وَالْحُسُودُ بِكُلِّ مَا يَقُولُ وَيَفْعَلُ يُوقِدُ النَّارَ فِي زَرْعِ عَمَلِهِ
كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: الْحَسَدُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ
الْخَطَبَ. وَالثَّانِي أَنْ يَكُونَ عِلَّةً مِنَ الْحَمَاقَةِ وَهُوَ أَيْضًا كَالْحُسُودِ
لَا يَقْبَلُ الْعِلَاجَ كَمَا قَالَ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: (١) إِنِّي مَا عَجَزْتُ عَنْ
إِحْيَاءِ الْمَوْتَى وَقَدْ عَجَزْتُ عَنْ مُعَاجَلَةِ الْأَحْمَقِ وَدَاكَ رَجُلٌ يَشْتَغَلُ
بِطَلَبِ الْعِلْمِ زَمَانًا قَلِيلًا وَيَتَعَلَّمُ شَيْئًا مِنَ الْعِلْمِ الْعَقْلِيِّ وَالشَّرْعِيِّ
فَيَسْأَلُ وَيَعْتَرِضُ مِنْ حَمَاقَتِهِ لَا يَعْلَمُ وَلَا يَفْهَمُ عَلَى الْعَالِمِ الْكَبِيرِ

(١) لم يرو هذا الكلام للسيد المسيح لذكره السعودي لا في الانجيل ولا في

التقليد. ولا نعلم عمن رواه العراقي

فِي الْعُلُومِ الْعَقَائِيَةِ وَالشَّرْعِيَّةِ . وَهَذَا الْأَحَقُّ لَا يَعْلَمُ وَيَظُنُّ أَنَّ مَا
 أَشْكَلَ عَلَيْهِ هُوَ أَيْضًا مُشْكَلٌ لِلْعَالِمِ الْكَبِيرِ فَإِذَا لَمْ يَتَفَكَّرْ هَذَا
 الْقَدْرَ يَكُونُ سُؤَالُهُ وَأَعْتِرَاضُهُ مِنَ الْحَمَاقَةِ فَيَتَنَبَّهُ أَنْ لَا يُشْتَغَلَ
 بِجَوَابِهِ . وَالثَّالِثُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَرْشِدًا وَيَحْمِلَ كُلَّ مَا لَا يَفْهَمُ مِنْ
 كَلَامِ الْأَكْبَارِ عَلَى قُصُورِ فَهْمِهِ وَيَكُونُ سُؤَالُهُ لِلِاسْتِفَادَةِ لَكِنْ
 يَكُونُ بَلِيدًا لَا يُدْرِكُ الْحَقَّ ثَمَّ فَلَا يَتَنَبَّهُ الْأَشْتِعَالِ بِجَوَابِهِ أَيْضًا . وَفِي
 الْحَدِيثِ : نَحْنُ مَعَاشِرَ الْحُكَمَاءِ أَوْرَثْنَا أَنْ نَكَلِّمَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ
 وَعَنْ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ : إِيَّاكَ أَنْ تَشْتَغَلَ بِهَذَا الْجَدَلِ الَّذِي ظَهَرَ
 بَعْدَ انْقِرَاصِ الْأَكْبَارِ مِنَ الْعُلَمَاءِ فَإِنَّهُ يُعَدُّ عَنِ الْعِلْمِ وَيُضِيعُ
 الْعَمَلَ وَيُورِثُ الْوَحْشَةَ وَالْعِدَاوَةَ وَهُوَ مِنْ شُرَاطِ السَّاعَةِ كَذَا
 وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ وَلِلَّهِ دَرُ الْقَائِلِ :

أَرَى فُقَهَاءَ هَذَا الْعَصْرِ ظُرَا أَعْدَاوِ الْعِلْمِ وَأَسْتَعَاوِ بِهِمْ لَمْ
 إِذَا كَانَتْ رَتَبَتُهُمْ لَمْ تَلْقَ مِنْهُمْ سِوَى حَرْقَيْنِ لَمْ يَلْمُ لَا نَسَلَهُ
 وَالْإِنْصَافُ أَنْ الْحَدَلَ لِإِظْهَارِ الْجَوَابِ لَا نَأْسَ بِهِ وَرُبَّمَا يَنْتَفِعُ بِهِ فِي
 تَشْحِيدِ الْأَذْهَابِ . وَالْمُسْتَوْعُ الْجَدَلُ الَّذِي يُصِيعُ الْأَوْقَاتَ وَلَا يَخْصُلُ
 مِنْهُ طَائِلٌ . قَالَ مُوَفَّقُ الَّذِينَ الْبَغْدَادِيِّ : إِيَّاكَ الْغَلْظَةُ فِي الْخِطَابِ .
 وَالْجَفَاءُ فِي الْمُنَاطَرَةِ فَإِنَّ ذَلِكَ يَذْهَبُ بِهَيْجَةِ الْكَلَامِ وَيُسْقِطُ
 قَائِدَتَهُ . وَيَعْدِمُ حَلَاوَتَهُ . وَيَجْأَبُ الضَّغَائِنَ . وَيَخْثِقُ الْمَوَدَّاتِ . وَيُصَيِّرُ
 الْقَائِلَ مُسْتَشْقَلًا . سُكُوتُهُ أَشْهَى إِلَى السَّامِعِ مِنْ كَلَامِهِ . وَيُثِيرُ
 النَّفْسَ عَلَى مُعَانَدَتِهِ وَيَبْسُطُ الْأَلْسُنَ بِخَاشَتِهِ وَإِذْهَابِ حُرْمَتِهِ

المبحث الثالث

في الجوابات على الخصم

(من كتاب العقد الفريد لاس عبد ربه)

(راجع صفحة ١١٣ من علم الخطابة)

إِنَّ الْجَوَابَاتِ هِيَ أَضْعَبُ الْكَلَامِ كُلِّهِ مَرْكَبًا وَأَعَزُّهُ مَطْلَبًا
 وَأَغْمَضُهُ مَنْصَبًا وَأَضْيَقُهُ مَسَلَكًا لِأَنَّ صَاحِبَهُ يُغْلِبُ مُنَاجَاةَ الْفِكْرَةِ
 وَأَسْتِعْمَالَ الْقَرِيحَةِ يَرُومُ فِي نَدِيَّتِهِ نَقْضَ مَا أَتَمَّ الْقَائِلُ فِي رَوِيَّتِهِ
 فَهُوَ كَمَنْ أَخَذَتْ عَلَيْهِ الْفُجَاجُ وَسُدَّتْ لَهُ الْأَخْرَاجُ قَدْ أَغْطَرَضَ الْأَيْسَةَ
 وَأَسْتَهْدَفَ لِلْحَرَامِيِّ لَا يَذَرِي مَا يُقْرَعُ لَهُ فَيَتَأَهَّبَ لَهُ وَلَا مَا يَنْجَاهُ
 مِنْ خَصْمِهِ فَيَقْرَعَهُ بِمِثْلِهِ . وَلَا سِيَّيَا إِذَا كَانَ الْقَائِلُ قَدْ أَخَذَ بِجَمَاعِ
 الْكَلَامِ فَقَادَهُ بِرِمَامِهِ بَعْدَ أَنْ رَأَى فِيهِ وَاحْتَفَلَ وَجَمَعَ خَوَاطِرَهُ
 وَاجْتَهَدَ وَتَرَكَ الرَّأْيَ يَغِيبُ حَتَّى يُخْتَبِرَ فَقَدْ كَرِهُوا الرَّأْيَ الْفَطِيرَ كَمَا
 كَرِهُوا الْجَوَابَ الدَّيْرِيَّ فَلَا يَزَالُ فِي نَسْجِ الْكَلَامِ وَأَسْتِثْنَاهُ حَتَّى
 إِذَا أَظْهَرَ أَنْ شَارِدَهُ وَسَكَنَ نَافِرُهُ صَكَ بِهِ خَصْمَهُ خِمَةً وَاحِدَةً ثُمَّ
 قِيلَ لَهُ أَجِبْ وَلَا تُخْطِئْ وَأَسْرِعْ وَلَا تُبْطِئْ . فَتَرَاهُ بِجَوَابٍ مِنْ غَيْرِ
 آثَانَةٍ وَلَا أَسْتِعْدَادٍ يُطَبِّقُ الْمَفَاصِلَ وَيَنْقُذُ الْمَقَاتِلَ كَمَا يُرْمَى الْجُنْدَلُ
 بِالْحُنْدَلِ وَيُقْرَعُ الْحَدِيدُ بِالْحَدِيدِ فَيَجْلُ بِهِ عُرَاهُ وَيَنْقُضُ بِهِ مَرَارِيَهُ
 وَيَكُونُ جَوَابُهُ عَلَى أَكْثَرِ كَلَامِهِ كَسَحَابَةٍ لَبِدَتْ عَجَاجَتُهُ فَلَا شَيْءَ
 أَعْضَلُ مِنَ الْجَوَابِ الْخَاضِرِ وَلَا أَعَزُّ مِنَ الْخَصْمِ الْأَلْدِيِّ يَقْرَعُ

صَاحِبُهُ وَيَضْرَعُ مُنَازَعَةً يَقُولُ كَيْثُلُ النَّارِ فِي أَطْطَبِ الْجَزْلِ

البحث الرابع

في المغالطة

(من كتاب كتف اصطلاحات العلوم للتأوي وكتاب شرح المطالع)

(راجع صفحة ١١٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

الْمَغَالِطَةُ هِيَ قِيَاسٌ فَاسِدٌ أَمَا مِنْ جِهَةِ الصُّورَةِ أَوْ مِنْ جِهَةِ
الْمَادَةِ أَوْ مِنْ جِهَتَيْهِمَا مَعَ وَالْآتِي بِهَا غَالِطٌ فِي نَفْسِهِ مُغَالِطٌ لِغَيْرِهِ .
وَلَوْلَا الْقُدُورُ وَهُوَ عَدَمُ التَّمْيِيزِ بَيْنَ مَا هُوَ هُوَ وَبَيْنَ مَا هُوَ غَيْرُهُ لَمَا
تَمَّ لِلْمَغَالِطِ صِنَاعَةٌ فَهِيَ صِنَاعَةُ كَاذِبَةٍ تَنْفَعُ بِالْغَرَضِ إِذَا الْغَرَضُ مِنْ
مَعْرِفَتِهَا الْإِحْتِرَازُ عَنِ الْخَطَا وَرَبَّمَا يُنْتَحَنُ بِهَا مَنْ يُرَادُ افْتِحَانُهُ فِي
الْعِلْمِ لِيُعْلَمَ بِهِ عَدَمُ ذَهَابِ الْغَلَطِ عَلَيْهِ كَمَالُهُ وَبِذَلِكَ عَلَيْهِ قُصُورُهُ
وَبِهَذَا الْإِعْتِبَارِ تُسَمَّى قِيَاسًا افْتِحَانِيًّا وَقَدْ تُسْتَعْمَلُ فِي تَبْكِيتِ مَنْ
يُوهِمُ الْعَوَامَّ أَنَّهُ عَالِمٌ يُظْهِرُ لَهُمْ عَجْزَهُ عَنِ الْفَرْقِ بَيْنَ الصَّوَابِ وَالْخَطَا
فَيَصَدُّونَ عَنِ الْإِقْتِدَاءِ بِهِ وَبِهَذَا الْإِعْتِبَارِ تُسَمَّى قِيَاسًا عِنَادِيًّا . قَالَ
شَارِحُ إِشْرَاقِ الْحِكْمَةِ : مَوَادُّ الْمَغَالِطَةِ الْمُسْتَهْتِكَةُ لَفْظًا أَوْ مَعْنَى
وَلِهَذِهِ الصَّنَاعَةُ أَجْزَاءُ ذَاتِيَّةٌ صِنَاعِيَّةٌ وَخَارِجِيَّةٌ . وَالْأَوَّلُ مَا يَتَعَلَّقُ
بِالتَّبْكِيتِ الْمَغَالِطِيِّ .

وَعَلَى هَذَا فَنَقُولُ : إِنَّ أَسْبَابَ الْغَلَطِ عَلَى كَثَرَتِهَا تُرْجَعُ إِلَى

أمر واحد وهو عدم التمييز بين الشيء وأشباهه ثم إنَّها تنقسم إلى
 ما يتعلق بالالفاظ وإلى ما يتعلق بالمعاني. (والأول) ينقسم إلى ما
 يتعلق بالالفاظ لا من حيث تركبها وإلى ما يتعلق بها من حيث
 تركبها. (والأول) لا يخلو إما أن يتعلق بالالفاظ أنفسها وهو أن
 تكون مختلفة الدلالة فيقع الاشتباه بين ما هو المراد وبين غيره .
 ويدخل فيه الاشتراك والتشابه والجهاز والاستعارة وما يجري
 مجراها ويسمى جميعا بالاشتراك اللفظي . وإما أن يتعلق بأحوال
 الالفاظ وهي إما أحوال ذاتية داخلية في صيغ الالفاظ قبل
 تحصيلها كالأشياء في اللفظ المختار بسبب التصريف إذا كان بمعنى
 الفاعل أو المفعول . وإما أحوال عارضة لها بعد تحصيلها كالأشياء
 بسبب الانحجام والإغراب . (والثانية بالتركيب) تنقسم إلى ما
 يتعلق بالأشياء فيه نفس التركيب كما يقال : كل ما يتصوره
 العقول فهو كذا يتصوره . فإن لفظ (هو) يعود تارة إلى المفعول
 وتارة أخرى إلى الماقل وإلى ما يتعلق بوجوده وعدمه أي بوجود
 التركيب وعدمه . وهذا الآخر ينقسم إلى ما لا يكون التركيب
 فيه موجودا فيظن معدوما ويسمى تفصيل المركب . وإلى عكسه
 ويسمى تركيب المفصل وأما (الثالثة بالمعاني) فلا بد أن تتعلق
 بالتأليف بين المعاني إذ الأمر لا يتصور فيها غلط لو لم يقع في
 تأليفها بخير ما ولا يخلو من أن تتعلق بتأليف يقع بين القضايا
 أو بتأليف يقع في قضية واحدة . والواقعة بين القضايا إما قياسية

أَوْ غَيْرُ قِيَاسِيٍّ . وَالْمُتَعَلِّقَةُ بِالتَّأْلِيفِ الْقِيَاسِيَّةُ إِمَّا أَنْ تَقَعَ فِي الْقِيَاسِ
 نَفْسِهِ لَا بِقِيَاسِهِ إِلَى نَتِيجَتِهِ أَوْ تَقَعَ فِيهِ بِقِيَاسِهِ إِلَى نَتِيجَتِهِ .
 وَالْوَاقِعَةُ فِي نَفْسِ الْقِيَاسِ إِمَّا أَنْ تَتَعَلَّقَ بِمَادَّتِهِ أَوْ بِصُورَتِهِ . أَمَّا
 (الْمَادِّيَّةُ) فَكَمَا تَكُونُ مَثَلًا بِحَيْثُ إِذَا رُبَّتْ الْمَعَانِي فِيهَا
 عَلَى وَجْهِ يَكُونُ صَادِقًا لَمْ تَكُنْ قِيَاسًا وَإِذَا رُبَّتْ عَلَى وَجْهِ
 يَكُونُ قِيَاسًا لَمْ يَكُنْ صَادِقًا كَقَوْلِنَا : كُلُّ إِنْسَانٍ نَاطِقٌ مِنْ حَيْثُ
 هُوَ نَاطِقٌ وَلَا شَيْءٌ مِنْ النَّاطِقِ مِنْ حَيْثُ هُوَ نَاطِقٌ بِحَيَوَانٍ إِذَا مَعَ
 إِبْنَاتٍ قَيْدٍ (مِنْ حَيْثُ هُوَ نَاطِقٌ) فِيمَا تُكْذِبُ الصُّغْرَى وَمَعَ حَذْفِهِ
 عَنْهَا تُكْذِبُ الْكُبْرَى . وَإِنْ حُذِفَ مِنَ الصُّغْرَى وَاثَبَتْ فِي
 الْكُبْرَى تَغْلِبُ صُورَةُ الْقِيَاسِ إِعْدَمَ اشْتِرَاكِ الْأَوْسَطِ . وَأَمَّا (الصُّورِيَّةُ)
 فَكَمَا تَكُونُ مِنْهُ لَمْ يَضَرْ غَيْرُ مُنْتَجِ كَوْنِهَا أَيْضًا عَلَى ضَرْبِ نَتِيجَةٍ
 وَهَذَا يُسَمَّى سُوءَ التَّأْلِيفِ بِاعْتِبَارِ الْبَرْهَانِ وَسُوءَ التَّرَكِيبِ بِاعْتِبَارِ
 غَيْرِهِ . وَأَمَّا (الْوَاقِعَةُ فِي الْقِيَاسِ بِالْقِيَاسِ إِلَى النَتِيجَةِ) فَتَقْسَمُ إِلَى
 مَا لَا يَكُونُ النَتِيجَةُ مُغَايِرَةً لِأَحَدِ أَجْزَاءِ الْقِيَاسِ وَلَا يُخْصَلُ
 بِالْقِيَاسِ عِلْمُ زَائِدٍ عَلَى مَا فِي الْمَقْدَمَاتِ وَتُسَمَّى مُصَادَرَةً عَلَى
 الْمَطْلُوبِ . وَإِلَى مَا تَكُونُ مُغَايِرَةً لِكُلِّهَا لَا تَكُونُ مَا هِيَ الْمَطْلُوبُ
 مِنْ ذَلِكَ الْقِيَاسِ وَيُسَمَّى وَضْعَ مَا لَيْسَ بِعِلَّةٍ عَلَيْهِ كَقَوْلِنَا : الْإِنْسَانُ
 وَحْدَهُ ضَحَّاكٌ كُلُّ ضَحَّاكٍ حَيَوَانٌ . وَأَمَّا (الْوَاقِعَةُ فِي قَضَايَا لَيْسَتْ
 بِقِيَاسٍ) فَتُسَمَّى جَمْعَ السَّائِلِ فِي مَسْئَلَةٍ كَمَا يُقَالُ : زَيْدٌ وَحْدَهُ
 كَاتِبٌ . فَإِنَّهُ قَضِيبَتَانِ لِإِفَادَتِهِ أَنَّهُ لَيْسَ غَيْرُهُ كَاتِبًا . وَأَمَّا (الْمُتَعَلِّقَةُ

بِالْقَضِيَّةِ الْوَاحِدَةِ) فَمَا أَنْ تَقَعَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِجُزْئِي الْقَضِيَّةِ جَمِيعًا وَذَلِكَ
 يَكُونُ بِوُقُوعِ أَحَدِهِمَا مَكَانَ الْآخَرِ وَيَسَمَّى ابْتِهَامَ الْعَكْسِ. وَمِنْهُ
 الْحُكْمُ عَلَى الْجَنَسِ بِحُكْمِ نَوْعٍ مِنْهُ مُنْدَرِجٌ تَحْتَهُ نَحْوُ: هَذَا لَوْنٌ
 وَاللَّوْنُ سَوَادٌ فَهَذَا سَوَادٌ. وَمِنْهُ الْحُكْمُ عَلَى الْمَطْلُوقِ بِحُكْمِ الْمُقَيَّدِ
 بِجَالٍ أَوْ وَقْتُ نَحْوِ: هَذِهِ رَقَبَةٌ وَالرَّقَبَةُ مُؤَمَّمَةٌ. وَأَمَّا أَنْ تَقَعَ فِيمَا
 يَتَعَلَّقُ بِجُزْءٍ وَاحِدٍ مِنْهَا وَتَنْقَسِمَ إِلَى مَا يُورَدُ فِيهِ بِدَلِّ الْجُزْءِ غَيْرُهُ فِيمَا
 يَشْبَهُ كَعَوَارِضِهِ أَوْ مَعْرُوضَاتِهِ مِنْهُ وَيَسَمَّى أَخْذَ مَا بِالْعَرَضِ مَكَانَ
 مَا بِالذَّاتِ كَمَنْ رَأَى الْإِنْسَانَ أَنَّهُ يَلْزَمُ لَهُ التَّوَهُّمُ وَالتَّكْلِيفُ فَظَنَّ
 أَنَّ كُلَّ مَتَوَهُّمٍ مُكَلَّفٌ. وَإِلَى مَا يُورَدُ فِيهِ الْجُزْءُ نَفْسُهُ وَلَكِنْ لَا عَلَى
 الْوَجْهِ الَّذِي يَبْغِي كَمَا يُؤْخَذُ مَعَهُ مَا لَيْسَ فِيهِ نَحْوُ: زَيْدٌ الْكَائِبُ
 إِنْسَانٌ. أَوْ لَا يُؤْخَذُ مَعَهُ مَا هُوَ مِنَ الشَّرْطِ أَوْ الْقِيودِ كَمَنْ يَأْخُذُ
 غَيْرَ الْمَوْجُودِ كَاتِبًا غَيْرَ تَوْجُودِهِ مُطْلَقًا وَيَسَمَّى سُوءَ اعْتِبَارِ الْحَمْلِ. فَقَدْ
 حَصَلَ مِنَ الْجَمِيعِ ثَلَاثَةٌ عَشَرَ زَعَا سِتَّةٌ مِنْهَا لَفْظِيَّةٌ يَتَعَلَّقُ ثَلَاثَةٌ
 مِنْهَا بِالْبَسَائِطِ هِيَ الْأَشْتِرَاكُ فِي جَوْهَرِ اللَّفْظِ وَفِي أَحْوَالِهِ الذَّاتِيَّةِ
 وَفِي أَحْوَالِهِ الْعَرَضِيَّةِ وَثَلَاثَةٌ مِنْهَا بِالتَّرْكِيبِ وَهِيَ الَّتِي فِي نَفْسِ
 التَّرْكِيبِ وَتَفْصِيلِ الْمُرَكَّبِ وَتَرْكِيبِ الْمُفْصَلِ وَسَبْعَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ. أَرْبَعَةٌ
 مِنْهَا بِاعْتِبَارِ الْقَضَايَا الْمُرَكَّبَةِ وَهِيَ سُوءُ التَّأْلِيفِ وَالْمُعَادَرَةُ عَلَى
 الْمَطْلُوبِ وَوَضْعُ مَا لَيْسَ بِعِلَّةٍ عِلَّةً وَجَمْعُ الْمَسَائِلِ فِي مَسْئَلَةٍ وَاحِدَةٍ.
 وَثَلَاثَةٌ بِاعْتِبَارِ الْقَضِيَّةِ الْوَاحِدَةِ وَهِيَ ابْتِهَامُ الْعَكْسِ وَأَخْذُ مَا
 بِالْعَرَضِ مَكَانَ مَا بِالذَّاتِ وَسُوءُ اعْتِبَارِ الْحَمْلِ. فَهَذِهِ هِيَ الْأَجْزَاءُ

الذاتية الصناعية لصناعة المغالطة. وأما الحارجيات فما يقتضي المغالطة
بأعرض كالتشنيع على المخاطب وسوق كلامه إلى الكذب بزيادة
أو تأويل وإيراد ما يُحْدِثُهُ أو يُجْنِئُهُ من إغلاق العبارة أو المبالغة
في أن المعنى دقيق أو ما ينفعه من الفهم كالحط بالحشو والهديان
التكرار وغير ذلك مما أشتل عليه كتاب الشفاء وغيره من
الطولات

البحث الخامس

في مقاطيع الكلام

(من كتاب الصائير لابن هلال العسكري)

(راجع الصفحة ١٢٥ من علم الخطابة)

قال اللامون لبعضهم : من أبلغ الناس قال من قرب الأمر
البعيد والمتناول الصعب الدرك بالالفاظ اليسيرة. قال : ما عدل
سهمك عن الغرض ولكن البليغ من كان كلامه في مقدار
حاجته لا يجيل الفكرة في اختلاس ما صعب من الالفاظ ولا
يكره المعاني على إثرائها في غير منزلها ولا يتعمد الغريب
الوخشي ولا الساقط السوقي فإن البلاغة إذا اعتزلتها المعرفة
بموانع الفضل والوصل كانت كاللآلئ بها ظلم. وقال أبو
العباس السفاح لكتابه : قف عند مقاطيع الكلام وحدوده
وإياك أن تخط المرعي بالهمل. ومن حلية البلاغة المعرفة

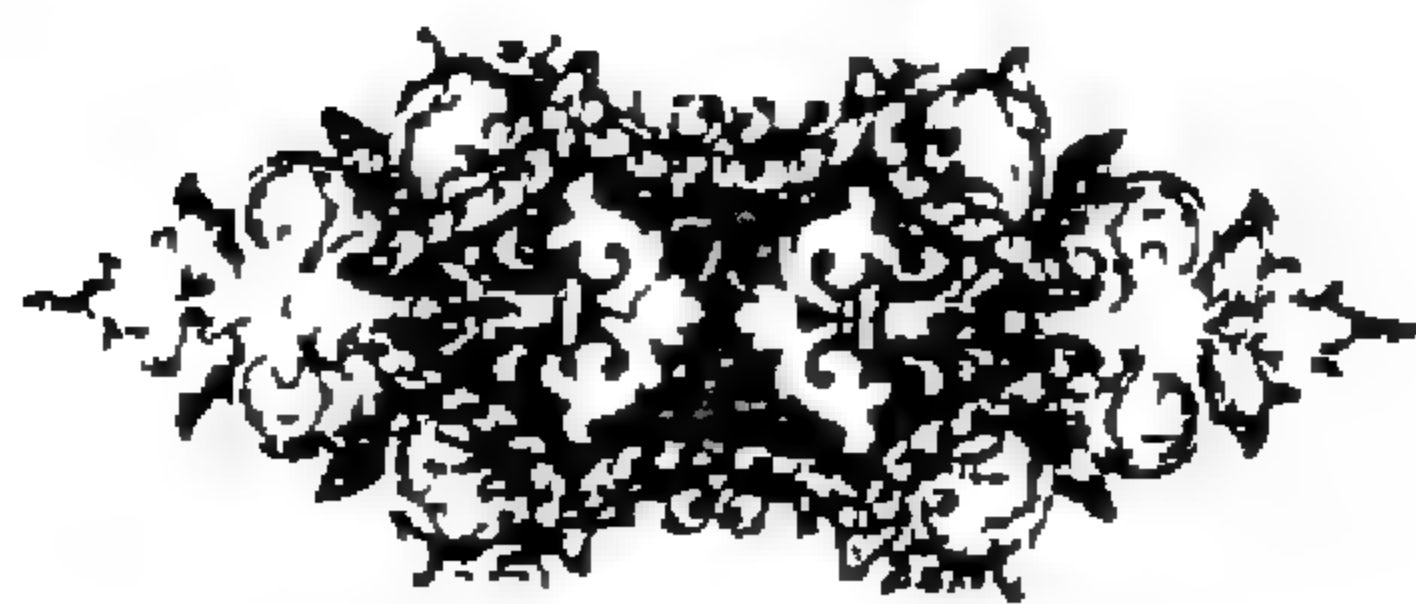
بِمَرَاضِعِ الْفَضْلِ وَالْوَضْلِ. وَقَالَ الْأَخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ مَا رَأَيْتُ رَجُلًا
تَكَلَّمَ فَأَحْسَنَ الْوُقُوفَ عِنْدَ مَقَاطِيعِ الْكَلَامِ وَلَا عَرَفَ حُدُودَهُ
إِلَّا عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ كَانَ إِذَا تَكَلَّمَ تَفَقَّدَ مَقَاطِيعَ الْكَلَامِ وَأَعْطَى
حَقَّ الْمَقَامِ وَغَاصَ فِي اسْتِخْرَاجِ الْمَعَانِي بِاللُّطْفِ مُخْرَجٍ حَتَّى كَانَ
يَقِفُ عِنْدَ الْمَقَاطِيعِ وَقُوفًا يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَبْتَغِيهِ مِنَ الْأَلْفَاظِ
وَكَانَ كَثِيرًا مَا يُنْشِدُ :

إِذَا مَا بَدَأَ بَيْنَ الْمَنَابِرِ قَائِلًا أَصَابَ نِمَا يُوحِي إِلَيْهِ الْمَفَاصِيلَا
وَلَا أَعْرِفُ فَضْلًا فِي كَلَامٍ مَشُورٍ أَحْسَنَ مِمَّا أُخْبِرَ عَنْ شَيْبِ
أَبْنِ شُبَّةَ فَإِنَّهُ إِذْ كَانَ يَوْمًا قَاعِدًا بِبَابِ الْمَهْدِيِّ أَقْبَلَ عَبْدُ
الصَّمَدِ بْنُ الْفَضْلِ الرَّقَائِشِيُّ فَلَمَّا رَأَاهُ شَيْبٌ قَالَ : أَتَاكُمْ وَاللَّهِ
كَأَيِّ النَّاسِ فَلَمَّا جَلَسَ قَالَ لَهُ شَيْبٌ : تَكَلَّمْ يَا أَبَا الْعَبَّاسِ. فَقَالَ :
أَمَعَكَ يَا أَبَا مَعْمَرٍ وَأَنْتَ خَطِيبُنَا وَسَيِّدُنَا. قَالَ : نَعَمْ فَوَاللَّهِ مَا
رَأَيْتُ قَلْبًا أَقْرَبَ مِنْ لِسَانٍ مِنْ قَلْبِكَ مِنْ لِسَانِكَ. فَقَالَ أَيُّ نَبِيٍّ
تُحِبُّ أَنْ أَتَكَلَّمَ. (قَالَ) وَإِذَا شَيْخٌ مَعَهُ عَصَا يَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا فَقَالَ شَيْبٌ :
صِفْ هَذِهِ الْعَصَا. فَحَمِدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ ذَكَرَ السَّمَاءَ
فَقَالَ : رَفَعَهَا اللَّهُ بِغَيْرِ عَمَدٍ وَجَعَلَ فِيهَا نُجُومَ رُجَمٍ وَنُجُومَ أَهْتِدَاءٍ وَأَدَارَ
فِيهَا سِرَاجًا وَقَرَأَ مُنِيرًا لِتَعْلَمُوا عِدَدَ السَّنِينَ وَالْحَبَابَ وَأَنْزَلَ مِنْهَا مَاءً
مُبَارَكًا أَحْيَا بِهِ الزَّرْعَ وَالْخَرْعَ وَأَدَارَ بِهِ الْأَقْوَاتَ وَحَفِظَ بِهِ الْأَرْوَاحَ
وَأَنْبَتَ بِهِ أَنْوَاعًا مُخْتَلِفَةً يَصْرِفُهَا مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ تَكُونُ حَبَّةً
تَمْرٍ يَجْعَلُهَا عِرْقًا ثُمَّ يُقِيمُهَا عَلَى سَاقٍ. فَبَيْنَا نَرَاهَا خَضِرَاءَ تَرْفَعُ إِذْ

صَارَتْ يَابِسَةً تَتَقَصَّفُ بِهَا الْعِبَادُ وَيُعْمَرُ بِهَا الْبِلَادُ وَجَعَلَ مِنْ نَسْلِهَا
هَذِهِ الْعَصَا (ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الشَّيْخِ فَقَالَ) : فَكَانَ هَذَا أَوْجَدَهُ اللَّهُ بَعْدَ
عَدَمِ وَأَنْشَأَهُ أَمْرَدَ وَشَابًا وَبَعْدَهُ مُكْتَهِلًا ثُمَّ شَيْخًا حَتَّى صَارَ إِلَى
هَذِهِ الْحَالِ مِنْ الْكِبَرِ فَاحْتَاجَ فِي آخِرِ حَالَاتِهِ إِلَى هَذِهِ الْعَصَا
فَتَبَارَكَ اللَّهُ الْمَدِيرُ لِلْعِبَادِ. قَالَ شَيْبُ بْنُ شُبَّةَ : قَدْ سَمِعْتُ كَلَامًا
عَلَى يَدَيْهِ أَحْسَنَ مِنْهُ. وَلَمَّا أَقَامَ أَبُو جَعْفَرٍ دَاخِلًا خَطِيبًا مُحَضَّرَةً
شَيْبُ بْنُ شُبَّةَ وَأَشْرَافِ قُرَيْشٍ فَتَكَلَّمَ أَقْبَلَ شَيْبُ فَقَالَ :
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ أَبِينِ بَيْنَانًا وَلَا أَرْبَطَ جَنَانًا وَلَا
أَفْصَحَ لِسَانًا وَلَا أَبْلَ رِيَّةَ وَلَا أَنْغَضَ عُرُوقًا وَلَا أَحْسَنَ طَرِيقًا إِلَّا
أَنَّ الْجَوَادَ عَسِيرٌ لَمْ يُرْضَ فَحَمَلَتْهُ الْقُوَّةُ عَلَى تَعَسُّفِ الْآكَامِ
وَحُطِّبَهَا وَتَرَكَ الطَّرِيقَ الْأَحَبَّ وَانْجَمَ اللَّهُ إِنْ لَوْ عَرَفَ فِي خُطْبَتِهِ
مَقَاطِعَ الْكَلَامِ لَكَانَ أَفْصَحَ مَنْ نَطَقَ بِلِسَانٍ. وَقَالَ الْمُتَأَمُّونَ :
مَا أُعْجِبُ بِكِتَابِ أَحَدٍ كَأَعْجَابِي بِكِتَابِ الْقَمَمِ بْنِ عِيْسَى فَإِنَّهُ فِي غُرَّةِ
عُمْرِهِ وَيُصِيبُ مَفَاصِلَ الْكَلَامِ وَلَا تَدْعُوهُ الْقُدْرَةُ إِلَى الْإِطْبَاقِ
وَلَا تَمِيلُ بِهِ الْفَرَادَةُ إِلَى الْإِسْهَابِ يُجَلِّي عَنْ مُرَادِهِ فِي كُتُبِهِ وَيُصِيبُ
الْمَغْزَى فِي الْفَاضِلِ. وَكَانَ يَزِيدُ بْنُ مَعَاوِيَةَ يَقُولُ : إِيَّاكُمْ أَنْ تَجْعَلُوا
الْفَضْلَ وَضَلًا فَإِنَّهُ أَشَدُّ وَأَعْجَبُ وَأَعْيَبُ مِنَ الْخَيْرِ. وَلَيْكُنِ
التَّفَقُّدُ لِمَقَاطِعِ الْكَلَامِ مِنْكُمْ عَلَى بَالٍ. وَكَانَ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِي
إِذَا كَانَتْ مُلُوكُ الْجَاهِلِيَّةِ تَسْكُتُهُ قَالَ لِكَاتِبِهِ : أَفْصِلُوا بَيْنَ
مُنْقَضِي فَضْلٍ وَصِلُوا إِذَا كَانَ الْكَلَامُ مَعْجُونًا بَعْضُهُ بِبَعْضٍ. وَكَانَ

الْحَارِثُ بْنُ أَبِي سَيْرٍ الْفَسَّائِي يَقُولُ لِكَاتِبِهِ الْمُرْقَشِ : إِذَا تَرَعَ بِكَ
الْكَلَامُ إِلَى أَيْدَاءٍ مَعْنَى غَيْرِ مَا أَنْتَ فِيهِ فَصِلْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا
يَتَّبِعُهُ مِنَ الْأَلْفَاظِ فَإِنَّكَ إِنْ مَذَقْتَ الْفَاضِلَ بِغَيْرِ مَا يَحْسُنُ أَنْ
تَمَذِّقَ بِهِ نَفَرَتِ الْقُلُوبُ عَنْ وَغِيهَا وَمَلَّتْهُ الْأَنْمَاعُ وَاسْتَقَمَّتْهُ الرُّوَاةُ.
وَكَانَ بَرُّ زُجْجَمُورٍ يَقُولُ : إِذَا مَدَحْتَ رَجُلًا وَهَجَوْتَ آخَرَ فَأَجْعَلْ بَيْنَ
الْقَوْلَيْنِ فَصْلًا حَتَّى تَعْرِفَ الْمَدْحَ مِنَ الْهَجَاءِ كَمَا تَفْعَلُ فِي كُتُبِكَ إِذَا
اسْتَأْنَفْتَ الْقَوْلَ وَاصْكَمْتَ مَا سَأَفَ مِنَ اللَّفْظِ. وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ
سَهْلِ لِكَاتِبِهِ الْخَرَّائِي : مَا مِثْلُ لِكَاتِبٍ فِي قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ . قَالَ :
أَنْ يَكُونَ مَطْبُوعًا مُحْتَكِمًا بِالتَّجَرُّبَةِ سَالِمًا بِجَلَالِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ
وَحَرَائِمِهَا بِالذُّهْرِ فِي تَدَاوُلِهَا وَتَصَرُّفِهَا وَبِالْمُدَاوَلَةِ فِي سِيرِهَا وَأَيَامِهَا
مَعَ بَرَاعَةِ اللَّفْظِ وَحُسْنِ النِّسْقِ وَتَأْلِيفِ الْأَوْصَالِ بِمُشَاطَلَةِ
الِاسْتِعَارَةِ وَبِشَرْحِ الْمَعْنَى حَتَّى يُنْصَبَ صُورُهَا. وَبِقَاطِعِ الْكَلَامِ
وَمَعْرِفَةِ الْفَضْلِ مِنَ الْوَضْلِ وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَهُوَ كَاتِبٌ
مُجِيدٌ. وَقَالَ الْمَأْمُونُ : مَا أَحْفَظُ مِنْ رَجُلٍ شَيْئًا كَتَحْفَظِي عَنْ الْفَضْلِ
وَالْوَضْلِ فِي كِتَابِهِ وَالتَّخْلِصِ مِنَ التَّحَاوُلِ إِلَى الْمَعْقُودِ وَإِنْ لِكُلِّ
شَيْءٍ جَمَالًا وَحِلْيَةً الْكِتَابِ وَجَمَاهُ إِيْقَاعُ الْفَضْلِ وَقَعَهُ وَخُذُّ
الْفِكْرِ وَاجَاثَتِهَا فِي لُطْفِ التَّخْلِصِ مِنَ الْمَعْقُودِ إِلَى التَّحَاوُلِ . (مُلَامًا) :
وَمَعْنَى الْمَعْقُودِ وَالتَّحَاوُلِ هَاهُنَا هَاهُنَا أَنْتَ إِذَا ابْتَدَأْتَ مُخَاطَبَةً ثُمَّ لَمْ
تَنْتَهِ إِلَى مَوْضِعِ التَّخْلِصِ فَمَا عَقَدْتَ عَلَيْهِ كَلَامَكَ سُمِّيَ الْكِتَابُ
مَعْقُودًا. وَإِذَا شَرَحْتَ الشُّيُورَ وَأَبْنَتَ عَنْ الْفَرْضِ الْمَذْرُوعِ إِلَيْهِ

سُمِّيَ الْكَلَامُ مُحَاوَلًا مِثَالُ ذَلِكَ مَا كَتَبَ بَعْضُهُمْ أَنْظِرَ سَدَّ اللَّهُ
رَأْيَكَ أَنْ لَا تَدْعُوكَ مَقْدَرْتُكَ عَلَى الْكَلَامِ إِلَى إِطَالَةِ الْمَعْقُودِ فَإِنَّ
ذَلِكَ مِنْسَاءٌ مَا أَكْنَانُهُ فِي صَدْرِكَ وَأَوْرَدَتْ تَضْيِيقَهُ فِي كِتَابِكَ .
وَأَعْلَمُ أَنَّ إِطَالَةَ الْمَعْقُودِ تُورِثُ نِسْيَانَ مَا عَقَدْتَ عَلَيْهِ كَلَامَكَ
وَأَزْتَمَّتْ بِهِ فِكْرَتُكَ . وَكَانَ شَيْبُ بْنُ شُبَّةَ يَقُولُ لَمْ أَرِ مَثَكَلِمًا
قَطُّ أَذْكَرَ لِمَا عَقَدَ عَلَيْهِ كَلَامَهُ وَلَا أَحْفَظَ لِمَا سَلَفَ مِنْ نُطْقِهِ مِنْ
خَالِدِ بْنِ صَفْوَانَ يُشِيعُ الْمَعْقُودَ بِالْمَعَانِي يَضَعُ الْخُرُوجَ مِنْهَا إِلَى
غَيْرِهَا ثُمَّ يَأْتِي بِالْحَاوِلِ وَاضْحَاكَيْنَا وَمَشْرُوحَا مُنَوَّرَا وَكَانَ السَّامِعَ لَا
يَعْرِفُ مَغْزَاهُ وَمَقْصَدَهُ فِي أَوَّلِ كَلَامِهِ حَتَّى يَصِيرَ إِلَى آخِرِهِ . وَقَالَ
بَعْضُهُمْ : لِبَاسَ عَمَلٍ مِنَ الْقَائِلِ أَنْ يَكْتُمَ مَغْزَاهُ نَنِ السَّامِعِ بِكَلَامِهِ
فِي أَوَّلِ ابْتِدَائِهِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى آخِرِهِ بَلِ الْأَحْسَنُ أَنْ يَكُونَ
فِي عَذْرِ كَلَامِهِ دَلِيلٌ عَلَى حَاجَتِهِ وَمُبَيِّنٌ لِمَغْزَاهُ وَمَقْصَدِهِ كَمَا أَنَّ
أَخِيرَ آيَاتِ الشِّعْرِ مَا إِذَا سَمِعْتَ صَدْرَهُ عَرَفْتَ قَافِيَتَهُ . وَكَانَ
ثُمَّبُ بْنُ شُبَّةَ يَقُولُ : النَّاسُ مُوَكَّلُونَ بِتَعْظِيمِ جُودَةِ الْإِبْتِدَاءِ
وَبِمَدْحِ صَاحِبِهِ وَأَمَّا مُوَكَّلُ بِتَعْظِيمِ جُودَةِ الْمَقْطَعِ وَبِمَدْحِ صَاحِبِهِ
وَأَخِيرُ الْكَلَامِ مَا وَقِفَ عِنْدَ مَقَاطِعِهِ وَبَيْنَ مَوْقِعِ فُصُولِهِ



الفصل الثامن

في التعبير

البحث الأول

في خواصّ تعبير الخطيب

(من كتاب العقد العريد لاس عبد ربه)

(راجع الصفحة ١٣٢ من علم الخطابة)

مَرَّ بِشَرُّ بْنُ الْمَعْتَمِرِ بِإِبْرَاهِيمَ بْنِ جَلَّةَ بْنِ مَخُومَةَ السَّكُونِيّ
الْخَطِيبِ وَهُوَ يُعَلِّمُ فَتَيَانَهُمُ الْخُطَابَةَ فَوَقَفَ بِشَرُّ يَسْتَمِعُ فَظَنَّ
إِبْرَاهِيمُ أَنَّهُ إِنَّمَا وَقَفَ لِيَسْتَفِيدَ أَوْ يَكُونَ رَجُلًا مِنَ النَّظَارَةِ فَقَالَ
بِشَرٍّ: اضْرِبُوا عَمَّا قَالَ قَهْقُحًا وَأَطُورُوا عَنْهُ كَشْحًا. ثُمَّ دَفَعَ إِلَيْهِمْ
صَحِيفَةً مِنْ تَتْمِيمِهِ وَتَحْيِيرِهِ فِيهَا: خُذْ مِنْ نَفْسِكَ سَاعَةً نَشَاطَكَ وَفَرَاغَ
بَالِكَ وَإِجَابَتِهَا إِيَّاكَ فَإِنَّ نَفْسَكَ تِلْكَ السَّاعَةَ أَكْرَمُ جَوْهَرًا
وَأَشْرَفُ حَسَبًا وَأَحْسَنُ فِي الْإِسْتِمَاعِ وَأَخْلَى فِي الصَّدُورِ وَأَسْلَمُ
مِنْ فَاخِشِ الْخَطَايَا وَأَجْلَبُ لِكُلِّ عَيْنٍ مِنْ لَفْظٍ شَرِيفٍ وَمَعْنَى
بَدِيعٍ. وَأَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ أَجْدَى عَلَيْكَ مِمَّا يُعْطِيكَ يَوْمَكَ الْأَطْوَلُ
بِالْكَدِ وَالْمُطَاوَلَةِ وَالْجَاهِدَةِ بِالتَّكْلِيفِ وَالْمَعَاوَدَةِ. وَمَهْمَا أَخْطَاكَ

لَمْ يُخْطِئْكَ أَنْ يَكُونَ مَقُولًا قَصْدًا وَخَفِيفًا عَلَى اللِّسَانِ سَهْلًا وَكَمَا
خَرَجَ مِنْ يَبُوعِهِ وَتَجَمَّ مِنْ مَعْدِنِهِ . وَإِيَّاكَ وَالتَّوَعُّرَ فَإِنَّ التَّوَعُّرَ
يُسَلِّمُكَ إِلَى التَّقْيِيدِ وَالتَّقْيِيدُ هُوَ الَّذِي يَسْتَهْلِكُ مَعَانِيكَ وَيَشِينُ
الْفَاضِلَ وَمَنْ آذَاعَ مَعْنَى كَرِيماً فَأَيْلَتَمَسَ لَهُ لَفْظاً كَرِيماً فَإِنْ حَقَّ
الْمَعْنَى الشَّرِيفُ اللَّفْظُ الشَّرِيفُ وَمِنْ حَقِّهَا أَنْ تَصُونَهَا عَمَّا يُفْسِدُهَا
وَيُهْجِنُهَا وَعَمَّا تَعُودُ مِنْ أَجْلِهِ إِلَى أَنْ تَكُونَ أَسْوَأَ حَالاً مِنْكَ قُلْ
أَنْ تَلْتَمِسَ إِظْهَارَهَا وَتَرْهَنَ نَفْسَكَ بِتِلَابَتِهَا وَقَضَاءِ حَقِّهَا . فَكُنْ
فِي ثَلَاثَةِ مَنَازِلَ فَأَوَّلُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ لَفْظُكَ رَشِيقًا عَذْبًا أَوْ
فَحْمًا سَهْلًا وَيَكُونَ مَعَاكَ ظَاهِرًا مَكْشُوفًا وَقَرِيبًا مَعْرُوفًا إِمَّا عِنْدَ
الْخَاصَّةِ إِنْ كُنْتَ لِلْخَاصَّةِ قَعَدَتْ وَإِمَّا عِنْدَ الْعَامَّةِ إِنْ كُنْتَ لِلْعَامَّةِ
أَرَدْتَ . وَالْمَعْنَى لَيْسَ يَتَّجِعُ أَنْ يَكُونَ مِنْ مَعَانِي الْعَامَّةِ . وَإِنَّمَا
مَدَارُ الْأَمْرِ عَلَى الشَّرَفِ مَعَ الصَّوَابِ وَإِحْرَازِ الْمُنْفَعَةِ مَعَ مُوَافَقَةِ
الْحَالِ وَمَا يَجِبُ إِكْلَانِ مَقَامٍ مِنَ الْقَالَ . وَكَذَلِكَ اللَّفْظُ الْعَامِيُّ
وَالْخَاصِيُّ وَإِنْ أَمَكْنِكَ أَنْ تَبْلُغَ مِنْ بَيَانِ لِسَانِكَ وَبَلَاغَةِ لَفْظِكَ
وَلُطْفِ مَدَاخِلِكَ وَقُدْرِكَ فِي نَفْسِكَ عَلَى أَنْ تُفْهِمَ الْعَامَّةَ مَعَانِي
الْخَاصَّةِ وَتَكْسُوهَا بِاللَّفَاطِ الْمَتَوَسِّطَةِ الَّتِي لَا تَنْطَفِئُ عَنِ الدَّهَائِ وَلَا
تَخْفُو عَنِ الْأَكْفَاءِ . وَأَنْتَ الْبَلِیغُ النَّامُ . فَقَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ جَبَلَةَ
جُعِلَتْ فِدَاكَ أَنَا أَخْرَجُ إِلَى تَعْلِي هَذَا الْكَلَامِ مِنْ هَؤُلَاءِ الْعِلْمَةِ

المبحث الثاني

في بلاغة كلام العرب وكلام المعجم

(من رسالة)

(راجع الصفحة ٢٠٧ من علم الادب)

كُنْتُ ذَكَرْتُ لَكَ أَسْعَدَكَ اللَّهُ إِكْثَارَ النَّاسِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا فِي
وَصْفِ الْبَلَاغَةِ وَتَعْرِيفِهِمْ الْقَوْلَ فِي أَقْسَامِهَا وَأَنْوَاعِهَا وَأَنَّهَا الْفَاطَةُ
يُعَبَّرُ بِهَا عَنِ الْمَعَانِي فَمَنْهَا مَا يَكُونُ فِي النَّظْمِ وَمِنْهَا مَا يَكُونُ فِي
النَّثْرِ وَيَكُونُ فِي الْمَكَاتِبَةِ وَالرَّسَائِلِ وَالْخُطَبِ وَالتَّشْبِيهِاتِ
وَالْأَوْصَافِ وَفِي السُّؤَالِ وَالْجَوَابِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. فَأَمَّا بِلَاغَةِ الشِّعْرِ
فَعُدُوبَةُ الْأَلْفَاظِ وَتَقْرِيبُ الْمَعَانِي وَاتِّسَاقُ النَّظْمِ وَرَشَاقَةُ الْمَعْرِضِ
كَقَوْلِ النَّابِغَةِ :

فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ الْمَتَايَ عَنْكَ وَاسِعُ
وَقَوْلِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ فِي وَصْفِ فَرَسِهِ وَالتَّشْبِيهِ (بِقَيْدِ الْأَوَابِدِ).
وَقَوْلِ الْأَعَشَى : (فَهُمْ سَاكِنُونَ وَالْمَنِيَّةُ تَنْطِقُ). وَمِنْهَا مَا يَكُونُ
بِلِصَابَةِ الْمَعْنَى وَقَرَعِ الْحُجَّةِ وَالْأَصْلُ عِنْدَهُمْ فِيهَا أَنَّهَا الْفَاطَةُ يُعَبَّرُ
بِهَا عَنِ الْمَعَانِي فَأَحْسَنُهَا مَا يَزِيدُ فِي كَشْفِ الْمَعْنَى مَعَ اخْتِصَارِهِ بِأَقَلِّ
مَا يُمَكِّنُ مِنَ الْعِبَارَةِ بِأَعْدَبِ الْأَلْفَاظِ وَأَحَقُّهَا عَلَى الْأَمْنَاعِ.
وَأَقْرَبُهَا إِلَى الْقُلُوبِ ثُمَّ ذَكَرْتُ لَكَ أَنَّ الْبَلَاغَةَ لَيْسَتْ مَقْصُورَةٌ
عَلَى أُمَّةٍ دُونَ أُمَّةٍ وَلَا عَلَى مَالِكٍ دُونَ سُوقَةٍ وَلَا عَلَى لِسَانٍ دُونَ

لِسَانٍ بَلِّ هِيَ مَقْسُومَةٌ عَلَى أَكْثَرِ الْأَلْسِنَةِ فَهُمْ فِيهَا مُشْتَرِكُونَ
وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِي كَلَامِ الْيُونَانِيَّةِ وَكَلَامِ الْعَجَمِ وَكَلَامِ الْهِنْدِ
وَعَرَبِهِمْ وَلَكِنَّهَا فِي الْعَرَبِ أَكْثَرُ لِكَثْرَةِ تَعَرُّفِهَا فِي النَّثْرِ وَالنَّظْمِ
وَالْحُطْبِ وَالْكِتَابِ وَالشَّجْعِ وَالْمَزْدَوِجِ وَالرَّجَزِ وَهُمْ أَيْضًا مُتَّفَاوِتُونَ
فِيهَا فَقَدْ يَكُونُ الْعَبْدُ بَالِغًا وَلَا يَكُونُ سَيِّدُهُ وَتَكُونُ الْأُمَّةُ
بَلِغَةً وَلَا تَكُونُ رَبَّتَهَا. فَالْبَلَاغَةُ قَدْ تَكُونُ فِي أَغْرَابِ الْبَادِيَةِ
دُونَ مُلُوكِهَا وَقَدْ يُحْسِنُهَا الضَّيُّ وَالْمَرَاةُ... قَالَ أَشْيَخُ أَبُو أَحْمَدَ :
وَمِنْ عَجِيبِ مَا فِيهِ وَبَعْدِ تَنَافِيهِ أَنْ يَأْتِيَ بَدْوِيٌّ أُمِّيٌّ حَافٌّ جَافٍ
فَيَسْتَدِيعُ بِفِكْرِهِ وَقَرِيحَتِهِ الْمَعْنَى الْبَدِيعَ وَالتَّشْبِيهَ الْمُجِيبَ وَالسُّوَالَ
الْطَافِيفَ وَالْمَدْحَ الشَّرِيفَ وَالْعَزَلَ الرَّقِيقَ وَالْهَجَاءَ الْمَوْجِعَ وَالذَّمَّ
الْمُفْلِقَ بِظَمِّ عَجِيبٍ وَقَوَافٍ مُنْتَظِمَةٍ وَأَوْزَانٍ تَامَةٍ وَأَقْسَامٍ مُعَدَّةٍ
وَأَنَاطٍ فَصِيحَةٍ عَذَابَةٍ يَشْتَهِي سَامِعُهَا أَنْ يَحْفَظَهَا ثُمَّ يَشْتَهِي أَنْ
يُحَادِثَ أَهْلَ الْمُرُوتِ بِهَا مُمْتَلَأًا أَوْ شَاكِرًا أَوْ عَاتِبًا أَوْ مُهَيِّئًا أَوْ مُهَزِّيًا
فَلَا يَزْدَادُ عَلَى الدَّهْرِ إِلَّا نَضَارَةً وَجَدَّةً وَيَكُونُ مَنْ خَلَا مِنْهَا
نَاقِصَ الْأَدَبِ وَالْمَعْرِفَةِ كَقَوْلِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ :

كَانَ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا لَدَى دُكْرِهَا الْعُنَابُ وَالْحَشَفُ الْبَالِي
وَقَقُولِ النَّائِفَةِ : فَأَيْتُكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي. وَقَقُولِ
الْحُلَاطِيَّةِ : لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ . ثُمَّ يَجْتَهِدُ الْعَارِفُ
الْمُصِيبُ وَالْعَالِمُ الْأَدِيبُ وَالرَّيِّضُ الْحَاقِيقُ أَنْ يُدْرِكَ شَأْنَهُ فَلَا
يُسْقُ غُبَارُهُ . قَالَ : سُئِلَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ عَنْ حَدِّ الْبَلَاغَةِ فَقَالَ :

التَّقَرُّبُ مِنْ مَعْنَى الْبُغْيَةِ وَالشَّبَاعُ مِنْ حَشْرِ الْكَلَامِ وَالِدَّلَالَةُ
بِقَلِيلٍ عَلَى كَثِيرٍ . قَالَ الشَّيْخُ : وَاسْتَكْثَرُ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ فِي الْبَلَاغَةِ أَنَّهَا
الِاخْتِصَارُ وَتَقْرِيبُ الْمَعَانِي بِالْأَلْفَاظِ الْقَصَارِ وَالِاخْتِصَارُ عَلَى
الِإِشَارَةِ إِلَى مَعَانِيهَا وَالِدَّلَالَةُ بِالْقَلِيلِ عَلَى الْكَثِيرِ . وَقَدْ سُئِلَ
بَعْضُهُمْ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ : لِحُجَّةٍ دَالَّةٍ . وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ أَكْثَرُهُمْ فِي
الْحَذْفِ وَالِاخْتِصَارِ وَكَذَلِكَ جَعَلَ أَمْرُ الْقَيْسِ إِحْضَارَ قَرَسِهِ وَسُرْعَةَ
حَاقِهِ لِلصَّيْدِ وَأَنَّ الْأَوَابِدَ لَا تَطْمَعُ فِي لُتْخَاصٍ مِنْهُ فَجَمَعَ هَذَا فِي
قَوْلِهِ : (قَيْدُ الْأَوَابِدِ) . وَكَذَلِكَ قَوْلُ زُهَيْرٍ : (إِنْ أَجْوَادَ عَلَى عِلَاتِهِ
هَرَمٌ) . فَقِي قَوْلِهِ (عَلَى عِلَاتِهِ) مَا يَدُوبُ عَنْ كُلِّ مَانِعٍ كَذَلِكَ قَوْلُ
الْأَعَشَى : فَهُمْ سَائِسُونَ وَالْمَنِيَّةُ تَنْطِقُ وَهَذَا يَكْثُرُ وَفِي مَا
أوردناه بِلَاغٍ وَهَذَا وَقَعَ جَعْفَرُ بْنُ نَحْيٍ إِلَى كِتَابِهِ لِيَكُنْ
كَلَامُكُمْ فِي كُتُبِكُمْ وَمِثْلَ التَّوْقِيعِ يَحْضُرُ بِذَلِكَ عَلَى غَايَةِ الْحَذْفِ
وَالِاخْتِصَارِ . وَهَذَا أَنَّ الْمَأْمُونِ أَمْرَ عَمْرٍو بْنُ مَسْعُودَةَ أَنْكَتَبَ
أَنْ يَكْتُبَ لِرَجُلٍ لَهُ بِهِ عِنَايَةٌ إِلَى بَعْضِ الْعَمَالِ بِقَضَاءِ حَقِّهِ وَأَنْ
يُخْتَصِرَ كِتَابَهُ مَا أَمَكْنَهُ حَتَّى تَكُونَ كِتَابَتُهُ فِي سَطْرٍ وَاحِدٍ بِلَا
زِيَادَةٍ فَكُتِبَ عَمْرٍو : كِتَابِي إِلَيْكَ كِتَابٌ وَاقٍ مِنْ كُتُبِ إِلَيْهِ
مَعْنِيُ يَمْنُ كُتِبَ لَهُ وَأَنْ يَضِيعَ بَيْنَ الثَّقَةِ وَالْعِنَايَةِ حَاقِلُهُ . وَمِنْ هَذَا
مَا كُتِبَ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ إِلَى الْحُجَّاجِ وَقَدْ تَلَاكَ
عَنْ يَمِينِهِ : أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَرَاكَ تُقَدِّمُ رِجْلًا وَتُؤَخِّرُ أُخْرَى فَإِذَا
آتَاكَ كِتَابِي فَأَعْتَمِدْ عَلَى آيِهِمَا ثِنْتَ وَالسَّلَامَ . وَسَادَ ذِكْرُ فِي هَذَا

الْمَوْضِعِ صَدْرًا مِنَ الْفُصُولِ الْمُخْتَارَةِ مِنْ غَيْرِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ . ثُمَّ
 أَذْكَرُ بَعْدَهُ صَدْرًا مِنَ الْفُصُولِ الْعَرَبِيَّةِ مِمَّا يَضَعُ الْمَذَاكِرَ وَيَبْعَثُ
 عَلَى النَّشَاطِ فَإِذَا قَرَأَهَا قَارِيءٌ دَلَّتْ عَلَى أَنْفُسِهَا فِي الْإِيحَازِ وَالْحَذَفِ
 وَاجْتِمَاعِ الْمَعَانِي الْكَثِيرَةِ بِالْأَلْفَاظِ الْقَلِيلَةِ . فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ سُقْرَاطَ :
 دَلَّ الْجِسْمُ عَلَى صَانِعِهِ . فَجَمَعَ بِثَلَاثِ لَفْظَاتٍ خِفَافٍ مَعَانِي كَثِيرَةً
 جَلِيلَةً الْقَدْرَ لِأَنَّ الْجِسْمَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَصْنَعْ نَفْسَهُ وَأَنَّ لَهُ صَانِعًا
 حَكِيمًا كَمَا يَدُلُّ الْبَاءُ عَلَى الْبَاقِي وَالْكِتَابُ عَلَى الْكَاتِبِ .
 فَانْظُرْ كَمْ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ مَا يُحْكَى عَنْ بَعْضِ مُلُوكِهِمْ أَنَّهُ سُئِلَ
 مَا الَّذِي يَدُلُّ عَلَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ وَثَبُتِ الْعِلْمُ بِالْغَيْبِ فَقَالَ : إِنْ
 إِسْكَلَ ظَاهِرٌ مِنْ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ عِلْمًا فَهُوَ يَعْرِفُهُ وَيَخُوطُهُ فَمَنْ كَانَ
 مُعْتَبِرًا بِالْجَلِيلِ مِنْ ذَلِكَ فَالْيَنْظُرِ إِلَى السَّمَاءِ فَيَعْلَمَ أَنَّ لَهَا بَارِنًا
 يُجْرِي فَلَكَمَا وَيُدَبِّرُ أَمْرَهَا . وَمَنْ أَعْتَبَرَ بِالصَّغِيرِ فَلْيَنْظُرِ إِلَى حَبَّةٍ
 أَخْرَجَهَا فَيَعْلَمَ أَنَّ لَهَا مَدَبِّرًا يُنْشِئُهَا وَيُرَكِّبُهَا وَيَقْدِرُ لَهَا أَقْوَاتًا مِنْ
 الْأَرْضِ وَالْمَاءِ وَيُوقِتُ لَهَا زَمَانًا لِهَشِيمِهَا . وَأَمْرُ النُّبُوَّةِ وَالْآيَاتِ وَمَا
 يَخْدُثُ فِي أَنْفُسِ النَّاسِ مِنْ حَيْثُ يَعْلَمُونَ ثُمَّ اجْتِمَاعُ الْعُلَمَاءِ
 وَالْجُهَالِ وَالْمُهْتَدِينَ وَالضَّالِّينَ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَعْظِيمِهِ وَاجْتِمَاعُ
 مَنْ شَكَّ فِي اللَّهِ وَكَذَّبَ بِهِ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يُخْلَعُوا أَنْفُسَهُمْ فَكُلُّ
 ذَلِكَ يَهْدِيكَ إِلَى اللَّهِ وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَنْشَأَ الْخَلْقَ وَدَبَّرَ هَذِهِ الْأُمُورَ .
 (قَالَ الشَّيْخُ) وَهَذَا الْكَلَامُ عَلَى طَوِيلٍ قَدْ انْشَظِمَ أَكْثَرُ مَعَانِيهِ فِي
 قَوْلِ سُقْرَاطَ : دَلَّ الْجِسْمُ عَلَى صَانِعِهِ . (وَقَالَ الْأُسْكَنْدَرُ) وَعَظَمْتَكَ

فِكْرَكَ وَارْشَادَكَ عَقْلَكَ حِينَ حَيَّرَكَ سَمْعَكَ وَغَشَّكَ مُحِبُّكَ وَإِنْ
الْأَنْسَانَ بِاخْتِلَافِ الْمَسْئُوعِ يَتَحَيَّرُ وَيَضِلُّ بِغَشِّ الْخُبْرَيْنِ وَيَسُومُهُمْ
فِي مَا يُخْبِرُونَ بِهِ فَيَسِيرُ لَهُ عَقْلُهُ الصَّوَابَ مِنَ الْخَطَا وَيُرْشِدُهُ إِلَى
الْحَقَائِقِ وَيُخْرِجُهُ مِنَ الْخَيْرَةِ. وَقَالَ مُطَلِبُ الْعِرَاقِيِّ لِلْإِسْكَنْدَرِ :
أَخْلَاؤُكَ تَجْعَلُ الْعَدُوَّ صَدِيقًا وَأَحْكَامُكَ تَجْعَلُ الصَّدِيقَ عَدُوًّا وَيَشْهَدُ
لَكَ عَدَمُ مِثْلِكَ فِي مَا يَكُونُ. (قَالَ الشَّيْخُ) فَأَنْظِرِ الْآنَ كَم
مَعْنَى حَسَنٍ تَحْتَ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ الْقَلِيلَةِ يَعْنِي أَنَّ حُسْنَ خُلُقِهِ يَرُدُّ عَدُوَّهُ
إِلَى صَدَاقَتِهِ وَأَنَّ عَدْلَ حُكْمِهِ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ عَدُوٍّ وَصَدِيقٍ وَأَنَّ
عَدَمَ مِثْلِهِ فِي مَاضِي الدُّهُورِ قَدْ شَهِدَ بِأَنَّهُ مِثْلُهُ لَا يَكُونُ فِي
مُسْتَقْبَلِ الْعُصُورِ. وَهَذَا كَلَامٌ مَنَقُولٌ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ وَلَعَلَّهُ بِإِغْتِه كَانَ
أَفْضَحَ وَأَحْسَنَ. وَلَمَّا سَأَرَ أَبُو مُسْلِمٍ بَعْضَ الْفَرَسِ فِي أَمْرِهِ
قَالَ لَهُ : قُلْ مَا يَقْبَلُ وَخُذْ مَا يَسْهَلُ وَأَعْمَلْ مَا يَجْمَلُ. فَجَمَعَ لَهُ
بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ الثَّلَاثِ أَكْثَرَ مَعَانِي السِّيَاسَةِ. وَفِي مَا يُرْوَى أَنَّ
بَعْضَهُمْ رَأَى شَابًا لَا أَدَبَ لَهُ وَعَلَيْهِ خَاتَمٌ ذَهَبٌ فَقَالَ : جَمَارٌ عَلَيْهِ
كِبَامٌ ذَهَبٍ. وَنَظَرَ إِلَى شَابٍ آخَرَ قَامِدًا عَلَى حَجَرٍ فَقَالَ : هَذَا حَجَرٌ
قَاعِدٌ عَلَى حَجَرٍ. وَقَالَ أَرِسْطَاطَالِسُ : الْحَاجَةُ إِلَى الْعَقْلِ أَقْبَعُ مِنَ
الْحَاجَةِ إِلَى الْإِلَالِ. وَقَالَ : غَيْرُ مُحِبِّ الشَّرَفِ هُوَ الَّذِي يُشِيبُ نَفْسَهُ
بِالنَّظَرِ فِي الْعِلْمِ. وَقَالَ سُقْرَاطُ : اللَّذَّةُ خِنَاقٌ وَنُ عَسَلٍ. وَرَأَى
سُقْرَاطُ طَبِيبًا جَاوِلًا فَقَالَ : هَذَا مُسْتَحِثٌّ. يَعْنِي يُعْجَلُ بِمَنْ يُعَالَجُ إِلَى
الْمَوْتِ. وَقِيلَ لِبَعْضِ تَلَامِيذِهِ : قَدْ مَاتَ أَسْتَاذُكَ. فَقَالَ : أَلَوْحٌ لِي

لَقَدْ ضَاعَ مِسْنُ عَقْلِي

(قَالَ الشَّيْخُ) وَهَذَا أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُنْخَصَى فِي كَلَامِ الْعَجَمِ
وَلَا يَسِيماً فِي عُلَمَائِهِمْ وَوُزَرَائِهِمْ الَّذِينَ أَخْرَجُوا كَلَامَهُمْ مُخْرَجَ التَّوْقِيعِ .
فَمِنْ ذَلِكَ مَا يُحْكِي أَنَّ أَوِشِرُونَ وَقَعَ فِي وَلَايَةِ الْخَرَجِ : الْخَرَجُ
عَمُودُ الْمَلِكِ وَمَا اسْتَنْزَرَ بِمِثْلِ الْجَوْرِ وَلَا اسْتَغْفَرَ بِمِثْلِ الْعَدْلِ . وَوَقَعَ
أَيْضاً فِي رُقْعَةٍ رَجُلٍ وَكَيْلٍ لَهُ أَمْرُهُ بِنَاءِ قَصْرِ مُخَاخَرَةٍ : أَنْتَ مَا شِ
وَالْأَيَّامُ رَاكِضَةٌ وَالْعَمَلُ بَاعٌ وَالْعِنَايَةُ قُتْرٌ . (قَالَ الشَّيْخُ) وَأَيَّاتُ
الشِّعْرِ كَثُرَتْ أَمْثَالُ الْعَرَبِ وَزَادَتْ عَلَى أَمْثَالِ سَائِرِ الْأُمَمِ وَإِنْ
كَانَ فِي غَيْرِ الْعَرَبِ الشِّعْرُ أَيْضاً عَلَى قَدِيمِ الْوَقْتِ فَلِلْفَرَسِ أَشْعَارُ
لَا تُضَبَطُ كَثَرَةٌ وَلِلْيُونَانِيِّينَ أَشْعَارُ دُونَ الْفَرَسِ . وَكَانَ أَفْلَاطُونُ
بَعْضَ مَنْ يَقُولُ الشِّعْرَ وَيَقُولُ فِي ذِمِّهِ : إِنَّ الشَّاعِرَ مُصَوِّرٌ لِلشَّمْعِ
وَالْمُرُوقِ مُصَوِّرٌ لِلْبَصَرِ . فَأَمَّا الْفَرَسُ فَفِي مَثُورِ أَخْبَارِهِمْ وَذِكْرِ
حُرُوبِهِمْ أَشْعَارُ كَانَتْ تُدَوَّنُ وَتُخْلَدُ فِي الْخَزَائِنِ الَّتِي كَانَتْ بُيُوتُ
الْحِكْمَةِ ثُمَّ دَرَسَ أَكْثَرُهَا مَعَ دَرَسِ كَلَامِهِمْ وَبَقِيَ مِنْ أَشْعَارِ
الْعَرَبِ السَّوَابِرِ مِنَ الْأَمْثَالِ تُجْرِي عَلَى أَفْوَاهِ أَهْلِ زَمَانِهِمْ . وَحَكَى
أَبُو حَاتِمٍ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ أَنَّهُ أَوْصَلَ إِلَى أَحْمَدَ بْنِ سَعِيدِ بْنِ سَهْلٍ
أَبَاهِلِيٍّ أَرْبَعَةَ عَشَرَ أَلْفَ مِثَالٍ عَرَبِيٍّ بَعْضُهَا فِي الْجُلُودِ وَبَعْضُهَا فِي
الْقُطْنِيِّ وَبَعْضُهَا فِي الْهَرَطَاسِ فَتَفَرَّدَتْ الْعَرَبُ مِنْ بَيْنِ الْأُمَمِ
بِكَثَرَةِ الْأَمْثَالِ . . . وَمِنْ تَوَقِيعَاتِ الْعَجَمِ تَوَقِيعُ أَرْدَشِيرِ بْنِ بَابِكَ
وَكَانَ أَهْلُ زَمَانِهِ قَحِطُوا قَرَفَعُوا إِلَيْهِ قِصَّةً يَشْكُونَ ذَلِكَ فَوَقَعَ

إِلَى صَاحِبِ بَيْتِ أَمَالٍ : إِذَا قُحِطَ الْمَطَرُ جَادَتْ سَحَابُ الْمَلِكِ . فَفَرَّقَ
 فِيهِمْ مَا قَاتَهُمْ وَمَا نَهُمْ . وَشَكِي مِثْلُ ذَلِكَ إِلَى قُبَادَ بْنِ كِسْرَى
 فَوَقَّعَ لِيَكُنْ بِمَا أَلْبَدُ لِلرَّعِيَّةِ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ قَارِي وَرَائَاهُمْ فِي
 نَفْعِ ذَلِكَ مُسْتَيُونُونَ . وَمَدَحَ رَجُلٌ مِنْ الْخَاصَّةِ كِسْرَى بْنَ قُبَادَ
 بِمَدْحٍ أَطْنَبَ فِيهِ وَأَسْهَبَ وَذَهَبَ كُلُّ مَذْهَبٍ وَكَانَ الْمَدْحُ فِي
 رُقْعَةٍ . فَوَقَّعَ فِيهَا كِسْرَى إِلَى لِلْمَدْحِ مُسْتَضْفِرٌ لِعَلِّي بِأَشْيَاءَ قَدْ
 مُدِحَتْ وَكَانَتْ بَانَ تُذَمُّ مَحْقُوقَةٌ . وَوَقَّعَ أَبُو شُرَوَّانُ فِي رُقْعَةٍ
 مُسْتَضْمِحٍ : ثَمَرَاتُ النَّصَائِحِ شُكْرُ الْجَوَارِحِ وَخَرَجَ التَّوْقِيعُ إِلَى وَزِيرٍ
 لَهُ أَمَرَ لَهُ بِجَائِزَةٍ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ : قَدْ جَمَعْنَا إِلَى شُكْرِ اللِّسَانِ
 شُكْرَ أَلْيَدٍ وَهُوَ الْبَذَلُ . وَوَقَّعَ كِسْرَى فِي رُقْعَةٍ رَجُلٍ سَأَلَهُ فِيهَا
 الثُّقْلَةَ عَنْ صِنَاعَتِهِ إِلَى صِنَاعَةٍ غَيْرِهَا وَكَانَتْ صِنَاعَتُهُ خَسِيسَةً فَأَخْتَارَ
 صِنَاعَةً رَفِيعَةً فَوَقَّعَ فِي رُقْعَتِهِ : أَنَا حَامِلٌ لِلرَّعِيَّةِ عَلَى لُزُومٍ مَثَرَاتِهِمْ
 وَصَنَائِعِهِمْ وَلِنَفْسِي عَلَى مَا يُحْمَلُ عَلَى اللُّزُومِ لَهَا

وَمِنْ حَدِّ الْبَلَاغَةِ جَمْعُ الْمَعَانِي الْكَثِيرَةِ فِي الْأَلْفَاظِ الْيَسِيرَةِ
 فَقَدْ سُلِّ خَلْفُ الْأَحْمَرِ فَقِيلَ لَهُ : مَا لَنَا نَرَى فِي الْكَلَامِ الْقَلِيلِ عِدَّةَ
 مَعَانٍ . فَقَالَ : إِنَّ كَلَامَ الْعَرَبِ أَوْعِيَةٌ وَالْمَعَانِي أَمْتَعَةٌ فَرُبَّمَا
 جُعِلَتْ ضُرُوبٌ مِنَ الْأَمْتَعَةِ فِي وَعَاءٍ وَاحِدٍ . . . وَحُكِيَ عَنْ جَعْفَرِ
 ابْنِ يَحْيَى وَكَانَ قَرِيبَ دَهْرِهِ بَلَاغَةً فِي الْمَكَاتِبَةِ وَجُودَةً لِسَانٍ فِي
 الْحِطَابَةِ أَنَّهُ قَالَ : إِذَا كَانَ الْإِيحَاذُ كَافِيًا كَانَ التَّطْوِيلُ عِيًّا وَإِنْ كَانَ
 التَّطْوِيلُ وَاجِبًا كَانَ التَّقْصِيرُ عَجْزًا . وَحُكِيَ الْمَفْضَلُ قَالَ : قُلْتُ

لَا عَرَابِي: مَا الْبَلَاغَةُ. فَقَالَ: أَلَا يَجَازُ مِنْ غَيْرِ عَجْزٍ وَالْإِطَابُ فِي غَيْرِ
خَطَلٍ. وَوَصَفَ الْجَاهِظُ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ فَقَالَ: كَانَ لَا يَتَوَقَّفُ وَلَا
يَسْتَدْعِي مَعْنَى مِنْ بَعْدِهِ. قَالُوا: وَالْبَلِيغُ الْكَامِلُ هُوَ الَّذِي تَكُونُ
الْأَلْفَاظُ عِنْدَهُ عَزِيزَةً وَالْمَعَانِي فِي نَفْسِهِ جَمَّةً كَثِيرَةً. وَقَالُوا:
وَمَحْصُورُ الْبَلَاغَةِ أَنَّ لَهَا ثَلَاثَ حَالَاتٍ: حَالًا يَحْتَاجُ إِلَى النَّظَرِ فِي
الْمَعَانِي مِنْ أَجْلِهَا. وَحَالًا يَحْتَاجُ إِلَى النَّظَرِ فِي الْأَلْفَاظِ. وَحَالًا مُرَكَّبَةً
مِنْ الْأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي وَهِيَ ذَاتُ الْبَلَاغَةِ الَّتِي تَخْتَصُّ بِأَسْمِهَا.
وَالْبَلَاغَةُ ثَلَاثَةٌ مَذَاهِبٌ تُقْصَدُ فِي اسْتِعْمَالِهَا. أَحَدُهَا الْمَسَاوَاةُ وَهِيَ
أَنْ يَكُونَ اللَّفْظُ كَالْقَالِبِ لِلْمَعْنَى لَا يَفْضُلُ عَنْهُ وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُ.
وَالثَّانِي الْإِشَارَةُ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ اللَّفْظُ مُشَارًا بِهِ إِلَى الْمَعْنَى بِالنَّحْوِ
الدَّالَّةِ. وَالثَّالِثُ التَّبْدِيلُ وَهُوَ إِعَادَةُ الْأَلْفَاظِ الْمُرَادِفَةِ عَلَى الْمَعْنَى
الْوَاحِدِ بَعِيْهِ حَتَّى يَظْهَرَ لِمَنْ لَمْ يَفْهَمْهُ وَيَتَوَكَّدَ عِنْدَ مَنْ فَهِمَهُ.
وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَذَاهِبِ مَوْطِنٌ يَلِيْقُ بِهِ وَوَقْتُ لَا يَضِلُّ
فِيهِ غَيْرُهُ وَسَادُّ **رُ** هَهُمَا صَدَدًا مِنْ الْفُصُولِ الْقِصَارِ مِنْ كَلَامِ
الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ يَمَّا يَتَضَمَّنُ الْفِقْرَ الْخُتْمَارَةَ وَالْمَعَانِي الْجَمْعُوعَةَ بِاللَّفْظِ
فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: قِيَمَةُ كُلِّ أَمْرٍ مَا يُحْسِنُهُ. وَكَقَوْلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ سِتَّ كَلِمَاتٍ مَا سَبَقَهُ إِلَيْهَا أَحَدٌ نُوزِنَ كُلُّ
كَلِمَةٍ مِنْهَا بِأَلْفِ كَلِمَةٍ وَرَوَاهَا عَنْهُ **كثير** مِنْ أَصْحَابِهِ وَ مِنْ
الْأَدْبَاءِ وَهِيَ: الْأُولَى قَوْلُهُ: قِيَمَةُ كُلِّ أَمْرٍ مَا يُحْسِنُهُ. الثَّانِيَةُ:
النَّاسُ أَعْدَاءُ لِمَا جَهِلُوا. الثَّالِثَةُ: لِسَانُكَ يَقْتَضِيكَ مَا عَوَّدَتْهُ.

الرَّابِعَةُ : رَجِمَ اللَّهُ أَمْرًا عَرَفَ قَدْرَهُ . الْخَامِسَةُ : لَا رَأْيَ لِمَنْ لَا
يُطَاعُ . السَّادِسَةُ : الْمَرْءُ مَحْبُوبٌ تَحْتَ لِسَانِهِ . وَهِيَ قَوْلُهُمُ الشِّعْرُ مِيزَانُ
الْقَوْمِ وَالْعَرُوضُ مِيزَانُ الشِّعْرِ . وَقَوْلُ عُمَرَ : هَاجِرُوا وَلَا تَهْجِرُوا
وَالسَّعِيدُ مَنْ وَعِظَ بِنَافِثِهِ . وَقَوْلُهُمُ : السَّعِيدُ مَنْ كَفِيَ . وَقَوْلُهُمُ :
إِيَّاكَ وَمَا تَعْتَذِرُ مِنْهُ . وَقَوْلُهُمُ : رَبِّ سَاعٍ لِقَاعِدٍ . رَبِّ مَلُومٍ
غَيْرُ مُلِيمٍ . رَبِّمَا قَتَلَ الْبَلِيعَ لِسَانُهُ . الْعُيُونُ عُيُونُ الْقُلُوبِ . الْقُلُوبُ
أَبْصَرُ مِنَ الْعُيُونِ . مَنْ ضَاقَ قَلْبُهُ اتَّسَعَ لِسَانُهُ . وَقَوْلُ الْأَعْرَابِيِّ
وَقَدْ سَأَلَهُ بَعْضُهُمْ عَنْ حُضْرِ قَرَسِهِ فَقَالَ : يُخْضِرُ مَا وَجَدَ أَرْضًا .
وَقَالَ آخَرُ : يَسْبِقُ الطَّرْفَ وَيَسْتَعْرِقُ الْوَضْفَ . عُوجُ اللَّبْكَانِ طَوْعُ
الْعَنَانِ كَأَنَّهُ مَوْجٌ يَمُورُ أَوْ سَيْلٌ فِي حُدُودٍ . وَقَوْلُهُمُ : الْفِكْرَةُ مَعَ
الْعَمَلِ . وَقِيلَ لِأَعْرَابِيِّ إِنَّكَ لَتُحْسِنُ الْكُدْيَةَ . فَقَالَ : ذَاكَ عُيُونُ
نِعْمَةِ اللَّهِ عِنْدِي . وَقَوْلُهُمُ : حَسْبُكَ مِنْ شَرِّ أَسْتِمَاعِهِ . دَلَّ الشَّرُّ عَلَى
نَفْسِهِ . الْبَادِيُ أَظْلَمُ . حِفْظُ الْمَوْجُودِ آيَسَرُ مِنْ طَلَبِ الْمَفْقُودِ .
مَنْ عَزَّ بَزٌّ . سَرَّكَ مِنْ دَمِكَ غَمٌّ سَالِمٌ . سُنِّلَ رَجُلٌ رَكِبَ الْبَحْرَ
عَنْ أَنْجَبَ مَا رَأَى فَقَالَ : سَلَامَتِي . الْمَلَقُ شُكْرُ الضَّعِيفِ . الصَّدِيقُ
يَصْدُقُ وَالْعَدُوُّ يَتَلَقَّى . اقْضِ دِيُونَ الْإِحْسَانِ إِلَيْكَ بِاللِّسَانِ قَبْلَ
فُقْدِ الْإِمْكَانِ . مَنْ وَاسَكَكَ فِي الرُّخَاءِ خَذَاكَ فِي الْبَلَاءِ . عَجَبًا لِلْخَيْرِ
الْمَدُوحِ الْمَتْرُوكِ وَالشَّرِّ الْمَذْمُومِ الْمَفْعُولِ . مَنْ نَمَّ إِلَيْكَ نَمَّ عَلَيْكَ
مَنْ آسَاءَ اسْتَوْحَشَ . سَاعَاتُ اللَّذَّةِ هِيَ سَاعَاتُ الْغَفْلَةِ . (قَالَ
الْشَّيْخُ) هَذَا مِثْلُ قَوْلِ سُقْرَاطَ اللَّذَّةُ خِنَاقٌ مِنْ عَسَلٍ . عِنْدَ صَفْوِ

الْعَاشِ يَكْدُرُ. الْمُرِيبُ مُخِيفٌ. الْحَبُوبُ مَذْكُورٌ. مَنْ لَكَ بِاخِيكَ
سُكْمٌ. صَدِيقُ الرَّجُلِ عَقْلُهُ وَعَدُوُّهُ جَهْلُهُ. (قَالَ الشَّيْخُ) وَوَيْلٌ هَذَا قَوْلُ
أَرِسْطَاطَالِسَ فِي مَا يَرُدُّ أَفْلَاطُونُ : إِنْ كَانَ أَفْلَاطُونُ لَنَا صَدِيقًا
فَأَلْحَقْتُ أَصَدَقُ لَنَا مِنْهُ

وَمِنْ الْفُضُولِ الْكِتَابِيَّةِ مَا كَتَبَ بَعْضُهُمْ : قَلْبِي نَحْيٌ ذِكْرِكَ. وَلِسَانِي
خَادِمٌ شُكْرِي وَكَتَبَ آخَرُ : فَلَانٌ أَذَلُّ مِنْ شَاهِدٍ زُورٍ عِنْدَ مَنْ شَهِدَ
لَهُ. وَقَالَ آخَرُ : الْأَسْتِطَاةُ لِسَانُ الْجَهَالَةِ. وَكَتَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى عَامِلٍ :
أَعْلَمْ أَنَّ النَّظَرَ إِذَا أَخْلَفَ لَكَ أَخْلَفَ وَنَسَكَ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي
طَالِبٍ وَقَدْ كَانَ جَرَى ذِكْرُ الْبَلَاغَةِ وَإِنَّ بَعْضَ وَلَدِهِ يَلِيغُ : إِنِّي
لَأَكْرَهُ أَنْ يُطَوَّلَ لِسَانُهُ. وَقَالَ آخَرُ : فَضْلُ الْفِعَالِ عَلَى الْمَقَالِ مَكْرُوهٌ
وَفَضْلُ الْمَقَالِ عَلَى الْفِعَالِ خَدِيعَةٌ. وَقَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ تَرَكَ الشُّكْرَ
كَفَرُ الْبَغْمَةِ. وَقَالَ آخَرُ : الشُّكْرُ نَسِيمُ الْبَغْمَةِ. الْخَيْبَةُ خَيْبَةٌ وَالْخِيَاءُ
جِرْمَانٌ. الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ. وَقَالَ إِسْحَاقُ يَوْمًا لِلْعَبَّاسِ بْنِ
الْحَسَنِ إِنِّي لِأُجِيبُكَ. فَقَالَ : رَأَيْتُ ذَلِكَ مَعِيَ. قَرَأْتُ فِي فَضْلِ
لِسَعِيدِ بْنِ حَمِيدٍ : نَحْنُ فِي زَمَانٍ الْمَعْرُوفِ فِيهِ زَلَلٌ وَالصَّوَابُ فِيهِ
خَطَلٌ وَالْإِنْعَامُ مَثَلٌ. وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ : قَدْ رَخَّصَتِ الضَّرُورَةُ
فِي الْإِلْحَاحِ. أَرْجُو أَنْ تُحْسِنَ النَّظَرَ كَمَا أَحْسَنْتَ الْإِنْتِظَارَ. وَقَالَ
أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى : لِسَانُ الْحَالِ أَفْقَحُ مِنْ لِسَانِ الشُّكْوَى. وَكَتَبَ
آخَرُ : أَشْكُرُ لِمَنْ أَنْعَمَ عَلَيْكَ وَأَنْعَمَ عَلَيَّ مِنْ شُكْرِكَ. وَكَتَبَ
آخَرُ : إِذَا كُنْتَ لَا تُؤْتِي مِنْ ضَعْفٍ سَبَبٍ فَكَيْفَ أَخَافُ مِنْكَ

خَيْبَةً أَمَلٍ أَوْ عُدُولًا عَنْ اغْتِفَارِ ذَلِّ أَوْ قُتُورًا عَنْ لَمْ شَعَثٍ وَإِصْلَاحِ
 خَلَلٍ . كَتَبَ آخَرُ : أَنَا أَسْأَلُ الَّذِي رَحِمَ الْعِبَادَ بِكَ عَلَى حَسَبِ
 أَفْتِقَارِهِمْ إِلَيْكَ أَنْ يَرْحَمَهُمْ وَنَ بَعْدَكَ فَسَلَا يُعِيدُهُمْ إِلَى الْمَكَارِهِ
 الَّتِي اسْتَنْقَذَهُمْ مِنْهَا يَدُكَ . وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ وَهْبٍ لِلْمَأْمُونِ فِي
 رَجُلٍ مُذْنِبٍ : هَبْهُ لِي . فَقَالَ : كَيْفَ لَا أَهْبُهُ لِمَنْ بِهِ قَدِرَتْ عَلَيْهِ .
 وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ طَاهِرٍ : الْقَلَمُ يُحَرِّكُ وَشَيَ الْمَلَكَةِ . وَنَظَرَ إِلَى
 خَطِّ بَعْضِ كُتَّابِهِ فَلَمْ يَرْضَهُ فَقَالَ : نَحُوا هَذَا عَنْ مَرْتَبَةِ الدِّيَوَانِ
 فَإِنَّهُ عَلِيلُ الْخَطِّ وَلَا نَأْمَنُ أَنْ يُعْدِيَ غَيْرَهُ . وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ
 الْعَبَّاسِ الصَّوَيْيُّ : الْخَطُّ لِسَانُ الْيَدِ . وَقَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ : مَطْلُ
 الْغَرِيمِ أَحْسَنُ مِنْ مَطْلِ الْكَرِيمِ . وَكَانَ يَحْيَى يَقُولُ : مَنْ حُقِّقَ
 الْتَبَلُّ أَنْ تَتَوَاضَعَ لِمَنْ هُوَ دُونَكَ وَتَتَصَدَّقَ عَلَى ضَعِيفِكَ وَتُنْصِفَ
 مَنْ هُوَ مِثْلَكَ وَتَتَبَلَّلَ عَلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكَ



الفصل التاسع

في اجناس الخطابة الثلاثة

البحث الاول

في تقسيم الخطب الى ثلاثة اجناس

(من كتاب تعريب حطاة ارسطاطليس لابن رشد)

(راجع الصفحة ١٣٤ من الجزء الثاني من علم الادب)

قَدْ يُوجَدُ أَجْنَاسُ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَنْظُرُ فِيهَا الْخُطَابَةُ مِنَ الْأُمُورِ
الْإِرَادِيَّةِ ثَلَاثَةٌ كَمَا يُوجَدُ عَدَدُ أَصْنَافِ السَّامِعِينَ الْقَوْلِ الْخُطْبِيِّ
ثَلَاثَةٌ. وَذَلِكَ أَنَّ الْكَلَامَ مُرَكَّبٌ مِنْ ثَلَاثَةٍ مِنْ قَائِلٍ وَهُوَ الْخُطِيبُ
وَمِنْ مَقُولٍ فِيهِ وَهُوَ الَّذِي يُعْمَلُ فِيهِ الْقَوْلُ وَمِنْ الَّذِينَ يُوجَّهُ
إِلَيْهِمُ الْقَوْلُ وَهُمْ السَّامِعُونَ. وَالْغَايَةُ بِالْقَوْلِ إِنَّمَا هِيَ مُتَوَجِّهَةٌ نَحْوَ
هُوَ لِأَنَّ السَّامِعِينَ. وَالسَّامِعُونَ لَا مَحَاةَ إِمَّا مُنَاطِرٌ وَإِمَّا حَاكِمٌ وَإِمَّا
الْمَقْصُودُ إِقْنَاءُهُ. وَالْحَاكِمُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ حَاكِمًا فِي الْأُمُورِ الْمُسْتَقْبَلَةِ
وَهِيَ النَّافِعَةُ وَالضَّارَّةُ. وَإِمَّا فِي الْأُمُورِ الَّتِي قَدْ كَانَتْ. وَالْأُمُورُ
الَّتِي قَدْ كَانَتْ مِنْهَا مَا تُوجَدُ فِي الْإِنْسَانِ بِاخْتِيَارِهِ وَتِلْكَ هِيَ
الْفَضَائِلُ وَالرَّذَائِلُ وَمِنْهَا مَا تُوجَدُ فِي الْإِنْسَانِ بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِ بَلْ مِنْ
إِنْسَانٍ آخَرَ وَهُوَ الْخُورُ وَالْعَدْلُ. وَالْحَاكِمُ فِي الْأُمُورِ الْمُسْتَقْبَلَةِ هُوَ

الرئيس وأحكام في الأمور الكائنة هو الذي ينصبه الرئيس (مثل
القاضي في مدنتنا هذه وهي مدن الإسلام). وأما المناظر فلأنما
يُنَظَرُ بقوة الملكة الخطية فإن اجناس القول الخطي ثلاثة
مشوري ومشاجري وتثبيتي

فأما الضير المشوري فإنه إذن ومنه منع وذلك أن كل من
يُشير إما على واحد من أهل المدينة بما يخصه أو على جميع أهل
المدينة بما يعنهم فإنما يُشير أبداً بقول هو إذن أو منع. وأما
القول المشاجري فهو أيضاً صنفان شكاية وتصل من الشكاية.
وأما القول التثبيتي فهو أيضاً صنفان إما مدح وإما ذم والزمان
الخاص بالآشياء التي يُشار بها هو الزمان المستقبل لأنه إنما يُشير
إنسان على إنسان بآشياء معدومة. والزمان الخاص بالآشياء
المشاجرية هو الزمان الماضي لأنه إنما يُشكى من الأشياء التي
قد وقعت وإن تُشكى من أمور تتوقع من المشتكى به فإنما
تلك شكاية على طريق الإشارة بالنافع في ذلك. وكذلك قد
يعرض أن تكون المشورة في الأشياء التي قد كانت لكن من
جهة ما يتوقع منها فتى كانت الشكوى في شيء واحد لا من
أجل غيره فإنما تكون أبداً في الشيء الذي قد وقع. وأما
الآشياء التثبتيّة فإن أولى الأزمنة بها هو الزمان الحاضر أعني
القريب من الآن فإن الناس إنما يمدحون ويذمون بالآشياء
الموجودة في حين المدح وحين الذم في الممدوح والمذموم وربما

مُدِحَ بَعْضُهُمْ عَلَى طَرِيقِ الْحِيلَةِ فِي اسْتِكْثَارِ فُضَائِلِ الْمَدْحِ
وَمَذَامِهِ بِالْأَشْيَاءِ الَّتِي يُتَوَقَّعُ حَدُوثُهَا مِنْهُ أَوْ يُرَجَى حَدُوثُهَا مِنْهُ
فَيَخْطِطُونَ مَعَ الْمَدْحِ الْإِشَارَةَ عَلَى الْمَدْحِ بِفِعْلِ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ

البحث الثاني

في غايات الاجناس الخطبية الثلاثة وانواع مقدماتها

(من الكتاب نفسه)

وَأَمَّا الْغَايَاتُ مِنْ هَذِهِ الْأَقَاوِيلِ فَهِيَ ثَلَاثُ غَايَاتٍ لِهَذِهِ
الثَّلَاثَةِ الْأَقَاوِيلِ أَمَّا الْقَوْلُ الْمُسِيرُ فَعَايَتُهُ النَّافِعُ وَالضَّارُّ. فَإِنَّ الَّذِي
يُسِيرُ فَإِنَّمَا يَأْذَنُ فِي النَّافِعِ أَوْ فِي الَّذِي هُوَ أَنْفَعُ وَيَنْتَعِ مِنْ الضَّارِّ
أَوْ مِنَ الَّذِي هُوَ أَضَرُّ. وَأَمَّا الْقَوْلُ الْمَشَاجِرِيُّ فَعَايَتُهُ الْعَدْلُ وَالْجَوْرُ.
وَأَمَّا الْقَوْلُ الْمُنْبِتُ فَعَايَتُهُ الْقُضِيَّةُ وَالرَّذِيَّةُ وَإِنْ اسْتَعْمَلَ وَاحِدٌ مِنْ
هَذِهِ غَايَةٍ صَاحِبِهِ فَلَيْسَ عَلَى الْقَصْدِ الْأَوَّلِ كُلٌّ مِنْ أَجْلِ الْغَايَةِ
الْخَاصَّةِ بِهِ. مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ الْمُسِيرَ قَدْ يُنْفَعُ أَنَّ هَذَا عَدْلٌ أَوْ جَوْرٌ
لِيُسِيرَ بِالْإِذْنِ فِيمَا يَكُونُ عَنِ الْعَدْلِ مِنَ الْمُنْفَعَةِ وَبِالْتَمَعِ عَنْ مَا
يَكُونُ عَلَى طَرِيقِ الْجَوْرِ لِمَا فِي الْجَوْرِ مِنَ الْمَضَرَّةِ الَّتِي تُتَوَقَّعُ.
وَكَذَلِكَ قَدْ اسْتَعْمَلَ الْقُضِيَّةُ وَالرَّذِيَّةُ أَعْنِي مِنْ جِهَةٍ مَا يُلْحَقُهَا مِنَ
النَّافِعِ وَالضَّارِّ. وَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْغَايَاتُ الثَّلَاثُ تُخَصُّ كُلُّ وَاحِدَةٍ
مِنْهَا وَاحِدًا مِنْ هَذِهِ الْأَقَاوِيلِ أَعْنِي مِنْ جِهَةٍ مَا هِيَ غَايَاتٌ عَلَى
الْقَصْدِ الْأَوَّلِ فَأُلْحَدُودُ الْمُسِيرَةَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقَاوِيلِ

الثلاثة إنما تكون الفصول المغطاة فيها من قبل هذه الغايات .
وقد يدل على أن هذه الغايات هي خاصة بواحد واحد من
هذه الأجناس الثلاثة من الأقاويل أنه إذا أقنع كل واحد منها
في غاية المجلس الآخر ربما لم يكن للمناظر في ذلك معاصرة
ومشاكسة بل كثيرا ما يسلم له ذلك ولكن لا يسلم له غاية
ذلك القول التي تحضه . مثال ذلك أن المدعي إذا ادعى أن فلانا
أخذ مال من فلان وذلك لا شك ضرر به فربما يسلم له الخصم
أن ذلك كان ولكن لا يسلم له أن أخذه المال منه كان على جهة
أجور . وكذلك المشير قد يسلم أن الفعل المسمى جورا ولا
يسلم أنه ضار ولما كان تداخل هذه الغايات يعرض للمشيرين
كثيرا أن يشيروا بأشياء ضارة على جهة المغالطة من قبل أنها
عدل أو أنها ليست بجور ولكن لا يقرن بأنها ضارة بل ربما
احتالوا في دعوى وجود النفع فيها . مثال ذلك أنهم قد يشيرون
بالعبر على الموت في الحرب والآن يقرن لكون الفرار جورا في
الشرعة . وكذلك متى قهر قوم قوما وأستولوا عليهم ربما أشار
المشير عليهم ألا يتعضوا لذلك القهر لأنه لم يكن جورا وربما أوثم
فيه أنه غير ضار لهم . وكذلك المادح قد يسلم أن الشيء ضار ولكن
يدعي أنه فضيلة مثل من يخلص إنسانا من الموت ويعلم أنه
يؤت بخليصه ذلك الإنسان . فالموت يسلم الخصم أنه ضار
ولكن يرى أنه فضيلة . وكذلك ربما مدح بالذيلة على جهة

الْمَغَالِطَةُ مِنْ جِهَةٍ أَنَّهَا نَافِعَةٌ لَكِنْ لَا يُقَرُّ أَنَّهَا رَاضِيَةٌ بَلْ يَدَّعِي
 فِيهَا أَنَّهَا قَاضِيَةٌ مَا لَمْ يَكُنِ النِّفْعُ الَّذِي فِيهَا قَازِنٌ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ
 هَذِهِ الْخُطَابَاتِ قَدْ تَسْتَعِيلُ غَايَةَ صَاحِبَتِهَا بِالْعَرَضِ وَلِذَلِكَ لَا
 تُشَاكِسُ فِيهَا وَتُشَاكِسُ وَلَا بُدَّ فِي غَايَتِهَا. وَإِذَا اسْتَعْمَلْتَ الْوَاحِدَةَ
 غَايَةَ صَاحِبَتِهَا فَعَلَى جِهَةِ الْمَغَالِطَةِ . (قَالَ) وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الصِّنَاعَةُ
 قِيَاسِيَّةً فَعُلُومٌ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ فِيهَا مُقَدِّمَاتٌ وَمُقَدَّمَاتُهَا هِيَ
 الثَّلَاثُ الَّتِي وَصَفْنَا: التَّحْمُودَاتُ وَالذَّلَالَاتُ وَالْعَلَامَاتُ. وَذَلِكَ أَنَّ
 الْقِيَاسَ الْمَطْلُوقَ يَكُونُ مِنَ الْمُقَدِّمَاتِ الْمَطْلُوقَةِ وَالْقِيَاسَ الْخَاصَّ
 بِصِنَاعَةٍ صِنَاعَةً يَكُونُ مِنْ مُقَدِّمَاتِ خَاصَّةٍ. وَلِذَلِكَ كَانَ الضَّرِيرُ
 قِيَاسًا يَأْتِلِفُ مِنْ هَذِهِ الْمُقَدِّمَاتِ الَّتِي ذَكَرْنَا وَلِأَنَّ الْأَمْرَ الَّذِي
 يُشِيرُ بِهِ يَحْتَاجُ أَنْ يُعْرَفَ مِنْ أَمْرِهِ أَوَّلًا أَنَّهُ مُمَكِّنٌ لِأَنَّ الْأُمُورَ
 الْغَيْرَ الْمُسَكِّنَةَ لَا يُسْتَطَاعُ أَنْ تُفْعَلَ لَا فِي الْخَاضِرِ وَلَا فِي
 الْمُسْتَقْبَلِ. وَكَذَلِكَ يَحْتَاجُ فِي الْجُنُسَيْنِ الْبَاقِيَيْنِ مِنْ اجْتِنَاسِ هَذِهِ
 الصِّنَاعَةِ أَغْنِي إِنْ تُمِيزَ أَوَّلًا أَنَّ الْأَمْرَ قَدْ كَانَ وَوَقَعَ أَغْنِي الْجُنُسَ
 التَّثْبِيتِيَّ وَالْجُنُسَ الْأَشْجَارِيَّ. قَازِنٌ لَا بُدَّ لِصَاحِبِ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ أَنْ
 تَكُونَ عِنْدَهُ مُقَدِّمَاتٌ يُقْنِعُ بِهَا فِي أَنَّ الْأَمْرَ مُمَكِّنٌ أَوْ غَيْرَ مُمَكِّنٍ
 وَفِي أَنَّهُ قَدْ كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ يَرَوِي الْمُقَدِّمَاتِ الَّتِي يُبَيِّنُ بِهَا تِلْكَ
 الْغَايَاتِ الثَّلَاثَ. ثُمَّ أَيْضًا لَمَّا كَانَ الْخُطْبَاءُ لَيْسَ يَقْتَصِرُونَ عَلَى
 الْمَدْحِ وَالذَّمِّ وَالْإِذْنِ وَالنَّهْيِ وَالشِّكَايَةِ وَالْإِعْتِذَارِ بَلْ يَتَكَلَّفُونَ
 مَعَ هَذَا أَنْ يُثْبِتُوا أَنَّ الْأَمْرَ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَوْ شَرٌّ عَظِيمٌ أَوْ صَغِيرٌ

شَرِيفٌ أَوْ خَسِيسٌ وَلَا يَتَّقُ أَوْ غَيْرُ لَا يَتَّقُ وَذَلِكَ إِمَّا عَلَى الْإِطْلَاقِ
وَأَمَّا بِالْمُقَايَسَةِ أَعْنِي أَنَّهُ أَكْثَرُ وَأَشْرَفُ أَوْ بِالضِدِّ فَمَعْلُومٌ أَنَّهُ يَنْبَغِي
أَنْ تَكُونَ عِنْدَ الْخُطْبَاءِ مُقَدِّمَاتٌ يَشْتُونَ بِهَا أَنْ الْخَيْرُ أَوْ الشَّرُّ
عَظِيمٌ أَوْ صَغِيرٌ وَخَسِيسٌ أَوْ شَرِيفٌ وَلَا يَتَّقُ بِالْمُنْسُوبِ إِلَيْهِ أَوْ غَيْرُ
لَا يَتَّقُ فَهَذِهِ هِيَ جَمِيعُ أَنْوَاعِ الْمُقَدِّمَاتِ الَّتِي تَسْتَعْمَلُهَا هَذِهِ الصَّنَاعَةُ

المبحث الثالث

في مقدمات الجنس المشوري

(من الكتاب نفسه)

وَإِذَا قَدْ تَبَيَّنَ ذَلِكَ فَيَنْبَغِي أَنْ نَبْتَدِيَّ بِتَعْدِيدِ الْمُقَدِّمَاتِ الَّتِي تَخْصُ
غَرَضًا غَرَضًا مِنْ الْأَغْرَاضِ الثَّلَاثَةِ وَنَجْعَلُ الْكَلَامَ أَوَّلًا فِي تَعْدِيدِ
الْمُقَدِّمَاتِ الْمَشُورِيَّةِ ثُمَّ ثَانِيًا فِي التَّبْيِيحِيَّةِ ثُمَّ ثَالِثًا فِي الْمَشَاجِرِيَّةِ
فَأَوَّلُ مَا يَجِبُ أَنْ نَنْظُرَ فِيهِ مِنْ أَمْرِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُشَارُ
بِهَا مَا هُوَ الْخَيْرُ الَّذِي يُشَارُ بِهِ فَإِنَّهُ لَيْسَ تَكُونَ الْمَشُورَةُ فِي كُلِّ
خَيْرٍ لَكِنْ فِي الْخَيْرَاتِ الَّتِي تَسْتَطِيعُ أَنْ تَكُونَ أَوْ أَنْ لَا تَكُونَ
فَأَمَّا الْخَيْرَاتُ الَّتِي كَوْنُهَا أَوْ لَا كَوْنُهَا مِنْ الْأَضْطِرَّارِ فَلَيْسَ تَكُونَ
فِيهَا مَشُورَةٌ وَلَا أَيْضًا الْمَشُورَةُ تَكُونُ فِي جَمِيعِ الْخَيْرَاتِ الْمُمْكِنَةِ
فَإِنَّ هَاهُنَا خَيْرَاتٍ مُمَكِّنَةٌ وَجُودُهَا عَنْ الطَّبِيعَةِ بَلْ فِي الْخَيْرَاتِ
الْمُمْكِنَةِ الَّتِي إِلَيْنَا أَنْ تَكُونَ أَوْ أَنْ لَا تَكُونَ وَهِيَ الْأَشْيَاءُ

الَّتِي بَدَأَ كَوْنَهَا مِنْ قَبْلِ الْأَخْتِيَارِ وَالْإِرَادَةِ . وَمِنْ هَذِهِ فِيمَا كَانَ
وُجُودُهُ أَوْ لَا وَجُودُهُ تَابِعًا لِوُجُودِنَا وَأَفْعَالِنَا عَلَى الْأَكْثَرِ وَأَمَّا مَا
كَانَ مِنْهَا يَعْزِضُ عَنِ الرَّوْيَةِ بِالْإِتْفَاقِ وَأَقْلَ ذَلِكَ فَلَيْسَتْ هِيَ فِي
الْأَكْثَرِ مِمَّا يُشَارُ بِهَا إِلَّا حَيْثُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُوجَدَ الْجِلْسُ الْآخِرُ
وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِشَارَةَ إِنَّمَا تَكُونُ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ أَنَّ الْإِنْسَانَ
إِنَّمَا يَنْظُرُ أَوَّلًا هَلِ الْأَمْرُ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَفْعَلَهُ مُمَكِّنٌ ثُمَّ إِنْ
كَانَ مُمَكِّنًا بِأَيِّ شَيْءٍ يُمَكِّنُ فَإِذَا تَبَيَّنَ لَهُ ذَلِكَ شَرَعَ فِي السَّعْيِ
فِيهِ وَإِنْ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ غَيْرُ مُمَكِّنٍ خَلَّى عَنْهُ . وَالْأَشْيَاءُ الَّتِي بِهَا نُشِيرُ
هِيَ الَّتِي فِيهَا نَزَوِي . فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ مَا هُوَ الْخَيْرُ الَّذِي نُشِيرُ
بِهِ وَفِي آيِ الْأَشْيَاءِ يَكُونُ وَالْأُمُورُ الْإِرَادِيَّةُ الَّتِي مَبْدَأُ وَجُودِهَا وَنَا
لَا الْأُمُورُ الْأَضْطِرَّارِيَّةُ الَّتِي لَيْسَ إِلَيْنَا وَجُودُهَا وَإِعْطَاءُ الْفَرْقِ الثَّامِ
بَيْنَ الْأَشْيَاءِ الْإِرَادِيَّةِ وَغَيْرِ الْإِرَادِيَّةِ وَتَضَحِيحُ عَدَدِ أَنْوَاعِهَا وَمَعْرِفَةُ
مَاهِيَةِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا عَلَى أَقْحَى مَا فِي طَائِعِهَا أَنْ تُعْلَمَ فَلَيْسَ مِنْ
شَأْنِ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ أَنْ تَبْلُغَهُ مِنْ مَعْرِفَةِ الْأَشْيَاءِ الْإِرَادِيَّةِ وَلَكِنْ
ذَلِكَ مِنْ شَأْنِ صِنَاعَةِ الْفَلَسَفَةِ الَّتِي لَهَا الْفَضْلُ عَلَى هَذِهِ فِي التَّصَوُّرِ
وَالْتَّصَدِيقِ وَالْمُقَدِّمَاتِ الْمُسْتَعْمَلَةِ فِيهَا أَصْدَقُ وَأَصَحُّ مِنْ هَذِهِ .
وَذَلِكَ أَنَّ هُنَا لَسْنَا تَكَلَّمُ مِنْ مَعْرِفَةِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْآخَوَالِ
الذَّائِيَّةِ الْمُنَاسِبَةِ لَهَا بَلِ الْأُمُورِ الْمَشْهُورَةِ . وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ فِي هَذِهِ
الْأَشْيَاءِ كَمَا وَصَفْنَا فَقَدْ تَبَيَّنَ أَيْضًا مِنْ هَذَا الْقَوْلِ أَنَّ جَمِيعَ مَا
قُلْنَاهُ فِي أَجْزَاءِ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ هُوَ حَقٌّ أَغْنِي أَنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنْ عِلْمٍ

الْمُنْطِقِ وَمِنْ عِلْمِ السِّيَاسَةِ الْخَلْقِيَّةِ وَأَنَّ فِيهَا أَشْيَاءَ جَدَلِيَّةً أَوْ شَبِيهَةً
 بِالْأَشْيَاءِ الْجَدَلِيَّةِ وَأَيْضًا سُوفِسْطَائِيَّةً أَوْ شَبِيهَةً بِالسُّوفِسْطَائِيَّةِ .
 وَالْأَشْيَاءُ الَّتِي فِي صَنَائِعٍ كَثِيرَةٍ إِنَّمَا تَكُونُ أَجْزَاءَ لِصِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ
 مَتَى أُخِذَ جَمِيعُهَا بِالْجِهَةِ وَالْحَالِ الَّتِي بِهَا تَكُونُ تِلْكَ الْأَشْيَاءُ
 الْكَثِيرَةُ مُتَعَاوِنَةً وَنَافِعَةً فِي غَرَضٍ تِلْكَ الصِّنَاعَةُ الْوَاحِدَةُ وَطُرِحَ
 مِنْهَا الْأَحْوَالُ الَّتِي بِهَا تَخْتَلِفُ أَعْنِي الْأَشْيَاءُ الَّتِي لَيْسَتْ تَكُونُ بِهَا مَعْنِيَّةً
 فِي غَرَضٍ تِلْكَ الصِّنَاعَةُ الْوَاحِدَةُ . وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَأَلْأَشْيَاءُ
 الْخَلْقِيَّةُ إِنَّمَا صَارَتْ جُزْءًا مِنْ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ مُعَدَّةٌ
 تَحْوِي الْكَلَامَ وَالْخُطَابَةَ وَهِيَ مِنْ صِنَاعَةِ السِّيَاسَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ أَحَدُ
 الْمَوْجُودَاتِ الَّتِي نَقْصِدُ مَعْرِفَتَهَا وَعِلْمَهَا . وَالْأَشْيَاءُ الْجَدَلِيَّةُ
 وَالسُّوفِسْطَائِيَّةُ إِنَّمَا صَارَتْ جُزْءًا مِنْ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ مِنْ حَيْثُ أَنَّ
 الَّذِي تُسْتَعْمَلُ مِنْهَا هَذِهِ الصِّنَاعَةُ هُوَ سَابِقُ الْمَعْرِفَةِ الْأُولَى لِلْإِنْسَانِ
 لِأَنَّهُ هُوَ بَعِيدٌ عَنْ مَعْرِفَةِ الْجُمْهُورِ مِثْلُ أَنَّهَا إِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ وَنَ الْقِيَاسِ
 الْقِيَاسِ الْمَعْرُوفِ عِنْدَ الْجُمْهُورِ وَهُوَ التَّشْبِيلُ وَالضَّمِيرُ وَكَذَلِكَ الْحَالُ
 فِي الْأُمُورِ السُّوفِسْطَائِيَّةِ إِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ مِنْهَا مَا جَرَتْ الْعَادَةُ بِاسْتِعْمَالِهِ
 عِنْدَ الْجُمْهُورِ مِثْلُ : وَاضِعِ الْإِطْلَاقِ وَالتَّقْيِيدِ وَغَيْرِ ذَلِكَ إِنَّمَا يُسْتَعْمَلُهُ
 بِطَبَاعِهِمُ الْجُمْهُورُ فَهِيَ إِنَّمَا تُخَالَفُ هَذِهِ بِمَقْدَارِ النَّظَرِ وَقَدْ تُخَالَفُ
 أَيْضًا بِمَقْدَارِ النَّظَرِ هَذِهِ الصِّنَاعَةُ فِي الْأُمُورِ الْإِرَادِيَّةِ النَّظَرُ الَّذِي
 لِلْعِلْمِ السِّيَاسِيِّ فِيهَا أَذْنِي أَنَّهَا إِنَّمَا تَنْظُرُ فِي الْأُمُورِ الْإِرَادِيَّةِ النَّظَرُ
 الَّذِي هُوَ فِي سَابِقِ الْمَعْرِفَةِ لِلْإِنْسَانِ وَتَدْعُ تَقْصِي النَّظَرِ فِي ذَلِكَ

لِلْعِلْمِ السِّيَاسِيِّ مِنْهَا. وَالْأُمُورُ الَّتِي يُشِيرُ بِهَا الْخَطِيبُ مِنْهَا مَا يُشِيرُ بِهِ
عَلَى أَهْلِ مَدِينَةٍ بِأَسْرِهِمْ وَمِنْهَا مَا يُشِيرُ بِهِ عَلَى وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ
تِلْكَ الْمَدِينَةِ أَوْ جَمَاعَةٍ

البحث الرابع

في خمسة أمور يدور عليها البحث في النوع المشوري
وفي القياسات المختلفة بها

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) : فَأَمَّا الْأَشْيَاءُ الَّتِي تَكُونُ فِيهَا الْمَشُورَةُ فِي
الْأُمُورِ الْعِظَامِ مِنْ أُمُورِ الْمَدُنِ فَهِيَ قَرِيبَةٌ مِنْ أَنْ تَكُونَ
خَمْسَةً . أَحَدُهَا الْإِشَارَةُ بِالْعُدَّةِ الْمَذْخَرَةِ مِنَ الْأَمْوَالِ لِلْمَدِينَةِ .
وَالثَّانِي الْإِشَارَةُ بِالْحَرْبِ أَوِ السَّلَامِ . وَالثَّالِثُ الْإِشَارَةُ بِحِفْظِ الْبَلَدِ
مِمَّا يَرِدُ عَلَيْهِ مِنْ خَارِجٍ . وَالرَّابِعُ الْإِشَارَةُ بِمَا يَدْخُلُ فِي الْبَلَدِ
وَيَخْرُجُ عَنْهُ . وَالْخَامِسُ الْإِشَارَةُ بِالْإِثْرَامِ السَّنَنِ . فَأَلْذِي يُشِيرُ بِالْعُدَّةِ
يَحْتَاجُ أَنْ يَعْرِفَ ثَلَاثَةَ أُمُورٍ أَحَدُهَا أَنْ يَعْرِفَ غَلَّاتِ الْمَدِينَةِ مَا
هِيَ أَعْيَى هَلْ هِيَ ثَبَاتٌ أَوْ حَيَوَانٌ أَوْ مَعْدِنٌ أَوْ جَمِيعُ هَذِهِ أَوْ اثْنَانِ
مِنْهَا كَمَا إِنْ نَقَصَ مِنَ الْفَاضِلِ مِنْهَا لِلْعُدَّةِ شَيْءٌ أَشَارَ بِالزِّيَادَةِ فِيهَا .
وَالثَّانِي أَنْ يَعْرِفَ مَعَ ذَلِكَ نَفَقَاتِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ كُلِّهَا . وَالثَّالِثُ أَنْ
يَعْرِفَ أَصْنَافَ النَّاسِ الَّذِينَ فِي الْمَدِينَةِ فَإِنْ كَانَ فِيهَا إِنْسَانٌ بَطَالٌ

وَهُوَ الَّذِي لَا قُضِيَّةَ عِنْدَهُ أَوْ عَاطِلٌ وَهُوَ الَّذِي لَا صِاعَةَ لَهُ أَشَارَ
بِتَحْيِيَّتِهِ مِنَ الْبَلَدِ. وَإِنْ كَانَ هَؤُلَاءِ عَظِيمُ النِّفَقَاتِ فِي غَيْرِ الْجَبِيلِ أَوْ
غَيْرِ الضَّرُورِيِّ أَشَارَ بِأَخْذِ ذَلِكَ الْفَضْلِ مِنَ الْمَالِ مِنْهُ فَإِنَّهُ لَيْسَ
يَكُونُ الْغِنَاءُ بِالزِّيَادَةِ فِي الْمَالِ بَلْ وَبِالنَّقْصَانِ مِنَ النِّفَقَةِ وَلِذَلِكَ
قِيلَ : قِلَّةُ الْعِيَالِ أَحَدُ الْيَسَارَيْنِ

(قَالَ) وَمِنْ الضَّرُورَةِ الدَّاعِيَةِ إِلَى هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَمِثْدَارِ
الْحَاجَةِ إِلَيْهَا يَقِفُ الْخَطِيبُ عَلَى مَا يَحْتَاجُ أَنْ يُشِيرَ بِهِ فِي وَاحِدٍ
وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ. وَلَيْسَ يَحْتَاجُ عِنْدَ الْإِشَارَةِ بِالزِّيَادَةِ فِي
النَّاتِ أَنْ يَكُونَ فَلَاحًا وَلَا فِي الْحَيَوَانِ أَنْ يَكُونَ رَاعِيًا لَكِنْ
يَكْفِيهِ فِي ذَلِكَ مَعْرِفَتُهُ بِمِثْدَارِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا لَكِنْ يَحْتَاجُ مَعَ هَذَا
أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِالنَّيْرِ الْمُتَقَدِّمَةِ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَمَا عِنْدَ النَّاسِ
فِيهَا. وَأَمَّا الْمَشِيرُ بِالْحَرْبِ أَوِ السَّلْمِ فَإِنَّهُ يَحْتَاجُ أَنْ يَعْرِفَ قُوَّةَ مَنْ
يُحَارِبُ وَقُوَّةَ مَنْ يُحَارِبُ وَمِثْدَارَ الْأَمْرِ الَّذِي يُنَالُ بِالْحُجَارَةِ هَلْ هُوَ
يَسِيرٌ أَوْ عَظِيمٌ وَحَالُ الْمَدِينَةِ فِي وَثَاقَتِهَا وَحَصَانَتِهَا وَصَعْفُ أَهْلِهَا
وَقُوَّتِهِمْ. وَفِي صَغَرِ الْمَدِينَةِ أَوْ فِي عَظَمِهَا أَعْنِي هَلْ مِثْدَارُهُمْ مِثْدَارُ
مَنْ يَسْتَطِيعُ الْحُجَارَةَ أَمْ لَيْسَ مِثْدَارُهُمْ ذَلِكَ الْمِثْدَارُ. وَهَلْ هُمْ
بِصِفَةِ مَنْ تُمَكِّنُهُمُ الْحُجَارَةُ أَمْ لَيْسَ هُمْ. وَأَنْ يَعْرِفَ مَعَ ذَلِكَ شَيْئًا
مِنَ الْحُرُوبِ الْمُتَقَدِّمَةِ لِيَصِفَ لَهُمْ كَيْفَ يُحَارِبُوا إِنْ أَشَارَ عَلَيْهِمْ
بِالْحَرْبِ وَيَهْوَنَ عَلَيْهِمْ أَمْرُ الْحَرْبِ. أَوْ يَعْرِفَهُمْ بَمَا فِي الْحَرْبِ مِنْ
مَكْرُوهِ إِنْ أَشَارَ عَلَيْهِمْ بِتَرْكِ الْحَرْبِ. وَقَدْ يَحْتَاجُ أَنْ يَعْرِفَ لَيْسَ

حَالِ أَهْلِ مَدِينَتِهِ فَقَطُّ بَلْ وَحَالِ مَنْ فِي تَحْوِمِهِ وَتَغْرِهِ أَعْنِي كَيْفَ
 حَالُهُمْ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَحَالُهُمْ مَعَ عَدُوِّهِمْ فِي الظَّفَرِ بِهِ أَوِ الْعَجْزِ
 عَنْهُ فَإِنَّهُ يَأْخُذُ مِنْ هَاهُنَا مُقَدَّمَاتٍ نَافِعَةٍ فِي الْإِشَارَةِ عَلَيْهِمْ بِالْحَرْبِ
 أَوِ السَّلَامِ. وَيَحْتَاجُ مَعَ هَذَا أَنْ يَعْلَمَ الْحُرُوبَ الْجَبِيَّةَ مِنَ الْحُرُوبِ
 الْجَائِزَةِ وَأَنْ يَعْلَمَ حَالِ الْأَجْنَادِ هَلْ هُمْ مُتَشَابِهُونَ فِي الْقُوَّةِ
 وَالشَّجَاعَةِ وَالرَّأْيِ وَإِجَادَةِ مَا فُوضَ إِلَى صِنْفٍ مِنْهُمْ مِنْ
 الْقِيَامِ بِجُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ الْحَرْبِ. أَعْنِي أَنْ يَكُونُوا فِي ذَلِكَ
 مُتَشَابِهِينَ فَإِنَّهُ رُبَّمَا كَثُرُوا وَتَنَاسَلُوا حَتَّى يَكُونَ فِيهِمْ مَنْ لَا يَضِلُّ
 لِلْحَرْبِ أَوْ لِلْجُزْءِ مِنَ الْحَرْبِ الَّذِي فُوضَ إِلَيْهِ الْقِيَامُ بِهِ. وَقَدْ يَنْبَغِي
 مَعَ هَذَا أَنْ يَكُونَ نَازِلًا أَيْسَرُ فِيمَا أَفْضَتْ إِلَيْهِ مُحَارَبَتُهُمْ بَلْ وَفِيمَا
 أَفْضَتْ إِلَيْهِ حُرُوبُ سَائِرِ النَّاسِ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ الْمُشَابِهِينَ لَهُمْ فَإِنْ
 الشَّيْءُ يُحْكَمُ مِنْهُ عَلَى الشَّيْءِ. أَعْنِي أَنَّهُ إِنْ كَانَ أَفْضَتْ الْحُرُوبُ
 الشَّيْءَ بِخَرَبِهِمْ إِلَى مَكْرُوهِ أَنْ يُشِيرَ بِالسَّلَامِ وَإِنْ كَانَتْ أَفْضَتْ
 إِلَى الظَّفَرِ أَنْ يُشِيرَ بِالْحَرْبِ. وَأَمَّا حِفْظُ الْبِلَادِ فَإِنَّهُ يَحْتَاجُ الْمَشِيرَ
 بِالْحِفْظِ أَنْ يَعْرِفَ كَيْفَ تَحْفَظُ الْبِلَادُ وَمَا مِقْدَارُ الْحِفْظِ الْحَاجُّ
 إِلَيْهِ فِي طَارِيءٍ طَارِيءٍ وَصَكَمِ أَنْوَاعِ الْحِفْظِ. وَيَعْرِفُ مَعَ هَذَا
 الْمَوَاضِعَ الَّتِي يَكُونُ حِفْظُهَا بِالرِّجَالِ وَهِيَ الَّتِي تُسَمَّى الْمَسَاحِ. فَإِنْ
 كَانَ الْحِفْظُ لِتِلْكَ الْمَوَاضِعِ قَلِيلًا زَادَ فِيهِمْ وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ لَا
 يَضِلُّ لِلْحِفْظِ نَحَاهُ يَمُنُّ لَيْسَ يَقْصِدُ قَصْدَ الْحُمَامَةِ عَنِ الْمَدِينَةِ بَلْ يَقْصِدُ
 قَصْدَ نَفْسِهِ. وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَحْفَظَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ الْمَوَاضِعِ الْحَفِيَّةِ

أَعْنِي الَّتِي الْمَنْفَعَةُ بِحِفْظِهَا أَكْثَرُ . فَمَنْ عَرَفَ هَذَا فَقَدْ يُمَكِّنُهُ أَنْ يُشِيرَ بِالْحِفْظِ وَأَنْ يَكُونَ خَيْرًا بِالْبِلَادِ الَّتِي يُشِيرُ بِحِفْظِهَا . وَأَمَّا الْإِشَارَةُ بِالْقُوَّةِ وَسَائِرِ الْأَشْيَاءِ الضَّرُورِيَّةِ الَّتِي تَحْتَاجُهَا الْمَدِينَةُ فَإِنَّهُ يَحْتَاجُ الْمَشِيرُ فِيهِ أَنْ يَعْرِفَ مِقْدَارَهَا وَكَمْ يَكْفِي الْمَدِينَةَ مِنْهَا وَكَمْ الْحَاضِرُ الْمَوْجُودُ فِي الْمَدِينَةِ مِنْ ذَلِكَ وَهَلْ أُدْخِلَ الْكَافِي مِنْ ذَلِكَ فِي الْمَدِينَةِ وَأُخْرِزَ أَمْ لَمْ يُدْخَلْ . وَمَا الْأَشْيَاءُ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَدِينَةِ وَهُوَ الْفَاضِلُ عَنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ . وَمَا الْأَشْيَاءُ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ تَدْخُلَ وَهُوَ مَا قَصَرَ عَنِ الضَّرُورِيِّ لِتَكُونَ شُورَتُهُ وَمَا يُعْهَدُ بِهِ عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ فَإِنَّهُ قَدْ يَحْتَاجُ الْمَرْءُ أَنْ يَحْفَظَ أَهْلَ مَدِينَتِهِ لِأَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا لِمَكَانِ ذَوِي الْفَضَائِلِ وَالثَّانِي لِمَكَانِ ذَوِي أَلْمَالِ الَّذِينَ مِنْ أَجْلِ ذَوِي الْفَضَائِلِ . وَالْحَافِظُ لِلْمَدْنِ يَحْتَاجُ بِالْجُمْلَةِ إِلَى أَنْ يَكُونَ عَارِفًا بِجَمِيعِ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ الْخَمْسَةِ عِنْدَ حِفْظِهَا

(قَالَ) وَأَمَّا النَّظَرُ فِي وَضْعِ السُّنَنِ وَالْإِشَارَةُ بِهَا فَلَيْسَ بِبَسِيرٍ فِي أَمْرِ الْمَدْنِ فَإِنَّ الْمَدْنَ إِذَا تَسَلَّمَ وَيَلْتَمِمْ وَجُودَهَا بِالسُّنَنِ وَلِذَلِكَ قَدْ يَنْبَغِي لِوَاضِعِ السُّنَنِ أَنْ يَعْرِفَ كَمْ أَصَافِ السِّيَاسَاتِ وَآيُ سُنَّةٍ تَنْفَعُ فِي سِيَاسَةٍ سِيَاسَةٍ وَآيُ سُنَّةٍ لَا تَنْفَعُ وَآيُ نَاسٍ تَضِلُّ بِهِمْ سُنَّةٌ سُنَّةٌ وَسِيَاسَةٌ سِيَاسَةٌ وَآيُ نَاسٍ لَا تَضِلُّ بِهِمْ وَأَنْ يَكُونَ يَعْرِفُ الْأَشْيَاءَ الَّتِي يَخَافُ أَنْ يَدْخُلَ مِنْهَا الْفَسَادُ عَلَى الْمَدِينَةِ . وَذَلِكَ إِمَّا مِنْ الْأَضْدَادِ مِنْ خَارِجٍ وَإِمَّا مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ فَإِنَّ سَائِرَ الْمَدْنِ مَا عَدَا الْمَدِينَةَ الْفَاضِلَةَ قَدْ تَفْسُدُ مِنْ قِبَلِ السُّنَنِ

الْمَوْضُوعَةِ فِيهَا وَذَلِكَ إِذَا كَانَتِ السُّنَّةُ مُفْرَطَةً الضَّعْفِ وَاللَّيْنِ أَوْ
مُفْرَطَةً الشَّدَّةِ وَسَوَاءٌ كَانَتْ فِي رَأْيٍ أَوْ فِي خُلُقٍ أَوْ فِي فِعْلٍ
وَذَلِكَ أَنَّ السِّيَاسَةَ الَّتِي تُسَمَّى الْحُرِّيَّةَ قَدْ يَظْهَرُ مِنْ أَمْرِهَا أَنَّهَا
تَنْتَقِلُ كَثِيرًا مِنْ قَبْلِ هَذَا الْمَعْنَى إِلَى رِثَاسَةِ الْخِصَّةِ أَعْنِي رِثَاسَةَ
الشَّهَوَاتِ أَوْ رِثَاسَةَ أَلْمَالِ وَالَّذِي قَالَهُ ظَاهِرٌ عِنْدَنَا مِنْ أَمْرِ
ذَوِي السِّيَاسَاتِ الَّتِي وَصَلَتْهَا أَخْبَارُهُمْ

(قَالَ) وَلَيْسَ يَوُودُ الْأَمْرُ فِي هَذِهِ السِّيَاسَةِ أَعْنِي سِيَاسَةَ
الْحُرِّيَّةِ إِلَى سِيَاسَةِ الْأَخْيَاسِ مِنْ قَبْلِ اسْتِرْخَاءِ السُّنَنِ وَلِيْنَهَا وَإِنْ
كَانَ ذَلِكَ هُوَ الْأَكْثَرُ بَلْ وَ مِنْ قَبْلِ الْإِفْرَاطِ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ
الْأَشْيَاءِ إِذَا أُفْرِطَتْ بَطَلَتْ وَجُودُهَا كَمَا يَبْطُلُ وَجُودُهَا مِنْ قَبْلِ
الضَّعْفِ وَالنَّقْصِيرِ. وَمِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ الْفَطْسَ إِذَا أُفْرِطَ وَتَفَاقَمَ كَانَ
قَرِيبًا مِنْ أَنْ يُظَنَّ أَنَّهُ لَيْسَ هُنَالِكَ أَنْفٌ وَإِذَا كَانَ غَيْرُ مُفْرِطٍ
قَرُبًا مِنْ الْأَعْبَدَالِ

(قَالَ) وَيَحْتَاجُ مَعَ ذَلِكَ أَنْ يَعْرِفَ السُّنَنَ الَّتِي وَضَعَهَا كَثِيرٌ
مِنَ النَّاسِ فَانْتَفَعُوا بِهَا فِي سِيَاسَةٍ سِيَاسَةٍ مِنَ السِّيَاسَاتِ الْمَشْهُورَةِ
وَفِي أُمَّةٍ أُمَّةٍ لِيَسْتَعِيلَ مِنْهَا النَّافِعَ الَّذِي يُحْتَضَرُ وَالْأُمَّةُ الَّتِي تَحْضُرُ .
وَلِذَلِكَ تَبَيَّنَ أَنَّ مَعْرِفَةَ وَاضِعِ السُّنَنِ بِأَمْزِجَةِ النَّاسِ وَأَخْلَاقِهِمْ
وَعَادَاتِهِمْ مِمَّا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي وَضْعِ السُّنَنِ فَإِنَّ مِنْ هَاهُنَا يُمَكِّنُ أَنْ
يَضَعَ السُّنَنَ النَّافِعَةَ لِجَمِيعِ الْأُمَمِ الْمُخْتَلِفَةِ الطَّبَائِعِ. وَأَمَّا الْفَسَادُ
الِدَّاهِلُ عَلَى الْمَدُنِ مِنْ خَارِجٍ أَعْنِي مِنَ الْأَعْدَاءِ فَأَمْرٌ ظَاهِرٌ بِنَفْسِهِ

وَقَدْ كَتَبَ النَّاسُ فِي الْأَوْجِهِ الَّتِي يُتَوَقَّعُ مِنْهَا غَلَبَةُ الْأَعْدَاءِ
وَالْأَوْجِهِ الَّتِي يُتَحَرَّزُ بِهَا مِنْهُمْ. وَمِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ يَأْخُذُ الْمُقَدَّمَاتِ
الَّتِي يُشِيرُ بِهَا عَلَى أَهْلِ مَدِينَتِهِ بِالتَّحْفُظِ مِنَ الْأَعْدَاءِ وَمَا قُلْنَا فِي
وَضْعِ السُّنَنِ وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ وَاضِعُهَا هُوَ مِنْ عِلْمِ السِّيَاسَةِ لَا مِنْ
عِلْمِ الْخَطَابَةِ. وَإِنَّمَا يُذَكَّرُ مِنْهَا هَاهُنَا مَا يَكْفِي فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ

البحث الخامس

في السبب الذي من اجله يشير الخطيب وهو سعادة السامع
وفي ماهية السعادة وانواع الخيور التي من مجموعها

تتولد السعادة

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) فَهَذِهِ هِيَ الْأُمُورُ الْعُظْمَى الَّتِي بِهَا يُشِيرُ الْمُشِيرُونَ
عَلَى أَهْلِ الْمَدُنِ وَفِيهَا دَلَالَةٌ عَلَى الْأَشْيَاءِ الَّتِي مِنْهَا يُشَارُ عَلَى وَاحِدٍ
وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ. وَنَحْنُ قَائِلُونَ الْآنَ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي مِنْهَا يَكُونُ
الْإِذْنُ وَالْمَنْعُ لِوَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ وَمُبْتَدِئُونَ أَوَّلًا بِالْإِخْبَارِ
عَنِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا يُشِيرُ الْمُشِيرُونَ فَيَأْذَنُونَ فِيهَا أَوْ يَنْعَوْنَ
مِنْ أَضْدَادِهَا. وَيُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ انْفِعَالٌ
مَا وَتَشَوُّقٌ بِالطَّبْعِ لِلْخَيْرِ الَّذِي يَتَشَوَّقُ الْكُلُّ لِنَفْسِهِ وَيُشِيرُ بِهِ عَلَى
غَيْرِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْرِفَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ مَا هُوَ ذَلِكَ الْخَيْرُ فَيَحْتَارُونَ
وَيُؤْثِرُونَهُ عَلَى غَيْرِهِ. أَوْ إِذَا سُئِلَ عَنْهُ أَجَابَ فِيهِ بِجَوَابٍ مُنْبِيٍّ عَنْ

طَبِيعَتِهِ كُلُّ إِنَّمَا عِنْدَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَجُودُهُ قَطُّ. وَإِذَا سُئِلَ وَاحِدٌ
وَاحِدٌ مِنْهُمْ عَمَّا يَدُلُّ عَلَيْهِ أَسْمُهُ أَجَابَ فِيهِ بِجَوَابٍ غَيْرِ الْجَوَابِ
الَّذِي يُحِبُّ فِيهِ الْآخِرُ. وَإِنَّمَا يُؤَثِّرُهُ الْجَمِيعُ لِمَكَانِ هَذَا إِلَّا نِفْعَالُ
الْمَوْجُودِ لَهُ بِالطَّبْعِ عِنْدَ الْجَمِيعِ. وَهَذَا الْخَيْرُ فِي الْجُمْلَةِ هُوَ صَلَاحُ
أَحْوَالِ وَأَجْزَاءِ صَلَاحِ أَحْوَالِ. وَلِذَلِكَ فَقَدْ يَنْبَغِي أَنْ نُفَصِّلَ أَوَّلًا مَا
هُوَ صَلَاحُ أَحْوَالِ بِقَوْلِ عَامٍ ثُمَّ نُفَصِّلَ أَجْزَاءَهُ وَنُخَبِّرَ عَنْ أَضْدَادِهَا
وَعَنِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا الْإِذْنُ وَالْمَنْعُ وَهِيَ اللَّافِقَةُ فِي صَلَاحِ
أَحْوَالِ أَوْ الْإِنْفَعُ فِيهِ أَوْ الصَّارَةُ فِيهِ أَوْ الْأَضَرُّ فِيهِ فَإِنَّ هَذَا يَتِمُّ
لَنَا الْقَوْلُ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي مِنْهَا تَلْتِمُ الْأَقَاوِيلُ الْمَشُورِيَّةُ الْمُسْتَعْمَلَةُ
مَعَ جَمِيعِ النَّاسِ

(قَالَ) وَالَّذِينَ تَكَلَّمُوا فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ فَلَمْ يَتَكَلَّمُوا
مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ إِلَّا فِيمَا يَجْرِي مَجْرَى الْأُمُورِ الْكُلِّيَّةِ مِثْلَ
إِنَّهُمْ قَالُوا: يَتَمَنَّى لِلْخَطِيبِ أَنْ يُعْظَمَ الشَّيْءُ الصَّغِيرُ إِذَا أَرَادَ
تُخْصِيمَهُ وَيُصَغَّرَ الشَّيْءُ الْكَبِيرُ إِذَا أَرَادَ تَهْوِينَهُ. وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ لَا
يَأْذَنَ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي تُفْسِدُ صَلَاحَ أَحْوَالِ وَفِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي
تُعَوِّقُ عَنْ صَلَاحِ أَحْوَالِ أَوْ تَتَجَاوَزُ صَلَاحَ أَحْوَالِ إِلَى ضِدِّهِ. وَلَمْ يَقُولُوا
مَا هِيَ الْأَشْيَاءُ الَّتِي بِهَا يُعْظَمُ الشَّيْءُ أَوْ يُصَغَّرُ وَلَا مَا هِيَ الْأَشْيَاءُ
الَّتِي تُوجِبُ اخْتِلَالَ صَلَاحِ أَحْوَالِ أَوْ تُعَوِّقُهُ أَوْ تَتَجَاوَزُهُ إِلَى ضِدِّهِ
(قَالَ) فَأَمَّا صَلَاحُ أَحْوَالِ فَهُوَ حُسْنُ الْفِعْلِ مَعَ فَضِيلَةٍ وَطُولٍ مِنْ
الْعُمْرِ وَحَيَاةٍ لَذِيذَةٍ مَعَ السَّلَامَةِ وَالسَّعَةِ فِي الْمَالِ وَحُسْنِ أَحْوَالِ

عِنْدَ النَّاسِ مَعَ تَحْصِيلِ الْأَشْيَاءِ الْحَافِظَةِ لَهُذِهِ الْأَشْيَاءِ وَالْفَاعِلَةِ لَهَا .
وَقَدْ يَشْهَدُ أَنَّ هَذَا هُوَ رَسْمُ صَلَاحِ أَحَالِ الْمَشْهُورِ أَنَّ جَمِيعَ النَّاسِ
يَرَوْنَ أَنَّ صَلَاحَ أَحَالِ هُوَ هَذَا أَوْ شَيْءٌ قَرِيبٌ مِنْ هَذَا وَإِذَا كَانَ
صَلَاحُ أَحَالِ هُوَ هَذَا فَأَجْزَاؤُهُ هِيَ كَرَمُ الْحَسْبِ وَكَثْرَةُ الْإِخْوَانِ
وَالْأَوْلَادِ وَالْيَسَارُ وَحُسْنُ الْفِعْلِ وَالشَّجَوخَةُ الصَّالِحَةُ وَقَضَائِلُ الْجَسَدِ
وَمِثْلُ الصِّحَّةِ وَالْجَمَالِ وَالْجَلْدِ وَالْجَزَالَةِ وَالْبَطْشِ وَالْحَجْدِ وَالْجَلَالَةِ
وَالسَّعَادَةِ وَالْفَضِيلَةِ وَأَجْزَاؤُهَا مِثْلُ الْعَقْلِ وَالشَّجَاعَةِ وَالْعَفَافِ وَالْعَدَالَةِ
وَالسَّيْرِ فَإِنَّهُ هَكَذَا أُخْرَى أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ مَوْفُورًا مَكْفِيًا
أَعْنِي إِذَا كَانَتْ لَهُ الْخَيْرَاتُ الْمَوْجُودَةُ مِنْ خَارِجٍ . وَالْخَيْرَاتُ
الْمَوْجُودَةُ فِيهِ النَّفْسَانِيَّةُ وَالْجَسَدَانِيَّةُ وَالَّتِي مِنْ خَارِجٍ هِيَ الْحَسْبُ
وَالْإِخْوَانُ وَالْمَالُ وَالْكَرَامَةُ وَقَدْ يُظَنُّ أَنَّهُ يُعَدُّ مَعَ هَذِهِ نَفُودُ
الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْإِتِّفَاقَاتُ الْجَمِيَّةُ وَهِيَ الْمُسَامَاةُ عِنْدَ النَّاسِ سَعَادَةٌ
فَإِنَّ بِهِذِهِ الْأَشْيَاءَ تَكُونُ حَيَاةُ الْمَرْءِ فِي سِيرَتِهِ حَيَاةً مَنْ لَا
يَنْقُصُهُ شَيْءٌ مِنْ خَارِجٍ وَلَا يَشُوبُ خَيْرُهُ شَيْءٌ مُضَادٌّ . وَإِذَا كَانَ
هَذَا هَكَذَا فَجِبُّ أَنْ نَنْظُرَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ مَا هُوَ بِحَسَبِ
النَّظَرِ الْمَقْصُودِ هُنَا وَهُوَ النَّظَرُ الْمَشْهُورُ . فَأَمَّا الْحَسْبُ فَهُوَ أَنْ يَكُونَ
الْقَوْمُ الَّذِينَ هُوَ مِنْهُمْ هُمْ أَوَّلَ مَنْ تَرَى الْمَدِينَةَ أَوْ يَكُونُوا قَدَمَاءَ
الْأَزْوَاجِ فِيهَا وَيَكُونُوا مَعَ هَذَا حُكَّامًا أَوْ رُؤَسَاءَ ذَوِي ذِكْرِ جَمِيلِ
وَكَثْرَةِ عُدَدٍ وَأَنْ يَكُونُوا مَعَ هَذَا أَحْرَارًا لَمْ يُجْزَ عَلَيْهِمْ سَبَاءٌ أَوْ
يَكُونُوا مِنْ تَالِ الْأُمُورِ الْجَمِيَّةِ الْمَقُولَةِ عِنْدَ النَّاسِ وَإِنْ لَمْ

يَكُونُوا حُكَّامًا وَلَا رُؤَسَاءَ . فَأَمَّا النَّظَرُ فِي الْحَسَبِ هَلْ هُوَ مِنْ
الرِّجَالِ فَقَطْ أَوْ مِنْ النِّسَاءِ . فَالظَّاهِرُ مِنْ ذَلِكَ وَالْمُتَّفَقُ عَلَيْهِ عِنْدَ
الْجَمِيعِ أَنَّهُ يَكُونُ أَتَمَّ إِذَا كَانَ مِنْ كِلَيْهِمَا . وَيَنْبَغِي أَنْ يَسْتَعْمَلَ
الْخَطِيبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَشْهُورَ فِي أُمَّةٍ أُمَّةً . وَمِنْ شُرُوطِ الْحَسَبِ أَنْ
يَكُونَ الرُّؤَسَاءُ وَالْأَحْرَارُ مِنْ أُولَئِكَ الْقَوْمِ الَّذِينَ شُهِرُوا بِالْفَضِيلَةِ
وَالنِّسَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَكْرَمَاتِ لَمْ يَنْقَطِعْ وَجُودُهُمْ فِي الْقَوْمِ
الَّذِينَ هُوَ مِنْهُمْ إِلَى وَجُودِهِ هُوَ بَلْ يُوْجَدُ فِي ذَلِكَ الْخَلْسِ أَبَدًا
أَشْيَاخٌ بِهَذِهِ الصِّفَةِ يَخْلُقُهُمْ غِلْمَانٌ فِي تِلْكَ الْخِصَالِ . فَإِنَّهُ إِنْ أُنْقَطِعَ
الشَّرَفُ فِي ذَلِكَ الْخَلْسِ الَّذِي هُوَ مِنْهُمْ لَمْ يَكُنْ حَسَبًا وَإِنْ لَمْ
يَنْقَطِعْ مِنْهُمْ فَهُوَ حَسَبٌ وَإِنْ أُنْقَطِعَ فِيمَنْ وُلِدَ مِنْهُمْ . وَأَمَّا حُسْنُ
الْحَالِ بِالْأَوْلَادِ وَكَثْرَتِهِمْ فَهُوَ ثَمًا لَا خَفَاءَ بِهِ وَحُسْنُ الْحَالِ بِالْأَوْلَادِ
الْمُشْتَرَكُ لِجَمِيعٍ هُوَ كَثْرَةُ الْفِتْيَانِ وَصَلَاحَتُهُمْ فِي فَضَائِلِ الْجَسَدِ
وَفَضَائِلِ النَّفْسِ . أَمَّا فِي فَضَائِلِ الْجَسَدِ فَبَارِعٌ إِحْدَاهَا الْخِرَاطَةُ وَهِيَ
أَنْ تَكُونَ خُلُقُهُمْ خُلُقًا طَبِيعِيَّةً يَفُوقُونَ فِيهَا كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ .
وَالثَّانِيَةُ الْجَمَالُ . وَالثَّلَاثَةُ الشَّدَّةُ . وَالرَّابِعَةُ الْبَطْشُ فَهَذِهِ الْأَرْبَعُ
يَكُونُ الْغِلْمَانُ صَالِحِينَ فِي فَضَائِلِ أَجْسَادِهِمْ . وَأَمَّا فِي فَضَائِلِ
النُّفُوسِ فَيَكُونُونَ بِأَثْنَتَيْنِ بِالْعَفَافِ وَالشَّجَاعَةِ . وَأَمَّا مَا قَدْ يَكُونُ بِهِ
صَلَاحُ حَالِ بَعْضِ النَّاسِ فَكَثْرَةُ الْأَوْلَادِ مِنَ الذُّكُورِ وَالْإِنَاثِ .
وَصَلَاحُ الْحَالِ بِالْإِنَاثِ أَيْضًا يَكُونُ بِفَضِيلَتَيْنِ فِي الْجَسَدِ وَالنَّفْسِ .
أَمَّا فِي الْجَسَدِ فَأَثْنَتَانِ الْعَبَالَةُ وَهُوَ عِظَمُ الْأَعْضَاءِ الْعِظَمُ الطَّبِيعِيُّ

وَكثْرَةُ اللَّحْمِ الطَّيِّبِ لَا اللَّوْنُ وَالْجَمَالُ. وَأَمَّا فِي النَّفْسِ فَثَلَاثُ
 الْعَفَافُ وَحُبُّ الْأُلْفَةِ وَحُبُّ الْكَدِّ فَإِنَّ بِهَذِهِ الْفَضَائِلِ يَكْمُلُ
 الْمَثَلُ وَهَذِهِ الْفَضَائِلُ الَّتِي قُلْنَا سَبِيلَهَا أَنْ تُوجَدَ فِي الْإِنْسَاءِ كُلِّهِنَّ
 الَّلَّائِي مِنْ نَسَبِ ذَلِكَ الرَّجُلِ عَلَى الْعُمُومِ وَفِي الرِّجَالِ كُلِّهِمْ عَلَى
 الْعُمُومِ وَفِي أَوْلَادِهِ الذُّكُورِ خَاصَّةً إِذَا كَانَ الْوَلَدُ بِهِ الصَّحَابَةُ
 وَقَدْ يَنْتَفِي لِلْخَطِيبِ أَنْ يَنْظُرَ هَلِ الْفَضَائِلُ الَّتِي هُوَ مِنْهَا هِيَ هَذِهِ
 الْفَضَائِلُ عِنْدَهُمْ أَعْنِي فِي أَوْلَادِهِمْ أَمْ لَيْسَ هِيَ هَذِهِ فَإِنَّ كَثِيرًا
 مِنْ الْأَنْحَاءِ يُرْتَبُونَ أَوْلَادَهُمْ الذُّكُورَ وَالْإِنَاثَ بِالزَّيْنَةِ وَالسِّمَنِ
 وَهُوَ لَا يَقُولُ فِيهِمْ أَرِسطُو أَنَّهُ قَدْ فَاتَهُمُ الْبَصْفُ مِنْ صَلَاحِ الْحَالِ
 بِالْأَبْنَاءِ. فَأَمَّا أَجْزَاءُ الْإِنْسَانِ فَبِكثْرَةٍ الدَّنَائِيرِ وَالْأَرْضِيْنَ وَالْعِقَارِ
 وَالْإِنَاثِ وَالْأَمْتَعَةِ وَالْمَوَاشِي وَجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ فِي النُّوعِ
 وَالْجِنْسِ. وَكُلُّ ذَلِكَ إِذَا سَكَتَ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ فِي حِفْظٍ وَمَعَ حَرِّيَّةٍ
 وَأَنْ يَكُونَ فِيهَا مُتَمَتِّعًا أَيْ مُلْتَذًا لَا حَافِظًا لَهَا فَقَطُّ أَوْ مُنِيًّا
 (قَالَ) وَمِنْ الْأُمُورِ النَّافِعَةِ فِي الْإِنْسَانِ وَالنَّافِعَةِ لَهُ الْأَشْجَارُ
 الْمَشْرُوعَةُ وَالْعَمَلَاتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. وَالَّذِي مِنْ هَذِهِ هُوَ مَا يُجْنَى
 بِغَيْرِ تَعَبٍ وَلَا نَفَقَةٍ وَحَدُّ الْحِفْظِ وَالْإِحْرَازِ لِلْمَالِ هُوَ أَنْ يَكُونَ
 فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي لَا يُتَعَدَّرُ مِنْهُ عَلَيْهِ وَأَنْ يَكُونَ بِالْحَالِ الَّتِي
 يُمَكِّنُ أَنْ يَنْتَفِعَ بِهَا وَمِثْلُ أَنْ إِذَا سَكَتَ أَرْضًا أَلَّا تَكُونَ سَبْجَةً وَإِنْ
 كَانَ فَرَسًا أَلَّا يَكُونَ جَوْحًا. وَحَدُّ الْحَرِّيَّةِ فِي الْمَالِ أَنْ يَكُونَ
 إِلَيْهِ التَّصَرُّفُ فِي الْمَالِ بِالْإِعْطَاءِ وَالْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَأَمَّا التَّنَعُّمُ بِالْمَالِ

فَهُوَ اسْتِعْمَالُهُ عَلَى طَرِيقِ التَّلَذُّذِ بِهِ . وَإِنَّمَا اشْتَرَطَ فِي الْغِنَى هَذَا
الشَّرْطَ لِأَنَّهُ أَنْ يَكُونَ الْغِنَى فِي اسْتِعْمَالِ الْمَالِ أُخْرَى مِنْهُ أَنْ
يَكُونَ فِي اقْتِنَائِهِ لِأَنَّ الْإِقْتِنَاءَ هُوَ فَاعِلُ الْغِنَى وَأَمَّا الِاسْتِعْمَالُ
فَهُوَ الْغِنَى بِعَيْنِهِ وَأَمَّا حُسْنُ الْفِعْلِ عَلَى الرَّأْيِ الصَّوَابِ فَهُوَ الَّذِي
يُظَنُّهُ السَّكَلُ قَائِلًا وَهُوَ الَّذِي يَقْتَنِي الشَّيْءَ الَّذِي يَتَشَوَّقُ إِلَيْهِ أَكْثَرُ
لَا مَحَالَةَ أَوْ الْإِخْيَارُ مِنَ النَّاسِ وَذَوُو الْكَيْسِ وَالْإِفْطَةِ

(قَالَ) وَأَمَّا الْكَرَامَةُ فَارْتِنَاهَا فِي زَمَانِنَا هَذَا لِلْمُعْتَنِي بِحُسْنِ
الْفِعْلِ وَالْإِكْرَامِ النَّاسِ الَّذِينَ لَهُمُ الْعِنَايَةُ الْحَسَنَةُ بِهِمْ هِيَ مُكَافَأَةٌ
عَلَى طَرِيقِ الْعَدْلِ وَالْحَقِّ إِذْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَفْعَالُ لَيْسَ تُكَافِئُهَا
الدُّنَايَا وَالْأَرْوَاحُ . وَلَيْسَ يُكْرَمُ الَّذِينَ لَهُمُ الْعِنَايَةُ الْحَسَنَةُ بِالنَّاسِ
فَقَطُّ بَلْ وَالَّذِينَ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الْعِنَايَةُ الْحَسَنَةُ أَعْنِي
الَّذِينَ لَهُمُ قُوَّةٌ عَلَى ذَلِكَ وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ فِي حَالِ الْإِكْرَامِ
وَالْعِنَايَةِ بِالنَّاسِ الَّتِي تَسْتَوْجِبُ الْكَرَامَةَ هِيَ الْعِنَايَةُ تَخْلِصُهُمْ مِنَ
الشُّرُورِ الَّتِي لَيْسَ التَّخْلِصُ مِنْهَا بَيِّنًا أَوْ إِفَادَتُهُمْ الْخَبَرَاتِ الَّتِي لَيْسَ
إِفَادَتُهَا بِالسَّهْلِ . وَهَذِهِ الْأَفْعَالُ الْجَيِّدَةُ هِيَ تَكُونَ عَنْ الْغِنَى أَوْ
السُّلْطَانِ أَوْ مَا أَشَبَّ ذَلِكَ مِمَّا يَكُونُ لِلْإِنْسَانِ بِالْقُدْرَةِ عَلَى
أَمْثَالِ هَذِهِ الْأَفْعَالِ وَقَدْ يُكْرَمُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ عَلَى خَيْرَاتٍ
يَسِيرَةٍ لَكِنَّهَا تَكُونُ كَثِيرَةً بِالْإِضَافَةِ إِلَى ذَلِكَ الزَّمَانِ وَإِلَى
تِلْكَ الْحَالِ . فَكَانَ الْكَرَامَةُ عَلَى الْأَشْيَاءِ الْيَسِيرَةِ هِيَ بِالْعَرَضِ
أَيَّ مِنْ جِهَةٍ مَا عَرَضَ لَتِلْكَ الْأَشْيَاءِ أَنْ تَكُونَ كَثِيرَةً بِالْإِضَافَةِ

إِلَى ذَلِكَ الْوَقْتِ أَوْ الْحَالِ . وَأَمَّا الْأَشْيَاءُ الَّتِي تَكُونُ بِهَا الْكَرَامَةُ
فِيهَا مُشْتَرَكَةٌ لِجَمِيعِ الْأُتَمِّ وَمِنْهَا خَاصَّةٌ . فَالْخَاصَّةُ مِثْلُ الذَّبَائِحِ
وَالْقَرَابِينِ الَّتِي كَانَتْ قَدْ جَرَتْ عَادَةُ الْيُونَانِيِّينَ أَنْ يُكْرِمُوا بِهَا
الْأَمْوَاتَ . وَمِنْهَا عَامَّةٌ وَهِيَ الْمَرَاتِبُ فِي الْحَجَالِسِ وَالْمُسَارَعَةِ إِلَى
أَقْوَالِهِ وَتَرْكُ مُخَالَفَتِهِ وَالْهَدَايَا الَّتِي تُوجِبُ الْحُبَّ وَالْقُرْبَ . فَإِنَّ الْهَدِيَّةَ
جَمَعَتْ أَمْرَيْنِ بَذَلَ أَلْمَالِ وَالْكَرَامَةُ وَإِلَازِكُ كَانَتْ مُسْتَحَبَّةً لِجَمِيعِ
النَّاسِ وَكُلُّ إِنْسَانٍ يَحْدُثُ فِيهَا مَا يَتَشَوَّقُ لَهُ وَذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ ثَلَاثَةٌ
أَصْنَافٍ إِمَّا صِنْفٌ يُحِبُّ الْكَرَامَةَ وَإِمَّا صِنْفٌ يُحِبُّ أَلْمَالِ وَإِمَّا
صِنْفٌ يَجْمَعُ الْأَمْرَيْنِ . وَالْهَدِيَّةُ قَدْ جَمَعَتْ مُتَشَوِّقَ هَذِهِ الْأَصْنَافِ
الثَّلَاثَةِ

(قَالَ) وَأَمَّا فَضِيَّةُ الْجَسَدِ فَالْحَقِيقَةُ وَذَلِكَ أَنَّ يَكُونُوا عَرِيضِينَ
مِنَ الْأَسْقَامِ الْبَتَّةِ وَأَنْ يَسْتَعْمِلُوا أَبْدَانَهُمْ لِأَنَّ مِنْ لَا يَسْتَعْمِلُ
صِحَّتَهُ فَلَيْسَ تَقْبِطُ نَفْسُهُ بِالْحَقِيقَةِ أَيَّ لَيْسَ هُوَ حَسَنُ الْحَالِ بِهَا وَهُوَ
بَعِيدٌ مِنْ جَمِيعِ الْأَفْعَالِ الْإِنْسَانِيَةِ أَوْ مِنْ أَكْثَرِهَا

(قَالَ) وَأَمَّا الْحَسَنُ فَإِنَّهُ مُخْتَلِفٌ بِاخْتِلَافِ أَصْنَافِ الْإِنْسَانِ
فَحَسَنُ الْعِلْمَانِ وَجَاهُهُمْ هُوَ أَنْ تَكُونَ أَبْدَانُهُمْ وَخَلْقُهُمْ بِهَيْئَةٍ
يَعْسُرُ بِهَا قَبُولُهُمْ إِلَّا لَامَ وَالْإِنْفِعَالِ أَيَّ لَا يَكُونُونَ غَيْرَ مُحْتَمِلِينَ
لِلَّذِي وَأَنْ يَكُونُوا بِحَيْثُ يُسْتَلَذُّ أَنْ يُنْظَرَ إِلَيْهِمْ عِنْدَ الْخُرُوجِ
وَالْعَلَبَةِ

(قَالَ) وَلِذَلِكَ مَا يَرَى النَّاسُ الْعِلْدَانَ الَّذِينَ هُمْ مَهَيَّأُونَ تَحْوِ الْحَسَنِ

الْمَزَاوِلَ وَاللَّعِبَاتِ حَسَنًا جِدًّا وَتَعْنِي بِالْخَمْسِ الْمَزَاوِلَ وَاللَّعِبَاتِ
الْأَشْيَاءُ الَّتِي كَانَ الْيُونَانِيُّونَ يَرَوْضُونَ بِهَا صِبْيَانَهُمْ وَهِيَ الْعَدُوُّ
وَالرُّكُوبُ وَالْمُتَاقِفَةُ وَالصَّرَاعُ وَالْمَلَاكِرَةُ

(قَالَ) وَإِنَّمَا كَانَ النَّاسُ يَرَوْنَ فِيهِمْ كَانَ مُهَيَّأً نَحْوَ هَذِهِ
الْأَفْعَالِ الْخَمْسَةِ أَنَّهُ جَمِيلٌ لِأَنَّهُ مُهَيَّأٌ بِهَا نَحْوَ الْجَفَّةِ وَالْقَلْبَةِ وَإِذَا
شَبَّ أَمْثَالُ هَؤُلَاءِ الْفِلْسَانِ كَانُوا لَذِيذِي الْمَنْظَرِ عِنْدَ الْعَمَلِ فِي
الْحَرْبِ وَذَلِكَ بِحَسَبِ الْهَيْئَةِ الَّتِي كَانُوا مُعَدِّينَ بِهَا نَحْوَ الْحَرْبِ. وَأَمَّا
الشَّيْخُ فَجَمَاهُمْ هُوَ اسْتِلْذَازُ أَفْعَالِهِمْ فِي الْأَعْمَالِ الَّتِي هِيَ جَدُّ وَهِيَ
الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا يَرِاضُ الصِّبْيَانُ عَلَى هَذِهِ اللَّعِبَاتِ الْخَمْسِ وَهِيَ
الْحُرُوبُ وَأَنْ يَكُونُوا مَعَ ذَلِكَ يَرَوْنَ غَيْرَ ذَوِي آخِرَانِ وَلَا غَمٍّ.
وَذَلِكَ أَنَّ الْحُزْنَ وَالْأَنَمَّ إِذَا ظَهَرَ بِالشَّيْخِ ظُنَّ بِهِ أَنَّ ذَلِكَ الطَّارِئُ
الَّذِي طَرَأَ عَلَيْهِ يَمَّا يَضُرُّ فِي شَيْخُوخَتِهِ مِثْلَ الْفَقْرِ وَالْهَوَانِ أَوْ غَيْرِ
ذَلِكَ

(قَالَ) وَأَمَّا الْبَطْشُ فَإِنَّهُ قُوَّةُ يُحْرِكُ الْمَرْءَ بِهَا غَيْرَهُ كَيْفَ
شَاءَ. فَإِنَّهُ إِذَا جَذَبَ غَيْرَهُ أَوْ دَفَعَهُ أَوْ أَشَالَهُ أَوْ أَخْرَجَهُ أَوْ مَنَعَهُ
وَكَانَ هَذَا الْفِعْلُ مِنْهُ بِكُلِّ مَنْ يَتَصَدَّى لَهُ أَوْ بِأَكْثَرِهِمْ فَهُوَ ذُو
بَطْشٍ

(قَالَ) وَأَمَّا فَضِيلَةُ الضَّخَامَةِ فَهُوَ أَنَّ يَفُوتَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ
وَيُجَاوِرُهُمْ فِي الطُّولِ وَالْعَرْضِ وَالْعُمُقِ وَتَكُونُ مَعَ ضَخَامَتِهِ حَرَكَاتُهُ
غَيْرَ مُتَكَلِّفَةٍ لِحُودَةٍ هَذِهِ الْفَضِيلَةِ وَتَكُونُ ضَخَامَتُهُ لَيْسَ سَيِّئًا مِنَّا

وَلَا أَمْرًا مُكَتَسَبًا

(قَالَ) وَأَمَّا الْهَيْئَةُ الَّتِي تُسَمَّى الْجِهَادِيَّةَ فَإِنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنْ الضَّخَامَةِ وَالْجَلْدِ وَالْحِفَّةِ وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا اقْتَرَنْتِ الْحِفَّةُ مَعَ الْقُوَّةَ امْكَنَ أَنْ يَبْلُغَ بِالسَّرْعَةِ أَمَدًا بَعِيدًا لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ خَفِيفًا دُونَ حَلْدٍ لَمْ يَبْلُغَ بِالسَّرْعَةِ أَمَدًا بَعِيدًا. وَذَلِكَ أَنَّ الَّذِي جَمَعَ الضَّخَامَةَ وَالْقُوَّةَ هُوَ مُصَارِعٌ وَالَّذِي جَمَعَ الضَّخَامَةَ وَالْقُوَّةَ وَالْحِفَّةَ هُوَ مُجَاهِدٌ. وَأَمَّا الَّذِي جَمَعَ الصِّرَاعَ وَالْحِفَّةَ مَعَ فَيْسَى عِنْدَهُمْ بِأَنَّهُمْ مُشْتَقٌّ مِنَ الْحَذَقِ بِاسْتِعْمَالِ الْقُوَّةِ وَالْحِفَّةِ وَأَمَّا الَّذِي جَمَعَ هَذِهِ الْخِصَالَ كُلَّهَا فَهُوَ الَّذِي يُسَمَّى عِنْدَهُمْ ذَا الْخَمْسِ اللَّعِبِ

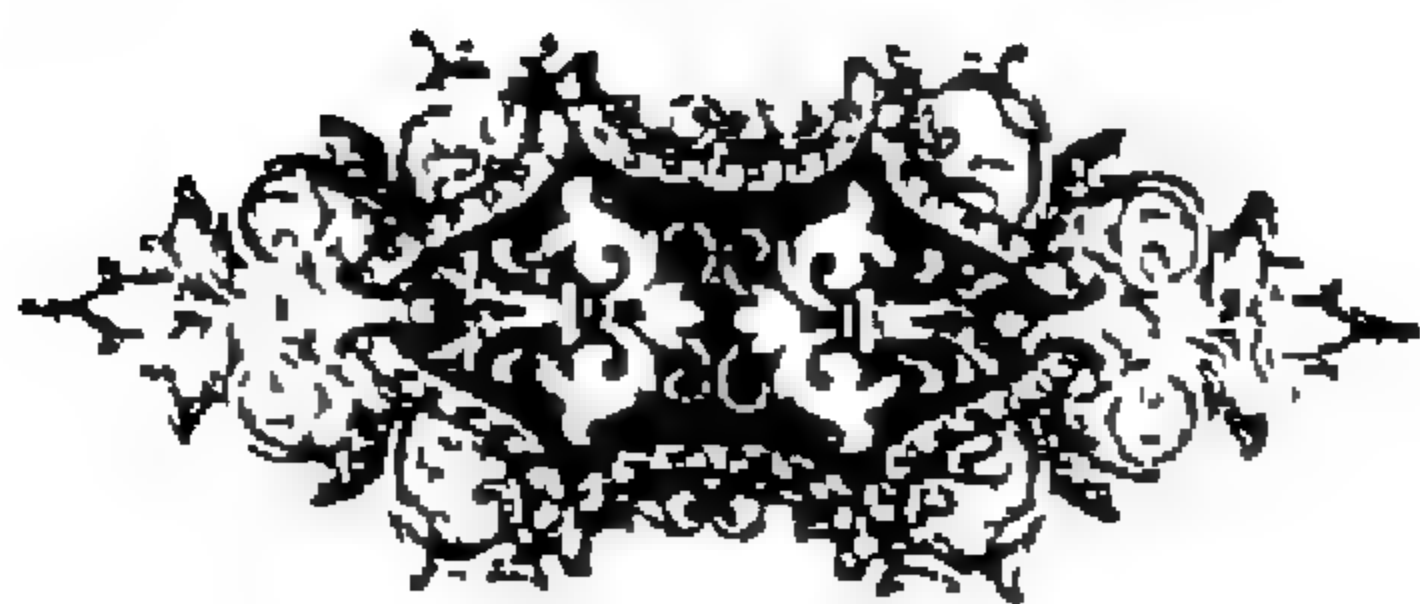
(قَالَ) وَأَمَّا الشَّيْخُوخَةُ الصَّالِحَةُ فَإِنَّهَا دَوَامُ الْكِبَرِ مَعَ الْبَرَاءَةِ مِنَ الْحُزَنِ لِأَنَّهُ إِنْ عَجَلَتْ وَفَاةُ الْإِنْسَانِ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ مُنْتَهَى الشَّيْخُوخَةِ لَمْ يَكُنْ ذَا شَيْخُوخَةٍ صَالِحَةٍ وَإِنْ كَانَ بَرِيئًا مِنَ الْأَحْزَانِ وَلَا أَنْ أُمِيلَ إِلَى مُنْتَهَى الشَّيْخُوخَةِ وَكَانَ فِي كَرْبٍ وَحُزْنٍ كَانَ ذَا شَيْخُوخَةٍ صَالِحَةٍ. وَإِنَّمَا يَكُونُ بَرِيئًا مِنَ الْأَحْزَانِ إِذَا كَانَ ذَا حَظٍّ مِنَ الْجَدِّ وَقَضَائِلِ الْبَدَنِ أَعْنِي أَنْ يَكُونَ صَحِيحًا وَلَمْ تَعْتَرِهِ مَصَائِبُ تُكَدِّرُ تَمَيُّخَتَهُ. وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ مَرَاضًا أَوْ كَانَ أَلْجَدُّ غَيْرَ مُسَاعِدٍ لَهُ بِأَنْ يَكُونَ قَدْ أُعْتَرَتْهُ مَصَائِبُ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِصَالِحٍ الشَّيْخُوخَةِ وَإِنْ كَانَ مُعَمَّرًا. وَكَذَلِكَ إِنْ كَانَ مَرَاضًا وَقَدْ يُشَكُّ كَيْفَ يَكُونُ طُولُ الْعُمْرِ مَعَ الْأَمْرَاضِ لَكِنْ يُشَبَّهُ أَنْ تَكُونَ قُوَّةُ طُولِ الْعُمْرِ غَيْرَ قُوَّةِ الصِّحَّةِ فَإِنَّا نَرَى قَوْمًا كَثِيرِينَ تَطُولُ

أَعْمَارُهُمْ مَعَ أَنَّهُمْ مُسْتَقَامُونَ . وَتَضَحِيحُ هَذَا هُوَ لِلْعِلْمِ الطَّبِيعِيِّ وَآتِيَسَ
فِي تَضَحِيحِهِ فِي هَذَا الْعِلْمِ مَنْفَعَةٌ وَالْخَطِيبُ إِنَّمَا يَكْتَفِي مِنْ ذَلِكَ
بِالشَّيْءِ الظَّاهِرِ

(قَالَ) وَأَمَّا كَثْرَةُ الْخِلَّةِ وَصَلَاحُ حَالِ الْإِنْسَانِ بِالْإِخْوَانِ
فَ ذَلِكَ أَيْضًا غَيْرُ خَفِيٍّ إِذَا حَدَّ مَا هُوَ الْخَلِيلُ وَالصَّاحِبُ . وَهُوَ أَن
يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَفْعَلُ الْخَيْرَ الَّذِي يَظُنُّ أَنَّهُ يَنْفَعُ بِهِ
الْآخَرَ لَا الْخَيْرَ الَّذِي يَنْتَفِعُ بِهِ فِي نَفْسِهِ فَقَطْ . وَإِذَا كَانَتِ الْخِلَّةُ
وَالشُّخْبَةُ هِيَ هَذِهِ فَهِنَّ أَنَّ الْمَرْءَ يَكُونُ صَالِحًا أَلْحَالِ بِالْإِخْوَانِ
الْكَثِيرَةِ

(قَالَ) وَأَمَّا صَلَاحُ الْجَدِّ فَهُوَ أَن يَكُونَ الْإِتْفَاقُ لِإِنْسَانٍ مَا
عِلَّةٌ لَوْجُودِ الْخَيْرِ لَهُ . وَ ذَلِكَ إِمَّا مِنْ الْخَيْرَاتِ الْمَوْجُودَةِ فِي ذَاتِهِ وَإِمَّا
مِنْ الْخَيْرَاتِ الْمَوْجُودَةِ لَهُ مِنْ خَارِجٍ . وَعِلَّةُ الْإِتْفَاقِ قَدْ تَكُونُ
الصِّسَاءَةُ وَقَدْ تَكُونُ الطَّبِيعَةُ وَهُوَ الْأَكْثَرُ . فَمَثَالُ مَا يَكُونُ عَنْ
الْإِتْفَاقِ الطَّبِيعِيِّ أَن يُولَدَ الْإِنْسَانُ ذَا قُوَّةٍ وَهَيْئَةٍ يَفْسُرُ بِهَا قَوْلَهُ
الْأُمُورَ الْوَارِدَةَ عَلَيْهِ مِنْ خَارِجٍ . فَأَمَّا أَن يَكُونَ الْإِنْسَانُ صَحِيحًا
فَقَدْ يَكُونُ سَبَبُهُ الْإِتْفَاقُ الطَّبِيعِيُّ وَمِثْلُ أَن يُولَدَ صَحِيحًا . وَقَدْ يَكُونُ
الْإِتْفَاقُ الصِّسَاعِيُّ مِثْلُ أَن يُسْقَى سُمًّا فَيَبْرَأُ مِنْ مَرَضٍ كَانَ بِهِ .
وَأَمَّا الْجَمَالُ وَالضَّخَاءَةُ فَعَاتِيَهُمَا الْإِتْفَاقُ الصِّسَاعِيُّ وَالطَّبِيعِيُّ وَجُمْلَةُ
الْأَمْرِ أَنَّ الْخَيْرَاتِ الَّتِي سَبَبُهَا الْجَدُّ الَّذِي هُوَ حُسْنُ الْإِتْفَاقِ هِيَ
الْخَيْرَاتُ الَّتِي يَكُونُ الْمَرْءُ مَغْبُوطًا بِهَا مَحْسُودًا عَلَيْهَا . وَقَدْ يَكُونُ

أَجْدُ عِلَّةٌ لِحَيْرَاتٍ لَيْسَتْ هِيَ خَيْرَاتٍ بِالْحَقِيقَةِ وَإِنَّمَا تُرَى خَيْرَاتٍ
بِالِإِضَافَةِ وَالْمُقَايَسَةِ إِلَى الْغَيْرِ. كَمَا قَدْ يَكُونُ الْقُبْحُ فِي حَقِّ إِنْسَانٍ
خَيْرًا مَّا إِذَا رُئِيَ غَيْرُهُ أَقْبَحُ مِنْهُ وَمِثْلُ أَنْ يَكُونَ إِنْسَانَانِ وَقَفَا مِنْ
الْحَرْبِ فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ فَأَصَابَ أَحَدُهُمَا السَّهْمُ وَلَمْ يُصِبِ الثَّانِي
فَإِنَّ الَّذِي لَمْ يُصِبْهُ السَّهْمُ يَرَى أَنَّهُ قَدْ نَالَهُ بِالِإِضَافَةِ إِلَى صَاحِبِهِ خَيْرٌ
كَثِيرٌ. وَبِخَاصَّةٍ إِنْ كَانَ ذَلِكَ الَّذِي لَمْ يُصِبْهُ السَّهْمُ مِنْ عَادَتِهِ أَنْ
يَشْهَدَ الْحُرُوبَ كَثِيرًا وَالْآخِرُ لَمْ يَشْهَدْ قَطُّ إِلَّا تِلْكَ الْحَرْبَ
وَكَذَلِكَ إِذَا وَجَدَ الْكَثْرَ وَاحِدٌ مِّنْ طَائِفَةٍ. قَدْ يَرَى أَنَّهُ خَيْرٌ
بِالِإِضَافَةِ إِلَى مَنْ لَمْ يُصِبْهُ وَإِنْ كَانَ الْكَثْرُ يَسِيرًا فَمِنْ هَذَا
وَنَحْوِهِ يَنْظُرُ الْخَطِيبُ فِي سَعَادَةِ الْجَدِّ. وَأَمَّا تَعْرِيفُ الْفَضِيلَةِ فَأَوَّلَى
الْمَوَاضِعِ بِذِكْرِهَا هُوَ عِنْدَ الْقَوْلِ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُنَادِحُ بِهَا. لِأَنَّ
الْفَضِيلَةَ خَاصَّةً بِالْمَادِحِ وَلِذَلِكَ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْمَادِحُ هُوَ الَّذِي
يَعْرِفُ بِاسْتِقْصَاءِ الْفَضِيلَةِ وَالْفَضَائِلِ وَإِنْ كَانَ مِنْهَا مُسْتَقْبِلٌ وَحَاضِرٌ
فَالْمَادِحُ إِنَّمَا يَنْظُرُ فِيهَا مِنْ جِهَةٍ تَأْهِي حَاضِرَةً وَالْمُشِيرُ مِنْ جِهَةٍ
أَنَّى مُسْتَقْبَلَةٌ أَيْ نَافِعَةٌ



البحث السادس

في الفرق بين الخير والسعادة

(من كتاب خديب الاخلاق لاس مكوييه)

نَبْدَأُ بِمَعْنَى اللَّهِ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْمَقَالَةِ بِذِكْرِ الْفَرْقِ بَيْنَ الْخَيْرِ
وَالسَّعَادَةِ بَعْدَ أَنْ نَذْكُرَ الْفَاطَ أَرِسْطَاطَالِسَ اقْتِدَاءً بِهِ وَتَوْفِيقَهُ
لِحَقِّهِ فَنَقُولُ: إِنَّ الْخَيْرَ عَلَى مَا حَدَّهُ وَاسْتَحْسَنَهُ مِنْ آرَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ هُوَ
الْمَقْصُودُ مِنَ الْكُلِّ وَهِيَ الْغَايَةُ الْآخِرَةُ وَقَدْ يُسَمَّى الشَّيْءُ النَّافِعُ
فِي هَذِهِ الْغَايَةِ خَيْرًا فَأَمَّا السَّعَادَةُ فَهِيَ الْخَيْرُ بِالْإِضَافَةِ إِلَى صَاحِبِهَا
وَهِيَ كَمَالٌ لَهُ فَالسَّعَادَةُ إِذَا خَيْرٌ مِمَّا. وَقَدْ تَكُونُ سَعَادَةُ الْإِنْسَانِ
غَيْرَ سَعَادَةِ الْفَرَسِ وَسَعَادَةُ كُلِّ شَيْءٍ فِي تَمَامِهِ وَكَمَالِهِ الَّذِي يَخْصُهُ .
فَأَمَّا الْخَيْرُ الَّذِي يَقْصِدُهُ الْكُلُّ بِالشُّوقِ فَهُوَ طَبِيعَةٌ تُقْصَدُ وَلَهَا
ذَاتٌ وَهُوَ الْخَيْرُ الْعَامُّ لِلنَّاسِ مِنْ حَيْثُ هُمْ نَاسٌ فَهُمْ بِاجْتِمَاعِهِمْ
مُشْتَرِكُونَ فِيهَا. فَأَمَّا السَّعَادَةُ فَهِيَ خَيْرٌ مِمَّا لِوَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ
فَهِيَ إِذَا بِالْإِضَافَةِ لَيْسَ لَهَا ذَاتٌ مُعَيَّنَةٌ وَهِيَ تُخْتَلِفُ بِالْإِضَافَةِ إِلَى
قَاصِدِيهَا. فَلِذَلِكَ يَكُونُ الْخَيْرُ الْمُطْلَقُ غَيْرَ مُخْتَلِفٍ فِيهِ وَقَدْ يُظَنُّ
بِالسَّعَادَةِ أَنَّهَا تَكُونُ لِغَيْرِ النَّاطِقِينَ فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ فَإِنَّمَا هِيَ
اسْتِعْدَادَاتٌ فِيهَا لِقَبُولِ تَمَامَاتِهَا وَكَمَالَاتِهَا مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا رَوِيَّةٍ وَلَا
إِرَادَةٍ وَتِلْكَ الْإِسْتِعْدَادَاتُ هِيَ الشُّوقُ أَوْ مَا يَجْرِي مَجْرَى الشُّوقِ

مِنَ الدَّاطِقِينَ بِالْإِرَادَةِ . فَأَمَّا مَا يَتَأْتِي لِلْحَيَوَانَاتِ فِي مَآكِلِهِنَّ
وَمَشَارِبِهِنَّ وَرَاحَاتِهِنَّ فَيَنْبَغِي أَنْ يُسَمَّى بَحْثًا أَوْ اتِّفَاقًا وَلَا يُوْهَلُ لِأَنَّهُ
السَّعَادَةُ كَمَا يُسَمَّى فِي الْإِنْسَانِ أَيْضًا . وَإِنَّمَا اسْتَحْسِنَ الْحَدُّ الَّذِي
ذَكَرْنَاهُ لِلْخَيْرِ الْمَطْلُوقِ لِأَنَّ الْعَقْلَ لَا يُطْلَقُ السَّغْيَ وَالْحَرَكَةَ إِلَى لَا
نِهَآيَةٍ وَهَذَا أَوَّلُ فِي الْعَقْلِ . وَمِمَّا هُوَ ذَلِكَ أَنَّ الصَّاعَاتِ وَالْهَمَمِ
وَالْتَّدَابِيرَ الْإِخْتِيَارِيَّةَ كُلَّهَا يُقْصَدُ بِهَا خَيْرٌ مَّا وَمَا لَمْ يُقْصَدْ بِهِ خَيْرٌ
مَّا فَهُوَ عِبَثٌ وَالْعَقْلُ يَحْتَذِرُهُ وَيَمْتَنِعُ مِنْهُ وَيَأْتِي لِوَاجِبِ صَارَ الْخَيْرُ الْمَطْلُوقُ
هُوَ الْمَقْصُودُ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ النَّاسِ . وَلكِنْ بَقِيَ أَنْ يُعْلَمَ مَا هُوَ وَمَا
الْغَايَةُ الْآخِرَةُ مِنْهُ الَّتِي هِيَ غَايَةُ الْخَيْرَاتِ الَّتِي تَرْتَقِي الْخَيْرَاتُ
كُلُّهَا إِلَيْهَا حَتَّى تَجْمَعَ غَرْضًا وَتَتَوَحَّهَ إِلَيْهِ وَلَا نَلْتَفِتَ إِلَى غَيْرِهِ وَلَا
تَنْتَشِرَ أَفْكَارُنَا فِي الْخَيْرَاتِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَيْهِ إِمَّا تَأْدِيَةً
بَعِيدَةً وَإِمَّا تَأْدِيَةً قَرِيبَةً وَلَا تَغْلُطْ أَيْضًا فِيمَا لَيْسَ بِخَيْرٍ فَتُظَنُّهُ خَيْرًا
ثُمَّ تَفْنَى أَعْمَارُنَا فِي طَلَبِهِ وَالتَّعَبِ بِهِ وَكُلًّا سَابِقِينَ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَعَوْنِهِ

البحث السابع

في اقسام الخير والسعادة

(من الكتاب نفسه)

الْخَيْرُ عَلَى مَا قَسَمَهُ أَرِسْطُاطَالِيْسُ وَحَكَاهُ عَنْهُ فُرْقُورِيُوسُ
وَعَنْدَهُ هَكَذَا قَالَ : الْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَا هِيَ شَرِيفَةٌ وَمِنْهَا مَا هِيَ

ممدوحة ومنها ما هي بالقوة كذلك وما هي نافعة فيها . فالشريعة
 منها هي التي شرفها من ذاتها وتجعل من اقتناها ترفيها وهي
 الحكمة والعقل . والممدوحة منها مثل الفضائل والأفعال الجيدة
 الإرادية . والتي هي بالقوة مثل التهيؤ والاستعداد لنيل الأشياء
 التي تقدمت . والمافعة هي جميع الأشياء التي تطلب لذاتها بل
 ليس وصل بها إلى الخيرات . (وعلى جهة أخرى) الخيرات ومنها ما هي
 غايات ومنها ما هي ليست بغايات . والغايات منها ما هي تامة ومنها
 ما هي غير تامة . فالتامة هي تامة كالسعادة وذلك أما إذا وصلنا
 إليها لم نخرج أن نستريد إليها شيئا آخر . والتي هي غير تامة
 فكما الصخرة واليسار من قبل أنا إذا وصلنا إليها خرجنا أن نستريد
 فثقتي أشياء أخرى . وأما التي ليست بغاية البتة فكما العلاج والنعيم
 والرياضة . (وعلى جهة أخرى) الخيرات منها ما هو مؤثر لأجل ذاته
 ومنها ما هو مؤثر لأجل غيره ومنها ما هو مؤثر للأمرين جميعا ومنها
 ما هو خارج عنها . (وعلى جهة أخرى) الخيرات منها ما هو خير
 على الإطلاق ومنها ما هو خير عند الضرورة والإلتفات التي تتفق
 لبعض الناس وفي وقت دون وقت وأيضا منها ما هو خير لجميع
 الناس ومن جميع الوجوه وفي جميع الأوقات ومنها ما ليس بخير
 لجميع الناس ولا من جميع الوجوه . (وعلى جهة أخرى) الخيرات
 منها ما هو في الجوهر ومنها ما هو في الكمية ومنها ما هو في
 الكيفية وفي سائر المقولات فإنها كالقوى والملكات ومنها

كَأَلْأَحْوَالِ وَمِنْهَا كَأَلْأَفْعَالِ وَمِنْهَا كَأَلْغَايَاتِ وَمِنْهَا كَأَلْمَوَادِ وَمِنْهَا
كَأَلْأَلَاتِ. وَوُجُودُ الْخَيْرَاتِ فِي الْمَقُولَاتِ كُلِّهَا يَكُونُ عَلَى هَذَا
الْمِثَالِ أَمَّا فِي الْجَوْهَرِ أَعْنِي مَا لَيْسَ بِعَرَضٍ فَاللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى
هُوَ الْخَيْرُ الْأَوَّلُ فَإِنَّ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ تَتَحَرَّكُ نَحْوَهُ بِالشَّوْقِ إِلَيْهِ وَلِأَنَّ
مَالَ الْخَيْرَاتِ الْإِلَهِيَّةِ مِنَ الْبَقَاءِ وَالسَّرْمَدِيَّةِ وَالْإِتِّمَامِ مِنْهُ. وَأَمَّا فِي
الْكَيْفِيَّةِ فَالْعَدَدُ الْمُعْتَدِلُ وَالْمِقْدَارُ الْمُعْتَدِلُ وَأَمَّا فِي الْكَيْفِيَّةِ
فَكَاالذَّاتِ. وَأَمَّا فِي الْإِضَافَةِ فَكَالْصَّدَقَاتِ وَالرِّثَاسَاتِ. وَأَمَّا فِي
الْأَيْنِ وَالْمَتَى فَكَامَلِكَانَ الْمُعْتَدِلِ وَالزَّمَانَ الْأَيْنِقِ الْبَهْجِ. وَأَمَّا فِي
الْوَضْعِ فَكَالْمَقُودِ وَالْإِضْطِجَاعِ وَالْإِتِّكَاءِ الْمُوَافِقِ. وَأَمَّا فِي الْمِلْكِ
فَكَالْأَمْوَالِ وَالْمَنَافِعِ. وَأَمَّا فِي الْإِنْفِعَالِ فَكَالسَّمَاعِ الطَّيِّبِ
وَسَائِرِ الْمُحْسُوسَاتِ الْمُؤَثَّرَةِ. وَأَمَّا فِي الْفِعْلِ فَمِثْلُ نَفَاقِ الْأَنْرِ وَرَوَاجِ
الْفِعْلِ. (وَعَلَى جِهَةٍ أُخْرَى) الْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَقُولَاتٌ وَمِنْهَا مُحْسُوسَاتٌ
(وَأَمَّا السَّعَادَةُ) فَقَدْ قُلْنَا إِنَّهَا خَيْرٌ مَا وَهِيَ تَمَامُ الْخَيْرَاتِ
وَعَايَاتُهَا وَالْإِتِّمَامُ هُوَ الَّذِي إِذَا بَلَّغْنَا إِلَيْهِ لَمْ نَخْتِجْ مَعَهُ إِلَى شَيْءٍ
آخَرَ فَلِذَلِكَ نَقُولُ إِنَّ السَّعَادَةَ هِيَ أَفْضَلُ الْخَيْرَاتِ وَلَكِنَّا نَحْتَاجُ
فِي هَذَا الْإِتِّمَامِ الَّذِي هُوَ الْغَايَةُ الْقُصْوَى إِلَى سَعَادَاتٍ أُخْرَى وَهِيَ
الَّتِي فِي الْبَدَنِ وَالَّتِي خَارِجَ الْبَدَنِ. (وَأَرِسْطَاطَالِسُ) يَقُولُ إِنَّهُ
يَعْسُرُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَفْعَلَ الْأَفْعَالَ الشَّرِيفَةَ بِلا مَادَّةٍ مِثْلِ
إِتِّسَاعِ الْيَدِ وَكَثْرَةِ الْأَصْدِقَاءِ وَجُودَةِ النَّجْتِ
(وَأَمَّا أَقْسَامُ) السَّعَادَةِ عَلَى مَذْهَبِ هَذَا الْحَكِيمِ فَهِيَ خَمْسَةٌ

أقسام : (أحدها) في صحة البدن ولطف الخواس ويكون ذلك
 من اعتدال المزاج أعني أن يكون جيد السمع والبصر والشم
 والذوق واللمس . (والثاني) في الثروة والأغوان وأشباههما حتى
 يتسع لأن يضع المال في موضعه ويعمل به سائر الخيرات ويؤايب
 منه أهل الخيرات خاصة والمستحقين عامة ويعمل به كل ما يزيد
 في فضائله ويستحق الثناء والمدح عليه . (والثالث) أن تحسن أخلاقه
 في الناس وينشر ذكره بين أهل الفضل فيكون ممدوحا بينهم
 يكثرون الثناء عليه لما يتصرف فيه من الإحسان والمعروف .
 (والرابع) أن يكون منجحا في الأمور وذلك إذا استتم كل
 ما روي فيه وعزم عليه حتى يصير إلى ما يأمله منه . (والخامس)
 أن يكون جيد الرأي صحيح الفكر سليم الاعتقاد في دينه
 بريئا من الخطأ والزلل جيد المشورة في الآراء . فمن اجتمعت له
 هذه الأقسام كلها فهو السعيد الكامل على مذهب هذا الرجل
 الفاضل ومن حصل له بعضها كان حظّه من السعادة بحسب ذلك .
 (وأما الحكماء) قبل هذا الرجل مثل فيثاغورس وبقراط
 وأفلاطون وأشباههم فإنهم اجمعوا على أن الفضائل والسعادة
 كلها في النفس وحدها ولذلك لما قسموا السعادة جعلوها كلها في
 قوى النفس التي ذكرناها في أول الكتاب (وهي الحكمة
 والشجاعة والعفة والعدالة) . واجمعوا على أن هذه الفضائل هي
 كافية في السعادة ولا يحتاج معها إلى غيرها من فضائل البدن

وَلَا مَا هُوَ خَارِجَ الْبَدَنِ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا حَصَلَ تِلْكَ الْفَضَائِلُ لَمْ
يُضُرَّهُ فِي سَعَادَتِهِ أَنْ يَكُونَ سَقِيمًا نَاقِصَ الْأَعْضَاءِ مُبْتَلًى بِجَمِيعِ
أَمْرَاضِ الْبَدَنِ اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَلْحَقَ النَّفْسَ مِنْهَا مَضَرَّةٌ فِي خَاصِّ
أَفْعَالِهَا مِثْلُ فُسَادِ الْعَقْلِ وَرَدَاءَةِ الذِّهْنِ وَمَا أَشْبَهَهُمَا. وَأَمَّا الْفَقْرُ
وَالْخُمُولُ وَاسْقُوطُ أَحْكَالٍ وَسَائِرُ الْأَشْيَاءِ الْخَارِجَةِ عَنْهَا فَلَيْسَتْ عِنْدَهُمْ
بِقَادِحَةٍ فِي السَّعَادَةِ آتِيَةً. وَأَمَّا الرِّوَاقِيُّونَ وَجَمَاعَةُ مِنَ الطَّبِيعِيِّينَ
فَإِنَّهُمْ جَعَلُوا الْبَدَنَ جُزْءًا مِنَ الْإِنْسَانِ وَلَمْ يَجْعَلُوهُ آلَةً كَمَا شَرَحْنَاهُ
فِيمَا تَقَدَّمَ فَلِذَلِكَ اضْطَرُّوا إِلَى أَنْ يَجْعَلُوا السَّعَادَةَ الَّتِي فِي النَّفْسِ
غَيْرَ كَامِلَةً إِذَا لَمْ يَقْتَرِنْ بِهَا سَعَادَةُ الْبَدَنِ وَمَا هُوَ خَارِجُ الْبَدَنِ
أَيْضًا أَغْنِي الْأَشْيَاءَ الَّتِي تَكُونُ بِالنَّجْتِ وَالْجَدِّ. وَالْحَقِيقِيُّونَ مِنْ
أَقْلَاسِ قِيَّةٍ يَحْقِرُونَ أَمْرَ النَّجْتِ وَكُلَّ مَا يَكُونُ بِهِ وَمَعَهُ وَلَا يُؤْهِلُونَهُ
تِلْكَ الْأَشْيَاءَ لِأَنَّهُمُ السَّعَادَةَ لِأَنَّ السَّعَادَةَ نَبِيٌّ ثَابِتٌ غَيْرُ زَائِلٍ
وَلَا مُتَغَيِّرٍ وَهِيَ أَشْرَفُ الْأُمُورِ وَأَكْرَمُهَا وَأَرْفَعُهَا فَلَا يَجْعَلُونَ
لِأَحْسَنِ الْأَشْيَاءِ وَهُوَ الَّذِي يَتَغَيَّرُ وَلَا يَثْبُتُ وَلَا يَتَحَصَّلُ بِرَوِيَّةٍ وَلَا
فِكْرٍ وَلَا يَتَأَتَّى بِعَقْلِ وَفَضِيلَةٍ فِيهَا نَصِيبًا

وَلِهَذَا النَّظَرِ اخْتَلَفَ أَقْدَمَاءُ فِي السَّعَادَةِ الْعُظْمَى فَظَنَّ قَوْمٌ
أَنَّهَا لَا تَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا بَعْدَ مُفَارَقَةِ الْبَدَنِ وَالطَّبِيعِيَّاتِ كُلِّهَا.
وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْقَوْمُ الَّذِينَ حَكَيْنَا عَنْهُمْ أَنَّ السَّعَادَةَ الْعُظْمَى هِيَ فِي
النَّفْسِ وَخَدَهَا وَسَمَّوْا الْإِنْسَانَ ذَلِكَ الْجَوْهَرَ وَخَدَهُ دُونَ الْبَدَنِ
وَلِذَلِكَ حَكَمُوا أَنَّهَا مَا دَامَتْ فِي الْبَدَنِ وَمَتَّصِلَةٌ بِالطَّبِيعَةِ وَكَدَرُهَا

وَنَجَاسَاتِ الْبَدَنِ وَضُرُورَاتِهِ وَحَاجَاتِ الْإِنْسَانِ بِهِ وَافْتِقَارَاتِهِ إِلَى
 الْأَشْيَاءِ الْكَثِيرَةِ فَلَيْسَتْ سَعِيدَةً عَلَى الْإِطْلَاقِ. وَأَيْضًا لَمَّا رَأَوْهَا لَا
 تَكْمُلُ لَوْجُودِ الْأَشْيَاءِ الْعَقْلِيَّةِ لِأَنَّهَا لَا تَسْتَتِرُ عَنْهَا بِظُلْمَةِ الْهَيُولَى
 أَغْنَى قُصُورَهَا وَنُقْصَانَهَا ظَنُّوا أَنَّهَا إِذَا فَارَقَتْ هَذِهِ الْكُدُورَةَ فَارَقَتْ
 أَجْهَالَاتِ وَصَفَتْ وَخَاصَتْ وَقَلَّتِ الْإِضَاءَةُ وَالثُّبُورُ الْإِلَهِيُّ أَغْنَى الْعَقْلَ
 التَّامَّ. وَيَجِبُ عَلَى رَأْيٍ هُوَ لَا أَنْ الْإِنْسَانَ لَا يَسَعِدُ السَّعَادَةُ الثَّامَّةُ
 إِلَّا فِي الْآخِرَةِ بَعْدَ مَوْتِهِ. وَأَمَّا الْفِرْقَةُ الْأُخْرَى فَإِنَّهَا قَالَتْ إِنَّهُ
 مِنْ أَتَمِّجِ الشَّيْخِ أَنْ يُظَنَّ أَنَّ الْإِنْسَانَ مَا دَامَ حَيًّا يَعْمَلُ الْأَعْمَالَ
 الصَّاحِبَةَ وَيَعْتَقِدُ الْآرَاءَ الصَّحِيحَةَ وَيَسْمَى فِي تَحْصِيلِ الْفَضَائِلِ كُلِّهَا نَفْسِهِ
 أَوَّلًا ثُمَّ لِإِبْنَاءِ جَنَّةٍ ثَانِيًا وَيَخْلِفُ رَبُّ الْعِزَّةِ تَقْدِسَ ذِكْرُهُ فِي
 خَلْقِهِ بِهِذِهِ الْأَفْعَالِ لِمَرْضِيَّةٍ فَهُوَ شَقِيٌّ نَاقِصٌ حَتَّى إِذَا مَاتَ
 وَعَدِمَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ صَارَ سَعِيدًا تَامَ السَّعَادَةِ وَارِسَاطَالِيْسُ يَتَحَقَّقُ
 بِهَذَا الرَّأْيِ. وَذَلِكَ أَنَّهُ تَكَلَّمَ فِي السَّعَادَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْإِنْسَانُ هُوَ
 الْمُرْكَبُ عِنْدَهُ مِنْ تَدْنٍ وَنَفْسٍ وَلِذَلِكَ حَدَّ الْإِنْسَانِ بِالنَّاطِقِ
 أَلَمَاتٍ وَبِالنَّاطِقِ الْمَلَائِي بِرَجُلَيْنِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. وَهَذِهِ الْفِرْقَةُ وَهِيَ
 الَّتِي رَدِّيْتُهَا أَرِسْطَاطَالِيْسُ رَأَتْ أَنَّ السَّعَادَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ تَحْصُلُ
 لِلْإِنْسَانِ إِذَا سَعَى لَهَا وَتَعَبَ بِهَا حَتَّى يَصِيرَ إِلَى أَقْصَاهَا. وَلَمَّا رَأَى
 الْحَكِيمُ ذَلِكَ وَأَنَّ النَّاسَ مُخْتَلِفُونَ فِي هَذِهِ السَّعَادَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَأَنَّهَا
 قَدْ أَشْكَلَتْ عَلَيْهِمْ إِشْكَالًا شَدِيدًا أَحْتَاجَ أَنْ يَتَعَبَّ فِي الْإِبَاتَةِ
 عَنْهَا وَإِطْلَاقِ الْكَلَامِ فِيهَا. وَذَلِكَ أَنَّ الْفَقِيرَ يَرَى أَنَّ السَّعَادَةَ الْمُعْطَى

فِي الثَّرْوَةِ وَالْيَسَارِ وَالْمَرِيضَ يَرَى أَنَّهَا فِي الصِّحَّةِ وَالسَّلَامَةِ وَالذَّلِيلَ
يَرَى أَنَّهَا فِي الْجَاهِ وَالسُّلْطَانِ وَالْخَلِيعَ يَرَى أَنَّهَا فِي التَّشْكِينِ مِنَ
الشَّهَوَاتِ كُلِّهَا عَلَى اخْتِلَافِهَا وَالْعَاشِقَ يَرَى أَنَّهَا فِي الظَّفَرِ بِالْمَعشُوقِ
وَالْفَاضِلَ يَرَى أَنَّهَا فِي إِفَاضَةِ الْمَعْرُوفِ عَلَى الْمُسْتَحِقِّينَ وَالْفِيلَسُوفَ
يَرَى أَنَّ هَذِهِ كُلُّهَا إِذَا كَانَتْ مُرْتَبَةً بِحَسَبِ تَقْسِيطِ الْعَدْلِ أَعْيَى عِنْدَ
الْحَاجَةِ وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي يَحِبُّ وَكَمَا يَحِبُّ وَعِنْدَ مَنْ يَحِبُّ فَهِيَ
سَعَادَاتٌ كُلُّهَا وَمَا كَانَ وَهِيَ يُرَادُ لِشَيْءٍ آخَرَ فَذَلِكَ الشَّيْءُ أَحَقُّ
بِأَنَّهُ السَّعَادَةُ

وَلَمَّا كَانَ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَاتَيْنِ الْفِرْقَتَيْنِ نَظَرَتْ نَظْرًا مَا
وَجَبَ أَنْ تُنْثَبِتَ فِي ذَلِكَ مَا تَرَاهُ صَوَابًا وَجَامِعًا لِلرَّأْيَيْنِ قَنَقُولُ :
إِنَّ الْإِنْسَانَ ذُو فَضِيلَةٍ رُوحَانِيَّةٍ يُنَاسِبُ بِهَا الْأَرْوَاحَ الطَّيِّبَةَ الَّتِي
تُسَمَّى مَلَائِكَةً وَذُو فَضِيلَةٍ جِسْمَانِيَّةٍ يُنَاسِبُ بِهَا الْأَنْعَامَ لِأَنَّهُ
مُرَكَّبٌ مِنْهَا فَهُوَ بِأَخْيَرِ الْجِسْمَانِي الَّذِي يُنَاسِبُ بِهِ الْأَنْعَامَ مُقِيمٌ
فِي هَذَا الْعَالَمِ السُّفْلِيِّ مُدَّةً قَصِيرَةً لِيَعْبُرَهُ وَيُنْظِمَهُ وَيُرْتَبُهُ حَتَّى إِذَا
ظَفِرَ بِهَذِهِ الْمُرْتَبَةِ عَلَى الْكَمَالِ انْتَقَلَ إِلَى الْعَالَمِ الْعُلَوِيِّ وَاقَامَ
فِيهِ دَائِمًا سَرْمَدًا فِي صُحْبَةِ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَرْوَاحِ الطَّيِّبَةِ وَيَبْغِي أَنْ
يُفْهَمَ مِنْ قَوْلِنَا الْعَالَمِ السُّفْلِيِّ وَالْعَالَمِ الْعُلَوِيِّ مَا ذَكَرْنَاهُ فِيمَا تَقَدَّمَ
فَإِنَّا قَدْ قُلْنَا هُنَاكَ إِنَّا لَنَسْنَا نَعْنِي بِالْعُلَوِيِّ الْمَكَانَ الْأَعْلَى فِي الْجِسْرِ
وَلَا بِالْعَالَمِ السُّفْلِيِّ الْمَكَانَ الْأَسْفَلَ فِي الْجِسْرِ بَلْ كُلُّ مُحْسُوسٍ
فَهُوَ أَسْفَلٌ وَإِنْ كَانَ مُحْسُوسًا فِي الْمَكَانِ الْأَعْلَى وَكُلُّ مَعْقُولٍ فَهُوَ

أَعْلَى وَإِنْ كَانَ مَعْقُولًا فِي الْمَكَانِ الْأَسْفَلِ، وَيَتَنَبَّي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّهُ
لَيْسَ يُحْتَاجُ فِي صِحَّةِ الْأَرْوَاحِ الطَّبِيعَةِ الْمُسْتَفْنِيَةِ عَنِ الْأَبْدَانِ إِلَى
شَيْءٍ مِنَ السَّعَادَاتِ الْبَدَنِيَّةِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا سِوَى سَعَادَةِ النَّفْسِ فَقَطُّ
أَغْنِي الْمَعْقُولَاتِ الْآبَدِيَّةِ الَّتِي هِيَ الْحِكْمَةُ فَقَطُّ، فَإِذَا مَا دَامَ
الْإِنْسَانُ إِنْسَانًا فَلَيْسَ يَتِمُّ لَهُ السَّعَادَةُ إِلَّا بِتَحْصِيلِ الْحَالَيْنِ جَمِيعًا
وَلَيْسَ يَحْضُرَانِ عَلَى التَّامِّ إِلَّا بِالْأَشْيَاءِ النَّافِعَةِ فِي الْوُضُولِ إِلَى
الْحِكْمَةِ الْآبَدِيَّةِ، فَالسَّعِيدُ إِذَا رَانَ النَّاسُ يَكُونُ فِي إِحْدَى
مَرَّتَيْنِ إِمَّا فِي مَرْتَبَةِ الْأَشْيَاءِ الْجَسَمَانِيَّةِ مُتَعَلِّقًا بِأَحْوَالِهَا السُّفْلَى
سَعِيدًا بِهَا وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يُطَاعُ الْأُمُورَ الشَّرِيفَةَ بَاحِثًا عَنْهَا مُشْتَاقًا
إِلَيْهَا مُتَحَرِّكًا تَحَوُّهَا مُغْتَبِطًا بِهَا، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي رُتْبَةِ الْأَشْيَاءِ
الْروحَانِيَّةِ مُتَعَلِّقًا بِأَحْوَالِهَا الْعُلْيَا سَعِيدًا بِهَا وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يُطَاعُ
الْأُمُورَ الْبَدَنِيَّةَ مُعْتَبِرًا بِهَا نَاطِرًا فِي عَلَامَاتِ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ
وَدَلَالِ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ مُقْتَدِيًا بِهَا نَاطِمًا لَهَا مُفِيضًا لِنَحِيذَاتِ عَلَيْهَا
سَابِقًا لَهَا تَحَوُّ الْأَفْضَلَ فَالْأَفْضَلُ بِحَسَبِ قَوْلِهَا وَعَلَى تَحَوُّ اسْتِطَاعَتِهَا،
وَأَيُّ أَمْرٍ لَمْ يَحْضُرْ فِي إِحْدَى هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ فَهُوَ فِي رُتْبَةِ
الْأَنْعَامِ بَلْ هُوَ أَضَلُّ وَإِنَّمَا صَارَ أَضَلَّ لِأَنَّ تِلْكَ غَيْرُ مُعْرَضَةٍ لِهَذِهِ
الْحَزِيزَاتِ وَلَا أُعْطِيَتْ اسْتِطَاعَةً تَتَحَرَّكُ بِهَا تَحَوُّ هَذِهِ الْمَرَاتِبِ الْعَالِيَةِ
وَإِنَّمَا تَتَحَرَّكُ بِقُوَّاهَا تَحَوُّ كَمَالِهَا الْخَاصَّةِ بِهَا وَالْإِنْسَانُ مُعْرَضٌ لَهَا
مَنْدُوبٌ إِلَيْهَا مُزَاحٌ الْعِلْوُ فِيهَا وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ غَيْرُ مُحْضَلٍ لَهَا وَلَا سَاعٍ
تَحَوُّهَا وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مُؤَثِّرٌ لِضِدِّهَا يَسْتَعْمِلُ قُوَّاهُ الشَّرِيفَةَ فِي

الْأُمُورِ الدَّيْنِيَّةِ وَتِلْكَ مُحَصِّلَةُ لِكَمَا لَا يَتِي تَحْصِيهَا . فَإِذَا الْإِنْعَامُ إِذَا
 مُنِعَتْ الْخَيْرَاتِ الْإِنْسِيَّةِ حُرِمَتْ جِوَارَ الْأَرْوَاحِ الطَّيْبَةِ وَدُخُولِ الْجَنَّةِ
 الَّتِي وَعَدَ بِهَا الْمُتَّقُونَ فَهِيَ مَعْدُورَةٌ وَالْإِنْسَانُ غَيْرُ مَعْدُورٍ . وَمَثَلُ
 الْأَوَّلِ مَثَلُ الْأَعْمَى إِذَا جَارَ عَنِ الطَّرِيقِ فَتَرَدَّى فِي بُئْرٍ فَهُوَ مَرْحُومٌ
 غَيْرُ مَلُومٍ . وَمَثَلُ الثَّانِي مَثَلُ بَصِيرٍ يَجُورُ عَلَى بَصِيرَةٍ حَتَّى يَتَرَدَّى فِي
 السَّرِّ فَهُوَ مَمْقُوتٌ مَلُومٌ . وَإِذَا قَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ السَّعِيدَ لَا مَحَالَةَ فِي إِحْدَى
 الْمَرَاتِبَيْنِ اللَّتَيْنِ ذَكَرْنَاهُمَا فَقَدْ تَبَيَّنَ أَيْضًا أَنَّ أَحَدَهُمَا نَاقِصٌ مُقْتَصِرٌ
 عَنِ الْآخَرِ وَأَنَّ الْإِنْقِصَ مِنْهُمَا لَيْسَ يَخْلُو وَلَا يَتَعَرَّى مِنَ الْآلَامِ
 وَالْحَسَرَاتِ لِأَجْلِ خَدَائِعِ الطَّبِيعَةِ وَالْإِخَارِفِ الْحَسِيَّةِ الَّتِي تَغْتَرُّهُ
 فِيمَا يُلَابِسُهُ وَتَعُوقُهُ عَمَّا يُلَاحِظُهُ وَتَمْنَعُهُ مِنَ الرِّقَى فِيهَا عَلَى مَا يَنْبَغِي
 وَتَشْغَلُهُ بِمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنَ الْأُمُورِ الْجَسَمَانِيَّةِ فَصَاحِبُ هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ غَيْرُ
 كَامِلٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَلَا سَعِيدٍ تَامٍ . وَأَنَّ صَاحِبَ الْمَرْتَبَةِ الْآخَرَى
 هُوَ السَّعِيدُ التَّامُّ وَهُوَ الَّذِي نَوَقَّرَ حَظَّهُ مِنَ الْحِكْمَةِ فَهُوَ مُقِيمٌ
 بِرُوحَانِيَّتِهِ بَيْنَ الْمَلَأِ الْأَعْلَى يَسْتَمِدُّ مِنْهُمْ لَطَائِفَ الْحِكْمَةِ وَيَسْتَنِيرُ
 بِالْأَنْوَارِ الْإِلَهِيَّةِ وَبِاسْتِزِيدٍ مِنْ قَضَائِلِهِ بِحَسَبِ عِنَايَتِهِ بِهَا وَقِلَّةِ عَوَائِقِهِ
 عَنْهَا وَلِذَلِكَ يَكُونُ أَبَدًا خَالِيًا مِنَ الْآلَامِ وَالْحَسَرَاتِ الَّتِي لَا يَخْلُو
 صَاحِبُ الْمَرْتَبَةِ الْأُولَى مِنْهَا . وَيَكُونُ مَسْرُورًا أَبَدًا بِذَاتِهِ مُقْتَبِطًا
 بِحَالِهِ وَبِمَا يَحْضُلُ لَهُ دَائِمًا مِنْ قِيَضِ نُورِ الْأَوَّلِ فَلَيْسَ يَسُرُّ إِلَّا بِتِلْكَ
 الْأَحْوَالِ وَلَا يَغْتَبِطُ إِلَّا بِتِلْكَ الْحَالِينَ وَلَا يَهْشُ إِلَّا لِإِظْهَارِ
 تِلْكَ الْحِكْمَةِ بَيْنَ أَهْلِهَا وَلَا يَرْتَاحُ إِلَّا لِمَنْ نَاسَبَهُ أَوْ قَارَبَهُ

وَأَحَبُّ الْأَقْبَاسِ مِنْهُ . وَهَذِهِ هِيَ الْمَرْتَبَةُ الَّتِي مَنْ وَصَلَ إِلَيْهَا فَقَدْ
وَصَلَ إِلَى آخِرِ السَّعَادَاتِ وَأَقْصَا مَا هُوَ الَّذِي لَا يُبَالِي بِفِرَاقِ
الْأَحْبَابِ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَلَا يَتَحَسَّرُ عَلَى مَا يَفُوتُهُ مِنَ التَّعْمُرِ فِيهَا
وَهُوَ الَّذِي يَرَى جِسْمَهُ وَمَالَهُ وَجَمِيعَ خَيْرَاتِ الدُّنْيَا الَّتِي عَدَدْنَاهَا فِي
السَّعَادَاتِ الَّتِي فِي بَدَنِهِ وَآخِرَاجِهِ عَنْهُ كُلُّهَا كَمَا عَلَيْهِ إِلَّا فِي
ضُرُورَاتِ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا لِبَدَنِهِ الَّذِي هُوَ مَرْبُوطٌ بِهِ لَا يَسْتَطِيعُ
الْإِنْخِلَالُ عَنْهُ إِلَّا عِنْدَ مَشِيئَةِ خَالِقِهِ وَهُوَ الَّذِي أَشْتَقُّ إِلَى ضَخَّةِ
أَشْكَالِهِ وَمُلَاقَاةِ مَنْ يُنَاسِبُهُ مِنَ الْأَرْوَاحِ الطَّيِّبَةِ وَالْمَلَائِكَةِ
الْمُقَرَّبِينَ وَهُوَ الَّذِي لَا يَفْعَلُ إِلَّا مَا أَرَادَهُ اللَّهُ مِنْهُ وَلَا يَخْتَارُ إِلَّا
مَا قَرُبَ إِلَيْهِ وَلَا يُخَالِفُهُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ شَهَوَاتِهِ الرَّدِيئَةِ وَلَا يَخْدَعُ
بِجَدَائِعِ الطَّبِيعَةِ وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ يَعْرِفُهُ عَنْ سَعَادَتِهِ وَهُوَ الَّذِي
لَا يَحْزَنُ عَلَى فَقْدِ مَحْبُوبٍ وَلَا يَتَحَسَّرُ عَلَى قُوْتِ مَطْلُوبٍ . إِلَّا أَنَّ
الْمَرْتَبَةَ الْآخِرَةَ تَتَفَاوَتْ تَفَاوُتًا عَظِيمًا أَعْنِي أَنَّ مَنْ يَصِلُ إِلَيْهَا مِنْ
النَّاسِ يَكُونُ عَلَى طَلَقَاتٍ كَثِيرَةٍ غَيْرِ مُتَقَارِبَةٍ وَهَاتَانِ الْمَرْتَبَتَانِ هُمَا
الَّتَانِ سَأَقُ الْحَكِيمُ الْكَلَامَ إِلَيْهِمَا وَأَخْتَارَ الْمَرْتَبَةَ الْآخِرَةَ مِنْهُمَا . .
(وَإِذْ قَدْ لَخَصْنَا أَمْرَهُمَا تَيْنِ الْمَرْتَبَتَيْنِ مِنَ السَّعَادَةِ الْقُصْوَى) فَقَدْ تَبَيَّنَ
بَيَانًا كَافِيًا أَنَّ أَحَدَهُمَا بِالْإِصَافَةِ إِلَيْنَا أَوْلَى وَالْآخَرَى ثَانِيَةٌ وَمِنْ
الْحَالِ أَنْ نَسْلُكَ إِلَى الثَّانِيَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ نَمُرَّ بِالْأُولَى . . ثُمَّ أَعْلَمُ أَنَّ
مَنْ عَنِيَ بِبَعْضِ الْقُرَى الَّتِي ذَكَرْنَاهَا دُونَ بَعْضِ أَوْ تَعَمَّدَ لِإِصْلَاحِهَا
فِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ لَمْ تَحْصُلْ لَهُ السَّعَادَةُ الثَّامَّةُ . . .

المبحث الثامن

في انه ينبغي للخطيب المشير ان يعرف الاشياء النافعة

وفي مقابلة الخير مع النافع ومقابلة الخيور مع بعضها

(من كتاب حطانة ارسطاطاليس امريب ابن رشد)

قَدْ تَبَيَّنَتْ أَلْفَايَاتُ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا يُشِيرُ الْمَشِيرُ وَمِنْهَا تَتَبَيَّنُ
أَعْدَادُهَا الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا يَنْعُ الْمَشِيرُ وَهِيَ تُؤَلَّفُ مِنْهَا أَقَاوِيلُ
الْمَنْعِ إِذَا كَانَ عَدَدُهَا هُوَ ذَلِكَ الْعَدَدُ بِعَيْنِهِ وَوَضَعُهَا مِنَ الْأَقَاوِيلِ
الْمَشُورِيَةِ هُوَ ذَلِكَ الْوَضْعُ بِعَيْنِهِ. وَمِنْ أَجْلِ أَنْ الْمَشِيرَ إِنَّمَا غَرَضُهُ
الْمُقَدَّمُ فِي فِكْرِهِ هُوَ أَنْ يُشِيرَ بِالشَّيْءِ النَّافِعِ الَّذِي تَلْزَمُ عَنْهُ وَاحِدَةٌ
وَاحِدَةٌ مِنْ هَذِهِ الْأَفَايَاتِ وَذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْأَفَايَاتِ هِيَ أَوَّلُ الْفِكْرَةِ
وَأَخِرُ الْعَمَلِ وَالْأَشْيَاءُ النَّافِعَةُ هِيَ آخِرُ الْفِكْرَةِ وَأَوَّلُ الْعَمَلِ
وَأَعْنِي بِأَوَّلِ الْفِكْرِ النَّتِيجَةَ وَبِآخِرِ الْفِكْرِ الْمَقْدَمَاتِ

وَقَدْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لِلْخَطِيبِ أُصُولٌ وَقَوَائِينُ يَعْرِفُ بِهَا الْأَشْيَاءَ
النَّافِعَةَ فِي الْأَفَايَاتِ وَهِيَ الْعَر_اقِبُ إِذَا كَانَتْ هِيَ أَوَّلَ الْعَمَلِ
وَالنَّافِعَاتِ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ خَيْرًا مُطْلَقًا فَهِيَ خَيْرٌ لِأَنَّهَا طَرِيقٌ إِلَى
الْخَيْرِ بِإِطْلَاقٍ. فَالْخَيْرُ الْمَطْلُوقُ هُوَ الَّذِي يُخْتَارُ مِنْ أَجْلِ نَفْسِهِ وَيُخْتَارُ
غَيْرُهُ مِنْ أَجْلِهِ وَهُوَ الَّذِي يَتَشَوَّقُ إِلَيْهِ الْكُلُّ. وَأَعْنِي هَاهُنَا
بِالْكُلِّ ذَوِي الْفَهْمِ الْحَسَنِ مِنَ النَّاسِ وَالذُّكَّاءِ. وَذَلِكَ قَدْ
يَكُونُ خَيْرًا فِي الْحَقِيقَةِ وَقَدْ يَكُونُ خَيْرًا فِي الظَّنِّ وَذَلِكَ بِحَسَبِ
اعْتِقَادِ إِنْسَانٍ إِنْسَانٍ فِي هَذَا الْخَيْرِ. وَلِذَلِكَ إِذَا كَانَ الشَّيْءُ الَّذِي

يَعْتَقِدُ فِيهِ الْإِنْسَانُ هَذَا الْأَعْتِقَادَ مَوْجُودٌ لَهُ فَقَدْ اكْتَفَى بِهِ وَنَالَ
 حَاجَتَهُ وَلَمْ يَبْقَ لَهُ تَشَوُّقٌ إِلَى شَيْءٍ أَضَلًّا. وَالْأَشْيَاءُ النَّافِعَةُ فِي هَذَا
 الْخَيْرِ هِيَ بِالْجُمْلَةِ أَرْبَعَةُ أَجْنَاسٍ الْأَشْيَاءُ الْفَاعِلَةُ وَالْأَشْيَاءُ الْحَافِظَةُ
 لَهُ وَمَا يَلْزَمُ الْفَاعِلَةَ وَذَلِكَ أَنَّ لَزِمَ الشَّيْءُ يُعَدُّ مَعَ الشَّيْءِ. وَكَذَلِكَ
 أَيْضًا لَزِمَ الْمُفْسِدُ لِلشَّيْءِ يُعَدُّ مَعَ الْمُفْسِدِ. وَلَزِمَ ضِدُّ الْفَاعِلِ مَعَ
 ضِدِّ الْفَاعِلِ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَنْهَى عَنْهَا وَلَزِمَ الْفَاعِلَةُ لِلْفَاعِلِ رَبِّمَا
 كَانَ مَعًا وَمِثْلُ مَا يَلْزَمُ الْمَدْحَ أَقْبِيَاءُ الْأَشْيَاءِ الْمَدْحُوحَةِ وَرَبِّمَا كَانَ
 مُتَأَخِّرًا وَمِثْلُ الْعِلْمِ الَّذِي يَتَّبِعُ التَّعْلَمَ بِآخِرَةٍ. وَالْأَشْيَاءُ الْفَاعِلَةُ ثَلَاثَةٌ
 أَصْنَافٍ إِمَّا بِالذَّاتِ وَإِمَّا بِالْعَرَضِ. وَالَّذِي بِالذَّاتِ أَثْنَانِ إِمَّا
 قَرِيبٌ وَمِثْلُ فِعْلِ الْغِذَاءِ لِلصِّحَّةِ. وَإِمَّا بَعِيدٌ وَمِثْلُ الطَّبِيبِ. وَالَّذِي
 بِالْعَرَضِ وَمِثْلُ فِعْلِ التَّعَبِ فِي الرِّيَاضَةِ لِلصِّحَّةِ. وَإِذَا كَانَ وَاجِبًا أَنْ
 تَكُونَ أَصْنَافُ الْأَشْيَاءِ الْفَاعِلَةِ لِخَيْرٍ هِيَ هَذِهِ الْأَصْنَافُ الثَّلَاثَةُ
 فَيَاضْطَرُّ أَنْ تَكُونَ الْأُمُورُ النَّافِعَةُ فِي الْخَيْرِ بَعْضُهَا خَيْرٌ فِي ذَاتِهَا
 وَمِثْلُ نَفْعِ الْغِذَاءِ فِي الصِّحَّةِ وَبَعْضُهَا شَرٌّ فِي ذَاتِهَا وَخَيْرٌ مَا بِحَسَبِ
 نَفْعِهَا فِي الْخَيْرِ وَمِثْلُ شُرْبِ الدَّوَاءِ لِلصِّحَّةِ. وَالشَّرُّورُ الَّتِي تَنْفَعُ فِي
 الْخَيْرِ هِيَ نَافِعَةٌ عَلَى وَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا أَنْ يُسْتَفَادَ بِهَا خَيْرٌ هُوَ أَكْثَرُ
 مِنَ الشَّرِّ الْأَاجِزِ مِنْ أَسْتِعْمَالِهَا وَمِثْلُ اسْتِفَادَةِ الصِّحَّةِ عَنْ شُرْبِ
 الدَّوَاءِ وَمِثْلُ الْمَشَقَّةِ الْيَسِيرَةِ فِي اسْتِفَادَةِ أَلْمَالِ الْكَثِيرِ. وَمِنْهَا مَا
 يُنَالُ بِهِ السَّلَامَةُ مِنْ شَرٍّ هُوَ أَكْثَرُ مِنَ الشَّرِّ الَّذِي يُنَالُ مِنْهَا
 مِثْلُ مَا يُنَالُ رُكَّابَ الْبَحْرِ مِنَ السَّلَامَةِ إِذَا طَرَحُوا أَمْتِعَتَهُمْ فَإِنَّ

طَرَحَ أَمْتَعَتِهِمْ شَرُّ الْكَيْنِ تُسْتَفَادُ مِنْهُ السَّلَامَةُ مِنْ شَرِّ هُوَ أَكْثَرُ
وَهُوَ الْأَعْطَبُ. وَالْخَيْرَاتُ الَّتِي تُسْتَفَادُ مِنَ الْخَيْرَاتِ يُسَمِّيَهَا أَرِسْطُو
قَوَائِدَ بِإِطْلَاقٍ وَأَمَّا رِتَاكَ فَيَدْمِمْهَا أَنْتَقَالًا وَيَعْنِي بِذَلِكَ أَنَّهَا أَنْتَقَالَ
مِنْ شَرِّ إِلَى مَا هُوَ أَخْفُ شَرًّا مِنْهُ أَوْ أَنْتَقَالَ مِنْ شَرِّ إِلَى مَا هُوَ
خَيْرٌ

(قَالَ) وَالْفَضَائِلُ وَإِنْ كَانَتْ غَايَاتٍ فِيهِ أَيْضًا خَيْرَاتٌ فِي
أَنْفُسِهَا وَنَافِعَةٌ فِي الْخَيْرِ فَإِنَّ الْمُتَقَرِّبِينَ لَهَا هُمْ بِهَا حَسَنُوا الْأَحْوَالِ
وَهِيَ مَعَ هَذَا قَاعَةٌ لِلْخَيْرِ وَمُسْتَعْمَلَةٌ فِيهِ

(قَالَ) وَقَدْ يَلْبَغِي أَنْ يُخَيَّرَ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ وَكَيْفَ
هِيَ خَيْرٌ فِي نَفْسِهَا وَكَيْفَ هِيَ قَاعَةٌ لِلْخَيْرِ وَنَفْضِلَ الْأَمْرِ فِي ذَلِكَ.
وَاللَّذَاتُ أَيْضًا هِيَ خَيْرٌ بِنَفْسِهَا لِأَنَّ جَمِيعَ الْحَيَوَانِ يَشْتَاقُ إِلَيْهَا.
وَالْأَلْوَرُ اللَّذِيذَةُ إِنَّمَا تَكُونُ خَيْرًا إِذَا كَانَ بِهَا الْمَلْتَذُ حَسَنَ الْحَالِ
وَقَدْ يَسْتَبِينَ مَنْ أَلْتَمَعَ أَنَّهَا خَيْرٌ وَأَنَّهَا قَدْ تَكُونُ نَافِعَةٌ فِي الْخَيْرِ
وَأَجْزَاءَ صَلَاحِ الْحَالِ. وَبِالْجُمْلَةِ مِنْهَا مَا هِيَ غَايَاتٌ فَقَطْ. وَمِنْهَا مَا قَدْ
تَعَدَّ غَايَاتٍ وَهِيَ نَافِعَةٌ أَيْضًا فِي الْغَايَاتِ. وَذَلِكَ أَنَّ لِبَعْضِهَا تَرْتِيبًا
عِنْدَ بَعْضٍ أَعْنِي أَنَّ بَعْضَهَا عِلَّةٌ لَوْجُودِ بَعْضٍ وَمُتَقَدِّمٌ عَلَيْهِ. وَوُثَّاقُ
ذَلِكَ أَنَّ الشَّجَاعَةَ وَالْحِكْمَةَ وَالْعَفَافَ وَكِبَرَ النَّفْسِ وَالْجُبُلَ وَمَا
أَشْبَهَهَا مِنْ فَضَائِلِ النَّفْسِ قَدْ تُخْتَارُ أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ مِنْ أَجْزَاءِ صَلَاحِ
الْحَالِ مِنْ أَجْلِهَا. وَكَذَلِكَ الصِّحَّةُ وَالْجَمَالُ مِنْ فَضَائِلِ الْجَسَدِ قَدْ تُخْتَارُ
أَشْيَاءُ مِنْ أَجْلِهَا هِيَ مِنْ صَلَاحِ الْحَالِ وَهِيَ فَأَعْلَاتُهَا وَكَذَلِكَ تُخْتَارُ

فَاعِلَاتِ أَشْيَاءٍ أُخَرٍ مِنْ صَلَاحِ أَحَالٍ مِثْلُ فَاعِلَاتِ اللَّذَّةِ وَفَاعِلَاتِ
السَّيْرِ الْحَسَنَةِ . وَلِذَلِكَ مَا يُظَنُّ بِالْيَسَارِ أَنَّهُ خَيْرٌ إِذَا كَانَ سَبَبًا
لِهَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ أَحَدُهُمَا اللَّذَّةُ وَالْآخَرُ حُسْنُ السَّيْرِ
وَصَلَاحُ أَحَالِ بَكْثَرَةِ الْإِخْوَانِ قَدْ يُوجَدُ فَاعِلًا لِأَشْيَاءٍ كَثِيرَةٍ مِنْ
الْخَيْرَاتِ وَذَلِكَ إِذَا كَانَتِ الصَّدَاقَةُ الَّتِي بَيْنَهُمَا مِنْ أَجْلِ الْحَبَّةِ
نَفْسِيًّا لَا أَنْ تَكُونَ الْحَبَّةُ بَيْنَهُمَا مِنْ أَجْلِ نَفْسٍ أُخَرَ فَإِنَّ
الْإِخْوَانَ الَّذِينَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ هُمْ يَفْعَلُونَ الْكَرَامَةَ وَالْإِشْجَادَ وَغَيْرَ
ذَلِكَ يَمَّا يَجْرِي مَجْرَاهُمَا مِنَ الْخَيْرَاتِ وَذَلِكَ يَكُونُ مِنْهُمْ بِالْقَوْلِ
وَالْفِعْلِ فَإِنَّ الْأَقْوَالَ وَالْأَفْعَالَ الَّتِي تُفْعَلُ بِهَا الْكَرَامَةُ وَالْإِشْجَادُ
وغير ذلك يَمَّا يَجْرِي مَجْرَاهُمَا هِيَ خَيْرٌ وَنَافِعٌ

(قَالَ) وَمِنْ النَّافِعَاتِ بِذَاتِهَا الْمَلَكَاتُ الطَّبِيعِيَّةُ الَّتِي يَكُونُ
الْإِنْسَانُ بِهَا مُسْتَعِدًّا لِأَشْيَاءٍ حَسَنَةٍ مِثْلُ الذِّكَاةِ وَالْحَفَظِ وَالشُّعْلِ
وَحِفَّةِ الْحَرَكَاتِ . وَكَذَلِكَ الْكَمَالَاتُ مِثْلُ الْعُلُومِ وَالصَّانِعِ وَكَذَلِكَ
السَّيْرِ الْخَدُودَةُ وَهَذِهِ كُلُّهَا مَعَ أَنَّهَا نَافِعَةٌ فِي غَيْرِهَا هِيَ خَيْرٌ فِي
نَفْسِهَا وَإِنْ لَمْ يَتَّصِلْ بِهَا خَيْرٌ آخَرُ فَهِيَ خَيْرَاتٌ مُنْفَرَّدَةٌ بِأَنْفُسِهَا
مُخْتَارَةٌ لِذَاتِهَا وَأَبْرَأُ أَيْضًا خَيْرٌ نَافِعٌ

(قَالَ) فَهَذِهِ هِيَ الْخَيْرَاتُ الَّتِي يُعْتَرَفُ بِهَا وَيُجْتَمَعُ أَنَّهَا خَيْرَاتٌ
وَنَافِعَاتٌ وَهِيَ بَيِّنَةٌ فِي شَيْءٍ مِنْهَا أَنَّهَا خَيْرٌ فَذَلِكَ بَيِّنٌ لَا عَلَى طَرِيقِ
الْمِرَاءِ وَالْمَعَالِطَةِ الْمُسْتَعْمَلَةِ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ . وَأَمَّا إِذَا بُيِّنَ فِي شَيْءٍ
مِنْ أَضْدَادِ هَذِهِ أَنَّهَا خَيْرٌ وَفِيهَا أَنَّهَا شَرٌّ فَذَلِكَ يَكُونُ فِي هَذِهِ

الصناعة على طريق المراء أغني ببيان سوفسطائي. وذلك أن الشر
 إنما ينفع بالعرض مثل أن يبين خطيب لأهل مدينة ما أن
 الحين لهم خير لأنهم إن شجعوا خرجوا عن المدينة فقال منهم
 أعدو ولكن الحين ليس هو خيرا على الإطلاق وإنما كان خيرا
 بالإضافة إلى أهل المدينة الذين عرض لهم هذا. وأما الدافع في
 الأكثر وبالذات للإنسان فهو الخير كما أن الشر المضاد للخير
 هو نافع للأعداء وذلك أن الحين لما كان تترأ لأهل المدينة
 بالعرض كان نافعا للأعداء. والشجاعة لما كانت بالذات خيرا لهم
 كانت ضارة بالأعداء إلا أنه قد يلحق ما هو شر ما للإنسان
 أن يكون ضارا لعدوه وما هو خيرا ما له أن يكون نافعا لعدوه
 مثل الحين لأهل المدينة الذين إذا خرجوا عن المدينة لم تكن
 لهم قوة يقاومون بها عدوهم. فينبغي للخطيب أن يتحرى في
 كل وقت النافع من هذه الأشياء وهذه القضية أيضا ليست كمية
 أغني القائل أن كل ما يضر العدو ويكرهه نافع وكل ما ينفع
 العدو ويسره ضار فإن كثيرا ما يكون الأمر الواحد ضارا
 للإنسان وعدوه ونافعا للإنسان وعدوه. فمثال ما هو نافع لكليهما
 ويسر به كل واحد منهما مفارقة العدو عدوه إذا كانت بعد مقاتلة
 شديدة بينهما ومقاومة أشقى كل واحد منهما على العطب منها
 من غير أن يظفر أحدهما بصاحبه فأنهما إذا افترقا في أثر هذه
 الحال سر كل واحد منهما بالافتراق ولذلك قد يكون النافع

نَافِعًا لِلْأَعْدَاءِ أَيْضًا . وَأَمَّا مَا هُوَ ضَارٌّ لِكِلَيْهِمَا فَكَثِيرًا مَا يُوجِبُ
صَدَاقَةَ الْعَدُوِّ . وَذَلِكَ إِذَا كَانَ مُتَسَاوِيَيْنِ فِي تَرَوُّلِ الشَّرِّ الْوَارِدِ
بِهِمَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَفْضَلَ أَحَدُهُمَا فِي ذَلِكَ صَاحِبَهُ . وَكَثِيرٌ مِنْ
الْأُمَمِ الْحَقِيقَةِ كَانَ اتِّفَاقُهُمْ بِهَذَا السَّبَبِ وَلِذَلِكَ قِيلَ إِنَّ الشَّرَّ قَدْ
يَجْمَعُ النَّاسَ فَهَذَا أَيْضًا أَحَدُ مَا يَكُونُ بِهِ الشَّرُّ نَافِعًا أَغْنَى أَنْ
يَكُونَ الضَّرُّ النَّازِلُ بِالْإِنْسَانِ نَازِلًا بِعَدُوِّهِ . فَإِنَّ ذَلِكَ يُرْجَبُ
صَدَاقَةَ الْعَدُوِّ وَحِينَئِذٍ يَهْوِي الْعَدُوُّ الْوَارِدُ ضِدَّ مَا يَهْوَاهُ كُلُّ وَاحِدٍ
مِنَ الْمُتَعَادِيَيْنِ اللَّذَيْنِ وَرَدَّ عَلَيْهِمَا الْعَدُوُّ مِنْ خَارِجٍ . وَذَلِكَ أَنَّ
كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُتَعَادِيَيْنِ يَهْوِي صَدَاقَةَ صَاحِبِهِ لِمَكَانِ تَعَاوُنِهِمَا عَلَى
الْعَدُوِّ الْوَارِدِ عَلَيْهِمَا مِنْ خَارِجٍ . وَالْعَدُوُّ الْوَارِدُ يَهْوِي بَقَاءَ عَدَاوَتِهِمَا
عَلَى حَالِهَا أَوْ تَأْكُودَهَا . وَارِسْطُو يَقُولُ : وَلِذَلِكَ كَثِيرًا مَا تُنْفَقُ
النَّفَقَاتُ الْعَظِيمَةُ وَتُفْعَلُ الْأَفْعَالُ الْكَثِيرَةُ فِي مِثْلِ هَذَا الْخَيْرِ
الَّذِي يُدْفَعُ بِهِ الشَّرُّ الْعَظِيمُ وَإِنَّمَا تَطِيبُ النَّفْسُ بِالنَّفَقَاتِ فِي مِثْلِ
هَذِهِ الْأَشْيَاءِ لِظُهُورِ مَا يَلْزَمُ عَنْهَا مِنَ الْغَايَةِ الْمَطْلُوبَةِ وَقُرْبِهَا حَتَّى
كَانَتْهَا إِذَا وَجِدَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ وَجِدَتْ الْغَايَةَ . وَقَدْ يَكُونُ الشَّرُّ
الْمُفْرِطُ النَّازِلُ بِالْعَدُوِّ أَيْضًا سَبَبًا لِلْإِعْرَافِ بِالْخَيْرِ الْيَسِيرِ الَّذِي
نَالَهُ مِنْ عَدُوِّهِ وَلَوْلَا هُوَ لَمْ يَعْرِفْ بِهِ الْعَدُوُّ . مِثْلَ مَا حَكَى أَرِسْطُو
أَنَّهُ عَرَضَ لِبَعْضِ الْمُلُوكِ الَّذِينَ كَانُوا أَعْدَاءَ الْيُونَانِيِّينَ أَنَّهُ اشْتَدَّتْ
مُحَارَبَتُهُمْ لَهُ وَحَضَرُهُمْ إِيَّاهُ سِنِينَ كَثِيرَةً وَقَتَلُوا فِي ذَلِكَ الْحِصَارِ
أَبْنَهُ فَسَأَلَهُمْ أَنْ يُعْطَوْهُ جُثَّتَهُ لِيَجْرِقَهَا عَلَى عَادَتِهِمْ فِي مَوْتَاهُمْ فَفَعَلُوا

ذَلِكَ فَشَكَرَهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَأَظْهَرَ شُكْرَهُمْ عِنْدَ جَمِيعِ قَوْمِهِ وَأَهْلِ
 مَدِينَتِهِ. فَلَوْلَا مَا تَرَلَّ بِهِ مِنَ الشَّرِّ الْعَظِيمِ لَمَا شَكَرَهُمْ عَلَى هَذَا
 الشَّيْءِ الْيَسِيرِ الَّذِي سَحَّوْا لَهُ بِهِ كَمَا قَالَ ذَلِكَ أُوْمِيرُوشُ الشَّاعِرُ
 (قَالَ) وَمِنْ الْأَضْطِمَاعَاتِ النَّافِعَةِ وَالْأَفْعَالِ الَّتِي يَعْظُمُ قَدْرُهَا
 عِنْدَ الْمُضْطَنَعِ إِلَيْهِمْ فَيَصِيرُ بِهِ الْمُضْطَنَعُ إِلَى خَيْرٍ عَظِيمٍ مِنْ
 الْمُضْطَنَعِ إِلَيْهِمْ أَنْ يَخْتَارَ الْإِنْسَانُ إِنَّمَا نَا عَظِيمُ الْقَدْرِ مِنْ جِنْسٍ مَا
 مِنْ النَّاسِ لَهُ أَيْضًا عَدُوٌّ عَظِيمٌ الْقَدْرِ فِي جِنْسٍ آخَرَ مِنْ النَّاسِ
 فَيَفْعَلُ بِعَدُوِّ ذَلِكَ الْإِنْسَانِ الشَّرَّ وَبِأَصْدِقَائِهِ الْخَيْرَ. مِثْلَ مَا عَرَضَ
 لِأُوْمِيرُوشَ مَعَ الْيُونَانِيِّينَ وَأَعْدَائِهِمْ فَإِنَّهُ قَصَدَ إِلَى عَظِيمٍ
 مِنْ عُظَمَاءِ الْيُونَانِيِّينَ فِي الْقَدِيمِ وَخَصَّهُ بِالْمَدْحِ وَأَصْدِقَاءَهُ مِنْ
 الْيُونَانِيِّينَ. وَخَصَّ عَدُوَّاهُ عَظِيمًا بِالْهَجْوِ هُوَ وَقَوْمُهُ الْمَعَادِينُ
 لِلْيُونَانِيِّينَ فِي حُرُوبٍ وَقَعَتْ بَيْنَهُمَا فَكَانَ رَبُّ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ
 بِذَلِكَ عِنْدَ الْيُونَانِيِّينَ وَعَظَّمُوهُ كُلَّ التَّعْظِيمِ حَتَّى اعْتَقَدُوا فِيهِ أَنَّهُ كَانَ
 رَجُلًا إلهيًا وَأَنَّهُ كَانَ الْمَعْلَمَ الْأَوَّلَ لِجَمِيعِ الْيُونَانِيِّينَ. وَبِالْجَمَلَةِ
 فَعِلَ الشَّرَّ بِالْأَعْدَاءِ وَالْخَيْرَ بِالْأَصْدِقَاءِ مِنَ الْأُمُورِ النَّافِعَةِ.
 وَمِنْ شَرْطِ هَذَا الْفِعْلِ الَّذِي يَعْظُمُ مَوْقِعُهُ أَنْ يَكُونَ مَا فُعِلَ
 مِنْهُ يُرَى أَنَّهُ لَمْ يُمَكِّنِ الْفَاعِلَ وَلَا تَيَسَّرَ لَهُ غَيْرُهُ وَسَوَاءٌ كَانَ الْفِعْلُ
 كَثِيرًا فِي نَفْسِهِ أَوْ يَسِيرًا وَأَنْ يَظُنَّ أَنَّ فِعْلَهُ لَمْ يَكُنْ لِمَكَانٍ
 خَوْفٍ وَلَا شَيْءٍ يَرْجُوهُ بَلْ لِأَنَّ شَوْقَهُ وَهَوَاهُ قَادَهُ إِلَى ذَلِكَ فَإِنْ
 بِهَذَا يَكُونُ الْفِعْلُ مُدَاوِمًا عَلَيْهِ مِنَ الْفَاعِلِ وَهُوَ السَّهْلُ عَلَيْهِ لِأَنَّ

أَلَا فَعَالَ أَتِي تَكُونُ مِنْ أَجْلِ خَوْفٍ إِنَّمَا تَكُونُ غَيْرَ شَاقَّةٍ زَهَّ أَنَا
يَسِيرًا وَإِذَا طَالَ بِهَا الزَّمَانُ كَانَتْ شَاقَّةً فَأَنْقَطَعَتْ وَإِذَا أَنْقَطَعَتْ
كَانَ مِنْ ذَلِكَ عَدَاوَةٌ مِنَ الْمُخْطِئِينَ إِلَيْهِ الْمُخْطِئِينَ . فَلِذَاكَ
يُشْتَرَطُ فِي هَذَا الْفِعْلِ أَنْ يَكُونَ سَهْلًا عَلَى الْفَاعِلِ فَهَذِهِ هِيَ
شُرُوطُ الْأَبْتِدَاءِ بِالضَّمَانِ الَّتِي يَعْظُمُ مَوْقِعُهَا وَيُوجَدُ نَفْعُهَا . وَأَمَّا
الْمُكَافَاةُ الَّتِي لَا يَعْظُمُ مَوْقِعُهَا فَهِيَ الْمُكَافَاةُ الَّتِي لَا تَكُونُ
بِحَسَبِ مَا يَهْوَى الْمَكَافِي بِالطَّبَعِ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ وَهُوَ أَنْ
تَكُونَ نَاقِصَةً عَنِ الصَّنِيعَةِ الَّتِي أُسْدِيَتْ إِلَيْهِ إِمَّا فِي الْكَمِّيَّةِ
وَأَمَّا فِي الْمَنْفَعَةِ وَإِمَّا لِأَنَّهَا قَدْ فَضَلَتْ عِنْدَ الْمَكَافِي وَلَيْسَ يَمْتَنَاجُ
إِلَيْهَا وَهِيَ الْمُكَافَاةُ الَّتِي يُعَاظُ فِيهَا وَإِنَّمَا كَانَ الْمَكَافِي بِالطَّبَعِ
أَلَّذِي يَشْتَبِهِي أَنْ تَكُونَ مُكَافَاةً بِأَحَدِ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ الْأَحْوَالِ
لِأَنَّ الْمَكَافِي كَأَنَّهُ مَقْصُورٌ عَلَى الْإِعْطَاءِ فَهُوَ إِنَّمَا يَشْتَبِهِي إِمَّا
أَلَّا يَلْحَقَهُ نَقْصٌ مِنَ الْخَيْرِ الَّذِي وَصَلَ إِلَيْهِ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ
النَّقْصُ أَقْلَ وَنَ الْخَيْرِ الَّذِي وَصَلَ إِلَيْهِ . فَإِذَا لَمْ تَكُنِ الْمُكَافَاةُ
بِهَذِهِ الصِّفَةِ بَلْ كَانَتْ مُقَارِنَةً لِلصَّنِيعَةِ إِمَّا فِي الْجِلْسِ مِثْلَ أَنْ
تَكُونَ الْمُكَافَاةُ عَلَى الدَّائِرِ بِدَرَاهِمٍ وَإِمَّا فِي الْقُوَّةِ مِثْلَ أَنْ
تَكُونَ الْمُكَافَاةُ عَلَى أَلْمَالِ بِكَرَامَةٍ يُقْتَنَى بِهَا مِثْلُ ذَلِكَ أَلْمَالِ
فَهِيَ الْمُكَافَاةُ الْعَادِلَةُ لِكِنَّهَا سُوقِيَّةٌ . فَإِذَا لَمْ تَكُنِ الْمُكَافَاةُ لَا
سُوقِيَّةً وَلَا فِيهَا غَبْنٌ بَلْ كَانَ الْمَكَافِي يُعْتَقَدُ فِيهِ أَنَّهُ لَيْسَ
أَخْتِيَارُهُ فِي الْمُكَافَاةِ لِمَا هُوَ أَنْقَصُ أَكْثَرُ مِنْ أَخْتِيَارِهِ لِمَا هُوَ

أَزِيدُ وَسَوَاءٌ وَقَعَتْ مُكَافَأَتُهُ بِمَا هُوَ أُنْقَصُ أَوْ بِمَا هُوَ مُسَاوٍ. أَوْ بِمَا
 هُوَ شَدِيدٌ فَهِيَ الْمُكَافَأَةُ الْجَمِيلَةُ لِأَنَّ مُكَافَأَتَهُ بِالْأَنْقَصِ لَمْ تَكُنْ
 مِنْهُ بِاخْتِيَارٍ لِذَلِكَ بَلْ لِأَنَّهُ لَمْ يَتَيَسَّرْ ذَلِكَ فَإِذَا اتَّفَقَ أَنْ يَكُونَ
 مَعَ هَذَا ذَلِكَ الْفَضْلُ مِمَّا يَسُرُّ بِهِ الْأَصْدِقَاءُ أَغْنَى أَصْدِقَاءُ
 الْمُكَافِيءِ بِالْفِعْلِ وَيَسُوهُ أَعْدَاءُهُ وَيَكُونُ مَعَ هَذَا مُتَعَجِّبًا مِنْهُ
 عِنْدَ الْجُمْهُورِ. وَذَلِكَ بِالإِضَافَةِ إِلَى مَنْ صَدَرَ عَنْهُ عَظِيمٌ وَقَعَهُ مِنْ
 الْمُضْطَنَعِ إِلَيْهِ وَبِخَاصَّةٍ إِذَا كَانَتِ الصَّنِيعَةُ مِمَّا تُوَافِقُ شَهْرَةَ الْمُضْطَنَعِ
 إِلَيْهِ مِثْلَ أَنْ يُكَافِيَ أَوْ يُبَدَأَ بِحُبِّ الْكَرَامَةِ بِالْكَرَامَةِ وَحُبِّ
 أَمْالٍ بِأَمْالٍ وَحُبِّ الْغَلَبَةِ بِالْغَلَبَةِ فَإِنَّ هَذِهِ الصَّنِيعَةَ لَيْسَتْ هِيَ
 لَذِيذَةٌ فَقَطْ عِنْدَ الَّذِي تُضْطَنَعُ إِلَيْهِ أَوْ يُكَافَى بِهَا بَلْ هِيَ عِنْدَهُ
 فَاضِلَةٌ وَكَذَلِكَ الْأَمْرُ فِي سَائِرِ أَصْنَافِ الْخَيْرَاتِ وَإِنَّمَا تَكُونُ
 أَفْعَالُ الصَّانِعِ وَالْمُكَافَأَةُ عَلَى الْمُبْتَدِئِ وَالْمُكَافِيءِ أَفْعَالًا سَهْلَةً
 يُمَكِّنُ أَنْ يُدَاوِمُوا عَلَيْهَا مَتَى كَانُوا بِاسْتِعْدَادِهِمُ الطَّبِيعِيِّ مُهَيَّيِّنِينَ
 لِتِلْكَ الْأَفْعَالِ وَكَانَتْ قَدْ حَصَلَتْ لَهُمُ الْمَلَكَةُ الَّتِي بِهَا تُصَدَّرُ مِنْهُمْ
 تِلْكَ الْأَفْعَالُ وَمِنْ الصَّانِعِ الْإِسِيرَةِ الَّتِي يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا لَيْسَ تُنْقُصُ
 الْمُضْطَنَعُ شَيْئًا إِلَّا ضُطْنَعَ بِالتَّأْدِيبِ وَالْمَوْظَلَةِ



البحث التاسع

في إثبات الخيور وفي شروط تفضيل بعضها على بعض

والاسباب الموجبة لذلك

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) فَمِنْ هَذِهِ أَلْوَجُوهِ يَأْخُذُ الْخَطِيبُ أَلْمُقَدِّمَاتِ الَّتِي مِنْهَا يُقْنَعُ أَنَّ الشَّيْءَ نَافِعٌ أَوْ غَيْرُ نَافِعٍ. وَمِنْ أَجْلِ أَنَّ الْخَطِيبَ قَدْ يَعْتَرِفُ أَحْيَانًا بِأَنَّ الْأَمْرَ نَافِعٌ وَلَكِنْ يَدَّعِي أَنَّ هَٰهُنَا شَيْئًا هُوَ أَنْفَعُ فَقَدْ يَحْتَاجُ أَنْ تَكُونَ عِنْدَهُ مَوَاضِعُ يَقْدِرُ أَنْ يُبَيِّنَ بِهَا أَنَّ الْأَمْرَ أَنْفَعُ وَأَفْضَلُ. فَمِمَّا أَنْ مَا كَانَ نَافِعًا فِي كُلِّ الْأَشْيَاءِ فَهُوَ أَنْفَعُ مِمَّا هُوَ نَافِعٌ فِي بَعْضِ الْأَشْيَاءِ. وَالَّذِي هُوَ أَدْوَمُ نَفْعًا هُوَ أَنْفَعُ مِنَ الَّذِي هُوَ أَقْصَرُ نَفْعًا. وَالَّذِي هُوَ أَكْبَرُ هُوَ أَنْفَعُ مِنَ الْأَصْغَرِ. وَالَّذِي هُوَ أَكْثَرُ هُوَ أَنْفَعُ مِنَ الْأَقَلِّ. وَالَّذِي جَمَعَ مِنْ صِفَاتِ الْخَيْرِ أَكْثَرَ أَوْ جَمَعَ صِفَاتِهِ كُلَّهَا فَهُوَ أَنْفَعُ. وَصِفَاتُ الْخَيْرِ الثَّلَاثُ هُوَ أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ مُخْتَارًا مِنْ أَجْلِ نَفْسِهِ لَا مِنْ أَجْلِ غَيْرِهِ وَأَنْ يَكُونَ مُتَشَوِّقًا عِنْدَ الْكُلِّ وَأَنْ يَكُونَ ذَوُو الْفَضْلِ وَاللَّبِّ يَخْتَارُونَهُ وَالَّذِي جَمَعَ هَذِهِ الصِّفَاتِ كُلَّهَا أَوْ أَكْثَرَهَا فَهُوَ الْخَيْرُ وَالنَّافِعُ الَّذِي فِي الْغَايَةِ وَهُوَ الْغَايَةُ لِسَائِرِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تُوصَفُ بِالْخَيْرِ. وَالْأَشْيَاءُ الْمُتَصِفَةُ بِالْخَيْرِ الْمُتَعَلِّقَةُ بِهَذَا الْخَيْرِ الَّذِي

جَمَعَ هَذِهِ الصِّفَاتِ إِنَّمَا يُقَالُ فِيهَا أَنَّهَا أَنْفَعُ إِذَا وُجِدَ فِي وَاحِدٍ مِنْهَا صِفَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ أَوْ أَكْثَرُ مِنْ صِفَةٍ وَاحِدَةٍ . وَكُلُّ مَا كَانَ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ تَوَجَّدَ فِيهِ صِفَاتٌ أَكْثَرُ مِنْ صِفَاتِ الْخَيْرِ فَهُوَ أَنْفَعُ مَا لَمْ تَكُنِ الصِّفَةُ الْوَاحِدَةُ أَنْفَعُ مِنْ اثْنَتَيْنِ أَوْ مِنْ ثَلَاثٍ . وَآيُضًا فَمَا كَانَ الْعَظِيمُ فِيهِ أَفْضَلُ مِنَ الْعَظِيمِ فِي جِنْسٍ آخَرَ فَأَجْلِسُ الَّذِي فِيهِ الْعَظِيمُ الْأَفْضَلُ هُوَ أَفْضَلُ مِنَ الْجِنْسِ الْآخَرِ وَمَا كَانَ الْجِنْسُ مِنْهُ أَفْضَلُ مِنَ الْجِنْسِ الْأَفْضَلِ قَالَ الْعَظِيمُ مِنَ الْجِنْسِ الْأَفْضَلِ أَفْضَلُ مِنَ الْعَظِيمِ مِنَ الْجِنْسِ الْآخَرِ وَهُوَ عَكْسُ الْأَوَّلِ . وَمِثَالُ ذَلِكَ أَنَّهُ إِنْ كَانَ الذَّكَرَانُ أَفْضَلَ مِنَ الْإِنَاثِ قَالَ الرَّجُلُ أَفْضَلُ مِنَ الْمَرْأَةِ وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ أَفْضَلَ مِنَ الْمَرْأَةِ قَالَ الذَّكَرَانُ أَفْضَلُ مِنَ الْإِنَاثِ . وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ لِأَنَّ نِسْبَةَ الْعَظِيمِ إِلَى جِنْسِهِ هِيَ كِنِسْبَةِ الْعَظِيمِ الْآخَرِ إِلَى جِنْسِهِ فَتَكُونُ نِسْبَةُ الْجِنْسِ إِلَى الْجِنْسِ هِيَ نِسْبَةُ الْعَظِيمِ إِلَى الْعَظِيمِ . ثُمَّ إِذَا كَانَ الشَّيْءُ لَا زِمًا لِشَيْءٍ مَا وَالْآخَرُ غَيْرَ لَا زِمَ لَهُ فَإِنَّ الَّذِي يَلْزَمُ عَنْهُ الشَّيْءُ آثَرُ مِنَ الَّذِي لَا يَلْزَمُ عَنْهُ الشَّيْءُ . مِثَالُ ذَلِكَ السُّلْطَانُ وَالثَّرْوَةُ فَإِنَّ الثَّرْوَةَ تَلْزَمُ السُّلْطَانَ وَلَيْسَ يَلْزَمُ السُّلْطَانُ الثَّرْوَةَ . فَلِذَلِكَ السُّلْطَانُ أَفْضَلُ مِنَ الثَّرْوَةِ وَكَذَلِكَ الْحَالُ فِي الْمَضَارِّ فَإِنَّ الْفَقْرَ يَلْزَمُ عَنْهُ الْجُبْنُ وَلَيْسَ يَلْزَمُ عَنْ الْجُبْنِ الْفَقْرُ . فَالْفَقْرُ أَكْثَرُ شَرًّا مِنَ الْجُبْنِ وَاللَّازِمُ يُوجَدُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : إِمَّا أَنْ يُوجَدَا مَعًا أَعْنِي اللَّازِمَ وَالْمَلْزُومَ مِثْلُ وَجُودِ الْأَبْيَضِ وَالْبَيَاضِ

مَعًا وَمِثْلُ لُزُومِ الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ. وَإِمَّا أَنْ يُوجَدَ اللَّازِمُ تَابِعًا
بِآخِرَةِ مِثْلُ لُزُومِ الْعِلْمِ عَنِ التَّعَلُّمِ. وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ تَلَاذُمُهُمَا فِي
الْقُوَّةِ أَيْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا يَفْعَلُ فِعْلَ الْآخَرِ وَلَا يَنْعَكِسُ أَغْنِي
أَلَّا يَفْعَلَ الْآخَرُ فِعْلَ الْأَوَّلِ. وَمِثَالُ ذَلِكَ الْفَقْرُ وَالْبُخْلُ فَإِنَّ الْفَقْرَ
يَلْزِمُ عَنْهُ أَنْ يَفْعَلَ الْإِنْسَانُ فِعْلَ الْبُخْلِ وَلَيْسَ يَلْزِمُ عَنِ الْبُخْلِ فِعْلُ
الْفَقْرِ فَإِنَّ الْفَقْرَ يَعُوقُ عَنْ أَشْيَاءَ أَكْثَرٍ مِنْ عَدَمِ اسْتِعْمَالِ الْمَالِ
الَّذِي هُوَ الْبُخْلُ وَأَيْضًا الَّذِي يَفْعَلُ خَيْرَ الْأَنْفَعِ هُوَ أَنْفَعُ مِنَ
النَّافِعِ. وَمِثَالُ ذَلِكَ الْجِلْدُ وَالْجَمَالُ فَإِنَّ كُلَّيْهِمَا نَافِعٌ وَخَيْرُ وَالْجِلْدُ
يُفْعَلُ بِهِ خَيْرٌ أَعْظَمُ مِمَّا يُفْعَلُ بِالْجَمَالِ فَهُوَ أَعْظَمُ نَفْعًا. وَكَذَلِكَ
الصِّحَّةُ أَيْضًا أَعْظَمُ نَفْعًا مِنَ اللَّذَّةِ لِأَنَّ الصِّحَّةَ يُفْعَلُ بِهَا خَيْرَاتٌ
أَكْثَرُ مِمَّا يُفْعَلُ بِاللَّذَاتِ. وَأَيْضًا فَإِنَّ الَّذِي يُخْتَارُ مُفْرَدًا أَفْضَلُ نَفْعًا
مِنَ الَّذِي لَا يُخْتَارُ إِلَّا مَعَ ذَلِكَ الْمُخْتَارِ مُفْرَدًا. وَمِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ
الْجَمَالَ لَا يُخْتَارُ إِلَّا مَعَ الصِّحَّةِ وَالصِّحَّةُ تُخْتَارُ دُونَ الْجَمَالِ فَالصِّحَّةُ
أَفْضَلُ نَفْعًا مِنَ الْجَمَالِ. وَأَيْضًا إِذَا كَانَ شَيْئَانِ أَحَدُهُمَا كَمَالًا
وَالْآخَرُ طَرِيقٌ إِلَى الْكَمَالِ فَالَّذِي هُوَ كَمَالٌ أَفْضَلُ. مِثْلُ الصِّحَّةِ
وَاللَّذَّةِ فَإِنَّ الصِّحَّةَ كَمَالٌ وَاللَّذَّةُ كَوْنٌ وَالْكَوْنُ طَرِيقٌ إِلَى الْكَمَالِ.
وَإِذَا كَانَ شَيْئَانِ أَحَدُهُمَا يُخْتَارُ لِذَاتِهِ وَالْآخَرُ يُخْتَارُ مِنْ أَجْلِ غَيْرِهِ
فَالَّذِي يُخْتَارُ مِنْ أَجْلِ نَفْسِهِ أَفْضَلُ مِنَ الَّذِي يُخْتَارُ مِنْ أَجْلِ
غَيْرِهِ. وَمِثَالُ ذَلِكَ الْحِكْمَةُ وَالْيَسَارُ فَإِنَّ الْحِكْمَةَ تُخْتَارُ لِذَاتِهَا
وَالْيَسَارَ يُخْتَارُ لِغَيْرِهِ. وَأَيْضًا فَإِنَّ الَّذِي يَجْعَلُ الْمَرْءَ إِذَا أَوْتَاهُ أَقْلًا

حَاجَةً إِلَى أَصْدِقَانِهِ أَوْ إِلَى الْإِنْسَانِ فَهُوَ أَفْضَلُ مِنَ الَّذِي يَجْمَعُهُ
أَكْثَرُ حَاجَةٍ. فَإِنَّ مَنْ هُوَ أَكْثَرُ كِفَايَةً وَاسْتِغْنَاءً عَنِ النَّاسِ هُوَ الَّذِي
يَحْتَاجُ إِلَى أَشْيَاءَ قَلِيلَةٍ الْعَدَدِ سَهْلٍ وَخُودَهَا. وَأَيْضًا إِذَا كَانَ شَيْئَانِ
أَحَدُهُمَا يُخْرِجُ اقْتِنَاؤَهُ إِلَى الثَّانِي وَالثَّانِي لَا يُخْرِجُ اقْتِنَاؤَهُ إِلَى
الْآخِرِ فَإِنَّ الَّذِي لَا يُخْرِجُ اقْتِنَاؤَهُ إِلَى الْآخِرِ هُوَ آثَرُ. مِثَالُ ذَلِكَ
الْيَسَارُ وَالْبَنُونُ فَإِنَّ الْبَنِينَ يُخْرِجُونَ إِلَى اقْتِنَاءِ أَمْوَالٍ وَالْيَسَارُ لَيْسَ
يُخْرِجُ إِلَى اقْتِنَاءِ الْبَنِينَ فَالْيَسَارُ أَفْضَلُ نَفْعًا

(قَالَ) وَيَسْتَبِينُ أَنَّ الشَّيْءَ الَّذِي هُوَ مَبْدَأٌ لَيْسَ يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ أَعْظَمَ
مِنَ الشَّيْءِ الَّذِي هُوَ لَهُ مَبْدَأٌ. وَذَلِكَ أَنَّ الْإِرَادَةَ مَبْدَأُ الْخَيْرِ وَفِعْلُ
الْخَيْرِ أَعْظَمُ مِنْ إِرَادَةِ الْخَيْرِ. وَكَذَلِكَ التَّعَلُّمُ وَالْعِلْمُ وَإِنْ كَانَ
لَيْسَ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ الدَّافِعُ دُونَ مَبْدَأِهِ. وَإِذَا كَانَ
شَيْئَانِ مَبْدَأَيْنِ لِشَيْئَيْنِ وَاحِدُ الْمَبْدَأَيْنِ أَعْظَمُ مِنَ الثَّانِي فَإِنَّ الَّذِي
يَكُونُ عَنِ الْمَبْدَأِ الْأَعْظَمِ أَعْظَمُ. وَعَكْسُ هَذَا أَيْضًا وَهُوَ إِذَا كَانَ
ثَمَانِ مَبْدَأَيْنِ لِشَيْئَيْنِ عَلَى أَنَّهُمَا فَاعِلٌ وَاحِدُهُمَا أَعْظَمُ مِنَ الثَّانِي
فَإِنَّ الَّذِي هُوَ مَبْدَأٌ لِلْأَعْظَمِ أَعْظَمُ. وَكَذَلِكَ إِذَا كَانَ مَبْدَأَانِ عَلَى
أَنَّهُمَا غَايَةٌ وَإِذَا قِيسَ الْمَبْدَأُ الْفَاعِلُ إِلَى الْغَايَةِ أَمْكَنُ أَنْ يُتَوَهَّمَ
أَنَّ الْفَاعِلَ أَعْظَمُ مِنَ الْغَايَةِ. وَذَلِكَ أَنَّ الْفَاعِلَ هُوَ الَّذِي يَفْعَلُ
الْغَايَةَ وَلَوْلَا هُوَ لَمْ تُوجَدْ الْغَايَةُ وَأَمْكَنُ أَنْ يُتَوَهَّمَ أَيْضًا أَنَّ الْغَايَةَ
أَعْظَمُ مِنَ الْمَبْدَأِ. وَذَلِكَ أَنَّهُ لَوْلَا الْغَايَةُ لَكَانَ الْفَاعِلُ فَضْلًا. فَمِثَالُ
مَا تَجَعَلَ الْغَايَةَ فِيهِ أَعْظَمَ مِنَ الْفَاعِلِ قَوْلُ مَنْ يَقُولُ فِي الدَّمِ: إِنَّ

فَلَا نَا أَوَّلَى بَأَن يُنْسَبَ إِلَى الْجَوْرِ فِي فِعْلِهِ كَذَا مِنْ فُلَانٍ الَّذِي
أَشَارَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ ذَلِكَ الْفِعْلُ إِذْ لَوْ لَمْ يَفْعَلْ
هُوَ ذَلِكَ الْفِعْلُ لَمْ يَقَعْ ذَلِكَ الذَّرَرُ. وَمِثَالُ مَا يُجْعَلُ الْفَاعِلُ فِيهِ
أَعْظَمَ مِنَ الْغَايَةِ قَوْلُ الْقَائِلِ: فُلَانٌ أَحَقُّ بِالشُّكْرِ عَلَى هَذَا الْفِعْلِ
مِنْ فُلَانٍ لِأَنَّ فُلَانًا هُوَ الَّذِي أَشَارَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ الْفِعْلِ وَلَوْ لَا
إِشَارَتُهُ لَمْ يَكُنْ لِفَعْلٍ ذَلِكَ الْفِعْلُ الْحَمْدُ وَفِي كِلَا الْمَوْضِعَيْنِ
مَا قَبْلَ الْغَايَةِ إِنَّمَا يُفْعَلُ لِمَكَانِ الْغَايَةِ. وَأَيْضًا فَإِنَّ الَّذِي وَجُودُهُ
أَقْلُ فَهُوَ أَفْضَلُ مِثْلُ الذَّهَبِ وَالْحَدِيدِ غَيْرَ أَنَّهُ إِنْ كَانَ الذَّهَبُ
أَقْلَ وَجُودًا مِنَ الْحَدِيدِ فَلَيْسَ هُوَ أَنْفَعُ. وَأَيْضًا مُقَابِلُ هَذَا وَهُوَ أَنَّ
مَا كَثُرَ وَجُودُهُ فَهُوَ أَفْضَلُ مِمَّا قَلَّ وَجُودُهُ لِكَثْرَةِ مَنَافِعِهِ وَمِنْ هُنَا
يُقَالُ إِنْ أَلَاءَ خَيْرٌ لِكَثْرَةِ وَجُودِهِ وَعُمُومِ مَنَافِعِهِ. وَأَيْضًا فَإِنَّ مَا
هُوَ أَعْسَرُ وَجُودًا فَهُوَ أَفْضَلُ لِأَنَّ مَا عَسَرَ وَجُودُهُ قَلَّ وَجُودُهُ
وَمَا قَلَّ وَجُودُهُ فَهُوَ غَرِيبٌ وَيَتَنَافَسُ فِيهِ. وَمُقَابِلُ ذَلِكَ وَهُوَ أَنَّ مَا
سَهْلٌ وَجُودُهُ فَهُوَ أَفْضَلُ لِأَنَّهُ يُوجَدُ فِي كُلِّ حِينٍ يَتَشَوَّقُ إِلَيْهِ.
وَأَيْضًا الشَّيْءُ الَّذِي ضِدُّهُ أَعْظَمُ فَهُوَ أَفْضَلُ. وَأَيْضًا الَّذِي عَدِمُهُ
أَشَدُّ ضَرَرًا فَهُوَ أَنْفَعُ. وَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يُفْهَمَ هَا هُنَا مِنَ الْأَعْظَمِ
وَالْأَقْلِ عِظَمُ الْمَقَاسَةِ فِي الْخَيْرِ فَقَطْ بَلْ وَفِي الشَّرِّ وَفِيمَا هُوَ لَا
خَيْرَ وَلَا شَرَّ. وَأَيْضًا فَإِنَّ الْغَايَاتِ وَالْأَشْيَاءَ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا تُفْعَلُ
الْأَفْعَالُ إِذَا سَكَتَ الْغَايَاتُ بَعْضُهَا أَزِيدَ خَيْرًا مِنْ بَعْضٍ أَوْ أَزِيدَ
شَرًّا مِنْ بَعْضٍ فَإِنَّ الْأُمُورَ الْمَتَقَدِّمَةَ لِتِلْكَ الْغَايَاتِ الْأَزِيدِ هِيَ

أَزِيدُ. وَأَيْضًا فَإِنْ مَا كَانَ مِنَ الْمَلَكَاتِ وَالْفَضَائِلِ وَبِالْجُمْلَةِ الْأَشْيَاءِ
الْفَاعِلَةُ أَكْثَرُ فَإِنَّ أَعْمَالَهَا الصَّادِرَةَ عَنْهَا تَكُونُ أَكْثَرُ لِأَنَّ نِسْبَةَ
الْأَفْعَالِ إِلَى مَبَادِيهَا هِيَ نِسْبَةُ الْمَبَادِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ. فَإِنَّهُ
إِنْ كَانَ الْبَصَرُ أَثَرٌ مِنَ الشَّمِّ فَإِنَّ الْأَبْصَارَ أَثَرٌ مِنَ الشَّمِّ
وَهَكَذَا يُوجَدُ الْأَمْرُ فِي جَمِيعِ الْأَفْعَالِ مَعَ أَسْبَابِهَا الْفَاعِلَةِ لَيْسَ
فِي الذَّاتِيَّةِ فَقَطْ بَلْ وَفِيهَا يَعْزِضُ عَنِ الشَّيْءِ بِالْإِتِّفَاقِ فَإِنَّ الْعَظِيمَ
يَكُونُ الْإِتِّفَاقُ الَّذِي يَعْزِضُ أَهْ عَظِيمًا وَفِي الْأَعْرَاضِ الْمَوْجُودَةِ فِي
الشَّيْءِ أَغْنِي أَنْ الشَّيْءَ الْأَكْثَرُ الْعَرَضُ الْمَوْجُودُ فِيهِ أَكْثَرُ. وَأَيْضًا
أَنْ يُحِبَّ الْإِنْسَانُ صَاحِبَ الْمَالِ أَفْضَلُ مِنْ أَنْ يُحِبَّ الْمَالَ لِأَنَّ
حُبَّ الْإِنْسَانِ أَفْضَلُ مِنْ حُبِّ الْمَالِ. وَأَيْضًا فَإِنَّ الْفَضَائِلَ أَفْضَلُ
مِنْ ذَوِي الْفَضَائِلِ وَالْأَشْيَاءِ الَّتِي شَهَوَاتُهَا فَاضِلَةٌ أَفْضَلُ مِنَ الَّتِي
شَهَوَاتُهَا غَيْرُ فَاضِلَةٍ. مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ شَهْوَةَ الْعُلُومِ فَاضِلَةٌ وَشَهْوَةُ
الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ غَيْرُ فَاضِلَةٍ فَالْعُلُومُ أَفْضَلُ مِنَ الْأَكْلِ
وَالشُّرْبِ. وَأَيْضًا عَكْسُ هَذَا وَهُوَ أَنَّ مَا هُوَ أَفْضَلُ فَشَهْوَتُهُ أَفْضَلُ
مِثْلَ أَنْ الْحِكْمَةَ أَفْضَلُ مِنَ الصِّحَّةِ فَشَهْوَتُهَا أَفْضَلُ مِنْ شَهْوَةِ
الصِّحَّةِ. وَأَيْضًا فَإِنَّ الْعُلُومَ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ وَأَفْضَلُ فَأَعْمَالُهَا خَيْرٌ
وَأَفْضَلُ. مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَتِ الْعُلُومُ الْعِلْمِيَّةُ أَفْضَلُ مِنَ
الْعَمَلِيَّةِ كَانَ فِعْلُهَا الَّذِي هُوَ الصِّدْقُ أَفْضَلُ مِنَ الَّتِي فِعْلُهَا الْعَمَلُ.
وَعَكْسُ هَذَا وَهُوَ أَنَّ الَّتِي فِعْلُهَا أَفْضَلُ مِنَ الْعُلُومِ فَهِيَ أَفْضَلُ
وَذَلِكَ أَنَّ الْوُقُوفَ عَلَى الْحَقِّ لَمَّا كَانَ أَفْضَلُ مِنَ الْعَمَلِ كَانَتْ

الصَّانِعُ الْعِلْمِيَّةُ أَفْضَلُ مِنَ الْعَمَلِيَّةِ وَإِنَّمَا كَانَا هَذَانِ الْمَوْضِعَانِ مُتَلَاذِمَيْنِ لِأَنَّ نِسْبَةَ الصِّاعَةِ إِلَى الصِّاعَةِ هِيَ نِسْبَةُ فِعْلِهَا إِلَى فِعْلِهَا (قَالَ) وَالَّذِي يَحْكُمُ بِهِ الْكُلُّ مِنَ الْجُمْهُورِ أَوْ الْأَكْثَرُ أَوْ ذَوُو الْأَلْبَابِ وَالْأَخْيَارُ الصَّالِحُونَ أَنَّهُ خَيْرٌ وَأَفْضَلُ فَهُوَ أَفْضَلُ بِإِطْلَاقٍ وَفِي نَفْسِهِ إِذَا كَانَ حُكْمُهُمْ فِي الْأَشْيَاءِ بِحَسَبِ فِطْرِهِمْ وَكَانُوا ذَوِي لُبٍّ لَا بِحَسَبِ مَا اسْتَفَادُوهُ مِنَ الْآرَاءِ مِنْ خَارِجٍ فَإِنَّ ذَوِي الْأَلْبَابِ وَالنَّاسَ قَدْ يَقُولُونَ بِفِطْرِهِمْ فِي الْفَضَائِلِ وَالْخَيْرَاتِ مَا هِيَ وَكَمْ هِيَ وَعِنْدَ آيٍ شَيْءٌ هِيَ وَإِنْ كَانَ مَا يَقِفُونَ عَلَيْهِ بِفِطْرِهِمْ دُونَ مَا يُوقِفُ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ فِي الْعُلُومِ وَمَا قِيلَ فِي حَدِّ الْخَيْرِ وَنَ أَنَّهُ الَّذِي يَتَشَوُّهُ الْكُلُّ إِنَّمَا يُرَادُ بِذَلِكَ الْخَيْرُ الَّذِي يَتَشَوُّهُ الْكُلُّ بِحَسَبِ فِطْرِهِمِ الطَّبِيعِيَّةِ أَعْنِي اللَّيْبَةُ فَإِنَّ مَا تَتَشَوُّهُ الْفِطْرُ اللَّيْبَةُ بِمَا هِيَ فِطْرُ لَيْبَةٍ هُوَ خَيْرٌ مُطْلَقٌ أَوْ خَيْرٌ أَفْضَلُ مِنْ خَيْرٍ مِثْلُ عِلْمِهِمْ أَنَّ الشَّجَاعَةَ وَالْأَدَبَ وَالْجَلَدَ خَيْرَاتٌ وَتَشَوُّقُهُمْ إِيَّاهَا. وَأَمَّا الَّذِي هُوَ خَيْرٌ بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْإِنْسَانِ مَا مِثْلُ مَنْ يَرَى مِنَ النَّاسِ الْفَاضِلِينَ أَنَّهُ أَنْ يُجَارَ عَلَيْهِ أَفْضَلُ مِنْ أَنْ يُجَوَّرَ هُوَ فَإِنَّ هَذَا الْخَيْرَ لَا يُدْرِكُهُ النَّاسُ بِحَسَبِ طَبَاعِهِمْ وَإِنَّمَا يَرَى هَذَا الرَّأْيُ الَّذِي هُوَ مِنَ النَّاسِ فِي غَايَةِ الْعَدْلِ وَالْفَضْلِ. وَأَيْضًا مَا كَانَ مِنَ الْخَيْرَاتِ مَعَهُ أَكْثَرُ لَذَّةٍ فَهُوَ أَثَرٌ. وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ لِأَنَّ الْكُلَّ مِنَ الْجُمْهُورِ يَتَسَدِّدُونَ إِلَى اللَّذَّةِ وَيَطْلُبُونَهَا وَطَلَبُهُمُ اللَّذَّةُ هُوَ مِنْ أَجْلِ اللَّذَّةِ نَفْسِهَا لَا مِنْ أَجْلِ شَيْءٍ آخَرَ غَيْرِهَا. وَمَا

كَانَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ أَغْنَى مُتَشَوِّقًا لِلْكُلِّ فَقَدْ قِيلَ إِنَّهُ الْخَيْرُ وَالْعَايَةُ
فَاللَّذَّةُ إِذَنْ خَيْرٌ وَالْأَزِيدُ لَذَّةٌ هِيَ الْمَلَذَّاتُ الَّتِي هِيَ أَزْرَأُ مِنَ الْأَذَى
وَالْحُزْنِ وَأَدْوَمُ بَقَاءً. وَاللَّذَّةُ الْجَمِيلَةُ الَّتِي مِنَ اللَّذَّةِ الْقَبِيحَةِ لِأَنَّ الْجَمِيلَ
يَمَّا قَدْ يُخْتَارُ بِذَاتِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَذِيذًا وَهُوَ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُخْتَارُ
الْمَرْءُ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ لِيَكُونَهُ إِمَّا لِنَفْسِهِ وَإِمَّا لِصَدِيقِهِ. وَبِالْجَمَلَةِ فَكُلُّ
مَا كَانَ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمِلْدَّةِ أَفْضَلَ فَهُوَ الَّذِي يَمَّا هُوَ أَحْسَنُ وَكُلُّ مَا هُوَ
مِنْهَا أَطْوَلُ مُدَّةً فَهُوَ الَّذِي مِنَ الَّتِي هِيَ مِنْهَا أَقْصَرُ مُدَّةً وَكُلُّ مَا كَانَ
مِنْ الْخَيْرَاتِ أَثْبَتَ فِيمَا فَهُوَ الَّذِي يَمَّا هُوَ أَقْلُ ثَبَاتًا وَذَلِكَ أَنَّ الصِّحَّةَ
لَمَّا كَانَتْ أَرْسَخَ فِينَا مِنْ الْجَمَالِ كَانَ وَجُودُ الصِّحَّةِ لَنَا أَلَدَّ مِنْ
وُجُودِ الْجَمَالِ. وَالْأَشْيَاءُ اللَّذِيذَةُ أَوْ الْأَكْثَرُ لَذَّةً إِنَّمَا السَّبَبُ
فِي وَجُودِهَا لَنَا بِهَذِهِ الصِّفَةِ أَحَدُ أَمْرَيْنِ إِمَّا طَوِيلُ اِعْتِيَادِ الشَّيْءِ حَتَّى
يَصِيرَ لَنَا الْإِلْتِذَاذُ بِهِ مِنْ قَبْلِ الْعَادَةِ كَالْحَالِ فِي اللَّذَّةِ الْحَاصِلَةِ عَنْ
الْعِلْمِ. وَإِمَّا مِنْ قَبْلِ أَنَّهَا لَذِيذَةٌ جَدًّا عِنْدَنَا بِالطَّبْعِ وَالْهَوَى فَاَلْأَشْيَاءُ
إِذَنْ إِنَّمَا تَصِيرُ أَكْثَرُ لَذَّةً إِمَّا مِنْ قَبْلِ طَوِيلِ الزَّمَانِ وَإِمَّا مِنْ
قَبْلِ الْهَوَى وَالْمُوَافَقَةِ الَّتِي بِالطَّبْعِ. وَجَمِيعُ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تُتَلَاثِمُ هَوَانًا
مُلَاثِمَةً أَكْثَرَ فَإِنَّ مَنَفْعَتَهَا لَنَا إِنَّمَا تَكُونُ فِي دُسُوحِهَا وَثُبُوتِهَا.
وَقَدْ تُؤْخَذُ مُقَدِّمَاتُ الْإِنْفَعِ وَالْأَفْضَلُ مِنْ مَوَاضِعِ النُّظَائِرِ
وَالْتَّعَارِيفِ. وَذَلِكَ أَنَّهُ إِنْ كَانَتِ الشُّجَاعَةُ آثَرُ مِنَ الْعَفَافِ فَالرَّجُلُ
الشُّجَاعُ آثَرُ مِنَ الرَّجُلِ الْعَفِيفِ

(قَالَ) وَمَا اخْتَارَهُ الْكُلُّ آثَرًا يَمَّا لَا يُخْتَارُهُ الْكُلُّ مِنْ

الجمهور وما اختاره أيضا كثير من الناس أثر مما يختاره القليل من
الناس فإن الخير كما قيل هو الذي يشاق إليه الكل . وما
اختاره أيضا الحكماء الأول أعني الذين لا يأخذون الأحكام
من غيرهم وهم الشرائع أفضل مما لم يختاروه . وما اختاره أيضا
الذين يتلقون الأحكام من هؤلاء أفضل مما ليس يختاره هؤلاء .
والذين يتلقون الأحكام من الحكماء الأول وهم الذين تؤخذ عنهم
أصول الأحكام صنفان إما سامع فقط مبلغ وإما سامع عالم
أي قادر على أن يستنبط من تلك الأصول أحكاما ما لم
يصرح بها الحكماء الأول . وهؤلاء صنفان إما مسلطون من قبل
الحكماء الأول وهم القضاة وما أشبههم وإما غير مسلطين وهم
الفقهاء . ومن هذه الأشياء ما لجميع أصناف المتلقين من الحكماء
الأول أن يقولوا فيها . وهو ما سمعوه أو ما شاهدوه من الحاكم
الأول ومنها ما يختص بذوي العلم . ونهم وهو القول في الأشياء التي
تستنبط عن الأحكام الأول التي صرح بها الحاكم الأول وليس
للسامعين دون علم . أن يقولوا في هذه الأشياء . وأما الذي يخص
الحكماء الأول القول فيه فهي الأصول التي تنزل منزلة
المبادئ لساير ما يحكم به السامعون ذوو العلم أعني المسلطين
والفقهاء وهي التي يسيها أرسطو الأمور العظمى . والفضلاء الأبرار
الذين جرت العادة أن يأخذ عنهم الجميع أو الأكثر فحكمهم
أفضل فإن عدم الأخذ قد يحيل هوانا ونقصا في المرء الفاضل البر

وَقَوْلُهُ قَبُولُ لِقَوْلِهِ وَقَدْ يُخَيَّلُ الْأَمْرُ بِعَكْسِ هَذَا. وَذَلِكَ أَنَّهُ رُبَّمَا كَانَ هَؤُلَاءِ الْأَبْرَارُ الْفَاضِلُونَ مَقْبُولِي الْقَوْلِ مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَأْخُذْ أَحَدٌ مِنَ الْجُمْهُورِ عَنْهُمْ أَصْلًا شَيْئًا أَوْ إِنَّمَا أَخَذَ عَنْهُمْ قَلِيلٌ. وَذَلِكَ أَنَّ أَقَاوِيلَ هَؤُلَاءِ قَدْ يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا مَقْبُوءَةٌ بِجِهَةٍ أُخْرَى وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ الْمَرْضِيُّ عِنْدَ الْجُمْهُورِ مَنْ لَيْسَ مَرْضِيًّا فِي نَفْسِهِ وَالْأَقْلَ مِنْ الْجُمْهُورِ وَهُمْ ذَوُو التَّمْيِيزِ. وَآيضًا فَإِنَّ الْفَاضِلِينَ الَّذِينَ كَتَمُوا فَضَائِلَهُمْ عَنِ الْجُمْهُورِ هُمْ مَمْدُوحُونَ أَكْثَرًا وَهُمْ أَقْلٌ وَجُودًا وَأَعَزُّ لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا كَتَمُوا فَضَائِلَهُمْ عَنِ الْجُمْهُورِ لِمَا خَافُوا أَنْ يَلْحَقَهُمْ مِنَ الْكَرَامَاتِ وَالرِّئَاسَاتِ الَّتِي يُخَافُ إِذَا لَحِقَتْ الْمَرْءَ أَنْ تَكُونَ سَبَبًا لِأَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ اللَّاحِقَةُ بِالْفَضَائِلِ هِيَ الْمَقْصُودَةُ عِنْدَهُ بِالْفَضَائِلِ. فَمَنْ هَا هُنَا صَارَتْ أَقْوَالُ هَذَا الصِّنْفِ مَقْبُوءَةً كَمَا صَارَتْ أَقْوَالُ الصِّنْفِ الْأَوَّلِ الْمُضَادِّ لِهَذَا مَقْبُوءَةً وَهُمْ الَّذِينَ أَخَذَ عَنْهُمْ الْجُمْهُورُ

(قَالَ) وَمِنْ الصِّنْفِ الْمَقْبُولِ الْقَسُولِ مِنَ النَّاسِ جِدًّا جِدًّا الصِّنْفُ الَّذِينَ كَرَّامَاتُهُمْ أَعْظَمُ لِأَنَّ الْكَرَامَةَ لَمَّا كَانَتْ مُكَافَاةَ الْفَضِيلَةِ كَانَ الْمَرْءُ كُلَّمَا عَظُمَتْ كَرَامَتُهُ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ قَدْ عَظُمَتْ فَضِيلَتُهُ. وَالصِّنْفُ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ نَالَتْهُمْ الْمَضَرَّةُ الْعَظِيمَةُ وَالشَّقَاءُ الْكَبِيرُ لِمَكَانِ الْفَضَائِلِ هُمْ آيضًا مَقْبُولُو الْأَقْوَالِ جِدًّا جِدًّا بِمَثَرَةِ سُقْرَاطَ وَغَيْرِهِ وَالصِّنْفُ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ يَرَى فِيهِ هَذَانِ الصَّنِفَانِ مِنَ النَّاسِ أَغْنَى الَّذِينَ كَرَّامَاتُهُمْ أَعْظَمُ وَالَّذِينَ نَالَتْهُمْ الْمَضَرَّةُ

الكثير من قبل الفضائل أنهم فاضلون ويعترفون لهم بالفضل
 هم أيضا أفضل وأعظم. فهو لاء هم أصناف الناس الذين إذا
 اختاروا شيئا واختار غيرهم سواه كان ما يختاره هو لاء أفضل
 وآثر

(قال) وقسمه الشيء إلى جزئياته ليحتمل في الشيء أنه أعظم
 ولذلك لما أراد أوميروش الشاعر أن يعظم الشر الذي لحق المدينة
 أخذ بدله جزئياته فذكر قتل الأولاد والنوح عليهم وحرق المدينة
 بالنار وغير ذلك من أصناف الشرور اللاحقة لها

(قال) وكذلك التركيب قد يحتمل في الشيء أنه أعظم وهو
 عكس. هذا أعني أن يؤخذ بدل الجزئيات الكلية الذي يعظمها
 والسبب في الإقناع في هذين الصنفين هو التغير والإبدال

(قال) ولما كانت الأشياء الأعرس وجودا في نفسها
 والقل وجودا يظن بها أنها أفضل كانت الأشياء الكثيرة
 الوجود في نفسها والسهولة الوجود قد ترى عظيمة إذا وجدت في
 المواضع التي يقل فيها وجودها أو في الأزمنة التي يقل وجودها
 فيها أيضا أو في الأسان من الناس التي يقل وجودها فيها مثل
 وجود الإنسان خطيبا في سن الحبا أو في المدد التي ليس من
 ثانيا أن توجد فيه. ومثل من يفعل ما شأه أن يفعل في زمان
 طويل في زمان قصير أو تكون صادرة عن القوى التي يقل
 صدورها عنها مثل أن يفعل الضعيف فعل القوي والمريض فعل

الصَّحِيحِ . وَكُلُّ هَذِهِ وَأَشْبَاهُهَا مِمَّا يُصَيِّرُ الْأَمْرَ الَّذِي لَيْسَ بِعَظِيمٍ عَظِيمًا وَمُسْتَعْرَبًا . وَآيضًا فَإِنَّ أَلْجُزَاءَ الْعَظِيمِ مِنَ الشَّيْءِ هُوَ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي هِيَ أَعْظَمُ مِثْلُ الْقَلْبِ مِنَ الْحَيَوَانِ وَالْدِّمَاغِ أَوْ الرَّيِّعِ . مِنَ السَّنَةِ وَالشَّبَابِ مِنَ الْمَدِينَةِ . وَآيضًا فَإِنَّ النَّافِعَ فِيهَا الْحَاجَةُ إِلَيْهِ أَشَدُّ هُوَ أَعْظَمُ نَفْعًا وَالضَّارُّ فِيهِ أَكْثَرُ ضَرَرًا مِثْلُ الصِّحَّةِ فِي الشَّيْخُوخَةِ وَالْمَرَضِ فِيهَا . فَإِنَّ الصِّحَّةَ فِيهَا آثَرُ مِنَ الصِّحَّةِ فِي الصِّبَا وَالْمَرَضُ فِيهَا أَضَرُّ . وَآيضًا مَا كَانَ مِنَ الْأُمُورِ أَقْرَبَ إِلَى الْغَايَةِ فَهُوَ أَفْضَلُ . وَآيضًا مَا كَانَ فِي آخِرِ الْعُمُرِ فَهُوَ أَفْضَلُ فَإِنَّ الْأَشْيَاءَ الَّتِي سَيِّئُهَا أَنْ تَكُونَ لِلنَّاسِ فِي آخِرِ أَعْمَارِهِمْ هِيَ أَفْضَلُ مِثْلُ الْحِكْمَةِ وَالْحِلْمِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْقَضَائِلِ الَّتِي تَكُنُّ مَعَ طَوْلِ الْعُمُرِ . وَآيضًا الْأَشْيَاءُ الَّتِي فُعِلَتْ أَوْ قِيلَتْ كَانَ فِعْلُهَا حَقِيقَتَهَا أَعْظَمَ مِنَ الَّتِي إِذَا فُعِلَتْ لَمْ يَكُنْ فِعْلُهَا حَقِيقَةً تَامِيًا . وَارِسْطُو يُسَمِّي الَّتِي إِذَا فُعِلَتْ كَانَ فِعْلُهَا حَقِيقَتَهَا الَّتِي يُتَعَدَّدُ بِهَا الْحَقِيقَةُ وَيُسَمِّي الْآخَرَ الَّتِي يُتَعَدَّدُ بِهَا الْمَدْحُ أَعْنِي الَّتِي لَيْسَ فِعْلُهَا حَقِيقَتَهَا (قَالَ) وَحَدُّ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُتَعَدَّدُ بِهَا الْمَدْحُ أَنَّهَا الَّتِي إِذَا فُعِلَتْ بِجَهْلٍ أَوْ بِغَلَطٍ لَمْ تُنْمَدَحْ أَصْلًا وَالَّتِي يُتَعَدَّدُ بِهَا الْحَقِيقَةُ هِيَ الْأَشْيَاءُ الَّتِي كَيْفَ مَا فُعِلَتْ فَقَدْ حَصَلَتْ عَلَى التَّامِ .

(قَالَ) وَلِذَلِكَ كَانَ حُسْنُ قَبُولِ الشَّيْءِ الْجَمِيلِ آثَرُ مِنْ فِعْلِ الشَّيْءِ الْجَمِيلِ لِأَنَّ فِعْلَ الْجَمِيلِ إِذَا فُعِلَ عَنْ غَلَطٍ أَوْ جَهْلٍ لَمْ يُقْبَلْ وَلَا مُدِيحٌ قَاعِلُهُ . وَأَمَّا حُسْنُ الْإِتِّعَالِ وَالْقَبُولِ فَكَيْفَ مَا

حَصَلَ فَقَدْ اسْتَفَادَ الْخَيْرَ مِنْهُ الْقَائِلُ لَهُ . وَآيضًا مَا أُوتِيَ فِعْلُهُ لِنَفْسِهِ
وَأِنْ لَمْ يَعْلَمْ بِهِ أَحَدٌ آثَرٌ مِمَّا لَا يُخْتَارُ إِلَّا مِنْ جِهَةٍ مَا يُعْلَمُ كَالْحَالِ
فِي الصِّحَةِ وَالْجَمَالِ . فَإِنَّ الصِّحَّةَ مُوَثَّرَةٌ بِذَاتِهَا وَالْجَمَالُ مُوَثَّرٌ الْمَغِيرِ .
وَأَيْضًا فَإِنَّ النَّافِعَةَ فِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ فَهِيَ أَنْفَعُ كَالنَّافِعَةِ فِي طُولِ
الْعُمُرِ وَفِي حُسْنِ الْعَيْشِ أَعْنِي الْعَيْشَ الرَّغْدَ وَفِي اللَّذَاتِ وَفِي
اضْطِمَاعِ الْخَيْرَاتِ . وَلِذَلِكَ مَا يُظَنُّ بِالصِّحَّةِ وَالْيَسَارِ أَنَّهَا عَظِيمَانِ لِأَنَّهَا
يَجْمَعَانِ الْخُلُوءَ مِنَ الْحُزَنِ وَالْفِعْلَ بِإِدَّةِ أَنِّي إِنَّ الصِّحَّةَ هِيَ سَبَبُ
الْفِعْلِ بِإِدَّةِ وَالْيَسَارِ سَبَبُ الْخُلُوءِ مِنَ الْآخِرَانِ . وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ
هَذَيْنِ عَلَى الْإِنْفِرَادِ فَاضِلٌ وَمُخْتَارٌ بِنَفْسِهِ أَعْنِي الْخُلُوءَ مِنَ الْآخِرَانِ
وَالْأَفْعَالِ الْلَذِيذَةِ فَإِذَا اجْتَمَعَا لِأَمْرٍ جَمْعًا لَاهُ أَنْظَمَ مِنْ كُلِّ
شَيْءٍ سِوَاهُ عِلْمَ ذَلِكَ مِنْ عَلَيْهِ أَوْ جَهْلُهُ مِنْ جَهْلِهِ لِأَنَّ هَذِهِ
خَيْرَاتٌ مُسْتَفَادَةٌ بِالْحَقِيقَةِ لَا مِنْ الْخَيْرَاتِ الَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا الْمَذْحُ .
وَلِكُونَ الْيَسَارِ سَبَبًا لِإِدْفَاعِ الْآخِرَانِ ظَنُّ بِهِنَّ أَنَّهُ السَّعَادَةُ قَوْمٌ
وآخَرُونَ رَأَوْا أَنَّ السَّعَادَةَ هِيَ أَنْ يَقْتَرِبَ بِهِ شَيْءٌ آخَرُ وَذَلِكَ
وَاجِبٌ مِنْ قَبْلِ أَنَّهُ آخَرَى أَنْ تَكُونَ السَّعَادَةُ ثَابِتَةً وَمَأْمُونَةً
الزَّوَالِ . فَإِنَّهُ لَيْسَ الضَّرَرُ اللَّاحِقُ لِمَنْ لَهُ عَيْنَانِ فَقَدْ إِحْدَاهُمَا كَمَنْ لَهُ
عَيْنٌ وَاحِدَةٌ فَقَدْ هَا لِأَنَّ الَّذِي لَهُ عَيْنٌ وَاحِدَةٌ سَلِبَ أَحَبَّ مِمَّا سَلِبَ
مَنْ لَهُ عَيْنَانِ . وَكَذَلِكَ إِنْ كَانَتِ السَّعَادَةُ فِي الْمَالِ وَفِي شَيْءٍ آخَرَ
لَمْ يَكُنِ الضَّرَرُ اللَّاحِقُ عَنْ سَابِ الْمَالِ كَالضَّرَرِ اللَّاحِقِ عَنْ سَلْبِهِ
إِنْ كَانَ هُوَ السَّعَادَةُ وَحْدَهُ

(قَالَ) وَالْكَلَامُ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا هَاهُنَا لَيْسَ هُوَ عَلَى جِهَةِ
الْمُضْهِجِ وَإِنَّمَا الْكَلَامُ فِيهَا بِالْقَدْرِ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْخَطِيبُ مِنْ
ذَلِكَ وَيَجِبُ لِلْخَطِيبِ أَبَدًا أَنْ يَأْتِيَ بِالنَّاتِجِ مِنْ أَمْثَالِ هَذِهِ
الْمُقَدَّمَاتِ أَنْ يُرْفِدَهَا بِالْمِثَالَاتِ الْمَأْخُودَةِ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ قَعَلُوا
تِلْكَ الْأَفَاعِيلَ فَحَقَّقَهُمُ النِّفَعُ أَوْ الضَّرَرُ فَلِذَلِكَ مَا يَجِبُ لِلْخَطِيبِ
أَنْ يَكُونَ حَافِظًا لِلْقِصَصِ وَالْأَخْبَارِ

المبحث العاشر

في ان الخطيب المشوري ينبغي ان يعرف اصناف السياسات

وفي بيان اجناس هذه السياسات الاربعة

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) فَهَذِهِ هِيَ الْأَشْيَاءُ الَّتِي يُثَبَّتُ بِهَا أَنَّ الشَّيْءَ أَنْفَعُ أَوْ
أَضَرُّ. وَأَمَّا الْأَشْيَاءُ الَّتِي يَكُونُ بِهَا الْإِذْنُ وَالْمَنْعُ فَقَدْ قِيلَ فِيهَا قَبْلَ هَذَا
بِمَا فِيهِ كِفَايَةٌ. لَكِنْ أَهْمُ وَأَعْظَمُ مَا فِيهَا هُوَ الْقَوْلُ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي
بِهَا يَقْدَرُ عَلَى جُودَةِ الْإِقْنَاعِ فِي السُّنَنِ وَالْإِشَارَةِ بِالسُّنَنِ الَّتِي لَا يُوْجَدُ
أَنْفَعُ مِنْهَا. وَلِذَلِكَ قَدْ يَجِبُ أَنْ نَسْتَقْصِيَ الْقَوْلَ فِيهَا هَاهُنَا فنقول :
أَنَّ الْإِثْمَارَةَ بِالسُّنَنِ النَّافِعَةِ وَالْإِقْنَاعَ الثَّامَّ فِيهَا يَتَأْتِي بِمَعْرِفَةِ أَصْنَافِ
السِّيَاسَاتِ وَالْأَخْلَاقِ وَالسُّنَنِ الَّتِي تَحْصِي سِيَاسَةً سِيَاسَةً. وَذَلِكَ أَنَّ
فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنَ السِّيَاسَاتِ سُنَّةً نَافِعَةً فِيهَا وَهِيَ السُّنَةُ الَّتِي بِهَا

يَكُونُ خَلاصُ تِلْكَ الْمَدِينَةِ وَقَوَامُهَا. وَالسُّنَنُ النَّفِيسَةُ الْخَطِيرَةُ هِيَ السُّنَنُ الْعَادَّةُ أَعْنِي الْمَوْضُوعَةُ فِي الْعَدْلِ الَّتِي رَسَمَهَا الرَّئِيسُ الْأَوَّلُ فِي تِلْكَ الْمَدِينَةِ أَوْ الْمَسْلُطُ عَلَيْهَا مِنْ قَبْلِ الرَّئِيسِ الْأَوَّلِ. وَهَذِهِ السُّنَنُ النَّفِيسَةُ أَعْنِي السُّنَنُ الْعَادَّةُ تَخْتَلِفُ فِي السِّيَاسَاتِ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ غَايَتِهَا. وَعَدَدُهَا عَلَى عَدَدِ السِّيَاسَاتِ. مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ الْعَدْلَ فِي سِيَاسَةِ التَّغْلِبِ أَنَّهُ لَا شَيْءَ عَلَى الرَّئِيسِ إِذَا لَطَمَ الْمَارُؤُسَ. وَفِي سِيَاسَةِ الْحُرِّيَّةِ الْعَدْلُ فِي ذَلِكَ أَنْ يُلَطَّمَ الرَّئِيسُ مِثْلَ اللَّطْمَةِ الَّتِي لَطَمَهَا. وَالسِّيَاسَاتُ بِالْجُمْلَةِ أَرْبَعُ السِّيَاسَةِ الْجَمَاعِيَّةِ وَسِيَاسَةِ الْخِصَّةِ وَسِيَاسَةِ جُودَةِ التَّسْلُطِ وَسِيَاسَةِ الْوَحْدَانِيَّةِ وَهِيَ الْكَرَامِيَّةُ. وَهَذِهِ السِّيَاسَاتُ كُلُّهَا الْمَقْصُودُ بِالسُّنَنِ الْمَوْضُوعَةِ فِيهَا إِنْهَا هِيَ الْمَدِينَةُ وَالْكَلُّ لَا الشَّخْصُ. فَمَا الْمَدِينَةُ الْجَمَاعِيَّةُ فَهِيَ الَّتِي نَكُونُ الرِّئَاسَةَ فِيهَا بِالْإِتِّفَاقِ وَالْجَمْعِ لَا عَنْ اسْتِثْنَالٍ إِذَا كَانَ لَيْسَ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ لِأَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ فَضْلٌ. وَأَمَّا خِصَّةُ الرِّئَاسَةِ فَهِيَ الَّتِي يَتَسَلَّطُ فِيهَا الْمُتَسَلِّطُونَ عَلَى الْمَدِينِينَ بِإِدَاءِ الْإِثَارَةِ وَالْتَفْرِيمِ. لَا عَلَى جِهَةٍ أَنْ تَكُونَ نَفَقَةٌ لِلْحِمَاةِ وَالْحَفَظَةِ وَلَا عُدَّةٌ لِلْمَدِينَةِ عَلَى مَا عَلَيْهِ الْأَمْرُ فِي السِّيَاسَاتِ الْأُخْرَى بَلْ عَلَى جِهَةٍ أَنْ تَحْصُلَ الثَّرْوَةُ لِلرَّئِيسِ الْأَوَّلِ. فَإِنْ جَعَلَ لَهُمْ حَظًّا مِنَ الثَّرْوَةِ كَانَتْ رِئَاسَةُ الثَّرْوَةِ. وَإِنْ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ حَظًّا مِنَ الثَّرْوَةِ كَانَتْ رِئَاسَةُ التَّغْلِبِ وَكَانُوا بِمَنْزِلَةِ الْعَبِيدِ لِلرَّئِيسِ الْأَوَّلِ. وَكَانَتْ مُحَامَاةُ عَنْهُمْ بِمَنْزِلَةِ مُحَامَاةِ الْإِنْسَانِ عَنْ عَبِيدِهِ. وَأَمَّا جُودَةُ التَّسْلُطِ فَهُوَ التَّسْلُطُ الَّذِي

يَكُونُ عَلَى طَرِيقِ الْأَدَبِ وَالْإِقْتِدَاءِ بِمَا تُوجِبُهُ السُّنَّةُ فَإِنَّ الَّذِينَ يُشِيرُونَ بِمَا تُوجِبُهُ السُّنَّةُ هُمْ مُتَسَلِّطُونَ بِجُودَةِ التَّسَلُّطِ. وَهَذَا هُوَ التَّسَلُّطُ الَّذِي يَحْصُلُ بِهِ صَلَاحُ حَالِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَالسَّعَادَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ. وَلِذَلِكَ كَانَ هَؤُلَاءِ أَهْلَ قَضَائِلَ وَأَقْتِدَارٍ عَلَى الْأَفْعَالِ الَّتِي تُضْلِحُ الْمَدِينَةَ وَأَهْلَ حَزْمٍ وَتَحْزُرٍ مِمَّا شَأْنُهُ أَنْ يُفْسِدَ الْمَدِينَةَ مِنْ خَارِجٍ أَوْ مِنْ دَاخِلٍ. وَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ هَذِهِ الْمَدِينَةُ بِهَذَا الْإِسْمِ. وَهَذَا التَّسَلُّطُ الَّذِي ذَكَرَهُ صِنْفَانِ رِثَاةِ الْمَلِكِ وَهِيَ الْمَدِينَةُ الَّتِي تَكُونُ آرَاؤُهَا وَأَفْعَالُهَا بِحَسَبِ مَا تُوجِبُهُ الْعُلُومُ النَّظَرِيَّةُ. وَالثَّانِيَةُ رِثَاةُ الْأَخْيَارِ وَهِيَ الَّتِي تَكُونُ أَفْعَالُهَا فَاضِلَةً فَقَطْ. وَهَذِهِ تُعْرَفُ بِالْإِمَامِيَّةِ وَيُقَالُ إِنَّهَا كَانَتْ مَوْجُودَةً فِي الْفُرْسِ الْأَوَّلِ فِيمَا حَكَاهُ أَبُو نَضْرٍ

(قَالَ) وَأَمَّا وَحْدَانِيَّةُ التَّسَلُّطِ فَهِيَ الرِّثَاةُ الَّتِي يُحِبُّ الْمَلِكُ أَنْ يَتَوَحَّدَ فِيهَا بِالْكَرَامَةِ الرِّثَايَةِ وَالْأَلَا يَنْقُصُهُ مِنْهَا شَيْءٌ بِأَنْ يُشَارِكَهُ فِيهَا غَيْرُهُ وَذَلِكَ بِضِدِّ مَدِينَةِ الْأَخْيَارِ. وَهَذِهِ الْمَدِينُ رُبَّمَا كَانَتْ السُّنَنُ الْمَوْضُوعَةُ فِيهَا مَحْدُودَةٌ غَيْرَ مُتَبَدِّلَةٍ وَاحِدَةً فِي الدُّهُومِ عَلَى مَا عَلَيْهِ الْأَمْرُ فِي سُنَنِ الْإِسْلَامِيَّةِ. وَرُبَّمَا كَانَتْ غَيْرَ ذَاتِ سُنَنِ مَحْدُودَةٍ بَلْ يُفَوِّضُ الْأَمْرُ فِيهَا إِلَى الْمُتَسَلِّطِينَ عَلَيْهَا بِحَسَبِ الْأَنْفَعِ فِي وَقْتٍ وَقْتٍ عَلَى مَا عَلَيْهِ الْأَمْرُ فِي كَثِيرٍ مِنْ سُنَنِ الرُّومِ الْيَوْمَ

(قَالَ) وَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يَخْفَى عَلَيْنَا مِنْ هَذَا الَّذِي رَسَمْنَا بِهِ هَذِهِ

السياسات غاية كل واحدة منها لآنا إذا عرفنا الغاية علينا الأشياء
المختارة من أجل الغاية فغاية السياسة الجماعية الحرية. وغاية
خسرة الرئاسة الثروة وغاية جودة التسلط الفضيحة والتمسك
بالسنة. وغاية الوجدانية الكرامة والسياسات التي ليس يوضع
فيها سنن غير متبدلة فغاية واضعها هو التثقف والإحساس من
الحلل الواقع في السنن بتبدل الأزمنة والامكنة. ويتبني أن
تعلم أن هذه السياسات التي ذكرها أرسطو ليس تافى بسيطة
وإنما تافى أكثر ذلك مركبة كالحال في السياسة الموجودة
الآن فإنها إذا توصلت تهجد مركبة من فضيلة وكرامة وحرية
وتغلب

(قال) وإذا كانت أصناف السياسات معلومة عندنا فهو
بين آنا نستطيع أن نعرف الأخلاق والسنن التي تؤدي إلى غاية
كل واحدة من هذه السياسات أي النافعة فيها وأن نعتد في
أنفسنا الخلق بتلك الأخلاق والتمسك بالصنف من السنن التي
نؤمن الإقناع فيها. فإنه إنما تكون الأقاويل التي تبحث بها على
السنن مقيمة إذا كان المشيرون بها ذوي صلاح وحسن فعل حتى
تكون هذه الأشياء المذكورة هاهنا معلومة لنا وموجودة فينا.
فإنه إذا وجد فينا الخلق الذي نبحث عليه كان قولنا في البحث
عليه أشد إقناعا ولذلك ينبغي ألا نشير إلا بما هو موجود لنا أو
نحن عازمون على أن يوجد لنا. ومعلوم أن الوقوف على السنن

النَّافِعَةِ فِي الْغَايَةِ إِنَّمَا نُسْتَبْطِ عَلَى جِهَةِ التَّحْلِيلِ مِنَ النَّظَرِ إِلَى الْغَايَةِ. فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ مِنْ أَيْنَ تُوْجَدُ الْمُفْنِعَاتُ فِي النَّافِعِ مِنَ السَّنَنِ فِي سِيَاسَةِ سِيَاسَةٍ وَكَمْ أَنْحَاءُ السِّيَاسَاتِ وَالسَّنَنِ الَّتِي تَحْتَذِي فِيهَا وَذَلِكَ بِحَسَبِ الْكَافِي فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ. وَأَمَّا الْقَوْلُ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ عَلَى التَّحْقِيقِ فَقِي الْأَقَاوِيلِ الْمَدِينَةِ

البحث الحادي عشر

في ما ينبغي للخطيب ان يعرفه في النوع الثنيتي . وفي الفضيلة والنقيصة والمدح والذم وتصرف الخطيب فيهما

وفي انواع الامور الفاضلة والناقصة

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) وَأَمَّا بَعْدَ هَذَا فَتَحْنُ قَائِلُونَ فِي الْفَضِيلَةِ وَالنَّقِصَةِ وَالْجَمِيلِ وَالْقَبِيحِ لِأَنَّ هَذِهِ هِيَ الَّتِي يُمدَحُ بِهَا وَيُذَمُّ . وَيَلْحَقُ مِنْ تَعْرِيفِنَا هَذِهِ الْأَشْيَاءَ أَنَّ نَعْرِفَ الْأُمُورَ الَّتِي بِهَا يُثَبَّتُ أَمْرٌ فَضِيلَةٌ نَفْسِهِ إِذْ كَانَ ذَلِكَ هُوَ الطَّرِيقَ الثَّانِي مِنَ الطَّرِيقِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي يَقَعُ بِهَا الْإِقْتِنَاعُ كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِنَا. وَذَلِكَ أَنَّهُ نَوْعٌ مِنَ الْمَدْحِ أَغْنِي أَنْ يَكُونَ بِالْأَشْيَاءِ الَّتِي نَقْدِرُ بِهَا عَلَى مَدْحٍ غَيْرِنَا نَقْدِرُ بِهَا أَنْفُسَهَا عَلَى مَدْحِ أَنْفُسِنَا. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ يَتَّفِقُ فِي جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُمدَحُ بِهَا الْغَيْرُ بَلْ إِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بِالْفَضِيلَةِ فَقَطْ

وَهِيَ الْأُمُورُ الرَّاجِعَةُ إِلَى الْإِخْتِيَارِ

(قَالَ) وَمِنْ أَجْلِ أَنَّهُ يَغْرِضُ كَثِيرًا أَنْ يُمدَحَ النَّاسُ
وَالرُّومَانِيُّونَ بِالْفَضِيلَةِ وَبِأَشْيَاءَ غَيْرِ الْفَضِيلَةِ وَلَيْسَ يَغْرِضُ هَذَا فِي
مَدْحِ هَؤُلَاءِ فَقَطْ بَلْ وَفِي مَدْحِ الْأَشْيَاءِ الْمُنْتَفِيسَةِ وَغَيْرِ الْمُنْتَفِيسَةِ .
أَعْنِي أَنَّهَا تُمدَحُ بِأَشْيَاءَ خَارِجَةٍ عَنِ الْفَضِيلَةِ . فَقَدْ يَنْبَغِي أَنْ نَقُولَ
هَاهُنَا فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي تُؤْخَذُ مِنْهَا الْمَقْدَمَاتُ فِي الْمَدْحِ بِالْفَضَائِلِ
وَبِغَيْرِ الْفَضَائِلِ لِيَكُونَ الْقَوْلُ فِي ذَلِكَ عَامًّا فنَقُولُ : إِنَّ الْجَمِيلَ هُوَ
الَّذِي يُخْتَارُ مِنْ أَجْلِ نَفْسِهِ وَهُوَ ممدُوحٌ وَخَيْرٌ وَأَزِيدُ مِنْ جِهَةٍ أَنَّهُ
خَيْرٌ . وَإِذَا كَانَ الْجَمِيلُ هُوَ هَذَا فَبَيِّنْ أَنَّ الْفَضِيلَةَ جَمِيلَةٌ لَا مَحَاةَ
لِأَنَّهَا خَيْرٌ وَهِيَ ممدُوحَةٌ . وَالْفَضِيلَةُ هِيَ مَلَكَةٌ مُقَدَّرَةٌ لِكُلِّ فِعْلٍ
هُوَ خَيْرٌ مِنْ جِهَةٍ ذَلِكَ التَّقْدِيرُ أَوْ يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ خَيْرٌ أَعْنِي الْحَافِظَةُ
لِهَذَا التَّقْدِيرِ وَالْفَاعِلَةُ لَهُ . وَإِذَلِكَ كَانَتْ مُوجِدَةً لِكُلِّ فِعْلٍ يُقْصَدُ
بِهِ نَحْوُ غَايَةٍ مَا جَلِيلِ الْقَدْرِ عَظِيمِ الشَّانِ فِي حُصُولِ تِلْكَ الْغَايَةِ
عَنْهُ . فَأَمَّا أَجْزَاءُ الْفَضِيلَةِ فَأَلْبَرُ أَيَّ الْعَدْلِ الْعَامِّ وَالشُّجَاعَةِ وَالْأَرُوَّةِ
وَالْعِفَّةِ وَكِبَرِ الْهِمَّةِ وَالْحِلْمِ وَالسَّخَاءِ وَاللُّبِّ وَالْحَيَكَةِ . وَهَذِهِ
الْفَضَائِلُ مِنْهَا مَا هِيَ فَضَائِلُ فِي ذَاتِ الْفَاضِلِ فَقَطْ وَمِنْهَا مَا هِيَ فَضَائِلُ
مِنْ جِهَةٍ أَنَّهَا تُفَعَّلُ فِي أَنْاسٍ آخَرِينَ وَهَذِهِ الَّتِي تُفَعَّلُ فِي
أَنْاسٍ آخَرِينَ تَكُونُ أَعْظَمَ عِنْدَ قَوْمٍ مِنْهَا عِنْدَ آخَرِينَ وَفِي حَالٍ
دُونَ حَالٍ . مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ فَضِيلَةَ الشُّجَاعَةِ آثَرُ فِي وَقْتِ الْحَرْبِ
مِنْهَا فِي وَقْتِ السَّلَامِ . وَأَمَّا فَضِيلَةُ الْعَدْلِ فَمُؤَثَّرَةٌ فِي السَّلَامِ وَالْحَرْبِ

جَمِيعًا. وَفَضِيلَةُ السَّخَاءِ وَالْمُرُوءَةِ عِنْدَ الْحَاوِيجِ آثَرُ وَنَهَا عِنْدَ غَيْرِ الْحَاوِيجِ.
وَلَمَّا تَنَفَّصُ فَضِيلَةُ الْمُرُوءَةِ مِنَ السَّخَاءِ بِالْأَقْلِ وَالْأَكْثَرِ لِأَنَّ
فِعْلَ كِلَيْهِمَا هُوَ فِي الْمَالِ لَكِنَّ الْمُرُوءَةَ هِيَ فِعْلٌ أَكْثَرُ مِنْ فِعْلِ
السَّخَاءِ. فَأَمَّا الْبِرُّ فَهُوَ فَضِيلَةٌ عَادِلَةٌ يُعْطِي الْمَاضِلَ بِهَا إِكْلًا أَمْرِي
مِنَ النَّاسِ مَا يَسْتَحِقُّ وَذَلِكَ بِقَدَرِ مَا تَأْمُرُ بِهِ السُّنَّةُ. وَالْجُورُ هُوَ الْخُلُقُ
الَّذِي يَأْخُذُ بِهِ الْمَرْءُ الْأَشْيَاءَ الْغَرِيبَةَ الَّتِي لَيْسَ لَهُ أَنْ يَأْخُذَهَا فِي
السُّنَّةِ. وَأَمَّا الشُّجَاعَةُ فَفَضِيلَةٌ يَكُونُ الْمَرْءُ بِهَا فَعَالًا لِلْأَفْعَالِ الصَّالِحَةِ
الْمُتَّفِعَةِ فِي الْجِهَادِ عَلَى حَسَبِ مَا تَأْمُرُ بِهِ السُّنَّةُ حَتَّى يَكُونَ بِفِعْلِهِ ذَلِكَ
خَادِمًا لِلْسُّنَّةِ. وَأَمَّا الْجُبْنُ فَضِدُّ هَذَا. وَأَمَّا الْعِفَّةُ فَفَضِيلَةٌ يَكُونُ بِهَا الْمَرْءُ
فِي شَهَوَاتِ الْبَدَنِ عَلَى مِقْدَارِ مَا تَأْمُرُ بِهِ السُّنَّةُ. وَالْفُجُورُ ضِدُّ هَذَا.
وَأَمَّا السَّخَاءُ فَفَضِيلَةٌ تَفْعَلُ الْجَبِيلَ الْمَشْهُورَ فِي الْمَالِ. وَالذَّنَاءَةُ ضِدُّ
هَذَا. وَأَمَّا كِبَرُ الْهِمَّةِ فَفَضِيلَةٌ يَكُونُ بِهَا حُسْنُ الْأَفْعَالِ الْعَظِيمَةِ
وَصِغَرُ النَّفْسِ. وَالذَّلَالَةُ ضِدُّهَا. وَأَمَّا اللَّبُّ فَفَضِيلَةُ الْعَقْلِ الَّذِي يَكُونُ
بِهِ حُسْنُ الْمَشُورَةِ وَالرَّوِيَّةُ مَعَ وَجُودِ الْفَضَائِلِ الْخَلْقِيَّةِ لَهُ الَّتِي هِيَ مِنْ
صِلَاحِ الْحَالِ. فَهَذَا هُوَ الْقَوْلُ فِي الْفَضِيلَةِ وَأَجْزَائِهَا بِقَدَرِ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ
فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ. وَأَمَّا سَائِرُ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُنَادِحُ بِهَا عِدَا الْفَضِيلَةِ
فَلَيْسَ يَغْسِرُ الْوُقُوفَ عَلَيْهَا. وَذَلِكَ أَنَّهُ مَعْلُومٌ أَنَّ فَائِلَاتِ الْفَضَائِلِ
وَمِثْلُ التَّأْدِبِ وَالْأَرْتِيَاضِ بِالْأَشْيَاءِ الَّتِي بِهَا تَحْصُلُ الْفَضَائِلُ هِيَ أَوْدُ
جِسَانٍ وَمَمْدُوحٌ بِهَا. وَأَمَّا الْأَشْيَاءُ الَّتِي تُوجَدُ فِي الْفَضَائِلِ أَنْفُسُهَا
أَعْنِي الْأَعْرَاضَ الَّتِي تُوجَدُ فِيهَا. وَالْأَشْيَاءُ الَّتِي تُوجَدُ تَابِعَةٌ

الْفَضَائِلُ فَهِيَ الَّتِي يُقَالُ فِيهَا الْآنَ وَهِيَ عِلَامَاتُ الْفَضَائِلِ
 وَأَعْرَاضُهَا اللَّاحِظَةُ لَهَا. وَأَفْعَالُهَا إِنَّمَا يُمدَّحُ بِهَا إِذَا كَانَتْ حَسَنَةً
 مُحْمُودَةً فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ أَفْعَالِ الْفَضَائِلِ قَدْ لَا يُمدَّحُ بِهَا وَكَذَلِكَ
 كَثِيرٌ مِنَ الْأَعْرَاضِ. فَمِثَالُ الْأَفْعَالِ وَالْأَعْرَاضِ الَّتِي هِيَ مُحْمُودَةٌ
 أَفْعَالُ الشُّجْعَانِ فِي الْحَرْبِ أَوْ مَنْ فَعَلَ فِي الْحَرْبِ فِعْلَهُمْ وَإِنْ لَمْ
 تَكُنْ لَهُمْ مَلَكَ الشُّجَاعَةِ. وَكَذَلِكَ الْأَعْرَاضُ الَّتِي تَلْحَقُ الشُّجْعَانَ بِمَا
 يُمدَّحُ بِهَا. وَمِثَالُ الْأَفْعَالِ الَّتِي لَا يُمدَّحُ بِهَا فِي وَقْتٍ مَا بَدَلُ
 أَلْمَالِ فَإِنَّهُ فَعْلٌ مِنْ أَفْعَالِ السَّخَاةِ لَكِنْ رُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ الْفِعْلُ
 عَلَى جِهَةِ التَّنْذِيرِ. وَمِثَالُ الْأَعْرَاضِ الَّتِي لَا يُمدَّحُ بِهَا أَنْفِعَالُ
 الْمَرْءِ عَنِ الْعَدْلِ وَقَبُولُهُ إِيَّاهُ وَذَلِكَ أَنَّ فِعْلَ الْعَدْلِ مَمْدُوحٌ وَأَمَّا
 إِلَّا نِفْعَالُ عَنْهُ فَلَيْسَ بِمَمْدُوحٍ لِأَنَّهُ يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ مَهَانَةٌ وَضَمٌّ. وَبِالْجُمْلَةِ
 فَأَفْعَالُ الْفَضَائِلِ إِنَّمَا تَكُونُ مَمْدُوحَةً إِذَا كَانَتْ مُقَدَّرَةً تَقْدِيرَ
 الْعَدْلِ وَمِمَّا يُمدَّحُ بِهَا الْأَفْعَالُ الْعَظِيمَةُ الشَّاقَّةُ الَّتِي جَزَاؤُهَا
 الْكَرَامَةُ فَقَطُّ. فَإِنَّ الْأَفْعَالِ الَّتِي يَكُونُ جَزَاؤُهَا الْكَرَامَةُ خَيْرٌ
 مِنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي جَزَاؤُهَا أَلْمَالُ. وَلِذَلِكَ إِذَا كَانَ فِعْلٌ يُجَازَى
 عَلَيْهِ بِالْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا فَفَعْلَةٌ فَاعِلٌ مِنْ أَجْلِ الْكَرَامَةِ فَقَطُّ مُدَّحٌ
 بِهِ وَكُلُّ مَا يَفْعَلُهُ الْمَرْءُ مِنَ الْفَضَائِلِ لَا مِنْ أَجْلِ نَفْسِهِ مُدَّحٌ بِهِ.
 وَفِعْلُ الْأَشْيَاءِ الَّتِي هِيَ خَيْرَاتٌ بِإِطْلَاقٍ كَذَلِكَ مِمَّا يُمدَّحُ بِهِ.
 وَالْأَشْيَاءُ الَّتِي فِي طَبِيعَتِهَا خَيْرَاتٌ وَإِنْ كَانَتْ ضَارَّةً لِلْفَاعِلِ يُمدَّحُ
 بِهَا أَيْضًا. مِثْلُ فِعْلِ الْعَدْلِ فَإِنَّ الْعَادِلَ كَثِيرًا مَا يَسْتَضِرُّ بِهِ.

وَالْأَفْعَالُ الَّتِي تَخْتَصُّ بِإِكْرَامِ الْأَمْوَاتِ مَمْدُوحَةٌ لِأَنَّ الْأَفْعَالَ
الَّتِي تَكُونُ لِلْأَحْيَاءِ إِنَّمَا يَقْصِدُ مِنْهَا الْمَرْءُ أَكْثَرَ ذَلِكَ مَنْفَعَةٌ
نَفْسِيَّةٌ. وَبِالْجُمْلَةِ فَكُلُّ فِعْلٍ كَانَ الْمَقْصُودُ بِهِ الْقِيَرُ وَلَمْ يَكُنْ
يَنْتَفِعُ بِهِ الْفَاعِلُ لَهُ أَوْ كَانَ يَحْقُقهُ مِنْهُ ضَرَرٌ فَهُوَ مَمْدُوحٌ بِهِ. وَالْفِعْلُ
الَّذِي يَكُونُ إِلَى الْمُحْسِنِينَ إِلَى النَّاسِ مَمْدُوحٌ بِهِ أَيْضًا لِأَنَّ هَذَا
هُوَ عَدْلٌ إِذَا كَانَ لَيْسَ يَنْتَفِعُ بِهِ الْفَاعِلُ لَهُ. وَبِمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ
الْإِنْسَانَ ذَوْ قُضِيَّةٍ أَنْ لَا يَفْعَلَ الْأَفْعَالَ الَّتِي يَفْتَضِحُ بِهَا أَهْلُ
الْفَوَاحِشِ وَأَنْ يُؤَدِّبَهُمْ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ. وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ ذَوِي
الْفَضَائِلِ وَنُحَدِّثُهُمْ بِمَا يُدَحُّ بِهِ. وَالنَّجَلُ عِنْدَ ذِكْرِ الْقَبَائِحِ بِمَا
قَدْ يَدُلُّ عَلَى الْقُضِيَّةِ لِأَنَّهُ يُظَنُّ بِهِ أَنَّ الْحَيَاءَ يَنْعُهُ عَنْ إِيْتَانِ تِلْكَ
الرَّذِيئَةِ. وَقَدْ يَكُونُ أَيْضًا عَدَمُ الْحَيَاءِ عِنْدَ ذِكْرِ الْفَوَاحِشِ عَلَامَةً يُدَحُّ
بِهَا. وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ يُظَنُّ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِنَّمَا يَسْتَحْيِي عِنْدَ ذِكْرِ الْقَبَائِحِ
إِذَا كَانَ قَدْ فَعَلَهَا أَوْ نَالَهَا أَوْ هُوَ مُزْمِعٌ أَنْ يَفْعَلَهَا. مِثْلُ مَا حَكَى
أَرِسْطُو أَنَّهُ عَرَضَ لِأَمْرَأَةٍ مَشْهُورَةٍ بِالْحِكْمَةِ عِنْدَهُمْ وَذَلِكَ أَنَّ إِنْسَانًا
مَشْهُورًا عَرَضَ لَهَا بِالْقَبِيحِ بَانَ قَالَ لَهَا: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَقُولَ قَوْلًا
يَمْنَعُنِي عَنْهُ الْحَيَاءُ فَخَلَمْتُ عَنْهُ وَلَمْ تُجِبْهُ بِقَوْلٍ قَبِيحٍ. وَلَمْ يُدْرِكْهَا مِنْ
ذَلِكَ تَأَلُّمٌ وَلَا انْفِعَالٌ لِأَنَّهَا كَانَتْ تَرَى لِمَكَانِ قُضِيَّتِهَا أَنَّ
أَحَدًا لَا يُعَرِّضُ لَهَا لِإِثْمَالٍ وَلَا يَقُولُ كُأَيِّ (وَلَهُمَا صِنْفَانِ
التَّعْرِيفِ). لَكِنَّمَا فِي تِلْكَ الْحَالِ جَعَلَتْ تَمُصُّ الْفَضَائِلَ وَتُدَحُّ
أَهْلَهَا وَتَتَعَصَّبُ لَهُمْ وَتُحَامِي عَنْهُمْ. وَكَانَ أَيْضًا مَنْ مَعَهَا لَمْ يَنْفُوا

أَيْضًا لِقَوْلِ ذَلِكَ وَلَا تَعْرِضْ لَهُمْ أَنْ مِثْلَهَا لَا يُثَمُّ بِمِثْلِ
هَذَا

(قَالَ) وَلِذَلِكَ كَانَ التَّعَصُّبُ لِلْأَشْيَاءِ الَّتِي تُكْتَسِبُ الْحَبَدَ
وَالْحُمَامَةَ عَنْهَا قَدْ تَجَمَّلُ الْمُتَعَصِّبُ لَهَا وَالْحَامِي عَنْهَا مِنْ أَهْلِ
الْفَضَائِلِ الَّتِي لَا تَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا بِجَاهِدَةٍ كَبِيرَةٍ لِلطَّبِيعَةِ مِثْلِ
الْعَفَافِ وَالشُّجَاعَةِ وَغَيْرِهِمَا. وَذَلِكَ إِذَا صَارَتْ لَهُ مَلَكَهُ بِتَرَدَادٍ
فَعَلِيهَا وَالتَّعَصُّبُ لَهَا وَالْحُمَامَةُ عَنْهَا كَمَا عَرَضَ لِهَذِهِ الْمَرَاةِ الَّتِي
أَقْتَصَصْنَا ذِكْرَهَا مَعَ ذَلِكَ الرَّجُلِ. وَذَلِكَ أَنَّ أَمْثَالَ هَذِهِ
الْأَفْعَالِ قَدْ يَصِيرُ بِهَا الْإِنْسَانُ مِنْ أَهْلِ الْفَضَائِلِ الَّتِي لَا
تَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا بِجَاهِدَةٍ كَبِيرَةٍ

(قَالَ) وَالْإِنْعَامُ عَلَى الْغَيْرِ إِذَا لَمْ يَسْتَفِدِ الْمَنِّعُ مِنْهُ شَيْئًا
هُوَ مِمَّا يُدْخِلُ بِهِ وَلِذَلِكَ مَا كَانَ الْعَدْلُ وَالْبِرُّ يُدْخِلُ بِهِمَا الْإِنْسَانُ
مِنْ جِهَةٍ أَنَّهُمَا نَافِعَانِ كَمَا يُدْخِلُ بِهِمَا مِنْ جِهَةٍ مَا هُمَا جَبِيلَانِ .
وَالْإِنْتِقَامُ أَيْضًا مِنَ الْأَعْدَاءِ وَالْأَلَا يُرْضَى عَنْهُمْ فِي حَالٍ مِمَّا يُدْخِلُ بِهِ .
فَإِنَّ الْإِنْتِقَامَ مِنْهُمْ هُوَ جَرَاءٌ وَالْجَرَاءُ عَدْلٌ وَالْعَدْلُ جَمِيلٌ . وَنَحْبَةُ
الْقَلْبَةِ أَيْضًا وَنَحْبَةُ الْكَرَامَةِ مِمَّا يُدْخِلُ بِهِمَا لِأَنَّهُمَا عَلَامَتَانِ تَدُلُّانِ
عَلَى إِذَا الْفَضَائِلِ لَا لِمَكَانِ أَكْتِسَابِ مَالٍ بِهِمَا . أَمَّا نَحْبَةُ الْقَلْبَةِ
فَتَدُلُّ عَلَى إِثَارِ الشُّجَاعَةِ . وَأَمَّا نَحْبَةُ الْكَرَامَةِ فَعَلَى إِثَارِ جَمِيعِ
الْفَضَائِلِ وَلِذَلِكَ كَانَتْ الْفَضَائِلُ الْآيِرَةُ الْخُتَارَةُ هِيَ الَّتِي لَيْسَ
يَقْصَدُ بِهَا مُقَاتِلُهَا إِلَى أَكْتِسَابِ مَالٍ . لِأَنَّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى شَرَفِ

الْفَضِيلَةَ وَمِنْ الْأَفْعَالِ الَّتِي يُمدَحُ بِهَا الَّتِي شَأْنُهَا أَنْ يَبْقَى ذِكْرُهَا
مَحْفُوظًا أَبَدًا عِنْدَ النَّاسِ. وَمِنْ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُمدَحُ بِهَا الْهَيْئَاتُ
الْمَحْدُودَةُ عِنْدَ قَوْمٍ الَّتِي يَجْعَلُونَهَا عَلَامَةً لِذَوِي الشَّرَفِ مِثْلُ تَوْفِيرِ
الشُّعُورِ عِنْدَ الْيُونَانِيِّينَ فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى الشَّرَفِ إِذَا كَانَ لَيْسَ كُلُّ
أَحَدٍ يَسْهَلُ عَلَيْهِ تَوْفِيرُ شَعْرِهِ لِأَنَّ الْمُؤَفِّرِي الشُّعُورِ لَا يَعْمَلُونَ عَمَلًا
مَنْ لَيْسَ بِمُؤَفِّرِ الشَّعْرِ وَلَا يُنْتَهَنُونَ بِأَيِّ رَهْنَةٍ اتَّفَقَتْ. وَالْأَزْبَابُ
الَّتِي كَانَتْ تُتَّخَذُ عِنْدَنَا هِيَ مِنْ هَذَا النَّوعِ الَّذِي ذَكَرَهُ أَرِسْطُو
(قَالَ) وَمِنْ الشَّرَفِ أَلَّا يَحْتَاجَ الْإِنْسَانُ إِلَى آخَرِينَ بَلْ
يَكُونُ مُكْتَفِيًا بِنَفْسِهِ

(قَالَ) وَقَدْ يَنْبَغِي أَنْ نَأْخُذَ فِي الْمَدْحِ وَالذَّمِّ وَالْأُمُورِ
الْقَرِيبَةِ مِنَ الْفَضَائِلِ وَالنَّقَائِصِ وَهِيَ النَّقَائِصُ الَّتِي قَدْ تُوْجَدُ عَنْهَا
أَفْعَالُ الْفَضِيلَةِ أَوْ الْفَضَائِلِ الَّتِي قَدْ تُوْجَدُ عَنْهَا أَفْعَالُ النَّقَائِصِ.
فَيُمدَحُ بِالنَّقَائِصِ الَّتِي تُوْجَدُ عَنْهَا أَفْعَالُ الْفَضِيلَةِ بِأَنَّهُمْ أَنَبَا
فَضَائِلُ مِنْ أَجْلِ أَنَّ تِلْكَ الْأَفْعَالُ هِيَ مِنْ أَفْعَالِ الْفَضَائِلِ. وَكَذَلِكَ
يُذَمُّ فِي الْفَضَائِلِ أَنَّهَا نَقَائِصُ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ عَرَضَ أَنْ تُوْجَدَ عَنْهَا
أَفْعَالُ النَّقَائِصِ. فَمِثَالُ النَّقَائِصِ الَّتِي تُوْجَدُ عَنْهَا أَفْعَالُ الْفَضَائِلِ
فِيهِمْ أَنَّهَا فَضَائِلُ الْعَبْدِ الَّذِي قَدْ يَكُونُ عَنْهُ أَفْعَالُ الْحَلِيمِ فَيُذَمُّ
بِهِ أَنَّهُ حَلِيمٌ. وَالْبَلَّةُ الَّذِي قَدْ تُوْجَدُ عَنْهُ أَفْعَالُ ذَوِي السَّنَةِ
فَيُذَمُّ بِذَلِكَ أَنَّهُ ذُو سَنَةٍ. وَكَذَلِكَ الْعَدِيمُ الْحَسَنُ قَدْ يُذَمُّ فِيهِ
أَنَّهُ عَفِيفٌ إِذَا كَانَ قَدْ يُوْجَدُ لَهُ فِعْلُ الْعَفِيفِ بِالْعَرَضِ. وَكَذَلِكَ

الْمُتَهَوِّرُ قَدْ يُؤْهِمُ فِيهِ أَنَّهُ مُتَجَاعٌ وَالسَّيْفُ أَنَّهُ كَرِيمٌ. وَمِثَالُ مَا
يُؤْهِمُ بِهِ أَنَّهُ نَقِصَةٌ وَلَيْسَ بِنَقِصَةٍ مَا يَغْرِضُ الْكَبِيرُ إِلَهَةً مِنْ
أَن يَتَجَافَى عَنِ الْأُمُورِ الْيَسِيرَةِ فَيُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ يَغْلُطُ وَيُخْذَعُ.
وَالْكَبِيرُ إِلَهَةٌ إِنَّمَا يَصْنَعُ ذَلِكَ فِي الْأُمُورِ الْيَسِيرَةِ الَّتِي لَيْسَ يَلْحَقُهُ
مِنْهَا خَوْفٌ كَبِيرٌ وَلَا ضَرَرٌ شَدِيدٌ وَذَلِكَ أَيْضًا فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي
يَحْسُنُ فِيهِ أَنْ يَتَغَافَلَ عَنْهَا. وَقَدْ يُؤْهِمُ أَيْضًا هَذَا الْمَوْضِعُ عَكْسَ هَذَا.
وَهُوَ أَنْ يُقَالَ فِي الْمُخْذَعِ: إِنَّهُ كَبِيرُ إِلَهَةٍ. وَمِمَّا يُمْدَحُّ بِهِ أَنْ
يَكُونَ الْمَرْءُ يُعْطَى أَصْدِقَاءَهُ وَغَيْرَ أَصْدِقَائِهِ وَمَنْ يَعْرِفُ وَمَنْ لَا
يَعْرِفُ لِأَنَّهُ يَظُنُّ أَنَّ شَرَفَ فَضِيلَةِ الشَّجَاءِ هُوَ بَذْلُ أَمْوَالٍ لِلْكَلِّ
(قَالَ) وَقَدْ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْمَدْحُ بِمَحْضَرَةِ الَّذِينَ يُحِبُّونَ الْمَدْحَ
كَمَا قَالَ سُقْرَاطُ: إِنَّهُ يَسْهُلُ مَدْحُ أَهْلِ آثِنِيَّةٍ بِآثِنِيَا. وَيَنْبَغِي أَنْ
يُمْدَحَّ كُلُّ إِنْسَانٍ بِالَّذِي هُوَ مَمْدُوحٌ عِنْدَ قَوْمِهِ وَأَهْلِ مَدِينَتِهِ إِنْ
كَانَ ذَلِكَ يَخْتَلِفُ

(قَالَ) وَمِنْ الْمَدْحِ بِالْأَشْيَاءِ الَّتِي مِنْ خَارِجٍ مَدْحُ الْأَبَاءِ
وَذِكْرُ مَا أَيْرَاهُمْ الْمُتَقَدِّمَةُ وَمَدْحُ الْمَرْءِ بِمَا تَسُو إِلَيْهِ هِمَّتُهُ مِنْ
الْمَرَاتِبِ. وَأَنَّهُ لَيْسَ يَقْتَصِرُ عَلَى مَا حَصَلَ لَهُ مِنْهَا. وَالرَّجُلُ الْكَبِيرُ
إِلَهَةٌ الَّذِي لَا يَقْتَصِرُ بِهَيْئَتِهِ عَلَى مَا نَالَ مِنَ الْمَرَاتِبِ يُمْدَحُّ
بِهَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ مِنْ خَارِجٍ أَعْنِي بِفَضَائِلِ آبَائِهِ وَبِمَا يُؤْمَلُ أَنْ يَسُو
نَحْوَهُ كَمَا يُقَالُ مِنْ أَيِّ مَأْثَرٍ أُنْتَدَأُ مِنْ قَبْلِ آبَائِهِ وَإِلَى أَيِّ مَأْثَرٍ
يَنْتَهِي مِنْ قَبْلِ هِمَّتِهِ. وَأَمَّا الَّذِي لَا يَسُو بِهَيْئَتِهِ إِلَى نَيْلِ أَكْثَرِ مِمَّا

حَصَلَ لَهُ مِنَ الْمُرْتَبَةِ فَلَمَّا يُمدَحُ مِنَ الْأَمْرَيْنِ اللَّذَيْنِ مِنْ خَارِجٍ
بِأَبَانِهِ فَقَطُّ. وَكَأَنَّهُ يَرَى هَاهُنَا أَنَّ الْمَدْحَ بِمَنَاقِبِ الْآبَاءِ أَيْسَرَ
يَنْبَغِي أَنْ يُقْتَصَرَ عَلَيْهِ دُونَ أَنْ يُمدَحَ بِفَضِيلَةٍ ذَاتِهِ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:
لَسْنَا وَإِنْ كَرُمْتَ أَوَائِلُنَا يَوْمًا عَلَى الْأَحْسَابِ تَشْكِيلُ
نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا تَبْنِي وَتَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا
وَإِنَّهُ قَدْ يُقْتَصَرُ بِالْمَدْحِ عَلَى الْفَضِيلَةِ دُونَ ذِكْرِ الْآبَاءِ كَمَا قَالَ:
نَفْسُ عِصَامٍ سَوَدَتْ عِصَامًا

(قَالَ) وَإِنَّمَا يَكُونُ الْمَدْحُ عَلَى الْحَقِيقَةِ بِالْأَفْعَالِ الَّتِي تَكُونُ عَنْ
الْمَشِيئَةِ وَالْإِخْتِيَارِ فَإِنَّ الْفِعْلَ الَّذِي يَكُونُ بِالْمَشِيئَةِ وَالْإِخْتِيَارِ
هُوَ الْفِعْلُ الْفَاضِلُ. وَالَّذِي يُمدَحُ بِالْأَشْيَاءِ الَّتِي تَكُونُ بِالِاتِّفَاقِ
أَوْ بِالْعَرَضِ مِنْ أَجْلِ أَنْ لَهَا إِذَا اقْتَرَنْتِ بِالْفَضَائِلِ تَزِيدُنَا لَهَا
وَتُنْجِيهَا بِمِثْلَةِ الْحَسْبِ الْمُقْتَرِنِ إِلَى الْفَضِيلَةِ وَجُودَةِ الْجَمْعِ الْمُقْتَرِنِ
بِأَفْعَالِ الْفَضَائِلِ. وَإِنَّمَا يَدْخُلُ فِي الْمَدْحِ الْأَفْعَالُ الَّتِي تَكُونُ
بِاتِّفَاقٍ وَالْأَعْرَاضُ الَّتِي تَقْتَرِنُ بِالْعَرَضِ مَعَ الْأَفْعَالِ الَّتِي تَكُونُ
بِالْمَشِيئَةِ مَتَى تَكَرَّرَتْ مِرَارًا كَثِيرَةً عَلَى صِفَةٍ وَاحِدَةٍ حَتَّى أَوْهَمَتْ
أَنَّهَا بِالذَّاتِ. وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا عَرَضَ لَهَا ذَلِكَ ظَنُّ بِهَا أَنَّهَا عِلَامَةٌ
لِلْفَضِيلَةِ مِثْلَ أَنْ يَخْجَلَ الْإِنْسَانُ مِرَارًا كَثِيرَةً بِالِاتِّفَاقِ فِي مَوَاضِعَ
يُمدَحُ الْخَجَلُ فِيهَا. وَإِنَّمَا دَخَلَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ فِي الْمَدْحِ لِأَنَّ
الْمَدْحَ هُوَ قَوْلٌ يَصِفُ عِظَمَ الْفَضِيلَةِ وَهَذِهِ الْأَشْيَاءُ هِيَ مِمَّا تَعْظُمُ بِهَا
الْفَضِيلَةُ. وَإِذَا اسْتَعْمِلَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ فِي الْمَدْحِ فَيَنْبَغِي أَنْ تُسْتَعْمَلَ

عَلَى أَنَّهَا حَدَّثَتْ عَنِ الرَّوِّيَّةِ . وَالْأَشْيَاءُ الَّتِي بِالْإِتِّفَاقِ مِنْهَا أَشْيَاءُ
لَيْسَ الْإِنْسَانُ سَبَبَهَا لَا بِالذَّاتِ وَلَا بِالْعَرَضِ مِثْلُ الْحَسَبِ وَالْمَشَا
الْفَاضِلِ وَمِنْهَا أَشْيَاءُ تَعْرِضُ عَنِ الْأَفْعَالِ الَّتِي تَكُونُ عَنِ الرَّوِّيَّةِ .
فَأَمَّا الْإِتِّفَاقَاتُ الْجَيِّدَةُ الَّتِي تَعْرِضُ عَنِ الْأَفْعَالِ فَتُؤْخَذُ عَلَامَةً عَلَى
الْفَضَائِلِ . وَأَمَّا الْإِتِّفَاقَاتُ الْمُتَقَدِّمَةُ عَلَى الْإِنْسَانِ فَتُؤْخَذُ فِي تَقْرِيرِ
الْفَضِيلَةِ وَتَشْيِيتِهَا مِثْلُ مَا يُقَالُ فِي الْمَدْحِ : إِنَّ الْخِيَارَ يُؤَادُّ فِي
الْخِيَارِ . وَفِي الذَّمِّ : إِنَّ الْحَيَّةَ تَبْدُ الْحَيَّةَ . وَالْأَفْعَالُ بِالْجُمْلَةِ هِيَ الَّتِي
عَلَيْهَا يُخَمَدُ الْفَاعِلُ . وَأَمَّا آثَارُ الْأَفْعَالِ فَهِيَ دَلَائِلُ عَلَى الْفِعْلِ وَإِنَّمَا
يُمدَحُ بِهَا إِذَا اثْبَتْنَا مِنْهَا الْفِعْلُ

(قَالَ) وَجُودَةُ النَّجْتِ الَّتِي قِيلَ فِيهَا تَقَدَّمَ إِنَّهَا السَّعَادَةُ عَلَى
مَا يَرَاهُ الْجُمْهُورُ هِيَ وَسَائِرُ الْأَشْيَاءِ الْإِتِّفَاقِيَّةِ الَّتِي يُمدَحُ بِهَا
وَاحِدَةٌ فِي الْجِنْسِ وَلَيْسَتْ هِيَ وَالْفَضَائِلُ وَاحِدَةٌ بِالْجِنْسِ بَلْ كَمَا
أَنَّ صَلَاحَ الْحَالِ جِنْسٌ لِلْفَضِيلَةِ أَعْنِي مُحِيطًا بِهَا كَذَلِكَ مَا يَخْدُثُ
بِالْإِتِّفَاقِ جِنْسٌ مُحِيطٌ بِالسَّعَادَةِ . وَهَذَانِ الْجِنْسَانِ أَعْنِي الْفَضَائِلُ وَمَا
بِالْإِتِّفَاقِ يَدْخُلَانِ جَمِيعًا فِي بَابِ الْمَدْحِ وَفِي بَابِ الْمَشُورَةِ لَكِنْ مِنْ
جِهَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ . وَإِنَّمَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ لِأَنَّا إِذَا عَرَفْنَا الْأَشْيَاءَ الَّتِي
يُحِبُّ أَنْ تُفْعَلَ فَقَدْ عَرَفْنَا الْأَشْيَاءَ الَّتِي إِذَا فُعِلَتْ مُدِحٌ بِهَا الْإِنْسَانُ .
وَلِذَلِكَ إِذَا ذَكَرْتَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ ذِكْرًا مُطْلَقًا أَمَكَنَّ أَنْ تَدْخُلَ فِي
الْمَشُورَةِ وَفِي الْمَدْحِ وَذَلِكَ بِزِيَادَةِ الْحِجَةِ الَّتِي بِهَا تَدْخُلُ فِي الْمَشُورَةِ
أَوْ الْحِجَةِ الَّتِي بِهَا تَدْخُلُ فِي الْمَدْحِ . وَذَلِكَ مِثْلُ مَا يَقُولُ الْقَائِلُ

إِنَّهُ لَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يُوجِبَ الْعِظَمُ وَالْفَضْلُ لِلْأَشْيَاءِ الَّتِي تَكُونُ
 لِلْإِنْسَانِ بِالْعَرَضِ بَلْ لِلْأَشْيَاءِ الَّتِي تَكُونُ عَنْ رَوْيَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ .
 فَإِذَا زِيدَ إِلَى هَذَا . فَلِذَلِكَ لَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يُمدَحَ الَّذِينَ سَعَادَتُهُمْ
 بِالْجَنَّةِ وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يُمدَحَ الَّذِينَ سَعَادَتُهُمْ عَنْ رَوْيَةٍ وَاخْتِيَارٍ
 كَقُلَانِهِ كَانَ دَاخِلًا فِي بَابِ الْمَدْحِ . وَإِذَا زِيدَ إِلَى هَذَا فَلِذَلِكَ لَا
 يَنْبَغِي أَنْ تُطْلَبَ الْأَشْيَاءُ الَّتِي تَكُونُ عَنِ الْإِتِّفَاقِ بَلْ الْأَشْيَاءُ
 الَّتِي تَكُونُ عَنِ الرِّوَايَةِ دَخَلَ فِي الْمَشُورَةِ . وَالْأَشْيَاءُ الْإِتِّفَاقِيَّةُ قَدْ
 يُمكنُ أَنْ تُسْتَعْمَلَ فِي الْمَدِيحِ نَارَةً وَفِي الذَّمِّ أُخْرَى . فَإِنْ ظَنُّونَ
 النَّاسَ فِيهَا مُخْتَلِفَةً فَإِنَّ قَوْمًا يَرَوْنَ أَنَّ الْخَيْرَاتِ الَّتِي تَكُونُ
 بِالْإِتِّفَاقِ لَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يُمدَحَ بِهَا إِذَا كَانَتْ شَيْئًا غَيْرَ مُحْصَلٍ وَلَا
 مُكْتَسَبٍ لِلْإِنْسَانِ . وَقَوْمٌ يَرَوْنَ أَنَّهُ يُجِبُ أَنْ يُمدَحَ بِهَا وَأَنَّهَا
 تَدُلُّ عَلَى عِنَايَةِ إِلَهِيَّةٍ بِأَلَدِي تَعْرِضُ لَهُ وَأَمَّا الْأَشْيَاءُ الَّتِي عَنْ
 الْإِخْتِيَارِ فَالْمَدْحُ مِنْهَا يُمدَحُ بِهِ أَبَدًا وَالذَّمُّ مِنْهَا يذَّمُّ بِهِ أَبَدًا
 (قَالَ) وَيَنْبَغِي أَنْ يُسْتَعْمَلَ فِي الْمَدْحِ الْأَشْيَاءُ الَّتِي يَكُونُ
 بِهَا تَعْظِيمُ الشَّيْءِ وَتَسْيِئَتُهُ وَهُوَ أَنْ يُخَيَّلَ فِي الشَّيْءِ أَنَّهُ بِالقُوَّةِ أَشْيَاءُ
 كَثِيرَةٌ . وَذَلِكَ إِذَا قِيلَ إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ فَعَلَ هَذَا كَمَا قِيلَ فِي قِصَّةِ
 هَابِيلَ وَقَابِيلَ . أَوْ إِنَّهُ وَحْدَهُ فَعَلَ هَذَا . أَوْ إِنَّهُ فَعَلَ فِي زَمَانٍ
 يَسِيرٍ مَا شَاءَ أَنْ يُفَعَلَ فِي زَمَانٍ كَثِيرٍ . أَوْ إِنَّهُ فَعَلَ فِعْلًا كَبِيرًا .
 فَإِنَّ هَذِهِ كُلَّهَا إِنَّمَا تُفِيدُ عِظَمَ الْفِعْلِ . وَكَذَلِكَ إِذَا قِيلَ أَنَّهُ فَعَلَ
 فِي زَمَانٍ يَفْسُرُ فِعْلُهُ . وَذَلِكَ إِذَا كَانَ بِحَسَبِ مَا يُشَاكِلُ إِنْسَانًا

إِنْسَانًا. ثُمَّ إِنَّهُ إِنْ كَانَ الْفَاعِلُ مِمَّنْ يُقْتَدَى بِهِ فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ
 مِرَارًا كَثِيرَةً فَإِنَّ فِعْلَهُ عَظِيمٌ كَمَا قِيلَ: إِنَّكُمْ آيَاهَا الرَّهْطُ آئِنَةٌ
 يُقْتَدَى بِكُمْ. وَالْأَفْعَالُ الَّتِي يُقْتَدَى بِهَا لَيْسَتْ هِيَ الْأَفْعَالُ الَّتِي تَكُونُ
 بِالْإِتِّفَاقِ بَلِ الْأَفْعَالُ الَّتِي تَكُونُ عَنِ الْمَشِئَةِ وَالرَّوِيَّةِ. وَهَذِهِ
 الْأَشْيَاءُ قَدْ يُمَكِّنُ أَنْ تَدْخُلَ فِي الْمَشُورَةِ أَعْنِي الْأَشْيَاءُ الَّتِي
 تُعْظَمُ الشَّيْءُ مِثْلُ أَنْ يُشَارَ عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَتَشَبَّهَ بِالْمَدْحِ الْأَوَّلِ
 فِي ذَلِكَ الْجُلْسِ أَوْ يَتَشَبَّهَ بِهِ فِي الْمَدْحِ أَوْ يُشَارَ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ
 مِنْ جُمْلَةِ الْمَدْحِيِّينَ الَّذِينَ لَا يُنَازِعُ أَحَدٌ فِي حَمْدِهِمْ. وَمِثْلُ الَّذِينَ
 يَمْدَحُونَ فِي الْأَسْوَاقِ أَوْ يَتَشَبَّهُ بِهِمْ فِي الْمَدْحِ. وَبِمَا يُعْظَمُ
 الْمَدْحِيُّونَ أَنْ يُقَاسُوا بِالَّذِينَ يَفْعَلُونَ أَضْدَادَ أَفْعَالِهِمْ وَذَلِكَ عِنْدَ
 ذِكْرِ أَفْعَالِهِمْ الْفَاعِلَةِ.

(قَالَ) وَالَّذِينَ شَانُهُمْ أَنْ يَتَشَبَّهُوا بِالْمَدْحِيِّينَ الَّذِينَ فِي
 الْغَايَةِ وَيُقَاسُوا أَنْفُسَهُمْ بِهِمْ دَائِمًا فَقَدْ يَنْبَغِي أَنْ يُشَبَّهُوا بِأُولَئِكَ
 وَأَنْ يُجْرُوا مَجْرَاهُمْ فِي الْمَدْحِ. وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا وَصَلُوا مَرَاتِبَهُمْ. فَإِنَّ
 قَضَائِهِمْ فِي نُمُو دَائِمٍ. وَمُقَايَسَةُ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ مَعَ غَيْرِهِ لَا
 تَصِحُّ إِلَّا مِنَ الرَّجُلِ الْفَاضِلِ لِمَوْضِعِ حُبِّ الْإِنْسَانِ لِنَفْسِهِ فَهُوَ
 يَرَى نَقَائِصَهُ أَقْلَ مِنْ نَقَائِصِ غَيْرِهِ وَإِنْ كَانَتْ أَعْظَمَ. وَيَرَى
 فَضَائِلَهُ أَكْثَرَ وَإِنْ كَانَتْ أَصْغَرَ وَلِذَلِكَ لَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ يَسْتَطِيعُ
 الْمُقَايَسَةَ وَإِنَّمَا يَسْتَطِيعُهَا الْفُضَّلَاءُ مِنَ النَّاسِ وَمِثْلُ مَا حَكَى أَرِسْطُو
 عَنْ سُقْرَاطَ أَنَّهُ كَانَ يُقَاسُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ وَيُجْرَى الْأَحْكَامَ

عَلَى اخْلَاقِ نَفْسِهِ . بِمَعْنَى أَنَّهُ كَانَ يَنْظُرُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ فَإِنْ وَجَدَ فِيهِ فَضِيلَةً آثَبَ نَفْسَهُ عَلَيْهَا وَإِنْ وَجَدَ فِيهِ رَذِيلَةً عَاقَبَ نَفْسَهُ عَلَيْهَا .
وَالْمُقَايَسَةُ النَّافِعَةُ لِمَنْ يُرِيدُ أَنْ يَتَزَيَّدَ فِي الْفَضَائِلِ إِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بِالْمَدْحِ جِدًّا . وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَمْثَالَ هَؤُلَاءِ مَمْدُوحُونَ أَعْيُنِ الَّذِينَ فَضَائِلُهُمْ فِي نُسُوبٍ دَائِمٍ . أَنَّ الَّذِينَ أَجْهَدُوا أَنْفُسَهُمْ فِي أَنْ يَبْلُغُوا مَبْلَغَ الْفَاضِلِينَ فَجَزَّوْا عَنْ ذَلِكَ فَهُمْ مَمْدُوحُونَ عِنْدَ الْجُمْهُورِ . وَهُوَ بَيِّنٌ أَنَّ تَعْظِيمَ الشَّيْءِ دَاخِلٌ فِي الْمَدْحِ . فَإِنَّ التَّعْظِيمَ لِلشَّيْءِ تَشْرِيفٌ لَهُ وَالتَّشْرِيفُ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يُمْدَحُ بِهَا . وَيَنْبَغِي إِذَا أُريدَ التَّعْظِيمُ بِالشَّيْءِ أَنْ يُشَبَّهَ بِكَثِيرٍ مِنَ الْخُودِودِينَ فَإِنَّ فِي هَذَا الْفِعْلِ تَشْرِيفًا لِلْمَدْحِ . وَدَلَالَةً لِلْجُمْهُورِ عَلَى فَضِيلَتِهِ . وَجُمْلَةً الْقَوْلِ فِي الْأَنْوَاعِ الْمُشْتَرَكَةِ لِأَجْنَاسِ الْأَقَاوِيلِ الثَّلَاثَةِ أَنَّ التَّعْظِيمَ وَإِنْ كَانَ مُشْتَرَكًا لِأَجْنَاسِ الْأَقَاوِيلِ الْخَطِيئَةِ الثَّلَاثَةِ فَهُوَ أَخْصُ بِالْمَدْحِ وَالذَّمِّ . لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُمْدَحُ الْإِنْسَانُ أَوْ يُذَمُّ بِالْأَشْيَاءِ الْمَوْجُودَةِ الْمُعْتَرَفِ بِوُجُودِهَا . وَتَعْظِيمُ الشَّيْءِ أَخْصُ بِالْمَوْجُودِ مِنْهُ بِالْمَعْدُومِ . وَلِذَلِكَ قَدْ يَنْبَغِي لِلْمَدْحِ أَنْ يَصِفَ جَلَالََةَ الشَّيْءِ وَبَهَاءَهُ وَزِينَتَهُ . وَأَمَّا اسْتِعْمَالُ الْعَلَامَاتِ وَالْمِثَالَاتِ فَهُوَ أَخْصُ بِالشُّورَةِ لِأَنَّ مِنَ الْأُمُورِ الْمُتَصَرِّمَةِ الَّتِي قَدْ سَلَفَتْ يُخَدَسُ عَلَى الَّتِي سَتَكُونُ وَإِعْطَاءُ السَّبَبِ وَالْعِلَّةِ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي قَدْ سَلَفَتْ نَحْنُ لَهُ أَكْثَرُ قَبُولًا وَتَعْظِيمًا لِانْقِضَائِهِ وَتَصَرُّمِهِ . وَأَمَّا مَعْرِفَةُ الْعَدْلِ وَالْجَوْرِ فَهُوَ خَاصٌّ بِالْمُشَاجَرَةِ . وَبِالْجُمْلَةِ فَجَمِيعُ الْمَدْحِ

وَالذَّمَّ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْمُقَايَسَةِ بَيْنَ سَلَفٍ مِنَ الْمُحْسِنِينَ
وَالْمُذْمُومِينَ. وَقَدْ يَنْبَغِي لِلْمَادِحِ وَالذَّامِ أَنْ يَعْلَمَ بِحَضْرَةِ مَنْ يَكُونُ
الْمَدْحُ أَوِ الذَّمُّ أَغْنَى أَنْ يَدَّحَ بِحَضْرَةِ الْأَصْدِقَاءِ وَيَذُمَّ بِحَضْرَةِ الْأَعْدَاءِ
كَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْلَمَ الْمَوَاضِعَ الَّتِي يَأْخُذُ وَنَهَا الْمَدْحَ وَالذَّمَّ وَهِيَ
الَّتِي سَلَفَ ذِكْرُهَا وَهِيَ الْفَضَائِلُ وَقَاعِلَاتُهَا وَعَلَامَاتُهَا وَأَعْرَاضُهَا
وَهُوَ بَيِّنٌ أَنَّ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ مِنْ حُدُودِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ تُعَرَفُ حُدُودُ
أَصْدَادِهَا إِذَا كَانَ الصِّدْقُ يُعَرَفُ مِنْ خُسْدهِ

الفصل العاشر

في انواع الخطب ومن برع فيها

البحث الاول

في خطب التهاني

(من كتاب صاعقة الترمز)

إِنَّ التَّهَانِيَّ لَيْسَ فِيهَا إِلَّا بَسْطُ الْكَلَامِ وَالْإِظْنَابُ فِي
شُكْرِ نِعَمِ اللَّهِ وَالتَّبَرُّؤِ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ إِلَّا بِهِ وَوَصْفُ مَا
أُعْطِيَ مِنَ النَّصْرِ وَنَجٍّ مِنَ الشَّبَاتِ وَتَعْظِيمُ مَا يُسَّرُّ مِنَ الْفَتْحِ ثُمَّ
مَا وَصِفَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ عِزِّهِ وَإِقْدَامِهِ وَصَبْرِهِ وَجَلْدِهِ عَنِ الْمَلِكِ وَعَنْ
جَيْشِهِ حَسَنَ وَنِعْمَهُ فَلَاقَ ذِكْرُهُ وَرَاقَ التَّوَسُّيعُ وَعَذَبَ بَسْطُ

الْكَلَامِ فِيهِ فَإِنَّهُ مُتَرَتَّبٌ عَلَى مَا قَدَّمَ مِنْ نِسْبَةِ النُّصْرِ إِلَى
وَاهِبِهِ وَأَجْلَدِ إِلَى مُعْطِيهِ وَالثَّبَاتِ إِلَى الْمُرَافِقِ لَهُ ثُمَّ كَلَّمَ اتَّسَعَ
مَجَالُ الْكَلَامِ فِي ذِكْرِ الْمُرَافَقَةِ وَوَضَفِهَا كَانَ أَحْسَنَ وَأَدَلَّ عَلَى
الْبَلَاغَةِ وَأَذْعَى لِسُرُورِ الْمَدُوحِ وَأَحْسَنَ لِمَوْقِعِ النِّعْمَةِ عِنْدَهُ
وَأَشْهَى إِلَى سَمْعِهِ وَأَشْفَى لِفَلِيلِ شَوْقِهِ إِلَى مَعْرِفَةِ الْحَالِ عَلَى
جَلِيلَتِهِ وَلَا بَأْسَ بِتَهْوِيلِ أَمْرِ الْعَدُوِّ وَوَضَفِ جَمْعِهِ وَإِقْدَاوِهِ فَإِنْ
فِي تَصْغِيرِ أَمْرِهِ تَحْقِيرَ الظَّفَرِ ۝

البحث الثاني

في خطب التقليد

(من الكتاب نفسه)

الْأَحْسَنُ مِنْهَا بَسْطُ الْكَلَامِ وَتُعْتَبَرُ كَثْرَتُهُ وَقِلَّتُهُ بِحَسَبِ
الرُّتَبِ وَيَجِبُ أَنْ يُرَاعَى فِيهَا أُمُورٌ مِنْهَا بَرَاءَةُ الْأَسْتِهْلَالِ بِذِكْرِ
الرُّتَبَةِ أَوْ الْحَالِ وَقَدْرِ النِّعْمَةِ أَوْ لَقْبِ صَاحِبِ التَّقْلِيدِ أَوْ أُنْسِيهِ
لَا يَكُونُ أَنْ تُطْلَعَ أَجْنِيَا مِنْ هَذِهِ الْأَحْوَالِ وَلَا بَعِيدًا مِنْهَا وَلَا
مُبَايَنًا لَهَا ثُمَّ يَنْسْتَضِجُ مَا يُنَاسِبُ الْغَرَضَ وَيُؤَافِقُ الْمَقْصِدَ مِنْ أَوَّلِ
الْخُطْبَةِ إِلَى آخِرِهَا وَيَحْسُنُ أَنْ يَكُونَ الْكَلَامُ مُنْقَسِمًا فِي التَّقْلِيدِ
عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ مُتَقَارِبَةٍ الْمَقَادِيرِ فَالرُّبْعُ الْأَوَّلُ الْخُطْبَةُ وَالثَّانِي
ذِكْرُ مَوْقِعِ الْإِنْعَامِ فِي حَقِّ الْقَلْدِ وَذِكْرُ الرُّتَبَةِ وَتَنْحِيمُ أَمْرِهَا

وَالثَّالِثُ فِي أَوْصَافِ الْمُقَلَّدِ وَذَكَرَ مَا يَنَاسِبُ تِلْكَ الرُّتَبَةَ وَيُنَاسِبُ
حَالَهُ مِنْ عَدْلِ وَسِيَاسَةٍ وَمَهَابَةٍ وَبُعْدِ صِيتٍ وَسُعْفَةٍ وَتَحْجَاةٍ إِنْ
كَانَ نَائِبًا وَوَصْفِ الْعَدْلِ وَالرَّأْيِ وَحُسْنِ التَّذْيِيرِ وَالْمَعْرِفَةِ بِوُجُوهِ
الْأَقْوَالِ وَعِمَارَةِ الْبِلَادِ وَصَلَاحِ الْأَحْوَالِ وَمَا يَنَاسِبُ ذَلِكَ إِنْ
كَانَ وَزِيرًا وَكَذَلِكَ فِي كُلِّ رُتَبَةٍ بِحَسَبِهَا. وَالرَّابِعُ فِي الْوَصَايَا وَهَذِهِ
هِيَ الْقَاعِدَةُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ وَمِنْهَا تُرَاعَى الْمُنَاسَبَةُ وَمَا يَمْتَنِّضِيهِ الْحَالُ
فَلَا يُعْطَى أَحَدًا فَوْقَ حَقِّهِ وَلَا يَصِفُهُ بِأَكْثَرِ مِمَّا يُرَادُ مِنْ مِثْلِهِ
وَيُرَاعَى أَيْضًا مِقْدَارُ النِّعَةِ وَالرُّتَبَةِ فَيَكُونُ وَصْفُ الْمُنَّةِ بِهَا عَلَى
مِقْدَارِ ذَلِكَ وَمِنْهَا أَنْ لَا يَصِفَ الْمُتَوَلِّيَ بِمَا يَكُونُ فِيهِ تَغْرِيبٌ
بِالْعُذُولِ وَتَقْيِصٌ لَهُ فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُؤْغِرُ الصُّدُورَ وَيُورِثُ الضَّغَائِنَ
فِي الْقُلُوبِ وَيُدِلُّ عَلَى ضَعْفِ الْآرَاءِ فِي اخْتِيَارِ الْأَوَّلِ وَلَهُ أَنْ
يَصِفَ الثَّانِي بِمَا يَحْضُرُ بِهِ الْقَصُودُ مِنْ غَيْرِ تَغْرِيبٍ بِالْأَوَّلِ وَمِنْهَا
أَنْ يَتَخَيَّرَ الْكَلَامَ وَاللِّمَاني فَإِنَّهُ مِمَّا يَشِيعُ وَيَذِيعُ وَلَا يُعْذَرُ الْمُقْصِرُ
فِي ذَلِكَ بِعَجَلَةٍ وَلَا ضَيْقٍ فَإِنَّ مَجَالَ الْكَلَامِ عَلَيْهِ مُتَّسِعٌ وَالْبَلَاغَةُ
تُظْهَرُ فِي الْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ وَالْأَمْرُ الْجَارِي فِي ذَلِكَ عَلَى الْعَادَةِ
مَعْرُوفٌ وَفِي أَيْدِي النَّاسِ مِمَّا كُتِبَتْ فِيهِ شَيْءٌ كَثِيرٌ لَكِنْ تَقَعُ
أَشْيَاءٌ خَارِجَةٌ عَنِ الْعَادَةِ فَيَحْتَاجُ الْكَاتِبُ إِلَى التَّصَرُّفِ فِيهَا عَلَى
مَا يَمْتَنِّضِيهِ الْحَالُ

البحث الثالث

في الارتجال والبديهة وإشارات الخطيب

(من كتاب بدائع البدائع والمعد الفريد)

قِيلَ إِنَّ الْإِرْتِجَالَ فِي اللُّغَةِ مَاخُودٌ مِنَ الْإِنْصَابِ وَالسُّهولةِ وَمِنْهُ
 قِيلَ : شَعْرٌ رَجُلٌ إِذَا كَانَ سَبْطًا غَيْرَ جَعْدٍ وَمُسْتَرْسِلًا غَيْرَ مُنْقَضٍ .
 وَقِيلَ مِنْ أَرْجَلَ الْبَيْتِ وَهُوَ أَنْ يَثْرِلَهَا الرَّجُلُ بِرِجْلَيْهِ مِنْ غَيْرِ حَبْلِ
 فَكَأَنَّهُمْ شَبَّهُوا اقْتِدَارَ الشَّاعِرِ عَلَى الْقَوْلِ مِنْ غَيْرِ فِكْرَةٍ وَلَا أَهْبَةٍ
 بِاقْتِدَارِ نَازِلِ الْبَيْتِ عَلَى الثُّرُولِ مِنْ غَيْرِ حَبْلِ وَلَا آتَةٍ . وَالْبَدِيْهَةُ
 مُشْتَقَّةٌ مِنْ بَدَهَ يَبْدُهُ بِمَعْنَى بَدَأَ يَبْدَأُ أَبْدَلُوا الْهَمْزَةَ هَاءَ لِقُرْبِهَا مِنْهَا
 كَمَا قَالُوا : لَهْنُكَ بِمَعْنَى لَأْنُكَ وَكَمَا أَبْدَلُوا أَلْهَاءَ أَيْضًا بِالْهَاءِ لِقُرْبِهَا
 مِنْهَا فَقَالُوا مَدَحَ وَمَدَهَ . وَاشْتِقَاقًا الْإِرْتِجَالُ وَالْبَدِيْهَةُ وَإِنْ كَانَ
 مُتَقَارِبَيْنِ إِلَّا أَنَّ أَهْلَ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ مَيَّزُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَنْ
 الْآخَرِ بِمَا سَنَذْكُرُهُ فَنَقُولُ :

الْإِرْتِجَالُ هُوَ أَنْ يَقُولَ الْقَائِلُ مَا يَقُولُ فِي آوْحَى مِنْ خَطْفِ
 الْبَارِقِ وَأَخِطَّافِ السَّارِقِ وَأَسْرَعَ مِنَ التِّمَاحِ الْوَاقِقِ وَنَفْوَذِ
 السَّهْمِ الْمَارِقِ حَتَّى يُجَالَ مَا يَعْمَلُ مُحْفُوظًا أَوْ مَرْنِيًّا مُحْفُوظًا مِنْ غَيْرِ
 حَاجَةٍ إِلَى كِتَابَةٍ وَلَا تَعَلُّلٍ بِتَقْيِيهِ وَتَنْفَرْدٍ عِنْدَ ذَلِكَ قَضِيَّةُ الْحَالِ
 بِاخْتِرَاعِ الْوِزْنِ وَالْقَافِيَةِ وَهُمْ الشُّهُودُ الْعُدُولُ الَّذِينَ يَحِبُّ الرُّجُوعُ

إِلَيْهِمْ وَلَا يَجُوزُ عَنْهُمْ الْعُدُولُ بِالشَّهَادَةِ عَلَى أَسْطِطَاعَتِهِ وَأَنَّ ذَلِكَ
الْمَنْظُومَ ابْنُ سَاعَتِهِ. وَالْبَدِيَّةُ أَنَّ يَنْزِلَ عَلَى هَذِهِ الطَّبَقَةِ قَلِيلًا
وَيُفَكِّرُ مُقَصِّرًا لَا مُطِيلًا فَإِنْ أَطَالَ ذُو الْبَدِيَّةِ الْفِكْرَةَ
أَنْعَكَسَتْ الْقَضِيَّةُ وَخَرَجَتْ مِنْ حَدِّ الْبَدِيَّةِ إِلَى حَدِّ الرُّوْيَةِ
وَعِنْدَ ذَلِكَ تَقْصُرُ نَهْضَةُ الْأَقْتِدَارِ عَنْ بُلُوغِ ذَلِكَ الْإِضْطَارِّ إِذَا الْمُرْتَجِلُ
وَالْبَادِهُ يُقْنَعُ مِنْهُمَا بِالرَّدِيِّ الْيَسِيرِ وَلَا يَقْنَعُ وَنُ الْمُرَوِّي إِلَّا بِالْحَيْدِ
الْكَثِيرِ وَكَفَاكَ فِي ذِكْرِهِمَا قَوْلُ ابْنِ الْمَعْتَزِ :

وَالْفِكْرُ قَبْلَ الْقَوْلِ يُؤْمَنُ زَيْغُهُ شَتَانُ بَيْنَ رَوْيَةٍ وَبَدِيَّةٍ
وَقَوْلُ ابْنِ جَرِيمٍ :

نَارُ الرُّوْيَةِ نَارٌ تُسَلِّقُ نَضِيجَةً وَلِلْبَدِيَّةِ نَارٌ ذَاتُ تَلَوُّجٍ
وَقَدْ يُفْصِّحُهَا قَوْمٌ لِعَاجِلِهَا لَكِنَّهَا عَاجِلٌ يَمْضِي مَعَ الرِّيحِ
وَحَسْبُكَ يَهْرَبُ إِمَامُ الشُّعْرَاءِ وَقَاتِكِهِمْ مِنْ الْبَدِيَّةِ قَمَا ذُنُوكَ
بِالْأَرْجَالِ وَإِذَا كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهْبٍ الرَّائِي رَئِيسُ الْخَوَارِجِ
فِي يَوْمِ النَّهْرِ وَأَنْ يَقُولُ وَهُوَ الْبَدَوِيُّ الْفَصِيحُ وَالْأَعْرَبِيُّ الصَّرِيحُ
إِيَّاكُمْ وَالرَّائِي الْفَطِيرُ وَالْكَلَامُ الْقَضِيبُ يَقُولُ هَذَا فِي مُطْلَقِ
الْكَلَامِ وَهُوَ غَيْرُ مُقَيَّدٍ بِوِزْنٍ وَلَا قَافِيَةٍ فَكَيْفَ الظَّنُّ بِالْمُقَيَّدِ
بِهِمَا أَعْرَبِي أَنَّهُ لِمَقَامٍ يَجِبُنْ فِيهِ الشُّجَاعُ وَيَكْذِبُ فِيهِ رَائِدُ الْفِكْرِ
فِي طَلَبِ الْإِتِّجَاعِ.

قَالَ مُحَمَّدٌ كَاتِبُ إِبْرَاهِيمَ وَكَانَ شَاعِرًا رَاوِيًا وَطَالِبًا لِلنَّحْوِ عَلَامَةً
قَالَ : سَمِعْتُ أَبَا دَاوُدَ وَجَرَى شَيْءٌ مِنْ ذِكْرِ الْخُطْبِ وَتَمْيِيزِ الْكَلَامِ.

فَقَالَ: تَلْخِصُ الْمَعَانِي رِفْقًا وَأَسْتَعَانَةً بِالْغَرِيبِ عَجْزًا وَالتَّشَادُقُ فِي غَيْرِ
 أَهْلِ الْبَادِيَةِ نَقْصٌ وَالنَّظَرُ فِي عُيُوبِ النَّاسِ عَيٌّْ وَمَسُّ الْحَيَّةِ هُلْكٌ
 وَالْخُرُوجُ مِمَّا بُنِيَ عَلَيْهِ الْكَلَامُ إِسْهَابٌ (فَقَالَ) وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ رَأْسُ
 الْخُطَابَةِ الطَّبَعُ وَعَمُودُهَا الدُّرْبَةُ وَحَلِيهَا الْإِعْرَابُ وَبَهَاؤُهَا تَحْيِيرُ اللَّفْظِ
 وَالْحَبَّةُ مَقْرُونَةٌ بِقَالَةِ الْإِسْتِكْرَاهِ وَالنَّشْدُ فِي بَيْتًا فِي خُطْبَةٍ إِيَادِ
 يُؤْمُونَ بِاللَّفْظِ الْحَقِيِّ وَتَارَةً رَمَى الْمَلَا حِظَّ خِيَفَةِ الرُّقْبَاءِ
 (وَقَالَ) ابْنُ الْإِعْرَابِيِّ قُلْتُ لِلْفَضْلِ مَا الْإِيْجَازُ عِنْدَكَ قَالَ
 حَذْفُ الْفُضُولِ وَتَقْرِيبُ الْبَعِيدِ (وَتَكَلَّمَ) ابْنُ السَّمَاكِ يَوْمًا وَجَارِيَةٌ
 أَسْمُهُ تَسْمَعُ فَلَمَّا دَخَلَ قَالَ لَهَا كَيْفَ سَمِعْتَ كَلَامِي قَالَتْ لِي أَنْ
 تَفْهَمَهُ مَنْ لَمْ يَفْهَمَهُ مَلَأَهُ مِنْ فَوْهَةٍ

المبحث الرابع

في خطب الوعاظ

(من كتاب التبيان للجاحظ وكتاب العقد الفريد

وزهر الاداب للعصري بتصرف)

قَالَ ابْنُ الْجَوَازِيِّ فِي الْمُنْتَحَبِ: لَمَّا كَانَتْ الْمَوَاعِظُ مَسْدُوبًا
 إِلَيْهَا يَقُولُ: فَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ وَقَوْلُهُ لِعَمَّالِهِ
 تَعَاهِدُوا النَّاسَ بِالتَّذْكَرَةِ، وَلِأَنَّ أَدْوَاءَ الْقُلُوبِ تَنْفَقِرُ إِلَى
 أَدْوِيَةٍ كَمَا تَحْتَاجُ أَمْرَاضُ الْبَدَنِ إِلَى مُعَالَجَةٍ آفَتْ فِي هَذَا

أَلْفَنَ كُتُبًا تَشْتَمِلُ عَلَى أُصُولِهِ وَفُرُوعِهِ وَكَانَ السَّلَفُ يَفْتَنُونَ مِنْ
 الْمَوَاعِظِ بِالْيَسِيرِ مِنْ غَيْرِ تَحْسِينِ لَفْظٍ أَوْ زَخْرَفَةِ نَظْمٍ وَمَنْ تَأَمَّلَ
 مَوَاعِظَ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ وَغَيْرِهِ مِمَّا أَثَرَتْ إِلَيْهِ. وَكَذَلِكَ كَانَتْ أَلْفُفُّهَا
 فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ يَتَنَاطَرُونَ مِنْ غَيْرِ مُعَارَضَةٍ فِي تَسْمِيَةِ قِيَاسٍ عَلَيْهِ
 أَوْ قِيَاسٍ شَبَّهِ وَنَزَجُوا أَنْ يَكُونَ مَا أَخَذَتْ مِنَ الْأَلْفَافِ وَالْأَسَامِي
 لَا يَخْرُجُ عَنْ مَرَضَاتِ الْأَوَائِلِ وَلِذَاكَ مَا أَخَذْتُ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمَذْكُورِينَ
 مِنْ تَحْسِينِ لَفْظٍ أَوْ تَنْجِيعٍ وَعَظٍ وَلَا يَخْرُجُ مِنْ قَانُونِ الْجَوَادِ وَمَا
 ذَاكَ إِلَّا بِمُخَابَرَةِ جَمْعِ الْقُرْآنِ الَّذِي ابْتَدَأَ بِهِ أَبُو بَكْرٍ وَثَنِي بِهِ عُثْمَانُ
 فِي شَهْرِ رَمَضَانَ وَأَذِنَ لِتَشْمِيمِ الدَّارِي أَنْ يُقَصَّ وَمِثْلُ هَذِهِ لَا
 تُدْمُ إِكُونُهَا ابْتِدَعَتْ إِذَا لَيْسَتْ تَخَارُجُ عَنِ الْأَسْلِ الْمَشْرُوعِ وَقَالَ
 الْحَسَنُ الْقَصَصُ بَدْعَةٌ كَمْ مِنْ آخٍ يُسْتَفَادُ وَدَعْوَةٌ تُسْتَجَابُ

قَالَ بَعْضُ الْقَدَمَاءِ إِنْ الْوَعْظَ حَلَّ اللَّهُ الْمَحْدُودُ وَعَهْدُهُ الْمَعْهُودُ
 وَظِلُّهُ الْعَمِيمُ وَسِرَاطُهُ الْمُسْتَقِيمُ وَحُجَّتُهُ الْكُبْرَى وَمَحَجَّتُهُ الْوُسْطَى وَهُوَ
 الْوَاضِحُ سَبِيلُهُ الرَّاشِدُ دَلِيلُهُ الَّذِي مَنْ اسْتَضَاءَ بِصَاحِبِيهِ أَبْصَرَ وَنَجَا
 وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ ضَلَّ وَهَوَى حُجَّةُ اللَّهِ وَعَهْدُهُ وَوَعِيدُهُ وَوَعْدُهُ بِهِ يَعْلَمُ
 أَجَاهِلٌ وَيَعْمَلُ الْعَالِمُ الْعَامِلُ وَيَنْتَبِهُ السَّاهِي وَيَتَذَكَّرُ اللَّاهِي بِشِيرِ
 الثَّوَابِ وَنَذِيرِ الْعِقَابِ وَشِفَاءِ الصَّدُورِ وَجَلَاءِ الْأُمُورِ مِنْ فَضَائِلِهِ
 أَنَّهُ يَقْرَأُ دَائِمًا وَيَكْتُبُ وَيُحْيِي وَلَا يَمِلُ مَا أَهْوَنَ الدُّنْيَا عَلَى مَنْ
 جَعَلَ الدِّينَ إِمَامَهُ وَتَصَوَّرَ الْمَوْتَ أَمَامَهُ قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ
 الْحِكْمَةُ مَوْقِفَةٌ لِلْقُلُوبِ مِنْ سَيِّئَةِ الْفَعْلَةِ وَمُنْقِذَةٌ لِلْبَصَائِرِ مِنْ مَكْرَفَةِ

الْحَيَرَةُ وَنُحْيِيَّةٌ لَهَا مِنْ مَوْتِ أَجْهَالَةٍ وَمُسْتَحْرِجَةٌ لَهَا مِنْ ضَيْقِ الضَّلَالَةِ
وَالْعِلْمُ دَوَاءٌ لِلْقُلُوبِ الْعَلِيلَةِ وَمَشْحَدٌ لِلْأَذْهَانِ الْكَلِيلَةِ وَنُورٌ فِي
الظُّلُمَةِ وَأُنْسٌ فِي الْوَحْشَةِ وَصَاحِبٌ فِي الْوَحْدَةِ وَسَيْرٌ فِي الْخَاوَةِ
وَوُضْعَةٌ فِي الْحَجَاسِ وَمَادَّةٌ لِلْعَقْلِ وَتَأْقِيجٌ لِلْفَهْمِ وَنَافٍ لِلْعِيَالِ الْمُزْرِ
بِأَهْلِ الْأَحْسَابِ الْمُقْصِرِ بِذَوِي الْأَلْبَابِ أَنْطَقَ اللَّهُ سُجَّاتِهِ أَهْلَهُ
بِالْبَيَانِ الَّذِي جَعَلَهُ صِفَةً لِكَلَامِهِ فِي تَثْرِيئِهِ وَآيَدَهُ رُسُلُهُ رِضَا حَا
لِلْمُشْكِلَاتِ وَقَضَا بَيْنَ الشُّبُهَاتِ تَشْرِيفَ بِهِ الْوَضِيعِ وَاعْزَ بِهِ
الدَّلِيلَ وَسَوَّدَ بِهِ الْمَسُودَ مَنْ تَحَلَّى بِغَيْرِهِ فَهُوَ مُعْطَلٌ وَمَنْ تَعَطَّلَ مِنْهُ
فَهُوَ مُعْقَلٌ لَا تُبْلِيهِ الْأَيَّامُ وَلَا تَحْتَرِبُهُ الدُّهُورُ يَتَجَدَّدُ عَلَى الْإِبْتِدَالِ
وَيَذْكُرُ عَلَى الْإِنْفَاقِ لِلَّهِ عَلَى مَنْ بِهِ مِنْ عِبَادِهِ الْحَمْدُ وَالشُّكْرُ قِيلَ
لِعَمْرِو بْنِ عُبَيْدٍ مَا الْبَلَاغَةُ قَالَ مَا بَلَغَكَ الْجَنَّةُ وَعَدَلْ بِكَ عَنِ النَّارِ
وَبَصَرَكَ مَوَاقِعَ رُشْدِكَ وَعَوَاقِبَ عَمَلِكَ قَالَ السَّائِلُ لَيْسَ هَذَا
أُرِيدُ قَالَ مَنْ لَمْ يُحْسِنْ أَنْ يَسْكُتَ لَمْ يُحْسِنْ أَنْ يَسْتَمِعَ وَمَنْ لَمْ
يُحْسِنْ الْإِسْتِمَاعَ لَمْ يُحْسِنْ الْقَوْلَ قَالَ لَيْسَ هَذَا أُرِيدُ قَالَ : قَالَ
النَّبِيُّ إِنَّا مَعَشَرُ الْأَنْبِيَاءِ فِينَا تَلَكَّا أَيُّ قِلَّةٍ الْكَلَامِ وَكَانُوا
يَكْرَهُونَ أَنْ يَزِيدَ مَنْطِقُ الرَّجُلِ عَلَى عَقْلِهِ قَالَ السَّائِلُ لَيْسَ هَذَا
أُرِيدُ قَالَ : كَانُوا يَخَافُونَ مِنْ فِتْنَةِ الْقَوْلِ وَوَنُ سَقَطَاتِ الْكَلَامِ
مَا لَا يَخَافُونَ مِنْ فِتْنَةِ السُّكُوتِ وَسَقَطَاتِ الصَّمْتِ قَالَ : لَيْسَ هَذَا
أُرِيدُ قَالَ عَمْرُو : يَا هَذَا فَكَأَنكَ تُرِيدُ تَحْيِيرَ اللَّفْظِ فِي حُسْنِ الْإِفْهَامِ
قَالَ : نَعَمْ قَالَ : إِنَّكَ إِنْ أَرَدْتَ تَقْرِيرَ حُجَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي عُقُولِ

الْمُكَلَّفِينَ وَتَخْفِيفَ الْمَوَاقِفِ عَلَى الْمُسْتَعِينِ وَتَزْيِينَ تِلْكَ الْمَعَانِي فِي
قُلُوبِ الْأُرِيدِينَ بِالْأَلْفَاظِ الْحَسَنَةِ فِي الْأَذَانِ الْمُبْتُولَةِ عِنْدَ الْأَذْهَانِ
رَغْبَةً فِي سِرْعَةِ إجابَتِهِمْ وَنَفْيِ الشَّوَاعِلِ عَنْ قُلُوبِهِمْ بِالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ
عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ كُنْتَ قَدْ أَوْقَيْتَ الْحِكْمَةَ وَفَضَلَ الْخُطَابِ
وَأَسْتَوْجَبْتُ مِنَ اللَّهِ جَزِيلَ الثَّوَابِ

قَالَ ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ: وَأَحْكُمُ الْمَوَاقِفِ مَوَاقِفُ اللَّهِ ثُمَّ مَوَاقِفُ الْأَنْبِيَاءِ
ثُمَّ مَوَاقِفُ الْأَبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ ثُمَّ مَوَاقِفُ الْحُكَمَاءِ وَالْأَدَبَاءِ ثُمَّ مَقَامَاتُ
الْعِبَادِ بَيْنَ أَيْدِي الْخُلَفَاءِ ثُمَّ قَوْلُهُمْ فِي الزُّهْدِ وَرِجَالِهِ الْمَعْرُوفِينَ بِهِ
ثُمَّ الْمَشْهُورِينَ مِنَ الْمُنْتَهِسِينَ إِلَيْهِ وَالْمَوْعِظَةِ ثَقِيلَةً عَلَى السَّمْعِ
مُسْتَحْرِجَةً عَلَى النَّفْسِ بَعِيدَةً مِنَ الْقَبُولِ لِأَعْيَاضِهَا الشَّهْوَةِ وَمُضَادَّتِهَا
الْهَوَى الَّذِي هُوَ رَبِيعُ الْقَلْبِ وَمُرَادُ الرُّوحِ وَمَرْبَعُ اللَّهْوِ وَمَسْرَحُ
الْأَمَانِيِّ إِلَّا مَنْ وَعَظَهُ عِلْمُهُ وَارْشَدَهُ قَلْبُهُ وَآخِصَّتْهُ تَجَرُّبَتُهُ. قَالَ
الشَّاعِرُ:

لَنْ تَرْجِعَ النَّفْسُ عَنْ غَنِيهَا حَتَّى يَرَى مِنْهَا لَهَا وَاعِظُ
(وَقَالَتِ الْحُكَمَاءُ) السَّعِيدُ مَنْ وَعَظَ بِنَفْسِهِ وَلَا يَعْنُونَ مَنْ
وَعَظَهُ غَيْرُهُ وَلَكِنْ مَنْ رَأَى الْعَبْرَ فِي غَيْرِهِ فَأَتَّعَظَ بِهَا فِي نَفْسِهِ
وَلِذَلِكَ كَانَ يَقُولُ الْحَسَنُ: اقْرَعُوا هَذِهِ النَّفُوسَ فَإِنَّهَا طَلَعَةٌ وَحَادٍ تُوهَا
بِالذِّكْرِ فَإِنَّهَا سَرِيعَةُ الدُّثُورِ وَأَعْصَوْهَا فَإِنَّهَا إِنْ أُطِيعَتْ بَرَعَتْ فِي
الشَّرِّ غَايَةً وَكَانَ يَقُولُ عِنْدَ انْقِضَاءِ مَجْلِسِهِ وَخَتَمَ مَوْعِظَتِهِ يَا هَذَا مِنْ
مَوْعِظَةٍ لَوْ عَادَفْتُ مِنَ الْقُلُوبِ حَيَاةً. وَكَانَ ابْنُ السَّمَّالِ يَقُولُ

إِذَا فَرَغَ مِنْ كَلَامِهِ : السُّنُّ تَصِفُ وَقُلُوبٌ تَعْرِفُ وَأَعْمَالٌ تُخَالِفُ .
وَقَالَ يُونُسُ بْنُ عُبَيْدٍ : لَوْ أَمَرْنَا بِالْجَزَعِ لَصَبَرْنَا يُرِيدُ ثِقَلُ الْمَوْعِظَةِ
عَلَى السَّمْعِ وَجُذُوحِ النَّفْسِ إِلَى مُخَالَفَتِهَا . وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ : (أَحَبُّ شَيْءٍ
إِلَى الْإِنْسَانِ مَا مُنِعَا) . وَقَوْلُهُمْ : وَالشَّيْءُ يُرْغَبُ فِيهِ حِينَ يُنْتَمَعُ
وَالْمَوْعِظَةُ مَا نَعَتْ لَكَ مِمَّا تَشْتَهِي حَامِلَةٌ لَكَ عَلَى مَا تَكْرَهُ إِلَّا
أَنْ تَلْقَاهَا بِسَمْعٍ قَدْ وَثَّقَتْهُ الْعِزَّةُ وَقَلْبٍ قَدَحَتْ فِيهِ الْفِكْرَةُ
وَنَفْسٍ لَهَا مِنْ عَلَيْهَا زَاجِرٌ وَمِنْ عَقْلِهَا رَادِعٌ فَيَفْتَحُ لَكَ بَابُ
الْتَّوْبَةِ وَيُوضِّحُ لَكَ سَبِيلَ الْإِنَابَةِ (قَالَ النَّبِيُّ) حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ
وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ يُرِيدُ أَنَّ الطَّرِيقَ إِلَى الْجَنَّةِ أُحْتِمَالُ
الْمَكْرُوهِ فِي الدُّنْيَا وَالطَّرِيقَ إِلَى النَّارِ رُكُوبُ الشَّهَوَاتِ وَخَيْرُ
الْمَوْعِظَةِ مَا كَانَتْ مِنْ قَائِلٍ مُخْلِصٍ إِلَى سَامِعٍ مُنْصِفٍ (وَقَالَ بَعْضُهُمْ)
الْكَلِمَةُ إِذَا خَرَجَتْ مِنَ الْقَلْبِ وَقَعَتْ فِي الْقَلْبِ وَإِذَا خَرَجَتْ
مِنَ اللِّسَانِ لَمْ تُجَاوِزِ الْأَذَانَ . وَقَالُوا مَا أَحْسَنَ التَّاجَ . وَهُوَ عَلَى
رَأْسِ الْمَلِكِ أَحْسَنُ . وَمَا أَحْسَنَ الدَّرَّ . وَهُوَ عَلَى نَحْرِ الْفَتَاةِ أَحْسَنُ وَمَا
أَحْسَنَ الْمَوْعِظَةَ . وَهِيَ مِنَ الْفَاضِلِ الثَّقِيِّ أَحْسَنُ . (وَقَالَ زِيَادٌ)
أَيُّهَا النَّاسُ لَا يَنْفَعُكُمْ سُوهُ مَا تَعْلَمُونَ مِنَّا أَنْ تَنْتَفِعُوا بِأَحْسَنِ مَا
تَسْمَعُونَ مِنَّا . قَالَ الشَّاعِرُ :

اعْمَلْ بِقَوْلِي وَإِنْ قَصُرْتُ فِي عَمَلِي

يَنْفَعَكَ قَوْلِي وَلَا يَضُرُّكَ تَقْصِيرِي

البحث الخامس

في غابة الوعظ

(من كتاب الفصن الرطب للمفري)

قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْخَطِيبِ فِي الرَّوَضَةِ فِي مُحَرِّكَاتِ الْغَرِيْمَةِ
 وَهِيَ الْيَقْظَةُ مَا نَحْنُ قُلْتُ وَالْخَوَرَكَاتُ الْبَشَرَكَاتُ فِي بَاعِثِ الْيَقْظَةِ
 كَثِيرَةٌ مِنْهَا الْوَعْظُ السَّائِقُ بِمَقْوَدِ الشَّارِدِ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى مَرَبِطِ
 التَّوْبَةِ وَمُحَرِّكِ الْغَرِيْمَةِ يُرَدِّدُ آذَانَهُ عَلَى نَوْمِ أَهْلِ الْكَتُوفِ وَقَدْ ضُرِبَ
 نَوْمُ الْغَفْلَةِ عَلَى آذَانِهِمْ حَتَّى يَحْوِلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ آذَانِهِمْ وَيُرَكِّبُهُمْ
 ظَهَرَ الرِّيَاضَةِ حَتَّى تَلْحَقَهُمْ بِالْمُجَذَّوْرِينَ مِنْ إِخْوَانِهِمْ وَلَمَّا كَانَ حُبُّ
 الدُّنْيَا هُوَ الْمَانِعُ عَنِ الشُّرُوعِ فِي إِطْلَاقِ الْعَمَلِ وَالْقَاطِعُ بِهِ لَمَّا بَعْدَهُ لَمْ
 يُجِدْ إِسَاءَةَ خَبَلِ الْهَوَى وَجُنُونَ الْكَسَلِ أَنْجَمَ مِنْ وَفَى الْعَذَلِ وَالتَّائِيْبِ
 وَتَقْبِيحِ الْحَبُوبِ سِيَّئًا إِذَا أَثْرَجَتْ نِبَالُ نَبْلِهِ عَنْ حَنِيَّاتِ خُلُوعِ
 الصِّدْقِ وَقَالَ بَعْضُهُمُ الْكَلَامُ إِذَا خَرَجَ مِنَ الْقَلْبِ دَخَلَ الْقَلْبَ
 أَوْقَدِ النَّارَ مِنْ رِسَالَةِ لَيْلَى وَأَحْذَرِ السَّيْلَ بَعْدَهَا مِنْ دُمُوعِي
 وَلَا تَعْدِلِ الْوَعْظَ الْبَلِيغَ بِاللِّسَانِ الْفَصِيحِ وَالْقَلْبِ الْقَرِيحِ فَإِذَا
 رَأَيْتَ الْأَرْضَ قَدْ أَهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَهَضَابَ الْقَاوِبِ الْقَاسِيَةِ قَدْ
 تَقَلَّبَتْ فَشَمِرَ لِلْغَرَّاسِ وَالزَّرَّاعِ عَنِ الذَّرَّاعِ وَأَغْتَنِمِ السَّرَّاعَ وَالْأَلَمْرَاعَ
 إِذَا هَمَّتْ رِيَا حُكَّ فَأَغْتَنِمَهَا فَإِنَّ إِكْلَ خَافِقَةٍ سَكُونًا
 وَكَقَوْلِ الْآخِرِ :

حَقَّرَ لَهَا مَاءَ يُرِيهَا بِدَاءَةٍ وَأَضْمَنَ لَهَا حَوْضًا وَإِنْ لَمْ تُخَفِّرْ
 وَارَبًا بِنَفْسِكَ عَنْ تَسَامُحٍ بِإِنْعٍ وَأَغْنَمَ إِذَا سَأَمَتْكَ ثَمَرَةٌ مُشْتَرِي
 قَالُوا الْوَعْظُ يَضْرِبُ وَجْهَ النَّفْسِ عَنِ التَّثَبُّطِ فِي بِسَاطِ اللَّذَاتِ
 وَيَنْقُلُ خَطَرَاتِهَا عَنِ الْخَطَرِ فِي مَلْعَبِ الْخَطِيئَاتِ وَيُثْقِلُ لَهَا الصَّبْرَ عَيَانًا
 وَيُبَيِّنُ الْعَوَاقِبَ الْمُحْتَجَّةَ بَيَانًا وَيُنْشِي سَحَابَ الْحُزَنِ فِي أَجْوَافِ أَجْزَائِهَا
 وَيَذَكِّرُهَا بِمَا لَهَا وَأَنْتِبَاهُهَا وَيُعْرِضُ عَنْ مَصَارِعِ قَنَائِهَا وَخَرَابِ بَنَائِهَا
 وَفِرَاقِ حَبَائِثِهَا وَأَبْنَائِهَا عِنْدَ تَزُولِ هَادِمِ اللَّذَاتِ بِفِيئَاتِهَا فَتَرْجِعُ إِلَى
 اللَّهِ تَعَالَى بِحُكْمِ الْأَضْطِرَارِ أَفْكَارُهَا وَتَخْشَعُ مِنْ خِيفَةِ اللَّهِ تَعَالَى
 وَجَلَالِهِ أَبْصَارُهَا وَالْوَعْظُ يَكُونُ بِلِسَانَيْنِ وَيُوجَدُ فَنَيْنِ لِسَانٍ حَالٍ
 وَلِسَانٍ مَقَالٍ وَرَبِّمَا كَانَ لِسَانُ الْحَالِ أَبْلَغَ وَهُوَ يُسْمَعُ مِنْ
 أَنْبُورِ الْمُوجِشَةِ وَالْقُصُورِ الْحَايَةِ وَالْعِظَامِ الْبَالِيَةِ وَفِيهِ حِكَايَاتُ
 وَأَخْبَارُ وَلِسَانُ مَقَالٍ كَقَوْلِهِ سُجَّانُهُ وَتَعَالَى وَسَكَنَتْكُمْ فِي مَسَاكِينِ
 الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ أَلْكُمُ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا أَلْكُمُ
 الْأَمْثَالَ وَهُوَ سَبِيلُ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي بَعَثَ بِهَا النَّبِيِّينَ وَخَسَّنَ فُضُولَهَا
 الْكِتَابَ الْمُبِينِ وَالسُّوْطَ الَّذِي يُخَيِّلُ عَلَى الْأَوْبَةِ وَيَسُوقُ دَوْدَ
 الْمَتَطَهِّرِينَ إِلَى غَدِيرِ التَّوْبَةِ وَتَحْنُ تَجْعَلُهُ هَيْئَةً بَيْنَ يَدَيِ الْفِرَاسَةِ
 لِتَذَكِّيَةِ النُّفُوسِ إِنْ صَدَقَ حُكْمُ الْفِرَاسَةِ مِنْ ذَلِكَ فَمِنْ ذَلِكَ مَا صَدَرَ
 عَنِّي عَلَى لِسَانٍ وَاعِظٍ



المبحث السادس

في فوائد الوعظ وجهل كثيرين من الخطباء في هذا الفن

(من كتاب الكلم اتقان الشيخ الحسين المرصفي)

وَلَمَّا كَانَ الْإِنْسَانُ مَوْضِعًا لِلسَّهْوِ وَالنِّسْيَانِ وَمَحَلًّا لِلذُّهُولِ
وَالْغَفْلَةِ لَمَّا يَغْتَوِرُهُ وَيَكْنِيفُهُ مِنَ الْآهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ الَّتِي بَاتِبَاءِهَا
وَالْإِنْقِيَادِ مَعَهَا يَدْخُلُ الْإِخْتِلَالُ عَلَى النِّظَامِ الْكُلِّيِّ وَالْحَظْلِيَّةِ
الْعَامَّةِ ثُمَّ يَسْرِي بِغَايَةِ السَّرْعَةِ إِلَى النِّظَامَاتِ الْجُزْئِيَّةِ وَالْمَصَالِحِ
الْخَاصَّةِ فَيُضَيِّعُ الْغَنِيَّ فَقِيرًا وَالْقَادِرَ عَاجِزًا وَالشَّجَاعَ جَبَانًا وَالذَّكِيَّ
غُيًّا وَالْفَظْنَ بَلِيدًا وَيَصِيرُ أُنْمُ الْبِهَائِمِ أَوَّلَى بِهِمْ مِنْ أُنْمِ
الْإِنْسَانِ بَلْ كَانَتْ الْبِهَائِمُ أَحْسَنَ حَالًا مِنْهُمْ كَمَا سَلَفَ وَكَانُوا
مَوْضِعَ قَوْلِهِ : إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا . تَعَيَّنَ
أَنْ يَضْحَكُ مُذَكَّرٌ دَائِمٌ وَوَاعِظٌ مُسْتَعِيرٌ يَهْدِيهِ إِلَى قَصْدِ السَّبِيلِ
وَجَادَّةِ الْمَحْجَةِ كُلَّمَا جَارَتْ بِهِ الْحَيَالَاتُ الْفَاسِدَةُ وَالْوَسَاوِسُ
الرَّدِيَّةُ . وَلِتَحْصِيلِ ذَلِكَ وَرَدَ الْآسَرُ فِي قَوْلِهِ وَلِتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ
يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ . فَقَدْ أَبَانَ أَنَّ لَا صَلَاحَ لِلْكَافَّةِ إِلَّا بِوُجُودِ أُمَّةٍ
تَكُونُ وَظِيفَتُهَا دُعَاءُ النَّاسِ لِلْخَيْرِ وَصَرْفُهُمْ عَنِ نَاحِيَةِ الشَّرِّ وَأَمْرُهُمْ
بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيُهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ . وَنَوْهَ بِمَقْدَارِ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِذَا وَجِدَتْ
وَنَبَهَ عَلَى شَرَفِهَا وَفَضْلِ مَكَانِهَا حَيْثُ جَعَلَهَا مُخْتَصَّةً بِالْفَلَاحِ .

وَأَفُوزَ بِحَقِيقَةِ السَّعَادَةِ إِذَا قَدْ تَكُونُ هِيَ فِي نَفْسِهَا صَالِحَةً وَبِهَا
يَعْمُ الصَّلَاحُ فَيَصِيرُ فَلَاحُهَا أَصْلًا لِلْفَلَاحِ سِوَاهَا فَاسْتَحَقَّتْ أَنْ يُقَالَ
فِيهَا بِعِبَارَةِ التَّخْصِصِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُحْلُونَ وَإِنَّمَا يُمَكِّنُ تَأْدِيَةَ تِلْكَ
الْوُضُفَةِ وَالْقِيَامُ بِهَا حَقُّ الْقِيَامِ لِقَوْمٍ تَقَدَّسَتْ نُفُوسُهُمْ وَتَدَقَّتْ
طِبَاعُهُمْ وَتَهَدَّبَتْ أَخْلَاقُهُمْ وَتَسَوَّرَتْ نَقُولُهُمْ وَصَحَّتْ أَفْهَامُهُمْ
وَرَجَحَتْ أَحْلَامُهُمْ وَصَدَقَتْ عَزَائِمُهُمْ وَعَلَتْ هِمَمُهُمْ وَعَرَفُوا أَجْنَاسَ
الْخَيْرِ وَاحْاطُوا بِأَنْوَاعِهِ وَمَيَّزَوْهَا مِنْ أَصْنَافِ الشَّرِّ فَرُبَّمَا أَشْتَبَهَ الْحَالُ
وَتَمَثَّلَ كُلٌّ فِي صُورَةِ الْآخِرِ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ تَمَيُّزُ الْخَيْرِ مِنَ
الشَّرِّ أَمْرًا عَسِيرًا إِذَا كَانَ الْأَسَاسُ الضَّرَرُ وَالنَّفْعُ وَلَا تَجِدُ أَحَدًا
يُجْهَلِيهَا وَلَكِنْ رَبُّ ضَارٍّ فِي الْحَالِ نَافِعٌ فِي الْمَالِ فَيَكُونُ خَيْرًا
وَرَبُّ نَافِعٍ فِي الْحَالِ ضَارٌّ فِي الْمَالِ فَيَكُونُ شَرًّا وَرُبَّمَا اجْتَمَعَتِ
الْمُضَرَّةُ وَالْمَنْفَعَةُ وَأَسْتَوَتَا أَوْ غَابَتْ أَحَدَاهُمَا وَمِنْ هُنَا نَبَتْ
الْإِخْتِيَاجُ لَوْجُودِ أَمَةٍ تُفَرِّغُ أَنْفُسَهَا لِلِاشْتِغَالِ بِذَلِكَ حَتَّى تُحْكِمَ
أَمْرَهَا ثُمَّ تُلَاحِظُ النَّاسَ فِي جَمِيعِ حَرَكَاتِهِمْ إِمَّا يَدْعُوهُمْ إِلَى الْخَيْرِ
وَتَأْمُرُهُمْ بِمَا عَرَفْتَهُ خَيْرًا وَتَنْهَاهُمْ عَمَّا أَنْكَرْتَهُ وَعَرَفْتَهُ شَرًّا
تَنْصَحُهُمْ بِالْإِزَامِ مَا عَرَفُوهُ وَتَدُدُّهُمْ عَلَى مَا جَهِلُوهُ فَكَثُرَ الْمَنَافِعُ
وَالْمَضَارُّ مَعْرُوفٌ بَيِّنٌ لَا يُخْتَلِفُ بِالنَّاسِ عَلَيْهِ حَتَّى يَقِيلَ إِنَّ الدِّينَ
أَمْرٌ تَقْتَضِيهِ الطَّبَاعُ وَتَدْفَعُ إِلَيْهِ الْفِطْرَةُ وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ إِغْلَابَةُ
هَوَاهُ قَدْ يُبِيعُ لِنَفْسِهِ مَا يَحْكُمُ عَقْلُهُ بِمَنْعِهِ وَيَجِدُ فِي طَبْعِهِ
اسْتِيقَاحَهُ أَلَّا تَرَى إِلَى السَّارِقِ وَالْفَاصِبِ كَيْفَ يَسْتَحْيِزُ أَنْ يَفْعَلَ

بغيره ما لا يستحيز أن يفعله به غيره . فمضى سرق ماله أو اغتصب
منه وجد بذلك في قلبه حرارة وفي نفسه ضيقا وتشوش فكره
وأختلت حاله وبطل نظام سيره . وهو لا يريد ذلك . بل يريد أن
يدوم منشراح الصدر طيب النفس مستقيم الأحوال . فهو يحكم
بفتح ذلك وحسن هذا . وإن كان لا يعبر عن ذلك بقصوره
عن معرفة الألفاظ بالحل والحرم . وإلى ذلك المعنى الإشارة
بقوله ألالل آلل وآلل آلل وآلل آلل وآلل آلل . وعلى هذه
الأمة أن تعرف التجددات الزمانية لتكون أعمالها مطابقة
للأحوال الحاضرة . فرب أمر يكون خيرا في عصر فيضي شرا
في غيره . وهل هذه الأمة كائنة أو كانت . لا أثبت ذلك ولا
أنفيه حتى أفاوذك الحديث فيه . إن قلت هذه الأمة متحقة في
خطباء المنابر . قلت لك : أتريد بهم هؤلاء الذين تراهم وتسمعهم
وهم إنما تميزوا عن آخر طبقة من طبقات العامة لتسكنهم من
قراءة نوع من أنواع الخطب . فعناية أمر الواحد منهم أن يقرأ
ديوان خطب صنفه بعض أسلافه كما تحيل مناسبا للشهور والمواسم
فيحفظ ما تعطيه تلك النقوش من مواد الألفاظ . أو ينسخ صورة
خطبة ليحفظ حياها عليه إذا قام بها خطيبا . يسرد اللفاظ حفظها أو
نظر حروفها لا يعقل معناها ولا يفهم المراد منها . كما إذا لم يكن
الديوان مشكولا ولم يقرأ الخطبة على ذي دراية سيفت منه
المعجب والمطرب من اللحن الفاحش والتضخيف القبيح . فإن منهم

مَنْ يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ اتِّبَاعَ السَّامِعِينَ فَيَقْرَأُ الْخُطْبَةَ مِرَارًا
 عَلَى بَعْضِ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ حَتَّى يَقِفَ عَلَى صِحَّةِ النُّطْقِ بِهَا. وَمِنْهُمْ
 مَنْ يَقْتَصِرُ عَلَى تَضْحِيحِ الْحَدِيثِ أَخِيرَ أَمَّا اكْتِلَامُ النَّبِيِّ. وَرُبَّمَا قَرَأَهُ
 عَلَى رَجُلٍ يُقْبِلُهُ لَهُ بِصَاعَةِ النَّخْرِ فَيُضِلُّانِ جَمِيعًا. إِذَا لَا عَمَلَ لِصَاعَةِ النَّخْرِ
 إِلَّا بَعْدَ فَهْمِ الْمَعْنَى. وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُبَالِي بِتَضْحِيحِ آيَةٍ وَلَا حَدِيثٍ.
 مَا أَطْنُ أَنتَ تَسْتَحْجِرُ أَنْ تَقُولَ أَرَدْتُ هَؤُلَاءِ. فَإِنْ قُلْتَ إِنَّمَا
 أَرَدْتُ خُطْبَاءَ الْأَسْلَافِ قُلْتُ لَكَ: تَجَاوَزَ عَصْرَ النَّبِيِّ وَعَصْرَ أَصْحَابِهِ
 ثُمَّ أَقْرَأَ خُطْبَ الْخُلَفَاءِ وَتَوَابِعِهِمْ فِي التَّوَاحِي ثُمَّ أَمَضَ فِي ذَلِكَ
 طَبَقَةً بَعْدَ طَبَقَةٍ وَعَصْرًا خَلْفَ عَصْرٍ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى وَقْتِكَ هَذَا
 تَحْذِرُ أَنْ جَمِيعَ الْخُطْبِ يَدُورُ أَمْرَهَا عَلَى مَعَانٍ وَاحِدَةٍ وَالْفَاظِ مُعَيَّنَةٍ
 لَا تَجَاوِزُهَا. وَهِيَ التَّرْهِيدُ فِي الدُّنْيَا وَالتَّرْغِيبُ فِي الْآخِرَةِ وَتَبَشِيرُ
 الْمَطِيعِ وَانْذَارُ الْعَاصِي. يُكَرِّرُونَ ذَلِكَ كُلَّ جُمُعَةٍ وَكُلَّ مَوْعِدٍ حَتَّى لَمْ
 يَبْقَ لَهُ تَأْثِيرٌ وَالتَّحْقُّ بِالْأُمُورِ الْمَعْتَادَةِ. إِنَّمَا يَسْمَعُ النَّاسُ أَصْوَاتًا
 ذَاتَ كَيْفِيَّاتٍ مُخْتَلِفَةٍ إِقَامَةً لِذَلِكَ الرِّثْمِ حَسَبًا يَصِلُ إِلَيْهِ فَهُمْ
 الْعَالِمُونَ مِنْ أَنَّ تِلْكَ الصُّورَةَ هِيَ إِقَامَةُ الدِّينِ. وَفِي صِفَةِ خُطْبَاءِ
 الْعَصْرِ الثَّانِي بَعْدَ عَصْرِ النَّبِيِّ وَأَصْحَابِهِ يَقُولُ شَاعِرُهُ:

وَدُّوا لَنَا الدُّنْيَا وَهُمْ يَرْضَعُونَهَا أَفَارِيقَ حَتَّى مَا يَدُرُّ لَنَا شُغْلُ
 وَالشُّغْلُ بِفَتْحٍ أَوَّلِهِ أَرْضِيهِ وَسُكُونِ ثَانِيهِ زِيَادَةٌ فِي أَطْبَاءِ
 النَّفْسِ وَغَيْرِهَا تُشَبِّهُ حَلْسَةَ اللَّذِي لَا يَخْرُجُ مِنْهَا فِي الْعَادَةِ لَبَنٌ. وَلَا
 تَطْنُ آتِي أَنْتَقِصُ بِذَلِكَ خُطْبَاءَ الْعُصُورِ الْأُولَى فَلَانَّهُمْ كَانُوا يَرَوْنَ

كِفَايَةٌ ذَاكَ لِكثْرَةِ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ حِينَ ذَاكَ. وَبِالْجُمْلَةِ فَكَيْفَمَا
 كَانَ أَلْحَالُ فِي الْخُطَابَةِ فَهِيَ غَيْرُ كَافِيَةٍ فِي تَحْقِيقِ الدُّعَاءِ إِلَى الْخَيْرِ
 وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ. فَلَا تَكُونُ الْأُمَّةُ مُتَحَقِّقَةً
 بِخُطْبَاءِ الْمُنَابرِ. وَإِنْ قُلْتَ: إِنَّهَا الْعُلَمَاءُ قُلْتَ: هَذَا قَرِيبٌ وَلَكِنْ
 تَنْظُرُ. أَمَّا عُلَمَاءُ الصَّدْرِ الْأَوَّلِ جَزَائِهِمُ اللَّهُ عَنِ الدِّينِ وَالْأُمَّةِ خَيْرًا
 فَكَانَ اشْتِغَالُهُمْ بِجَمْعِ الْأُصُولِ وَتَقْيِيَّتِهَا مِنَ الدَّخِيلِ الَّذِي بَادَرَ
 بِإِدْخَالِهِ أَهْلُ النِّفَاقِ وَالزُّنْدَقَةِ لِأَغْرَاضٍ شَتَّى. وَمِنْهَا التَّشْكِيكُ فِي
 الدِّينِ. وَمِنْهَا التَّيَسُّسُ مَا عِنْدَ الْمُلُوكِ وَمِنْهَا ابْتِغَاءُ مَنَزَلَةٍ فِي قُلُوبِ
 الْعَامَّةِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُحِيطُ بِهِ مِنْ قُرْأِ التَّوَارِيخِ وَتَأَمَّلِهَا.
 وَاجْتِهَادُهُمْ وَبَذَلُ هِمَمِهِمْ فِي تَفْرِيعِ الْفُرُوعِ وَتَقْرِيرِ أَحْكَامِ
 الْحَوَادِثِ مَا كَانَ مِنْهَا وَمَا لَمْ يَكُنْ يُفَرِّضُ وَيُقَدِّرُ حَتَّى إِذَا وَقَعَتْ
 الْحَادِثَةُ وَجَدَتْ لَهَا حُكْمًا حَاضِرًا وَأَمْرًا كَافِيًا فِي إِنْقَازِ أَعْمَالِهِمْ
 مَا نَعَالَهُمْ عَنْ رَاحَةِ أَبْدَانِهِمْ فَكَانَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَقُولُ لَا يُبَالُ
 أَلَعِلُّ بِرَاحَةِ الْجِسْمِ. وَأَمَّا مَنْ خَلَفَهُمْ فَكَانَ إِقْبَالُهُمْ عَلَى دَوَائِرِ
 مَشَاجِئِهِمْ يَهْدِي بُونَهَا وَيُجِيدُونَ تَرْتِيبَهَا وَيُوضَحُونَ مَا يَحْتَاجُ لِلتَّوَضُّعِ
 مِنْهَا وَيَسْتَدْرِكُونَ عَلَيْهِمْ مَا فَاتَهُمْ تَحْرِيجًا عَلَى أَصُولِهِمُ الَّتِي قَرَرُوهَا
 إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْمَالِ نَاطِقًا لَهُمْ فِي سِلْكِ مَلَفِهِمْ. فَكَانَ
 حُكْمُهُمْ وَاحِدًا لَا يَفْرُغُ لَهُمْ وَقْتُ يَسْتَعْمِلُونَهُ فِي تَعَهُدِ النَّاسِ
 وَدُعَائِهِمْ إِلَى الْخَيْرِ كَمَا هُوَ وَظِيفَةُ تِلْكَ الْأُمَّةِ. ثُمَّ جَاءَ مِنْ بَعْدِ
 هَؤُلَاءِ خَلْفٌ اتَّخَذُوا الْجِدَالَ شِرْعَةً وَالْمُنَازَعَةَ سَبِيلًا. وَخَرَجَ بِهِمْ ذَلِكَ

إِلَى سَبَابٍ وَمُشَاتَمَةٍ وَاحْتِقَارٍ قَوْمٍ قَوْمًا وَرَجَعَ بِهِمْ إِلَى الْقَذْحِ فِي
السَّلَفِ وَصَارَ الْإِخْتِلَافُ بَيْنَ أَهْلِ الْمَذَاهِبِ مُنْشَأً لِعِدَاوَةٍ إِنْ لَمْ
تَكُنْ فَوْقَ الْعِدَاوَةِ بَيْنَ أَهْلِ الْأَدْيَانِ فَلَيْسَتْ دُونَهَا. فَكَثِيرًا مَا
كَانَتْ سَبَبًا لِتَجْرِيدِ السُّيُوفِ يُقَاتِلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا حَتَّى دَخَلَ بَيْنَهُمْ
الْحُكْمُ لِإِصْلَاحِهِمْ وَكَانُوا هُمْ الْأَوَّلَى بِذَلِكَ. وَهُوَ حَقُّهُمُ الَّذِي
مَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يُمْكِنُوا مِنْهُ غَيْرُهُمْ وَصَارُوا أَحْزَابًا يَتَحَارَّ كُلُّ
حِزْبٍ إِلَى مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ التَّوَّاجِي وَصَارَتْ الْمَدَائِنُ بِمَنْزِلَةِ الْمَعَاوِلِ
وَالْخُصُونِ حَتَّى دَخَلَ أَهْلُهَا تَحْتَ نَظَرِ السِّيَاسَةِ وَقَهَرَهَا وَبَدَلَتْ سُيُوفُ
الْمَنَابِرِ بِقِطَعِ خَشَبٍ فِي صُورَتِهَا يَتَكَبَّرُ عَلَيْهَا الْخُطَبَاءُ حَالَ صُعُودِهِمْ
وَهُبُوطِهِمْ. وَآلَ أَمْرِ الْعُلَمَاءِ إِلَى كَوْنِهِمْ طَائِفَةً مِنَ الطَّوَائِفِ الْمَرْبُوبَةِ
الْمُسَوِّمَةِ تَلْحَظُ حَرَكَاتِهِمْ أَرْضَادُ الْحُكُومَةِ وَتَأْخُذُهُمْ عِيُونُهَا مَنَعًا لِتَعَدِّي
بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ وَخَسْمًا لِمَادَّةِ الشَّرِّ بَيْنَهُمْ. وَلَعِبَتْ بِهِمْ أَهْوَاءُ الْمُلُوكِ
الْحَايِرَةِ الْجَهْلَةِ مِنَ التَّتَرِّ وَالْذَلِيلِ وَغَيْرِهِمْ. وَنَشَأَ مِنْ ذَلِكَ مَفَاسِدُ
عَظِيمَةٌ مِنْهَا تَمَكُّنُ كَثِيرٍ مِنَ الْجَهْلَةِ الَّذِينَ أَمْضَوْا ضُورَ أَعْمَارِهِمْ
فِي اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ دُونَ فِكْرَةٍ فِي تَحْصِيلِ سَبَبٍ مِنْ أَسْبَابِ الْمَعِيشَةِ
حَتَّى دَهَمَهُمْ وَقْتُ الْإِحْتِيَاجِ لِذَلِكَ مِنَ الْإِنْتِسَابِ إِلَى الْعِلْمِ وَأَهْلِهِ
فَصَنَّفُوا كُتُبًا مَلَأُوهَا أَحَادِيثَ كَاذِبَةً وَحِكَايَاتٍ غَيْرَ مَعْقُولَةٍ
وَرَوَّجُوهَا عَلَى الْعَامَّةِ وَاسْكُوهَا بِهَا الْخُبْرَ وَخَلَطُوا مَا لَيْسَ مِنَ الدِّينِ بِهِ.
فَأَيُّ مَفْسَدَةٍ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَيْسَ لَهُ سَبَبٌ إِلَّا أَفِيرَاقُ الْعُلَمَاءِ
وَرَاهِمَاهُمُ أَمْرُ الرِّعَايَةِ. وَلَمْ يَزَلِ الْإِخْتِلَافُ الَّذِي هُوَ مُنْشَأُ تِلْكَ

أَعْدَاوَةٍ مُسْتَوْرًا يُخْفِيهِ الضَّعْفُ وَتُظْهِرُهُ الْقُوَّةُ كَمَا تَرَى . فَهَلْ يَسُوعُ
لَكَ بَعْدَ مَعْرِقَةِ هَذَا أَنْ تَقُولَ إِنَّهَا أَلَمَاءُ . وَإِنْ قُلْتَ إِنَّهَا الْوَعَاظُ
قُلْتَ هَذَا أَقْرَبُ فَإِنَّ الْوَعَاظَةَ كَانَتْ حِرْقَةً شَائِعَةً وَصِنَاعَةً فَاشِيَةً
كَانَ أَهْلُهَا يَتَنَاقَسُونَهَا وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ أَخَذَ عَلَيْهَا الرِّوَايَةَ مِنْ بُيُوتِ
الْأَمْوَالِ وَكَثَرَتْهُمْ كَانَ يَلُمُّ بِهَا الْقِطْعَ مِنَ الْعَامَّةِ الَّذِينَ يَحْضُرُونَ
مَجَالِسَهُمْ . فَكَانَ الْوَعَاظُ إِذَا فَرَّغَ مِنْ كَلَامِهِ الَّذِي أَعَدَّهُ لِذَلِكَ
الْمَجْلِسِ بَسَطَ مِندِيلَهُ وَطَرَحَ فِيهِ كُلَّ مَا سَحَتَ بِهِ نَفْسُهُ

وَصُفَّتْ لِأَجْلِ الْوَعَاظَةِ كُتُبٌ لَقَّبُوهَا بِالْمَجَالِسِ تَشْتَمِلُ عَلَى
تَفْسِيرِ آيَاتٍ مِنْ آيَاتِ التَّرْغِيبِ وَالتَّوْهِيبِ وَبَعْضِ أَحَادِيثِ صَحِيحَةٍ
وَبَعْضِ أَشْعَارٍ وَحِكَايَاتٍ مِنْ ذَلِكَ الْوَادِي . وَنُمُودَجُ ذَلِكَ مَا تَرَاهُ فِي
السَّجْدِ الْحَسِينِيِّ بَعْدَ الْعَصْرِ فِي رَمَضَانَ . وَإِلَى الْجُمْلَةِ فَحَصُولُ تِلْكَ
الْكُتُبِ هُوَ مَحْصُولُ خُطْبِ الْمَدَائِرِ . وَإِنْ كَانَ بَعْضُ أَهْلِ تِلْكَ
الْقِسْمَةِ وَهُمْ قَلِيلٌ كَانُوا مِنْ الْفِطْنَةِ وَالذُّكَاةِ وَبَرَاةِ الْمُنَاطِقِ
وَبَلَاغَةِ الْعِبَارَةِ بِمَكَانٍ رَفِيعٍ . فَإِنَّ أَكْثَرَهُمْ الْقُصَّاصُ الْجَهْلَةُ الَّذِينَ
غَايَةُ أَمْرِ الْوَاحِدِ مِنْهُمْ أَنْ يُلْفِقَ أَحَادِيثَ يَضَعُهَا أَوْ وَضَعَهَا غَيْرُهُ
يُفْرِحُ بِهَا نَفُوسَ الْعَامَّةِ بِمَا يَذْكُرُ مِنْ كَثْرَةِ الثَّوَابِ مَعَ قِلَّةِ الْعَمَلِ
وَمَا يَهْوَنُ مِنْ أَمْرِ الْمَعْصِيَةِ حَتَّى يَكُونَ ذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ التَّخْرِيطِ عَلَى
أَرْكَابِ الشَّهَوَاتِ وَالْأَسْتِزْسَالِ مَعَ الْأَهْوَاءِ وَطَرَحِ الْمُبَالَاهِ
اعْتِمَادًا عَلَى مَا دَكَّرُوهُ فِي نَفُوسِهِمْ وَشَغَلُوا بِهِ عُقُولَهُمْ مِنْ كَثْرَةِ
أَسْبَابِ الْمَغْفِرَةِ وَسَعَةِ الرَّحْمَةِ وَعِظَمِ الْعَفْوِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ . لَا

يَكْلَمُونَ فِي سِرِّهِ حَتَّى صَارَ سَبِيًّا قَوِيًّا فِي خُودِ الطَّبَاعِ وَاسْتِحْكَامِ
 الْغَفْلَةِ وَالْإِنْصِرَافِ عَنْ تَذَكُّرِ مَعْنَى الْإِجْتِمَاعِ الْإِنْسَانِيِّ وَتَعَقُّلِ
 ضُرُورَةِ التَّعَاوُنِ وَالتَّفَكُّرِ فِي أَحْكَامِ أَسْبَابِ التَّعَارُفِ وَالتَّوَاضُّعِ
 وَمُحَاوَرَةِ النَّاسِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِيمَا يُوجِبُ عِزَّ الْأُمَّةِ وَسَعَادَتَهَا وَسُرُورَ
 أَحَادِهَا وَابْتِهَاجَهُمْ بِالتَّصَافِ وَافْضَالَ الْأَقْرِيَاءِ عَلَى الضُّعَفَاءِ مِنْ
 ثَمَارِ قِيَمِهِمْ فَلَا يَتَسَلَّقُونَ إِلَّا وَصُدُورُهُمْ مُنْشَرِحَةً وَقُلُوبُهُمْ فَرِحَةً
 وَتُغُورُهُمْ بَاسِمَةً وَوُجُوهُهُمْ مُنْبَسِطَةً . قَدْ آوَى بَعْضُهُمْ غَوَائِلَ
 بَعْضٍ وَتَحَقَّقُوا السَّلَامَةَ مِنْ مَقَاصِدِ الشُّوءِ وَالتَّجَاسُّرِ بِاسْتِلَابِ
 الْأَمْوَالِ وَقَهْرِ النَّفُوسِ وَتَسْخِيرِ الْأَقْرِيَاءِ الضُّعَفَاءِ فِيمَا يَخْتَصُّونَ بِهِ
 مِنَ اللَّذَاتِ وَيُحَافِظُونَ عَلَيْهِ بِجُدْرَانِ الصُّخُورِ وَأَبْوَابِ الْحَدِيدِ حَتَّى كَانَ
 ذَلِكَ مُوَلِّدًا فِي النَّاسِ كَثِيرًا مِنْ خَسِيسِ الطَّبَاعِ آتِي تَمِيلُ بِأَفْهَامِهَا
 نَحْوَ الْأَكْتِسَابِ بِجِهَةِ السَّرِقَةِ وَالسُّوَالِ بِالضَّرَاعَةِ وَالتَّرَامِي عَلَى
 أَعْتَابِ الْمَكْثَرِينَ . وَأَنْتَ لِذَلِكَ عَارِفٌ وَإِلَيْهِ نَظَرٌ لَا تَجْهَلُ تِلْكَ
 الطَّوَائِفَ الْكَاسِبَةَ بِهَذِهِ الْوُجُوهِ الرَّدِيئَةِ . وَأَسْوَأُهَا حَالًا وَأَخْسَهَا
 عَمَلًا وَأَبْغَضُهَا مُتَرَدِّدًا هُوَ لَاءُ الَّذِينَ أَطْفَأُوا أَنْوَارَ عُقُولِهِمُ الْخَلْقِيَّةِ وَاحْمَدُوا
 هَبَ قِيَمَهُمُ الطَّبِيعِيَّةَ وَعَطَّلُوا جَوَارِحَ أَبْدَانِهِمْ بِمَا يَمْلَأُونَ بِهِ رُؤُوسَهُمْ مِنْ
 أَشْرِبَةِ خُرَافَاتٍ تَخْرُجُ بِهِمْ مِنْ نَوْعِ الْحَيَوَانِ لَا يَجُوزُ أَنْ أَقُولَ مِنْ
 نَوْعِ الْإِنْسَانِ يَوُولُ أَمْرُهُمْ إِلَى الْإِخْتِيَاجِ وَطَلَبِ الْمَعَاشِ بِأَبْدَانِهِمْ
 وَأَبْدَانِهِمْ انْتَقَضَتْ عَنْهُمْ وَشَغَلُوا بِهَا كَثِيرًا مِنَ الْفَرَاغِ أَيَّ أَبْدَانِهِمْ وَأَبْدَانِ
 نَسَائِهِمْ إِلَى أَنْ يَطْرَحُوا نَفُوسَهُمْ بَيْنَ أَيْدِي أَهْلِ الْمَكَايِبِ بِطُرُقِ

الْأَعْمَالِ الْمُتَعَبَةِ وَالْحَاوَلَاتِ الشَّاقَّةِ . يُذَكِّرُونَهُمْ ثَوَابَ الصَّدَقَاتِ
وَيُخَفِّفُونَ فِي السُّؤَالِ حَتَّى تَمْلَأَ ذَلِكَ نُفُوسُهُمْ وَيَضْعُفَ يَقِينُهُمْ وَتَقْشُرَ
قُلُوبُهُمْ وَيَلْتَمِسُوا وَجُوهَهَا لِلطَّغْنِ عَلَى تِلْكَ الطَّائِفَةِ لَا يَفْرِقُونَ بَيْنَ
أَهْلِ التَّرَاهَةِ مِنْهُمْ وَغَيْرِهِمْ . فَيَكُونُ الْقَدْحُ عَامًّا وَالْإِحْتِقَارُ شَامِلًا . وَجِهَةٌ
الِإِعْتِبَارِ فِيهِ أَنَّ مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِرِوْضَةِ الْهَدْيِ وَدَعَا النَّاسَ إِلَى
الْخَيْرِ يَحِبُّ أَنْ يَكُونَ أَبْعَدَهُمْ مِنَ التَّصْنَعِ وَآخِرَهُمْ عَلَى الْكَمَالِ .
فَإِنَّ آذَنِي هَفْوَةٍ مِنْهُ تُسْقِطُ اعْتِبَارَهُ وَتُسَهِّلُ التَّهَانُونَ بِهِ فَلَا يَكُونُ
لِكَلَامِهِ تَأْثِيرٌ فِي الْقُوبِ وَيَصِيرُ مَجْلِسُهُ مَسَلَةً يُتَلَهَّى بِمُحْذَوْرِهِ
فَكَثِيرًا مَا كَانَتْ تِلْكَ الْحَجَالِسُ مَوَاعِدَ لِأَهْلِ الْخَلَاعَاتِ وَالْحُجُونِ

البحث السابع

في الخطب عند العرب

(نقلًا عن الحافظ والشريشي والقبرواني)

إِنَّا لَا نَعْرِفُ الْخُطْبَ إِلَّا لِلْعَرَبِ وَالْفَرَسِ . فَأَمَّا الْهِنْدُ فَلَا نَمَّا لَهُمْ
مَعَانٍ مُدَوَّنَةٌ وَكُتُبٌ مُخَلَّدَةٌ لَا تُضَافُ إِلَى رَجُلٍ مَعْرُوفٍ وَلَا إِلَى
عَالِمٍ مَوْصُوفٍ . وَإِنَّمَا هِيَ كُتُبٌ مُتَوَارِثَةٌ وَآدَابٌ عَلَى وَجْهِ الدَّهْرِ
سَائِرَةٌ مَذْكُورَةٌ . وَالْيُونَانِيُّينَ فَلِسْفَةٌ وَصِنَاعَةٌ مُنْطِقٌ وَكَانَ صَاحِبُ
الْمُنْطِقِ نَفْسُهُ عِيَّ اللِّسَانِ غَيْرَ مَوْصُوفٍ بِالْيَبَانِ مَعَ عَلَيْهِ بِتَمْيِيزِ
الْكَلَامِ وَتَفْصِيلِهِ وَمَعَانِيهِ وَبِجْصَانِيهِ . وَهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ جَالِينُوسَ
كَانَ أَنْطَقَ النَّاسَ وَلَمْ يَذْكُرُوهُ بِالْخُطَابَةِ وَلَا بِهِذَا الْجِلْسِ مِنْ

الْبَلَاغَةِ وَفِي الْفُرْسِ خُطْبَاءٌ إِلَّا أَنْ كَلَامَ الْفُرْسِ وَكُلُّ مَعْنَى لَهُمْ
فَإِنَّمَا هُوَ عَنْ طُولِ فِكْرَةٍ وَعَنْ اجْتِهَادِ رَأْيٍ وَعَنْ مُشَاوَرَةٍ وَمُعَاوَنَةٍ
وَعَنْ طُولِ التَّفَكُّرِ وَدِرَاسَةِ الْكُتُبِ وَحِكَايَةِ الثَّانِي عِلْمَ الْأَوَّلِ
وَزِيَادَةِ الثَّالِثِ فِي عِلْمِ الثَّانِي حَتَّى اجْتَمَعَتْ ثَمَارُ تِلْكَ الْفِكْرِ عِنْدَ
آخِرِهِمْ. وَكُلُّ شَيْءٍ لِلْعَرَبِ فَإِنَّمَا هُوَ بَدِيَّةٌ وَارْتِجَالٌ وَكَأَنَّهُ إِهْلَامٌ
وَلَيْسَتْ هُنَاكَ مُعَانَاةٌ وَلَا مُكَابَدَةٌ وَلَا إِجَالَةٌ فِكْرٍ وَلَا اسْتِعَانَةٌ
وَإِنَّمَا هُوَ أَنْ يَصْرِفَ أَحَدُهُمْ وَهَمَّهُ إِلَى الْكَلَامِ وَإِلَى زَجْرِ يَوْمِ
الْخِصَامِ أَوْ حِينَ يَنْتَحِ عَلَى رَأْسِ بَيْتٍ أَوْ يَخْدُو بِبَعِيرٍ أَوْ عِنْدَ الْمَقَارَعَةِ
أَوْ الْمُنَاقَلَةِ أَوْ عِنْدَ صِرَاعٍ أَوْ حَرْبٍ فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ يَصْرِفَ وَهَمَّهُ إِلَى
جَهَةِ الْمَذْهَبِ وَإِلَى الْعَمُودِ الَّذِي إِلَيْهِ يَقْصِدُ فَتُتَبِّعُ الْمَعَانِي أَرْسَالًا
وَتَنْهَالٌ عَلَيْهِ الْأَلْفَاظُ امْتِثَالًا ثُمَّ لَا يُقَيِّدُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَلَا يَدْرِسُهُ
أَحَدٌ مِنْ وَلَدِهِ وَكَانُوا أَمِينِينَ لَا يَكْتُبُونَ وَمَطْبُوعِينَ لَا يَتَكَلَّفُونَ
وَكَانَ الْكَلَامُ أَحْيَدُ عِنْدَهُمْ أَظْهَرَ وَأَكْثَرَ وَهُمْ عَلَيْهِ أَقْدَرُ وَلَهُ
أَقْهَرُ وَكُلُّ وَاحِدٍ فِي نَفْسِهِ أَنْطَقُ وَمَكَانُهُ مِنْ الْبَيَانِ أَرْفَعُ
وَأَخْطَاهُمْ لِلْكَلَامِ أَجْوَدُ وَالْكَلَامُ عَلَيْهِمْ أَسْهَلُ وَهُوَ عَلَيْهِمْ أَيْسَرُ
مِنْ أَنْ يَفْتَقِرُوا إِلَى التَّحْفِظِ وَيَحْتَاجُوا إِلَى تَدَارُسٍ. وَلَيْسَ لَهُمْ كَمَنْ حَفِظَ
عِلْمَ غَيْرِهِ وَأَخَذَ عَلَى كَلَامٍ مِنْ قَبْلِهِ فَمَا يَحْفَظُونَ إِلَّا مَا عَلِقَ
بِقُلُوبِهِمْ وَالتَّحَمُّ بِضُورِهِمْ وَأَتَّصَلَ بِعُقُولِهِمْ مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ وَلَا قُضْدٍ
وَلَا تَحْفُظٍ وَلَا طَلَبٍ وَإِنْ هَذَا الَّذِي فِي أَيْدِينَا جُزْءٌ مِنْهُ (اه)
وَمِنْ أَشْتَهَرَ فِي الْخُطَابَةِ أَيْضًا قُسُ بْنُ سَاعِدَةَ الْإِيَادِي أُسْقِفُ

تَجَرَّانَ خَطِيبُ الْعَرَبِ وَشَاعِرُهَا وَحَايِمُهَا وَحَكِيمُهَا وَحَكَمُهَا فِي
عَصْرِهِ يُقَالُ إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ عَلَا عَلَى شَرْفٍ وَخَطَبَ عَلَيْهِ. وَأَوَّلُ مَنْ
قَالَ فِي كَلَامِهِ: أَمَّا بَعْدُ. قِيلَ: وَبَعْدُ لَفْظَةٌ عَرَبِيَّةٌ وَقَصْلُ الْخُطَّابِ
وَالَّذِي أُورِثَهُ قُسٌّ هُوَ فَضْلُ الْخُصُومَةِ وَهَذَا يُؤَيِّدُ مَا قِيلَ عَنْهُ إِنَّهُ
أَوَّلُ مَنْ قَالَ: أَلْبَيْتَةُ عَلَى الْمُدَّعِي وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ. وَأَوَّلُ
مَنْ أَتَكَأَ عِنْدَ خُطْبَتِهِ عَلَى سَيْفٍ أَوْ عَصَا. وَأَوَّلُ مَنْ كَتَبَ: مِنْ
فُلَانٍ إِلَى فُلَانٍ. أَدْرَكَهُ رَسُولُ الْمُسْلِمِينَ وَرَأَاهُ بِمُكَاطَ فَكَانَ
يَأْتِرُ عَنْهُ كَلَامًا يَسْمَعُهُ مِنْهُ. وَكَانَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ وَالْبَعْثِ. بَلِيغٌ
الْمُنْطِقِ وَفِيهِ يَقُولُ الْأَعَشَى:

وَأَقْضَحُ بْنُ قُسٍّ وَآجَرِي بْنُ الْأَذْيِ

بِذِي الْأَمِينِ (١) وَبْنُ خَفَّانَ أَضْمَحُ خَادِرًا
وَكَانَ قُسٌّ يَفِدُ عَلَى قَيْصَرَ زَائِرًا فَيُكْرِمُهُ وَيُعْطِيهِ فَقَالَ لَهُ
قَيْصَرٌ: مَا أَفْضَلُ أَعْلَمَ. قَالَ: مَعْرِفَةُ الرَّجُلِ بِنَفْسِهِ. قَالَ: فَمَا
أَفْضَلُ أَلْعَلَّ. قَالَ: وَقُوفُ الْمَرْءِ عِنْدَ عَلَيْهِ. قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ
الْأَدَبِ. قَالَ: اسْتِيقَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ وَجْهِهِ. قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ الْمُرُوءَةِ.
قَالَ: قِلَّةُ رَغْبَةِ الْمَرْءِ فِي إِخْلَافٍ وَعُدِهِ. قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ أَلْمَالِ.
قَالَ: مَا تُقْضِي بِهِ الْحَرْثُ

وَقِيلَ إِنَّ أَجَارُودَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ لَمَّا وَقَدَّ فِي وَفْدِ عَبْدِ الْقَيْسِ عَلَى
رَسُولِ الْمُسْلِمِينَ وَكَانَ سَيِّدًا فِي قَوْمِهِ مُعَظَّمًا فِي عَشِيرَتِهِ فَاسْلَمَ سَأَلَهُ

الرَّسُولُ: يَا جَارُودُ هَلْ فِي تَجْمَاعَةِ عَبْدِ الْقَيْسِ مَنْ يَعْرِفُ لَنَا قَسًا. قَالَ: كُلُّنَا نَعْرِفُهُ. وَأَنَا كُنْتُ مِنْ بَيْنِهِمْ أَتَقْوُ آثَرَهُ وَأَطْلِعُ خَبَرَهُ. كَانَ قَسٌ سَبَطًا مِنْ أَسْبَاطِ الْعَرَبِ. صَحِيحَ النَّسَبِ فَصِيحًا ذَا شَيْبَةٍ حَسَنَةٍ يَتَقَفَّرُ الْقِفَارَ. وَلَا تَكُنُّهُ دَارٌ. وَلَا يُقَرُّهُ قَرَارٌ. يَتَحَسَّى فِي تَقَفُّرِهِ بَعْضَ الطَّعَامِ. وَيَأْنَسُ بِالْوُحُوشِ وَالْهُوَامِ. يَلْبَسُ الْمُسُوحَ. وَيَتَّبِعُ السُّيَّاحَ عَلَى مِنْهَاجِ الْمَسِيحِ. لَا يُغَيِّرُ الرِّغْبَانِيَّةَ. مُقِرًّا بِالْوَحْدَانِيَّةِ. تُضْرَبُ بِحِكْمَتِهِ الْأَمْثَالُ. وَتُكْشَفُ بِهِ الْأَهْوَالُ. وَتَتَّبَعُهُ الْأَبْدَالُ. أَدْرَكَ رَأْسَ الْخَوَارِثِينَ سَمْعَانُ فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ تَأَلَّاهُ مِنَ الْعَرَبِ. وَأَعْبَدُ مَنْ تَعَبَّدَ فِي الْحَقِّبِ. وَأَيَّتَنَ بِالْبَغْثِ وَالْحِسَابِ. وَحَذَرَ سُوءِ الْمُنْقَلَبِ وَالْمَلَابِ. وَوَعَظَ بِذِكْرِ الْمَوْتِ. وَأَمَرَ بِالْعَمَلِ قَبْلَ الْفَوْتِ. الْحَسَنُ الْأَلْفَاظِ. الْخَاطِبُ بِسُوقِ عُكَاظِ. الْغَارِفُ بِشَرْقِ وَغَرْبِ. وَيَابِسُ وَرَطْبِ. وَأَجَاجٌ وَعَذْبٌ. كَاتِي أَنْظَرُ إِلَيْهِ. وَالْعَرَبُ بَيْنَ يَدَيْهِ يُقْسِمُ بِالرَّبِّ الَّذِي هُوَ لَهُ. لَيَبْلُغَنَّ الْكِتَابُ أَجَلَهُ. وَلَيُؤَفِّقَنَّ كُلُّ عَامِلٍ عَمَلَهُ. ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

هَاجَ الْقَلْبُ مِنْ هَوَاهُ أَذْكَارُ	وَلَيْكَالِ خِلَالِهِنَّ نَهَارُ
وَجِبَالُ شَوَائِخِ رَاسِيكَاتُ	وَبِحَارُ مِيكَاهُنَّ غِزَارُ
وَنَجُومٌ يَجْثُمُهَا قَمَرُ اللَّيْلِ (١)	م وَشَمْسٌ فِي كُلِّ يَوْمٍ تُدَارُ
ضَوْؤُهَا يَطْمِسُ الْعُيُونَ وَارُ	عَادُ شَدِيدٌ فِي الْخَافِقِينَ مُثَارُ (٢)
وَعِلَامٌ وَأَشْمَطُ وَرَضِيعُ	كُلُّهُمْ فِي الثَّرَابِ يَوْمًا يُزَارُ

(١) و يروى: ونجوم تلوح في ظلم الليل (٢) و يروى: مطار

وَقُصُورٌ مَشِيدَةٌ حَوَتْ الْخَيْرَ م وَأُخْرَى حَوَتْ (١) فَهِنَّ قِفَارٌ
وَكَثِيرٌ مِمَّا تُقْصِرُ عَنْهُ حَدَسَةُ النَّاطِرِ الَّذِي لَا يَحَارُ
وَالَّذِي قَدْ ذَكَرْتُ دَلَّ عَلَى اللَّهِ م نُفُوسًا لَهَا هُدًى وَأَعْتَبَارُ
فَقَالَ رَسُولُ الْمُسْلِمِينَ : يَرْحَمُ اللَّهُ قُصَا إِنِّي لَا أَرْجُو أَنْ يُبْعَثَ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمَّةٌ وَحَدَهُ

وَمِنْ خُطْبِ قُسٍ الْمَأْثُورَةِ مَا رَوَاهُ أَبُو بَكْرٍ الْخَدِيقِيُّ قَالَ :
لَسْتُ أَنْسَاهُ بِسُوقِ عُكَاظَ (وَهُوَ سُوقٌ بَيْنَ بَطْنِ النَّخْلَةِ وَالطَّائِفِ
كَانَ لِثَقِيفٍ وَقَيْسٍ) عَلَى جَمَلٍ لَهُ أَوْرَقٌ . وَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ
مُؤْنِقٍ . فَقَالَ حِينَ خُطِبَ فَأُطِنَبَ . وَرَغِبَ وَرَهَبَ . وَحَذَرَ وَأَنْذَرَ .
وَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ : أَيُّهَا النَّاسُ أَسْمِعُوا وَعُوا . وَإِذَا وَعَيْتُمْ فَأَنْتَفِعُوا .
إِنَّهُ مَنْ عَاشَ مَاتَ . وَمَنْ مَاتَ فَاتَ . وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ . مَطَرٌ
وَنَنَاتٌ . وَآرَاقٌ وَأَقْوَاتٌ . وَآبَاءٌ وَأُمَمَاتٌ . وَأَحْيَاءٌ وَأَمْوَاتٌ . وَجَمْعٌ
وَشَتَاتٌ . وَآيَاتٌ بَعْدَ آيَاتٍ . لَيْلٌ مَوْضُوعٌ . وَسَقْفٌ مَرْفُوعٌ . وَنَجْمٌ
تَغُورُ . وَآرَاضٍ تُمُورُ . وَنَجُورٌ تُمُوجُ . وَبِحَارَةٌ تَزُوجُ . وَضَوْءٌ وَظَلَامٌ . وَبِرٌّ
وَأَثَامٌ . وَمَطْعَمٌ وَمَشْرَبٌ . وَمَلْبَسٌ وَمَرْكَبٌ . أَلَا إِنَّ أَبْلَغَ الْعِظَاتِ .
السَّيْرُ فِي الْفَلَوَاتِ . وَالنَّظَرُ إِلَى مُحَلِّ الْأَمْوَاتِ . إِنَّ فِي السَّمَاءِ لَخَيْرًا .
وَإِنَّ فِي الْأَرْضِ لَعِبْرًا . لَيْلٌ دَاجٍ . وَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ . وَآرَاضٌ
ذَاتُ رِثَاجٍ . وَبِحَارٌ ذَاتُ أَمْوَاجٍ . مَا لِي أَرَى النَّاسَ يَذْهَبُونَ فَلَا
يَرْجِعُونَ . أَرْضُوا بِالْمَقَامِ فَأَقَامُوا . أَمْ يَرْكُوهَا هُنَاكَ فَنَامُوا . أَقْسَمَ قُسٌ

بِاللَّهِ قَسَمًا حَقًّا لَا آثِمًا فِيهِ وَلَا حَانِثًا إِنَّ لِلَّهِ دِينًا هُوَ أَحَبُّ إِلَيْهِ
 مِنْ دِينِكُمْ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ. ثُمَّ قَالَ: تَبَا لِلْأَرْبَابِ الْغَفْلَةِ مِنْ
 الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ. وَالْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ. يَا مَعْشَرَ إِيَادٍ. آيِنَ الْأَبَاءِ
 وَالْأَجْدَادِ. وَآيِنَ الْمَرِيضِ وَالْعُورَادِ. وَآيِنَ الْفَرَائِنَةِ الشَّدَادِ. آيِنَ مَنْ
 بَنَى وَشَيَّدَ. وَزَخَرَفَ وَتَجَدَّدَ. وَغَرَّهُ أَلْمَالُ وَالْوَلَدُ. آيِنَ مَنْ بَغَى وَطَغَى.
 وَجَمَعَ فَأَوْعَى. وَقَالَ أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى. أَلَمْ يَكُونُوا أَكْثَرَ مِنْكُمْ
 أَمْوَالًا. وَأَطْوَلَ مِنْكُمْ أَجَالًا. طَحَّاهُمُ الشَّرُّ بِكُلِّكَلِهِ. وَمَزَقَهُمُ
 بَطْطَاوَاهِ. فَتِلْكَ عِظَامُهُمْ بِأَلْيَةِ. وَيُؤْتِيهِمْ خَاوِيَةٌ. عَمَرَتْهَا الذِّئَابُ
 أَعَاوِيَةٌ. كَلَّا بَلْ هُوَ الْمَعْبُودُ. ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

فِي الذَّاهِبِينَ الْأَوَّلِينَ مِ
 لَمَّا رَأَيْتُ مَوَارِدًا لِلْمَوْتِ أَيْسَ لَهَا مَصَادِرُ
 وَرَأَيْتُ قَوْمِي تُخَوِّهَا تَمْضِي الْأَصَاغِرُ وَالْأَكَاكِرُ
 لَا يَرْجِعُ الْمَاضِي وَلَا يَبْقَى مِنَ الْبَاقِينَ غَابِرُ (١)
 أَيْقَنْتُ آتِي لَا مَحَا لَةَ حَيْثُ صَارَ الْقَوْمُ صَاغِرُ

وَمِمَّنْ اشتهر عند العرب سحبان بن زفر بن إياس اللوائلي وإبل
 بأهله خطيب مفصيح يضرب به المثل في البيان. أذكره الإسلام وأنتم
 ومات سنة أربع وخمسين. وحكى الأصبغي قال: كان إذا خطب
 يسيل عرقاً ولا يعيد كلمة ولا يتوقف ولا يقعد حتى يفرغ. وقديم

(١) ويروي: لا يرجع الماضي الي ولا من الماضين غابر

عَلَى مُعَاوِيَةَ وَفَدَّ مِنْ خُرَاسَانَ فِيهِمْ سَعِيدُ بْنُ عُثْمَانَ فَطَلَبَ سَحْبَانَ فَلَمْ
يُوجَدْ فِي مَنْزِلِهِ فَأَقْتَضِبَ مِنْ نَاحِيَةِ اقْتِضَابٍ وَأَدْخَلَ عَلَيْهِ فَقَالَ: تَكَلَّمْ
فَقَالَ: أَنْظِرُوا إِلَى عَصَا تُقَوِّمُ مِنْ أَوْدِي. قَالُوا: وَمَا تَصْنَعُ بِهَا وَأَنْتَ
بِحَضْرَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ: مَا كَانَ يَصْنَعُ بِهَا مُوسَى وَهُوَ يُخَاطِبُ
رَبَّهُ وَعَصَاهُ فِي يَدِهِ. فَضَحِكَ مُعَاوِيَةُ وَقَالَ: هَاتُوا عَصَا فَجَاؤُوا بِهَا إِلَيْهِ
فَرَكِبَهَا بِرِجْلِهِ وَلَمْ يَرْضَهَا وَقَالَ: هَاتُوا عَصَايَ فَأَتَوْا بِهَا فَأَخَذَهَا. ثُمَّ
قَامَ وَتَكَلَّمَ مِنْذُ صَلَاةِ الظُّهْرِ إِلَى أَنْ قَامَتِ صَلَاةُ الْعَصْرِ
مَا تَسْتَخَنُّ وَلَا سَعَلَ وَلَا تَوَقَّفَ وَلَا ابْتَدَأَ فِي مَعْنَى فَخَرَجَ مِنْهُ وَقَدْ
بَقِيَ عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ. فَمَا زَالَتْ تِلْكَ حَالُهُ حَتَّى أَشَارَ مُعَاوِيَةُ بِيَدِهِ
فَأَشَارَ إِلَيْهِ سَحْبَانُ أَنْ لَا تَقْطَعْ عَلَيَّ كَلَامِي فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: الصَّلَاةُ.
قَالَ: هِيَ أَمَامُكَ وَنَحْنُ فِي صَلَاةٍ وَتَحْمِيدٍ وَوَعْدٍ وَوَعِيدٍ. فَقَالَ
مُعَاوِيَةُ: أَنْتَ أَخْطَبُ الْعَرَبِ. فَقَالَ سَحْبَانُ: وَالْعَجْمِ وَالْجَنْ
وَالْأَنْسِ. وَمِمَّا رُوِيَ عَنْهُ فِي بَعْضِ خُطْبِهِ الْبَلِيغَةِ يَقُولُ: إِنَّ الدُّنْيَا
دَارُ بَلَاغٍ وَالْآخِرَةُ دَارُ قَرَارٍ. أَيُّهَا النَّاسُ فَخُذُوا مِنْ دَارِ مَمَرِكُمْ لِدَارِ
مَقَرِّكُمْ وَلَا تَهَيَّكُوا أَنْتَارَكُمْ. عِنْدَ مَنْ لَا تُحْمَى عَلَيْهِ أَسْرَارُكُمْ.
وَأَخْرِجُوا مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ. قَبْلَ أَنْ تُخْرَجَ مِنْهَا أَبْدَانُكُمْ. ففِيهَا
حَيَاتُكُمْ وَلِغَيْرِهَا خُلُقْتُمْ. إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا هَلَكَ. قَالَ النَّاسُ مَا تَرَكَ. وَقَالَتِ
الْمَلَائِكَةُ مَا قَدَّمَ لِلَّهِ. قَدِّمُوا بَعْضًا لَكُمْ وَلَا تُخْلِفُوا كُلًّا
يَكُونُ عَلَيْكُمْ. وَمِنْ شَعْرِهِ يَمْدَحُ طَلْحَةَ الطَّلَحَاتِ وَهُوَ طَلْحَةُ بْنُ
عَبْدِ اللَّهِ الْخَزَاعِيُّ:

يَا ظَلَمَ أَكْرَمَ مِنْ يَهَا حَسَبًا وَأَعْطَاهُمْ لِتَالِدِ
مِنْكَ الْعَطَاءُ فَأَعْطِنِي وَعَلَى مَدْحِكَ فِي الْمَشَاهِدِ

فِيَقَالُ إِنَّ ظَلَمَةً قَالَ لَهُ: اخْتَكِم. قَالَ: فَرَسَكَ الْوَرْدَ وَقَصْرَكَ
بِكَذَا. فَقَالَ ظَلَمَةُ أَفَ لَكَ لَوْ سَأَلْتَنِي عَلَى قَدْرِي أَعْطَيْتُكَ كُلَّ
فَرَسٍ لِي وَكُلَّ قَصْرِ وَلَكِنْ أَبَيْتُ إِلَّا بِأَهْلِيَّتِكَ

وَذَكَرَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى فِي مَجْلِسِ ثَمَامَةَ بْنِ أَشْرَسَ فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ
أَحَدًا مِنْ خَلْقِ اللَّهِ كَانَ أَبْسَطَ لِسَانًا وَلَا أَحَنَّ بِحُجَّتِهِ وَلَا أَقْدَرَ
عَلَى كَلَامٍ بِنَظْمٍ حَسَنٍ وَالْفَاضِلِ عَذْبَةٍ وَمَنْطِقٍ فَصِيحٍ مِنْ جَعْفَرِ بْنِ
يَحْيَى كَانَ لَا يَتَوَقَّفُ وَلَا يَتَحَبَّسُ وَلَا يَصِلُ كَلَامُهُ بِحُشْوٍ مِنَ الْكَلَامِ
وَلَا يُعِيدُ لَفْظًا وَلَا مَعْنَى وَلَا يَخْرُجُ مِنْ قَنْ إِلَى غَيْرِهِ حَتَّى يَبْلُغَ
آخِرَ مَا فِيهِ. وَكَانَ لَا يَرَى شَيْئًا إِلَّا حَكَاهُ وَلَا يَحْكِي شَيْئًا إِلَّا
كَانَ أَكْثَرَ مِنْهُ وَلَا يُمْرُ بِذَنْبِهِ شَيْءٌ إِلَّا حَفِظَهُ. وَكَانَ إِذَا شَاءَ
أَضْحَكَ التَّكَلَّى وَأَذْهَلَ الزَّاهِدَ وَخَشَنَ قَلْبَ الْعَابِدِ. قُلْتُ فَكَيْفَ
كَانَتْ مَعْرِفَتُهُ. قَالَ: كَانَ مِنْ أَعْلَمِ النَّاسِ بِالْخَبَرِ الْبَاهِرِ وَالشَّعْرِ
النَّادِرِ وَالْمَثَلِ السَّائِرِ وَالْفَصَاحَةِ الثَّامَةِ وَاللِّسَانِ الْبَسِيطِ. قَالَ
بَهْلُ بْنُ هَارُونَ وَذَكَرَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ وَأَبْنَهُ جَعْفَرًا فَقَالَ: لَوْ كَانَ
الْكَلَامُ مُتَّصِرًا دُرًّا وَيُلْقِيهِ الْمَنْطِقُ جَوْهَرًا لَكَانَ كَلَامُهُمَا
وَالْمَنْتَقَى مِنَ الْفَاضِلِيَّاتِ. وَلَقَدْ غَبَرَتْ مَعَهُمَا وَأَدْرَكَتْ طَبَقَةُ التَّكَلِّمِينَ
فِي أَيَّامِهِمَا وَهُمْ يَرُونَ الْبَلَاغَةَ لَمْ تُسْتَكْمَلْ إِلَّا فِيهِمَا. وَلَمْ تَكُنْ
مَقْصُورَةً إِلَّا عَلَيْهِمَا وَلَا أَنْقَادَتْ إِلَّا لَهُمَا وَإِنَّهُمَا لِلْبَابِ الْكَرِيمِ

عَشَى مَنَظَرٍ وَجُودَةٍ مَخْبَرٍ وَسُهُولَةٍ لَفْظٍ وَجَزَاةٍ مَنَظِقٍ وَتَرَاهَةَ نَفْسٍ
وَكَمَالَ خِصَالٍ حَتَّى لَوْ فَاحَرَتِ الدُّنْيَا بِقَلِيلِ أَيَّامِهَا وَالْمَأْثُورِ مِنْ
خَصَائِصِهَا جَمِيعَ أَيَّامٍ مِنْ سِوَاهُمَا مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَى أَنْ يُنْفَخَ فِي
الصُّورِ وَيُبْعَثَ أَهْلُ الْقُبُورِ حَاشَا أَنْبِيَاءَ اللَّهِ الْكَرَامِ وَسَلَفَ عِبَادِهِ
الصَّالِحِينَ لَمَّا بَاهَتِ إِلَّا بِهِمَا وَلَا عَوَّلَتْ فِي الْفَخْرِ إِلَّا عَلَيْهِمَا. وَلَقَدْ
كَانَا مَعَ تَهْدِيبِ أَخْلَاقِهِمَا وَمَعْفُولِ مَذَاقِهِمَا وَسَنَا إِشْرَاقِهِمَا
وَكَمَالَ خِصَالِ الْخَيْرِ فِيهِمَا فِي مَحَاسِنِ الْإِيمَانِ كَالنُّقْطَةِ فِي الْبَحْرِ
وَالْخُرْدَةِ فِي الْغَرِّ



الْقِسْمُ الثَّالِثُ

في علم الشعر

الفصل الاول

في تعريف الشعر وانواعه وفوائده

البحث الاول

في تحديد الشعر

(ص ابن خلدون)

إِعْلَمْ أَنَّ لِسَانَ الْعَرَبِ وَكَلَامَهُمْ عَلَى فَنَيْنِ فَنِ الشِّعْرِ
الْمَنْظُومِ. وَهُوَ الْكَلَامُ الْمَوْزُونُ الْمُقَفَّى وَمَعْنَاهُ الَّذِي تَكُونُ أَوْزَانُهُ
كُلُّهَا عَلَى رَوِيٍّ وَاحِدٍ وَهُوَ الْقَافِيَةُ. وَفَنِ النَّثْرِ وَهُوَ الْكَلَامُ غَيْرُ
الْمَوْزُونِ. وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ الْفَنَيْنِ يَشْتَبِلُ عَلَى فُنُونٍ وَمَذَاهِبٍ فِي
الْكَلَامِ. فَأَمَّا الشِّعْرُ فَمِنْهُ الْمَدْحُ وَالنِّجَاءُ وَالرِّثَاءُ. وَأَمَّا النَّثْرُ فَمِنْهُ
الْكَلَامُ الَّذِي يُؤْتَى بِهِ قِطْعًا وَيُلْتَزَمُ فِي كُلِّ كَلِمَتَيْنِ مِنْهُ قَافِيَةٌ وَاحِدَةٌ
وَيُسَمَّى سَجْعًا. وَمِنْهُ الْمُرْسَلُ وَهُوَ الَّذِي يُطْلَقُ فِيهِ الْكَلَامُ إِطْلَاقًا

وَلَا يُقَطَّعُ أَجْزَاءُ بَلْ يُرْسَلُ إِزْسَالًا مِنْ غَيْرِ تَقْيِيدٍ بِقَافِيَةٍ وَلَا
 غَيْرِهَا. وَيُسْتَعْمَلُ فِي الْخُطْبِ وَالِدُّعَاءِ وَتَرْغِيبِ الْجَنَّةِ وَتَرْهِيْبِهِمْ .
 وَأَمَّا الْقُرْآنُ فَهُوَ وَإِنْ كَانَ مِنَ الْمَشْهُورِ إِلَّا أَنَّهُ خَارِجٌ عَنِ الْوَضْعَيْنِ
 وَلَيْسَ يُسَمَّى مُرْسَلًا مُطْلَقًا وَلَا مُسَجَّمًا بَلْ تَفْصِيلُ آيَاتِهِ يَنْتَهِي إِلَى
 مَقَاطِيعَ يَشْهَدُ الذَّوْقُ بِانْتِهَاءِ الْكَلَامِ عِنْدَهَا . ثُمَّ يُعَادُ الْكَلَامُ
 فِي الْآيَةِ الْآخَرَى بَعْدَهَا وَيُشْنَى مِنْ غَيْرِ التَّزَامِ حَرْفٍ يَكُونُ
 سَجَمًا أَوْ قَافِيَةً . وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِ الْقُرْآنِ : اللَّهُ تَزَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا
 مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَفْشِيرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ . وَقَالَ قَدْ
 فَصَّلْنَا الْآيَاتِ . وَيُسَمَّى آخِرُ الْآيَاتِ مِنْهُ فَوَاصِلَ إِذَا لَيْسَتْ أَنْجَاعًا
 وَلَا التَّرِيمَ فِيهَا مَا يُلْتَزَمُ فِي السَّجْعِ . وَلَا هِيَ آيَاتٌ قَوَافٍ . وَأُطْلِقَ
 أَمُّ الْمَثَانِي عَلَى آيَاتِ الْقُرْآنِ كُلِّهَا عَلَى الْعُصُومِ لِمَا دَكَرْنَاهُ وَأَخْتَصَّتْ
 بِأَمِّ الْقُرْآنِ لِلْعَلَّةِ فِيهَا كَالنَّجْمِ لِلثَّرْيَا وَلِهَذَا سُمِّيَتْ السَّبْعُ الْمَثَانِي .
 وَأَنْظُرْ هَذَا مَعَ مَا قَالَهُ الْمُفَسِّرُونَ فِي تَعْلِيلِ تَسْمِيَّتِهَا بِالْمَثَانِي يَشْهَدُ
 لَكَ الْحَقُّ بِرُجْحَانِ مَا قُلْنَاهُ . وَأَعْلَمُ أَنَّ إِكْمَلَ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْفُنُونِ
 أَسَالِيبَ تَخْتَصُّ بِهِ عِنْدَ أَهْلِهِ وَلَا تَضِلُّ لِلْفَنِّ الْآخَرِ وَلَا تُسْتَعْمَلُ
 فِيهِ مِثْلَ النَّسِيبِ الْخُتَصِّ بِالشِّعْرِ وَالْحَمْدِ وَالِدُّعَاءِ الْخُتَصِّ بِالْخُطْبِ
 وَالِدُّعَاءِ الْخُتَصِّ بِالْحَخَاطَبَاتِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . وَقَدْ اسْتَعْمَلَ الْمَثَانِي خُرُونُ
 أَسَالِيبِ الشِّعْرِ وَمَوَازِيئُهُ فِي الْمَشْهُورِ مِنْ كَثَرَةِ الْأَنْجَاعِ وَالِتَّزَامِ
 التَّثْنِيَّةِ وَتَقْدِيمِ النَّسِيبِ بَيْنَ يَدَيِ الْأَغْرَاضِ وَصَارَ هَذَا الْمَشْهُورُ
 إِذَا تَامَلْتَهُ مِنْ بَابِ الشِّعْرِ وَقِيَّةٍ وَلَمْ يَنْفَرِقَا إِلَّا فِي الْوَزْنِ . وَأَسْتَشِرُّ

أَلْتَأَخَّرُونَ مِنَ الْكِتَابِ عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ وَأَسْتَعْمَلُوا فِي الْخُطَابَاتِ
السُّلْطَانِيَّةِ وَقَصَرُوا الْإِسْتِعْمَالَ فِي الْمَشُورِ كُلِّهِ عَلَى هَذَا الْفَنِّ الَّذِي
أَرْتَضَوْهُ وَخَلَطُوا الْأَسَالِيبَ فِيهِ وَهَجَرُوا الْمُرْسَلِ وَتَنَاسَوْهُ وَخُصُوصًا
أَهْلَ الْمَشْرِقِ وَصَارَتِ الْخُطَابَاتُ السُّلْطَانِيَّةُ لِهَذَا الْعَهْدِ عِنْدَ الْكِتَابِ
الْفَعْلِ جَارِيَةً عَلَى هَذَا الْأُسْلُوبِ الَّذِي أَشْرْنَا إِلَيْهِ. وَهُوَ غَيْرُ صَوَابٍ
مِنْ جِهَةِ الْبَلَاغَةِ لَمَّا يُلَاحَظُ فِي تَطْيِيقِ الْكَلَامِ عَلَى مُقْتَضَى الْحَالِ
مِنْ أَحْوَالِ الْخُطَّابِ وَالْخُطَّابِ. وَهَذَا الْفَنُّ الْمَشُورُ الْمَقْفِيُّ أَدْخَلَ
أَلْتَأَخَّرُونَ فِيهِ أَسَالِيبَ الشِّعْرِ فَوَجَبَ أَنْ تُتَزَّهَ الْخُطَابَاتُ السُّلْطَانِيَّةُ
عَنْهُ إِذَا أَسَالِيبُ الشِّعْرِ تُتَافِيهَا اللَّوْذَعِيَّةُ وَخَلَطُ الْجِدِّ بِالْهَزْلِ وَالْإِطْنَابُ
فِي الْأَوْصَافِ وَضَرْبُ الْأَمْثَالِ وَكَثْرَةُ التَّشْبِIHَاتِ وَالْإِسْتِعَارَاتِ
حَيْثُ لَا تَدْعُو ضَرُورَةٌ إِلَى ذَلِكَ فِي الْخُطَابِ. وَالْحَمْدُ فِي الْخُطَابَاتِ
السُّلْطَانِيَّةِ التَّرْسُلُ وَهُوَ إِطْلَاقُ الْكَلَامِ وَإِرْسَالُهُ مِنْ غَيْرِ تَضَمُّعٍ
إِلَّا فِي الْأَقْلِ النَّادِرِ وَحَيْثُ تُرْسِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِرْسَالًا مِنْ غَيْرِ تَكْلُفٍ
لَهُ. ثُمَّ إِعْطَاهُ الْكَلَامَ حَقَّهُ فِي مُطَابَقَتِهِ لِمُقْتَضَى الْحَالِ فَإِنْ
الْمَقَامَاتِ مُخْتَلِفَةٌ وَلِكُلِّ مَقَامٍ أُسْلُوبٌ يَخُصُّهُ مِنْ إِطْنَابٍ أَوْ إِيْجَازٍ
أَوْ حَذْفٍ أَوْ إِثْبَاتٍ أَوْ تَضْرِيْعٍ أَوْ إِشَارَةٍ وَكِيَايَةٍ وَأَسْتِعَارَةٍ.
وَأَمَّا إِجْرَاءُ الْخُطَابَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ عَلَى هَذَا النُّحْوِ الَّذِي هُوَ عَلَى
أَسَالِيبِ الشِّعْرِ قَدْ ذُكِّرَ وَمَا حَمَلَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْعَصْرِ إِلَّا أَسْتِيْلَاءُ
الْعُجْمَةِ عَلَى السِّنِّيَّةِ وَقُصُورُهُمْ لِذَلِكَ عَنْ إِعْطَاءِ الْكَلَامِ حَقَّهُ فِي
مُطَابَقَتِهِ لِمُقْتَضَى الْحَالِ فَهَجَرُوا عَنْ الْكَلَامِ الْمُرْسَلِ لِيُعْبَدَ أَمْدُهُ

فِي الْبَلَاغَةِ وَأَنْفَسَاحِ خَطْوَتِهِ وَوَلِعُوا بِهَذَا الْمُسْتَجَمِّ يُلَفِّقُونَ بِهِ مَا
نَقَصَهُمْ وَنَ تَطْبِيقِ الْكَلَامِ عَلَى الْمَقْصُودِ وَمُقْتَضَى الْحَالِ فِيهِ
وَيَجْهَرُونَ بِذَلِكَ الْقَدَرِ مِنَ التَّزْيِينِ بِالْأَنْجَاعِ وَالْأَلْقَابِ الْبَدِيعَةِ
وَيَغْفُلُونَ عَمَّا سِوَى ذَلِكَ. وَكَثُرَ مَنْ أَخَذَ بِهَذَا الْفَنِّ وَبَالَغَ فِيهِ فِي
سَائِرِ الْأَنْحَاءِ كَلَامِهِمْ كُتَّابُ الْمَشْرِقِ وَشُعْرَاؤُهُ لِهَذَا الْعَهْدِ حَتَّى رَأَيْنَاهُمْ
يَتَجَمَّلُونَ بِالْإِعْرَابِ فِي الْكَلِمَاتِ وَالتَّضْرِيفِ إِذَا دَخَلَتْ لَهُمْ فِي
التَّجْنِيسِ أَوْ طَائِفَةٍ لَا يَجْتَبِعَانِ مَعَهَا فَيُرَجِّحُونَ ذَلِكَ الصِّنْفَ مِنَ
التَّجْنِيسِ وَيَدْعُونَ الْإِعْرَابَ وَيُفْسِدُونَ بَنِيَّةَ الْكَلِمَةِ عَسَاهَا تُصَادِفُ
التَّجْنِيسَ. فَتَأَمَّلْ ذَلِكَ بِمَا قَدْ مَنَاهُ لَكَ تَقِفْ عَلَى صِحَّةِ مَا ذَكَرْنَاهُ
وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ إِلَى الصُّوَابِ بَيْنَهُ وَكَرَمِهِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

البحث الثاني

في صناعة الشعر وأنواع الأشعار

(عن تلخيص كتاب أرسطاطاليس في الشعر تأليف أبي الوليد س رشد)

أَفْرَضُ فِي هَذَا الْقَوْلِ تَخْيِصُ مَا فِي كِتَابِ أَرِسْطَاطَالِيسَ فِي
الشَّعْرِ مِنَ الْقَوَائِنِ الْكَلِمِيَّةِ الْمُشْتَرَكَةِ لِجَمِيعِ الْأُمَمِ أَوْ لِلْكَثَرِ إِذَا
كَثُرَ ثَمَّا فِيهِ هِيَ قَوَائِنُ خَاصَّةٌ بِأَشْعَارِهِمْ وَعَادَتِهِمْ فِيهَا. وَإِنَّمَا أَنْ
تَكُونَ نِسْبًا مَوْجُودَةً فِي كَلَامِ الْعَرَبِ أَوْ مَوْجُودَةً فِي غَيْرِهِ مِنْ
الْأَلْسِنَةِ. (قَالَ) إِنْ قُضِيَ مَا الْآنَ التَّكَلُّمُ فِي صِنَاعَةِ الشَّعْرِ
وَفِي أَنْوَاعِ الْأَشْعَارِ. وَقَدْ يَجِبُ عَلَى مَنْ يُرِيدُ أَنْ تَكُونَ الْقَوَائِنُ

الَّتِي يُعْطَى فِيهَا تَجْرِي مَجْرَى الْجُودَةِ أَنْ يَقُولَ أَوَّلًا مَا فَعَلَ كُلُّ
وَاحِدٍ مِنَ الْأَنْوَاعِ الشِّعْرِيَّةِ وَمِمَّاذَا تَتَقَوَّمُ الْأَقَاوِيلُ الشِّعْرِيَّةُ وَمِنْ
كَمْ شَيْءٍ تَتَقَوَّمُ وَأَيُّمَا هِيَ أَجْزَاؤُهَا الَّتِي تَتَقَوَّمُ بِهَا وَكَمْ أَصْنَافُ
الْأَغْرَاضِ الَّتِي تُقْصَدُ بِالْأَقَاوِيلِ الشِّعْرِيَّةِ . وَأَنْ يَجْعَلَ كَلَامُهُ مِنْ
الْأَوَائِلِ الَّتِي لَنَا بِالطَّبَعِ فِي هَذَا الْمَعْنَى . (قَالَ) فَكُلُّ شِعْرِ وَكُلُّ قَوْلٍ
شِعْرِي فَهُوَ إِمَّا هَجَاءٌ وَإِمَّا مَدِيحٌ وَذَلِكَ بَيِّنٌ بِاسْتِقْرَاءِ الْأَشْعَارِ
وَبِخَاصَّةِ أَشْعَارِهِمْ أَتَى كَأَنَّهُ فِي الْأُمُورِ الْإِرَادِيَّةِ أَغْنَى الْحَسَنَةِ
وَالْقَبِيحَةِ وَكَذَلِكَ الْحَالُ فِي الصَّنَائِعِ الْحَاكِيَّةِ لِصِنَاعَةِ الشِّعْرِ الَّتِي
هِيَ الضَّرْبُ بِالْعِيدَانِ وَالزَّمْرُ وَالرَّقْصُ أَعْنَى أَنَّهَا مَعْدَةٌ بِالطَّبَعِ
لِهَذَيْنِ الْغَرَضَيْنِ . وَالْأَقَاوِيلُ الشِّعْرِيَّةُ هِيَ الْأَقَاوِيلُ الْحَمِيَّةُ . وَأَصْنَافُ
الْخَيْلِ وَالتَّشْبِيهِ ثَلَاثَةٌ إِثْنَانِ بَسِيطَانٍ وَثَلَاثُ مُرَكَّبٍ مِنْهُمَا . أَمَّا
الْإِثْنَانُ الْبَسِيطَانِ فَأَحَدُهُمَا تَشْبِيهُ شَيْءٍ بِشَيْءٍ وَتَمْثِيلُهُ بِهِ وَذَلِكَ
يَكُونُ فِي لِسَانِ لِسَانٍ بِالْفَاظِ خَاصَّةً عِنْدَهُمْ مِثْلَ كَانَ وَإِخَالُ
وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ وَهِيَ الَّتِي تُسَمَّى عِنْدَهُمْ حُرُوفَ
التَّشْبِيهِ . وَإِمَّا أَخَذُ الشَّيْءِ بِعَيْنِهِ بَدَلَ الشَّيْءِ وَهُوَ الَّذِي يُسَمَّى
الْإِبْدَالَ فِي هَذِهِ الصِّنَاعَةِ وَذَلِكَ مِثْلُ قَوْلِ الشَّاعِرِ :

هُوَ الْبَجَرُ مِنْ آيِ الْمَوَاضِعِ جِثَّةُ

وَيَذْبَغِي أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ فِي هَذَا الْقِسْمِ تَدْخُلُ الْأَنْوَاعُ الَّتِي
يُسَمَّى أَهْلُ زَمَانِنَا اسْتِعَارَةً وَكِنَايَةً مِثْلُ قَوْلِ الشَّاعِرِ :

وَعُرِّيَ أَفْرَاسُ الصَّبَا وَرَوَّاحِلُهُ

إِلَّا أَنَّ الْكِنَايَاتِ أَكْثَرَ ذَلِكَ هِيَ إِبْدَالَاتٌ مِنْ لَوَاقِحِ
الشَّيْءِ . وَالْإِسْتِعَارَةُ هِيَ إِبْدَالٌ مِنْ مُنَاسِبِهِ أَغْنَى إِذَا كَانَ شَيْءٌ
نِسْبَتُهُ إِلَى الثَّانِي نِسْبَةُ الثَّلَاثِ إِلَى الرَّابِعِ فَإِبْدَالُ اسْمِ الثَّلَاثِ
إِلَى الْأَوَّلِ وَبِالْعَكْسِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي كِتَابِ الْخَطَاةِ مِنْ كَمْ شَيْءٌ
تَكُونُ الْإِبْدَالَاتُ . وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّانِي فَهُوَ أَنْ يَبْدَلَ التَّشْبِيهِ مِثْلَ
أَنْ تَقُولَ : الشَّمْسُ كَأَنَّهَا فُلَانٌ أَوْ الشَّمْسُ هِيَ فُلَانٌ لَا فُلَانٌ
كَالشَّمْسِ وَلَا هُوَ الشَّمْسُ

وَالصَّنْفُ الثَّلَاثُ مِنَ الْأَقَاوِيلِ الشَّعْرِيَّةِ هُوَ الْمُرَكَّبُ مِنْ هَذَيْنِ
(قَالَ) وَكَمَا أَنَّ النَّاسَ بِالطَّبَعِ قَدْ يُخَيَّلُونَ وَيُحَاكُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا
بِالْأَفْعَالِ مِثْلَ مُحَاكَاةِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا بِالْأَلْوَانِ وَالْأَشْكَالِ
وَالْأَصْوَاتِ وَذَلِكَ إِمَّا بِجِسْمَانَةٍ وَمَلَكَةٍ تُوجَدُ لِلْمُحَاكِينَ وَإِمَّا مِنْ
قَبْلِ عَادَةٍ تَقَدَّمَتْ لَهُمْ فِي ذَلِكَ . كَذَلِكَ تُوجَدُ لَهُمُ الْمُحَاكَاةُ
بِالْأَقَاوِيلِ بِالطَّبَعِ وَالْخَيَالِ . وَالْمُحَاكَاةُ فِي الْأَقَاوِيلِ الشَّعْرِيَّةِ تَكُونُ
مِنْ قَبْلِ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ : مِنْ قَبْلِ النِّعَمِ الْمُتَّفِقَةِ وَمِنْ قَبْلِ الْوِزْنِ
وَمِنْ قَبْلِ التَّشْبِيهِ نَفْسِهِ . وَهَذِهِ قَدْ يُوْجَدُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا مُفْرَدًا عَنْ
صَاحِبِهِ مِثْلَ وَجُودِ النِّعَمِ فِي الْمَزَامِيرِ وَالْوِزْنِ فِي الرُّقُصِ وَالْمُحَاكَاةِ
فِي اللَّفْظِ . أَغْنَى الْأَقَاوِيلِ الْخَيْسَلَةُ الْغَيْرَ مَوْزُونَةٍ . وَقَدْ تَجَمَّعَ هَذِهِ
الْثَلَاثَةُ بِأَسْرَافِهَا مِثْلَ مَا يُوْجَدُ عِنْدَنَا فِي النَّوعِ الَّذِي يُسَمَّى
الْمَوْشَّحَاتِ وَالْأَزْجَالَ وَهِيَ الْأَشْعَارُ الَّتِي اسْتَبَطَهَا فِي هَذَا اللِّسَانِ
أَهْلُ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ إِذْ كَانَتْ الْأَشْعَارُ الطَّبِيعِيَّةُ هِيَ مَا تَجَمَّعَتْ

الأمور بن جميعاً. والأُمور الطَّبيعية إنما توجد لِلأَعمِ الطَّبيعيين فإنَّ
أشعار العرب ليس فيها لحنٌ. وإنما هي إِمَّا ألوزنُ فقط وإِمَّا ألوزنُ
والْحَمَكةُ معاً فيها. وإذا كان هذا هكذا فالصَّنَاعَةُ الْحَيَّةُ أَوِ الَّتِي
تَفْعَلُ فِعْلَ التَّخْيِيلِ ثَلَاثَةٌ. صِنَاعَةُ اللَّحْنِ وَصِنَاعَةُ ألوزنِ وَصِنَاعَةُ
عَمَلِ آلِقَاوِيلِ الْحَمَكِيَّةِ وَهَذِهِ الصَّنَاعَةُ الْمُنْطِقِيَّةُ الَّتِي نَنْظُرُ فِيهَا
فِي هَذَا الْكِتَابِ. (قَالَ): وَكَثِيرًا مَا يُوجَدُ مِنْ آلِقَاوِيلِ الَّتِي تُسَمَّى
أَشْعَارًا مَا لَيْسَ فِيهَا مِنْ مَعْنَى الشِّعْرِيَّةِ إِلَّا ألوزنُ فقط كَأَقَاوِيلِ
سُقْرَاطِ الْمَوْزُونَةِ وَأَقَاوِيلِ إِبْنَادُقْلَيْسَ فِي الطَّبيعيَّاتِ بِخِلَافِ الْأَمْرِ
فِي أَشْعَارِ أَوِمِيرُوشَ فَإِنَّهُ يُوجَدُ فِيهَا الْأَمْرَانِ جَمِيعًا. (قَالَ): وَلِذَلِكَ
لَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يُسَمَّى شِعْرًا بِالْحَقِيقَةِ إِلَّا مَا جَمَعَ هَذَيْنِ. وَأَمَّا
تِلْكَ فَهِيَ أَنْ تُسَمَّى أَقَاوِيلَ أُخْرَى مِنْهَا أَنْ تُسَمَّى شِعْرًا
وَكَذَلِكَ الْفَاعِلُ أَقَاوِيلَ، وَزُونَةُ الطَّبيعيَّاتِ هُوَ أُخْرَى أَنْ يُسَمَّى
مَتَكَلِّمًا مِنْ أَنْ يُسَمَّى شَاعِرًا. وَكَذَلِكَ آلِقَاوِيلُ الْحَيَّةُ الَّتِي
تَكُونُ مِنْ أَوْزَانٍ مُخْتَلِطَةٍ لَيْسَتْ أَشْعَارًا. وَحُكِّي أَنْ كَانَتْ
تُوجَدُ عِنْدَهُمْ أَعْنِي مِنْ أَوْزَانٍ مُخْتَلِطَةٍ وَهَذَا غَيْرُ مَوْجُودٍ عِنْدَنَا فَقَدْ
تَبَيَّنَ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ كَمْ هِيَ أَصْنَافُ الْحَمَكَةِ وَمِنْ أَيِّ الصَّنَائِعِ
تَلْتَمِمُْ الْحَمَكَةُ بِالْقَوْلِ حَتَّى تَكُونَ تَامَةً الْفِعْلِ



المبحث الثاني

في غاية صناعة الشعر

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) وَلَمَّا كَانَ الْحَاكُونَ وَالْمُشَبِّهُونَ إِنَّمَا يُقْصِدُونَ
بِذَلِكَ أَنْ يُحْشُوا عَلَى عَمَلِ بَعْضِ الْأَفْعَالِ الْإِرَادِيَّةِ وَأَنْ يَكُفُّوا
عَنْ عَمَلِ بَعْضِهَا فَقَدْ يَجِبُ ضَرُورَةٌ أَنْ تَكُونَ الْأُمُورُ الَّتِي تُقْصَدُ
مُحَاكَاتُهَا إِمَّا فَضَائِلَ وَإِمَّا رَذَائِلَ وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ فِعْلٍ وَكُلَّ خُلُقٍ إِمَّا
هُوَ تَابِعٌ لِأَحَدِ هَذَيْنِ آغْنِي الْفَضِيلَةَ وَالرَّذِيئَةَ فَقَدْ يَجِبُ ضَرُورَةٌ
أَنْ تَكُونَ الْفَضَائِلُ إِمَّا تُحَاكِي بِالْفَضَائِلِ وَالْفَاضِلِينَ وَأَنْ تَكُونَ
الرَّذَائِلُ تُحَاكِي بِالرَّذَائِلِ وَالْأَرَذَلِينَ . وَإِذَا كَانَ كُلُّ تَشْبِيهِ وَحِكَايَةٍ
إِنَّمَا تَكُونُ بِالْحَسَنِ وَالْقَبِيحِ فَظَاهِرٌ أَنَّ كُلَّ تَشْبِيهِ وَحِكَايَةٍ إِنَّمَا
يُقْصَدُ بِهَا التَّحْسِينُ وَالتَّقْبِيحُ وَقَدْ يَجِبُ مَعَ هَذَا ضَرُورَةٌ أَنْ يَكُونَ
الْحَاكُونَ لِلْفَضَائِلِ آغْنِي الْمَازِلِينَ بِالطَّعْنِ إِلَى مُحَاكَاتِهَا أَفَاضِلَ .
وَالْحَاكُونَ لِلرَّذَائِلِ أَنْقَصُ طَبْعًا مِنْ هَؤُلَاءِ وَأَقْرَبُ إِلَى الرَّذِيئَةِ
وَعَنْ هَذَيْنِ الصَّنِفَتَيْنِ مِنَ النَّاسِ وَجَدَ الْمَدِيحُ وَالْمُجَوِّدُ . آغْنِي مَدْحَ
الْفَضَائِلِ وَهَجْوَ الرَّذَائِلِ وَلِهَذَا كَانَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ يُجِيدُ الْمَدْحَ وَلَا
يُجِيدُ الْمُجَوِّدَ وَبَعْضُهُمْ بِالْعَكْسِ آغْنِي يُجِيدُ الْمُجَوِّدَ وَلَا يُجِيدُ الْمَدْحَ
فَإِذَا كَانَ بِالْوَاجِبِ مَا كَانَ يُوجَدُ إِكْلَرِ تَشْبِيهِ وَحِكَايَةٍ هَذَانِ

الْفَضْلَانِ أَغْنِيَا التَّحْسِينَ وَالتَّقْبِيحَ وَهَذَانِ الْفَضْلَانِ إِنَّمَا يُوجَدَانِ
لِلتَّشْبِيهِ وَالْحَاكِمَةُ الَّتِي تَكُونُ بِالْقَوْلِ لَا الْحَاكِمَةُ الَّتِي تَكُونُ
بِالْوِزْنِ وَلَا الَّتِي تَكُونُ بِاللَّحْنِ . وَقَدْ يُوحَدُ لِلتَّشْبِيهِ بِالْقَوْلِ فَضْلٌ
ثَلَاثٌ وَهُوَ التَّشْبِيهُ الَّذِي يُقْصَدُ بِهِ مُطَابَقَةُ التَّشْبِيهِ بِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ
يُقْصَدَ فِي ذَلِكَ تَحْسِينٌ أَوْ تَقْبِيحٌ لَكِنْ نَفْسُ الْمُطَابَقَةِ وَهَذَا
النَّوعُ مِنَ التَّشْبِيهِ هُوَ كَمَا لَمَادَةُ الْمَعْدَةِ لِأَنَّهُ يَسْتَحِيلُ إِلَى الطَّرَفَيْنِ
أَغْنِيَا أَنَّهَا تَسْتَحِيلُ تَارَةً إِلَى التَّحْسِينِ بِزِيَادَةٍ عَلَيْهَا وَتَارَةً إِلَى التَّقْبِيحِ
بِزِيَادَةٍ أَيْضًا عَلَيْهَا (قَالَ) وَهَذِهِ كَانَتْ طَرِيقَةُ أَوِسِيرُوشِ إِنْ شَاءَ
كَانَ يَأْتِي فِي تَشْبِيهَاتِهِ بِالْمُطَابَقَةِ وَالزِّيَادَةِ الْحَسَنَةِ وَالْمُنْجَحَةِ . وَمِنْ
الشُّعْرَاءِ مَنْ إِجَادَتُهُ إِنَّمَا هِيَ فِي الْمُطَابَقَةِ فَقَطْ . وَمِنْهُمْ مَنْ إِجَادَتُهُ
فِي التَّحْسِينِ وَالتَّقْبِيحِ . وَمِنْهُمْ مَنْ جَمَعَ الْأَمْرَيْنِ وَمِثْلُ أَوِسِيرُوشِ
وَمِثْلُ فِي كُلِّ صِنْفٍ مِنْ هَؤُلَاءِ بِإِضَافٍ مِنَ الشُّعْرَاءِ كَانُوا
مَشْهُورِينَ فِي مَدَنِيَّتِهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ بِاسْتِعْمَالِ صِنْفٍ صِنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ
هَذِهِ التَّشْبِيهَاتِ الثَّلَاثَةِ . وَأَنْتَ فَلَيْسَ بِمُسْرِعٍ عَلَيْكَ وَجُودُ مِثَالَاتِ
ذَلِكَ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَإِنْ كَانَتْ أَكْثَرُ أَشْعَارِ الْعَرَبِ إِنَّمَا هِيَ
كَمَا يَقُولُ أَبُو نَضْرٍ فِي النَّهْلِ وَالْكَرِيمِ . وَذَلِكَ أَنَّ النَّوعَ الَّذِي
يُسَمُّونَهُ النَّسِيبَ إِنَّمَا هُوَ حَثٌّ عَلَى الْفُسُوقِ وَذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يَتَجَنَّبَهُ
الْوِلْدَانُ وَيُؤَدَّبُونَ مِنْ أَشْعَارِهِمْ بِمَا يُحَثُّ فِيهِ عَلَى الشُّجَاعَةِ وَالْكَرَمِ .
فَإِنَّهُ لَيْسَ تَحْتُ الْعَرَبُ فِي أَشْعَارِهَا مِنَ الْفَضَائِلِ عَلَى سِوَى هَاتَيْنِ
الْفَضِيلَتَيْنِ وَإِنْ كَانَتْ لَيْسَ تَتَكَلَّمُ فِيهِمَا عَلَى طَرِيقِ الْحَثِّ عَلَيْهَا

وَأِنَّمَا تَتَكَلَّمُ فِيهَا عَلَى طَرِيقِ الْفَحْرِ. وَأَمَّا الصَّنْفُ مِنْ الْأَشْعَارِ
الَّذِي الْمَقْصُودُ بِهِ الْمُطَابَقَةُ فَقَطُّ فَهُوَ مَوْجُودٌ كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِهِمْ
وَأَيْضًا يَصِفُونَ الْجَمَادَاتِ كَثِيرًا وَالْحَيَوَانَاتِ وَالنَّبَاتِ. وَأَمَّا الْيُونَانِيُّونَ
فَلَمْ يَكُونُوا يَقُولُونَ أَكْثَرَ ذَلِكَ شِعْرًا إِلَّا وَهُوَ مُوجَّهٌ نَحْوَ الْفَضِيلَةِ
أَوْ الْكَفِّ عَنِ الرَّذِيلَةِ أَوْ مَا يَفِيدُ آدَابًا مِنَ الْآدَابِ أَوْ مَعْرِفَةً
مِنَ الْمَعَارِفِ. فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ أَنَّ أَصْنَافَ التَّشْبِيهَاتِ
ثَلَاثَةٌ أَصُولٌ وَأَنَّ فُضُولَهَا ثَلَاثَةٌ وَتَبَيَّنَ مَا هِيَ هَذِهِ الْفُضُولُ
الثَّلَاثَةُ وَالْأَصْنَافُ الثَّلَاثَةُ. وَيُشَبَّهُ إِذَا اسْتَقْرَيْتِ الْأَشْعَارُ أَنْ يَقَعَ
الْيَقِينُ بِأَنَّهُ أَيْسَ هَاهُنَا صِنْفٌ رَابِعٌ مِنْ أَصْنَافِ التَّشْبِيهَاتِ وَلَا
فَضْلٌ رَابِعٌ مِنْ فُضُولِ تِلْكَ الْأَصْنَافِ

المبحث الثالث

في العمل المولدة للشعر

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) وَيُشَبَّهُ أَنْ تَكُونَ الْعِلَلُ الْمَوْلِدَةُ لِلشَّعْرِ بِالطَّبْعِ فِي
النَّاسِ عِلْمَيْنِ. أَمَّا الْعِلَّةُ الْأُولَى فَمَوْجُودُ التَّشْبِيهِ وَالْحَاصِلَةُ لِلْإِنْسَانِ
بِالطَّبْعِ مِنْ أَوَّلِ مَا يَنْشَأُ أَعْنِي أَنَّ هَذَا الْفِعْلَ يُوجَدُ لِلنَّاسِ وَهُمْ
أَطْفَالٌ وَهَذَا شَيْءٌ يَخْتَصُّ بِهِ الْإِنْسَانُ مِنْ دُونِ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ
وَالْعِلَّةُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ هُوَ الَّذِي

يَلْتَذُّ بِالتَّشْبِيهِ لِلْأَشْيَاءِ الَّتِي قَدْ أَحَسَّهَا وَبِالْحَاكَاةِ لَهَا. وَالذَّلِيلُ عَلَى
 أَنَّ الْإِنْسَانَ يُسَرُّ بِالتَّشْبِيهِ بِالطَّبْعِ وَيَفْرَحُ هُوَ أَنَا نَلْتَذُّ وَنَسَرُّ
 بِحَاكَاةِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي لَا نَلْتَذُّ بِإِحْسَاسِهَا وَبِخَاصَّةٍ إِذَا كَانَتْ
 الْحَاكَاةُ شَدِيدَةً الْإِسْتِثْنَاءُ مِثْلُ مَا يَغْرِضُ فِي تَصَاوِيرِ كَثِيرٍ
 مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي يَعْمَلُهَا الْمَهَرَّةُ مِنَ الْمَصَوِّرِينَ وَلِهَذَا الْعِلَّةُ
 اسْتُعْمِلَ فِي التَّعْلِيمِ عِنْدَ الْإِنْفَهَامِ وَالنَّحَاطِبِ الْإِشَارَاتُ فَإِنَّهَا آدَاءُ
 مُعِينَةٌ عَلَى فَهْمِ الْأَمْرِ الَّذِي يُقْصَدُ تَفْهِيمُهُ لِمَكَانٍ مَا فِيهَا مِنْ
 الْإِلْدَاذِ الَّذِي هُوَ مَوْجُودٌ فِي الْإِشَارَاتِ مِنْ قَبْلِ مَا فِيهَا مِنْ
 التَّخْيِيلِ فَتَكُونُ النَّفْسُ بِحَسَبِ الْإِلْدَاذِهَا بِهِ أَتَمَّ قَبُولًا لَهُ . فَإِنَّ
 التَّعْلِيمَ لَيْسَ إِنَّمَا يُوحَدُ لِلْفِيلَسُوفِ فَقَطُّ بَلْ وَلِلنَّاسِ فِي ذَلِكَ
 مُشَارَكَةٌ يَسِيرَةٌ مَعَ الْفِيلَسُوفِ . وَذَلِكَ أَنَّهُ يُوجَدُ التَّعْلِيمُ بِالطَّبْعِ
 يَصْدُرُ مِنَ الْإِنْسَانِ إِلَى الْإِنْسَانِ بِحَسَبِ قِيَاسِ ذَلِكَ الْإِنْسَانِ الْمُتَعَلِّمِ
 مِنَ الْإِنْسَانِ الْمُتَعَلِّمِ وَالْإِشَارَاتُ لِمَا كَانَتْ إِنَّمَا هِيَ تَشْبِيهَاتٌ
 لِأُمُورٍ قَدْ أُحِسَّتْ قَبْلُهَا إِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ لِمَوَاضِعِ الْمَسَارَعَةِ إِلَى
 الْفَهْمِ وَالْقَبُولِ لَهُ وَأَنَّهُ إِنَّمَا يَفْهَمُ بِمَا فِيهَا مِنَ الْإِلْدَاذِ لِمَوَاضِعِ
 التَّخْيِيلِ الَّذِي فِيهَا . فَهَذِهِ هِيَ الْعِلَّةُ الْأُولَى الْمَوْلِدَةُ لِلشَّعْرِ . وَأَمَّا
 الْعِلَّةُ النَّائِيَةُ فَالْتِلْدَاذُ الْإِنْسَانِ أَيْضًا بِالطَّبْعِ بِالْوِزْنِ وَالْأَلْحَانِ فَإِنَّ
 الْأَلْحَانَ يَظْهَرُ مِنْ أَمْرِهَا أَنَّهَا مُنَاسِبَةٌ لِوِزْنِ الَّذِينَ فِي طِبَاءَعِهِمْ
 أَنْ يُدْرِكُوا الْأَوْزَانَ وَالْأَلْحَانَ فَالْتِلْدَاذُ النَّفْسِ بِالطَّبْعِ بِالْحَاكَاةِ
 وَالْأَلْحَانِ وَالْأَوْزَانِ هُوَ السَّبَبُ فِي وُجُودِ الصِّمَاتِ الشَّعْرِيَّةِ

وَبِخَاصَّةٍ عِنْدَ الْفِطْرِ الْفَائِقَةِ فِي ذَلِكَ فَإِذَا نَشَأَتِ الْأُمَّةُ تَوَلَّدَتْ فِيهِمْ صِنَاعَةُ الشَّعْرِ مِنْ حَيْثُ إِنَّ الْأَوَّلَ يَأْتِي مِنْهَا أَوَّلًا بِجُزْءٍ يَسِيرٍ ثُمَّ يَأْتِي مَنْ بَعْدَهُ بِجُزْءٍ آخَرَ وَهَكَذَا إِلَى أَنْ تَكْمَلَ الصِّنَاعَاتُ الشَّعْرِيَّةُ . وَتَكْمُلُ أَيْضًا أَصْنَافُهَا بِحَسَبِ اسْتِعْدَادِ صِنْفٍ صِنْفٍ مِنَ النَّاسِ لِلْإِلْتِذَاذِ أَكْثَرَ بِصِنْفٍ صِنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ الشَّعْرِ . وَمِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ النَّفُوسَ الَّتِي هِيَ قَائِمَةٌ وَشَرِيفَةٌ بِالطَّبَعِ هِيَ الَّتِي تُنْشِئُ أَوَّلًا صِنَاعَةَ الْمَدِيحِ أَعْنِي مَدِيحَ الْأَفْعَالِ الْجَمِيلَةِ . وَالنَّفُوسُ الَّتِي هِيَ أَخْسَرُ مِنْ هَذِهِ هِيَ الَّتِي تُنْشِئُ صِنَاعَةَ الْهَجَاءِ أَعْنِي هَجَاءَ الْأَفْعَالِ الْقَبِيحَةِ وَإِنْ كَانَ قَدْ يَضْطَرُّ الَّذِي مَقْصِدُهُ الْهَجَاءُ لِلشَّرَارِ وَالشُّرُورِ أَنْ يَمْدَحَ الْأَخْيَارَ وَالْأَفْعَالِ الْفَاضِلَةَ لِيَكُونَ ظُهُورُ قُبْحِ الشُّرُورِ أَكْثَرَ أَعْنِي إِذَا ذَكَرَهَا ثُمَّ ذَكَرَ بِأَرَائِهَا الْأَفْعَالِ الْقَبِيحَةِ . فَهَذَا مَا فِي هَذَا الْفَصْلِ مِنْ الْأُمُورِ الْمُشْتَرَكَةِ لِجَمِيعِ الْأُمَمِ أَوْ لِلْأَكْثَرِ وَسَائِرُ مَا يُذَكَّرُ فِيهِ فَكُلُّهُ أَوْ جُلُّهُ مِمَّا يُخَصُّ أَشْعَارَهُمْ وَعَادَتُهُمْ فِيهَا وَذَلِكَ أَنَّهُ يُذَكَّرُ أَصْنَافَ الصِّنَاعَاتِ الشَّعْرِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تُسْتَعْمَلُ عِنْدَهُمْ وَكَيْفَ كَانَ مَنَشَأُ وَاحِدَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْهَا بِالطَّبَعِ وَآيُ جُزْءٍ هُوَ الْمُتَقَدِّمُ مِنْهَا فِي الْكَوْنِ عَلَى آيِ جُزْءٍ وَبِخَاصَّةٍ فِي صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ وَصِنَاعَةِ الْهَجَاءِ الْمَشْهُورَتَيْنِ عِنْدَهُمْ وَيُذَكَّرُ مَعَ هَذَا أَوَّلَ مَنْ أَبْتَدَأَ صِنَاعَةَ صِنَاعَةٍ مِنْ تِلْكَ الصَّنَائِعِ الشَّعْرِيَّةِ الْمُعْتَادَةِ عِنْدَهُمْ وَمَنْ زَادَ فِيهَا وَمَنْ كَمَّلَهَا بَعْدُ . وَهُوَ فِي هَذَا الْبَابِ يُثْنَى عَلَى أَوْمِرْدُوشَ ثَنَاءً كَثِيرًا وَيَعْرِفُ أَنَّهُ الَّذِي أَعْطَى مَبَادِي هَذِهِ الصَّنَائِعِ وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ

قَبْلَهُ فِي صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ عَمَلٌ لَهُ قَدْرٌ يُعْتَدُّ بِهِ وَلَا فِي صِنَاعَةِ الْهَجَاءِ وَلَا
 فِي غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصَّنَائِعِ الْمَشْهُورَةِ عِنْدَهُمْ . قَالَ وَالْأَنْقَصُ مِنَ
 الْأَشْعَارِ وَالْأَقْصَرُ هِيَ الْمُنْتَقِذَةُ بِالزَّمَانِ لِأَنَّ الطَّبَاعَ أَسْهَلُ وَتَوَعَّا
 عَلَيْهَا أَوْلَى . وَالْأَقْصَرُ هِيَ الَّتِي تَكُونُ مِنْ مَقَاطِعِ أَقْلٍ وَالْأَنْقَصُ هِيَ
 الَّتِي تَكُونُ مِنْ نَعَمَاتٍ أَقْلٍ أَيْضًا . (قَالَ) وَالِدَلِيلُ عَلَى أَنَّ هَذِهِ
 الْأَنْوَاعَ اسْتَقَى إِلَى النَّفُوسِ أَنَّ النَّاسَ عِنْدَ الْمُنَازَعَاتِ قَدْ يَرْجَحُونَ
 مَصَارِيعَ مِنْ هَذِهِ فِي مُجَادَلَتِهِمْ وَذَلِكَ عِنْدَ الْخُرْجِ . يُرِيدُ فِيمَا أَحْسِبُ
 . مِثْلَ قَوْلِ الْقَائِلِ : لَا لَا لَا يُمَدُّ بِهَا صَوْتُهُ . وَمِثْلَ قَوْلِهِ أَيْسَ هَذَا كَذَا
 مَادًّا بِهَا صَوْتُهُ فَإِنَّ أَمْثَالَ هَذِهِ الْمُرَاجَعَاتِ هِيَ مَصَارِيعُ مَوْزُونَةٌ
 ذَاتُ لَحْنٍ وَأَمَّا الَّتِي هِيَ أَطْوَلُ وَأَتَمُّ فَإِنَّمَا ظَهَرَتْ بِأَخْرَقِ كُلِّحَالٍ
 فِي سَائِرِ الصَّنَائِعِ . (قَالَ) وَصِنَاعَةُ الْهَجَاءِ أَيْسَ إِنَّمَا يُقْصَدُ بِهَا التَّحَاكَاةُ
 بِكُلِّ مَا هُوَ تَرُّ وَقَبِيحٌ فَقَطْ بَلْ وَبِكُلِّ مَا هُوَ شَيْءٌ مُسْتَهْزَأٌ بِهِ
 أَيْ مَرْدُودٌ قَبِيحٌ غَيْرُ مُقْتَمَرٍ بِهِ . (قَالَ) وَالِدَلِيلُ عَلَى أَنَّ الْأَسْتَهْزَاءَ
 يَجِبُ أَنْ يَجْمَعَ هَذِهِ الْأَلَانَةُ الْأَوْصَافَ أَنَّهُ يُوجَدُ فِي وَجْهِ الْمُسْتَهْزِئِ
 هَذِهِ الْأَحْوَالُ الثَّلَاثَةُ أَعْنِي قُبَاحَةُ الْوَجْهِ وَهَيْئَةُ الْأَسْتِضْفَارِ وَقِلَّةُ
 الْأَكْتِرَابِ بِالْمُسْتَهْزِئِ بِهِ وَذَلِكَ بِخِلَافِ وَجْهِ الْغَاظِبِ أَعْنِي أَنَّ
 فِيهِ قُبْحًا وَاهْتِمَامًا وَتِلْكَ هِيَ حَالَةُ نَفْسِ الْغَاظِبِ عَلَى الشَّيْءِ الَّذِي
 يُغْضَبُ عَلَيْهِ



البحث الرابع

في وزن الشعر ولحنه

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) وَإِيجَادُ صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ يَكُونُ تَعَلُّمُهَا فِي الْأَعَارِضِ الطَّرِيقَةِ لَا فِي الْقَصِيدَةِ وَلِذَاكَ رَفَضَ الْمُتَأَخِّرُونَ الْأَعَارِضَ الْقِصَارَ أَيْ كَانَتْ تُسْتَعْمَلُ فِيهَا وَفِي غَيْرِهَا مِنْ صَنَائِعِ الشِّعْرِ وَأَخَصُّ الْأَوْزَانِ بِهَا هُوَ الْوَزْنُ الْبَسِيطُ الْغَيْرُ مُرَكَّبٍ وَلَكِنْ يَنْبَغِي أَلَّا يُبْلَغَ فِيهَا مِنَ الطُّولِ إِلَى حَدٍّ يُسْتَكْرَهُ. وَأَلْخَذُ الْمَفْهُمَ جَوْهَرُ صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ هُوَ أَنَّهَا نِسْبَةٌ وَمُحَاسَنَةٌ لِلْعَمَلِ الْإِرَادِيِّ الْفَاضِلِ الْكَامِلِ الَّذِي لَهُ قُوَّةٌ سَكْنِيَّةٌ فِي الْأُمُورِ الْفَاضِلَةِ لَا قُوَّةٌ جُزْئِيَّةٌ فِي وَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ الْأُمُورِ الْفَاضِلَةِ مُحَاسَنَةٌ تَتَّقِلُ لَهَا النَّفْسُ أَنْفَعَالًا مُعْتَدِلًا بِمَا يُوَلَّدُ فِيهَا مِنَ الرَّحْمَةِ وَالْخَوْفِ وَذَاكَ بِمَا يُحْمِلُ فِي الْفَاضِلِينَ مِنَ النَّقِيِّ وَالنَّظَاقَةِ فَإِنَّ الْمُحَاسَنَةَ إِنَّمَا هِيَ لِلْهَيْئَاتِ الَّتِي تَتَزَامُ الْقَضَائِلَ لَا لِلْمَلَكَاتِ إِذَا لَيْسَ يُمَكِّنُ فِيهَا أَنْ يُتَحَمَّلَ. وَهَذِهِ الْمُحَاسَنَةُ بِالْقَوْلِ تَكْمُلُ إِذَا قُرِنَ بِهَا اللَّحْنُ وَالْوَزْنُ وَقَدْ تَوَجَّدُ مِنَ الْمُتَشَدِّينَ أَحْوَالٌ أُخْرَى خَارِجَةٌ عَنِ الْوَزْنِ وَاللَّحْنِ تَجْعَلُ الْقَوْلَ أَتَمَّ مُحَاسَنَةً وَهِيَ الْإِشَارَاتُ وَالْأَخْذُ بِالْوُجُوهِ الَّتِي قِيلَ فِي كِتَابِ الْخُطَابَةِ فَأَوَّلُ أَجْزَاءِ صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ الشِّعْرِيَّةِ فِي الْعَمَلِ هُوَ أَنْ تُحْصَى

الْمَعَانِي الشَّرِيفَةُ الَّتِي بِهَا يَكُونُ التَّخْيِيلُ . ثُمَّ تُكْنَى تِلْكَ الْمَعَانِي
 اللَّحْنُ وَالْوَزْنُ الْمَلَانِمَيْنِ لِلشَّيْءِ الْقَوْلِ فِيهِ . وَعَمَلُ اللَّحْنِ فِي الشِّعْرِ
 هُوَ أَنَّهُ يُعَدُّ النَّفْسَ لِقَبُولِ خَيَالِ الشَّيْءِ الَّذِي يُقْصَدُ تَخْيِيلُهُ فَكَانَ
 اللَّحْنُ هُوَ الَّذِي يُفِيدُ النَّفْسَ الْإِسْتِعْدَادَ الَّذِي بِهِ يُقْبَلُ التَّشْبِيهُ
 وَالْحَاكَاةُ لِلشَّيْءِ الْمَقْصُودِ تَشْبِيهُهُ . وَأَمَّا يُفِيدُ النَّفْسَ هَذِهِ الْهَيْئَةُ
 فِي نَوْعٍ نَوْعٍ . وَنَ أَنْوَاعِ الشِّعْرِ اللَّحْنُ الْمَلَانِمُ لِذَلِكَ النَّوعِ . مِنْ
 الشِّعْرِ بِنَغَمَاتِهِ وَتَأْلِيْفِهِ . فَإِنَّهُ كَمَا أَنَّا نَحْدُ النِّعَمَ أَحَادَةً تُلَانِمُ نَوْعًا
 مِنْ الْقَوْلِ غَيْرَ الَّذِي تُلَانِمُهُ النِّعَمَاتُ الْثِقَالُ كَذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ
 نَعْتَقِدَ فِي تَرْكِيبِ الْأَحْزَانِ وَهَيْئَاتِ الْحَدِيثَيْنِ وَالْقَاصِ الَّتِي
 تُكْمِلُ التَّخْيِيلَ الْمَوْجُودَ فِي الْأَقَاوِيلِ الشِّعْرِيَّةِ أَنْفُسَهَا مِنْ قَبْلِ
 هَذِهِ الثَّلَاثَةِ أَعْنِي التَّشْبِيهِ وَالْوَزْنَ وَاللَّحْنَ الَّتِي هِيَ إِسْطَقْسَاتُ
 الْحَاكَاةِ هِيَ بِالْجُمْلَةِ هَيْئَتَانِ إِحْدَاهُمَا هَيْئَةُ تَدَلُّ عَلَى خَلْقٍ وَعَادَةٍ
 كَمَنْ يَتَكَلَّمُ كَلَامًا عَاقِلٍ أَوْ كَلَامَ غَضُوبٍ وَالثَّانِيَةُ هَيْئَةُ تَدَلُّ
 عَلَى اعْتِقَادٍ فَإِنَّهُ أَيْسَ هَيْئَةُ مَنْ يَتَكَلَّمُ وَهُوَ مُتَحَقِّقٌ بِالشَّيْءِ هَيْئَةُ
 مَنْ يَتَكَلَّمُ فِيهِ وَهُوَ شَاكٍ . فَالْقَاصُ وَالْحَدِيثُ فِي الْمَدِيحِ يَنْبَغِي أَنْ
 تَكُونَ هَيْئَةُ قَوْلِهِ وَشَكْلُهُ هَيْئَةُ مُحَقِّقٍ لَا شَاكٍ وَهَيْئَةُ جَادٍ لَا هَازِلٍ
 وَالْقَصَصُ وَالْحَدِيثُ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُعْتَبَرَ عَنْهُ الْقَاصُ وَالْحَدِيثُ وَهُوَ
 بِهَا تَيْنِ أَحَالَتَيْنِ هُوَ الْخَرَاةُ الَّتِي تَكُونُ بِالتَّشْبِيهِ وَالْحَاكَاةُ وَأَعْنِي
 بِالْخَرَاةِ تَرْكِيبَ الْأُمُورِ الَّتِي تُقْصَدُ مُحَاكَاتُهَا إِمَّا بِحَسَبِ مَا هِيَ
 عَلَيْهِ فِي أَنْفُسِهَا أَعْنِي فِي الْوُجُودِ وَإِمَّا بِحَسَبِ مَا أُعْتِيدَ فِي الشِّعْرِ

مِنْ ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ كَذِبًا. وَلِهَذَا قِيلَ لِلْأَقَاوِيلِ الشَّرْعِيَّةِ خَرَافَاتٌ
 فَأَلْقَصَاصُ وَأَتُحَدِّثُونَ بِأُجَلَّةٍ هُمْ الَّذِينَ لَهُمْ قُدْرَةٌ عَلَى مُحَاكَاةِ
 الْعَادَاتِ وَالْإِعْتِقَادَاتِ (قَالَ) وَقَدْ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ أَجْزَاءُ صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ
 سِتَّةً : الْأَقَاوِيلُ الْخَرَافِيَّةُ وَالْعَادَاتُ وَالْوِزْنُ وَالْإِعْتِقَادَاتُ وَالنَّظَرُ
 وَاللَّحْنُ. وَالذَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ كُلَّ قَوْلٍ شِعْرِي قَدْ يَنْقَسِمُ إِلَى مُشَبَّهِ
 وَمُشَبَّهِ بِهِ وَالَّذِي بِهِ يُشَبَّهُ ثَلَاثَةٌ أَلْحَاكَاةُ وَالْوِزْنُ وَاللَّحْنُ وَالَّذِي
 يُشَبَّهُ فِي الْمَدْحِ ثَلَاثَةٌ أَيْضًا: الْعَادَاتُ وَالْإِعْتِقَادَاتُ وَالنَّظَرُ أَعْنِي
 الْأَسْتِدْلَالَ لِصَوَابِ الْإِعْتِقَادِ فَتَكُونُ أَجْزَاءُ صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ
 ضَرْوَةً سِتَّةً. وَإِنَّمَا كَانَتْ الْعَادَاتُ وَالْإِعْتِقَادَاتُ أَعْظَمَ أَجْزَاءِ
 الْمَدِيحِ لِأَنَّ صِنَاعَةَ الْمَدِيحِ لَيْسَتْ هِيَ صِنَاعَةُ خَاكِي النَّاسِ أَنْفُسَهُمْ
 مِنْ جِهَةٍ مَا هُمْ أَشْخَاصُ نَاسٍ مُحْسُوسُونَ بَلْ إِنَّمَا مُحَاكِمُهُمْ مِنْ
 قَبْلِ عَادَاتِهِمْ أَجْمَلَةٍ وَأَفْعَالِهِمْ أَحْسَنَةٍ وَإِعْتِقَادَاتِهِمْ السَّعِيدَةِ تَشْمَلُ
 الْأَفْعَالَ وَالْخُلُقَ وَلِذَلِكَ جُعِلَتِ الْعَادَةُ أَحَدَ أَجْزَاءِ السِتَّةِ وَأَسْتَفْنِي
 بِذِكْرِهَا فِي التَّقْسِيمِ عَنْ ذِكْرِ الْأَفْعَالِ وَالْخُلُقِ. وَأَمَّا النَّظَرُ فَهُوَ إِبَانَةُ
 صَوَابِ الْإِعْتِقَادِ وَكَأَنَّهُ كَانَ عِنْدَهُمْ ضَرْبًا مِنَ الْإِخْتِجَاجِ لِصَوَابِ
 الْإِعْتِقَادِ الْمَمْدُوحِ بِهِ. وَهَذَا كُلُّهُ لَيْسَ يُوجَدُ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَإِنَّمَا
 يُوجَدُ فِي الْأَقَاوِيلِ الشَّرْعِيَّةِ الْمَدِيحِيَّةِ وَكَانُوا يُحَاكُونَ هَذِهِ الثَّلَاثَةَ
 الْأَشْيَاءَ أَعْنِي الْعَادَاتِ وَالْإِعْتِقَادَاتِ وَالْأَسْتِدْلَالَ بِالثَّلَاثَةِ الْأَصْنَافِ
 مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي بِهَا يُحَاسَى أَعْنِي الْقَوْلَ الْخَيْلَ وَالْوِزْنَ وَاللَّحْنَ (قَالَ)
 وَأَجْزَاءُ الْقَوْلِ الْخَرَافِي مِنْ جِهَةٍ تَأْهُوَ مُحَاكَاةُ جُزْءٍ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ

كُلُّ مُحَاكَاةٍ فَإِمَّا أَنْ تُوَضَّيَ مُحَاكَاةٌ بِمُحَاكَاةٍ ضِدِّهِ ثُمَّ يُنْتَقَلُ مِنْهُ إِلَى
 مُحَاكَاةٍ وَهُوَ الَّذِي كَانَ يُعْرَفُ عِنْدَهُمْ بِالْإِدَارَةِ وَإِمَّا أَنْ يُحَاسِبِيَ
 الشَّيْءُ نَفْسَهُ دُونَ أَنْ يَغْرِضَ مُحَاكَاةً ضِدِّهِ وَهُوَ الَّذِي كَانَ
 يُسَمَّوْنَهُ بِالْإِسْتِذْلَالِ. وَالَّذِي يَنْتَزِلُ مِنْ هَذِهِ الْأَجْزَاءِ مَثَرَاتُهُ
 الْمُبْدِئُ وَالْأَسَرُّ هُوَ الْقَوْلُ الْخُرَافِيُّ الْمُحَاسِبِيُّ. وَالْجُزْءُ الثَّانِي الْعَادَاتُ
 وَهُوَ الَّذِي تَسْتَعْمَلُ أَوَّلًا فِيهِ الْمُحَاسَكَةُ أَعْنِي أَنَّهُ الَّذِي يُحَاسِبِي
 وَأَنَّمَا كَانَتْ الْحِكَايَةُ هِيَ الْأَعْمُودُ وَالْأَسَرُّ فِي هَذِهِ الصِّنَاعَةِ لِأَنَّ
 الْإِلْتِذَاذَ أَيْسَرَ يَكُونُ بِذِكْرِ الشَّيْءِ الْمَقْصُودِ ذِكْرُهُ دُونَ أَنْ يُحَاكِيَ
 بَلْ إِنَّمَا يَكُونُ الْإِلْتِذَاذُ بِهِ وَالْقَبُولُ لَهُ إِذَا حُوسِبِيَ. وَلِذَلِكَ
 لَا يَلْتَذُّ الْإِنْسَانُ بِالنَّظَرِ إِلَى صُورِ الْأَشْيَاءِ الْمَوْجُودَةِ أَنْفُسَهَا وَيَلْتَذُّ
 بِمُحَاسَكَاتِهَا وَتَصَوُّرِهَا بِالْأَضْبَاحِ وَالْأَلْوَانِ وَلِذَلِكَ اسْتَعْمَلَ النَّاسُ
 صِنَاعَةَ الزَّوْاقَةِ وَالتَّصْوِيرِ. وَالْجُزْءُ الثَّالِثُ لِصِنَاعَةِ الْمَدِيحِ أَعْنِي الثَّلَاثِي
 لِلثَّانِي هُوَ الْإِعْتِقَادُ وَهَذَا هُوَ الْقُدْرَةُ عَلَى مُحَاسَكَةِ مَا هُوَ مَوْجُودٌ
 كَذَا أَوْ أَيْسَرَ بِمَوْجُودٍ كَذَا. وَذَلِكَ مِثْلُ مَا تَتَكَلَّفُهُ الْخُطَابَةُ مِنْ
 تَبْيِينِ أَنَّ شَيْئًا مَوْجُودٌ أَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ إِلَّا أَنَّ الْخُطَابَةَ تَتَكَلَّفُ
 ذَلِكَ بِقَوْلٍ مُقْنِعٍ وَالشَّعْرُ بِقَوْلٍ مُحَالٍ وَهَذِهِ الْمُحَاسَكَةُ هِيَ أَيْضًا
 مَوْجُودَةٌ فِي الْأَقَاوِيلِ الشَّعْرِيَّةِ. (قَالَ) وَقَدْ كَانَ الْأَقْدَمُونَ مِنْ
 وَاضِعِي السِّيَاسَاتِ يَفْتَحِرُونَ عَلَى تَمَكِينِ الْإِعْتِقَادَاتِ فِي النُّفُوسِ
 بِالْأَقَاوِيلِ الشَّعْرِيَّةِ حَتَّى شَعَرَ الْمُتَأَخِّرُونَ بِالطَّرِيقِ الْخَطِيبِيِّ وَالْفَرْقِ
 بَيْنَ الْقَوْلِ الشَّعْرِيِّ الَّذِي يُحْتَضَرُ عَلَى الْإِعْتِقَادِ وَالَّذِي يُحْتَضَرُ عَلَى الْعَادَةِ.

إِنَّ الَّذِي يُحِثُّ عَلَى الْعَادَةِ يُحِثُّ عَلَى عَمَلِ شَيْءٍ أَوْ عَلَى الْهَرَبِ مِنْ
 شَيْءٍ وَالْقَوْلَ الَّذِي يُحِثُّ عَلَى الْإِعْتِقَادِ إِنَّمَا يُحِثُّ عَلَى أَنْ شَيْئًا
 مَوْجُودٌ أَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ لَا عَلَى شَيْءٍ يُطْلَبُ أَوْ يُهْرَبُ عَنْهُ. وَالْجُزْءُ
 الرَّابِعُ لَهُذِهِ الْأَجْزَاءُ أَغْنِي التَّالِي لِلثَّلَاثِ هُوَ الْوِزْنُ وَهُوَ تَمَامُهُ أَنْ
 يَكُونَ مُنَاسِبًا لِلْغَرَضِ قُرْبٌ وَزَنْ يَنَاسِبُ غَرَضًا وَلَا يَنَاسِبُ غَرَضًا
 آخَرَ. وَالْجُزْءُ الْخَامِسُ فِي الْمُرْتَبَةِ هُوَ الْخَنْ وَهُوَ أَكْثَرُ هَذِهِ الْأَجْزَاءِ
 تَأْثِيرًا وَأَفْعَالًا فِي النُّفُوسِ. وَالْجُزْءُ السَّادِسُ هُوَ النَّظَرُ أَغْنِي الْإِخْتِجَاجَ
 لِصَوَابِ الْإِعْتِقَادِ أَوْ صَوَابِ الْعَمَلِ لَا يَقُولُ إِقْنَاعِي فَإِنَّ ذَلِكَ
 غَيْرُ مُلَانِمٍ. لَهُذِهِ الصَّنَاعَةُ بَلْ يَقُولُ مُحَالٌ فَإِنَّ صِنَاعَةَ الشَّعْرِ لَيْسَتْ
 مَبْنِيَّةً عَلَى الْإِخْتِجَاجِ وَالْمُتَاظَرَةِ وَبِخَاصَّةٍ صِنَاعَةُ الْمَدِيحِ وَلِذَلِكَ لَيْسَ
 يَسْتَعِيلُ الْمَدِيحُ صِنَاعَةَ التَّفَاقُ وَالْأَخْذِ بِالْوُجُوهِ — مِمَّا تَسْتَعِيلُهَا
 الْخَطَابَةُ. (قَالَ) وَالصَّنَاعَةُ الْعِلْمِيَّةُ الَّتِي تُعَرِّفُ بِمَاذَا تُعْمَلُ
 الْأَشْعَارُ وَكَيْفَ تُعْمَلُ أَمْ رِثَاسَةٌ مِنْ عَمَلِ الْأَشْعَارِ فَإِنَّ كُلَّ صِنَاعَةٍ
 تُوقَفُ مَا تَحْتَمُّهَا مِنَ الصَّنَائِعِ عَلَى عَمَلِهَا هِيَ أَرَأَيْتُمْ مَا تَحْتَمُّهَا



المبحث الخامس

في صناعة المديح واجزاؤها

(من الكتاب نفسه)

فَإِذْ قَدْ قِيلَ مَا هِيَ صِنَاعَةُ الْمَدِيحِ وَمِمَّاذَا تَلْتَمِمْ وَكَمْ أَجْزَاؤُهَا
وَمَا هِيَ فَلْنَقُلْ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي بِهَا يَكُونُ حُسْنُ الْأُمُورِ الَّتِي
يَتَقَوَّمُ بِهَا الشَّعْرُ . فَإِنْ أَقُولَ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ ضَرْوِيٌّ فِي صِنَاعَةِ
الْمَدِيحِ وَفِي غَيْرِهَا وَهُوَ لَهَا بِمِثْرَةِ الْمَبْدَأِ وَذَلِكَ أَنَّ الْأُمُورَ الَّتِي
تَتَقَوَّمُ بِهَا الصَّنَائِعُ صِنْفَانِ أُمُورٌ ضَرْوِيَّةٌ وَأُمُورٌ تَكُونُ بِهَا
أَنْتَمٌ وَأَفْضَلُ فَنَقُولُ إِنَّهُ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ صِنَاعَةُ الْمَدِيحِ مُسْتَوْفِيَةً
إِلَافَاتٍ فَعَلِهَا أَعْنِي أَنْ تَبْلُغَ مِنَ التَّشْبِيهِ وَالْمُخَاصَّةِ الْعَايَةَ الَّتِي فِي
طَبَائِعِهَا أَنْ تَبْلُغَهَا وَذَلِكَ يَكُونُ بِأَشْيَاءٍ أَحَدُهَا أَنْ يَكُونَ لِلْقَصِيدَةِ
عِظَمٌ مَا مَحْدُودٌ تَكُونُ بِهِ كَمَلًا وَكَمَامَةً وَالْأَكْلُ وَالْكَامِلُ هُوَ مَا
كَانَ لَهُ مَبْدَأٌ وَوَسْطٌ وَآخِرٌ وَالْمَبْدَأُ قَبْلُ وَلَيْسَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ
مَعَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي هِيَ لَهَا مَبْدَأٌ وَالْآخِرُ هُوَ مَعَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي هِيَ لَهَا
آخِرٌ وَلَيْسَ قَبْلُ وَالْوَسْطُ هُوَ قَبْلُ وَمَا فَهُوَ أَفْضَلُ مِنَ الطَّرَفَيْنِ
إِذَا كَانَ الْوَسْطُ فِي الْمَسْكَانِ قَبْلُ وَبَعْدُ فَإِنَّ الشَّجَعَانَ هُمُ الَّذِينَ
مَكَانُهُمْ فِي الْحَرْبِ مَا بَيْنَ الْمَكَانِ الْمُبْنَاءِ وَالْمُتَهَوِّرِينَ وَهُوَ الْمَسْكَانُ
الْوَسْطُ وَكَذَلِكَ أَخَذَ الْفَاضِلُ فِي التَّرَكِيبِ هُوَ الْوَسْطُ وَهُوَ الَّذِي
يَتَرَكَّبُ مِنَ الْأَطْرَافِ وَلَا تَتَرَكَّبُ الْأَطْرَافُ مِنْهُ وَلَيْسَ يَجِبُ أَنْ

يَكُونُ الْمُتَوَسِّطُ وَسَطًا أَيْ خِيَارًا فِي التَّرْكِيبِ وَالتَّرْتِيبِ فَقَطُّ بَلْ
وَفِي الْقَدَارِ وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَقَدْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لِلْقَصِيدَةِ
أَوَّلٌ وَوَسَطٌ وَآخِرٌ وَأَنْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَجْزَاءِ
وَسَطًا فِي الْقَدَارِ وَكَذَلِكَ يَجِبُ فِي الْجُمْلَةِ الْمُرَكَّبَةِ مِنْهَا أَنْ تَكُونَ
بِقَدَرٍ مَحْدُودٍ لَا أَنْ تَكُونَ بِأَيِّ عِظَمٍ اتَّفَقَ وَذَلِكَ أَنَّ الْجُودَةَ فِي
الْمُرَكَّبِ تَكُونُ مِنْ قِلِّ شَيْئَيْنِ أَحَدُهُمَا التَّرْتِيبُ وَالثَّانِي الْقَدَارُ
وَلِهَذَا لَا يُقَالُ فِي الْحَيَوَانَ الصَّغِيرِ الْجُمْلَةُ بِالْإِضَافَةِ إِلَى اشْتِخَاصِ
نَوْعِهِ إِنَّهُ جَيِّدٌ. وَأَحَالٌ فِي الْخَاطِبَةِ الشَّعْرِيَّةِ فِي ذَلِكَ كَأَحَالٍ فِي
التَّعْلِيمِ الْهَائِلَةِ أَعْنِي أَنَّ التَّعْلِيمَ إِنْ كَانَ قَصِيرَ الْمُدَّةِ لَمْ يَكُنْ
الْفَهْمُ جَيِّدًا وَلَا إِنْ كَانَ أَطْوَلَ يَمَّا يَنْبَغِي لِأَنَّهُ يَحْتَاجُ الْمُتَعَلِّمَ فِي
ذَلِكَ التَّنْسِيَانَ وَالْحَالَ فِي ذَلِكَ كَأَحَالٍ فِي النَّظَرِ إِلَى الْخَفُوسِ
أَعْنِي أَنَّ النَّظَرَ إِلَى الْخَفُوسِ إِنَّمَا يَكُونُ جَيِّدًا إِذَا كَانَ بَيْنَ
الْمَاضِي وَبَيْنَهُ بُعْدٌ مُتَوَسِّطٌ لَا إِذَا كَانَ تَعِيدًا مِنْهُ جَدًّا وَلَا إِذَا
كَانَ قَرِيبًا مِنْهُ جَدًّا. وَالَّذِي يَغْرَضُ فِي التَّعْلِيمِ بِمَعْنَاهِ يَغْرَضُ فِي
الْأَقَاوِيلِ الشَّعْرِيَّةِ أَعْنِي أَنَّهُ إِذَا كَانَتْ الْقَصِيدَةُ قَصِيرَةً لَمْ تَسْتَوْفِ
أَجْزَاءَ الْمَدِيحِ وَإِنْ كَانَتْ طَوِيلَةً لَمْ يُسَكَّنْ أَنْ تُحْفَظَ فِي ذِكْرِ
السَّامِعِينَ أَجْزَاؤُهَا فَيَغْرَضُ لَهُمْ إِذَا سَجَعُوا الْأَجْزَاءَ الْآخِرَةَ أَنْ
يَكُونُوا قَدْ نَسُوا الْأَوَّلَى وَأَمَّا الْأَقَاوِيلُ الْخَطِيئَةُ الَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِي
الْمُنَاطَرَةِ فَلَيْسَ لَهَا قَدَرٌ مَحْدُودٌ بِالطَّبَعِ وَذَلِكَ أَسْتَحَاجُ النَّاسِ أَنْ
يُقَدِّرُوا زَمَانَ الْمُنَاطَرَةِ بَيْنَ الْخُصُومِ إِمَّا بِأَتَةِ الْمَاءِ عَلَى مَا جَرَتْ بِهِ

الْعَادَةُ عِنْدَ الْيُونَانِيِّينَ إِذَا كَانُوا إِنَّمَا يَعْتَمِدُونَ الضَّمَائِرَ فَقَطْ وَإِمَّا
 بِتَأْجِيلِ الْأَيَّامِ كَالْحَالِ عِنْدَنَا إِذَا كَانَ الْمُعْتَمِدُ فِي الْخُصُومَاتِ عِنْدَنَا
 إِنَّمَا هِيَ الْأَشْيَاءُ الْمُفْتَعَةُ الَّتِي مِنْ خَارِجٍ. وَلِذَلِكَ لَوْ كَانَتْ صِنَاعَةُ
 الْمَدِيحِ بِالْمُنَاطَرَةِ لَكَانَ يُحْتَاجُ فِيهَا إِلَى تَشْدِيدِ زَمَانِ الْمُنَاطَرَةِ
 بِسَاعَاتِ الْمَاءِ أَوْ غَيْرِهَا. لَكِنْ لَمَّا لَمْ يَكُنِ الْأَمْرُ كَذَلِكَ وَجَبَ أَنْ
 يَكُونَ لِصِنَاعَةِ الشِّعْرِ حَدٌّ طَبِيعِيٌّ كَالْحَالِ فِي الْأَقْدَارِ الطَّبِيعِيَّةِ
 لِلْأُمُورِ الْمَوْجُودَةِ وَذَلِكَ أَنَّهُ كَمَا أَنَّ جَمِيعَ الْمُسْكِرَاتِ إِذَا لَمْ يَعْقُهَا
 فِي حَالِ الْكَوْنِ سَوَاءٌ أَلْبَحَّتْ صَارَتْ إِلَى عِظَمٍ مَحْدُودٍ بِالطَّبْعِ.
 كَذَلِكَ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ أَحَالُ فِي الْأَقَاوِيلِ الشِّعْرِيَّةِ وَبِمَخَاصِئِهَا
 صِنْفِي. أَلْحَاكَاءَ أَغْنِي الَّتِي يُنْتَقَلُ فِيهَا مِنَ الضِدِّ إِلَى الضِدِّ أَوْ
 يُحَاكِي فِيهَا الشَّيْءُ نَفْسُهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْتَقَلَ إِلَى ضِدِّهِ (قَالَ) وَنَمَّا
 يُحَسِّنُ بِهِ قَوَامُ الشِّعْرِ أَلَّا يُطَوَّلَ فِيهِ بِذِكْرِ الْأَشْيَاءِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي
 تَعْرِضُ لِلشَّيْءِ الْوَاحِدِ الْقَصُودُ بِالشِّعْرِ فَإِنَّ الشَّيْءَ الْوَاحِدَ تَعْرِضُ
 لَهُ أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ وَكَذَلِكَ يُوجَدُ لِلشَّيْءِ الْوَاحِدِ أَلْمُشَارِ إِلَيْهِ أَفْعَالٌ
 كَثِيرَةٌ (قَالَ) وَيُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ جَمِيعُ الشُّعْرَاءِ لَا يَتَحَفَّظُونَ بِهَذَا بَلْ
 يَنْتَقِلُونَ مِنْ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ وَلَا يَلْزَمُونَ غَرَضًا وَاحِدًا بِعَيْنِهِ مَا
 عَدَا أَوْمِيرُوشَ. وَأَنْتَ تَحْدُ هَذَا كَثِيرًا مَا يَعْرِضُ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ
 وَالْمُحَدِّثِينَ وَبِمَخَاصِئِهَا عِنْدَ الْمَدَحِ. أَغْنِي أَنَّهُ إِذَا عَنَّ لَهُمْ شَيْءٌ مَا مِنْ
 أَسْبَابِ الْمَدْحِ مِثْلُ سَيْفٍ أَوْ قَوْسٍ اشْتَغَلُوا بِمُجَاسَّاتِهِ وَأَضْرَبُوا
 عَنْ ذِكْرِ الْمَدْحِ وَبِالْجُمْلَةِ فَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ الصِّنَاعَةُ تَنْشَبُهِ بِالطَّبِيعَةِ

أَعْنِي أَنْ تَكُونَ إِنَّمَا تَفْعَلُ جَمِيعَ مَا تَفْعَلُهُ مِنْ أَجْلِ غَرَضٍ وَاحِدٍ وَغَايَةٍ
 وَاحِدَةٍ. وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَوَاجِبٌ أَنْ يَكُونَ التَّشْبِيهُ وَالْخَاكَاةُ
 لِوَاحِدٍ وَمَقْصُودًا بِهِ غَرَضٌ وَاحِدٌ وَأَنْ يَكُونَ لِأَجْزَائِهِ عِظَمٌ مُخَدُّودٌ
 وَأَنْ يَكُونَ فِيهَا مَبْدَأٌ وَوَسْطٌ وَآخِرٌ وَأَنْ يَكُونَ الْوَسْطُ أَفْضَلَهَا
 فَإِنَّ الْمَوْجُودَاتِ الَّتِي وَجُودُهَا فِي التَّرْتِيبِ وَحُسْنِ النِّظَامِ إِذَا عَدِمَتْ
 تَرْتِيبَهَا لَمْ يُوَجَدْ لَهَا الْفِعْلُ الْخَاصُّ بِهَا. (قَالَ) وَظَاهِرٌ أَيْضًا مِمَّا قِيلَ مِنْ
 مَقْصِدِ الْأَقَاوِيلِ الشُّعْرِيَّةِ أَنَّ الْخَاكَاةَ الَّتِي تَكُونُ بِالْأُمُورِ الْمُخْتَرَعَةِ
 الْكَاذِبَةُ لَيْسَتْ مِنْ فِعْلِ الشَّاعِرِ وَهِيَ الَّتِي تُسَمَّى أَمَثَالًا وَقِصَصًا مِثْلُ مَا
 فِي كِتَابِ دَمَنَةِ وَكَلِيَّةٍ. لَكِنَّ الشَّاعِرَ إِنَّمَا يَتَكَلَّمُ فِي الْأُمُورِ الْمَوْجُودَةِ أَوْ
 الْمُسَكَّنَةِ الْوُجُودَ لِأَنَّ هَذِهِ هِيَ الَّتِي يُقْصَدُ الْهَرَبُ عَنْهَا أَوْ طَلِبُهَا أَوْ
 مُطَابَقَةُ التَّشْبِيهِ لَهَا عَلَى مَا قِيلَ فِي فُصُولِ الْخَاكَاةِ. وَأَمَّا الَّذِينَ يَعْمَلُونَ
 الْأَمَثَالَ وَالْقِصَصَ فَإِنَّ عَمَلَهُمْ غَيْرُ عَمَلِ الشُّعْرَاءِ وَإِنْ كَانُوا قَدْ يَعْمَلُونَ
 تِلْكَ الْأَمَثَالَ وَالْأَحَادِيثَ الْمُخْتَرَعَةَ بِكَلَامٍ مَوْزُونٍ. وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّيْهَمَا
 وَإِنْ كَانَ يَشْتَرِكَانِ فِي الْوَزْنِ فَاحَدُهُمَا يَتِمُّ لَهُ الْعَمَلُ الَّذِي قَصَدَهُ
 بِالْخُرَافَةِ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مَوْزُونَةً وَهُوَ التَّعْقِلُ الَّذِي يُسْتَفَادُ مِنَ الْأَحَادِيثِ
 الْمُخْتَرَعَةِ وَالشَّاعِرُ لَا يَحْصُلُ لَهُ مَقْصُودُهُ عَلَى الشَّامِ مِنَ التَّخْيِيلِ إِلَّا
 بِالْوَزْنِ فَالْفَاعِلُ لِلْأَمَثَالِ الْمُخْتَرَعَةِ وَالْقِصَصِ إِنَّمَا يَخْتَرَعُ أَشْخَاصًا لَيْسَ
 لَهَا وَجُودٌ أَصْلًا وَيَضَعُ لَهَا أَسْمَاءً وَأَمَّا الشَّاعِرُ فَإِنَّمَا يَضَعُ أَسْمَاءً لِأَشْيَاءَ
 مَوْجُودَةٍ دَرَبًا تَكَلَّمُوا فِي الْكَلِمَاتِ وَلِذَلِكَ كَانَتْ صِنَاعَةُ
 الشُّعْرِ أَقْرَبَ إِلَى الْفَلَسَفَةِ مِنْ صِنَاعَةِ اخْتِرَاعِ الْأَمَثَالِ وَهَذَا الَّذِي

قَالَ هُوَ بِحَسَبِ عَادَتِهِمْ فِي الشِّعْرِ الَّذِي يُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْأَمْرَ
الطَّبِيعِيَّ لِلْأُمِّ الطَّبِيعِيَّةِ (قَالَ) وَأَكْثَرُ مَا يَجِبُ أَنْ يُعْتَمَدَ فِي صِنَاعَةِ
الْمَدِيحِ أَنْ تَكُونَ الْأَشْيَاءُ الْحَاكِيَاتُ أُمُورًا مَوْجُودَةً لَا أُمُورًا لَهَا
أَنَّمَا مُخْتَرَعَةٌ فَإِنَّ الْمَدِيحَ إِنَّمَا يَتَوَجَّهُ نَحْوَ التَّحْرِيكِ إِلَى الْأَفْعَالِ
الْإِرَادِيَّةِ فَإِذَا كَانَتْ الْأَفْعَالُ مُسَكِّنَةً كَانَ الْإِقْنَاعُ فِيهَا أَكْثَرَ
وَقُوَّةً أَعْنِي التَّصَدِيقَ الشِّعْرِيَّ الَّذِي يُحَرِّكُ النَّفْسَ إِلَى الطَّلَبِ
وَالْهَرَبِ. وَأَمَّا الْأَشْيَاءُ الْغَيْرُ الْمَوْجُودَةُ فَلَيْسَ تُوَضَّعُ وَتُخْتَرَعُ لَهَا أَنَّمَا
فِي صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ إِلَّا أَقَلُّ ذَلِكَ مِثْلُ وَضْعِهِمُ الْجُودَ شَخْصًا ثُمَّ
يَضَعُونَ أَفْعَالًا لَهُ وَيُحَاكُونَهَا وَيُطْبِقُونَ فِي مَدْحِهِ. وَهَذَا النَّحْوُ مِنَ
التَّخْيِيلِ وَإِنْ كَانَ قَدْ يُنْتَفَعُ بِهِ مَنَفْعَةٌ غَيْرُ يَسِيرَةٍ لِلْمُنَاسَبَةِ أَفْعَالِ
ذَلِكَ الشَّيْءِ أَلْتُخْتَرَعُ وَأَنْفِعَالَاتِهِ لِلْأُمُورِ الْمَوْجُودَةِ فَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ
يُعْتَمَدَ فِي صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ فَإِنَّ هَذَا النَّحْوَ مِنَ التَّخْيِيلِ لَيْسَ بِمَا يُوَافِقُ
جَمِيعَ الطَّبَاعِ بَلْ قَدْ يَضْحَكُ مِنْهُ وَيُزْدَرِيهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ. وَمِنْ
جَيْدِ مَا فِي هَذَا الْبَابِ لِلْعَرَبِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَلَى طَرِيقِ الْحَثِّ عَلَى
الْأَفْضَلِ قَوْلُ الْأَعَشَى :

لَعَمْرِي لَقَدْ لَاحَتْ عَيْنٌ نَوَاطِرُ	إِلَى ضَوْءِ نَارٍ بِأَلْفَاعٍ تُحْرِقُ
تُشَبُّ لِقُرُورَيْنِ يَطْلِبَانِيهَا	وَبَاتَ عَلَى النَّارِ أَلَدَى وَأُلْخَلِقُ
رَضِيعِي لِبَانٍ ثَدْيٍ أُمِّ تَحَاكِلَا	بِأَسْحَمِ دَاجٍ عَوْضُ لَا نَتَفَرَّقُ

وَإِذَا كَانَ هَذَا هَكَذَا فَظَاهِرٌ أَنَّ الشَّاعِرَ إِنَّمَا يَكُونُ شَاعِرًا
بِعَمَلِ الْخُرَافَاتِ وَالْأَوْزَانِ بِقَدْرِ مَا يَكُونُ قَادِرًا عَلَى عَمَلِ التَّشْبِيهِ

وَالْمُحَاكَاةَ وَهُوَ إِنَّمَا يَفْعَلُ التَّشْبِيهَ لِلْأُمُورِ الْإِرَادِيَّةِ الْمَوْجُودَةِ
وَأَيْسَ مِنْ شَرْطِهِ أَنْ يُحَاكِيَ الْأُمُورَ الَّتِي هِيَ مَوْجُودَةٌ فَقَطُّ بَلْ
وَقَدْ يُحَاكِي الْأُمُورَ الَّتِي يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا مُمَكِّنَةُ الْوُحُودِ وَهُوَ فِي
ذَلِكَ شَاعِرٌ لَيْسَ بِدُونِ مَا هُوَ فِي مُحَاكَاةِ الْأُمُورِ الْمَوْجُودَةِ مِنْ قَبْلِ
أَنَّهُ لَيْسَ مَانِعٌ يَمْنَعُ أَنْ تُوجَدَ تِلْكَ الْأَشْيَاءُ عَلَى مِثْلِ حَالِ الْأَشْيَاءِ
الَّتِي هِيَ الْآنَ مَوْجُودَةٌ فَلَيْسَ يَحْتَاجُ فِي التَّخْيِيلِ الشِّعْرِيِّ إِلَى مِثْلِ
هَذِهِ الْخُرَافَاتِ الْخَبَرَةِ وَلَا أَيْضًا يَحْتَاجُ الشَّاعِرُ الْمُفَاقُ أَنْ تَمَّ
مُحَاكَاتُهُ بِالْأُمُورِ الَّتِي مِنْ خَارِجٍ وَهُوَ الَّذِي يُدْعَى نِفَاقًا وَآخِذًا
بِالْوُجُودِ فَإِنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَسْتَعْبِلُهُ الْمَوْتُونَ مِنَ الشُّعْرَاءِ أَغْنَى
الَّذِينَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ شُعْرَاءُ وَلَيْسُوا شُعْرَاءَ . وَأَمَّا الشُّعْرَاءُ بِالْحَقِيقَةِ فَلَيْسَ
يَسْتَعْبِلُونَهُ إِلَّا عِنْدَ مَا يُرِيدُونَ أَنْ يُقَابِلُوا بِهِ أَسْتِعْمَالَ شُعْرَاءِ
الزُّورِ لَهُ وَأَمَّا إِذَا قَابَلُوا الشُّعْرَاءَ الْمُجِيدِينَ فَلَيْسَ يَسْتَعْبِلُونَهُ أَصْلًا . وَقَدْ
يُضْطَرُّ الْمُفَلِّقُونَ فِي مَوَاضِعَ أَنْ يَسْتَعْمِلُوا بِأَسْتِعْمَالِ الْأَشْيَاءِ الْخَارِجَةِ عَنْ
عُمُودِ الشِّعْرِ مِنْ قَبْلِ أَنْ الْمُحَاكَاةَ لَيْسَ تَكُونُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ
لِلْأَشْيَاءِ الْكَامِلَةِ الَّتِي يُمَكِّنُ مُحَاكَاتَهَا عَلَى السَّمَاءِ بَلْ لِلْأَشْيَاءِ نَاقِصَةٌ
تَعْسُرُ مُحَاكَاتَهَا بِالْقَوْلِ فَيَسْتَعَانُ عَلَى مُحَاكَاتِهَا بِالْأَشْيَاءِ الَّتِي مِنْ خَارِجٍ .
وَبِجَاهَةِ إِذَا قَصَدُوا مُحَاكَاةَ الْإِعْتِقَادَاتِ لِأَنَّ تَخْيِيلَهَا يَعْسُرُ إِنْ كَانَتْ
لَيْسَتْ أَفْعَالًا وَلَا جَوَاهِرَ وَقَدْ تَمَّجُ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ الَّتِي مِنْ خَارِجٍ
بِالْمُحَاكِمَاتِ الشِّعْرِيَّةِ أَخْيَانًا كَمَا أَنَّهَا بِاتِّفَاقٍ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ فَيَكُونُ لَهَا
فِعْلٌ مُغْرِبٌ إِذَا كَانَتْ الْأَشْيَاءُ الَّتِي شَأْنُهَا أَنْ تَقَعَ بِاتِّفَاقٍ مُغْجِبَةٍ

(قَالَ) وَكَثِيرٌ مِنَ الْأَقَاوِيلِ الشِّعْرِيَّةِ تَكُونُ جُودَتِهَا فِي الْحَاكَاةِ
الْبَسِيطَةِ الْغَيْرِ الْمُتَنَفِّسَةِ وَكَثِيرٌ مِنْهَا إِذَا تَكُونُ جُودَتِهَا فِي نَفْسِ
التَّشْبِيهِ وَالْحَاكَاةِ وَذَلِكَ أَنَّ الْحَالَ فِي التَّشْبِيهِ كَالْحَالِ فِي الْأَعْمَالِ
فَكَمَا أَنَّ مِنَ الْأَعْمَالِ مَا يُبَالُ بِفِعْلٍ وَاحِدٍ بَسِيطٍ وَمِنْهَا مَا يُبَالُ
بِفِعْلٍ مُرَكَّبٍ كَذَلِكَ الْأَنْزُرُ فِي الْحَاكَاةِ. وَالْحَاكَاةُ الْبَسِيطَةُ هِيَ
الَّتِي يُسْتَعْمَلُ فِيهَا أَحَدُ نَوْعِي التَّخْيِيلِ أَعْنِي النَّوعَ الَّذِي يُسَمَّى
الْإِدَارَةَ أَوْ النَّوعَ الَّذِي يُسَمَّى الْأَسْتِدْلَالَ. وَأَمَّا الْحَاكَاةُ
الْمُرَكَّبَةُ فَهِيَ الَّتِي يُسْتَعْمَلُ فِيهَا الصَّنْفَانِ جَمِيعًا وَذَلِكَ إِمَّا بِأَنْ
يُبْتَدَأَ بِالْإِدَارَةِ ثُمَّ يُنْقَلُ مِنْهُ إِلَى الْأَسْتِدْلَالِ أَوْ يُبْتَدَأَ
بِالْأَسْتِدْلَالِ ثُمَّ يُنْقَلُ مِنْهُ إِلَى الْإِدَارَةِ وَالْإِعْتِمَادُ هُوَ أَنْ يُبْتَدَأَ
بِالْإِدَارَةِ ثُمَّ يُنْقَلُ مِنْهُ إِلَى الْأَسْتِدْلَالِ فَإِنَّهُ فَرْقٌ كَبِيرٌ بَيْنَ أَنْ
يُبْتَدَأَ أَوَّلًا بِالْإِدَارَةِ ثُمَّ يُنْقَلُ إِلَى الْأَسْتِدْلَالِ أَوْ يُبْتَدَأَ بِالْأَسْتِدْلَالِ
ثُمَّ يُنْقَلُ إِلَى الْإِدَارَةِ. (قَالَ) وَأَعْنِي بِالْإِدَارَةِ مُحَاكَاةَ ضِدِّ
الْمَقْصُودِ مَذْحَهُ أَوَّلًا بِمَا يُنْفِرُ النَّفْسَ عَنْهُ ثُمَّ يُنْقَلُ مِنْهُ إِلَى
مُحَاكَاةِ الْمَذْذُوحِ نَفْسِهِ مَثَلًا إِنَّهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُحَاكِيَ السَّعَادَةَ
وَأَهْلِهَا أَوَّلًا بِمُحَاكَاةِ الشَّقَاوَةِ وَأَهْلِهَا ثُمَّ أُنْقَلُ إِلَى مُحَاكَاةِ
أَهْلِ السَّعَادَةِ وَذَلِكَ بِضِدِّ مَا حَاكِيَ بِهِ أَهْلَ الشَّقَاوَةِ. وَأَمَّا
الْأَسْتِدْلَالُ فَهُوَ مُحَاكَاةُ الشَّيْءِ فَقَطْ (قَالَ) وَأَحْسَنُ الْأَسْتِدْلَالِ
مَا خُلِطَ بِالْإِدَارَةِ. (قَالَ) وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ الْأَسْتِدْلَالُ وَالْإِدَارَةُ فِي
الْأَشْيَاءِ الْغَيْرِ الْمُتَنَفِّسَةِ وَفِي الْمُتَنَفِّسَةِ لَا مِنْ جِهَةٍ مَا يُقْصَدُ بِهِ عَمَلٌ

أَوْ تَرَكْتُ بَلْ مِنْ جَهَةِ الْخَيْلِ فَقَطُّ أَغْنِي الْمَطَابَقَةُ . وَهَذَا النَّوعُ مِنْ
الْإِسْتِدْلَالِ الَّذِي ذَكَرَهُ هُوَ الْغَالِبُ عَلَى أَشْعَارِ الْعَرَبِ أَغْنِي
الْإِسْتِدْلَالَ وَالْإِدَارَةَ فِي غَيْرِ الْمُتَنَفِّسَةِ وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ:
كَمْ زُورَةٌ لَكَ فِي الْأَعْرَابِ خَافِيَةٌ

أَذْهَى وَقَدْ رَقَدُوا مِنْ زُورَةِ الذَّيْبِ

أَزُورُهُمْ وَسَوَادُ اللَّيْلِ يَشْفَعُ لِي

وَأَذْنِي وَبَيَاضُ الصُّبْحِ يُغْرِي بِي

فَلَنْ أَلْبَيْتَ الْأَوَّلَ هُوَ اسْتِدْلَالٌ . وَالثَّانِي إِدَارَةٌ وَلَمَّا جُمِعَ
هَذَانِ الْبَيْتَانِ صَنَعِيَ الْمَحَاكَاةَ كَمَا فِي غَايَةِ مِنَ الْحُسْنِ (قَالَ)
وَالْإِسْتِدْلَالُ الْإِنْسَانِي وَالْإِدَارَةُ إِنَّمَا يُسْتَعْمَلَانِ فِي الطَّلَبِ
وَالْهَرَبِ وَهَذَا النَّوعُ مِنَ الْإِسْتِدْلَالِ هُوَ الَّذِي يُشِيرُ فِي النَّفْسِ
الرَّحْمَةُ كَارَةٌ وَالْخَوْفُ كَارَةٌ وَهَذَا هُوَ الَّذِي نَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي صِنَاعَةِ
الْمَدِيحِ الْأَفْعَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْجَمِيلَةِ وَهَجْرِ الْقَبِيحَةِ (قَالَ) فَهَذَانِ
أَجْزَاءُ الْبَيْتَيْنِ أَخْبَرْنَا عَنْهُمَا هُمَا جُزْءَا صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ وَهَاهُنَا جُزْءُ
ثَلَاثٍ وَهُوَ أَجْزَاءُ الَّذِي يُؤَلِّدُ الْإِنْفِعَالَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ أَغْنِي أَنْفِعَالَاتِ
الْخَوْفِ وَالرَّحْمَةِ وَالْحُزَنِ وَهُوَ يَكُونُ بِذِكْرِ الْمَصَائِبِ وَالرَّزَايَا
النَّازِلَةِ بِالنَّاسِ فَإِنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ هِيَ الَّتِي تَبْعُثُ الرَّحْمَةَ وَالْخَوْفَ
وَهُوَ جُزْءٌ عَظِيمٌ مِنْ أَجْزَاءِ الْحَثِّ عَلَى الْأَفْعَالِ الَّتِي هِيَ مَقْصُودَةُ
الْمَدِيحِ عِنْدَهُمْ

المبحث السادس

في اجزاء صناعة المديح من جهة الكمية

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) فَأَمَّا أَجْزَاءُ صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ وَنُ بَابِ الْكِفِيَّةِ فَقَدْ تَكَلَّمْنَا فِيهَا . وَأَمَّا أَجْزَاؤُهَا مِنْ جِهَةِ الْكَمِّيَّةِ فَيَنْبَغِي أَنْ نَتَكَلَّمَ فِيهَا وَهُوَ يَذْكُرُ فِي هَذَا الْمَقَامِ أَجْزَاءَ خَاتَمَةِ بِأَشْعَارِهِمْ وَالَّذِي يُوجَدُ مِنْهَا فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ فَهُوَ ثَلَاثَةٌ . الْخِزْمَةُ الَّتِي تَجْرِي عِنْدَهُمْ فَجْرَى الصَّدْرِ فِي الْخُطْبَةِ وَهُوَ الَّذِي فِيهِ يَذْكُرُونَ الدِّيَارَ وَالْأَثَارَ وَيَتَغَزَّلُونَ فِيهِ وَالْخِزْمَةُ الثَّانِي الْمَدْحُ . وَالْخِزْمَةُ الثَّلَاثُ الَّتِي تَجْرِي فَجْرَى الْخَاتَمَةِ فِي الْخُطْبَةِ وَهَذَا الْخِزْمَةُ أَكْثَرُ مَا هُوَ عِنْدَهُمْ إِمَّا دَعَاءٌ لِلْمَمْدُوحِ وَإِمَّا فِي تَقْرِيزِ الشَّعْرِ الَّذِي قَالَهُ وَالْخِزْمَةُ الْأَوَّلُ أَشْهُرُ مِنْ هَذَا الْآخِرِ وَلِذَلِكَ يُسَمَّوْنَ الْإِنْتِقَالَ مِنَ الْخِزْمَةِ الْأَوَّلِ إِلَى الثَّانِي أَسْطَرَادًا وَرَبَّمَا أَتَوْا بِالْمَدِيحِ دُونَ صَدْرِ . مِثْلُ قَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ :

لَهَانَ عَلَيَّا أَنْ نَقُولَ وَنَفْعَلَا

وَمِثْلُ قَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ :

لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا

وَلَمَّا قَرَعَ مِنْ تَعْدِيدِ أَجْزَاءِ الشَّعْرِ عِنْدَهُمْ (قَالَ) فَأَمَّا أَجْزَاءُ

صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ الَّتِي مِنْ جِهَةِ الْكِفِيَّةِ وَالَّتِي مِنْ جِهَةِ الْكَمِّيَّةِ فَقَدْ

أَخْبَرَنَا بِهَا. فَأَمَّا مِنْ أَيْ الْمَوَاضِعِ. يُمَكِّنُ عَمَلُ صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ. فَتَحْنُ
 مُخْبِرُونَ عَنْهَا بَعْدُ وَمُضِيفُونَ ذَلِكَ إِلَى مَا تَقَدَّمَ (قَالَ) وَيَنْبَغِي كَمَا
 قِيلَ أَنْ لَا يَكُونَ تَرْكِيبُ الْمَدَائِحِ مِنْ مُحَاكَاةِ بَسِيطَةٍ بَلْ مَخْلُوطَةٍ
 مِنْ أَنْوَاعِ الْأَسْتِدْلَالَاتِ وَأَنْوَاعِ الْإِدَارَةِ وَمِنْ الْمُحَاكَاةِ الَّتِي تُوجِبُ
 الْأَنْفِعَالَاتِ الْخَفِيفَةَ الْحَرَكَةَ الْمُرَقَّةَةَ لِلنُّفُوسِ وَذَلِكَ أَنَّهُ يَحِبُّ أَنْ
 تَكُونَ الْمَدَائِحُ الَّتِي يُقصدُ بِهَا الْحَثُّ عَلَى الْفَضَائِلِ مُرَكَّبَةً مِنْ
 مُحَاكَاةِ الْفَضَائِلِ وَمِنْ مُحَاكَاةِ أَسْيَاءِ مُحَوَّاةٍ مُحَرَّاةٍ يُتَفَجَّعُ لَهَا وَهِيَ الشَّقَاوَةُ
 الَّتِي تَلْحَقُ مِنْ عَدَمِ الْفَضَائِلِ لَا بِاسْتِحْصَالِ ذَلِكَ أَنَّ بِهِذِهِ الْأَشْيَاءَ
 يَشْتَدُّ حَرَكُ النَّفْسِ إِقْبُولِ الْفَضَائِلِ فَإِنَّ أَثْقَالَ الشَّاعِرِ مِنْ مُحَاكَاةِ
 فَضِيلَةٍ إِلَى مُحَاكَاةِ لَا فَضِيلَةٍ أَوْ مِنْ مُحَاكَاةِ فَاضِلٍ إِلَى مُحَاكَاةِ لَا فَاضِلٍ
 لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ يَمَّا يَحْثُ الْإِنْسَانُ وَيُرْجِعُهُ إِلَى فِعْلِ الْفَضَائِلِ إِذَا
 كَانَ لَيْسَ يُوجِبُ مَحَبَّةَ لَهَا رَائِدَةً وَلَا خَوْفًا. وَالْأَقَاوِيلُ الْمَدِيحِيَّةُ
 يَحِبُّ أَنْ يُوْجَدَ فِيهَا هَذَانِ الْأَمْرَانِ وَذَلِكَ يَكُونُ إِذَا أَثْقَلَ مِنْ
 مُحَاكَاةِ الْفَضَائِلِ إِلَى مُحَاكَاةِ الشَّقَاوَةِ وَرَدَّاءَةِ النَّجَتِ النَّازِلَةِ بِالْأَفْضَلِ
 أَوْ أَثْقَلَ مِنْ هَذِهِ إِلَى مُحَاكَاةِ أَهْلِ الْفَضَائِلِ فَلَنْ هَذِهِ الْمُحَاكَاةُ
 تُرِقُّ النَّفُوسَ وَتَدْعِيهَا إِلَى قُبُولِ الْفَضَائِلِ وَأَنْتَ تَحِدُّ أَكْثَرَ الْمُحَاكَاةِ
 الْوَاقِعَةِ فِي الْأَقَاوِيلِ الشَّرْعِيَّةِ عَلَى هَذَا الْخَوْرِ الَّذِي ذُكِرَ إِذْ
 كَانَتْ تِلْكَ هِيَ أَقَاوِيلُ مَدِيحِيَّةٌ تَدُلُّ عَلَى الْعَمَلِ بِمِثْلِ مَا وَرَدَ
 مِنْ حَدِيثِ يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَقَاوِيلِ الَّتِي تُسَمَّى
 مَوَاعِظَ (قَالَ) وَإِنَّمَا تَحْدُثُ الرَّحْمَةُ وَالرِّقَّةُ بِذِكْرِ حُدُوثِ الشَّقَاوَةِ

يَمْنُ لَا يَسْتَحِقُّ وَعَلَى غَيْرِ الْوَاجِبِ . وَالْخَوْفُ إِنَّمَا يَحْدُثُ عِنْدَ
ذِكْرِ هَذِهِ مِنْ قَبْلِ تَحْيِيلِ وَقُوعِ الضَّارِّ يَمْنُ هُوَ ذَوْنُهُمْ أَغْنَى بِنَفْسِ
السَّامِعِ إِذَا كَانَ آخَرَى بِذَلِكَ وَالْحُزْنُ وَالرَّحْمَةُ إِنَّمَا تَحْدُثُ عِنْدَ هَذِهِ
مِنْ قَبْلِ وَقُوعِهَا يَمْنُ لَا يَسْتَحِقُّ وَإِذَا كَانَ ذِكْرُ الْفَضَائِلِ مُفْرَدَةً لَا
يُوقِعُ فِي النَّفْسِ خَوْفًا مِنْ قَوَاتِهَا وَلَا رَحْمَةً وَتَحَبُّةً فَوَاجِبٌ عَلَى مَنْ
يُرِيدُ أَنْ يَحُثَّ عَلَى الْفَضَائِلِ أَنْ يَجْعَلَ جُزْءًا مِنْ مُحَاكَاتِهِ لِلْأَشْيَاءِ
الَّتِي تَبَعَتْ الْحُزْنَ وَالْخَوْفَ وَالرَّحْمَةَ (قَالَ) وَلِذَلِكَ الْمَدَامِخُ الْجِسَانُ
الْمَوْجُودَةُ إِصْنَاعَةُ الشَّعْرِ هِيَ الْمَدَامِخُ الَّتِي يُوجَدُ فِيهَا هَذَا التَّرَكِيبُ
أَعْنَى ذِكْرَ الْفَضَائِلِ وَالْأَشْيَاءِ الْخُزْنَةِ الْخَوْفِ وَالْمَرْقَّةِ (قَالَ) وَلِذَلِكَ
يُحْطَى ، الَّذِينَ يَلُومُونَ مَنْ يَجْعَلُ أَحَدَ أَجْزَاءِ شَعْرِهِ هَذِهِ الْخُرَافَاتِ
وَمِنْ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ تَأْوِيلٌ فِي الْمَدَامِخِ أَنَّ صِنَاعَةَ الْمَدَامِخِ
الْجِهَادِيَّةَ قَدْ تَدْخُلُ فِيهَا الْمَغْضِبَاتُ وَالْمَغْضَبُ هُوَ حُزْنٌ مَعَ حُبِّ
شَدِيدٍ لِلْإِتِّقَامِ وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَذِكْرُ الرِّزَايَا وَالْمَصَائِبِ
النَّازِلَةِ بِأَهْلِ الْفَضْلِ يُوجِبُ حُبًّا زَائِدًا لَهُمْ وَخَوْفًا مِنْ قَوَاتِ
الْفَضَائِلِ فَأَمَّا مُحَاكَاةُ النَّقَائِصِ فِي الْمَدَامِخِ فَقَدْ يُدْخِلُهَا قَوْمٌ فِيهَا
لِأَنَّ فِيهَا دَرَبًا مِنَ الْإِدَارَةِ لَكِنْ مُنَاسِبَةٌ ذِمِّ النَّقَائِصِ لِصِنَاعَةِ
الْهَجَاءِ أَكْثَرُ مِنْهَا لِصِنَاعَةِ الْمَدَامِخِ وَلِذَلِكَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ تَحْيِيلُهَا
فِي الْمَدَامِخِ عَلَى الْقَصْدِ الْأَوَّلِ بَلْ مِنْ قَبْلِ الْإِدَارَةِ وَإِذَا كَانَ
الشَّعْرُ الْمَدَامِخِيُّ تُذَكَّرُ فِيهِ النَّقَائِصُ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِيهِ ذِكْرُ
الْأَعْدَاءِ الْمُبْغِضِينَ وَالْمَدَامِخُ إِنَّمَا تُبْتَنَى عَلَى ذِكْرِ أَعْمَالِ الْأَوْلِيَاءِ

وَالْأَصْدِقَاءُ. وَأَمَّا عَدُوُّ الْعَدُوِّ أَوْ صَدِيقُ الصَّدِيقِ فَلَيْسَ يُذَكَّرُ لَا فِي الْمَذْحِ وَلَا فِي الذَّمِّ إِذْ كَانَ لَا صَدِيقًا وَلَا عَدُوًّا (قَالَ) وَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ الْخُرَافَةُ الْحَقِيقَةُ الْمُخْزِنَةُ مُخْرِجَهَا مُخْرَجٌ مَا يَقَعُ تَحْتَ الْبَصَرِ يُرِيدُ مِنْ وَقُوعِ التَّصَدِيقِ بِهَا لِأَنَّهُ إِذَا كَانَتْ الْخُرَافَةُ مَشْكُوكًا فِيهَا أَوْ أُخْرِجَتْ مُخْرَجَ مَشْكُوكٍ فِيهَا لَمْ تَفْعَلِ الْفِعْلَ الْمَقْصُودَ بِهَا وَذَلِكَ أَنَّ مَا لَا يُصَدِّقُهُ الْمَرْءُ فَهُوَ لَا يَفْزَعُ مِنْهُ وَلَا يَشْفِقُ لَهُ. وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ هُوَ السَّبَبُ فِي أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الَّذِينَ لَا يُصَدِّقُونَ بِالْقَصَصِ الشَّرْعِيِّ يَصِيرُونَ أَرَادِلَ لِأَنَّ النَّاسَ إِنَّمَا يَتَحَرَّكُونَ بِالطَّبَعِ لِأَحَدِ قَوْلَيْنِ إِمَّا قَوْلِ بُرْهَانِي وَإِمَّا قَوْلِ لَيْسَ بُرْهَانِيَا. وَهَذَا الصِّنْفُ الْخَمِيسُ مِنَ النَّاسِ قَدْ عَدِمَ التَّحَرُّكُ عَنْ هَذَيْنِ الْقَوْلَيْنِ (قَالَ) وَمِنْ الشُّعْرَاءِ مَنْ يُدْخِلُ فِي الْمَدَائِحِ مُحَاكَاةَ أَشْيَاءٍ يُقْصَدُ بِهَا التَّعْجِبُ فَقَطُّ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَكُونَ مُحِيفَةً وَلَا مُخْزِنَةً وَأَنْتَ تَجِدُ مِثْلَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ كُلَّهَا كَثِيرًا فِي الْمَكْتُوباتِ الشَّرْعِيَّةِ إِذْ كَانَتْ مَدَائِحُ الْفَضَائِلِ لَيْسَ تُوجَدُ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَإِنَّمَا تُوجَدُ فِي زَمَانِنَا هَذَا فِي السُّنَنِ الْمَكْتُوبَةِ (قَالَ) وَهَذَا الْفِعْلُ لَيْسَ فِيهِ مُشَارَكَةٌ لِصِنَاعَةِ الْمَدِيحِ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ يُقْصَدُ مِنْ صِنَاعَةِ الشُّعْرِ أَيُّ لَذَّةٍ أُنْفِقَتْ لَكِنْ إِنَّمَا يُقْصَدُ بِهَا حُصُولُ الْإِلْتِذَاذِ بِتَخْيِيلِ الْفَضَائِلِ وَهِيَ اللَّذَّةُ الْمُنَاسِبَةُ لِصِنَاعَةِ الْمَدِيحِ (قَالَ) وَهُوَ مَعْلُومٌ مَا هِيَ الْأَشْيَاءُ الَّتِي تَفْعَلُ اللَّذَاتِ بِمُحَاكَاتِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَلْحَقَ عَنْ ذَلِكَ حُزْنٌ وَلَا خَوْفٌ. وَأَمَّا الْأَشْيَاءُ الَّتِي تَلْحَقُ بِهَا إِلَّا لِتِلْذَاذِ بِمُحَاكَاتِهَا

الرَّحْمَةُ وَالْخَوْفَ فَإِنَّمَا يَقْدِرُ الْإِنْسَانُ عَلَى ذَلِكَ إِذَا التَّمَسَّ آيَ
 الْأَشْيَاءِ هِيَ الصَّعْبَةُ مِنَ النَّوَائِبِ الَّتِي تَتَوْبُ وَآيَ الْأَشْيَاءِ هِيَ
 الْأَشْيَاءُ الْيَسِيرَةُ الَّتِي لَيْسَ يَلْحَقُ عَنْهَا كِبَرُ حُزْنٍ وَلَا خَوْفٍ
 وَأَمْثَالُ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ هِيَ مَا يَنْزِلُ بِالْأَصْدِقَاءِ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ
 مِنْ قَبْلِ الْإِرَادَةِ مِنَ الرِّزَايَا وَالْمَصَائِبِ لَا مَا يَنْزِلُ بِالْأَعْدَاءِ
 بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْسَ يَحْزَنُ وَلَا يُشْفِقُ إِذَا يَنْزِلُ
 مِنَ السُّوءِ بِالْعَدُوِّ مِنْ عَدُوِّهِ كَمَا يَحْزَنُ وَيَخَافُ مِنَ السُّوءِ النَّازِلِ
 بِالْأَصَدِيقِ مِنْ صَدِيقِهِ وَإِنْ كَانَ قَدْ يَلْحَقُ عَنْ ذَلِكَ أَلَمٌ فَلَيْسَ
 يَلْحَقُ مِثْلُ أَلَمِ الَّذِي يَلْحَقُ مِنَ السُّوءِ الَّذِي يَنْزِلُ مِنَ الْخَبِيرِينَ
 بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ مِثْلُ قَتْلِ الْإِخْوَةِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا أَوْ قَتْلِ الْآبَاءِ الْآبَاءِ
 أَوْ الْآبَاءِ الْآبَاءِ وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ كَانَ قِصَصُ إِبْرَاهِيمَ فِيمَا أُمِرَ فِي
 أَنِيهِ فِي غَايَةِ الْأَقَاوِيلِ الْمَوْجِبَةِ لِلْحُزْنِ وَالْخَوْفِ (قَالَ) وَالْمَذْخُ النَّامُ
 يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بِالْأَفْعَالِ الْفَاضِلَةِ الَّتِي تَصْدُرُ عَنْ إِرَادَةٍ وَعِلْمٍ
 لِأَنَّ مِنَ الْأَشْيَاءِ مَا يُفْعَلُ عَنْ إِرَادَةٍ وَعِلْمٍ وَمِنْهَا مَا يُفْعَلُ لَا عَنْ
 إِرَادَةٍ وَلَا عِلْمٍ وَمِنْهَا يُفْعَلُ عَنْ عِلْمٍ لَا عَنْ إِرَادَةٍ أَوْ عَنْ إِرَادَةٍ
 لَا عَنْ عِلْمٍ وَكَذَلِكَ الْأَفْعَالُ مِنْهَا مَا تَكُونُ لِمَنْ يَعْرِفُ وَلِمَنْ لَا
 يَعْرِفُ فَالْفِعْلُ إِذَا صَدَرَ مِنْ غَيْرِ مَعْرِفَةٍ وَلَا إِرَادَةٍ فَلَيْسَ يَدْخُلُ فِي
 بَابِ الْمَدِيحِ وَكَذَلِكَ إِذَا كَانَ صَادِرًا مِنْ غَيْرِ مَعْرُوفٍ لِأَنَّهُ يَكُونُ
 حَيْثُذِي فِي الْأُذْوَاتِ أُدْخِلَ مِنْهُ فِي الشُّعْرِ وَلَا يَحِبُّ أَنْ
 يُحَاكِيَ. وَأَمَّا الْأَفْعَالُ الَّتِي لَا يُشَكُّ أَنَّهَا صَدَرَتْ عَنْ إِرَادَةٍ وَمَعْرِفَةٍ

وَعَنْ مَعْرُوفَيْنِ كَمَا أَحْسَنَ الْأَسْتِدْلَالَ الَّذِي يَكُونُ فِي هَذِهِ
الْأَفْعَالِ (قَالَ) فَأَمَّا فِي حُسْنِ قَوَامِ الْأُمُورِ الَّتِي تُرَكَّبُ مِنْهَا
الْأَشْعَارُ وَكَيْفَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ تَرْكِيبُهَا فَقَدْ قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَوْلًا
كَافِيًا فَأَمَّا أَيُّ الْعَادَاتِ هِيَ الْعَادَاتُ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ تُحَاكَمَ فِي
الْمَدْحِ فَقَدْ نَحِبُ أَنْ نَقُولَ فِيهَا فنَقُولُ إِنَّ الْعَادَاتِ الَّتِي تُحَاكَمُ عِنْدَ
الْمَدْحِ الْحَيِّدِ اعْنِي الَّذِي يَحْسُنُ مَوْقِعُهَا مِنَ السَّامِعِينَ أَرْبَعَةٌ أَحَدَاهَا
الْعَادَاتُ الَّتِي هِيَ خَيْرَةٌ وَفَاضِلَةٌ فِي ذَلِكَ الْمَدْحِ فَإِنَّ الَّذِي يُؤَثِّرُ
فِي النَّفْسِ هُوَ مُحَاكَاةُ الْأَشْيَاءِ الْحَقِّ الْمَوْجُودَةِ فِي ذَلِكَ الْمَدْحِ
وَكُلِّ حِسِّ فِيهِ خَيْرٌ مَا وَانْ كَانَتْ فِيهِ أَشْيَاءٌ لَيْسَتْ خَيْرًا. وَالثَّانِيَّةُ
أَنْ تَكُونَ الْعَادَاتُ مِنْ الَّتِي تَلِيْقُ بِالْمَدْحِ وَتَضِلُّ لَهُ وَذَلِكَ أَنْ
الْعَادَاتِ الَّتِي تَلِيْقُ بِالْمَرَاةِ لَيْسَتْ تَلِيْقُ بِالرَّجُلِ. وَالثَّالِثَةُ أَنْ تَكُونَ
مِنْ الْعَادَاتِ الْمَوْجُودَةِ فِيهِ عَلَى أَتَمِّ مَا يُمَكِّنُ أَنْ تُوجَدَ فِيهِ مِنْ
الشَّيْءِ وَالْمُوَافَقَةِ. وَالرَّابِعَةُ أَنْ تَكُونَ مُعْتَدِلَةً مُتَوَسِّطَةً بَيْنَ الْأَطْرَافِ
وَأَمَّا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ لِأَنَّ الْعَوَائِدَ الرَّذَلَةَ أَيْسَ مِمَّا يُمدَحُ بِهَا
وَكَذَلِكَ الْعَوَائِدُ الَّتِي لَا تَلِيْقُ بِالْمَدْحِ وَإِنْ كَانَتْ جَيَادًا وَكَذَلِكَ
الْعَوَائِدُ اللَّائِقَةُ إِذَا لَمْ تُوجَدَ عَلَى أَتَمِّ مَا يُمَكِّنُ فِيهَا مِنَ الْمَشَابَهَةِ
أَوْ لَمْ تُوجَدَ مُسْتَوْفَاةً وَالْعَوَائِدُ الَّتِي هِيَ خَيْرٌ وَتَدُلُّ عَلَى الْخُلُقِ الْخَيْرِ
الْفَاضِلِ مِنْهَا مَا هِيَ كَذَلِكَ فِي الْحَقِيقَةِ وَمِنْهَا مَا هِيَ كَذَلِكَ فِي
الْمَشْهُورِ وَمِنْهَا مَا هِيَ شَبِيهَةٌ بِهَذَيْنِ وَالْعَوَائِدُ الْجَيَادُ إِمَّا حَقِيقِيَّةٌ
وَأَمَّا شَبِيهَةٌ بِالْحَقِيقَةِ وَإِمَّا مَشْهُورَةٌ أَوْ شَبِيهَةٌ بِالْمَشْهُورَةِ وَكُلُّ

هذه تدخل في المدح (قال) ويجب أن تكون خواتم الأشعار
والقصائد تدل بإجمال على ما تقدم ذكره من العوائد التي وقع
المدح بها كالحال في خواتم الخطب وأن يكون الشاعر لا يورد
في شعره من المحاكاة الخارجة عن القول إلا بقدر ما يحتسبه
المخاطبون من ذلك حتى لا ينسب في ذلك إلى الغلو والخروج
عن طريقة الشعر ولا إلى التقصير (قال) والتشبيه والمحاكاة هي
مدائح الأشياء التي في غاية الفضية فكما أن المصور الحاذق
يصور الشيء بحسب ما هو عليه في الوجود حتى أنهم قد يصورون
الغضاب والكسالى مع أنها صفات نفسانية كذلك يجب أن
يكون الشاعر في محاكاته يصور كل شيء بحسب ما هو عليه حتى
يحاكي الأخلاق وأحوال النفس وذكر مثال ذلك في شعر
لاوميدوش قاله في عفة قضية عرضت لرجل. ومن هذا النحو من
التخييل أعني الذي يحاكي حال النفس قول أبي الطيب يصف
رسول الروم الواصل إلى سيف الدولة:

أناك يكاد الرأس يخرج عنقه وتقد تحت الذعر منه المفاصل
يقوم تقويم التماطين مشيه إليك إذا ما عوجته الأفاكل
(قال) ويجب على الشاعر أن يلزم في تخيلاته ومحاكياته
الأشياء التي جرت العادة باستعمالها في التشبيه ولا يتعدى في ذلك
طريقة الشعر (قال) وأنواع الاستبدالات التي تجري على هذا
النحوى أعني المحاكاة الجارية تجري الجودة على الطريق الصاعي

أَنوَاعٌ كَثِيرَةٌ فَنَهَا أَنْ تَكُونَ الْحَاكَاةُ لِأَشْيَاءٍ مَحْسُوسَةٍ بِأَشْيَاءٍ
 مَحْسُوسَةٍ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُوقَعَ الشَّكُّ لِمَنْ يَنْظُرُ إِلَيْهَا وَتُوهِمُ أَنَّهَا هِيَ
 لَا شَيْءَ أَصْلَ فِي أَحْوَالِ مَحْسُوسَةٍ وَذَلِكَ مِثْلُ تَسْوِيَّتِهِمْ لِبَعْضِ
 صُورِ الْكَوَاكِبِ سَرَطَانًا وَلِبَعْضِهَا ثَمَسِكَ الْحَرَبَةِ لِأَنَّهَا مِنْ جِهَةِ
 الشَّكْلِ يُمَكِّنُ أَنْ يَتَوَهَّمُ مَتَوَهَّمُ أَنَّهَا هِيَ هِيَ. وَجُلُّ تَشْبِيهَاتِ
 الْعَرَبِ رَاجِعَةٌ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ. وَالذَّائِلُ كَانَتْ حُرُوفُ التَّشْبِيهِ عِنْدَهُمْ
 تَقْتَضِي الشَّكَّ وَكُلَّمَا كَانَتْ هَذِهِ الْمُتَوَهَّمَاتُ أَقْرَبَ إِلَى وَقُوعِ
 الشَّكِّ كَانَتْ أَمَّ تَشْبِيهًا وَكُلَّمَا كَانَتْ أَبْعَدَ مِنْ وَقُوعِ الشَّكِّ
 كَانَتْ أَنْقَصَ تَشْبِيهًا وَهَذِهِ هِيَ الْحَاكَاةُ الْبَعِيدَةُ وَيَتَّبِعِي أَنْ
 تُطْرَحَ وَذَلِكَ مِثْلُ قَوْلِ أَمْرِى، الْقَيْسِ فِي الْفَرَسِ :

== أَنَّهَا هِرَاوَةٌ وَمَوَالٍ

وَمِثْلُ قَوْلِهِ :

إِذَا أَقْبَلْتُ قُلْتُ دُبَاءَةٌ مِنْ الْخَضِرِ مَحْسُوسَةٌ فِي الْعُدُرِ
 وَإِنْ أَدْبَرْتُ قُلْتُ أَثْفِيَةٌ مَلَمَلَةٌ لَيْسَ فِيهَا أَثَرُ
 وَإِنْ كَانَ هَذَا أَقْرَبَ مِنَ الْأَوَّلِ لِأَنَّ فِيهِ مُقَابَلَةً مَا. وَمِنْهَا
 أَنْ تَكُونَ الْحَاكَاةُ لِأُمُورٍ مَعْرِوِيَةٍ بِأُمُورٍ مَحْسُوسَةٍ إِذَا كَانَ لِتِلْكَ
 الْأُمُورِ أَفْعَالٌ مُنَاسِبَةٌ لِتِلْكَ الْمَعَانِي حَتَّى تُوهِمَ أَنَّهَا هِيَ مِثْلُ
 قَوْلِهِمْ فِي اللَّيْنَةِ إِنَّهَا طَوَّقُ الْعُنُقِ وَفِي الْإِحْسَانِ قَيْدٌ كَمَا قَالَ أَبُو
 الطَّيِّبِ :

وَمَنْ وَجَدَ الْإِحْسَانَ قَيْدًا تَقِيدَا

وَهَذَا كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَمِنْهُ قَوْلُ إِمْرِئِ الْقَيْسِ :

قَيْدِ الْأَوَابِدِ هَيْكَلِ

وَمَا كَانَ مِنْ هَذِهِ أَيْضًا غَيْرَ مُنَاسِبٍ وَلَا شَبِيهِ قَيْدِنِي أَنْ
يُطْرَحَ وَهَذَا كَثِيرًا مَا يُوجَدُ فِي أَشْعَارِ الْمُحَدِّثِينَ وَبِخَاصَّةٍ فِي شِعْرِ
أَبِي تَمَّامٍ مِثْلُ قَوْلِهِ :

لَا تَسْقِنِي مَاءَ الْمَلَامِ

فَإِنَّ الْمَاءَ غَيْرُ مُنَاسِبٍ لِلْمَلَامِ . وَاسْتَحْفُ مِنْ هَذَا قَوْلُهُ :

كُتِبَ الْمَوْتُ رَائِبًا وَحَالِيَا

وَكَمَا أَنَّ الْبَعِيدَ الْوُجُودِ هَاهُنَا مُطْرَحٌ كَذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ
التَّشْبِيهُ بِالْخَيْسِ الْوُجُودِ مُطْرَحًا أَيْضًا وَأَنْ يَكُونَ التَّشْبِيهُ
بِالْأَشْيَاءِ الْفَاضِلَةِ . فَمِثَالُ تَشْبِيهِ الشَّرِيفِ بِالْخَيْسِ قَوْلُ الرَّاجِزِ :
وَالشَّمْسُ مَائِلَةٌ وَلَمَّا تَفْعَلُ فَكَأَنَّمَا فِي الْأُفُقِ عَيْنُ الْأَحْوَلِ
وَكَمَا قَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ يَمْدَحُ سَيْفَ الدَّوْلَةِ :

وَقَدْ عَلِمَ الرُّومُ الشَّقِيُّونَ أَنَّهُمْ سَتَلَقَّاهُمْ يَوْمًا وَتَلَقَّى الدُّمُسْتَقَا
وَكَانُوا كَفَّارٍ وَشَوْشَا خَافَ حَايِطِ وَكَذَتْ كِسَنُورٍ عَلَيْهِمْ تَسَلَّقَا
قَالَ وَهَذَا نَوْعٌ آخَرُ مِنَ الشِّعْرِ وَهِيَ الْأَشْعَارُ الَّتِي هِيَ فِي بَابِ
التَّضَدِيقِ وَالْإِقْتَاعِ . أُدْخِلَ مِنْهَا فِي بَابِ التَّخْيِيلِ وَهِيَ أَقْرَبُ إِلَى
الْمَثَالَاتِ الْخُطْبِيَّةِ مِنْهَا إِلَى الْحَاكَاةِ الشِّعْرِيَّةِ وَهَذَا الْجِنْسُ الَّذِي
ذَكَرَهُ مِنَ الشِّعْرِ هُوَ كَثِيرٌ فِي شِعْرِ أَبِي الطَّيِّبِ مِثْلُ قَوْلِهِ :

لَيْسَ الشَّكْلُ فِي الْعَيْنَيْنِ كَالشَّكْلِ

وَقَوْلِهِ :

فِي طَلْعَةِ الشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ زُحَلٍ

وَمِنْ أَحْسَنِ مَا فِي هَذَا أَلْفَنِي قَوْلُ أَبِي فِرَاسٍ :

وَنَحْنُ أَنْاسٌ لَا تَوَسُّطَ عِنْدَنَا لَنَا الصَّدْرُ دُونَ الْعَالَمِينَ أَوْ الْقَبْرِ

تَهُونَ عَلَيْنَا فِي الْعَالِي نُفُوسُنَا وَمَنْ خَطَبَ الْحَسَنَاءَ لَمْ يَغْلُهُ الْمَرْءُ

(قَالَ) وَالنُّوعُ الثَّلَاثُ مِنَ الْخُحَاكَةِ هِيَ الْخُحَاكَةُ الَّتِي تَقَعُ

بِالتَّذَكُّرِ وَذَلِكَ أَنْ يُورِدَ الشَّاعِرُ شَيْئًا يُتَذَكَّرُ بِهِ شَيْءٌ آخَرُ مِثْلَ أَنْ

يَرَى الْإِنْسَانَ خَطَّ إِنْسَانٍ فَيَتَذَكَّرُهُ فَيَجْزَنُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مَيِّتًا أَوْ

يَتَشَوَّقُ إِلَيْهِ إِنْ كَانَ حَيًّا وَهَذَا مَوْجُودٌ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ كَثِيرًا

مِثْلُ قَوْلِ مُتَمِّمِ بْنِ نُوَيْرَةَ :

وَقَالُوا أَتَسْكِبِي كُلَّ قَبْرٍ رَأَيْتَهُ لِقَبْرِ ثَوَى بَيْنَ الْمَوَى وَالْذِّكَادِ

فَقَاتُ لَمْ أَنْ أَلَايَ يَبْعَثُ أَلَايَ دَعُونِي فَهَذَا سُكُّهُ قَبْرُ مَالِكٍ

وَمِنْهُ قَوْلُ قَيْسِ الْجَنْجُونِ :

وَدَاعٍ دَعَا إِذْ نَحْنُ بِالْخَيْفِ مِنْ مَنَى

فَقَعِيجَ أَخْزَانَ الْفُؤَادِ وَمَا يَدْرِي

دَعَا بِأَنَّمْ لَيْلَى غَيْرَهَا قَكَا نَمَا

أَطَارَ بِلَيْلَى طَائِرًا كَانَ فِي صَدْرِي

وَمِنْ هَذَا النَّوعِ قَوْلُ الْحَسَنَاءِ :

يَتَذَكَّرُنِي طُلُوعُ الشَّمْسِ صَحْرًا وَأَذْكُرُهُ لِكُلِّ غُرُوبِ شَمْسٍ

وَقَوْلُ الْهَذَلِيِّ :

أَبَى الصَّبْرُ إِنِّي لَا يَزَالُ يَهَيِّجُنِي مَمِيتٌ لَنَا فِيمَا مَضَى وَمَقِيلٌ
إِذَا، أَبْيَاضُ الصُّنْحِ أَنْتَ غَوَّاهُ يُعَاوِدُنِي رَجْمٌ عَلَيَّ ثَقِيلٌ
وَهَذَا النَّوعُ كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَمِنْ هَذَا الْمَوْضِعِ تَذَكُّرُهَا
الْأَحِبَّةُ بِالذِّيَارِ وَالْأَظْلَالِ كَمَا قَالَ :

قِفَا نَبْكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبَ وَهْ نَزَلِ
وَيَقْرُبُ مِنْ هَذَا الْمَوْضِعِ مَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ الْعَرَبِ مِنْ
تَذَكُّرِ الْأَحِبَّةِ بِالْخَيَالِ وَإِقَامَتِهِ 'قَامَ الْتَحْيِيلُ كَمَا قَالَ شَاعِرُهُمْ :
وَأِنِّي لَا سَتَغِيهِ وَمَا بِي نَفْسَةٌ لَعَلَّ حَيًّا لَا وَنَسْكَ يَلْقَى خَيَالِيَا
وَأَخْرَجُ مِنْ بَيْنِ الْيُوتِ لَعَانِي أَحَدَثُ عَنْكَ النَّفْسَ فِي أَسْرِ خَالِيَا
وَتَصَرَّفُ الْعَرَبُ وَالْمُحَدِّثِينَ فِي الْخَيَالِ مُتَقَنِّينَ وَأَخَاءَ أَسْتَعْمَالِهِمْ
لَهُ كَثِيرَةٌ وَلِذَلِكَ يُشَبَّهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمَوَاضِعِ الشُّعْرِيَّةِ الْخَاصَّةِ
بِالنَّسِيبِ وَقَدْ يَدْخُلُ فِي الزَّمَانِ كَمَا قَالَ النُّجَاشِيُّ :

خَلَا نَاطِرِي مِنْ طَيْفِهِ بَعْدَ تَخْصِيهِ قِيَا عَجَبَا لِلدَّهْرِ فَقَدْ عَلَى فَقْدِ
(قَالَ) وَأَمَّا النَّوعُ الرَّابِعُ مِنَ الْخُصَاكَةِ فَهُوَ أَنْ يُذَكَّرَ أَنَّ
شَخْصًا مَا شَبَّهَ بِشَخْصٍ مِنْ ذَلِكَ النَّوعِ بِعَيْنِهِ وَهَذَا التَّشْبِيهُ لَا
يَكُونُ إِلَّا فِي الْخَلْقِ أَوْ الْخُلُقِ مِثْلُ قَوْلِ الْقَائِلِ جَاءَ شَبِيهُ يُونُسَ
وَلَمْ يَأْتِ إِلَّا فُلَانٌ وَمِنْ هَذَا قَوْلُ أَمْرِئِ الْقَيْسِ :

وَتَعْرِفُ فِيهِ مِنْ أَبِيهِ شَمَائِلًا

وَالْتَضَرِيحُ بِالتَّشْبِيهِ خِلَافُ التَّشْبِيهِ فَإِنَّ التَّشْبِيهِ هُوَ إِيقَاعُ شَيْءٍ
وَالْتَضَرِيحُ بِالشَّيْءِ بَيْنَ اثْنَيْنِ هُوَ تَحْقِيقُ لَوْجُودِ الشَّيْءِ وَهُوَ الْغَايَةُ فِي

مُطَابَقَةُ التَّخْيِيلِ أَعْنِي إِذْ قِيلَ شَيْءٌ فُلَانٍ (قَالَ) وَالنَّوْعُ الْخَامِسُ
هُوَ الَّذِي يَسْتَعْمِلُهُ السُّوفِسْطَائِيُّونَ مِنَ الشُّعْرَاءِ وَهُوَ الْغُلُوُّ الْكَاذِبُ
وَهَذَا كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَأَتُخَدِّثُكَ مِثْلُ قَوْلِ النَّابِغَةِ :
تَقْدُّ السَّلُوقِيَّ الْمَضَافَ تَنْجِبُهُ وَتُوقِدُ بِالْصَّفَاحِ نَارَ الْخُبَاجِبِ
وَقَوْلِ الْآخِرَةِ :

فَلَوْلَا الرِّيحُ أُنْسِعَ مَنْ يَخْجِرُ صَلِيلَ الْبَيْضِ تُثْقِرُ بِالذُّكُورِ
وَهَذَا كُلُّهُ كَذِبٌ وَمِنْ هَذَا قَوْلُ أَبِي الطَّيِّبِ :
عَدُوُّكَ مَذْمُومٌ بِكُلِّ لِسَانٍ وَلَوْ كَانَ مِنْ أَعْدَائِكَ الْقَمَرَانِ
وَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ :
لَوْ أَلْفَكَ الدَّوَّارُ أَبْغَضْتَ سَيَرَهُ لَعَوَّقَهُ شَيْءٌ عَنِ الدَّوَرَانِ
وَمِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْلُ أَمْرِئِ الْقَيْسِ :
مِنَ الْقَاصِرَاتِ الطَّرْفَ لَوْ دَبَّ مُحُولٌ

مِنَ الذَّرِّ فَوْقَ الْإِتْبِ مِنْهَا لَأَمْرًا
وَهَذَا كَثِيرٌ مَوْجُودٌ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَلَيْسَ تَجِدُ فِي
الْكِتَابِ الْعَزِيزِ مِنْهُ شَيْئًا إِذْ كَانَ يَتَنَزَّلُ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ مِنْ
الْقَوْلِ أَعْنِي الشُّعْرَ مَثَرَةً الْكَلَامِ السُّوفِسْطَائِيَّ مِنَ الْبُرْهَانِ
وَلَكِنْ قَدْ يُوجَدُ لِلْمَطْبُوعِ مِنَ الشُّعْرَاءِ مِنْهُ شَيْءٌ مَحْمُودٌ مِثْلُ قَوْلِ
الْمُتَنَبِّي :

وَأَنِّي أَهْتَدَى هَذَا الرَّسُولُ بِأَرْضِهِ
وَمَا سَكَنْتُ مُذْ يَمُرَتْ فِيهَا الْقَسَاطِلُ

وَمِنْ أَيِّ مَادَّ كَانَ يَسْتَقِي جِيَادَهُ
وَلَمْ تَصِفْ مِنْ مَزْجِ الدِّمَاءِ الْمَذَاهِلُ

وَقَوْلِهِ :

لَيْسَ الْوُشْيَ لَا مُتَجَبِّلَاتٍ وَلَكِنْ كَمِي يَصُنُّ بِهِ الْجَمَالَ
وَصَفَّرْنَ الْفِدَائِرَ لَا لِحُسْنٍ وَلَكِنْ خِفْنَ فِي الشَّعْرِ الضَّلَالَ
وَهَاهُنَا مَوْضِعٌ سَادِسٌ مَشْهُورٌ يَسْتَعْمِلُهُ الْعَرَبُ وَهُوَ إِقَامَةُ
الْجَمَادَاتِ مُقَامَ اللَّاطِقِينَ فِي مُخَاطَبَتِهِمْ وَمُرَاجَعَتِهِمْ إِذَا كَانَتْ فِيهَا
أَحْوَالٌ تَدُلُّ عَلَى النُّطْقِ مِثْلُ قَوْلِ الشَّاعِرِ :

وَأَجْهَشْتُ لِلتَّوْبَادِ لَمَّا رَأَيْتُهُ وَكَبَّرَ الرَّحْمَانُ حِينَ رَأَانِي
فَقُلْتُ لَهُ آيْنَ الَّذِينَ عَهْدُهُمْ حَوَالِيكَ فِي أَمْنٍ وَخَفَضَ زَمَانِي
فَقَالَ مَضَوْا وَأَسْتَوْدَعُونِي بِلَادَهُمْ وَمَنْ ذَا الَّذِي يَبْقَى عَلَى الْخَدَّائِي
وَمِنْ هَذَا أَلْبَابِ مُخَاطَبَتِهِمُ الدِّيَارَ وَالْأَفْلالَ وَمُجَاوَبَتِهَا لَهُمْ
كَقَوْلِ ذِي الرُّمَّةِ :

وَأَسْقِيهِ حَتَّى كَادَ يَمَّا أَبْشُهُ تُكَلِّبُنِي أَخْبَارُهُ وَمَلَأْنِيهِ
وَقَوْلِ عَنَتَرَةَ :

أَعْيَاكَ رَسْمُ الدَّارِ لَمْ يَتَكَلَّمْ حَتَّى تَكَلَّمَ كَأَلَا صَمِّ الْأَنْجَمِ
يَا دَارَ عِبَلَةٍ بِالْجَوَادِ تَكَلَّمِي وَعِمِّي صَبَاحًا دَارَ عِبَلَةٍ وَأَسْلَمِي
إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ يَمَّا يُشَبِّهُ هَذَا يَمَّا هُوَ كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِهِمْ وَقَدْ ذَكَرَ هُوَ
هَذَا الْمَوْضِعَ فِي كِتَابِ الْخُطَابَةِ وَذَكَرَ أَنَّ أُوْمَيْرُوشَ كَانَ يَعْتَمِدُهُ
كَثِيرًا (قَالَ) وَالْأَسْتِذْلَالُ الْفَاضِلُ وَالْإِدَارَةُ إِنَّمَا تَكُونُ لِلْأَفْعَالِ

الْإِرَادِيَّةُ وَكَثُرَ مَا يُوجَدُ هَذَا النَّوعُ مِنَ الْإِسْتِدْلَالِ فِي الْكِتَابِ
الْعَزِيزِ أَغْنَى فِي مَدْحِ الْأَفْعَالِ الْفَاضِلَةِ وَذَمِّ الْأَفْعَالِ الْفَعِيرِ فَاضِلَةٌ
وَهُوَ قَلِيلٌ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ. وَمِثَالُ الْإِدَارَةِ فِي الْمَدْحِ قَوْلُ
الْقُرْآنِ : ضَرَبَ اللَّهُ ثَلَاثًا كَلِمَةً طَيِّبَةً إِلَى قَوْلِهِ : مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ .
وَمِثَالُ الْإِسْتِدْلَالِ. قَوْلُهُ : كَيْشَلُ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِيلَ الْآيَةِ .
(قَالَ) وَاجَادَةُ الْقَصَصِ الشَّعْرِيِّ وَالْبُاسُوعُ بِهِ إِلَى غَايَةِ التَّكَامُلِ
إِنَّمَا يَكُونُ مَتَى بَلَغَ الشَّاعِرُ مِنْ وَصْفِ الشَّيْءِ أَوْ الْقَضِيَّةِ
الْوَاقِعَةِ الَّتِي يَحْفَظُهَا مَالِعًا يُرَى السَّامِعِينَ لَهُ كَمَا أَنَّهُ مُحْسُوسٌ وَمَنْظُورٌ
إِلَيْهِ وَيَكُونُ مَعَ هَذَا ضِدُّهُ غَيْرَ ذَاهِبٍ عَلَيْهِمْ مِنْ ذَلِكَ الْوَصْفِ
وَهَذَا يُوجَدُ كَثِيرًا فِي شِعْرِ الْفُحُولِ وَالْمُفْلِقِينَ مِنَ الشُّعْرَاءِ لَكِنْ إِنَّمَا
يُوجَدُ هَذَا الْفُحْرُ مِنَ التَّخِيلِ لِلْعَرَبِ إِمَّا فِي أَفْعَالٍ غَيْرِ عَفِيفَةٍ وَإِمَّا
فِيمَا الْقَصْدُ مِنْهُ مُطَابَقَةُ التَّخِيلِ فَقَطْ فَمِثَالُ مَا وَرَدَ مِنْ ذَلِكَ فِي
الْفُجُورِ قَوْلُ أَمْرِئِ الْقَيْسِ :

سَمَوْتُ إِلَيْهَا بَعْدَ مَا تَأَمَّ أَهْلُهَا سُمُو حَبَابِ الْمَاءِ عَالًا عَلَى حَالِ
فَقَالَتْ سَبَاكَ اللَّهُ إِنَّكَ فَاضِحِي أَلَسْتُ تَرَى السَّمَارَ وَالنَّاسَ أَحْوَالِي
فَقُلْتُ يَمِينَ اللَّهِ أَبْرَحُ قَاعِدًا وَلَوْ قَطَعُوا رَأْيِي لَدَيْكَ وَأَوْصَالِي
وَمِثَالُ مَا وَرَدَ مِنْ ذَلِكَ فِي مُطَابَقَةِ التَّشْبِيهِ فَقَطْ
قَوْلُ ذِي الرُّمَّةِ يَصِفُ النَّارَ :

وَسَقَطَ ~~سَعَيْنِ~~ الدَّيْكَ عَاوَرَتْ ضَحْبَتِي

أَبَاهَا وَهَيَّأْنَا لِمَوْقِعِهَا وَصُرَا

فَقُلْتُ لَهَا أَرْفَعُهَا إِلَيْكَ وَأَحْيِيهَا
بِرُوحِكَ وَأَقْتَنُهَا قُتَّةً قَدَرًا
وَوَظَاهِرُهَا مِنْ يَابِسِ الشَّحْتِ وَأَسْتَعِينُ

عَلَيْهَا الصَّبَا وَأَجْعَلُ يَدَيْكَ لَهَا سِتْرًا

وَقَدْ يُوجَدُ فِي أَشْعَارِهِمْ فِي وَصْفِ الْأَحْوَالِ الْوَاقِعَةِ وَمِثْلِ
الْحُرُوبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَتِمَّدُحُونَ بِهِ وَأَلْتَسِّي أَفْضَلُ مَنْ يُوجَدُ لَهُ
هَذَا الصَّنْفُ مِنَ التَّخْيِيلِ وَذَلِكَ كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِهِ وَلِذَلِكَ يُحْكِي عَنْهُ
أَنَّهُ كَانَ لَا يُرِيدُ أَنْ يَصِفَ الْوَاقِعَ الَّتِي لَمْ يَشْهَدْهَا مَعَ سَيْفِ الدَّوْلَةِ
وَرِاجَادَةِ هَذَا الدَّوْعِ وَنَ التَّشْبِيهِ يَتَأْتِي بَأَن يَحْضُرَ الْإِنْسَانُ أَوَّلًا جَمِيعُ
الْمَعَانِي الَّتِي فِي الشَّيْءِ الَّذِي يَقْصِدُ وَصْفَهُ ثُمَّ يَرْكِبُ عَلَى تِلْكَ
الْمَعَانِي الْأَجْزَاءَ الثَّلَاثَةَ مِنْ أَجْزَاءِ الشَّعْرِ أَعْنِي التَّخْيِيلَ وَالْوِزْنَ
وَاللَّحْنَ (قَالَ) وَتَعْدِيدُ مَوَاضِعِ الْإِسْتِدْلَالِاتِ مِمَّا يَطُولُ وَإِنَّمَا
أَشَارَ بِذَلِكَ إِلَى كَثْرَتِهَا وَاخْتِلَافِ الْأُتْمِ فِيهَا (قَالَ) وَكُلُّ مَدِيحٍ
يَمْنُهُ مَا فِيهِ رِبَاطٌ بَيْنَ أَجْزَائِهِ وَمِنْهُ مَا فِيهِ حَلٌّ وَيَشِبُّ أَنْ يَكُونَ
أَقْرَبَ الْأَشْيَاءِ شَبْهًا بِالرِّبَاطِ الْمَوْجُودِ فِي أَشْعَارِهِمْ هُوَ الْجُزْءُ الَّذِي
يُسَمَّى عِنْدَنَا الْإِسْطِرَادَ وَهُوَ رِبْطُ جُزْءِ النَّسَبِ وَبِالْجُمْلَةِ صَدْرُ
الْقَصِيدَةِ بِالْجُزْءِ الْمَدِيحِيِّ . وَأَحْلُ تَفْصِيلُ الْجُزْأَيْنِ أَحَدُهُمَا مِنَ الْآخِرِ
أَيِ يُؤْتَى بِهِمَا مُفْعَلًا . وَكَثُرَ مَا يُوجَدُ الرِّبَاطُ فِي أَشْعَارِ الْمُحَدِّثِينَ
وَذَلِكَ وَمِثْلُ قَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ :

عَامِي وَعَامُ الْعَيْسِ بَيْنَ وَدِيقَةٍ مَسْجُورَةٍ وَتَنُوقَةٍ صَنِجُودِ

حَتَّى أَغَادِرَ كُلَّ يَوْمٍ بِالْفَلَا
هَيَّاتِ مِنْهَا رَوْضَةً مَحْمُودَةً
وَكَقُولِ أَبِي الطَّيِّبِ:

مَرَّتْ بِنَا بَيْنَ تَرْبِيهَا فَقُلْتُ لَهَا
مِنْ أَيْنَ جَالَسَ هَذَا الشَّادِنُ الْعَرَبَا
فَأَسْخَحَكْتَ ثُمَّ قَالَتْ كَأَلْمَيْثِ يَرَى
لَيْثَ الشَّرَى وَهُوَ مِنْ عَجَلٍ إِذَا انْتَسَبَا
وَأَمَّا الْحَلُّ فَهُوَ مَوْجُودٌ كَثِيرًا فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ مِثْلُ قَوْلِ زُهَيْرٍ:
دَعْ ذَا وَعَدِ الْقَوْلَ فِي هَرَمٍ

(قَالَ) وَأَنْوَاعُ الْمَدَائِحِ أَرْبَعَةٌ ثَلَاثَةٌ مِنْهَا بَسِيطَةٌ وَهِيَ الَّتِي
تَقْدَمُتْ أَحَدُهَا الْإِدَارَةُ، وَالثَّانِي الْإِسْتِذْلَالُ، وَالثَّلَاثُ الْإِنْفَعَالُ
(قَالَ) مِثْلُ مَا يُقَالُ فِي أَهْلِ الْجَحِيمِ فَإِنَّ هَذِهِ مُحْزِنَةٌ مُفْرِغَةٌ،
وَالرَّابِعُ الْمَرْكَبُ مِنْ هَذِهِ إِمَّا مِنْ ثَلَاثِيَّهَا وَإِمَّا مِنْ اثْنَيْنِ مِنْهَا
وَيَلْبَغِي أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ أَمْثَالَ أَنْوَاعِ هَذِهِ الْمَدَائِحِ الْأَرْبَعَةِ بِالْفِعْلِ
الْإِرَادِي الْقَاضِلِ غَيْرُ مَوْجُودَةٍ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَإِنَّمَا هِيَ مَوْجُودَةٌ
فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ كَثِيرًا (قَالَ) وَمِنْ الشُّعْرَاءِ مَنْ يُجِيدُ الْقَوْلَ
فِي الْقَصَائِدِ الْمُطَوَّلَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُجِيدُ الْأَشْعَارَ الْقِصَارَ وَالْقَصَائِدَ
الْقَصِيرَةَ وَهِيَ الَّتِي تُسَمَّى عِنْدَنَا الْمَقْطَعَاتِ وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا
كَانَ الشَّاعِرُ الْحَمِيدُ هُوَ الَّذِي يَصِفُ كُلَّ شَيْءٍ بِجَوَاضِهِ وَعَلَى كُنْهِهِ
وَكَانَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ تَخْتَلِفُ بِالْكَثَرَةِ وَالْقِلَّةِ فِي شَيْءٍ مِنْ

الْأَشْيَاءَ الْمَوْصُوفَةَ وَجِبَ أَنْ يَكُونَ التَّخْيِيلُ الْفَاضِلُ هُوَ الَّذِي لَا
يَجَاوِزُ خَوَاصَّ الشَّيْءِ وَلَا حَقِيقَتَهَا فَمَنْ النَّاسُ مَنْ لَقَدْ اعْتَادَ أَوْ مَنْ
فِطْرَتُهُ مُعَدَّةٌ نَحْوَ تَخْيِيلِ الْأَشْيَاءِ الْقَلِيلَةِ الْخَوَاصِّ فَهَؤُلَاءِ تَجُودُ
أَشْعَارُهُمْ فِي الْمَقْطَعَاتِ وَلَا تَجُودُ فِي الْقَصَائِدِ وَمِنْ الشُّعْرَاءِ مَنْ هُوَ
عَلَى ضِدِّ هَؤُلَاءِ وَهُمْ الْقَصِيدُونَ كَالْمُتَنَبِّئِ وَحَبِيبٍ وَهُمْ الَّذِينَ
اعْتَادُوا الْقَوْلَ فِي الْأَشْيَاءِ الْكَثِيرَةِ الْخَوَاصِّ أَوْ هُمْ بِفِطْرَتِهِمْ مُعَدُّونَ
لِحَاكَاةِهَا أَوْ اجْتَمَعَ لَهُمُ الْأَمْرَانِ جَمِيعًا (قَالَ) وَمِنْ التَّخْيِيلَاتِ وَالْمَعَارِي
كَأَيُّسَبُ الْأَوْزَانِ الطَّوِيلَةِ وَمِنْهَا مَا يُنَاسِبُ الْقَصِيدَةَ وَرَبَّمَا كَانَ
الْوِزْنُ مُنَاسِبًا لِلْمَعْنَى غَيْرَ مُنَاسِبٍ لِلتَّخْيِيلِ وَرَبَّمَا كَانَ الْأَمْرُ
بِالْعَكْسِ وَرَبَّمَا كَانَ غَيْرَ مُنَاسِبٍ لِكِلَيْهِمَا وَآمِثَةٌ هَذِهِ مِمَّا يَفْسُرُ
وُجُودَهَا فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ أَوْ تَكُونُ غَيْرَ مَوْجُودَةٍ فِيهَا إِذَا
أَعَارِضُهُمْ قَلِيلَةُ الْقَدْرِ (قَالَ) وَقَدْ يُضَافُ إِلَى الْأَشْيَاءِ الَّتِي بِهَا قِيَامُ
الْأَشْعَارِ أُمُورٌ مِنْ خَارِجٍ وَهِيَ الْهَيْئَاتُ الَّتِي تَكُونُ فِي صَوْتِ الشَّاعِرِ
وَصُورَتِهِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ وَكَثُرَ مَا تُوْجَدُ هَذِهِ مِنَ الشُّعْرَاءِ الْمُسْتَعْمِلِينَ
لَهَا فِي الْأَشْعَارِ الْإِنْفِعَالِيَّةِ مِثْلُ الَّتِي تُقَالُ فِي أَهْلِ الْجَحِيمِ وَغَيْرِهِمْ
وَلَمَّا كُنَّا قَدْ قُلْنَا فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَتَقَوَّمُ بِهَا الْأَشْعَارُ الَّتِي هِيَ
أَجْزَاؤُهَا بِالْحَقِيقَةِ فَقَدْ يَنْبَغِي أَنْ نَقُولَ فِي هَذِهِ أَيْضًا فَنَقُولُ : إِنَّ هَذِهِ
الْأَفْعَالُ بِالْجُمْلَةِ هِيَ الَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهَا الْأَقْوَالُ الَّتِي تُسَمَّى الْإِنْفِعَالِيَّةِ
وَلِذَلِكَ يَنْبَغِي إِذَا اسْتَعْمِلْتَ هَذِهِ أَنْ تَسْتَعْمَلَ مَعَ هَذِهِ الْأَقَاوِيلَ . وَذَلِكَ
أَنَّ هَذِهِ تُرَى الْإِنْفِعَالِ الَّذِي يَقْصَدُ بِالْقَوْلِ تَثْبِيْثُهُ كَأَنَّهُ قَدْ وَقَعَ

وَأَسْتَيْقِنَ. وَقَدْ تَقَدَّمَ لَكَ فِي كِتَابِ الْخُطَابَةِ الْأَقَاوِيلُ الْإِنْفِعَالِيَّةُ الْخُطْبِيَّةُ
وَضُرُوبُ الْإِنْفِعَالَاتِ الَّتِي تَفْعَلُهَا هَذِهِ الْأَقَاوِيلُ وَلِذَلِكَ كَانَتْ هَذِهِ
الْأَفْعَالُ أَحْصَى بِكِتَابِ الْخُطَابَةِ مِنْهَا بِكِتَابِ الشِّعْرِ. وَالْإِنْفِعَالَاتُ الَّتِي
تَثَبَّتْ بِالْقَوْلِ الْخُطْبِيِّ أَوْ الشِّعْرِيِّ هِيَ الْخَوْفُ وَالْغَضَبُ وَالرَّحْمَةُ وَالْتَعْظِيمُ
وَسَائِرُ الْأَشْيَاءِ الَّتِي عُدَّتْ فِي كِتَابِ الْخُطَابَةِ. وَهُوَ ظَاهِرٌ أَنَّهُ كَمَا أَنَّ
هَآ هُنَا أَقْوَالًا تُوجِبُ هَذِهِ الْإِنْفِعَالَاتِ كَذَلِكَ هَآ هُنَا هَيْئَاتُ وَأَشْكَالُ
تَدُلُّ مِنْ أَنَّكَ لَمْ عَلَى خُضُورِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تُوجِبُ هَذِهِ الْإِنْفِعَالَاتِ
وَأَنَّهَا قَدْ وَقَعَتْ لَوْ قُوعِ الْأَشْيَاءِ انْقَاءً لَهَا فَيَفْعَلُ ذَلِكَ النَّاطِرُ هَآ فَهَذِهِ
الْصُّورُ وَاهْيِيَّاتُ إِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ تُسْتَعْمَلَ فِي الشِّعْرِ إِنْ أُسْتَعْمِلَتْ مَعَ
الْأَقَاوِيلِ الْإِنْفِعَالِيَّةِ الشِّعْرِيَّةِ وَذَلِكَ إِمَّا فِي التَّعْظِيمِ وَإِمَّا فِي التَّضْغِيرِ
وَإِمَّا فِي الْأَشْيَاءِ الْخُزْنَةِ الْخُزَوَةِ إِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ هِيَ الَّتِي
تُسْتَعْمَلُ صِاعَةً الْمَدِيحِ وَنَ الْأَقَاوِيلِ الْإِنْفِعَالِيَّةِ عَلَى مَا سَلَفَ. وَإِنَّمَا
تُسْتَعْمَلُ هَذِهِ مَعَ الْأَقَاوِيلِ الْإِنْفِعَالِيَّةِ الَّتِي لَيْسَتْ صَادِقَةً أَعْنِي الَّتِي
لَيْسَتْ هِيَ ظَاهِرَةُ التَّخِيلِ. وَأَمَّا الْأَقَاوِيلُ الْإِنْفِعَالِيَّةُ الَّتِي هِيَ ظَاهِرَةُ
التَّخِيلِ وَمُنَاسِبَةٌ لِلْفَرْضِ الْمَقُولِ فِيهِ وَهِيَ حَقٌّ فَلَيْسَ يُحْتَاجُ أَنْ تُسْتَعْمَلَ
فِيهَا هَذِهِ الْأُمُورُ الَّتِي مِنْ خَارِجٍ فَإِنَّهَا تَهْجُنُهَا إِذَا كَانَتْ هَذِهِ إِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ
فِي الْأَقَاوِيلِ الَّتِي تَضَعُفُ أَنْ تَفْعَلَ. مَا قَصِدَ بِهَا إِلَّا بِاقْتِرَابِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ
بِهَا وَهِيَ الْأَقَاوِيلُ الشِّعْرِيَّةُ فَإِنَّ الْقَائِلَ مِنَ الْفُقَهَاءِ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ
النَّاصِرِ يَخْضَرُ الْمَلِكُ مِنْ أَهْلِ قُرْطَبَةَ يُحَرِّضُهُ عَلَى حَسَدَايَ الْيَهُودِيِّ
إِنَّ الَّذِي شَرَفْتَ مِنْ أَجْلِهِ يَزْعُمُ هَذَا إِنَّهُ كَاذِبٌ

لَمْ يَخْتِمْ فِي اغْضَابِ النَّاصِرِ عَلَيْهِ إِلَى أَكْثَرِ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ وَإِنْ
كَانَ لَمْ يَخْرُجْ عَنْ سِمَتِهِ وَهَيْئَتِهِ لِكَوْنِ هَذَا الْقَوْلِ حَقًّا فَلِذَلِكَ لَا
يَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ أَنْ يَسْتَعْمِلَهَا إِذَا كَانَتْ لَيْسَتْ إِنَّمَا هِيَ فَضْلٌ فَقَطْ بَلْ
وَقَدْ تَهَجَّنُ الْقَوْلَ وَالْقَائِلَ إِذَا كَانَ بِالسَّنَةِ وَالْوَقَارِ (قَالَ) وَقَدْ
يَكْتَفِي الشَّاعِرُ مِنْ هَذِهِ بِاسْتِعْمَالِ الْأَشْكَالِ الْخَاصَّةِ بِصِنْفٍ مِنْ
مِنْ أَصْنَافِ الْأَقَاوِيلِ وَذَلِكَ إِذَا اضْطُرَّ إِلَى ذَلِكَ مَعَ الَّذِينَ
يَسْتَعْمِلُونَ الْأَخَذَ بِالْوُجُوهِ . وَأَعْنِي بِأَشْكَالِ الْقَوْلِ شَكْلَ الْخَبَرِ
وَشَكْلَ السُّؤَالِ وَشَكْلَ الْأَمْرِ وَشَكْلَ التَّضَرُّعِ وَذَلِكَ أَنَّ
شَكْلَ الْخَبَرِ غَيْرُ شَكْلِ السَّائِلِ وَشَكْلُ الْأَمْرِ غَيْرُ شَكْلِ
الطَّالِبِ أَوْ التَّضَرُّعِ فَالشَّاعِرُ قَدْ يَكْتَفِي بِأَشْكَالِ الْأَقَاوِيلِ عَنْ
سَائِرِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي مِنْ خَارِجٍ فَإِنَّ تِلْكَ إِذَا كَانَ مِنْ شَأْنِهَا تَهَجُّنُ
الْأَقَاوِيلِ الشَّعْرِيَّةِ فَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ تُجْعَلَ جُزْءًا مِنْ صِنَاعَةِ الشَّعْرِ
وَأِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ تُجْعَلَ جُزْءًا مِنْ صِنَاعَةِ أُخْرَى

البحث السابع

في اسطوانات الاقاول الشعرية

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) وَالْأَسْمَاءُ صِنْفَانِ إِمَّا بَسِيطٌ وَهُوَ الَّذِي لَيْسَ هُوَ
مُرَكَّبًا مِنْ أَسْمَاءٍ تَدُلُّ وَإِمَّا مُضَاعَفٌ وَهُوَ الَّذِي يُرَكَّبُ مِنْ أَسْمَاءٍ
تَدُلُّ وَإِنْ كَانَ مِنْ حَيْثُ يُقْصَدُ بِهِ تَسْيِئَةُ شَيْءٍ وَاحِدٍ لَا

تَدُلُّ تِلْكَ الْأَسْمَاءُ الَّتِي رُكِبَ مِنْهَا مِثْلُ عَبْدِ شَمْسٍ وَعَبْدِ الْقَيْسِ
 (قَالَ) وَكُلُّ أَسْمٍ فَهُوَ أَمَّا حَقِيقَتِي وَإِمَّا دَخِيلٌ فِي اللِّسَانِ
 وَإِمَّا مَنْقُولٌ نَادِرٌ أَلَا سَتَعْمَالٍ وَإِمَّا مُزَيْنٌ وَإِمَّا مَعْمُولٌ وَإِمَّا مَعْقُولٌ
 وَإِمَّا مُفَارِقٌ وَإِمَّا مُغَيَّرٌ . فَالْحَقِيقَتِي هُوَ الْأَسْمُ الَّذِي يَكُونُ خَاصًّا
 بِأُمَّةٍ أُمَّةٍ وَالْدَخِيلُ هُوَ الَّذِي يَكُونُ لِأُمَّةٍ أُخْرَى فَيُدْخِلُهُ
 الشَّاعِرُ فِي شِعْرِهِ وَذَلِكَ مِثْلُ الْأَسْتَبْرَقِ وَالْمَشْكَاةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ
 الْأَسْمَاءِ الْأَعْجَبَةِ الدَّخِيلَةِ فِي لِسَانٍ . أَمَّا الْأَسْمُ النَّادِرُ
 الْمَنْقُولُ فَهُوَ نَقْلُ أَسْمٍ غَرِيبٍ إِمَّا مِنْ النَّوعِ إِلَى الْخِنَاسِ وَمِثْلُ
 تَسْمِيَةِ الْقَتْلِ مَوْتًا وَإِمَّا مِنْ الْخِنَاسِ إِلَى النَّوعِ مِثْلُ تَسْمِيَةِ الثَّمَلَةِ
 حَرَكَةً وَإِمَّا مِنْ نَوْعٍ إِلَى نَوْعٍ آخَرَ مِثْلُ تَسْمِيَةِ الْحَيَّانَةِ بِرِقَّةٍ
 وَإِمَّا أَنْ يُنْقَلَ شَيْءٌ مَنَسُوبٌ إِلَى ثَانٍ إِلَى شَيْءٍ ثَلَاثٍ مَنَسُوبٌ إِلَى
 رَابِعٍ . مِثْلُ نِسْبَةِ الْأَوَّلِ إِلَى الثَّانِي مِثْلُ مَا كَانَ يُسَمَّى بِقُضْ
 الْقُدَمَاءُ الشَّيْخُوخَةَ عَشِيَّةَ الْعُمَرِ وَيُسَمَّى الْعَشِيَّةُ شَيْخُوخَةَ النَّهَارِ وَذَلِكَ
 أَنَّ نِسْبَةَ الشَّيْخُوخَةِ إِلَى الْعُمَرِ نِسْبَةُ الْعَشِيَّةِ إِلَى النَّهَارِ وَإِمَّا
 الْأَسْمُ الْمَعْمُولُ الْمُرْتَجَلُ فَهُوَ الْأَسْمُ الَّذِي يَخْتَرَعُهُ الشَّاعِرُ اخْتِرَاعًا
 وَيَكُونُ هُوَ أَوَّلَ مَنْ اسْتَعْمَلَهُ وَهَذَا غَيْرُ مَوْجُودٍ فِي أَشْعَارِ
 الْعَرَبِ وَإِنَّمَا يُوجَدُ ذَلِكَ فِي الصَّنَائِعِ النَّاشِئَةِ وَكَثُرَ مَا فِي الصَّنَائِعِ
 هُوَ مَنْقُولٌ لَا مَعْمُولٌ مُخْتَرَعٌ وَرَبَّمَا اسْتَعْمَلَهُ الْمُخَدِّثُونَ مِنَ الشُّعْرَاءِ
 عَلَى طَرِيقِ الْأَسْتِعَارَةِ أَعْنِي الْمَنْقُولَ إِلَى الصَّنَائِعِ . مِثْلُ قَوْلِ أَبِي
 الطَّيِّبِ :

إِذَا كَانَ مَا تَنْوِيهِ فِعْلًا مُضَارِعًا

مَضَى قَبْلَ أَنْ تُتْلَى عَلَيْهِ الْجَوَازِمُ

وَرُبَّمَا اسْتَعْمَلُوا تَضْرِيحًا لَمْ يُسْتَعْمَلْ قَبْلُ مِثْلُ قَوْلِهِ :

تَفَاوَحَ مِنْكَ الْغَارِيَّاتِ وَرَنْدُهُ

وَأَمَّا الْفُتَارِقُ وَالْمُعْقُولُ فَلَيْسَ يُوجَدَانِ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ . وَالْمُزَيْنَةُ

هِيَ الْأَسْمَاءُ كَانَتْ تُجْمَعُ بَعْضُ أَجْزَائِهَا تَعْمًا قُتِرَتْ بِهَا وَقَدْ قِيلَ

أَنَّهُ يَعْنِي بِالْفُتَارِقِ الْأَسْمَاءُ الْمَغْيِرَةُ بِالزِّيَادَةِ فِيهَا وَالنُّقْصَانِ مِنْهَا

وَالْحَذْفِ أَوْ الْقَلْبِ وَقِيلَ بَلْ يَعْنِي بِذَلِكَ الْأَسْمَاءُ الَّتِي يَغْسُرُ النُّطْقُ

بِهَا وَظَاهِرُ كَلَامِهِ أَنَّهُ أَسْمُ كَانَ يُؤَلَّفُ عِنْدَهُمْ مِنْ مَقَاطِعِ مُحَدُودَةٍ

وَالْأَسْمُ الْمُعْقُولُ فَلِأَنَّهُ فِيهَا أَحْسِبُ الَّذِي سَمَاهُ الْمُخْتَلِفَ وَظَاهِرُ

كَلَامِهِ أَنَّهُ الْأَسْمُ الْمُحَذُوفُ بِالنُّقْصَانِ مِثْلُ الْأَسْمَاءِ الْمُرَحَّةِ عِنْدَنَا

وَأَمَّا الْمَغْيِرَةُ فَهِيَ الْمُسْتَعَارَةُ الَّتِي تُسْتَعَارُ إِمَّا مِنَ الشَّيْءِ وَمِثْلُ تَسْيِيَتِهِمْ

الْكُوكِبَ نَسْرًا وَإِمَّا مِنْ الضِّدِّ مِثْلُ تَسْيِيَتِهِمْ الشَّمْسَ جَوَانَةً وَإِمَّا

مِنَ اللَّازِمِ مِثْلُ تَسْيِيَتِهِمْ الشَّحْمَ نَدًا وَالْمَطَرَ سَمَاءً (قَالَ) وَأَفْضَلُ

الْقَوْلِ فِي التَّفْهِيمِ إِنَّمَا هُوَ الْقَوْلُ الْمَشْهُورُ الْمُبْتَدَلُ الَّذِي لَا يُخْفَى

عَلَى أَحَدٍ وَهَذِهِ الْأَقَاوِيلُ إِنَّمَا تُؤَلَّفُ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْمَشْهُورَةِ

الْمُبْتَدَلَةِ وَهِيَ الَّتِي سَمَاهَا فِي مَا قَبْلُ الْحَقِيقَةِ وَتُسَمَّى الْمُسْتَوَلِيَّةُ

وَالْأَهْلِيَّةُ (قَالَ) وَذَلِكَ مِثْلُ شَعْرِ فُلَانٍ وَفُلَانٍ لِقَوْمٍ مَشْهُورِينَ

عِنْدَهُمْ . وَيَنْبَغِي أَنْ نَتَفَقَّدَ مِنَ الْغَالِبِ عَلَى أَشْعَارِهِ هَذَا النَّوعُ مِنْ

الْأَلْفَافِ مِنْ شُعْرَاءِ الْعَرَبِ (قَالَ) وَالْأَقَاوِيلُ الْعَفِيفَةُ الْمَدِيحَةُ

فهي الأقاويل التي تؤلف من الأسماء المبتدلة ومن الأسماء
الآخر أعني المنقولة الغريبة المغيرة واللغوية لأنه متى تقرأ
الشعر كُله من الألفاظ الحقيقية المستولية كان رمزاً ولغزاً
ولذلك كانت الألفاظ والرموز هي التي تؤلف من الأسماء
الغريبة أعني بالغريبة المنقول المستعار والمشتراك واللغوي. والرمز
واللغز هو القول الذي يشتغل على معانٍ لا يمكن أو يصعب
اتصال تلك المعاني التي يشتغل عليها بعضاً ببعض حتى يطابق
بذلك أحد الموجودات. ويكون إما بحسب الألفاظ المشهورة
فارتصال تلك المعاني بعضها ببعض غير ممكن وإما بحسب
الألفاظ الغير المشهورة فممكن وذلك كثير في شعر ذي الرمة
من شعراء العرب. وفضيلة القول الشعري العفيفي أن يكون مؤلفاً
من الأسماء المستولية من تلك الأنواع الآخر وأن يكون الشاعر
حيث يريد الإيضاح يأتي بالأسماء المستولية وحيث يريد التعجب
والإلغاز يأتي بالصنف الآخر من الأسماء ولذلك قد يتضح
بمن يريد الإيضاح فيأتي بالأسماء المشتركة أو الغريبة أو الألسن
أو المسمولات ويتضحك أيضاً بمن يريد التعجب والإلغاز فيأتي
بالأسماء المبتدلة وكان الشاعر يحب له ألا يفرط في استعمال
الأسماء الغير المستولية فيخرج إلى حد الرمز ولا أيضاً يفرط
في الأسماء المستولية فيخرج عن طريقة الشعر إلى الكلام
المعارف (قال) وأما موافقة الألفاظ بعضها لبعض في المقدار

وَمَعَادِلُ الْمَعَانِي بَعْضُهَا لِبَعْضٍ وَمُوازَنَتُهَا فَأَمْرٌ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ
عَامًّا وَمُشْتَرَكًا لِجَمِيعِ الْأَلْفَاظِ الَّتِي هِيَ أَجْزَاءُ الْقَوْلِ الشِّعْرِيِّ
وَذَلِكَ أَنَّا نَحْدُ الشُّعْرَاءَ وَإِنْ اسْتَعْمَلُوا الْأَلْفَاظَ الْحَقِيقِيَّةَ فِي الْمَوَاضِعِ
الَّتِي يَهْزَأُ بِهَا فِي اسْتِعْمَالِهِمْ إِيَّاهَا أَيْسَ يَخْلُو شِعْرُهُمْ مِنْ هَذَيْنِ
الْأَمْرَيْنِ أَعْنِي مِنَ الْمُوازَنَةِ وَالْمُوَافَقَةِ فِي الْمَقْدَارِ وَلَكِنْ كَانَ
هَذَا عَامًّا لِجَمِيعِ أَنْوَاعِ الشِّعْرِ. وَأَمَّا الْأَشْعَارُ الَّتِي تَأْتِلِفُ مِنَ الْأَسْمَاءِ
الْمُخْتَلِفَةِ فَرُجُودُ هَذَا الْمَعْنَى فِيهَا آيِنٌ وَهُوَ وَافَقَةُ الْأَلْفَاظِ الَّتِي ذَكَرَ فِي
الْمَقْدَارِ هِيَ مُقَارَنَةُ بَعْضِهَا لِبَعْضٍ فِي عَدَدِ الْحُرُوفِ وَإِنْ وَافَقَتْ
مَعَ هَذَا فِي كُلِّ اللَّفْظِ أَوْ فِي بَعْضِ اللَّفْظِ فَهُوَ الَّذِي يُعْرَفُ
بِالْمُطَابَقَةِ وَالْحِجَاسَةِ عِنْدَ أَهْلِ زَمَانِنَا. وَالْمُوَافَقَةُ أَخْبَاءُ وَذَلِكَ أَنَّهُ
لَا يَخْلُو الْمُوَافَقَةُ أَنْ تَكُونَ فِي كُلِّ اللَّفْظِ وَكُلِّ الْمَعْنَى وَهَذَا مِثْلُ
قَوْلِ الشَّاعِرِ :

لَا أَرَى الْمَوْتَ يَسْبِقُ الْمَوْتَ تَتِي

وَمِثْلُ قَوْلِهِمْ طَوِيلُ التَّحَادِ طَوِيلُ الْعِمَادِ. أَوْ أَنْ تَكُونَ فِي
بَعْضِ اللَّفْظِ وَبَعْضِ الْمَعْنَى أَوْ أَنْ تَكُونَ فِي بَعْضِ اللَّفْظِ وَكُلِّ الْمَعْنَى
أَوْ تَكُونَ فِي كُلِّ اللَّفْظِ وَبَعْضِ الْمَعْنَى أَوْ تَكُونَ فِي كُلِّ
اللَّفْظِ فَقَطْ أَوْ فِي بَعْضِ اللَّفْظِ فَقَطْ أَوْ تَكُونَ فِي كُلِّ الْمَعْنَى
فَقَطْ أَوْ فِي بَعْضِ الْمَعْنَى فَمِثَالُ الْمُوَافَقَةِ فِي بَعْضِ اللَّفْظِ
وَبَعْضِ الْمَعْنَى الْأَسْمَاءُ الْمُسْتَقَّةُ مِنْ تَصْرِيفٍ وَاحِدٍ وَذَلِكَ مِثْلُ قَوْلِ
الْمُتَنَبِّي :

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ
وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْكَارِمُ
وَمِثَالُ الْمُوَافَقَةِ فِي بَعْضِ اللَّفْظِ وَكُلُّ الْمَعْنَى قَوْلُهُمْ دِرْهَمُ
ضَرْبِ الْأَمِيرِ وَمَضْرُوبُ الْأَمِيرِ. وَمِثَالُ عَكْسِ هَذَا أَنْ يَكُنْ فِي كُلِّ
الْأَلْفِظِ وَبَعْضِ الْمَعْنَى الْأَسْمَاءُ الْمُشْتَرَكَةُ وَالشُّعْرَاءُ يَسْتَعْمِلُونَهَا كَثِيرًا
وَمِثَالُ الْمُوَافَقَةِ فِي كُلِّ اللَّفْظِ فَقَطِ الْأَسْمَاءُ الْمُشْتَرَكَةُ مِثْلُ قَوْلِ
الْمَعْرِيِّ :

مَعَانُ مِنْ أَحِبَّتْنَا سَعَانُ

وَمِثْلُ قَوْلِهِ :

فَرَنْدُكَ مُغْتَالٌ وَحَرْفُكَ مُغْتَالٌ

وَمِثَالُ الْمُتَّفِقَةِ فِي بَعْضِ اللَّفْظِ فَقَطِ قَوْلُ حَبِيبٍ :

مَا أَنْتَ عَنْ ذُعْلِيَّةٍ بِذَاهِلٍ

وَقَوْلُ أَبِي الطَّيِّبِ :

أَقْلَبُ الطَّرْفَ بَيْنَ الْحَيْلِ وَالْحَوْلِ

وَهَذَا سَكُّهُ فِي لُفْظِ الْعَرَبِ مِثْلُ الْخَرْبِ وَالضَّرْبِ وَالْحَمْلِ
وَالْحَلِ وَأَشْرَقَتِ الشَّمْسُ وَشَرَقَتْ. وَمِثَالُ الْمُوَافَقَةِ فِي كُلِّ الْمَعْنَى
فَقَطِ الْأَسْمَاءُ الْمُتَرَادِفَةُ مِثْلُ قَوْلِهِ أَقْوَى وَأَقْفَر. وَمِثَالُ الْمُتَّفِقَةِ فِي
بَعْضِ الْمَعْنَى فَقَطِ الْأَسْمَاءُ الْمُخْتَلِفَةُ الَّتِي تَدُلُّ مِنْ الشَّيْءِ الْوَاحِدِ
عَلَى جِهَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ مِثْلَ الصَّارِمِ وَالذَّكَرِ. وَالْقَوَائِي عِنْدَ الْعَرَبِ
هِيَ مُوَافَقَةٌ فِي الْقِدَارِ وَفِي بَعْضِ اللَّفْظِ وَذَلِكَ إِمَّا فِي حَرْفٍ وَاحِدٍ

وَهُوَ الْآخِرُ وَإِمَّا فِي حَرْفَيْنِ وَهُوَ الَّذِي يُعْرِفُهُ الْخُذُّونَ بِاللُّزُومِ وَإِمَّا
الْمُوازَنَةُ فِي أَجْزَاءِ الْقَوْلِ فَهِيَ عَلَى أَنْحَاءِ أَرْبَعَةٍ أَحَدُهَا أَنْ يَأْتِيَ
الشَّاعِرُ بِالشَّيْءِ وَشَيْئِهِ بِمِثْلِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ أَوْ يَأْتِيَ بِالْأَضْدَادِ بِمِثْلِ
الَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَوْ يَأْتِيَ بِالشَّيْءِ وَمَا يُسْتَعْمَلُ فِيهِ بِمِثْلِ الْقَوْسِ
وَالسَّهْمِ وَالْقَرْسِ وَالْحِجَامِ أَوْ يَأْتِيَ بِالْأَشْيَاءِ الْمُنَاسِبَةِ بِمِثْلِ الْمَلِكِ
وَالْإِلَهِ وَهَذِهِ الْمُنَاسِبَةُ إِنَّمَا تُؤْخَذُ مِنْ أَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ. وَفِي هَذَا الْبَابِ
عِيبٌ عَلَى الْكُمَيْتِ:

تَكَامَلَ فِيهِ الدَّلُّ وَالشَّنْبُ

لِأَنَّ الدَّلَّ غَيْرُ شَيْءٍ بِالشَّنْبِ. وَمِنْ هَذَا الْبَابِ قَالَ بَعْضُهُمْ
فِي قَوْلِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ:

كَأَنِّي لَمْ أَزَكِبْ جَوَادًا لِلدَّةِ وَلَمْ أَعْرِفْ كَاءِبًا ذَاتَ خَلْخَالٍ
وَلَمْ أَسْبِلِ الزِّقَّ الرُّوِّيَّ وَلَمْ أَقُلْ لِحَلِيلِي كُرِّي كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالٍ
إِنَّهُ غَيْرُ مُنَاسِبٍ وَإِنَّ التَّنَاسُبَ فِيهِ هُوَ عَكْسُ مَا فَعَلَ أَغْنِي
أَنْ يَكُونَ صَدْرُ الْبَيْتِ الْأَوَّلِ صَدْرَ الثَّانِي وَصَدْرُ الثَّانِي صَدْرَ
الْأَوَّلِ وَمِثْلُ هَذَا قِيلَ فِي قَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ:

وَقَفْتُ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكٌّ لَوَاقِفٍ

كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمٌ

تَمْرُ بِكَ الْإِبْطَالُ كَلِمَى هَزِيمَةً

وَوَجْهُكَ وَضَاحٌ وَتَغْرُكَ بِأَيْمٍ

إِنَّ التَّنَاسُبَ فِيهِ أَنْ يَكُونَ صَدْرُ الْبَيْتِ الْأَوَّلِ لِلثَّانِي وَصَدْرُ

الثاني للأول وما قاله أبو الطيب له وجه من التناوب وكذلك ما
 قاله أمرؤ القيس (قال) وأقول إنما يكون مختلفاً أي مغيراً عن
 القول الحقيقي من حيث توضع فيه الأسماء متوافقة في الموازنة
 والقياس وبالأسماء الغريبة وبغير ذلك من أنواع التغيير. وقد
 يستدل على أن القول الشعري هو المفسر أنه إذا غيّر القول
 الحقيقي سمي شعراً أو قولاً شعرياً ووجد له فعل الشعر مثال ذلك
 قول القائل:

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأزكان من هو مايسح
 أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطي الأباطح
 إنما صار شعراً من قبل أنه استعمل قوله:

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطي الأباطح
 بدل قوله تحدثنا ومشينا وكذلك قوله:

بعيدة مهوى القرط

إنما صار شعراً لأنه استعمل هذا القول بدل قوله طريقة
 العنق وكذلك قول الآخر:

يا دار أين طبأوك اللعس قد كان لي في أنسها أنس
 إنما صار شعراً لأنه أقام الدار مقام اللعس بخاطبتها وأبدل
 لفظ النساء بالطباء وآتى بموافقة الأنس والأنس في اللفظ وأنت
 إذا تأملت الأشعار الحركية وجدتها بهذه الحال. وما عدا هذه
 التغييرات فليس فيه من معنى الشعرية إلا الوزن فقط والتغييرات

تَكُونُ بِالْمَوَازَنَةِ وَالْمُدَافَعَةِ وَالْإِبْدَالِ وَالتَّشْبِيهِ وَبِالْجُمْلَةِ بِإِخْرَاجِ الْقَوْلِ
غَيْرَ مُخْرَجِ الْعَادَةِ مِثْلُ الْقَلْبِ وَالْحَذْفِ وَالزِّيَادَةِ وَالنَّقْصَانِ وَالتَّقْدِيمِ
وَالتَّأْخِيرِ وَتَغْيِيرِ الْقَوْلِ مِنَ الْإِيجَابِ إِلَى السَّلْبِ وَمِنَ السَّلْبِ إِلَى
الْإِيجَابِ وَبِالْجُمْلَةِ مِنَ الْمُقَابِلِ إِلَى الْمُقَابِلِ وَبِالْجُمْلَةِ بِجَمِيعِ
الْأَنْوَاعِ الَّتِي تُسَمَّى عِنْدَنَا مُجَازًا فَالْحَذْفُ مِثْلُ قَوْلِ الْقُرْآنِ وَأَنَالَ
الْقَرْيَةَ. وَقَوْلِهِ: وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ
الْأَرْضُ أَوْ نُكِّلَ بِهِ الْمَوْتَى. وَالْقَلْبُ مِثْلُ قَوْلِ الْقَائِلِ: فَلَنْ مِنْ
أَجْلِ بَنِيهِ لَا بُدَّ مِنْ آخِلِهِ وَالسُّنَّةُ سَبَبُ الْإِنْسَانِ لَا الْإِنْسَانُ
سَبَبُ السُّنَّةِ. وَالتَّقْدِيمُ وَالتَّأْخِيرُ مِثْلُ قَوْلِهِ: وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قِيمًا.
وَقَوْلِهِ: وَإِذْ أَبْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ. وَالزِّيَادَةُ مِثْلُ قَوْلِهِ: تَبَّتْ بِالذُّهْنِ
وَمِثْلُ قَوْلِهِ: أَيْسَ كَمَثَلِهِ شَيْءٌ وَمِثْلُ قَوْلِهِ وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ
وَمِثَالُ التَّغْيِيرِ مِنَ الْإِيجَابِ إِلَى السَّلْبِ قَوْلُ الْقَائِلِ: مَا فَعَلَهُ أَحَدٌ
إِلَّا أَنْتَ بَدَلَ قَوْلِهِ: أَنْتَ فَعَلْتَهُ وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ الثَّابِتِ:
وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ عِذْرٌ أَنْ سُيُوفَهُمْ بَيْنَ قَوْلٍ وَبَيْنَ قِرَاعِ الْكِتَابِ
فَأَنَّهُ أَوْجَبَ لَهُمُ الْفَضَائِلَ لِيَنْفِي الْعُيُوبَ وَأَسْتَشْنِي مِنْهَا مَا لَيْسَ
بِعَيْبٍ عَلَى جِهَةِ تَسْمِيَةِ الشَّيْءِ بِاسْمِ ضِدِّهِ. وَمِنَ التَّغْيِيرَاتِ اللَّذِيذَةِ
جَمْعُ الْأَضْدَادِ فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ كَقَوْلِهِ:

فِيكَ الْخِصَامُ وَأَنْتَ الْخِصْمُ وَالْحَكَمُ

وَكُونَ الضِّدَّ سَبَبًا لِضِدِّ كَقَوْلِهِ: وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ وَلَيْسَ
يُخَفَى عَلَيْكَ أَنْوَاعُهَا الْبَسِيطَةُ وَالْمُرَكَّبَةُ الْمُخْصُورَةُ فِي هَذِهِ الْكَلِمَاتِ

وَيُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ إِحْصَاءُ أَنْوَاعِهَا الْآخِرَةِ عَسِيرًا جِدًّا وَلِذَلِكَ
 اقْتَصَرَ هُنَا عَلَى الْكَلِمَاتِ فَقَطْ. وَالْفَاضِلُ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ هُوَ أَنْ
 يُسَمَّيَ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا مَا هُوَ أَبِينُ وَأَظْهَرُ وَأَشْبَهُ وَهَذَا لَا
 يُوجَدُ إِلَّا فِي النَّادِرِ مِنَ الشُّعْرَاءِ وَذَلِكَ أَنَّ اسْتِعْمَالَ الْأَبِينِ مِنْ
 هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَالْأَشْبَهُ هُوَ دَلِيلُ الْمَهَارَةِ. وَهَذَا الصِّنْفُ هُوَ الَّذِي
 يَجْمَعُ إِلَى جُودَةِ الْإِفْهَامِ فِعْلَ الْأَقَاوِيلِ الشِّعْرِيَّةِ أَغْنَى تَحْرِيكَ
 النَّفْسِ مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ الْإِبْدَالَ إِذَا كَانَ شَدِيدَ الشَّبهِ آفَادَ جُودَةَ
 التَّخْيِيلِ وَالْإِفْهَامِ مَعًا وَرُبَّمَا عَرَضَ مِنَ الْإِبْدَالِ الْمُنَاسِبِ قَلَّةُ فَهْمِ
 عِنْدَ الْفِدَامِ مِنَ السَّامِعِينَ كَمَا عَرَضَ فِي قَوْلِهِ: حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ
 الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ أَنْ ظَنَّ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ الْخَيْطُ الْحَقِيقِيُّ
 فَذَكَرْتُ مِنَ النَّجْمِ. (قَالَ) وَالْأَلْمَاءُ الْمُرَكَّبَةُ تَضَعُ لِلْوِزْنِ الَّذِي
 يُفْنَى فِيهِ عَلَى الْأَخْيَارِ مِنْ غَيْرِ تَعْيِينِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَهَذِهِ الْأَلْمَاءُ
 هِيَ قَلِيلَةٌ الْوُجُودِ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ وَهِيَ مِثْلُ قَوْلِهِمُ الْعَبَشِيُّ
 الْمُنْسُوبُ إِلَى عَبْدِ شَمْسٍ. وَأَمَّا اللَّغَاتُ فَتَضَعُ الشُّعْرُ الَّذِي يُذَكَّرُ فِيهِ
 أَمْرُ الْعَادِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْأَهْوَالِ وَكَانَ صِنْفًا مِنَ الشُّعْرِ عِنْدَهُمْ
 مَعْرُوفًا. وَأَمَّا الْأَلْمَاءُ الْمُنْقُولَةُ الْغَرِيبَةُ فَتَخْتَصُّ بِالشُّعَارِ الَّتِي تُقَالُ
 فِي الْأَمْثَالِ وَالْحِكْمِ وَالْقِصَصِ الْمَشْهُورَةِ



البحث الثامن

في صناعة الاشعار القصصية

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) ففيا قلناه في صناعة الميرج وفي الاشياء المشتركة
لأصناف الاشعار بن التشبيه وغير ذلك كفاية. والاشعار القصصية
سبيلها في الأجزاء التي هي المبدأ والوسط والنهاية سبيل أجزاء
صناعة الميرج وكذلك في المحاكاة إلا أن المحاكاة ليس تكون
للأفعال فيها وإنما تكون للأدمنة الواقعة فيها تلك الأفعال وذلك
أنه إنما يحاكي في هذه كيف كانت أحوال المتقدم مع
أحوال المتأخر وكيف ثقل الدول والممالك والآيام. ومحاكاة
هذا النوع من الوجود قليل في لسان العرب وهو كثير في
الكتب الشرعية. وذكر مجيدين في هذا الصنف من شعرائهم
وأثنى ثناء عاما على أورميروش. ومن جيد ما في هذا المعنى للعرب
قول الأنود بن يعفر :

مَاذَا أَوْتَمِلُ بَعْدَ آلِ مُحَرَّقِ	تَرَكُوا مَنَازِلَهُمْ وَبَعْدَ إِيَادِ
أَرْضِ الْخَوَزَنْقِ وَالسَّيْرِ وَبَارِقِ	وَالْقَصْرِ ذِي الشَّرَفَاتِ مِنْ سِنْدَادِ
تَرُلُوا بِأَنْقَرَةِ يَسِيلُ عَلَيْهِمِ	مَاءُ الْفُرَاتِ يَجِيءُ مِنْ أَطْوَادِ
جَرَّتِ الرِّيَّاحُ عَلَى مَحَلِّ دِيَارِهِمْ	فَكَانَتْهُمْ كَانُوا عَلَى مِعَادِ
فَارَى السَّيِّمِ وَكُلَّ مَا يُلْهِى بِهِ	يَوْمًا يَصِيرُ إِلَى بَلَى وَنَفَادِ

(قَالَ) وَأَجْزَاءُ هَذَا النَّوعِ هِيَ أَجْزَاءُ صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ الْعَفِيفَةِ
مِنَ الْإِدَارَةِ وَالْأَسْتِدْلَالِ وَالتَّرَكِيبِ مِنْهُمَا. وَرُبَّمَا كَانَ بَعْضُ أَجْزَائِهَا
أَنْفِعَالِيًا كَالْحَالِ فِي صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ. وَصَنَائِعُ الشِّعْرِ وَأَحْكَامُهَا فِي
التَّنْحِينِ وَالْعِنَاءِ أَحْكَامُ صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ. وَذَكَرَ فُرُوقًا بَيْنَ صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ
وَبَيْنَ صَنَائِعِ الشِّعْرِ الْآخَرِ عَنْهُمْ وَخَوَاصَ تَخْتَصُّ بِهَا تِلْكَ الْأَشْعَارُ
الْآخَرُ فِي الْأَوْزَانِ وَالْأَجْزَاءِ وَالْحَاكَاةِ وَالْقَدْرِ وَأَنَّ هَاهُنَا أَوْزَانًا
هِيَ الَّتِي يَبْغُضُ الْأَشْعَارِيُّونَ بَعْضُ وَذَكَرَ مَنْ أَجَادَ مِنْ الشُّعْرَاءِ
فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَمَنْ لَمْ يُجِدْ وَأَثْنَى فِي هَذَا كُلِّهِ عَلَى أَوْمِيرُوشَ
وَكُلُّ ذَلِكَ خَاصٌّ بِهِمْ وَغَيْرُ مَوْجُودٍ مِثْلَهُ عِنْدَنَا إِمَّا لِأَنَّ ذَلِكَ الَّذِي
ذَكَرَ غَيْرُ مُشْتَرَكٍ لِلْكَثِيرِ مِنَ الْأُمَمِ وَإِمَّا أَنَّهُ عَرَضٌ لِلْعَرَبِ فِي
هَذِهِ الْأَشْيَاءِ أَمْرٌ خَارِجٌ عَنِ الطَّبْعِ وَهُوَ آيِنٌ فَلِأَنَّهُ مَا كَانَ لِيُثْبِتَ
فِي كِتَابِهِ هَذَا مَا هُوَ خَاصٌّ بِهِمْ بَلْ مَا هُوَ مُشْتَرَكٌ لِلْأُمَمِ الطَّبِيعِيَّةِ

المبحث التاسع

في كيفية التخلص الى ما يراد محاكاته

(من الكتاب نفسه)

وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مَا يَأْتِي بِهِ الشَّاعِرُ مِنَ الْكَلَامِ يَسِيرًا
بِالِإِضَاقَةِ إِلَى الْكَلَامِ الْحَاكِي كَمَا كَانَ يَفْعَلُ أَوْمِيرُوشُ فَلِأَنَّهُ إِنَّمَا
كَانَ يَفْعَلُ صَدْرًا يَسِيرًا ثُمَّ يَتَخَلَّصُ إِلَى مَا يُرِيدُ مُحَاكَاتَهُ مِنْ غَيْرِ
أَنْ يَأْتِيَ فِي ذَلِكَ شَيْءٌ لَمْ يُعْتَدَ لَكِنْ مَا قَدْ أُعْتِيدَ فَإِنَّ غَيْرَ الْمَعْتَادِ

مُسْكِرٌ وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ فِيمَا أَحْسِبُ لَانَ لِلْأَمْرِ فِي تَشْبِيهَاتِهِمْ عَوَائِدَ
خَاصَّةٌ مِثْلُ قَوْلِ أَمْرِى وَالْقَيْسِ :

يُهَيِّلُ وَيُذِرِي ثُرْبَهَا وَيُمِيرُهُ إِثَارَةَ نَبَاتِ الْهَوَاجِرِ مُخْمِسِ
وَكَذَلِكَ تَشْبِيهِهُمْ الضَّبَّ بِالْثُونِ لِمَكَانِ السَّرَابِ الْمَوْجُودِ فِي
بِلَادِهِمْ وَمِنْ هَذَا قَوْلُهُ : وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ
(قَالَ) وَمَتَى طَالَ الْكَلَامُ وَلَيْسَ فِيهِ تَغْيِيرٌ وَلَا مُحَاكَاةٌ فَيَنْبَغِي
أَنْ يُعْتَنَى فِي ذَلِكَ بِإِيرَادِ الْأَلْفَاظِ الْبَيِّنَةِ الدَّلَالَةِ وَهِيَ الَّتِي تَدُلُّ
عَلَى أَشْيَاءَ بِأَعْيَانِهَا لَا عَلَى أَشْيَاءَ مُتَضَادَّةٍ أَوْ مُخْتَلِفَةٍ وَأَنْ يَكُونَ
تَرْكِيبُهَا عَلَى الْمَشْهُورِ عِنْدَهُمْ وَتَكُونَ سَهْلَةً عِنْدَ النُّطْقِ. وَيُشَبَّهُ أَنْ
يَكُونَ هَذَا هُوَ أَكْثَرُ مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ أَيْمُ الْفَصَاحَةِ
إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الْقَوْلُ ظَاهِرَ الصِّدْقِ وَمَشْهُورًا فَإِنَّ الصِّدْقَ
الَّذِي يَتَضَمَّنُهُ يَشْفَعُ لِمَا فِيهِ مِنْ قِلَّةِ الْفَصَاحَةِ وَقِلَّةِ التَّغْيِيرِ وَالْمُحَاكَاةِ

البحث العاشر

في انواع المحاكاة غير المقبولة

(من الكتاب نفسه)

وَالْفَلْطُ الَّذِي يَقَعُ فِي الشِّعْرِ وَيَجِبُ عَلَى الشَّاعِرِ تَوْبِيحُهُ
فِيهِ سِتَّةُ أَصْنَافٍ. أَحَدُهَا أَنْ يُحَاكِيَ بَغْيَرٍ مُمَكِّنٍ بَلْ مُتَّبِعٍ وَمِثَالُ
هَذَا عِنْدِي قَوْلُ ابْنِ الْمَعْتَرِ يَصِفُ الْقَمَرَ فِي تَنْقُصِهِ :

أَنْظُرْ إِلَيْهِ كَزَوْرَقٍ مِنْ فِضَّةٍ قَدْ أَثْقَلَتْهُ حِمْلُهُ مِنْ عَذْبَرِ

فَإِنَّ هَذَا مُتَّبِعٌ. وَإِنَّمَا آتَتْهُ بِذَلِكَ شِدَّةُ الشَّيْءِ وَإِنَّهُ لَمْ يُقْصَدَ
بِهِ حَتٌّْ وَلَا نَهْيٌ بَلْ إِنَّمَا يُجِبُّ أَنْ يُحَاكِيَ بِمَا هُوَ مَوْجُودٌ أَوْ يُظَنُّ
أَنَّهُ مَوْجُودٌ مِثْلُ مُحَاكَاةِ الْأَشْرَارِ بِالشَّيَاطِينِ أَوْ بِمَا هُوَ مُمَكِّنُ الْوُجُودِ
فِي الْأَكْثَرِ لَا فِي الْأَقَلِّ أَوْ عَلَى النَّسَائِي فَإِنَّ هَذَا النَّوعَ مِنَ
الْوُجُودِ هُوَ الَّتِي بِالْخَطَابَةِ مِنْهُ بِالشَّعْرِ. وَالْمَوْضِعُ الثَّانِي مِنْ غَلْطِ
الشَّاعِرِ أَنْ يُحَرِّفَ الْمُحَاكَاةَ وَذَلِكَ مِثْلُ مَا يَغْرِضُ لِلصَّوَرِ أَنْ
يَزِيدَ فِي الصُّورَةِ عُضْوًا لَيْسَ فِيهَا أَوْ يُصَوِّرَهُ فِي غَيْرِ الْمَكَانِ الَّذِي
هُوَ فِيهِ كَنْ يُصَوِّرُ الرَّجُلَيْنِ فِي مُقَدَّمِ الْحَيَوَانِ ذِي الْأَرْبَعِ وَالْيَدَيْنِ
فِي مُؤَخَّرِهِ وَيَذْفِي أَنْ يُتَفَقَّدَ مِثَالُ هَذَا فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَقَرِيبٌ
مِنْهُ عِنْدِي قَوْلُ بَعْضِ الْمُحَدِّثِينَ الْأَنْدَلِسِيِّينَ يَصِفُ الْفَرَسَ :

وَعَلَى أُذُنَيْهِ أُذُنٌ ثَالِثَةٌ مِنْ سِنَانِ السَّهَرِيِّ الْأَزْرَقِ
وَالْمَوْضِعُ الثَّلَاثُ أَنْ يُحَاكِيَ النَّاطِقِينَ بِأَشْيَاءَ غَيْرِ نَاطِقَةٍ فَإِنَّ
هَذَا أَيْضًا مِنْ مَوَاضِعِ التَّوْبِيخِ وَذَلِكَ أَنَّ الْحَقْدَ فِي هَذِهِ الْمُحَاكَاةِ
يَكُونُ قَلِيلًا وَالْكَذِبَ كَثِيرًا إِلَّا أَنْ يُشَبَّهَ مِنَ النَّاطِقِ صِفَةٌ
مُشْتَرَكَةٌ لِلنَّاطِقِ وَغَيْرِ النَّاطِقِ وَقَدْ تَوَنَّنْتُ بِمِثْلِ هَذَا الْعَادَةِ مِثْلُ
تَشْبِيهِ الْعَرَبِ النِّسَاءِ بِالطُّبَّاءِ وَبِقَرِّ الْوَحْشِ. وَالْمَوْضِعُ الرَّابِعُ أَنْ
يُشَبَّهَ الشَّيْءُ بِشَيْءٍ ضِدِّهِ أَوْ بِضِدِّ نَفْسِهِ وَذَلِكَ مِثْلُ قَوْلِ الْعَرَبِ
سَقِيمَةُ الْخُفُونِ فِي الْحَسَنَةِ الْغَاضَّةِ النَّظَرِ وَقَرِيبٌ مِنْهُ قَوْلُهُمْ :

رَاحُوا كَأَنَّهُمْ مَرْضَى مِنَ الْكَرَمِ

وَقَوْلُ الْآخَرِ :

وَمُحَرَّقٍ عَنْهُ أَقْمِصُ تَحَالُهُ وَسَطُ الْيُوتِ مِنْ أَحْيَاءِ سَقِيمًا
فَإِنَّ هَذِهِ كُلُّهَا هِيَ أَضْدَادُ الصِّفَاتِ الْحَسَنَةِ وَإِنَّمَا آنَسَ بِذَلِكَ
الْعَادَةُ، وَالْمَوْضِعُ الْخَامِسُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْأَسْمَاءِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى الْمُتَضَادِّينَ
بِالسَّوَاءِ مِثْلُ الصَّرِيمِ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ وَالْقَرَّ وَالْجَلْدِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا
قَدْ ذَكَرَهُ أَهْلُ اللُّغَةِ، وَالْمَوْضِعُ السَّادِسُ أَنْ يَتْرَكَ الْحَاكَاةَ الشِّعْرِيَّةَ
وَيَنْتَقِلَ إِلَى الْإِقْنَاعِ وَالْأَقَاوِيلِ التَّصْدِيقِيَّةِ وَبِخَاصَّةٍ مَتَى كَانَ الْقَوْلُ
هَجِيئًا قَلِيلَ الْإِقْنَاعِ وَذَلِكَ مِثْلُ قَوْلِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ يَعْتَذِرُ عَنْ
جُبْنِهِ :

وَمَا جُبْنْتُ خَيْلِي وَلَكِنْ تَذَكَّرْتُ مَرَايَطَهَا مِنْ بَرَبِيعِصَ وَمَيْسَرَا
وَقَدْ يَحْسُنُ هَذَا الصَّنْفُ إِذَا كَانَ حَسَنَ الْإِقْنَاعِ أَوْ صَادِقًا
مِثْلُ قَوْلِ الْآخِرِ يَعْتَذِرُ عَنِ الْفِرَارِ :

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَرَكْتُ قِتَالَهُمْ حَتَّى رَمَوْا فَرَسِي بِأَشَقَرٍ مُزِيدٍ
وَعَلِمْتُ أَنِّي إِنْ أَقَاتِلُ وَاحِدًا أَقْتُلُ وَلَا يَنْسِكِي عَدُوِّي مَشْهُدِي
فَصَدَدْتُ عَنْهُمْ وَالْأَحِبَّةُ فِيهِمْ طَمَعًا لَهُمْ بِعِقَابِ يَوْمٍ مُفْسِدٍ
فَإِنَّ هَذَا الْقَوْلَ إِنَّمَا حَسُنَ فِي الْأَكْثَرِ لِصِدْقِهِ لِأَنَّ التَّفْسِيرَ
الَّذِي فِيهِ يَسِيرُ وَذَلِكَ قَالَ الْقَائِلُ : يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ لَقَدْ حَسَنْتُمْ
كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الْفِرَارَ (قَالَ) وَإِذَا كَانَتْ تَوَاضِعُ الْفَلَطِ بِشَّةً
وَمَوَاضِعُ التَّوْبِيخِ مُقَابِلَتَهَا فَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ تَوَاضِعُ الْفَلَطِ الذَّاتِي
وَالْتَّوْبِيخُ الْخَاصِّي. اثْنِي عَشَرَ مَوْضِعًا بِشَّةً أَغَالِيطُ وَبِشَّةً تَوْبِيخَاتٌ
وَأَمِثَّةُ التَّوْبِيخَاتِ غَيْرُ مَوْجُودَةٍ عِنْدَنَا إِذَا كَانَ شِعْرَاؤُنَا لَمْ تَسْمَعْ

لَهُمْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ وَلَا شَعَرُوا بِهَا فَهَذَا هُوَ مَا تَأْدَى إِلَى فَهْمِنَا مِمَّا
ذَكَرَهُ أَرِسْطُو فِي كِتَابِهِ هَذَا مِنَ الْأَقَاوِيلِ الْمَشْتَرَكَةِ لِجَمِيعِ أَصْنَافِ
الشَّعْرِ وَالْخَاصَّةِ بِالْمَدِيحِ. أَعْنِي الْمَشْتَرَكَةَ مِنْهَا أَيْضًا لِلْأَكْثَرِ أَوْ
لِلْجَمِيعِ. وَسَائِرُ مَا ذَكَرَهُ فِي كِتَابِهِ هَذَا مِنَ الْفُضُولِ الَّتِي بَيْنَ سَائِرِ
أَصْنَافِ الشَّعْرِ عِنْدَهُمْ وَبَيْنَ صِنْفِ الْمَدِيحِ فَهُوَ خَاصٌّ بِهِمْ وَمَعَ
ذَلِكَ فَلَسْنَا نَجِدُهُ ذَكَرَ مِنْ ذَلِكَ فِي هَذَا الْكِتَابِ الْوَاصِلِ إِلَيْنَا
إِلَّا بَعْضَ ذَلِكَ. وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ لَمْ يُتَرَجَمْ عَلَى
الْثَمَامِ. وَأَنَّهُ بَقِيَ مِنْهُ الشَّكْلُ فِي سَائِرِ فُضُولِ أَصْنَافِ كَثِيرٍ مِنَ
الْأَشْعَارِ عِنْدَهُمْ وَقَدْ كَانَ هُوَ وَعَدَ بِالشَّكْلِ فِي هَذِهِ كُلِّهَا فِي
صَدْرِ كِتَابِهِ. وَالَّذِي نَقَصَ مِمَّا هُوَ مُشْتَرَكٌ هُوَ الشَّكْلُ فِي صِنَاعَةِ
الْهَيْجَاءِ لَكِنْ يُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ الْوُقُوفُ عَلَى ذَلِكَ بِقُرْبٍ مِنْ
الْأَشْيَاءِ الَّتِي قِيلَتْ فِي تَابِ الْمَدِيحِ إِذْ كَانَتْ الْأَضْدَادُ يُعْرَفُ
بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ. وَأَنْتَ تَتَبَيَّنُ إِذَا وَقَفْتَ عَلَى مَا كَتَبْنَاهُ
هَاهُنَا أَنَّ مَا شَعَرَ بِهِ أَهْلُ إِسَائِنَا مِنَ الْقَوَائِنِ الشَّعْرِيَّةِ بِالْإِضَافَةِ
إِلَى مَا فِي كِتَابِ أَرِسْطُو هَذَا وَفِي كِتَابِ الْخُطَابَةِ نَزَّرَ يَسِيرٌ كَمَا
يَقُولُهُ أَبُو نَضْرٍ. وَأَيْسَ يَخْفَى عَلَيْكَ أَيْضًا كَيْفَ تُرْجَعُ تِلْكَ الْقَوَائِنُ
إِلَى هَذِهِ وَلَا مَا ذَكَرُوا مِنْ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ الصَّوَابِ مِمَّا ذُكِرَ عَلَى
غَيْرِ ذَلِكَ وَاللَّهُ أَلْمُوفِقُ لِلصَّوَابِ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ

الفصل الثاني

في معرفة الشعراء

البحث الاول

في القدماء من الشعراء

(من كتاب المزهر في علوم اللغة للعلامة جلال الدين السيوطي)

وَمِنْ قُدَمَاءِ الشُّعْرَاءِ أَنْصَرُ بْنُ سَعْدٍ بْنُ قَيْسٍ عَيْلَانَ بْنِ مُضَرَ
وَهُوَ مُنَبِّهٌ أَبُو بَاهِلَةَ وَغَنِيٌّ وَالطُّفَاوَةُ . وَمِنْهُمْ الْمُسْتَوِيرُ بْنُ رَبِيعَةَ
أَبْنِ كَعْبٍ بْنِ نَهْدٍ وَكَانَ قَدِيمًا وَبَقِيَ بَقَاءً طَوِيلًا حَتَّى قَالَ :
وَلَقَدْ سَمِعْتُ مِنْ أَحْيَاةٍ وَطُولِهَا وَأَزْدَدْتُ مِنْ عَدَدِ السِّنِّينَ مِئْيَا
مِائَةً أَتَتْ مِنْ بَعْدِهَا مِائَتَانِ لِي وَأَزْدَدْتُ مِنْ عَدَدِ الشُّهُورِ سِنِيًا
وَمِنْهُمْ زُهَيْرُ بْنُ جَنَابٍ الْكَلْبِيُّ كَانَ قَدِيمًا شَرِيفًا وَهُوَ
الْقَائِلُ :

إِذَا قَالَتْ حَذَامٌ قَصَدَتْ قُوهَا فَإِنَّ الْقَوْلَ مَا قَالَتْ حَذَامُ
وَمِنْهُمْ جَذِيمَةُ الْأَبْرَشِ وَجَلِيمُ بْنُ صَعْبٍ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ بَكْرِ
أَبْنِ وَائِلٍ وَهُوَ الْقَائِلُ :

مِنْ كُلِّ مَا نَالَ الْفَتَى قَدْ نَلَتْهُ إِلَّا الْحَيَّةُ

وَقَالَ أَمْرُوهُ الْقَيْسِ بْنِ حُجْرٍ :

عُوجًا عَلَى طَلِّ الدِّيَارِ لَعَلَّنَا بَكِي الدِّيَارِ كَمَا بَكَى ابْنُ حَذَامِ
وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ طَبِئٍ لَمْ نَسْمَعْ شِعْرَهُ الَّذِي بَكَى فِيهِ وَلَا
شِعْرًا غَيْرَ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي ذَكَرَهُ أَمْرُوهُ الْقَيْسِ . وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ
قَصَدَ الْقَصَائِدَ وَذَكَرَ الْوَقَائِعَ الْمُهْلِلُ بْنُ رَبِيعَةَ التَّغْلِبِيِّ فِي قَتْلِ
أَخِيهِ كُتَيْبٍ قَالَ الْفَرَزْدَقُ :

وَمُهْلِلُ الشُّعْرَاءِ ذَاكَ الْأَوَّلُ

وَزَعَمَتِ الْعَرَبُ أَنَّهُ كَانَ يَتَكَثَّرُ وَيَدَّعِي فِي قَوْلِهِ أَكْثَرُ
مِنْ فِعْلِهِ . وَكَانَ شُعْرَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ فِي رَبِيعَةَ أَوَّلَهُمُ الْمُهْلِلُ وَهُوَ خَالَ
أَمْرِئِ الْقَيْسِ بْنِ حُجْرٍ الْكِنْدِيِّ وَالْمُرْقَشَانِ وَالْأَكْبَرُ مِنْهَا عَمُّ
الْأَضْفَرِ وَالْأَضْفَرُ عَمُّ طَرْفَةَ بْنِ الْعَبْدِ . وَأَنَّمُ الْأَكْبَرُ عَوْفُ بْنُ سَعْدِ
وَأَنَّمُ الْأَضْفَرُ عَمْرُو بْنُ حَرْثَةَ وَقِيلَ رَبِيعَةُ بْنُ سُفْيَانَ . وَمِنْهُمْ
سَعْدُ بْنُ مَالِكٍ وَطَرْفَةُ بْنُ الْعَبْدِ وَعَمْرُو بْنُ قَسْمَةَ وَالْمُتَلِّسُ وَهُوَ خَالَ
طَرْفَةَ . وَالْأَعَشَى وَالْمُسَيْبُ بْنُ عَلَسٍ وَأَحْرَثُ بْنُ حِلْزَةَ . ثُمَّ
تَحَوَّلَ الشُّعْرُ فِي قَيْسٍ فَمِنْهُمْ النَّابِغَتَانِ وَزُهَيْرُ بْنُ أَبِي سَلَمَى وَأَبْنَةُ
كَعْبٍ وَكَيْدٌ وَالْحُطَيْمَةُ وَالشَّمَاخُ وَأَخُوهُ مُزَرَّدٌ وَخِدَاشُ بْنُ زُهَيْرٍ
ثُمَّ آلُ إِلَى تَمِيمٍ فَلَمْ يَزَلْ فِيهِمْ إِلَى الْيَوْمِ . وَوَنَهُمُ كَانَ أَوْسُ بْنُ
حُجْرٍ شَاعِرٌ مُضَرٌّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَتَقَدَّمْهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ حَتَّى نَشَأَ النَّابِغَةُ
وَزُهَيْرٌ وَأَخْلَاهُ وَبَقِيَ شَاعِرَ تَمِيمٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ غَيْرَ مُدَافِعٍ . وَكَانَ
الْأَضْمِيُّ يَقُولُ أَوْسُ أَشْعَرُ مِنْ زُهَيْرٍ وَلَكِنْ النَّابِغَةُ طَاطَأَ مِنْهُ

وَكَانَ رَاوِيَةَ أَوْسُ زُهَيْرٌ وَكَانَ أَوْسُ زَوْجُ أُمِّ زُهَيْرٍ (قَالَ عُمَرُ بْنُ شُبَّةَ) فِي طَبَقَاتِ الشُّعْرَاءِ: لِلشُّعْرِ وَالشُّعْرَاءِ أَوَّلُ لَا يُوقَفُ عَلَيْهِ وَقَدْ اخْتَلَفَ فِي ذَلِكَ الْعُلَمَاءُ وَأَدَّعَتْ الْقَبَائِلُ كُلُّ قَبِيلَةٍ إِشَاعِرَهَا أَنَّهُ الْأَوَّلُ وَلَمْ يَدَّعُوا ذَلِكَ لِغَائِلِ الْبَيْتَيْنِ وَالثَلَاثَةِ لِأَنَّهُمْ لَا يُسَوُّونَ ذَلِكَ شِعْرًا فَأَدَّعَتْ الْيَمَانِيَّةُ لِأَمْرِئِ الْقَيْسِ وَبَنُو أَسَدِ عَبْدِ بْنِ الْأَبْرَصِ وَتَغْلِبُ الْمُهَلْهَلِ وَبَكْرُ لَعْمَرٍ وَبَنِي قَسْتَةَ وَالْمُرْقِشُ الْأَنْبَرُ وَإِيَادُ لَيْلَى دُوَادٍ (قَالَ) وَزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ الْأَفْوَءَ الْأَوْدِيَّ أَقْدَمُ مِنْ هُوَلَاءَ وَأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ قَصَدَ الْقَعِيدَ (قَالَ) وَهُوَلَاءُ الْأَفْرُ الْمُدَّعَى لَهُمُ التَّقْدَمُ فِي الشُّعْرِ مُتَقَارِبُونَ لَعَلَّ أَقْدَمَهُمْ لَا يَسْتَقُ الْهِجْرَةُ بِمِائَةِ سَنَةٍ أَوْ نَحْوَهَا (وَقَالَ ثَعْلَبٌ فِي أَمَالِيهِ) قَالَ الْأَضَمِيُّ: أَوَّلُ مَنْ يَزُودُ لَهُ كَلِمَةٌ تَبَاعُ ثَلَاثِينَ بَيْتًا مِنَ الشُّعْرِ مُهَلْهَلٌ ثُمَّ ذُوَيْبُ بْنُ كَعْبٍ بْنُ عَمْرِو بْنِ تَمِيمٍ ثُمَّ ضَمْرَةُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ وَالْأَضْبَطُ بْنُ مُرَاجٍ (قَالَ) وَكَانَ بَيْنَ هُوَلَاءَ وَبَيْنَ الْإِسْلَامِ أَرْبَعُمِائَةِ سَنَةٍ وَكَانَ أَمْرُ الْقَيْسِ بَعْدَ هُوَلَاءَ بِكَثِيرٍ (وَقَالَ أَبُو خَالَوَيْهِ فِي كِتَابِ الْقَيْسِ) أَوَّلُ مَنْ قَالَ الشُّعْرَ أَبُو حَذَامٍ (وَقَالَ أَبُو رَشِيْقٍ فِي الْعُمْدَةِ): الْمَشَاهِيرُ مِنَ الشُّعْرَاءِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحِيطَ بِهِمْ عَدَدٌ وَمِنْهُمْ مَشَاهِيرُ قَدْ طَارَتْ أَسْمَاؤُهُمْ وَسَارَ شِعْرُهُمْ وَكَثُرَ ذِكْرُهُمْ حَتَّى غَلَبُوا عَلَى سَائِرِ مَنْ كَانَ فِي زَمَانِهِمْ وَلِكُلِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ تُفَضِّلُهُ وَتَتَعَصَّبُ لَهُ وَقَلَّمَا تَجْتَمِعُ عَلَى وَاحِدٍ إِلَّا مَا رُوِيَ عَنِ الرَّسُولِ فِي أَمْرِ الْقَيْسِ أَنَّهُ أَشْعَرُ الشُّعْرَاءِ وَقَالَتْهُمْ إِلَى النَّارِ يَعْنِي شُعْرَاءَ أَجَاهِلِيَّةٍ وَالْمُشْرِكِينَ

قَالَ دُعِيْلُ بْنُ عَلِيٍّ الْخَزَاعِيُّ : وَلَا يَقُوْدُ قَوْمًا إِلَّا أَمِيرُهُمْ . قَالَ
 عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لِلْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلِبِ وَقَدْ سَأَلَهُ عَنِ الشُّعَرَاءِ : أَمَرُوهُ
 الْقَيْسَ سَابِقَهُمْ خَسَفَ لَهُمْ عَيْنَ الشَّعْرِ فَأَفْتَقَرَ عَنْ مَعَانِ عُرٍ أَحْصَى
 بَصَرًا (قَالَ عَبْدُ الْكَرِيمِ) خَسَفَ مِنْ الْخَسْفِ وَهِيَ الْبُيْرُ الَّتِي
 حَفَرْتَ فِي حِجَارَةٍ فَخَرَجَ مِنْهَا مَاءٌ كَثِيرٌ . وَقَوْلُهُ أَفْتَقَرَ أَيِ فَتَحَ وَهُوَ
 مِنَ الْفَقْرِ وَهُوَ فَمُ الْقِنَاقِ وَقَوْلُهُ : عَنْ مَعَانِ عُرٍ يُرِيدُ أَنَّ أَمْرًا الْقَيْسِ
 مِنْ أَلَيْسَ وَأَنَّ أَهْلَ أَلَيْسَ لَيْسَتْ لَهُمْ فَصَاحَةٌ تَزَارٍ فَجَعَلَ لَهُمْ مَعَانِي
 عُرٍ فَكَانَ فَتَحَ أَمْرِي الْقَيْسِ أَحْصَى بَصَرًا فَإِنَّ أَمْرًا الْقَيْسِ يَمَانِي
 النَّسَبِ تَزَارِي الدَّارِ وَالْمَشَا . وَفَصَلَهُ عَلَيَّ بِأَنْ قَالَ : رَأَيْتُهُ أَحْسَنَهُمْ
 نَادِرَةً وَأَسْبَقَهُمْ بَادِرَةً وَأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ لِرُغْبَةٍ وَلَا لِرَهْبَةٍ (وَقَدْ قَالَ
 الْعُلَمَاءُ بِالشَّعْرِ) إِنَّ أَمْرًا الْقَيْسِ لَمْ يَتَقَدَّمِ الشُّعَرَاءُ لِأَنَّهُ قَالَ مَا
 لَمْ يَقُولُوا وَأَكْبَهُ سَبَقَ إِلَى أَشْيَاءَ فَاسْتَحْسَنَهَا الشُّعَرَاءُ وَأَتَّبَعُوهُ فِيهَا
 لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ أَطَفَ الْمَعَانِي وَمِنْ اسْتَوْقَفَ عَلَى الطُّلُولِ وَوَصَفَ
 النِّسَاءَ بِالظُّبَاءِ وَالْمَهْيَ وَالْبَيْضَ وَشَبَّهَ الْخَيْلَ بِالْعُقْبَانِ وَالْعِدِيَّ وَفَرَّقَ
 بَيْنَ النَّسِيبِ وَمَا سِوَاهُ مِنَ الْقَصِيدَةِ وَقَرَّبَ مَا خَذَ الْكَلَامَ فَقَيَّدَ
 الْأَوَابِدَ وَأَجَادَ الْأَسْتِعَارَةَ وَالْأَشْبِيهَ وَحَكَى مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامٍ
 الْجَحْمِيُّ : إِنَّ سَائِلًا سَأَلَ الْفَرَزْدَقَ مَنْ أَشَعَرُ النَّاسِ فَقَالَ ذُو
 الْقُرُوحِ (وَسُئِلَ كَيْدٌ) : مَنْ أَشَعَرُ النَّاسِ فَقَالَ الْمَلِكُ الْأَضْلِيلُ
 قِيلَ ثُمَّ مَنْ قَالَ : الشَّابُّ الْقَتِيلُ قِيلَ : ثُمَّ مَنْ قَالَ : الشَّيْخُ أَبُو عَقِيلٍ
 يَعْنِي نَفْسَهُ . وَكَانَ الْخُذَّاقُ يَقُولُونَ : الْفُحُولُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ثَلَاثَةٌ

مُتَشَابِهُونَ زُهَيْرٌ وَالْفَرَزْدَقُ وَالنَّابِغَةُ وَالْأَخْطَلُ وَالْأَعَشَى وَجَرِيرٌ
 وَكَانَ خَلْفُ الْأَحْمَرِ يَقُولُ : أَجْمَعُهُمُ الْأَعَشَى . وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو ابْنُ
 الْأَعْلَاءِ : مَثَلُهُ مَثَلُ الْبَازِي يَضْرِبُ كَثِيرَ الطَّيْرِ وَصَغِيرَهُ . وَكَانَ أَبُو
 الْخَطَّابِ الْأَخْفَشُ يُقَدِّمُهُ جِدًّا لَا يُقَدِّمُ عَلَيْهِ أَحَدًا . وَحَكَى
 الْأَضْمِيُّ عَنْ ابْنِ أَبِي طَرَفَةَ : كَفَّالِكَ مِنَ الشُّغْرَاءِ أَرْبَعَةٌ زُهَيْرٌ
 إِذَا رَغِبَ وَالنَّابِغَةُ إِذَا رَهَبَ وَالْأَعَشَى إِذَا طَرِبَ وَعَنْتَرَةُ إِذَا
 كَلِبَ وَزَادَ قَوْمٌ : وَجَرِيرٌ إِذَا غَضِبَ . وَقِيلَ لِكُثَيْرٍ أَوْ لِنَصِيبٍ
 مِنْ أَشْعَرِ الْعَرَبِ فَقَالَ : أَمْرُوهُ الْقَيْسَ إِذَا رَكِبَ وَزُهَيْرٌ إِذَا رَغِبَ
 وَالنَّابِغَةُ إِذَا رَهَبَ وَالْأَعَشَى إِذَا شَرِبَ . وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يُقَدِّمُ
 النَّابِغَةَ وَيَقُولُ هُوَ أَحْسَنُهُمْ شِعْرًا وَأَعْدَبُهُمْ بَحْرًا وَأَبْعَدُهُمْ قَعْرًا .
 وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي الْخَطَّابِ فِي كِتَابِهِ الْمَوْسُومِ بِجَمَهَرَةِ أَشْعَارِ
 الْعَرَبِ إِنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَالَ : أَصْحَابُ السَّبْعِ الَّتِي تُسَمَّى السَّنْطَ أَمْرُوهُ
 الْقَيْسَ وَزُهَيْرٌ وَالنَّابِغَةُ وَالْأَعَشَى وَلَيْدٌ وَعَمْرٌو وَطَرَفَةُ . (قَالَ)
 وَقَالَ الْمَفْضَلُ : مَنْ زَعَمَ أَنَّ فِي السَّبْعِ الَّتِي تُسَمَّى السَّنْطَ لِأَحَدٍ
 غَيْرِ هَؤُلَاءِ فَقَدْ أَبْطَلَ وَأَسْقَطًا مِنْ أَصْحَابِ الْمُعْلَقَاتِ عَنْتَرَةُ
 وَالْحَرِثُ بْنُ حِلْزَةَ وَآثِبَةُ الْأَعَشَى وَالنَّابِغَةُ وَكَانَتْ الْمُعْلَقَاتُ تُسَمَّى
 الْمَذَهَبَاتِ وَذَلِكَ أَنَّهَا اخْتِيرَتْ مِنْ سَائِرِ الشُّعْرِ فَكُتِبَتْ فِي
 الْقَبَاطِي بِمَاءِ الذَّهَبِ وَوُضِعَتْ عَلَى الْكَعْبَةِ فَلِذَلِكَ يُقَالُ مَذَهَبَةٌ
 فَلَانٍ إِذَا كَانَتْ أَجْوَدَ شِعْرِهِ . ذَكَرَ ذَلِكَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ
 وَقِيلَ بَلْ كَانَ أَلَّاكَ إِذَا اسْتَحْيَدْتَ قَصِيدَةً يَقُولُ : عَلِّقُوا لَنَا هَذِهِ

لَتَكُونَ فِي خِزَانَتِهِ (وَقَالَ الْجَحْمِيُّ) سَأَلَ عِكْرَمَةُ بْنُ جَرِيرٍ أَبَاهُ
جَرِيرًا. مَنْ أَشْعَرُ النَّاسِ قَالَ: أَعَنِ الْجَاهِلِيَّةُ تَسْأَلُنِي أَمِ الْإِسْلَامُ.
قَالَ: مَا أَرَدْتُ إِلَّا الْإِسْلَامَ فَإِذَا ذَكَرْتَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَخْبِرْنِي عَنْ
أَهْلِهَا قَالَ: زُهَيْرٌ شَاعِرُهُمْ (قَالَ) قُلْتُ: فَأَلِإِسْلَامُ قَالَ:
أَلْفَرَزْدَقُ نَبْعَةُ الشَّعْرِ قُلْتُ: وَالْأَخْطَلُ قَالَ: يُجِيدُ مَدْحَ الْمُلُوكِ
وَيُصِيبُ صِفَةَ الْحَمْرِ قُلْتُ: فَمَا تَرَكَتَ لِنَفْسِكَ قَالَ: دَعْنِي فَإِنِّي
بَجَرْتُ الشَّعْرَ بَحْرًا (وَسُئِلَ) أَلْفَرَزْدَقُ مَرَّةً: مَنْ أَشْعَرُ الْعَرَبِ
فَقَالَ بَشَرُ بْنُ أَبِي خَازِمٍ. قِيلَ لَهُ: بِمَاذَا. قَالَ: بِقَوْلِهِ:

تَوَى فِي مُلْحَدٍ لَا بُدَّ مِنْهُ كَفَى بِالْمَوْتِ نَأْيًا وَاغْتِرَابًا
ثُمَّ سُئِلَ جَرِيرٌ فَقَالَ: بَشَرُ بْنُ أَبِي خَازِمٍ. قِيلَ لَهُ: بِمَاذَا قَالَ:
بِقَوْلِهِ:

رَهِينُ بَلَى وَكُلُّ فَتَى سَيْبَلَى فَشَقِي الْجَيْبَ وَأَنْتَجِبِي أَنْتَحَابَا
فَأَتَّفَقَا عَلَى بَشَرِ بْنِ أَبِي خَازِمٍ. كَمَا تَرَى (وَكُتِبَ) الْحَجَّاجُ بْنُ
يُوسُفَ إِلَى قَتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ يَسْأَلُهُ عَنْ أَشْعَرِ الشُّعْرَاءِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ
وَأَشْعَرِ شُعْرَاءِ وَقْتِهِ فَقَالَ: أَشْعَرُ الْجَاهِلِيَّةِ أَمْرُوهُ الْقَيْسُ وَأَضْرَبُهُمْ
مَثَلًا طَرَفَةً. وَأَمَّا شُعْرَاءُ الْوَقْتِ فَأَلْفَرَزْدَقُ الْفَحْرُومُ وَجَرِيرٌ أَهْجَاؤُهُمْ
وَالْأَخْطَلُ أَوْصَفُهُمْ (وَأَمَّا الْخَطِئَةُ) فَسُئِلَ مَنْ أَشْعَرُ النَّاسِ فَقَالَ
أَبُو دُوَادٍ حَيْثُ يَقُولُ:

لَا أَعُدُّ الْإِقْتَارَ عُدْمًا وَلَكِنْ قَعْدُ مَنْ قَدْ رُزِنَتْهُ الْأَعْدَامُ
وَهُوَ كَانَ فَحْلًا قَدِيمًا وَكَانَ أَمْرُوهُ الْقَيْسُ يَتَوَكَّأُ عَلَيْهِ

وَيُرْوَى شَعْرَهُ فَلَمْ يَقُلْ فِيهِ أَحَدٌ مِنَ الثَّقَادِ مَقَالَةً الْخَطِيئَةِ (وَسَأَلَهُ
أَبْنُ عَبَّاسٍ مَرَّةً أُخْرَى) فَقَالَ الَّذِي يَقُولُ :

وَمَنْ يَجْعَلِ الْمَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عَرْضِهِ

يَفِرَّهُ وَمَنْ لَا يَتَّقِ الشَّمَّ يُشْتَمُ

وَلَيْسَ الَّذِي يَقُولُ :

وَلَسْتُ بِمُسْتَبَقٍ أَخَا لَا تَكُفُّهُ عَلَى شَعْبِ أَبِي الرَّجَالِ الْمُهَذَّبِ

وَلَكِنَّ الضَّرَاعَةَ أَفْسَدَتْهُ كَمَا أَفْسَدَتْ جَرُودًا وَاللَّهُ لَوْ لَا

وَلَوْ لَا لَكُنْتُ أَشْعَرَ الْمَاضِينَ . وَأَمَّا الْبَاقُونَ فَلَا أَشْكُ أَنِّي أَشْعَرُهُمْ

(وَزَعَمَ) أَبْنُ أَبِي الْخَطَّابِ أَنَّ أَبَا عَمْرٍو يَقُولُ أَشْعَرُ النَّاسِ : أَرْبَعَةٌ

أَمْرُوهُ الْقَيْسُ وَالنَّابِغَةُ وَطَرَقَةُ وَهَيْلَةُ وَقَالَ الْمَفْضَلُ : سُلَّ الْقِرَزْدَقُ

فَقَالَ : أَمْرُوهُ الْقَيْسُ أَشْعَرُ النَّاسِ وَقَالَ جَرِيرٌ : النَّابِغَةُ أَشْعَرُ النَّاسِ

وَقَالَ الْأَخْطَلُ : الْأَعَشَى أَشْعَرُ النَّاسِ وَقَالَ أَبْنُ أَحْمَرَ : زُهَيْرٌ أَشْعَرُ

النَّاسِ وَقَالَ ذُو الرُّمَّةِ : أَمِيدُ أَشْعَرِ النَّاسِ وَقَالَ نَضْرُ بْنُ شَيْلٍ :

طَرَقَةُ أَشْعَرُ النَّاسِ وَقَالَ الْكُكَيْتُ : عَمْرٍو بْنُ كُثُومٍ أَشْعَرُ النَّاسِ

وَهَذَا يَدُلُّكَ عَلَى اخْتِلَافِ الْأَهْوَاءِ وَقِلَّةِ الْإِتِّفَاقِ . وَكَانَ أَبْنُ

أَبِي رَاسِحٍ قَائِدٌ وَهُوَ عَالِمٌ تَائِقٌ وَهُوَ مُقَدَّمٌ مَشْهُورٌ يَقُولُ : أَشْعَرُ الْجَاهِلِيَّةِ

الْمُرْقَشُ الْأَنْبَرُ وَأَشْعَرُ الْإِسْلَامِ بَيْنَ كَثِيرٍ وَهَذَا غُلُوٌّ مُفْرِطٌ

غَيْرَ أَنَّهُمْ مُجْتَمِعُونَ عَلَى أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ أَطَالَ الْمَدْحَ (وَقِيلَ) لِضَيْبِ

مَرَّةً : مَنْ أَشْعَرُ الْعَرَبِ فَقَالَ : أَخُو تَيْمٍ يَعْنِي عُلَقَمَةَ بْنَ عَبْدِةَ وَقِيلَ

أَوْسَ بْنَ حَجْرٍ . وَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَ الشُّعْرَاءِ بَعْدَ أَمْرِ الْقَيْسِ مَا

لِزُهَيْرٍ وَالنَّابِغَةِ وَالْأَعَشَى فِي النَّفُوسِ . وَعُلَمَاءُ الْبَصْرَةِ كَانُوا يُقَدِّمُونَ
أَمْرًا الْقَيْسَ وَأَهْلَ الْكُوفَةِ كَانُوا يُقَدِّمُونَ الْأَعَشَى وَأَهْلَ الْحِجَازِ
وَالْبَادِيَةَ كَانُوا يُقَدِّمُونَ زُهَيْرًا وَالنَّابِغَةَ وَكَانَ أَهْلُ الْعَالِيَةِ لَا
يَعْدِلُونَ بِالنَّابِغَةِ أَحَدًا كَمَا أَنَّ أَهْلَ الْحِجَازِ لَا يَعْدِلُونَ بِزُهَيْرٍ أَحَدًا .
قَالَ ابْنُ سَلَامٍ : قَالَ أَهْلُ النَّظَرِ كَانَ زُهَيْرٌ أَحْصَفَهُمْ شِعْرًا
وَأَبْعَدَهُمْ مِنْ تَخَفٍ وَاجْتَمَعَهُمْ لِكَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي قَلِيلٍ مِنْ
الْأَنْطِقِ . وَأَمَّا النَّابِغَةُ فَقَالَ مَنْ يَخْتِجُ لَهُ كَانَ أَحْسَنَهُمْ دِيبَاجَةً شِعْرًا
وَأَكْثَرَهُمْ رَوْنَقَ كَلَامٍ وَأَجَزَهُمْ بَيِّنَاتُ شِعْرِهِ كَلَامَ لَيْسَ
فِيهِ تَكَاثُفٌ . وَزَعَمَ أَصْحَابُ الْأَعَشَى أَنَّهُ أَكْثَرُهُمْ عَرُوضًا وَأَذْهَبُهُمْ
فِي فُنُونِ الشِّعْرِ وَأَكْثَرُهُمْ طَوِيلَةً جَيِّدَةً وَمَذْمُومًا وَهَجَاءً وَفَحْرًا
وَصِفَةً (وَقَالَ بَعْضُ مُتَقَدِّمِي الْعُلَمَاءِ) الْأَعَشَى أَشْعَرُ الْأَرْبَعَةِ قِيلَ
لَهُ : فَإِنَّ الْخَبَرَ عَنِ النَّبِيِّ إِنَّ أَمْرًا الْقَيْسَ يَسُدُّ لَوَاهُ الشِّعْرِ
فَقَالَ : يَهَذَا الْخَبَرُ صَحٌّ لِلْأَعَشَى مَا قُلْتُ وَذَلِكَ أَنَّهُ مَا مِنْ حَامِلٍ لَوَاهُ
إِلَّا عَلَى رَأْسِ أَمِيرٍ فَأَمْرُوهُ الْقَيْسُ حَامِلُ اللَوَاهِ وَالْأَعَشَى الْأَمِيرُ
(وَسُئِلَ) حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ عَنْ أَشْعَرِ النَّاسِ فَقَالَ : أَرْجُلَا أُمِّ حَيَّاءَ
قِيلَ بَلْ حَيَّاءُ قَالَ : أَشْعَرُ النَّاسِ حَيَّاءُ هَذِيلٌ . قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامٍ .
الْجُحَيْمِيُّ وَأَشْعَرُ هَذِيلٍ أَبُو ذُوَيْبٍ غَيْرُ مُدَافِعٍ (وَقَالَ الْأَضَمِيُّ)
قَالَ أَبُو عَمْرٍو بْنُ الْعَلَاءِ : أَفْضَحُ الشُّعْرَاءِ السُّنَا وَأَعْرَبُهُمْ أَهْلُ
السَّرَوَاتِ وَهُنَّ ثَلَاثٌ وَهِيَ الْحِبَالُ الْمَطْلَةُ عَلَى تِهَامَةٍ مِمَّا يَلِي
الْيَمَنَ فَأَوَّلُهَا هَذِيلٌ وَهِيَ تَلِي الرَّمْلَ مِنْ تِهَامَةٍ ثُمَّ عَلَيْهِ السَّرَاةُ

الْوُسْطَى وَقَدْ شَرَكْتَهُمْ ثَقِيفٌ فِي تَاجِيَةِ مِنْهَا . ثُمَّ سَرَاةُ الْأَزْدِ
 أَزْدِ شَنْوَةَ وَهُمْ بَنُو الْحَرِثِ بْنِ كَعْبِ بْنِ الْحَرِثِ بْنِ نَضْرِ بْنِ
 الْأَزْدِ وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو أَيْضًا : أَفْصَحُ النَّاسِ عَلِيًّا يَمِيمٌ وَسُفْلَى قَيْسِ
 وَقَالَ أَبُو زَيْدٍ : أَفْصَحُ النَّاسِ سَافِلَةُ الْعَالِيَةِ وَعَالِيَةُ السَّافِلَةِ يَعْنِي
 هَوَازِنَ وَأَهْلَ الْعَالِيَةِ أَهْلُ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَمَنْ يَلِيهَا وَدَنَا مِنْهَا
 وَلَقَبْتُهُمْ لَيْسَتْ بِتِلْكَ عِنْدَهُ . وَقَوْمٌ يَرُونَ تَقْدِيمَةَ الشِّعْرِ لِلْيَمَنِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ
 بِأَمْرِ الْقَيْسِ وَفِي الْإِسْلَامِ بِحَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ وَفِي الْمُؤَادِرِينَ
 بِالْحَسَنِ بْنِ هَانِيٍّ وَأَصْحَابِهِ . وَأَشْعَرُ أَهْلِ الْمَدَرِ بِإِجْمَاعٍ مِنَ النَّاسِ
 وَاتِّفَاقٍ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ . وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو بْنُ الْعَلَاءِ : خُتِمَ الشِّعْرُ
 بِذِي الرُّمَّةِ وَالرَّجَزِ بِرُوثَةَ بْنِ الْعِجَّاجِ . وَزَعَمَ يُونُسُ : أَنَّ الْعِجَّاجَ
 لَيْسَ فِي شِعْرِهِ شَيْءٌ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَقُولَ : لَوْ كَانَ مَكَانَهُ
 غَيْرُهُ لَكَانَ أَجْوَدَ (وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ) إِنَّمَا كَانَ الشَّاعِرُ يَقُولُ
 مِنَ الرَّجَزِ الْبَيْتَيْنِ وَالْثَلَاثَةَ وَمِنْهُ ذَلِكَ إِذَا حَارَبَ أَوْ شَاتَمَ أَوْ
 فَاحَرَ حَتَّى كَانَ الْعِجَّاجُ أَوَّلَ مَنْ أَطَالَهُ وَقَصَّدهُ وَشَبَّ بِهِ وَذَكَرَ
 الدِّيَارَ وَأَسْتَوْقَفَ الرِّكَابَ عَلَيْهَا وَأَسْتَوْصَفَ مَا فِيهَا وَبَكَى عَلَى
 الشَّبَابِ وَوَصَفَ الرَّاحِلَةَ كَمَا فَعَلَتِ الشُّعْرَاءُ بِالْقَصِيدِ فَكَانَ فِي
 الرَّجَازِ كَأَمْرِ الْقَيْسِ فِي الشُّعْرَاءِ . وَقَالَ غَيْرُهُ : أَوَّلَ مَنْ طَوَّلَ
 شِعْرَ الرَّجَزِ الْأَغْلَبُ الْعُجْلِيُّ وَهُوَ قَدِيمٌ . وَزَعَمَ الْجَحْمِيُّ وَغَيْرُهُ أَنَّهُ أَوَّلُ
 مَنْ رَجَزَ . وَقَالَ ابْنُ رَشِيقٍ فِي الْعُمْدَةِ : وَلَا أَظُنُّ ذَلِكَ صَحِيحًا لَهُ
 لِأَنَّهُ إِنَّمَا كَانَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ وَنَحْنُ نَجِدُ الرَّجَزَ أَقْدَمَ مِنْ ذَلِكَ .

وَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ يَقُولُ: أَفْتَحَ الشِّعْرُ بِأَمْرِ الْقَيْسِ وَخَتَمَ بِأَبْنِ
 هَرَمَةَ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: الشُّعْرَاءُ ثَلَاثَةٌ جَاهِلِيٌّ وَإِسْلَامِيٌّ وَمَوْلَدٌ
 فَأَجَاهِلِيٌّ أَمْرُوهُ الْقَيْسُ وَالْإِسْلَامِيُّ ذُو الرُّمَّةِ وَالْمَوْلَدُ ابْنُ الْمُعْتَرِ
 وَهَذَا قَوْلٌ مَنْ يُفْخِلُ الْبَدِيعَ وَخَاصَّةً التَّشْبِيهَ عَلَى جَمِيعِ فُنُونِ
 الشُّعْرِ. وَطَائِفَةٌ أُخْرَى تَقُولُ بِلِ الثَّلَاثَةِ الْأَعَشَى وَالْأَخْطَلُ وَأَبُو
 الْفَوَارِسِ وَهَذَا مَذْهَبُ أَصْحَابِ الْحَذَرِ وَمَا نَاسَبَهَا وَمَنْ يَقُولُ
 بِالتَّحْصُوفِ وَقِيلَ التَّكْمُفُ. وَقَالَ قَوْمٌ بِلِ الثَّلَاثَةِ مُهَاجِلٌ وَأَبْنُ أَبِي
 رَبِيعَةَ وَعَبَّاسُ بْنُ الْأَخْنَفِ وَهَذَا قَوْلٌ مَنْ يُؤَيِّرُ الْأَنْفَ وَسُهُولَةَ
 الْكَلَامِ وَالْقُدْرَةَ عَلَى الصَّنْعَةِ وَالتَّجْوِيدِ فِي فَنٍّ وَاحِدٍ وَلَيْسَ فِي
 الْمَوْلَدِينَ أَشْهُرُ أَمَّا وَنُ أَحْسَنُ مِنْ حَبِيبٍ وَالتَّجْتَرِي. وَيُقَالُ إِنَّهُمَا
 أَخْمَلَا فِي زَمَانِهِمَا خَمْسَاةَ شَاعِرٍ كَانَهُمْ مُجِيدٌ ثُمَّ تَبِعَهُمَا فِي
 الْإِسْتِبْهَارِ ابْنُ الرُّومِيِّ وَأَبْنُ الْمُعْتَرِ وَطَارَ أَسْمُ ابْنِ الْمُعْتَرِ حَتَّى صَارَ
 كَأَحْسَنَ فِي الْمَوْلَدِينَ وَأَمْرُو الْقَيْسِ فِي الْقَدَمَاءِ. ثُمَّ جَاءَ الْمُتَدَبِّعُ
 قَمَلًا الدُّنْيَا وَهَذَا كُلُّهُ كَلَامُ ابْنِ رَشِيقٍ

قَالَ صَاحِبُ الْأَغَانِي:

وَمَنْ صَنَعَ مِنْ أَوْلَادِ الْخُلَفَاءِ فَأَجَادَ وَأَحْسَنَ وَبَرَعَ
 وَتَقَدَّمَ أَهْلَ عَصْرِهِ فَضْلًا وَشَرَفًا وَأَدَبًا وَشِعْرًا وَظُرْفًا
 وَتَصَرَّفًا فِي سَائِرِ الْأَدَابِ أَبُو الْعَبَّاسِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُعْتَرِ بِاللَّهِ
 وَأَمْرُهُ مَعَ قُرْبِ عَصْرِنَا هَذَا مَشْهُورٌ فِي فَضَائِلِهِ وَأَدَابِهِ. وَشِعْرُهُ
 وَإِنْ كَانَ فِيهِ رِقَّةٌ الْمُلُوكِيَّةُ وَغَزَلُ الظُّرَفَاءِ وَهَلْهَلَةُ الْحَدَثِينَ

فَإِنَّ فِيهِ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً تَجْرِي فِي أَسْلُوبِ الْحَيِّدِينَ وَلَا تُقْصَرُ
عَنْ مَدَى السَّابِقِينَ وَأَشْيَاءَ ظَرِيفَةً مِنْ أَشْعَارِ الْمُلُوكِ فِي جِنْسِ
مَا هُمْ بِسَبِيلِهِ لَيْسَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَشَبَّهَ فِيهَا بِمُحُولِ أَجَاهِلِيَّةٍ. فَلَيْسَ
يُمْكِنُ وَاصِفًا لَصُبُوحٍ فِي تَجَلُّسِ شَكْلِ ظَرِيفِ بَيْنِ نُدَامَى وَقِيَانٍ
وَعَلَى مَيَادِينَ مِنَ النُّورِ وَالْبَنْفَسِجِ وَالْأَرْجِسِ وَمَنْضُودٍ مِنْ أَمْثَالِ
ذَلِكَ إِلَى غَيْرِ مَا ذَكَرْتُهُ مِنْ جِنْسِ الْعَجَائِسِ وَقَاضِرِ الْقُرَشِ وَمُخْتَارِ
الْآلَاتِ وَرِقَّةِ الْحَدَمِ أَنْ يَغْدِلَ بِذَلِكَ عَمَّا يُشَبِّهُهُ مِنَ الْكَلَامِ
السَّبْطِ الرَّقِيقِ الَّذِي يَفْهَمُهُ كُلُّ مَنْ حَضَرَ إِلَى حَفْدِ الْكَلَامِ
وَوَحْشِيهِ وَإِلَى وَصْفِ الْبَيْدِ وَالْمَهَامِهِ وَالْطِّبَاءِ وَالْأَطِيبِ وَالنَّاقَةِ وَالْجَمَلِ
وَالْدَيَّارِ وَالْقِفَارِ وَالْمَذَائِلِ الْخَالِيَةِ الْمَهْجُورَةِ وَلَا إِذَا عَدَلَ عَنْ ذَلِكَ
وَأَحْسَنَ قِيلَ لَهُ مُسِيءٌ وَلَا أَنْ يَفْطَ حَقُّهُ كُلُّهُ إِذَا أَحْسَنَ
الْكَثِيرَ وَتَوَسَّطَ فِي الْبَعْضِ وَقَصَرَ فِي الْبَاقِي وَنَسَبَ إِلَى التَّقْصِيرِ
فِي الْجَمِيعِ لِلشَّرِّ الْمَقَابِجِ وَطَيَّ الْحَاسِنِ. فَلَوْ شَاءَ أَنْ يَفْعَلَ هَذَا
كُلُّ أَحَدٍ بِمَنْ تَقَدَّمَ لَوْجَدَ مَسَافًا وَلَوْ أَنَّ قَائِلًا أَرَادَ الطَّنَّ عَلَى
صُدُورِ الشُّعْرَاءِ لَقَدَّرَ أَيُّ أَنْ يَطْعَنَ عَلَى الْأَعْشَى وَهُوَ أَحَدُ مَنْ
يُقَدِّمُهُ الْأَوَائِلُ عَلَى سَائِرِ الشُّعْرَاءِ بِقَوْلِهِ :

فَأَصَابَ حَبَّةَ قَلْبِهِ وَطَحَّاهَا

وَبَقَوْلِهِ :

وَقَدْ كَانَ إِنْ يَأْمُرُهُمْ كُلُّ لَيْلَةٍ بِقِتِّ وَتَغْلِيْقٍ فَقَدْ كَادَ يَنْبُقُ
وَأَمْثَالُ هَذَا كَثِيرَةٌ. وَإِنَّمَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَحْفَظَ مِنْ

الشَّيْءُ أَحْسَنُهُ وَيُلْغِي مَا لَا يُسْتَحْسِنُهُ فَلَيْسَ مَا خُودًا بِهِ وَلَكِنْ أَقْوَامًا
 أَرَادُوا أَنْ يَرْفَعُوا أَنْفُسَهُمُ الْوَضِيعَةَ وَيَشِيدُوا بِذِكْرِهِمُ الْخَامِلِ
 رِيْعُلُوا أَقْدَارَهُمُ السَّاقِطَةَ بِالطَّعْنِ عَلَى أَهْلِ الْفَضْلِ وَالْقَدَحِ فِيهِمْ
 فَلَا يَزْدَادُونَ بِذَلِكَ إِلَّا ضَعْفًا وَلَا يَزْدَادُ الْآخِرُ إِلَّا ارْتِفَاعًا. أَلَا تَرَى
 إِلَى ابْنِ الْمَعْتَزِ قَدْ قُتِلَ أَسْوَأَ قِتْلَةٍ وَدَرَجَ قَلَمٌ يَبْقَى لَهُ خَلْفٌ يَفْرُطُهُ
 وَلَا عَقِبٌ يَرْفَعُ مِنْهُ وَمَا يَزْدَادُ بِأَدَبِهِ وَشِعْرِهِ وَفَضْلِهِ وَحُسْنِ إِخْبَارِهِ
 وَتَصَرُّفِهِ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنَ الْعُلُومِ إِلَّا رُقْعَةً وَعُلُوءًا وَلَا نَظَرَ إِلَى اخْتِدَادِهِ
 كُلَّمَا أَزْدَادُوا فِي طَعْنِهِ وَتَقْرِيطِ أَنْفُسِهِمْ. وَأَسْلَافُهُمُ الَّذِينَ كَانُوا
 مِثْلَهُمْ فِي ثَلْبِهِ وَالطَّعْنِ عَلَيْهِ زَادُواهَا سُقُوطًا وَضَعَةً وَكُلَّمَا وَصَفُوا
 أَشْعَارَهُمْ وَقَرَّطُوا آدَابَهُمْ زَادُوا بِهَا ثَقَلًا وَمَقْتًا فَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمُ
 الْحُخْلُ الْمُوَافِقُ عَدَلُوا عَنْ ثَلْبِهِ فِي الْأَدَابِ إِلَى التَّشْيِيعِ بِأَمْرِ
 الَّذِينَ وَهَجَاءِ آلِ أَبِي طَالِبٍ وَهُمْ أَوَّلُ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ وَشَنَعَ بِهِ عَلَى
 آلِ أَبِي طَالِبٍ عِنْدَ الْمَكْتَبِيِّ حَتَّى نَهَاهُمْ عَنْهُ فَعَدَلُوا عَنْ عَيْبِ
 أَنْفُسِهِمْ بِذَلِكَ إِلَى عَيْبِهِ وَآرَتَكَبُّوا كَثْرًا مِنْهُ. وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ
 حَسَنَ الْعِلْمِ بِصِنَاعَةِ الْمَوْسِيقَى وَالْكَلَامِ عَلَى النِّعَمِ وَعِلَلِهَا وَلَهُ فِي
 ذَلِكَ وَفِي غَيْرِهِ مِنَ الْأَدَابِ كُتُبٌ شَهُورَةٌ وَمُرَاسِلَاتٌ جَرَتْ
 بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ وَبَيْنَ بَنِي حَمْدُونَ
 وَغَيْرِهِمْ تَدُلُّ عَلَى فَضْلِهِ وَغَزَارَةِ عَلَيْهِ وَأَدَبِهِ وَلَقَدْ قَرَأْتُ بِحَظِّ عَبْدِ
 اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ رُقْعَةً إِلَيْهِ بِحَظِّهِ وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْهِ بِرِسَالَةٍ إِلَى ابْنِ
 حَمْدُونَ فِي أَنَّهُ يَجُوزُ وَلَا يُنْكَرُ أَنْ يُغَيَّرَ الْإِنْسَانُ بَعْضُ نَعْمِ الْغِنَاءِ

الْقَدِيمِ وَيَعْدِلُ بِهَا إِلَى مَا يَحْسُنُ فِي خُلُقِهِ وَمَذْهَبِهِ وَهِيَ رِسَالَةٌ
طَوِيلَةٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعُ ذِكْرِهَا

البحث الثاني

في المقلين من الشعراء

(من الكتاب نفسه)

ثُمَّ قَالَ: وَلَمَّا كَانَ الْمَشَاهِيرُ مِنَ الشُّعْرَاءِ كَمَا قَدَّمْتُ أَكْثَرَ
مِنْ أَنْ يُحْصَوْا ذَكَرْتُ مِنَ الْمُقْلِينَ مَنْ وَسَّعَ ذِكْرُهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ
فَمِنْهُمْ طَرَقَةُ بْنُ الْعَبْدِ وَعَبِيدُ بْنُ الْأَبْرَصِ وَعَلَقَمَةُ الْفَحْلُ وَعَدِي
أَبْنُ زَيْدٍ. وَطَرَقَةُ فَضَّلَ النَّاسُ بِوَاحِدَةٍ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ وَهِيَ الْمَعْلَقَةُ:
لِحَوَاةِ أَطْلَالٍ يَبْرِقُ تَهْمِدُ

وَلَهُ سِوَاهَا يَسِيرٌ لِأَنَّهُ قُتِلَ صَغِيرًا حَوْلَ الْعِشْرِينَ فِيمَا رُوِيَ
وَأَصَحُّ مَا فِي ذَلِكَ قَوْلُ أُخْتِهِ تَرْثِيهِ:

عَدَدْنَا لَهُ سِتًّا وَعِشْرِينَ حِجَّةً فَلَمَّا تَوَفَّاهَا أَسْتَوَى سَيِّدًا ضَخْمًا
فُحْمَنَا بِهِ لَمَّا رَجَوْنَا إِيَابَهُ عَلَى خَيْرِ حَالٍ لَا وَائِدًا وَلَا قَحْمًا
أَنْشَدَهُ الْمُبَرَّدُ وَالْقَحْمُ الْمُتَنَاهِي فِي السِّنِّ. وَعَبِيدٌ قَلِيلُ الشُّعْرِ
فِي أَيْدِي النَّاسِ عَلَى قَدَمِ ذِكْرِهِ وَعِظَمِ شُهْرَتِهِ وَطُولِ عُمُرِهِ يُقَالُ
إِنَّهُ عَاشَ ثَلَاثِمِائَةَ سَنَةٍ وَكَذَلِكَ أَبُو دُوَادٍ. وَإِعَامَةُ الْفَحْلِ ثَلَاثُ
قَصَائِدَ مَشْهُورَاتٍ إِحْدَاهَا قَوْلُهُ:

(ذَهَبَتْ مِنَ الْهَجْرَانِ فِي كُلِّ مَذْهَبٍ) وَالثَّانِيَةُ قَوْلُهُ (طَحَا بِكَ قَلْبُ

فِي الْحَسَنِ طُرُوبُ) وَالثَّالِثَةُ قَوْلُهُ (هَلْ مَا عَلِمْتَ وَمَا اسْتُودِعْتَ مَكْتُومُ)
وَأَمَّا عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ فَمَشْهُورَاتُهُ أَرْبَعُ قَوْلُهُ: (أَرَوَّاحُ مُوَدِّعِ أَم
بُكُورُ) وَقَوْلُهُ (أَتَعْرِفُ رَسْمَ الدَّارِ مِنْ أَمْرِ مَعْبَدٍ) وَقَوْلُهُ (لَيْسَ
شَيْءٌ عَلَى الْمُنُونِ بِبَاقٍ) وَقَوْلُهُ:

لَمْ أَرِ مِثْلَ الْفَتَيَانِ فِي غَيْرِ أَلَا مِ يَامَ يَنْسُونَ مَا عَوَّاهَا
وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو: عَدِيُّ بْنُ الشُّعْرَاءِ مِثْلُ سَهِيلٍ فِي النُّجُومِ
يُعَارِضُهَا وَلَا يَجْرِي مَعَهَا هَوْلَاءُ أَشْعَارِهِمْ كَبِيرَةٌ فِي ذَاتِهَا قَلِيلَةٌ
فِي أَيْدِي النَّاسِ ذَهَبَتْ بِذَهَابِ الرُّوَاةِ الَّذِينَ يَحْجِلُونَهَا .
وَمِنْ الْمُقَائِنِ سَلَامَةُ بْنُ جَنْدَلٍ وَحُصَيْنُ بْنُ الْحَمَامِ الْمُرِّيُّ
وَالْمُلْتَمِسُ وَالْمُسَبِّبُ بْنُ عَاسٍ كُلُّ أَشْعَارِهِمْ قَلِيلٌ فِي ذَاتِهِ جَيِّدٌ
الْجِلَّةُ . وَيُرْوَى عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ أَنَّهُ قَالَ: أَتَّفَقُوا أَنَّ أَشْعَرَ الْمُقَائِنِ
فِي الْجَاهِلِيَّةِ ثَلَاثَةٌ الْمُلْتَمِسُ وَالْمُسَبِّبُ بْنُ عَاسٍ وَحُصَيْنُ بْنُ الْحَمَامِ
الْمُرِّيُّ . وَأَمَّا أَصْحَابُ الْوَاحِدَةِ فَطَرَفَةُ أَوَّلُهُمْ وَوَسْطُهُمْ عُنْتَرَةُ وَآخِرُهُمْ
أَبْنُ حِلْزَةِ وَعَمْرُو بْنُ كُثُومٍ أَصْحَابُ الْمُعَلَّاتِ الْمَشْهُورَاتِ وَعَمْرُو بْنُ
مَعْدِيِّ كَرِبَ وَالْأَشْعَرُ بْنُ خُرَّانَ الْجَفِيِّ وَسُوَيْدُ بْنُ أَبِي كَاهِلٍ
وَالْأَسْوَدُ بْنُ يَغْفَرٍ وَكَانَ أَمْرُهُ الْقَائِسُ مُقِلًّا كَثِيرَ الْمُعَانِي
وَالْتَّصَرُّفِ لَا يَصِحُّ لَهُ إِلَّا نَيْفٌ وَعَشْرُونَ شِعْرًا بَيْنَ طَوِيلٍ وَقِطْعَةٍ



البحث الثالث

في المغلّين من الشعراء

(من الكتاب نفسه)

وَأَمَّا الْمَغْلَبُونَ فَفَتَنَهُمْ تَابِغَةُ بْنُ جَعْفَدَةَ وَهَعْنَى الْمَغْلَبِ الَّذِي لَا
ذَالَ مَغْلُوبًا قَالَ أَمْرُوهُ الْقَيْسُ :

فَالَيْكَ لَمْ يَنْحَرْ عَلَيْكَ كَفَاخِرٌ ضَعِيفٌ وَلَمْ يَغْلِبْكَ مِثْلُ مُغْلَبٍ
يَعْنِي إِذَا قَدَرَ لَمْ يُبْقِ وَقَدْ غَلَبَ عَلَى الْجَعْدِيِّ أَوْسُ بْنُ مَفْرَاءَ
وَلَيْلَى الْأَخِيلِيَّةُ وَغَيْرُهُمَا وَقِيلَ إِنَّ مَوْتَ الْجَعْدِيِّ كَانَ بِسَبَبِ أَيْلَى
الْأَخِيلِيَّةِ فَرَّ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا فَمَاتَ فِي الطَّرِيقِ مُسَافِرًا . وَالْمَغْلَبُونَ
الزُّبُرْقَانُ غَلَبَهُ عَمْرُو بْنُ الْأَهِمِّ وَغَلَبَهُ الْمُعِيلُ السَّعْدِيُّ وَغَلَبَهُ الْخَطِيبَةُ
وَقَالَ يُونُسُ بْنُ حَبِيبٍ كَانَ الْبَيْتُ مُغَالِبًا فِي الْخُطْبِ

قَالَ ابْنُ رِشْقٍ فِي الْعُنْدَةِ فِي بَابِ الْقُدَمَاءِ وَالْمُحَدَّثِينَ :
كُلُّ قَدِيمٍ مِنَ الشُّعْرَاءِ فَهُوَ مُحَدَّثٌ فِي زَمَانِهِ بِالْإِضَاقَةِ إِلَى مَنْ
كَانَ قَبْلَهُ وَكَانَ أَبُو عَمْرٍو بْنُ الْأَعْلَاءِ يَقُولُ لَقَدْ حَسُنَ هَذَا الْمَوْلَدُ
حَتَّى هَمَمْتُ أَنْ أَمُرَ صَبِيَانًا بِرَوَايَتِهِ يَعْنِي بِذَلِكَ شِعْرَ جَرِيرٍ
وَالْفَرَزْدَقِ فَجَعَلَهُ مُوَلَّدًا بِالْإِضَاقَةِ إِلَى شِعْرِ الْجَاهِلِيَّةِ وَالْمُحَضَّرِينَ
وَكَانَ لَا يَعُدُّ الشُّعْرَ إِلَّا مَا كَانَ لِلْمُتَقَدِّمِينَ قَالَ الْأَصْمَعِيُّ : جَلَسْتُ
إِلَيْهِ عَشْرَ حَجَجٍ فَمَا سَمِعْتُهُ يَخْتُمُ بَيْتَ إِسْلَامِيٍّ وَسُئِلَ عَنْ
الْمَوْلَدِينَ فَقَالَ : مَا كَانَ مِنْ حَسَنٍ فَقَدْ سُبِقُوا إِلَيْهِ وَمَا كَانَ مِنْ

قَبِيحٌ فَهُوَ مِنْ عِنْدِهِمْ لَيْسَ النَّسَبُ وَاحِدًا هَذَا مَذْهَبُ أَبِي عَمْرٍو
 وَأَصْحَابِهِ كَأَلِ الْأَصْبَعِيِّ وَأَبْنِ الْأَمْرَأِيِّ أَعْنِي أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ
 يَذْهَبُ فِي أَهْلِ عَصَرِهِ هَذَا الْمَذْهَبُ وَيُقَدِّمُ مَنْ قَبْلَهُمْ وَلَيْسَ
 ذَلِكَ لشيءٍ إِلَّا لِحَاجَتِهِمْ فِي الشِّعْرِ إِلَى الشَّاهِدِ وَقِلَّةِ ثِقَتِهِمْ بِمَا يَرْتَبِ
 بِهِ الْمَوْلَدُونَ وَأَمَّا أَبُو قَتَيْبَةَ فَقَالَ: لَمْ يَقْصِرِ اللَّهُ الشِّعْرَ وَالْعِلْمَ
 وَالْبَلَاغَةَ عَلَى زَمَنِ دُونَ زَمَنِ وَلَا خَصَّ قَوْمًا دُونَ قَوْمٍ بَلْ جَعَلَ
 ذَلِكَ مُشْتَرَكًا مَقْسُومًا بَيْنَ عِبَادِهِ فِي كُلِّ دَهْرٍ وَجَعَلَ كُلَّ قَدِيمٍ
 حَدِيثًا فِي عَصَرِهِ ثُمَّ قَالَ أَبُو رَيْثِقٍ فِي بَابِ آخَرٍ: طَبَقَاتُ
 الشُّعْرَاءِ أَرْبَعٌ جَاهِلِيٌّ قَدِيمٌ وَمُحَضَّرٌ وَهُوَ الَّذِي أَدْرَكَ الْجَاهِلِيَّةَ
 وَالْإِسْلَامِيَّةَ وَمُحَدَّثٌ ثُمَّ صَارَ الْمُحَدَّثُونَ طَبَقَاتٍ أُولَى وَثَانِيَّةً عَلَى
 التَّدْرِيجِ هَكَذَا فِي الْهَبْوَطِ إِلَى وَقْتِنَا هَذَا فَلْيَعْلَمْ الْمُتَأَخِّرُ مِقْدَارَ مَا
 بَقِيَ لَهُ مِنَ الشِّعْرِ مُتَصَفِّحًا أَشْعَارَ مَنْ قَبْلَهُ لِيَنْظُرَ كَمْ بَيْنَ الْمُحَضَّرِ
 وَالْجَاهِلِيِّ وَبَيْنَ الْإِسْلَامِيِّ وَالْمُحَضَّرِ وَأَنَّ لِلْمُحَدَّثِ الْأَوَّلِ فَضْلًا
 عَمَّنْ بَعْدَهُ فِي الْمَثَلَةِ . فَبَيْنَ الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِيَّةِ مَنْ ذَهَبَ
 بِكُلِّ مَلَاخَةٍ وَرَشَاقَةٍ وَسَبَقَ إِلَى كُلِّ طَلَاوَةٍ وَلَبَاقَةٍ (قَالَ) أَبُو
 الْحَسَنِ الْأَخْفَشُ: يُقَالُ مَا خَضِرَ إِذَا تَسَاهَى فِي الْكَثْرَةِ
 وَالسَّعَةِ كَفَنَهُ سَيِّ الرَّجُلُ الَّذِي شَهِدَ الْجَاهِلِيَّةَ وَالْإِسْلَامَ مُحَضَّرًا
 كَأَنَّهُ اسْتَوَى فِي الْأَمْرَيْنِ (قَالَ) وَيُقَالُ: أُذُنٌ مُحَضَّرَةٌ إِذَا
 كَانَتْ مَقْطُوعَةً فَكَأَنَّهُ انْقَطَعَ عَنِ الْجَاهِلِيَّةِ إِلَى الْإِسْلَامِ
 (وَحَكَى) أَبُو قَتَيْبَةَ عَنِ الْأَصْبَعِيِّ قَالَ: أَسْلَمَ قَوْمٌ فِي

الْجَاهِلِيَّةَ عَلَى إِبْلِ قَطَعُوا آذَانَهَا فَسَمِيَ كُلُّ مَنْ آذَرَكَ الْجَاهِلِيَّةَ
 وَالْإِسْلَامَ مُحْضَرًا وَزَعَمَ أَنَّهُ لَا يَكُونُ مُحْضَرًا حَتَّى يَكُونَ
 إِسْلَامُهُ بَعْدَ وَفَاةِ الرَّسُولِ وَقَدْ آذَرَكَ كَبِيرًا فَلَمْ يَسْلَمْ (قَالَ) ابْنُ
 رَشِيقٍ : وَهَذَا عِنْدِي خَطَأٌ لِأَنَّ اللَّابِنَةَ الْجَعْدِيَّ وَلَيْسَ قَدْ وَقَعَ
 عَلَيْهَا هَذَا الْإِسْمُ فَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ الْحَسَنِ كِرَاعٌ فَقَدْ حَكَى : شَاعِرٌ
 مُحْضَرٌ بِجَاءَ غَيْرِ مُعْجَبَةٍ مَأْخُودٌ مِنَ الْخُضْرَمَةِ وَهِيَ الْخُلَاطَةُ لِأَنَّهُ خَلَطَ
 الْجَاهِلِيَّةَ وَالْإِسْلَامَ وَقَالُوا : الشُّعْرَاءُ أَرْبَعَةٌ : شَاعِرٌ خَنْزِيدٌ وَهُوَ
 الَّذِي يَجْمَعُ إِلَى جُودَةِ شِعْرِهِ رِوَايَةَ الْجَيْدِ مِنْ شِعْرِ غَيْرِهِ . وَسُئِلَ
 رُؤْبَةُ عَنْ الْفُحُولِ فَقَالَ : هُمْ الرُّوَاةُ . وَشَاعِرٌ مُفْلِقٌ وَهُوَ الَّذِي لَا
 رِوَايَةَ لَهُ إِلَّا أَنَّهُ مُجَوِّدٌ كَالْخَنْزِيدِ فِي شِعْرِهِ . وَشَاعِرٌ فَقَطٌ وَهُوَ
 فَوْقَ الرَّدِيِّ بِدَرَجَةٍ وَشُعْرُورٌ وَهُوَ لَا شَيْءَ . قَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ :
 يَا رَابِعَ الشُّعْرَاءِ كَيْفَ هَجَوْتَنِي وَزَعَمْتَ إِنِّي مُفْهِمٌ لَا أَنْطِقُ
 وَقِيلَ بَلْ هُمْ شَاعِرٌ مُفْلِقٌ مُطْبِقٌ وَشُؤْيَعِرٌ وَشُعْرُورٌ وَالْمُفْلِقُ
 الَّذِي يَأْتِي فِي شِعْرِهِ بِالْفَلَقِ وَهُوَ الْعَجَبُ وَقِيلَ الدَّاهِيَّةُ (قَالَ
 الْأَضْبَعِيُّ) الشُّؤْيَعِرُ خُمَرَانُ بْنُ أَبِي خُمَرَانَ سَمَاءُ بِذَلِكَ أَمْرُؤُ
 الْقَمَيْسِ وَمِثْلُ عَبْدِ الْغَزِيرِ الْمَعْرُوفِ بِالشُّؤْيَعِرِ . قَالَ الْحَاجِظُ :
 وَالشَّاعِرُ عَبْدُ بَالِيلٍ مِنْ بَنِي سَعْدٍ بْنُ لَيْثٍ وَقِيلَ أَنَّهُ رَبِيعَةُ بْنُ
 عُثْمَانَ وَقَالَ بَعْضُهُمْ شَاعِرٌ وَشُؤْيَعِرٌ وَشُعْرُورٌ . قَالَ الْعَبْدِيُّ فِي شَاعِرٍ
 يُدْعَى الْمَعْرُوفَ مِنْ بَنِي ضَبَّةَ ثُمَّ مِنْ بَنِي خَمِيسٍ :
 أَلَا تَنْهَى سَرَاةَ بَنِي خَمِيسٍ شُؤْيَعِرَهَا فَوَيْلِيَّةَ الْأَفَاعِي

فَسَمَاهُ شُوَيْرَاءَ. وَقَالِيَةُ الْآفَاعِي دُوَيْيَّةٌ فَوْقَ الْخُنْفَسَاءِ فَصَغَّرَهَا تَحْقِيرًا بِهِ
وَزَعَمَ الْحَارِثِيُّ أَنَّ النَّابِغَةَ سَأَلَ: مَنْ أَشْعَرُ النَّاسِ فَقَالَ مَنْ أَسْتَحْيَدَ
جَيْدُهُ وَأَضْحَكَ رَدِيئُهُ كَانَ مِنْ سَفَلَةِ الشُّعْرَاءِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ
فِي الْهَجَاءِ خَادَةً وَقَالَ الْخَطِيبَةُ:

الشِّعْرُ صَغْبٌ وَطَوِيلٌ سُلْمَةٌ وَالشِّعْرُ لَا يَنْطِيعُهُ مَنْ يَظْلِمُهُ
إِذَا ارْتَقَى فِيهِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ زَلَّتْ بِهِ إِلَى الْخَضِيزِ قَدَمُهُ
يُرِيدُ أَنْ يُعْرَبَهُ قَيْجَمُهُ

وَقَالَ بَعْضُهُمْ:

الشُّعْرَاءُ قَاعِلَمُنْ أَرْبَعَةٌ فَشَاعِرٌ لَا يُرْتَجَى لِمَنْفَعَةٍ
وَشَاعِرٌ يُنْشِدُ وَسَطَ الْجَمْعَةِ وَشَاعِرٌ آخِرٌ لَا يُجْرَى مَعَهُ
وَشَاعِرٌ يُقَالُ خَسِرٌ فِي دَعَةٍ

قَالَ ابْنُ رَشِيقٍ: وَإِنَّمَا سُمِّيَ الشَّاعِرُ شَاعِرًا لِأَنَّهُ يَشْعُرُ بِمَا لَا
يَشْعُرُ بِهِ غَيْرُهُ. قَالَ ابْنُ خَالَوَيْهِ فِي شَرْحِ الدَّرِيدِيَّةِ يُقَالُ:
أَنشَدْتُهُ مُقَلَّدَاتِ الشُّعْرَاءِ أَيِ آيَاتِهِمُ الطَّنَانَةِ الْمُسْتَحْسَنَةِ وَيَقُولُ
آخَرُونَ: إِنَّ الْمُقَلَّدَ مِنَ الشِّعْرِ مَا كَانَ أَمُّ الْمَمْدُوحِ فِيهِ مَذْكُورًا
فِي قَافِيَتِهِ وَيُقَالُ: هَذَا أَلْبَيْتُ عُثْرُ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ أَيِ أَجُودُ بَيْتٍ
فِيهَا كَمَا يُقَالُ: هَذَا بَيْتُ طَنَّانٍ. اهـ. وَفِي الْمَقْصُورِ وَالْمَمْدُودِ
لِلْقَالِي: قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ فِي قَوْلِ النَّابِغَةِ الدُّبْيَانِي:

يَصْدُ الشَّاعِرُ الثُّنْيَانُ عَنِّي صُدُودَ الْبَكْرِ عَنْ قَوْمِ الْهَجَانِ

قَالَ الثُّنْيَانُ الَّذِي هُوَ شَاعِرٌ وَأَبُوهُ شَاعِرٌ كَمَكْفَبِ بْنِ زَهَيْرٍ

وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ حَسَّانَ وَرُؤْبَةُ بْنُ الْعَجَّاجِ. وَقَالَ أَبُو غَمْرٍو الشَّيْبَانِيُّ
الثُّنْيَانُ الَّذِي يُسْتَشْنَى فَيُقَالُ مَا فِي الْقَوْمِ أَشْعَرُ مِنْ فُلَانٍ إِلَّا
فُلَانٌ فُلَانٌ أَلْمَسْتَنَى هُوَ الْأَفْضَلُ الْأَشْعَرُ. وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ الثُّنْيَانُ
الَّذِي تُشْنَى عَلَيْهِ الْخَنَاصِرُ فِي الْعَدَدِ لِأَنَّهُ أَوَّلُ وَقَالَ ابْنُ هِشَامٍ
هُوَ الَّذِي يُسْتَشْنَى مِنَ الشُّعْرَاءِ لِأَنَّهُ دُونَهُمْ. وَقَالَ غَيْرُهُ الثُّنْيَانُ
الضَّعِيفُ. وَقَالَ الْقَالِي: الثُّنْيَانُ عِنْدِي الَّذِي يُسْتَشْنَى مِنَ الْقَوْمِ
رَفِيعًا كَانَ أَوْ ضَعِيفًا فَيُقَالُ لِلدُّونِ وَالضَّعِيفِ ثُنْيَانٌ وَلِلرَّفِيعِ
وَالشَّاعِرِ ثُنْيَانٌ (وَقَالَ الْقَالِي) فِي الْمَقْصُورِ وَالْمُسَدَّدِ. حَدَّثَنَا
أَبُو بَكْرٍ بْنُ دُرَيْدٍ قَالَ: ذَكَرَ أَبُو عُبَيْدَةَ وَأَحْسِبُ الْأَصْمَعِيَّ قَدْ
ذَكَرَهُ أَيْضًا قَالَ: لَقِيتِ السَّعْلَةَ حَسَّانَ بْنَ ثَابِتٍ فِي بَعْضِ
طُرُقَاتِ الْمَدِينَةِ وَهُوَ غُلَامٌ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ الشِّعْرَ فَبَرَكْتُ عَلَى صَدْرِهِ
وَقَالَتْ أَنْتَ الَّذِي جُوعَ قَوْمُكَ إِنْ تَكُونُ شَاعِرُهُمْ قَالَ: نَعَمْ.
قَالَتْ: فَأَنْشِدْنِي ثَلَاثَةَ آيَاتٍ عَلَى رَوِيٍّ وَاحِدٍ وَإِلَّا قَتَلْتُكَ فَقَالَ:
إِذَا مَا تَرَعَرَعَ فِينَا الْغُلَا مُمْ قَامِ إِنْ يُقَالُ لَهُ مَنْ هُوَ
إِذَا لَمْ يَسُدْ قَبْلَ شِدِّ قَدْ مِ لِكَ فِينَا الَّذِي لَا هُوَ
وَلِي صَاحِبٌ مِنْ بَنِي الشَّيْطَانِ نِ فَحِينَا أَقُولُ وَحِينَا هُوَ
فَحَلَّتْ سَيْلُهُ وَقَالَتْ: أَوَّلَى لَكَ قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: يُقَالُ السَّعْلَةُ

سَاحِرَةُ الْحَمْنِ

(قَائِدَةٌ) قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ الْبَطْلِيُّوسِي. وَقَدْ أَنْشَدَ قَوْلَ

الْفَرَزْدَقِ:

وَمَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إِلَّا مُمْلَكًا أَبُو أُمِّهِ حَيُّ أَبُوهُ يُقَارِبُهُ
 هَذَا وَآمِثَالُهُ وَإِنْ كَانَ جَائِزًا فِي الْأَعْرَابِ . فَلَيْسَ يَحْسُنُ فِي
 الشِّعْرِ عِنْدَ ذَوِي الْأَلْبَابِ . لِمَا فِيهِ مِنْ وَهْمِ النَّسَجِ وَالْإِضْطِرَابِ .
 وَالشِّعْرُ إِذَا أَخْرَجَ إِلَى شَرْحٍ لَمْ يَعُدَّ فِي فَخْرِ الْمَسَاقِ . وَلَا قَامَ
 فِي الْإِحْسَانِ عَلَى سَاقٍ . وَلَا عَذِبَ فِي الْمَذَاقِ . فَهُوَ مَكْرُوهٌ عِنْدَ
 الْحَذَاقِ . وَيَحْتَاجُ الشِّعْرُ إِلَى أَنْ يَسْبِقَ مَعْنَاهُ لَفْظُهُ . فَتَسْلُبُ النَّفْسُ
 رِوَايَتَهُ وَحِفْظَهُ . وَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ وَالْمُتَكَلِّمِ . بَيَانُ مَا يُجَاوِزُهُ
 لِلْعَالِمِ وَالْمُتَعَلِّمِ . فَإِنْ تَكَلَّمَ بِقُلُوبٍ . مَجْتَنِّهِ الْأَسْمَاعُ وَالْقُلُوبُ . وَلَمْ
 يَتَحَصَّلْ مِنْهُ الْفَرَضُ الْمَطْلُوبُ . فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ أَمَا تَرَى فِي الْأَشْعَارِ
 آمِثَالَ هَذَا كَقَوْلِهِ :

لَهَا مُمْلَكًا آدَاءٌ طَلَّ خَبِيلُهُ مِنْ الْوَحْشِ مَا يَنْفَكُ يَرْمِي عَرَادَهَا
 قِيلَ لَهُ وَهَذَا أَيْضًا قَدْ أَحَالَ وَمِنْ تَكَلَّفٍ مِثْلِ هَذَا لَمْ
 يُخَفِّفْ عَنْ نَفْسِهِ الْكُلْفَةَ وَالْمَلَامَ . وَتَعَرَّضَ لِأَنْ يَلَامَ . وَتَرَكَ
 بَيْنَ الْكَلَامِ . وَإِنَّمَا يَتَفَاضَلُ الْكَلَامُ وَالشِّعْرُ بِحُسْنِ الْعِبَارَةِ
 وَالذِّيَابَةِ . وَرَوَاقِ الْفَصَاحَةِ حَتَّى تَكُونَ الْفَاطَهَا كَلَوْجَاةً . وَإِلَّا
 فَأَلَمَانِي مُعَرَّضَةٌ لِكُلِّ جِيلٍ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ وَالشِّرْكِ حَتَّى
 لِلزَّانِجِ وَالْثَّرِ وَالْثَّرِ لِكِنَّهُمْ قَصُرَتْ بِهِمُ السِّتُّهُمْ عَنْ بُلُوغِ
 مَا رَأَوْهُ مِنْ أَرَبٍ . قَدْ تَهَيَّأَ عَلَى أَلْسِنَةِ الْعَرَبِ . وَأَقْلُ مَا يَحِبُّ عَلَى
 الْمُتَكَلِّمِ الْبَيَانُ لِحَاطِطِهِ . وَإِلَّا كَانَ كَحَاطِطِ اللَّيْلِ وَحَاطِطِهِ . يُحَاطَبُ
 الْعَرَبِيُّ بِالْعَجَبِيَّةِ وَيُحَاطَبُ الْعَجَبِيُّ بِالْعَرَبِيَّةِ . وَصِنَاعَةُ الشِّعْرِ أَشَدُّ

حَضْرًا. وَأَمَدُ عَصْرًا وَذَلِكَ أَنَّ الشَّاعِرَ إِنَّمَا هُوَ رَاغِبٌ رَاهِبٌ أَوْ
مُعَاتِبٌ بَيْنَ يَدَيْ مَلِكٍ فَإِنْ حَكِيَ عَنْ نَفْسِهِ وَإِلَّا كَانَ جَدِيرًا
بِأَنْ يَهْلِكَ إِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ ابْنُ جُرَيْجٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ
زَكَرِيَّا حَدَّثَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْغَلَابِيُّ حَدَّثَنَا مَهْدِيُّ بْنُ سَابِقٍ قَالَ :
دَخَلَ النَّابِغَةُ عَلَى النُّعْمَانِ بْنِ الْمُنْذِرِ فَقَالَ :

تَخِفُ الْأَرْضُ إِنْ تَفْقِدَكَ يَوْمًا وَتَبْقَى مَا بَقِيَتْ بِهَا ثَقِيلًا
فَنَظَرَ إِلَيْهِ النُّعْمَانُ نَظَرَ غَضَبَانٍ . وَكَانَ كَعْبُ بْنُ زُهَيْرٍ حَاضِرًا
فَقَالَ : أَضْلَحَ اللَّهُ الْمَلِكَ إِنْ مَعَ هَذَا بَيْتًا ضَلَّ عَنْهُ هُوَ

لِأَنَّكَ مَوْضِعُ الْقِسْطِ مِنْهَا فَتَسْمَعُ جَانِبَيْهَا أَنْ تَمِيلَا
فَضَحِكَ النُّعْمَانُ وَأَمَرَ لَهَا بِجَائِزَتَيْنِ فَلَوْلَا كَعْبٌ كَانَ قَدْ هَلَكَ .
فَإِنْ كَانَ الشَّاعِرُ مُحَاطَبًا مِنْ دُونِ الْمَلِكِ الْأَشْمِ بِمَا لَا يَفْهَمُ وَكَانَ
رَاغِبًا فِي دِرْهَمٍ كَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِبُطْلَانِ حَاجَتِهِ وَأَسْتِهْجَانِ شِعْرِهِ
وَتَحْقِيرِ أَمْرِهِ وَالْقُدَمَاءُ فِي هَذَا أَعَذَرُوا لَهَا لَعَنَهُمُ



الفصل الثالث

في فنون الشعر

البحث الاول

في المطبوع والمصنوع

(مر كتاب العمدة لابن رشيق)

وَمِنْ الشَّعْرِ مَطْبُوعٌ وَمَصْنُوعٌ فَالْمَطْبُوعُ هُوَ الْأَصْلُ وَضُمَ عَلَيْهِ
أَوَّلًا وَعَلَيْهِ الدَّارُ وَالْمَصْنُوعُ وَإِنْ وَقَعَ عَلَيْهِ هَذَا الْأِسْمُ فَلَيْسَ
مُتَكَلِّفًا تَكَلَّفَ اشْعَارُ الْمُؤَلِّدِينَ. لَكِنْ وَقَعَ فِي هَذَا النَّوعِ
الَّذِي سَمَّوْهُ صَنْعَةً مِنْ غَيْرِ قَضٍ وَلَا تَعَمُّلٍ لَكِنْ بِطِبَاعِ الْقَوْمِ
عُنُوا وَاسْتَحْسَنُوهُ وَمَالُوا إِلَيْهِ بَعْضُ اللَّيْلِ بَعْدَ أَنْ عَرَفُوا وَجْهَ
اخْتِيَارِهِ عَلَى غَيْرِهِ حَتَّى صَنَعَ زُهَيْرُ الْحَوْلِيَّاتِ عَلَى التَّنْقِيجِ وَالتَّخْفِيفِ
يَضَعُ الْقَصِيدَةَ ثُمَّ يُكَرِّرُ نَظْرَهُ بِهَا خَوْفًا مِنَ التَّعَبِ بَعْدَ أَنْ
يَكُونَ قَدْ فَرَّغَ مِنْ عَمَلِهَا فِي سَاعَةٍ أَوْ لَيْلَةٍ. وَرَبَّمَا قَصَدَ إِقَامَةَ
نَشَاطِهِ فَتَبَاطَأَ عَمَلُهُ لِذَلِكَ. وَأَعْرَبُ لَا تَنْظُرُ فِي أَنْطَافِ شِعْرِهَا بِأَنْ
تُحْسِنَ أَوْ تُطَاقِبَ أَوْ تُقَابِلَ فَتَتْرَكَ لَفْظَةً لِلْفِظَةِ أَوْ مَعْنَى لِمَعْنَى كَمَا
يَفْعَلُ الْمُحَدِّثُونَ وَلَكِنْ نَظَرُهَا فِي فَصَاحَةِ الْكَلَامِ أَوْ جَزَالَتِهِ

وَبَسْطِ الْمَعْنَى أَوْ إِبْرَازِهِ وَاتِّقَانِ بَيْتِ الشِّعْرِ وَإِحْكَامِ الْقَافِيَةِ
وَتَلَاخُمِ الْكَلَامِ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ حَتَّى عَدُّوا مِنْ فَضْلِ صَنْعَةِ
الْخَطِيئَةِ حَتَّى نَسَقَهُ الْكَلَامَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ :

فَلَا وَآيِكَ مَا ظَلَمْتَ قُرَيْعٌ بَانَ يَبْنُوا الْمَكَارِمَ حَيْثُ شَاؤُوا
وَلَا وَآيِكَ مَا ظَلَمْتَ قُرَيْعٌ وَلَا عَفُّوا بِذَلِكَ وَلَا أَسَاؤُوا
فَإِنَّ الْجَارَ مِثْلَ الضَّيْفِ يَفْدُو لِيُوجِّهْتَهُ وَإِنْ طَالَ الْقَوَاءُ
وَرَأَيْتِي قَدْ عَلِقْتُ بِمَجْبَلٍ قَسُومٍ أَعَانَهُمْ عَلَى الْحَسْبِ الْإِثْرَاءُ

وَأَسْتَظَرُّوْا مَا جَاءَ مِنْ الصَّنْعَةِ تَحَوُّ الْبَيْتِ وَالْمِثْلَيْنِ فِي الْقَصِيدَةِ
بَيْنَ الْقَصَائِدِ يُسْتَدَلُّ بِذَلِكَ عَلَى جُودَةِ شِعْرِ الرَّجُلِ وَصِدْقِ حِسِّهِ
وَصَفَاءِ خَاطِرِهِ . وَأَمَّا إِذَا كَثُرَ ذَلِكَ فَهُوَ غَيْبٌ يَشْهَدُ بِخِلَافِ الطَّبَعِ
وَإِثَارِ الْكُلْفَةِ وَلَيْسَ يَتَّجِهُ أَلْتَّةَ أَنْ يَأْتِيَ مِنَ الشَّاعِرِ قَصِيدَةٌ
كُلُّهَا أَوْ أَكْثَرُهَا مُتَّصَعٌ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ كَالَّذِي يَأْتِي مِنْ أَشْعَارِ
صَيْبٍ وَالْبُحْثَرِيِّ وَغَيْرِهِمَا وَقَدْ كَانَا يَطْلُبَانِ الْعِنَةَ وَيُولَعَانِ بِهَا . فَأَمَّا
حَبِيبٌ فَيَذْهَبُ إِلَى حِزْوَنَةِ اللَّفْظِ وَمَا يَمْلَأُ الْأَسْمَاعَ مِنْهُ مَعَ التَّصْنِيعِ
الْمُحْكَمِ طَوْعًا وَكَرْهًا يَأْتِي الْأَشْيَاءَ مِنْ بُغْدٍ وَيَطْلُبُهَا بِكُلْفَةٍ
وَيَأْخُذُهَا بِقُوَّةٍ . وَأَمَّا الْبُحْثَرِيُّ فَكَانَ أَعْلَمَ وَأَحْسَنَ مَذْهَبًا فِي
الْكَلَامِ يَسْلُكُ مِنْهُ دَمَائَةً وَسُهُولًا مَعَ إِحْكَامِ التَّصْنِيعِ وَقُرْبِ
الْمَأْخِذِ لَا يَظْهَرُ عَلَيْهِ كُلْفَةٌ وَلَا مَشَقَّةٌ . وَمَا أَعْلَمُ شَاعِرًا أَكْمَلَ
وَلَا أَعْلَمَ تَصْنَعًا مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمَعْتَرِ فَإِنَّ صَنْعَتَهُ خَفِيَّةٌ لَا تَكَادُ
تَظْهَرُ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ إِلَّا لِلْبَصِيرِ بِدَقَائِقِ الشِّعْرِ وَهُوَ عِنْدِي

أَنْظَفُ أَصْحَابِهِ شِعْرًا وَأَكْثَرُهُمْ بَدِيعًا وَأَفْتَنَانَا وَأَقْرَبُهُمْ قَوَانِي
وَأَوْزَانَا وَلَا أَرَى وَرَاءَهُ غَايَةً لِّطَالِبِهَا فِي هَذَا الْبَابِ . غَيْرَ أَنَّا لَا نَحْدُ
الْمُبْتَدِئِ فِي طَلَبِ التَّصْنِيعِ وَمُزَاوَلَةِ الْكَلَامِ أَكْثَرَ انْتِفَاعًا مِنْهُ
بِطَالَعَةِ شِعْرِ حَبِيبٍ وَشِعْرِ مُسْلِمٍ . بْنُ الْوَلِيدِ لَمَّا فِيهَا مِنَ الْفَضِيلَةِ
لِمُبْتَدِئِهَا وَلِأَنَّهَا طَرَقًا إِلَى الصَّنْعَةِ وَمَعْرِفَتِهَا طَرِيقًا سَالَةً وَكَثْرًا مِنْهَا
فِي أَشْعَارِهَا تَكْثِيرًا سَهْلًا عِنْدَ النَّاسِ وَحَسْرَةً عَلَيْهِمْ عَلَى أَنَّ مُسْلِمًا
أَسْهَلَ شِعْرًا مِنْ حَبِيبٍ وَأَقْلُ تَكَلُّفًا وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ تَكَلَّفَ
الْبَدِيعَ مِنَ الْمُؤَلَّدِينَ وَأَخَذَ نَفْسَهُ بِالصَّنْعَةِ وَكَثَّرَ مِنْهَا وَلَمْ يَكُنْ فِي
الْأَشْعَارِ الْمُحْدَثَةِ قَبْلَ مُسْلِمٍ إِلَّا التَّبْدُ الْبَسِيرَةُ . وَهُوَ رَهْبَرُ الْمُؤَلَّدِينَ
كَانَ يُطَى فِي صَنْعَتِهِ وَتَحْيِيدُهَا . وَقَالُوا : أَوَّلُ مَنْ فَتَقَ الْبَدِيعَ
مِنَ الْمُحْدَثِينَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ وَهُوَ سَاقَةُ الْعَرَبِ وَآخِرُ مَنْ
يُسْتَشْهَدُ بِشِعْرِهِ ثُمَّ اتَّبَعَهَا مُقْتَدِيًا بِهَا كُثُومُ بْنُ عَمْرِو الْعِتَابِي
وَمَنْصُورُ النَّهْرِيٌّ وَمُسْلِمُ بْنُ الْوَلِيدِ وَأَبُو نُوَاسٍ وَاتَّبَعَ هَؤُلَاءِ أَبُو
تَمَّامٍ وَالْبُخْتَرِيُّ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُعْتَرِ فَأَنْتَهَى عِلْمُ الْبَدِيعِ وَالصَّنْعَةِ وَخُتِمَ
بِهِ . وَشَبَّهَ قَوْمٌ أَبَا نُوَاسٍ بِالنَّابِغَةِ لَمَّا اجْتَمَعَ لَهُ مِنَ الْجَزَالَةِ مَعَ الرَّشَاقَةِ
وَحُسْنِ الدِّيَابِجَةِ وَالْمَعْرِفَةِ بِمَدْحِ الْمُلُوكِ . وَأَمَّا بَشَّارٌ فَقَدْ شَبَّهَ
بِأَمْرِئِ الْقَيْسِ لِتَقَدُّمِهِ عَلَى الْمُؤَلَّدِينَ وَأَخَذِهِمْ عَنْهُ . وَمِنْ كَلَامِهِمْ :
بَشَّارُ أَبُو الْمُحْدَثِينَ . وَسَمِعْنَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ غَيْرَ مَرَّةٍ يَقُولُ : إِنَّهُ سَمِعَ بِي
الْأَعَشَى صَنَاجَةَ الْعَرَبِ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ ذَكَرَ الصُّجُجَ فِي شِعْرِهِ . قَالَ
وَيَقَالُ بَلْ سَمِيَ صَنَاجَةَ لِقُوَّةِ طَبْعِهِ وَحِلْيَةِ شِعْرِهِ يُحِيلُ إِلَيْكَ إِذَا

أَنشَدَتْهُ أَنَّ آخَرَ يُنْشَدُ مَعَكَ . وَمِثْلُهُ بَشَارُ بْنُ بُرْدٍ تُنْشَدُ أَقْصَرَ شِعْرِهِ
 عَرُوضًا وَآلِيَتُهُ كَلَامًا فَتَجِدُهُ فِي نَفْسِكَ هَزَّةً وَجَلْبَةً مِنْ قُوَّةِ الطَّبَعِ
 انْقَضَى كَلَامُ عَبْدِ اللَّهِ وَرَجَعْنَا إِلَى الْقَوْلِ فِي الطَّبَعِ وَالتَّضْيِيعِ .
 فَإِذَا كَانَ الشَّاعِرُ مُصْنِعًا فَإِنَّ جَيِّدَهُ مِنْ سَائِرِ شِعْرِهِ كَأَبِي تَمَّامٍ
 فَصَارَ مُحْضُورًا مَعْرُوفًا بِأَعْيَانِهِ فَإِذَا كَانَ الطَّبَعُ غَالِبًا عَلَيْهِ لَمْ يَبَيِّنْ
 جَيِّدَهُ كُلَّ الْبَيِّنَاتِ وَكَانَ قَرِيبًا مِنْ قَرِيبٍ كَأَلْحَجَّيْزِيِّ وَمَنْ شَاكَهُ
 وَقَدْ نَصَّ ابْنُ الرُّومِيِّ فِي مَعْضِ تَشْطِيرَاتِهِ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي
 حَكِيمَةَ الشَّاعِرِ حِينَ عَابَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ فِي الْفَرَسِ مِنْ قَصِيدَةٍ رَأَى
 بِهَا عَبْدَ اللَّهِ بْنُ ظَاهِرٍ :

فَلَهُ شَهَامَةٌ سُودِيْنِي بِأَكْبَرِ وَخَوَافِرُ حُفْرٍ وَرَأْسٌ صَانِعٌ
 وَذَكَرَ قَوْلَ أَبِي تَمَّامٍ (بِخَوَافِرِ حُفْرٍ وَصُلْبِ ذَلْبٍ) فَحِفْلٌ بِهِ وَاعْتَدَرَ
 لَهُ وَخَرَجَ التَّخَارِيجُ الْجَسَانَ وَذَكَرَ أَنَّ الْخَافِرَ الْوَأْبَ وَالْخَافِرَ الْمَقْعَبَ
 وَتَحَوُّهُمَا أَشْرَفُ فِي اللَّفْظِ مِنْ الْخَافِرِ الْأَحْفَرِ إِلَّا أَنَّ أَبَا تَمَّامٍ
 كَانَ يَطْلُبُ الْمَعْنَى وَلَا يُبَالِي بِاللَّفْظِ حَتَّى لَوْ تَمَّ لَهُ الْمَعْنَى بِالْمَفْظَةِ
 بَطِيئَةً لَأَتَى بِهَا . وَالَّذِي أَرَاهُ أَنَّ ابْنَ الرُّومِيِّ أَبْصَرَ بِأَبِي تَمَّامٍ
 وَغَيْرِهِ مِنْهُ وَأَنَّ التَّسْلِيمَ لَهُ وَالرُّجُوعَ إِلَيْهِ أَحْزَمٌ . غَيْرَ أَنِّي لَوْ شِئْتُ
 أَنْ أَقُولَ وَلَسْتُ رَادًّا عَلَيْهِ وَلَا مُعْتَرِضًا بَيْنَ يَدَيْهِ أَنَّ الْمَعْنَى
 الَّذِي أَرَادَهُ وَأَشَارَ إِلَيْهِ مِنْ جِهَةِ أَبِي تَمَّامٍ إِنَّمَا هُوَ مَعْنَى الصَّنْعَةِ
 مِثْلُ التَّطْيِيقِ وَالتَّجْنِيسِ وَمَا أَشْبَهَهُمَا لَا مَعْنَى الْكَلَامِ الَّذِي هُوَ
 رُوحُهُ . وَأَمَّا اللَّفْظُ الَّذِي ذَكَرَ أَنَّهُ لَا يُبَالِي بِهِ إِنَّمَا هُوَ فَصِيحٌ

الْكَلَامِ وَمُسْتَعْمَلُهُ وَيَدُلُّكَ عَلَى صِحَّةِ مَا ادَّعَيْتَهُ عَلَى ابْنِ الرُّومِيِّ.
قَوْلُهُ إِنَّ الْخَافِرَ الْوَأَبَ وَالْمُقَبَّ اشْرَفَ فِي اللَّفْظِ مِنَ الْخَافِرِ الْأَخْفَرِ.
فَكَلَامُهُ رَاجِعٌ إِلَى مَا قُلْتُهُ فِي أَبِي تَمَّامٍ عَنِ الْمُخَالِفِ لَهُ وَإِنْ كَانَ
فِي الظَّاهِرِ عَلَى خِلَافِهِ لَسَاغَ ذَلِكَ إِلَّا أَنْ أَكْثَرَ النَّاسِ عَلَى مَا قَالَ
وَأَنَّمَا هُوَ هَذَا مَعْرِضٌ لِلْكَلَامِ لَا مُخَالَفَةٌ. وَقَالَ الْجَاهِظُ: كَمَا لَا
يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ اللَّفْظُ عَامِيًّا وَلَا سَاقِطًا سُوقِيًّا فَكَذَلِكَ لَا يَنْبَغِي
أَنْ يَكُونَ وَحْشِيًّا إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْمُشْكَلُ بِهِ بَدْوِيًّا أَعْرَابِيًّا فَإِنَّ
الْوَحْشِيَّ مِنَ الْكَلَامِ يَفْهَمُهُ الْوَحْشِيُّ مِنَ النَّاسِ كَمَا يَفْهَمُ
السُّورِيُّ رَطَانَةَ السُّورِيِّ (قَالَ) وَأَنْشَدَ رَجُلٌ قَوْمًا شِعْرًا فَاسْتَعْرَبُوهُ
فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا هُوَ بِغَرِيبٍ وَلَكِنَّكُمْ فِي الْأَدَبِ غُرَبَاءُ. وَعَنْ غَيْرِهِ أَنَّ
رَجُلًا قَالَ لِأَبِي تَمَّامٍ فِي مَخَاسِرٍ قَدْ حَفَلَ وَآرَادَ تَبْكِيئَهُ لَمْ أَنْشُدْهُ:
يَا أَبَا تَمَّامٍ لِمَ لَا تَقُولُ مِنَ الشِّعْرِ مَا يُفْهَمُ. فَقَالَ لَهُ: وَأَنْتَ لِمَ لَا
تَفْهَمُ مِنَ الشِّعْرِ مَا يُقَالُ فَفَضَحَهُ. وَيُرْوَى أَنَّ هَذِهِ الْحِكَايَةَ
كَانَتْ مَعَ أَبِي الْعَمَيْثِلِ وَصَاحِبَيْنِ لَهُ خَاطَبَاهُ فَاجَابَهُمَا. وَقَالَ بَعْضُ
مَنْ نَظَرَ بَيْنَ أَبِي تَمَّامٍ وَآبِي الطَّيِّبِ إِنَّمَا أَوْ تَمَّامٌ كَالْقَاضِي الْعَدْلِ
يَضَعُ اللَّفْظَ مَوْضِعَهَا وَيُعْطِي الْمَعْنَى حَقَّهُ بَعْدَ طَوْلِ النَّظَرِ وَالْجَمْعِ
عَنِ الْبَيِّنَةِ أَوْ كَالْفَقِيهِ الْوَرَعِ يَتَحَرَّى فِي كَلَامِهِ وَيَتَحَرَّجُ. وَآوِ الطَّيِّبِ
كَالشُّجَاعِ الْجَرِيِّ بِهَجْمٍ عَلَى مَا يُرِيدُهُ لَا يُبَالِي مَا لَقِيَ وَلَا حَيْثُ
وَقَعَ. وَكَانَ الْأَضْمِيُّ يَقُولُ زُهَيْرٌ وَالتَّائِبَةُ مِنْ عَيْسِدِ الشِّعْرِ يُرِيدُ
أَنَّهُمَا يَتَكَلَّمَانِ إِضْلَاحَهُ وَيُشْفِلَانِ بِهِ خَوَاطِرَهُمَا وَحَوَاسَّهُمَا. وَمِنْ

أَصْحَابَهَا فِي التَّنْقِيجِ وَفِي التَّخْفِيفِ وَالتَّخْكِيكِ طُفَيْلُ الْغَنَوِيِّ . وَقَدْ
قِيلَ إِنَّ زُهَيْرًا أَيْضًا رَوَى لَهُ وَكَانَ يُسَمَّى مُحْتَبَرًا لِحُسْنِ شِعْرِهِ .
وَمِنْهُمْ الْخَطِيبَةُ وَالْأَسِيرُ بْنُ تَوَلَّبٍ وَكَانَ يُسَمِّيهِ أَبُو عَمْرٍو بْنُ الْعَلَاءِ
الْكَيْسَ . وَكَانَ بَعْضُ الْخُذَّاقِ يَقُولُ : قُلْ مِنَ الشِّعْرِ مَا يَخْدُمُكَ وَلَا
تَقُلْ مِنْهُ مَا يَخْدُمُهُ وَهُوَ مَعْنَى كَلَامِ الْأَصَمِيِّ . وَسَأُحَلِّي هَذَا
الْبَابَ مِنْ كَلَامِ السَّيِّدِ أَبِي الْحَسَنِ بِجِلْيَةٍ تَكُونُ لَهُ زِينَةٌ قَائِمَةٌ
وَأَخْتِمُهُ بِخَاتَمَةٍ تَكْسُوهُ حُلَّةٌ رَائِقَةٌ لِأَوْفَى بِذَلِكَ بَعْضَ مَا ضَمِنْتُ
وَأَقْضِي بِهِ حَقَّ مَا شَرَطْتُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . فَمَنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ سَنَةَ
٤٠٥ يَتَشَوَّقُ أَهْلَهُ :

وَلِي كَيْدٌ مَكْلُومَةٌ إِفْرَاقُكُمْ أَطَأُ مِنْهَا صَبْرًا عَلَى مَا أَجَتْ
تَمَنِّيْتُكُمْ شَوْقًا إِلَيْكُمْ وَصَبْرَةً عَنِ اللَّهِ أَنْ يُبْدِيَ لَهَا مَا تَمَتَّ
وَعَيْنٌ جَفَاهَا الدُّومُ وَأَعْتَادَهَا الْبُكَاءُ إِذَا عَنْ ذِكْرِ الْقِيَرِ وَأَنْ أُسْتَهَلَّتْ
فَلَوْ أَنَّ أَغْرَابِيَا تَذَكَّرَا نَجْدًا فَحَنَّ بِهِ إِلَى الْوَطَنِ أَوْ تَشَوَّقَ فِيهِ
بَعْضُ السَّكَنِ مَا حَسِبْتُهُ يَزِيدُ عَلَى مَا آتَى بِهِ هَذَا الْوَلَدُ الْخَضِرِيُّ
الْمُتَأَخِّرُ الْعَصْرِ . وَمَا أَنْخَطْتُ فِي هَذَا التَّسْمِيرِ فِي هَوَايَ وَلَا أَتَّبِعُ بِهِذَا
الْقَوْلِ عِنْدَ مَوْلَايَ وَلَا الْحَدِيثَةَ مِمَّا نَظُنُّ بِهِ وَلَا فِيهِ وَلَكِنْ قَدْ
رَأَيْتُ وَجْهَ الْحَقِّ فَعَرَفْتُهُ وَالْحَقُّ لَا يَتَلَمَّ وَمَا هُوَ فِي بَلَاغَتِهِ وَإِيجَازِهِ
إِلَّا كَمَا قَالَ الْأَحْمَرُ السَّعْدِيُّ فِي وَصِيَّتِهِ :

مِنْ الْقَوْلِ مَا يَكْفِي الْمَصِيبَ قَلِيلُهُ

وَمِنْهُ الَّذِي لَا يَكْتَفِي الدَّهْرَ قَائِلُهُ

يُصَدُّ عَنِ الْمَعْنَى فَيَبْثُرُكَ مَا تَحْتَا
وَيَذْهَبُ فِي التَّقْصِيرِ مِنْهُ تَطَاوُلُهُ
فَلَا تَكُ مَكْثَارًا تَرْيِدُ عَلَى الَّذِي
عُمِيَتْ بِهِ فِي خَطْبِ أَمْرِ تَرَاوُلُهُ

البحث الرابع

في اقسام الشعر

(من الكتاب نعه)

قَالَ عَبْدُ الْكَرِيمِ يَجْمَعُ أَصْنَافَ شِعْرِ أَرْبَعَةُ الْمَدِيحُ وَالْهَجَاءُ
وَالْحِكْمَةُ وَاللَّهُوُ ثُمَّ يَتَفَرَّعُ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنْ ذَلِكَ فَنُونَ فَيَكُونُ
فِي الْمَدِيحِ الْمُرَاتِي وَالْإِفْتِحَارُ وَالشُّكْرُ ثُمَّ يَكُونُ مِنَ الْهَجَاءِ الذَّمُّ
وَالْعِتَابُ وَالْإِسْتِظْهَارُ وَمِنْ الْحِكْمَةِ الْأَمْثَالُ وَالنَّزْهِيْدُ وَالْمَوَاعِظُ
وَيَكُونُ مِنَ اللَّهِوِ الْقُرْلُ وَصِفَةُ الْخَيْرِ وَالنَّحْمُورِ. وَقَالَ قَوْمُ الشِّعْرِ
كُلُّهُ نَوْعَانِ مَدْحٌ وَهَجَاءٌ فَإِلَى الْمَدْحِ يَرْجِعُ الرِّبَا، وَالْإِفْتِحَارُ وَاللَّشِيْبُ
وَمَا تَعَلَّقَ بِذَلِكَ مِنْ مَحْمُودِ الْوَصْفِ كَصِفَاتِ الْحُمُولِ وَالْآثَارِ
وَاللَّشِيْبَاتِ الْحَسَنِ وَكَذَلِكَ تَحْسِبُ الْخُلُقِ كَالْأَمْثَالِ وَالْحِكْمِ
وَالْمَوَاعِظِ وَالنَّزْهِيْدِ فِي الدُّنْيَا وَالْقَعَاةِ. وَالْهَجَاءُ ضِدُّ ذَلِكَ كُلُّهُ غَيْرَ أَنَّ
الْعِتَابَ حَالٌ مِنَ الْخَالِئِينَ فَهُوَ طَرَفٌ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا وَكَذَلِكَ
الْإِغْرَاءُ لَيْسَ بِمَدْحٍ وَلَا هَجَاءٍ لِأَنَّكَ لَا تُغْرِي بِإِنْسَانٍ فَتَقُولُ إِنَّهُ
حَقِيرٌ وَلَا ذَلِيلٌ إِلَّا كَانَ عَلَيْكَ وَعَلَى الْمَغْرَى الدَّرَكُ وَلَا تَقْصِدُ

أَيْضًا بِمَذْهِبِ الشَّاءِ عَلَيْهِ فَيَكُونُ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِهِ . وَأَلْبَيْتُ مِنْ
 الشِّعْرِ كَمَا لَبَيْتُ مِنَ الْأَبْنِيَةِ وَالشَّعْرِ قَرَارُهُ الطَّبَعُ وَسَنَكُهُ الرِّوَايَةُ
 وَدَعَائِمُهُ الْقَلَمُ وَبَابُهُ الدُّرْبَةُ وَسَاكِنُهُ الْمَغْنَى وَلَا خَيْرَ فِي بَيْتٍ غَيْرِ
 مَسْكُونٍ . وَصَارَتْ الْأَعَارِضُ وَالْقَوَائِي كَالْمَوَازِينِ وَالْأَمَثِلَةِ لِلْأَبْنِيَةِ
 أَوْ كَالْوَاحِيَةِ وَالْأَوْتَادِ لِلْأَخْيَةِ . وَأَمَّا مَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ مَخَاسِنِ
 الشِّعْرِ فَلَنَا هُوَ زِينَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ لَوْ لَمْ تَكُنْ لَأَسْتَفْنِي عَنْهَا . قَالَ
 الْقَاضِي عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْجُرْجَانِيُّ صَاحِبُ كِتَابِ الْوَسَاطَةِ :
 الشِّعْرُ عِلْمٌ مِنْ عُلُومِ الْعَرَبِ يَشْتَرِكُ فِيهِ الطَّبَعُ وَالرِّوَايَةُ وَالذِّكَاةُ
 ثُمَّ تَكُونُ الدُّرْبَةُ مَادَّةً لَهُ وَقُوَّةً لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ أَسْبَابِهِ فَمَنْ
 اجْتَمَعَتْ لَهُ هَذِهِ الْخِصَالُ فَهُوَ الْحَسَنُ الْبَرُّ وَيَقْدِرُ نَصِيبُهُ مِنْهَا
 تَكُونُ مَرْتَبَتُهُ مِنَ الْإِحْسَانِ . قَالَ وَلَسْتُ أَفْصِلُ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ
 بَيْنَ الْقَدِيمِ وَالْخُدْثِ وَالْجَاهِلِيِّ وَالْخَضَرِ وَالْأَعْرَابِيِّ وَالْمَوْلَدِ إِلَّا
 أَنِّي أَرَى حَاجَةَ الْخُدْثِ إِلَى الرِّوَايَةِ أَمْسَ وَاجِدُهُ إِلَى كَثْرَةِ
 الْحِفْظِ أَفْقَرًا فَإِذَا اسْتُكْشِفَتْ عَنْ هَذِهِ الْحَالَةِ وَجَدْتُ سَبِيلَهَا وَالْعِلَّةَ
 فِيهَا أَنَّ الْمَطْبُوعَ الَّذِي لَا يُمَكِّنُهُ تَأْوِيلُ الْفَاطِرِ الْعَرَبِ إِلَّا رِوَايَةً
 وَلَا رِوَايَةً وَلَا طَرِيقَ إِلَى الرِّوَايَةِ إِلَّا السَّمْعُ وَمِثْلُكَ السَّمْعُ
 الْحِفْظُ . وَقَالَ دُعَبَلٌ فِي كِتَابِهِ مَنْ أَرَادَ الْمَدِيحَ فَبِالرَّغْبَةِ وَمَنْ أَرَادَ
 الْعِجَاءَ فَبِالْبَغْضَاءِ وَمَنْ أَرَادَ التَّشْدِيدَ فَبِالشُّوْقِ وَالْعُشْقِ وَمَنْ أَرَادَ
 الْأَعَاتِبَةَ فَبِالْإِسْطِطَاءِ : فَقَسَّمَ الشِّعْرَ كَهَذِهِ الْأَقْسَامِ الْأَرْبَعَةَ وَكَانَ
 الرِّثْمًا عِنْدَهُ مِنْ بَابِ الْمَدْحِ عَلَى مَا قَدَّمْتُ . إِلَّا أَنَّهُ جَعَلَ الْعِتَابَ

بَدَلًا مِنْهُ وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ: الشِّعْرُ مَا اشْتَمَلَ عَلَى الْمَثَلِ
السَّائِرِ وَالْإِسْتِعَارَةِ الرَّائِعَةِ وَالنَّشِيبِ الْوَاقِعِ وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَإِنَّمَا
لِقَائِهِ فَضْلُ الْوَزْنِ

البحث العاشر

في صناعة المديح

(من الكتاب نفسه)

وَسَبِيلُ الشَّاعِرِ إِذَا مَدَحَ مَلِكًا أَنْ يَسْلُكَ طَرِيقَةَ الْإِفْصَاحِ
وَالْإِشَادَةِ بِذِكْرِ الْمَحْدُوحِ وَأَنْ يَجْعَلَ مَعَانِيَهُ جَزَلَةً وَالْفَاظَةَ نَقِيبَةً
غَيْرَ مُبْتَدَلَةٍ سَوْقِيَّةٍ وَيَحْتَنِبَ مَعَ ذَلِكَ التَّقْصِيرَ وَالتَّطْوِيلَ فَإِنَّ لِلْمَلِكِ
سَامَةً وَضَجْرًا وَرَبًّا عَابَ مِنْ أَجْلِهَا مَا لَا يُرِيدُ جَرَمَانَهُ وَقَدْ
رَأَيْتُ عَمَلَ النُّجْثَرِيِّ إِذَا مَدَحَ الْخَلِيفَةَ كَيْفَ يُقَالُ الْآيَاتِ وَيُزِيرُ
وَجُوهَ الْمَعَانِي فَإِذَا مَدَحَ الْكِتَابَ عَمَلَ طَائِفَةً وَبَلَغَ مُرَادَهُ. وَقَدْ
حُكِيَ عَنْ عَمَّارَةَ أَنَّ جَدَّهُ جَرِيرًا قَالَ: يَا بُنَيَّ إِذَا مَدَحْتُمْ فَلَا
تُطِيلُوا الْمَادَحَةَ وَإِذَا هَجَوْتُمْ فَخَالِفُوا. وَحَكَى آخَرُ قَالَ: دَخَلَ
الْفَرَزْدَقُ عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ أُمِّ الْحَكَمِ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ:
يَا أَبَا فِرَاسٍ دَعْنِي مِنْ شِعْرِكَ الَّذِي لَيْسَ يَأْتِي آخِرُهُ حَتَّى يُنْسَى
أَوَّلُهُ وَقُلْ فِيَّ بَيْتَيْنِ يَعْطَانِ بِالزَّوَايَةِ وَأَنَا أُعْطِيكَ عَطِيَّةً لَمْ
يُعْطِكُمَا أَحَدٌ قَبْلِي فَقَدَا عَلَيْهِ وَقَالَ:

وَأَنْتَ أَيْنُ بَطْحَاوَى قُرَيْشٍ وَإِنْ تَشَاءُ
تَكُنْ مِنْ ثَقِيفٍ سُبُلَ ذِي حَذَرٍ عُمَرُ
وَأَنْتَ أَيْنُ سَوَارِ الْيَدَيْنِ إِلَى الْعَلَا

تَلَقَّتْ بِكَ الشَّمْسُ الْمَضِيئَةُ لِلْبَدْرِ
فَقَالَ لَهُ: أَحْسَنْتَ وَأَمَرَ لَهُ بِعَشْرَةِ آلَافٍ. وَإِذَا كَانَ الْمَذْذُوحُ
مَلِكًا لَمْ يُبَالِ الشَّائِرُ مَا قَالَ فِيهِ وَلَا كَيْفَ أَطْبَعَ وَذَلِكَ بِمُحَمَّدٍ
وَسِوَاهُ الْمَذْمُومُ. فَإِنْ كَانَ سُوقَةً فَلِإِبَاهُ وَالْتَجَاوَزَ بِهِ خُطَّتُهُ فَإِنَّهُ مَتَى
تَجَاوَزَ بِهِ خُطَّتُهُ كَانَ كَمَنْ نَقَصَهُ مِنْهَا وَكَذَلِكَ لَا يَحِبُّ أَنْ يُقَصِّرَ
بِهِ عَمَّا يَسْتَحِقُّ وَلَا أَنْ يُعْطِيَهُ صِفَةً غَيْرَهُ فَيَصِفَ الْكَاتِبُ بِالشَّجَاعَةِ
وَالْقَاضِي بِالْحَيَّةِ وَالْمُهَابَةِ. وَكَثِيرًا مَا يَقَعُ هَذَا لِشُعْرَاءَ وَقَتِيًا وَهُوَ
خَطَأٌ إِلَّا أَنْ تَضَحَّيَ قَرِينَةً تَدُلُّ عَلَى صَوَابِ الرَّأْيِ فِيهِ وَكَذَلِكَ
لَا يَجُوزُ أَنْ يُمدَحَ الْمَلِكُ بِبَعْضِ مَا يَتَّخِذُهُ فِي غَيْرِهِ مِنَ الرُّؤْسَاءِ وَإِنْ كَانَ
فَضِيلَةً وَذَلِكَ مِثْلُ قَوْلِ الْبُخَّارِيِّ فِي مَدْحِ الْمَعْتَزِ :

لَا الْعَذْلُ يَرُدُّهُ وَلَا مِ التَّعْنِيفُ عَنْ كَرَمٍ يَصُدُّهُ
فَإِنَّهُ يَمَّا أَنْكَرَهُ عَلَيْهِ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ :
وَمَنْ ذَا يُعْزِفُ الْخَلِيفَةَ عَنِ الْكَرَمِ أَوْ يَصُدُّهُ هَذَا بِأَهْجَاءِ أَوَّلَى
مِنَهُ بِالْمَدْحِ. وَغَيْبٌ عَلَى الْأَخْطَلِ قَوْلُهُ فِي عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ
هَذَا الْبَيْتُ :

وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ الْخِلَافَةَ مِنْهُمْ
لَا يَبِضُّ لَا عَارِي الْخَوَانِ وَلَا جَذْبُ

وَقَالُوا: لَوْ مَدَحَ بِهَذَا حَرَسِيًّا لَعَبِدَ الْمَلِكِ لَسَكَانَ قَصْرٍ بِهِ.
وَأَجُودُ مِنْهُ فِي مَعْنَاهُ قَوْلُ حَسَّانَ فِي آلِ جَفَنَةَ:
يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ السَّبْرِيضَ عَلَيْهِمْ.

بَرْدَى يُصَفَّقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسِلِ
وَيُرَوَّى مِنْكَ. وَعَابُوا عَلَى الْأَخْوَصِ قَوْلَهُ الْمَلِكِ:
وَأَرَاكَ تَفْعَلُ مَا تَقُولُ وَبَعْضُهُمْ

مَذْقُ اللِّسَانِ يَقُولُ مَا لَا يَفْعَلُ
قَالُوا لِأَنَّ الْمُلُوكَ لَا تُمدَحُ بِمَا يَلْزَمُهَا فَعَلَهُ كَمَا تُمدَحُ بِهِ الْعَامَّةُ
وَأِنَّمَا تُمدَحُ بِالْإِغْرَاقِ وَالتَّفْضِيلِ لَا بِمَا يَتَّسِعُ غَيْرُهُمْ لِبَذَلِهِ. وَمِنْ هَذَا
النَّوعِ قَوْلُ كَثِيرٍ:

رَأَيْتُ ابْنَ لَيْلَى يَغْتَرِي طَلَبَ مَالِهِ

مَسَائِلُ شَيْءٍ مِنْ غَتِّي. وَمُضَرَّمُ
مَسَائِلُ إِنْ تُوجَدَ لَدَيْكَ تُجَدُّ بِهَا

يَدَاكَ وَإِنْ تُظْلَمَ بِهَا تَتَظَلَّمُ
لِأَنَّ هَذَا إِنَّمَا يُقَالُ لِمَنْ دُونَ الْخَلِيفَةِ وَالْمَلِكِ وَإِنَّمَا أَخَذَهُ
مِنْ قَوْلِ زُهَيْرٍ فِي هَرَمٍ. وَلَيْسَ بِمَلِكٍ فَلِذَلِكَ حَسَنَ قَوْلِهِ:

هُوَ الْجَوَادُ الَّذِي يُعْطِيكَ نَائِلَهُ عَفُوا وَيُظْلَمُ أَحْيَانًا فَيَظْلِمُ
يُرِيدُ أَنَّهُ يُسَالُ مَا لَيْسَ قَبْلَهُ فَيَتَحَمَّلُهُ. وَحُكِّيَ عَنِ الصَّوَلِيِّ أَنَّ
مَرْوَانَ بْنَ أَبِي حَفْصَةَ كَانَ يُقَدِّمُ كَثِيرًا فِي الْمَدْحِ عَلَى جَرِيرٍ
وَالْفَرَزْدَقِ. وَمِمَّا قُدِّمَ بِهِ زُهَيْرٌ قَوْلُهُ:

لَوْ كَانَ يَقْعُدُ فَوْقَ النُّجْمِ مِنْ كَرَمٍ.

قَوْمٌ بِأَوْلِهِمْ أَوْ تَجِدُهُمْ قَعْدُوا

وَقَدَّمَ قُدَّامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ الْكَاتِبُ فَقَالَ فِي كِتَابِهِ نَقْدُ الشُّعْرِ

لَوْ كَانَتْ قَضَائِلُ النَّاسِ مِنْ حَيْثُ هُمْ نَاسٌ لَا مِنْ طَرِيقٍ مَا هُمْ

مُشْتَرِكُونَ فِيهِ مَعَ سَائِرِ الْحَيَوَانِ عَلَى مَا عَلَيْهِ أَهْلُ الْأَلْبَابِ مِنْ

الِاتِّفَاقِ فِي ذَلِكَ إِنَّمَا هِيَ الْعَقْلُ وَالْعِفَّةُ وَالْعَدَاةُ وَالشَّجَاعَةُ كَانَ

الْقَاصِدُ لِلْمَدْحِ بِهَذِهِ الْأَرْبَعَةِ مُصِيبًا وَبِمَا سِوَاهَا مُخْطِئًا. وَقَدْ قَالَ زُهَيْرٌ:

أَخِي ثِقَّةٌ لَا يُتَلَفُ الْخَذَرُ مَالُهُ وَلَكِنَّهُ قَدْ يُتَلَفُ أَلْمَالُ تَائِلُهُ

لِأَنَّهُ قَدْ وَصَفَهُ بِالْعِفَّةِ لِقِيَّةِ إِمْعَانِهِ فِي اللَّذَاتِ وَأَنَّهُ لَا يَنْفَدُ

فِيهَا مَالُهُ بِالسَّخَاءِ لِأَهْلَاكِ مَالِهِ فِي الْمَوَالِ وَاتَّخِرَافِهِ فِي ذَلِكَ عَنْ

اللَّذَاتِ وَذَلِكَ هُوَ الْعَدْلُ (قَالَ) ثُمَّ قَالَ :

تَرَاهُ إِذَا مَا جَشَّهُ مُتَهَلِّلًا كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ

أَرَادَ أَنْ فَرَحَهُ بِمَا يُعْطِي أَكْثَرُ مِنْ فَرَحِهِ بِمَا يَأْخُذُ فَرَادَ فِي وَصْفِ

السَّخَاءِ مِنْهُ بِأَنَّهُ جَعَلَهُ يَبْسُ وَلَا يَلْحَقُهُ مَضَضٌ وَلَا تَكَرُّهُ لِنَفْسِهِ

ثُمَّ قَالَ :

وَمَنْ يَمِثُلُ حِضْنٍ فِي الْخُرُوبِ وَمِثْلُهُ

لِإِنْكَارِ ضَمِّهِ أَوْ لِأَمْرِ يُحَاوِلُهُ

وَيَرْوَى أَوْ لِحُضْمِ مُجَادِلِهِ. فَأَتَى فِي هَذَا الْبَيْتِ بِالْوَصْفِ مِنْ

جِهَةِ الشَّجَاعَةِ وَالْعَقْلِ فَاسْتَوَى فِي ضُرُوبِ الْمَدْحِ الْأَرْبَعَةِ الَّتِي هِيَ

قَضَائِلُ الْإِنْسَانِ عَلَى الْحَقِيقَةِ وَزَادَهَا بِهَذَا وَإِنْ كَانَ دَاخِلًا فِي

الآزبقة وكثير من الناس لا يعرف وجه دخوله فيها حيث قال :
 (أخي ثقة) فوصفه بالوفاء والوفاء داخل في هذه الفضائل
 التي قدمنا وقد نحدث هذا الشعراء فيعدون أنواع الفضائل الأربع
 وأقسامها وكل داخل في جملتها مثل أن تذكروا المعرفة والحياء
 والبيان والسياسة والصدق بالحجة والعلم والجلل وغير ذلك مما
 يجري هذا الجري . وهي من أقسام العقل . وكذا كرمهم القناعة وقوة
 الشرف وظهارة الأزار وغير ذلك وهي من أقسام العفة . وكذا كرمهم
 الحماية والأخذ بالثأر والدفاع عن الجار والسكاية في العدو وقتل
 الأقران والمهابة والسير في المهامه والإفطار الموحشة وما شاكل
 ذلك وهي من أقسام الشجاعة . وكذا كرمهم السماحة والتغابن والإتظام
 والتبرع بالنائل وإجابة السائل وقرى الأضياف وما جانس هذه
 الأشباه وهي من أقسام العدل

وأما تركيب بعضها مع بعض فنحدث ونهية أقسام : نحدث
 من تركيب العقل مع الشجاعة الصبر على الملمات ونوازل الخطوب .
 وعن تركيب العقل والشجاء البر وإيجاز الوعد وما أشبه ذلك . وعن
 تركيب العقل والعفة الشدة والرغبة عن المسئلة والإقتصار على
 أدنى معيشة وما أشبه ذلك . وعن تركيب الشجاعة مع الشجاء
 الإتلاف والإسراف وما جانس ذلك . وعن تركيب الشجاعة مع
 العفة إنكار الفواحش والغيرة على الحرم . وعن الشجاء مع العفة
 الإسعاف بالقوت والإيثار على النفس وما شاكل ذلك . قال وكل

وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْفَضَائِلِ الْأَرْبَعِ أَلْتَقَدَّمَ ذِكْرُهَا وَسَطٌ بَيْنَ طَرَفَيْنِ
مَذْمُومَيْنِ وَمِنْ الْمَدِيحِ الْمَنُصُوصِ عَلَيْهِ قَوْلُ زُهَيْرٍ :

وَفِيهِ مَقَامَاتٌ حَسَنٌ وَجُوهُهُمْ وَأَنْدَرِيَّةٌ يَنْتَابُهَا الْقَوْلُ وَالْفِعْلُ
وَأِنْ جِئْتَهُمْ أَلْقَيْتَ حَوْلَ بُيُوتِهِمْ مَجَاسٍ قَدْ يَشْفَى بِأَحْلَامِهَا الْأَهْلُ
عَلَى مُكْثَرِهِمْ رِزْقٌ مَنْ يَعْتَرِيهِمْ وَعِنْدَ الْمَلَقَيْنِ السَّمَاحَةُ وَالْبَذْلُ
سَعَى بَعْدَهُمْ قَوْمٌ يَكْبِي يُدْرِكُوهُمْ فَلَمْ يَفْعَلُوا وَلَمْ يُلِيمُوا وَلَمْ يَأْلُوا
وَلَمْ يَكْ مِنْ خَيْرِ أُنُوهُ وَإِنَّمَا تَوَارَثَهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ
وَهَلْ يُنَبِّتُ الْخَطِيئَةَ إِلَّا وَشَجْهَهُ وَتُغْرَسُ إِلَّا فِي مَنَابِتِهَا الْخُلُ
وَقَوْلُهُ :

مَنْ يَلْقَى يَوْمًا عَلَى عِلاَّتِهِ هَرَمًا يَلْقَى السَّمَاحَةَ مِنْهُ وَالَّذِي خُفَا
أَيُّهُ بَعَثَ يَصْطَادُ الرِّجَالَ إِذَا مَا كَذَّبَ اللَّيْثُ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقَا
يَطْعَنُهُمْ مَا أَرْتَمُوا حَتَّى إِذَا طَعَنُوا ضَارِبَ حَتَّى إِذَا مَا ضَارِبُوا أَعْتَقَا
لَوْ نَالَ حَيٌّ مِنَ الدُّنْيَا بِمَنْزِلَةِ أَفَقِ السَّمَاءِ لَمَاتَ كَفُّهُ الْأُفُقَا

وَيَذَمُّنِي أَنْ يَكُونَ أَصْدُ الشَّعْرِ فِي مَدْحِ الْوَزِيرِ وَالْكَاتِبِ
عَلَى مَا اخْتَارَهُ قُدَامَةُ وَغَيْرُهُ مَا نَاسَبَ حُسْنَ الرُّوْيَةِ وَسُرْعَةَ الْخَطِّ
بِالضُّوَابِ وَشِدَّةِ الْحَزْمِ وَقِلَّةِ الْغَفْلَةِ وَجُودَةِ النَّظَرِ لِلْخَائِفَةِ وَالنِّيَابَةِ عَنْهُ
فِي الْمُفَضِّلَاتِ بِالرَّأْيِ أَوْ بِالذَّاتِ كَمَا قَالَ أَبُو نُوَّاسٍ :

إِذَا نَابَهُ أَمْرٌ فَأَمَّا كَفَيْتُهُ وَإِمَّا عَلَيْهِ بِأَلْكَفِي تَشِيرُ
وَبِأَنَّهُ مَخْدُودُ السَّيْرِ حَسَنُ التَّيَاسَةِ لَطِيفٌ فَإِنْ أَضَافَ إِلَى
ذَلِكَ ذِكْرَ الْبَلَاغَةِ وَالْخَطِّ وَالتَّفَنُّنِ فِي الْعِلْمِ كَانَ غَايَةً وَأَفْضَلُ مَا

مُدِّحٌ بِهِ الْقَائِدُ الْجُودُ وَالشَّجَاعَةُ وَمَا تَفَرَّعَ مِنْهَا مِنَ الْإِفْرَاطِ فِي التَّجْدَةِ
وَسُرْعَةِ الْمَطَشِ وَمَا شَاكَلَ ذَلِكَ. وَيُدِّحُ الْقَاضِي بِمَا نَاسَبَ الْعَدْلَ
وَالْإِنصَافَ وَتَقْرِيبَ الْبَعِيدِ فِي الْحَقِّ وَتَبْعِيدَ الْقَرِيبِ فِي الْإِخْذِ
لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ وَالْمَسَاوَاةِ بَيْنَ الْفَقِيرِ وَالْغَنِيِّ بِبَسْطِ الْوَجْهِ
وَلِينِ الْجَانِبِ وَقِلَّةِ الْمَلَالَةِ فِي إِقَامَةِ الْخُدُودِ وَاسْتِخْرَاجِ الْحَقُوقِ
فَإِنْ زَادَ إِلَى ذَلِكَ وَذَكَرَ الْوَرَعَ وَالْتَّحَرُّجَ وَمَا شَاكَلَهُمَا فَقَدْ بَلَغَ
الْنِّهَايَةَ. وَصِفَاتُ الْقَاضِي كُنَّهَا لَانْتِثَةً بِعَاحِبِ الْمَظَالِمِ وَمَنْ كَانَ
دُونَ هَذِهِ الثَّلَاثِ الطَّبَقَاتِ سِوَى دَابِقَةٍ أَلَيْكَ فَلَا أَرَى لِمُدْحِهِ وَجْهًا
فَإِنْ دَعَتْ إِلَى ذَلِكَ ضَرُورَةٌ مُدِّحُ كُلِّ إِنْسَانٍ بِالْفَضْلِ فِي
صِنَاعَتِهِ وَالْمَعْرِفَةِ بِطَرِيقَتِهِ الَّتِي هُوَ فِيهَا. وَكَثُرَ مَا يُعَوَّلُ عَلَى
الْفَضَائِلِ النَّفْسَانِيَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا قُدَّامَةُ وَإِنْ أُضِيفَتْ إِلَيْهَا فَضَائِلُ
عَرَضِيَّةٌ أَوْ جِسْمِيَّةٌ كَالْجَمَالِ وَالْأَلَمَةِ وَنَسْطَةِ الْخُلُقِ وَسَعَةِ الدُّنْيَا
وَكثْرَةِ الْعَيْشِ كَانَ ذَلِكَ جَيِّدًا. إِلَّا أَنَّ قُدَّامَةَ قَدْ أَبَى مِنْهُ وَأَنْكَرَهُ
نُجْمَةً وَلَيْسَ ذَلِكَ صَوَابًا وَإِنَّمَا الْوَاجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَقُولَ: الْمُدْحُ
بِالْفَضَائِلِ النَّفْسَانِيَةِ أَشْرَفُ وَأَصَحُّ قَامًا إِنْكَارُ مَا سِوَاهَا نُجْمَةً
وَاحِدَةً قَدْ أَظُنُّ أَحَدًا يُسَاعِدُهُ فِيهِ وَلَا يُوَافِقُهُ عَلَيْهِ وَقَدْ صُكِّرَهُ
الْخُذَاقُ أَنْ يُدِّحَ أَمْوَالُكَ بِمَا نَاسَبَ قَوْلَ مُوسَى شَهَوَاتٍ وَيُرْوَى
لِغَيْرِهِ:

أَنْتَ نِعَمَ الْمَتَاعِ لَوْ كُنْتَ تَبْقَى غَيْرَ أَنْ لَا بَقَاءَ لِلْإِنْسَانِ
لَيْسَ فِيمَا بَدَأَ لَنَا مِنْكَ عَيْبٌ عَابَهُ النَّاسُ غَيْرُ أَنَّكَ فَانِي

وَحُكِّيَ عَنْ بَعْضِ الْمُلُوكِ أَنَّهُ قَالَ مَا لِهَؤُلَاءِ الشُّعْرَاءِ قَاتَلَهُمُ
 اللَّهُ رَبًّا ذَكَّرُونَا شَيْئًا نَحْنُ أَكْثَرُ لَهُ ذِكْرًا مِنْهُمْ فَيَنْقُصُونَ بِهِ عَلَيْنَا
 أَوْقَاتَ لَذَائِنَا يَعْنِي بِذَلِكَ الْمَوْتَ. وَمِنْ أَبْشَعِ مَا فِي ذَلِكَ قَوْلُ
 أَبِي تَمَامٍ :

فَلْيَطْلُ عَمْرُهُ فَلَوْ مَاتَ فِي طَوْسٍ مُقِيمًا لَمَاتَ فِيهَا غَرِيبًا
 مَا الَّذِي دَعَاهُ إِلَى ذِكْرِ الْمَوْتِ هَهُنَا إِلَّا النُّكَدُ وَالْبَغَاضَةُ
 وَاجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى تَقْدِيرِ قَوْلِ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ بِمَدْحِ الرَّسُولِ :
 تَحْمِلُهُ النَّاقَةُ الْأَدَمَاءُ مُعْتَجِرًا بِأَبْرِدِ كَالْبَدْرِ جَلَى لَيْلَةِ الظُّلَمِ
 وَفِي عِطَافِهِ أَوْ أَثْنَاءَ رَيْطِهِ مَا يَعْلَمُ اللَّهُ مِنْ دِينٍ وَوَنٍ كَرَمِ
 وَالْجُهَّالُ يَرَوْنَ أَلَيْتَ لِأَبِي دُعَيْلٍ الْجَحْمِيِّ وَيُسَابِبُهُ قَوْلُ
 الْحَجَّاجِ :

يَحْمِلْنَ كُلُّ سُودْدٍ وَفَحْرٍ يَحْمِلْنَ مَا تَذَرِي وَمَا لَا تَذَرِي
 قَالَ الْأَضْمَعِيُّ أَضْلُهُ مِنْ قَوْلِ الْحَارِثِ بْنِ حِلْزَةَ :
 وَفَعَّلْنَا بِهِمْ كَمَا عَلِمَ اللَّهُ م وَتَارَانِ لِلْحَارِثِيِّنَ دَمَاءُ
 قَالَ وَلَمْ يُقَلْ شَعْرٌ قَطُّ أَحْسَنُ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ الْعَرَانِي. قَالَ
 أَبُو الْعَبَّاسِ الْمُبَرِّدُ: مِنَ الشُّعْرَاءِ مَنْ يَحْمِلُ الْمَدْحَ فَيَكُونُ ذَلِكَ وَجْهًا
 حَسَنًا لِبُلُوغِهِ الْإِرَادَةَ مَعَ خُلُوعِهِ مِنَ الْإِطَاعَةِ وَتَعْدِيهِ عَنِ الْأَسْوَاقِ
 وَدُخُولِهِ فِي الْإِخْتِصَارِ وَذَلِكَ نَحْوُ قَوْلِ الْخَطِيبَةِ :

تُرْوَدُ فَتَى يُعْطَى عَلَى الْحَمْدِ مَالُهُ وَيَعْلَمُ أَنَّ الْمَرْءَ غَيْرُ مُحْمَدٍ
 كَسُوبٌ وَبِثْلَافٍ إِذَا مَا سَأَلْتَهُ تَهْلَلُ وَاهْتَرَّ أَهْتَرَّازَ الْمُهْتَدِ

مَتَى تَأْتِيهِ تَغْشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ تَجِدُ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مَوْقِدٍ
تَصَرَّفَ فِي آيَاتِهِ هَذِهِ فِي أَصَافِ الْمَدِيحِ وَأَتَى بِجَمَاعِ
الْوَصْفِ وَجُمْلَةِ الْمَدْحِ عَلَى سَبِيلِ الْإِقْتِصَادِ فِي الْبَيْتِ الْآخِرِ. وَمِثْلُهُ
قَوْلُ الشَّامِخِ :

رَأَيْتُ عُرَابَةَ الْأَوْسِيِّ يَسُوءُ إِلَى الْخَيْرَاتِ مُنْقَطِعَ الْقَرِينِ
إِذَا مَا رَأَيْتُ رُفَعْتَ لِحْجِي تَلَقَّاهَا عُرَابَةُ الْيَمِينِ
وَأَفْضَلُ مَدْحٍ مُدِيحٍ بِهِ الْمُلُوكُ وَكَثْرُهُ إَصَابَةٌ لِلْعَرَضِ مَا
يُنَاسِبُ قَوْلَ ابْنِ هَرَمَةَ فِي الْمَنْصُورِ :

لَهُ لِحْظَاتٌ عَنْ جِفَافِ سَرِيرِهِ إِذَا كَرَّهَا فِيهَا عِقَابٌ وَنَائِلُ
فَأَمَّا الَّذِي آمَنْتَ آمَنَهُ الرُّدَى وَأَمَّا الَّذِي أَوْعَدْتَ بِالشَّكْلِ تَاكِلُ
وَقَوْلَ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ يَمْدَحُ أَهَادِي :

يَضْطَرِبُ الْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ إِذَا حَرَّكَ دُوسَى الْقَضِيبَ أَوْ فَكَّرُ
وَكَذَلِكَ قَوْلُ الْحَزِينِ الْكِتَابِيِّ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ
ابْنِ مَرْوَانَ وَتُرْوَى لِلْفَرَزْدَقِ فِي عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ وَقِيلَ بَلْ قَالَهَا
فِي اللَّعِينِ الْإِنْقَرِيَّ وَقِيلَ هِيَ لِدَاوُدَ بْنِ مُسْلِمٍ فِي قُتَمِ بْنِ الْعَبَّاسِ
ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ :

فِي كَفِّهِ خِزْرَانٌ رِيحُهُ عَبْقٌ مِنْ كَفِّ أَرْوَغٍ فِي عَرْنِيهِ شَمَمٌ
يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضِي مِنْ مَهَابَتِهِ فَمَا يُكَاثِمُ إِلَّا حِينَ يَبْتَسِمُ
وَأَجْتَمَعَ الشُّعْرَاءُ بِبَابِ الْمُغْتَصِمِ فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ
يُحْسِنُ أَنْ يَقُولَ مِثْلَ قَوْلِ مَنْصُورِ النَّسْرِيِّ فِي الرَّشِيدِ :

إِنَّ الْمَكَارِمَ وَالْمَعْرُوفَ أَوْدِيَةٌ أَحَلَّكَ اللَّهُ مِنْهَا حَيْثُ تَجْتَمِعُ
 إِذَا رَفَعْتَ أَمْرًا قَالَهُ رَافِعُهُ وَمَنْ وَضَعَتْ مِنْ الْأَقْوَامِ مُتَضَعُ
 مَنْ لَمْ يَكُنْ بِأَمِينٍ اللَّهُ مُعْتَصِمًا فَلَيْسَ بِالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَنْتَفِعُ
 إِنْ أَخْلَفَ الْغَيْثُ لَمْ تَخْلِفْ آثَامُهُ أَوْ ضَاقَ أَمْرٌ ذَكَرْنَاهُ فَيَتَسَمِعُ
 فَلْيَدْخُلْ : فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ وَهَبٍ : فِينَا مَنْ يَقُولُ خَيْرًا مِنْهُ
 وَأَنْشُدَ :

ثَلَاثَةٌ تُشْرِقُ الدُّنْيَا بِبَهْجَتِهِمْ شَمْسُ الصُّحَى وَأَوَّاسُ الْحَقِّ وَالْقَمَرُ
 تُحْكِي أَفَاعِيلُهُ فِي كُلِّ نَائِبَةٍ الْغَيْثُ وَاللَّيْثُ وَالصَّصَامَةُ الذَّكْرُ
 فَأَمَرَ بِإِذْخَالِهِ وَأَحْسَنَ صِلَتَهُ
 وَقَالُوا لَمَّا حَضَرَتِ الْخُطْبَةُ الْوَفَاةُ قَالَ : بَلِّغُوا الْأَنْصَارَ أَنَّ
 أَخَاهُمْ أَمَدَحُ النَّاسِ حَيْثُ يَقُولُ :
 يُفْشُونَ حَتَّى مَا تَهْرُ كِلَابُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ
 قَالَ ثَعْلَبٌ بَلْ قَوْلُ الْأَعَشَى :
 فَتَى لَوْ يُبَادِي الشَّمْسَ أَلْقَتْ قِبَاعَهَا

أَوْ الْقَمَرُ الشَّارِي لَأَلْقَى الْقَالِدَا
 أَمَدَحُ مِنْهُ . وَقَالَ أَبُو عَمْرِو بْنُ الْعَلَاءِ : بَيْتُ جَرِيرٍ
 أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونَ رَاحِ
 أَسِيرُ مَا قِيلَ فِي الْمَدَحِ وَأَسْهَلُهُ . وَقَالَ غَيْرُهُ : بَلْ قَوْلُ
 الْأَخْطَلِ :

شَمْسُ الْعَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ وَأَعْظَمُ النَّاسِ أَخْلَامًا إِذَا قَدَرُوا

وَقَالَ دُعِيلُ بْنُ قَوْلٍ أَبِي الطَّحَّانِ أَتَقْنِي

أَصْنَاءَهُمْ أَحْسَابُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ

دُجِيَ اللَّيْلُ حَتَّى نَظَّمَ الْجُرُجَ صَاحِبُهُ

قَالَ : وَقَدْ تَنَازَعَ فِي هَذَا الْبَيْتِ يَعْنِي بَيْتَ أَبِي الطَّحَّانِ قَوْمٌ

وَفِي بَيْتِ حَسَّانَ فِي آلِ جَفَّةَ وَبَيْتِ النَّابِغَةِ :

يَا نَكَّ شَسَّ وَأَمْلُوكَ كَوَايِبُ إِذَا طَلَعْتَ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوَايِبُ

وَبَيْتُ أَبِي الطَّحَّانِ أَشْعَرُهَا. قَالَ الْحَارِثِيُّ : بَلْ بَيْتُ زُهَيْرٍ :

تَرَاهُ إِذَا مَا جَشَّهُ مَهْلًا سَكَتَكَ تَغْطِيهِ الْأَذْيُ أَنْتَ سَائِلُهُ

وَحُكِيَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ هَارُونَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ قَالَ : أَجْمَعَ أَهْلُ

الْعِلْمِ أَنَّ بَيْتِي أَبِي نُوَّاسٍ أَجْوَدُ بَيْتَيْنِ فِي الْمَدِيحِ لِلْمَوْلَدَيْنِ وَهُمَا :

أَنْتَ الْأَذْيُ تَأْخُذُ الْأَيْدِي بِخُجْزَتِهِ

إِذَا الزَّمَانُ عَلَى أَنْيَابِهِ كَلِمًا

وَكَلَّتْ بِالذَّهْرِ عَيْنًا غَيْرَ غَافِلَةٍ

مِنْ جُودِ كِفِّكَ تَأْمُرُ كُلَّمَا جَرَحَا

وَحَكَى الْحَارِثِيُّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَاحِدِ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ يَحْيَى

قَالَ : سَمِعْتُ ابْنَ الْأَعْرَابِيِّ يَقُولُ : أَمْدَحُ بَيْتَ قَالَهُ مُوَلَّدُ قَوْلِ

أَبِي نُوَّاسٍ :

تَغَطَّيْتُ مِنْ ذَهْرِي بِظِلِّ جَنَاحِهِ فَعَيْنِي تَرَى ذَهْرِي وَلَيْسَ يَرَانِي

فَلَوْ تَسَالُ الْأَجْدَاثُ مَا أَسْبَى مَا دَرَّتْ

وَأَيْنَ مَكَانِي مَا عَرَفَنَ مَكَانِي

قَالَ صَاحِبُ الْكِتَابِ: نَحْنُ إِلَى الْإِنْصَافِ أَخَوَجُ مِنْهَا إِلَى
الْمُكَابَرَةِ وَالْخِلَافِ وَأَبُو نُوَّاسٍ ذَهَبَ مَذْهَبًا طَيفًا يَخْرُجُ لَهُ فِيهِ الْعُذْرُ
وَالْتَأْوِيلُ وَالْأَقْمَا فِي صِفَةِ الْخُمُولِ أَشَدُّ مِمَّا ذَكَرَ لَا سِيَّمَا عَلَى
رِوَايَةِ مَنْ رَوَى (فَلَوْ تَسَالُ الْأَيَّامُ) . وَمِنْ جَيْدٍ مَا سِيفَتُ لِيُحَدِّثَ
وَأُظَنُّهُ لِأَبْنِ الرُّومِيِّ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ وَهْبٍ وَرَأَيْتُ
مَنْ بَرَّوِيهِ لِأَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْكَاتِبِ أَبِي الْحَسَنِ :

إِذَا أَبُو قَائِمٍ جَادَتْ يَدَاهُ لَنَا

لَمْ يُحْمَدِ الْأَجُودَانِ النَّجْرُ وَالْمَطَرُ

وَأِنْ أَضَاءَتْ لَمَّا أَنْوَارُ غُرَّتِهِ

تَضَاءَلَ النَّيِّرَانِ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ

وَأِنْ مَضَى رَأْيُهُ أَوْ جَدَّ عَزَمَتُهُ

تَأَخَّرَ الْمَاضِيَانِ السَّيْفُ وَالْقَدَرُ

مَنْ لَمْ يَبْتَ حَذَرًا مِنْ سَطْوِ صَوْلَتِهِ

لَمْ يَذِرْ مَا الْمُرْجِيحَانِ السَّيْفُ وَالْحَذَرُ

يَبَالُ بِالظَّنِّ مَا يَغِيَا الْعَيَانُ بِهِ

وَالشَّاهِدَانِ عَلَيْهِ الْعَيْنُ وَالْآثَرُ

كَأَنَّهُ وَزِمَامُ الدُّهْرِ فِي يَدِهِ

يَرَى عَوَاقِبَ مَا يَأْتِي وَمَا يَذَرُ

قَالَ خَلْفُ الْأَحْمَرِ: أَخْلَبُ الْمَذْحِ وَأَكْثَرُهُ مَلَقًا قَوْلُ زُهَيْرِ بْنِ

أَبِي سَلَمَةَ :

تَرَاهُ إِذَا مَا جَشَّهَ مُتَهَلِّلًا كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ
أَخُو ثِقَةٍ لَا تُتَلَفُ الْخَمْرُ مَا لَهُ وَلَكِنَّهُ قَدْ يُتَلَفُ الْمَالُ نَائِلُهُ
غَدَوْتُ عَلَيْهِ غُدْوَةً فَرَأَيْتُهُ قُعُودًا لَدَيْهِ بِالصَّرِيمِ عَوَازِلُهُ
يُغْدِيَنِيهِ طَوْرًا وَطَوْرًا يَلْمُهُ وَأَعْيَا فَمَا يَذْرِيْنَ أَيْنَ مَخَاتِلُهُ
فَأَعْرَضَنَ عَنْهُ عَنْ كَرِيمٍ مُرَزَّإٍ جُمُوعٍ عَلَى الْأَمْرِ الَّذِي هُوَ قَاعِلُهُ
وَقَوْلٍ طَفِيلٍ :

جَزَى اللَّهُ عَنَّا جَعْفَرًا حِينَ أَرْلَقْتَ بِنَا نَعْلَنَا فِي الْوَاطِنِ وَرَأَتْ (١)
أَنُوا أَنْ يَمْلُونَا وَلَوْ أَنَّ أُمْنَا تَلَارِقِي الَّذِي لَأَقْرَهُ مِمَّا مَلَّتِ
وَسَالَ الرَّشِيدُ الْمَفْضَلُ الصَّبِيَّ : أَيُّ بَيْتٍ قَالَتْ الْعَرَبُ أَمْدَحُ
فَقَالَ :

أَغْرُ الْبَلَجُ تَأْتَمُّ الْهَدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَامٌ فِي رَأْيِهِ نَارُ
قَالَ شَرَّاحِيلُ بْنُ مَعْنٍ بْنِ رَائِدَةَ : كُنْتُ أَسِيرُ تَحْتَ قُبَّةٍ يَحْيَى
أَبْنِ خَالِدٍ وَقَدْ حَجَّ مَعَ الرَّشِيدِ وَعَدِيْلُهُ أَبُو يُوسُفَ الْقَاضِي إِذَا
أَعْرَابِيٌّ مِنْ بَنِي أَمْدٍ كَانَ يَلْقَاهُ إِذَا حَجَّ فَيَمْدَحُهُ فَأَنْشَدَهُ شِعْرًا
أَنْكَرَ يَحْيَى مِنْهُ بَيِّنًا فَقَالَ : يَا أَخَا بَنِي أَسَدٍ أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ مِثْلِ
هَذَا الشِّعْرِ أَلَا قُلْتَ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

بَنُو مَطَرٍ يَوْمَ الْإِلْقَاءِ كَأَنَّهُمْ لِحَارِهِمْ بَيْنَ التِّمَّاكِينِ مَثَلُ
بِهَائِلٍ فِي الْإِسْلَامِ سَادُوا وَلَمْ يَكُنْ كَأَوَّلِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَوَّلُ
هُمْ الْقَوْمُ إِنْ قَالُوا أَصَابُوا وَإِنْ دُعُوا أَجَابُوا وَإِنْ أَعْطُوا أَطَابُوا وَأَجَزَلُوا

وَلَا يَسْتَطِيعُ الْفَاعِلُونَ فِعَالَهُمْ وَإِنْ أَحْسَنُوا فِي الدَّائِمَاتِ وَاجْتَمَعُوا
فَقَالَ أَبُو يُوسُفَ لِمَنْ هَذَا الشَّعْرُ أَصْلَحَكَ اللَّهُ قَمَا سَمِعْتُ أَحْسَنَ
مِنْهُ فَقَالَ يُحْيَى يَقُولُهُ ابْنُ أَبِي حَفْصَةَ فِي أَبِي هَذَا الْفَتَى وَأَوْمَأَ إِلَيَّ
فَكَانَ قَوْلُهُ أَسْرَ إِلَيَّ مِنْ جَلِيلِ الْفَوَائِدِ ثُمَّ أَلْتَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ
يَا شَرَّاجِيلُ أَنْشِدْنِي أَحْجُودَ مَا قَالَهُ ابْنُ أَبِي حَفْصَةَ فِي أَبِيكَ
فَأَنْشَدْتُهُ :

نِعْمَ الْمَسَاخُ لِوَاهِبٍ وَلِرَاغِبٍ يَمُنُّ تُصِيبُ حَوَائِجُ الْأَزْمَانِ
مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ الَّذِي زِيدَتْ بِهِ شَهَقًا إِلَى شَرْفِ نُوْ شَيْبَانَ
إِنْ عُدَّ أَيَّامُ الْإِقْدَاءِ فَلَانَمَا يَوْمَاهُ يَوْمُ نَدَى وَيَوْمُ طَانِ
يَكْشُرُ الْأَسِرَةَ وَالْمَنَابِرَ بِهَجَّةٍ وَيَزِينُهَا بِجَهَارَةٍ وَبَيَانِ
تَمْضِي أَسِنَّتُهُ وَيُسْفِرُ وَجْهَهُ فِي الْحَرْبِ عِنْدَ تَغْيِيرِ الْأَلْوَانِ
نَفْسِي فِدَاكَ أَبَا الْوَلِيدِ إِذَا بَدَأَ رَهْجُ السَّنَابِكِ وَالرِّمَاحِ دَوَانِ
فَقَالَ يُحْيَى أَنْتَ لَا تَذَرِي جَيْدَ مَا مُدِخٍ بِهِ أَبُوكَ وَأَخُودَ مِنْ
هَذَا قَوْلُهُ :

تَشَابَهَ يَوْمَاهُ عَلَيْنَا فَاشْكَا فَلَا تَحْنُ تَذَرِي أَيَّ يَوْمِيهِ أَفْضَلُ
أَيُّومُ نَدَاهُ الْعُمُرُ أَمْ يَوْمُ بَاسِهِ وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا أَنْفُ مُعْجَلُ
وَمِنْ الشُّعْرَاءِ مَنْ يَنْقُلُ الْمَدِيجَ عَنْ رَجُلٍ إِلَى رَجُلٍ وَكَانَ
ذَلِكَ دَابَّ الْبُخْتَرِيِّ وَفَعَلَهُ أَبُو ثَمَامٍ فِي قَصَائِدِ مِنْهَا :

قَدْ كَ أَتَيْتُ أَرْبَابَ فِي الْعُلُوءِ

نَقَلَهَا عَنْ يُحْيَى بْنِ ثَابِتٍ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ حَسَّانِ الضُّبِّيِّ

المبحث الرابع

في الافتخار

(من الكتاب نفسه)

الِافْتِخَارُ هُوَ الْمَدْحُ بِعَيْنِهِ إِلَّا أَنَّ الشَّاعِرَ يُخَصُّ بِهِ نَفْسَهُ وَقَوْمَهُ
فَكُلَّمَا حَسُنَ فِي الْمَدْحِ حَسُنَ فِي الْإِفْتِخَارِ وَكُلَّمَا قُبِحَ فِيهِ قُبِحَ
فِي الْإِفْتِخَارِ فَمِنْ آيَاتِ الْإِفْتِخَارِ قَوْلُ الْفَرَزْدَقِ :

إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى أَمَّا بَيْتَا دَعَائِمِهِ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ
قَالَ أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ نَعْلَبٍ : أَفْخَرُ بَيْتٍ قَالَتْهُ الْعَرَبُ قَوْلُ
أَمْرِئِ الْقَيْسِ :

مَا يُنْكِرُ النَّاسُ إِذَا حِينَ تَمْلِكُهُمْ كَانُوا عَبِيدًا وَكُنَّا نَحْنُ أَرْبَابَا
وَقَالَ دِعْبِلُ أَفْخَرُ الشِّعْرِ قَوْلُ كَعْبٍ :

وَيَبْشُرُ بَدْرٌ إِذَا يَرُدُّ وَجُوهَهُمْ جَبْرِيلُ تَحْتَ لَوَائِنَا وَمُحَمَّدُ
وَقَالَ الْحَارِثِيُّ : قَوْلُ الْفَرَزْدَقِ :

تَرَى النَّاسَ مَا يَسْرُنَا يَسِيرُونَ خَلْفَنَا وَإِنْ نَحْنُ أَوْمَةٌ تَأْتِي النَّاسَ وَقَفُّوا
قَالَ وَيَتْلُوهُ قَوْلُ جَرِيرٍ :

إِذَا غَضِبْتَ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ وَجَدْتَ النَّاسَ كُلَّهُمْ غَضَابَا
وَقَالَ آخَرُ : بَلْ قَوْلُ الْفَرَزْدَقِ :

وَنَحْنُ إِذَا عَدَّتْ مَعَدُّ قَدِيمِهَا مَكَانَ الدَّوَاحِي مِنْ وَجْهِ السَّوَابِقِ
وَقَالَ غَزَّو : بَلْ قَوْلُ الْفَرَزْدَقِ لَجَرِيرٍ :

فَإِذَا نَظَرْتَ رَأَيْتَ فَوْقَكَ دَارِمًا
وَقِيلَ بَلْ قَوْلُ ابْنِ مِيَادَةَ :

وَلَوْ أَنَّ قَيْسًا قَيْسَ غِيلَانَ أَقْسَمَتْ

عَلَى الشَّمْسِ لَمْ يَطْلُعْ عَلَيْكَ حِجَابُهَا

وَأَفْخَرُ بَيْتٍ صَنَعَهُ مُحَدِّثٌ عِنْدَهُمْ قَوْلُ بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ :

إِذَا مَا غَضِبْنَا غَضَبَةً مُضَرِّيَةً

هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ قَطَرَتْ دَمًا (١)

إِذَا مَا أَعْرَثَا سَيِّدًا مِنْ قَبِيلَةٍ ذُرَى مِنْبَرٍ صَلَّى عَلَيْنَا وَسَلَّمًا

وَمِنْ جَيْدِ الْإِفْتِحَارِ قَوْلُ بَكْرِ بْنِ الْأَطَّاحِ :

وَمَنْ يَفْتَقِرُ مِمَّا يَعِشُ بِجُسَامِهِ وَمَنْ يَفْتَقِرُ مَنْ سَاوَرَ النَّاسَ يَسْأَلُ

وَيَحْنُ وَصِفًا دُونَ كُلِّ قَبِيلَةٍ بِبَأْسٍ شَدِيدٍ فِي الْكِتَابِ الْمُنَزَّلِ

وَأَنَا لَلنُّوْ فِي الْحُرُوبِ كَمَا هَلَّتْ فَتَاةٌ بِعَقْدٍ أَوْ سِحَابٍ قَرْنُفُلِ

يَعْنِي قَوْلَ الْقُرْآنِ : سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ . وَبِسَبَبِ

هَذَا الشِّعْرِ وَأَشْبَاهِهِ طَلَبَهُ الرَّشِيدُ أَشَدَّ طَلَبٍ فَقَالَ : كَيْفَ تَفْتَخِرُ عَلَى

مُضَرٍّ وَمِنْهُمْ النَّبِيُّ . فَهَذَا الْإِفْتِحَارُ بِالشَّجَاعَةِ خَاصَّةً . وَمِنْ أَفْخَرِ

بِالْكَثَرَةِ أَوْسُ بْنُ مَفْرَاءٍ فَقَالَ :

مَا تَطْلُعُ الشَّمْسُ إِلَّا عِنْدَ أَوَّلِنَا وَلَا تَغِيْبُ إِلَّا عِنْدَ آخِرِنَا

وَقَدْ أَنْكَرَ قُدَامَةُ أَنْ يَمْدَحَ الْإِنْسَانُ بِآبَائِهِ دُونَ أَنْ يَكُونَ

تَمْدُوحًا بِنَفْسِهِ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَا يَكُونُونَ كَأَبَائِهِمْ . وَالَّذِي

ذَهَبَ إِلَيْهِ حَسَنٌ. وَأَنْكَرَ الْجُرْجَانِيُّ عَلَى أَبِي الطَّيِّبِ قَوْلَهُ :
 مَا بِقَوْمِي شَرُفْتُ بَلْ شَرُفُوا بِي بَلْ بِنَفْسِي فَخَرْتُ لَا بِجُدُودِي
 وَقَالَ إِنَّمَا أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ عَلِيِّ بْنِ جَبَلَةَ حَيْثُ يَقُولُ :
 وَمَا سَوَّدَتْ عَجَلًا مَآثِرَ عِنْدَهُمْ وَأَسْكَنَ بِهِمْ سَادَتُ عَلَى غَيْرِهَا عَجَلُ
 قَالَ وَهَذَا مَعْنَى سُوءِ يَفْضُ مِنْ حَسَبِ الْمَذُوحِ وَيُحَقِّقُ مِنْ شَأْنِ
 سَلَفِهِ وَإِنَّمَا طَرِيقَةُ الْمَذْحِ أَنْ يَجْعَلَ الْمَذُوحَ لِشَرَفِ آبَائِهِ وَالْآبَاءَ
 تَرْدَادُ شَرَفًا بِهِ فَيَجْعَلَ لِكُلِّ مِنْهُمْ فِي الْفَخْرِ حَظًّا وَفِي الْمَذْحِ
 نَصِيبًا. وَإِذَا حُصِلَتِ الْحَقَائِقُ كَانَ التَّصِيدَانِ مَقْسُومَيْنِ بَلْ كَانَ
 الْكُلُّ خَالصًا لِكُلِّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ لِأَنَّ شَرَفَ الْوَالِدِ جُزْءٌ مِنْ
 مِيرَاثِهِ وَمُنْتَقِلٌ إِلَى وَلَدِهِ كَمَا نَتَقَالُ إِلَيْهِ فَإِذَا رُغِيَ وَحُرِثَ ثَبَتَ
 وَازْدَادَ وَإِنْ أَهْمِلَ وَضِعَ هَلَكَ وَكَذَلِكَ شَرَفُ الْوَالِدِ يَكُونُ الْقِيَّةَ
 وَلِلْوَلَدِ مِنْهُ الْقِسْمُ الْأَوْفَرُ وَالْحَظُّ الْأَكْبَرُ

قَالَ صَاحِبُ الْكِتَابِ : وَالَّذِي يَقَعُ عَلَيْهِ الْإِخْتِيَارُ عِنْدَهُمْ مَا
 نَأْسَبُ قَوْلَ الْمُتَوَكِّلِ اللَّيْثِيِّ :

لَسْنَا وَإِنْ أَحْسَابُنَا كَرُمَتْ يَوْمًا عَلَى الْأَحْسَابِ تَشَكَّلُ
 نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا تَبْنِي وَنَفْعُلُ وَمِثْلًا فَعَلُوا
 وَقَوْلَ عَامِرِ بْنِ الطُّفَيْلِ :

وَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ ابْنُ سَيِّدِ عَامِرٍ وَفِي السِّرِّ مِنْهَا وَالصَّرِيحُ الْمَهْدَبُ
 قَمَا سَوَّدَتْنِي عَامِرٌ عَنْ وِرَاثَةٍ أَبِي اللَّهِ أَنْ أَسْمُو بِأَمٍّ وَلَا أَبِ
 وَمِنْ الْفَخْرِ مَا قَالَ الْمُؤَادُونَ قَوْلُ اسْتَحَقَّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْمُوصِلِيِّ :

يَفْخَرُ بِوَلَايَةِ مَنْ خَزِيمَةُ بْنُ خَازِمٍ النَّهْشَلِيَّ :
 إِذَا مُضِرُّ الْحِمَرِ كَانَتْ أَرُومَتِي وَقَامَ بِبُضْرِي خَازِمٌ وَأَبْنُ خَازِمٍ
 عَطَسْتُ بِأَنْفِي شَايِخٍ وَتَنَاوَلْتُ يَدَايَ الثُّرَيَّا قَاعِدًا غَيْرَ قَائِمٍ
 وَمِنْ قَوْلِ السَّيِّدِ أَبِي الْحَسَنِ يَفْخَرُ بِقَوْمِهِ بَنِي شَيْبَانَ .
 يَا آلَ شَيْبَانَ لَا غَارَتْ نُجُومُكُمْ وَلَا خَبَتْ نَارُكُمْ مِنْ بَعْدِ تَوْقِيدِ
 أَنْتُمْ دَعَائِمُ هَذَا الْمَلِكِ مُذْ رَكَضَتْ قَبْلُ الْخَيُْولُ لِإِبْرَامَ وَتَوَكَّيْدِ
 الْمُنْعِمُونَ إِذَا مَا أَرَمَتْ أَرَمَتْ وَالْوَاهِبُونَ عَتِيقَاتِ الْمَرَاوِدِ
 سُيُوفُكُمْ أَفْقَدَتْ كِسْرَى مَرَايِبَهُ فِي يَوْمِ ذِي قَارٍ إِذْ حَاوُوا لِمَوْعُودِ
 فَهَذَا هُوَ الْفَخْرُ الْحَالَالُ غَيْرُ الْمَدْعَى فِيهِ وَلَا الْمُتَحَلِّ .
 وَعَابَ الْأَضْمَعِيَّ وَغَيْرُهُ قَوْلَ عَامِرِ بْنِ مُعِيرٍ ابْنِ أَسْحَمَ يَصِفُ
 أَسِيرًا :

فَظَلَ يُخَالِسُ الْمَذَقَاتِ فِينَا يُقَادُ كَأَنَّهُ جَمَلٌ رَبِيقُ
 وَذَلِكَ لِأَنَّهُ وَصَفَ أَسِيرَهُمْ بِأَنَّهُ جَائِعٌ يُخَالِسُ الْقَلِيلَ الْمَذُوقَ
 مِنَ اللَّبَنِ إِنَّمَا ذَلِكَ مِنَ الْجَهْلِ . وَمِنْ أَجْوَدِ قَصِيدَةِ الْفَخْرِ فِيهَا شَاعِرُ
 قَصِيدَةِ السَّمَوَالِ بْنِ عَادِيَاءَ فَإِنَّهُ مَذَّجَمٌ فِيهَا ضُرُوبُ الْمَادِحِ
 وَأَنْوَاعُ الْمَفَاخِرِ وَهِيَ مَشْهُورَةٌ



البحث الخامس

في الرثاء

(من الكتاب نفسه)

وَلَيْسَ بَيْنَ الرِّثَاءِ وَالْمَسْحِ فَرْقٌ إِلَّا أَنْ يُخْلَطَ بِالرِّثَاءِ شَيْءٌ
يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَقْصُودَ بِهِ مَيِّتٌ مِثْلَ كَانَ أَوْ عَدِمْنَا كَيْتَ وَكَيْتَ
أَوْ مَا شَاكَلَ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنَّهُ مَيِّتٌ. وَسَبِيلُ الرِّثَاءِ أَنْ يَكُونَ ظَاهِرَ
الْتَفُّعِ بَيْنَ الْحَسْرَةِ مَخْلُوطًا بِالتَّهْفِ وَالْأَسَفِ وَالْإِسْتِعْظَامِ. إِنْ
كَانَ أَلَمْتَ مَلَكًا أَوْ رَئِيسًا كَبِيرًا كَمَا قَالَ النَّابِغَةُ فِي حِضْنِ بْنِ
حَذِيفَةَ :

يَقُولُونَ حِضْنٌ ثُمَّ تَأْتِي نَفْسُهُمْ وَكَيْفَ بِحِضْنٍ وَالْجِبَالُ جُجُوحُ
وَلَمْ تَلْفُظِ الْمَوْتَ الْقُبُورُ وَلَمْ تَزَلْ تُجْسِمُ السَّمَاءُ وَالْأَدِيمُ صَحِيجُ
فَعَمَّا قَلِيلٍ ثُمَّ جَاءَ نَعْيُهُ فَظَلَّ نَذِي الْقَوْمِ وَهُوَ يَنُوحُ
فَهَذَا وَمَا شَاكَاهُ رِثَاءُ الْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ الْحَلَّةِ وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ
أَبُو الْعَتَاهِيَّةِ حِينَ قَالَ : (مَاتَ الْخَلِيفَةُ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ) فَرَفَعَ النَّاسُ
رُؤُوسَهُمْ وَفَتَحُوا عَيْنَهُمْ وَقَالُوا : أَنْعَاهُ إِلَى الْحَنِّ وَالْإِسِّ ثُمَّ قَالَ :
(فَكَأَنِّي أَفْطَرْتُ فِي رَمَضَانَ) يُرِيدُ إِنِّي يُجَاهِدُ رِثِي بِهَذَا
الْقَوْلِ كَأَنَّمَا جَاهَرْتُ نَهَارًا بِالْأَفْطَارِ فِي رَمَضَانَ فَكُلُّ أَحَدٍ
يُتَكَبَّرُ عَلَى ذَلِكَ وَيَسْتَعْظِمُهُ مِنْ فِعْلِي وَهَذَا مَعْنَى جَيْدٌ غَرِيبٌ فِي
لَفْظِ رَدِيٍّ غَيْرِ مُغَرَّبٍ عَمَّا فِي النَّفْسِ. وَمِنْ أَفْضَلِ الرِّثَاءِ قَوْلُ

أَحْسَيْنِ بْنِ مَطِيرٍ يَرِثِي مَعْنِ بْنِ زَائِدَةَ وَيُرْوَى لِابْنِ أَبِي حَفْصَةَ:
فَيَا قَبْرَ مَعْنٍ أَنْتَ أَوَّلُ نُقْعَةٍ

مِنَ الْأَرْضِ خُطَّتْ لِلْسَّاحَةِ مَوْضِعًا
وَيَا قَبْرَ مَعْنٍ كَيْفَ وَارَيْتَ جُودَهُ

وَقَدْ كَانَ مِنْهُ الْهَرُّ وَالْجَرُّ مُتْرَعًا
بَلَى قَدْ وَسِعْتَ الْجُودَ وَالْجُودُ مَيِّتٌ

وَلَوْ كَانَ حَيًّا عِشْتَ حَتَّى تَصَدَّعًا
فَتَى عِيشَ فِي مَعْرُوفِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ

كَمَا كَانَ بَعْدَ السَّيْلِ مَجْرَاهُ مَرْتَعًا
وَمِمَّا قَصَرَ بِهِ أَبُو تَمَّامٍ فِي رِثَائِهِ مُحَمَّدَ بْنَ حُمَيْدٍ بِالْقَصِيدَةِ الَّتِي
يَقُولُ فِيهَا:

أَلَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ عُطِلَتْ لَهُ فِجَاجُ سَبِيلِ اللَّهِ وَأَنْشَرَ الثَّغْرُ
وَقَدْ آجَادَ أَيْضًا فِي الْقَصِيدَةِ الَّتِي رَتَّى بِهَا أَذْرِيْسَ بْنَ بَدْرِ
يَقُولُ فِيهَا:

وَلَمْ أَنْسَ سَعْيَ الْجُودِ خَلْفَ سَرِيرِهِ بِأَكْسَفِ بَالٍ يَسْتَقِلُّ وَيَطْلُعُ
وَأَبُو تَمَّامٍ مِنَ الْمَعْدُودِينَ فِي إِجَادَةِ الرِّثَاءِ وَمِثْلُهُ دِيكَ الْحِنْ
وَهُوَ أَشْهُرُ فِي هَذَا وَنَ أَبِي تَمَّامٍ لَهُ فِيهِ طَرِيقٌ قَدْ أَنْفَرَدَ بِهَا قَالَ
فِي عُيَيْدِ اللَّهِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ وَهْبٍ:

قَدْ اسْتَوَى النَّاسُ وَمَاتَ الْكَمَالُ وَصَاحَ صَرْفُ الدَّهْرِ آيُنَ الرِّجَالِ
هَذَا أَبُو الْقَلِيمِ فِي نَفْسِهِ قَوْمُوا أَنْظَرُوا كَيْفَ تَسِيرُ الْحِبَالُ

وَمِنْ عَادَةِ الْقَدَمَاءِ أَنْ يَضْرِبُوا الْأَمْثَالَ فِي الْمَرَاثِي بِالْمُلُوكِ
 الْأَعِزَّةِ وَالْأَتَمِّ السَّالِفَةِ وَبِالْوُعُولِ الْمُتَتِيعَةِ فِي قُلُلِ الْحَبَالِ وَالْأُسُودِ
 الْحَادِرَةِ فِي الْغِيَاضِ وَحُمُرِ الْوَحْشِ الْمُتَصَرِّقَةِ بَيْنَ الْقِفَارِ وَبِالنُّسُورِ
 وَالْعِقَبَانِ وَالْحَيَاتِ الْبَاسِيهَا وَطُولِ أَنْعَامِهَا وَذَلِكَ فِي أَشْعَارِهِمْ كَثِيرٌ
 مَوْجُودٌ لَا تَكَادُ تَحُلُو مِنْهُ. فَأَمَّا الْمُحَدِّثُونَ فَهُمْ إِلَى غَيْرِ هَذِهِ
 الطَّرِيقَةِ آمِلٌ وَمَذْهَبُهُمْ فِي الرِّثَاءِ أَمْثَلُ فِي وَقْتِنَا هَذَا وَقَبْلَهُ وَرَبَّمَا
 جَرَوْا عَلَى سُنَنِ مَنْ قَبْلَهُمْ اقْتِدَاءً بِهِمْ وَأَخَذُوا بِسُنَّتِهِمْ كَالَّذِي صَنَعَ
 أَبُو نُوَاسٍ فِي رِثَائِهِ أَبَا الْوَلِيدِ الْأَعْرَابِيَّ وَخَلَفَا الْأَحْمَرَ وَمَرَاثِيهِ
 فِيهَا ثَلَاثُ قَوَافٍ مَشْهُورَاتٌ

وَكَمَا صَنَعَ ابْنُ الْمَعْتَزِ يَرِثِي أَبَاهُ بِالْقَصِيدَةِ اللَّامِيَّةِ الْمُقَيَّدَةِ
 فِي الرَّمْلِ أَوَّلُهَا :

رُبُّ حَتَفٍ بَيْنَ أَثْنَاءِ الْأَمَلِ وَحَيَاةِ الْمَرءِ ظِلٌّ مُنْتَقِلٌ
 وَهِيَ مَعْرُوفَةٌ وَلَوْ لَا اشتهار هذه القصائدِ وَوُجُودُهَا وَخِيفَةُ التَّطْوِيلِ
 لَأَثْبَتْنَا بِهَذَا الْمَوْضِعِ وَلَيْسَ مِنْ عَادَةِ الشُّعْرَاءِ أَنْ يُقَدِّمُوا قَبْلَ
 الرِّثَاءِ نَسِيبًا كَمَا يَصْنَعُونَ فِي الْمَدْحِ وَالْهِجَاءِ. قَالَ ابْنُ الْكَلْبِيِّ
 وَكَانَ عَلَامَةً لَا أَعْرِفُ مَرِئِيَّةً فِي أَوَّلِهَا نَسِيبٌ إِلَّا قَصِيدَةُ دُرَيْدِ بْنِ
 الصِّمَّةِ فِي رِثَاءِ أَخِيهِ خَالِدٍ :

أَرِثَ جَدِيدُ الْحَبْلِ مِنْ أُمِّ مَعْبَدٍ لِعَاقِبَةٍ أَوْ أَخْلَفَتْ كُلَّ مَوْعِدٍ
 وَحَكَى النَّحَّاسُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ سُلَيْمَانَ عَنْ أَبِي الْعَبَّاسِ الْأَخْوَلِ
 أَنَّ الْقَصِيدَةَ الَّتِي لِأَبِي قُحَاةَ أَعَشَى بِأَهْلَةٍ إِنَّمَا هِيَ لِابْنَةِ الْمُنْتَشِرِ

وَأَسْمَاهَا الدَّعْجَاءُ. وَالْحَاصِلُ أَنَّ الْمُتَعَارِفَ عِنْدَ أَهْلِ اللُّغَةِ أَنَّهُ لَيْسَ الْعَرَبُ
فِي أَجَاهِلِيَّةٍ مَرُثِيَّةٍ أَوْ لَهَا تَشْيِيبٌ إِلَّا قَصِيدَةُ دُرَيْدٍ. وَأَنَا أَقُولُ إِنَّهُ
الْوَاجِبُ فِي أَجَاهِلِيَّةٍ وَالْإِسْلَامِ إِلَى وَقْتِنَا هَذَا وَمِنْ بَعْدِهِ لِأَنَّ
الْأَخَذَ فِي الرِّثَاءِ يَحِبُّ أَنْ يَكُونَ مَشْغُولًا عَنِ النَّسِيبِ بِمَا هُوَ فِيهِ
مِنَ الْحَسْرَةِ وَالْإِهْتِمَامِ بِالْمُصِيبَةِ وَإِنَّمَا تَغَزَّلَ دُرَيْدٌ بَعْدَ قَتْلِ أَخِيهِ
بِسَنَةِ وَحِينَ أَخَذَ بِثَارِهِ وَأَذْرَكَ طَائِلَتَهُ

وَمِنْ الْعَجِيبِ أَنْ يَقُولَ عَبْدَةُ بْنُ الطَّيِّبِ فِي تَأْيِينِ قَيْسِ بْنِ
عَاصِمٍ الْمُنْقَرِي:

عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ قَيْسَ بْنَ عَاصِمٍ. وَرَحْمَتُهُ مَا شَاءَ أَنْ يَتَرَحَّمَا
وَيَقُولَ الْكُمَيْتُ فِي تَأْيِينِ النَّبِيِّ هَذَا الْقَوْلَ فَهَلَّا قَالَ مِثْلَ
قَوْلِ فَاطِمَةَ:

إِغْبَرَ آفَاقُ السَّمَاءِ وَكَوَّرَتْ شَمْسُ النَّهَارِ وَأَظْلَمَ الْعَصْرَانِ
وَالنِّسَاءُ أَسْحَجَى النَّاسِ قُلُوبًا عِنْدَ الْمُصِيبَةِ وَأَشَدُّهُمْ جَزَاءً عَلَى
هَالِكٍ لَمَّا رَكِبَ اللَّهُ تَعَالَى فِي طِبَاعِيهِمْ مِنْ ضَعْفِ الْعَزِيمَةِ
فَأَنْظُرْ إِلَى قَوْلِ جَلِيلَةٍ بِنْتِ مُرَّةٍ تُرِثِي زَوْجَهَا كَلْبِيَا حِينَ قَتَلَهُ
أَخُوهَا جَسَّاسٌ مَا أَسْحَجَى لَفْظُهَا وَأَظْهَرَ الْفُحْيَةَ فِيهِ وَكَيْفَ يُشِيرُ
إِلَى شَجَانٍ وَيَقْدَحُ شَرَرَ التَّيْرَانِ وَذَلِكَ:

يَا أَبْنَةَ الْأَقْوَامِ إِنْ لَمْتُ فَلَا تَعْجَلِي بِاللُّومِ حَتَّى تَسْأَلِي
وَمِنْ أَشَدِّ الرِّثَاءِ صُعُوبَةُ عَلَى الشَّاعِرِ أَنْ يَرِثِي طِفْلًا أَوْ امْرَأَةً
لِضِيقِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ فِيهَا وَقِلَّةِ الصِّفَاتِ. أَلَا تَرَى مَا صَنَعُوا بِأَبِي

الطَّيِّبِ وَهُوَ فَحْلٌ مُجَوَّدٌ إِذَا دَكَرَ التَّحْدُثُونَ فِي قَوْلِهِ يَذْكُرُ أَمْ سَيْفِ
الدَّوْلَةِ :

صَلَاةُ اللَّهِ خَالِقِنَا حُطُّ عَلَى الْوَجْهِ الْمَكْفَنِ بِالْجَمَالِ
وَقَالُوا مَا لَهُ وَلِهَذِهِ الْعُجُوزُ يَصِفُ جَمَالَهَا وَقَالَ الصَّاحِبُ بْنُ
عَبَادٍ : هَذِهِ اسْتِعَارَةٌ حِدَادٍ فِي عُرْسٍ فَإِنْ كَانَ أَرَادَ الصَّاحِبُ
بِالْإِسْتِعَارَةِ الْحُطُّ فَقَدْ وَاللَّهِ ظَلَمَ وَتَعَسَفَ وَإِنْ كَانَ أَرَادَ
اسْتِعَارَةَ الْمَكْفَنِ لِحَمَالِ الْعُجُوزِ فَقَدْ اعْتَرَضَ فِي مَوْضِعٍ اعْتَرَضَ
إِلَى مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ مَا يَنْحَقُّ كُلُّ زَلَّةٍ وَيُعْنِي كُلُّ
إِسَاءَةٍ . قَالَ الصَّاحِبُ بْنُ عَبَادٍ وَلَقَدْ مَرَرْتُ عَلَى مَرِيئَةِ لَهُ فِي
أَمْرِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ تَسَدَّلْتُ مَعَ قَسَادِ الْحُسْنِ عَلَى سُوءِ آدَبِ النَّفْسِ
وَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ يُخَاطَبُ مَا كُنَّا فِي أَمْرِهِ بِقَوْلِهِ :

رِوَاقُ الْعِزِّ فَوْقَكَ مُسَبَّطٌ وَمُلْكٌ عَلَيَّ أَيْنِكَ فِي كَمَالِ

وَأَعْلَى لَفْظُ الْأَسْبَاطِ فِي مَرَاثِي الْإِسَاءِ مِنَ الْحِذْلَانِ الصَّفِيقِ
الرَّقِيقِ . وَأَنَا أَقُولُ إِنَّ أَشَدَّ مَا هَجَنَ هَذِهِ اللَّفْظَةَ وَجَعَلَهَا مَقَامَ
قَصِيدَةٍ هَجَاءٍ أَنَّهُ قَرَنَهَا بِفَوْقِكَ فَجَاءَ عَمَلًا تَامًا لَمْ يَبْقَ فِيهِ إِلَّا قِطَاعُ
وَمِنْ أَضْعَافِ الزَّمَاءِ أَيْضًا جَمْعُ تَعْزِيَةٍ وَتَهْنِئَةٍ فِي مَوْضِعٍ
قَالُوا : لَمَّا مَاتَ مُعَاوِيَةُ اجْتَمَعَ النَّاسُ بِبَابِ يَزِيدَ فَلَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ عَلَى
الْجَمْعِ بَيْنَ التَّعْزِيَةِ وَالتَّهْنِئَةِ حَتَّى آتَى عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ هَمَامٍ السَّائِلِيُّ
فَدَخَلَ فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرَكَ اللَّهُ عَلَى الرِّزْيَةِ . وَبَارَكَ لَكَ
فِي الْعَطِيَّةِ . وَأَعَانَكَ عَلَى الرَّعِيَّةِ . فَقَدْ رُزِيتَ عَظِيمًا وَأُعْطِيتَ فَاشْكُرْ

اللَّهُ عَلَى مَا أُعْطِيَ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا رُزِيتَ فَقَدْتَ خَلِيفَةَ اللَّهِ وَأُعْطِيتَ
خِلَافَةَ اللَّهِ فَقَارَقْتَ جَلِيلًا وَأُعْطِيتَ عَظِيمًا إِذْ قَضَى مُعَاوِيَةُ نَحْبَهُ
وَوَلَّيْتَ الرِّئَاسَةَ وَأُعْطِيتَ السِّيَاسَةَ فَأَوْرَدَهُ اللَّهُ مَوَارِدَ السُّرُورِ
وَوَقَّتَكَ لِمَصَالِحِ الْأُمُورِ :

فَأَصْبِرْ يَزِيدُ فَقَدْ قَارَقْتَ ذَا رِثْمَةٍ

فَأَشْكُرْ حَبَاءَ الَّذِي بِالْمَلِكِ أَضْفَاكَ

لَا رُزْءَ أَصْبَحَ فِي الْأَيَّامِ نَعْلَمُهُ كَمَا رُزِيتَ وَلَا عُقْبَى كَعُتْبَاكَ
فَفَتَحَ لِلنَّاسِ بَابَ الْقَوْلِ وَعَلَى هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ جَرَى الشُّعْرَاءُ نَعْدَهُ
قَالَ أَبُو نُوَاسٍ يُعَزِّي الْفَضْلَ بْنَ الرَّبِيعِ وَيُهَيِّئُهُ بِالْأَمِينِ :

تَعَزَّى أَبَا الْعَبَّاسِ عَنْ خَيْرِ هَالِكٍ بِكَرَمٍ حَتَّى كَانَ أَوْ هُوَ كَانَ
حَوَادِثُ أَيَّامٍ تَدُورُ صُرُوفُهَا لَهْنٌ مَسَاوِرٌ مَرَّةً وَتَحَاسِينُ
وَفِي الْحَيِّ بِأَلَمِيتِ الَّذِي غِيبَ الثَّرَى

فَلَا الْمَلِكُ مَغْبُونٌ وَلَا الْمَوْتُ غَابِنٌ

وَيُرْوَى فَلَا أَنْتَ مَغْبُونٌ. وَاتَّبَعَهُ أَبُو شِمَامٍ بِالْقَصِيدَةِ الَّتِي أَوَّلُهَا
(مَا لِلدُّمُوعِ تَرُومُ كُلُّ مَرَامٍ) يَقُولُ فِيهَا لِنَوَائِقِ بَعْدَ الْمُعْتَصِمِ صَرَفَ
فِيهَا الْكَلَامَ حَيْثُ شَاءَ وَأَطْنَبَ كَمَا أَرَادَ وَأَخْتَجَّ وَأَسْهَبَ وَتَقَدَّمَ
فِيهَا عَلَى مَنْ سَلَكَ هَذِهِ النَّاحِيَةَ مِنَ الشُّعْرَاءِ. وَأَرَادَ ابْنُ الرِّيَّاتِ
مُجَارَاتَهُ فَعَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ التَّقْصِيرَ فَأَقْتَصَرَ عَلَى :

قَدْ قُلْتُ إِنْ غَيَّبُوكَ وَأَضْطَفَقَتْ عَلَيْكَ أَيْدٍ بِالْثُرْبِ وَالطِّينِ
إِذْ هَبَ فَنِعْمَ الْمَعِينُ كُنْتَ عَلَى الدُّمِ نِيًّا وَنِعْمَ الظَّهِيرُ لِلدِّينِ

لَنْ يَجْزِيَ اللَّهُ أُمَّةً فَقَدَتْ مِثْلَكَ إِلَّا بِمِثْلِ هَارُونَ
وَمِنْ جَيْدٍ مَا رُثِيَ بِهِ النِّسَاءُ وَأَشَدُّهُ تَأْثِيرًا فِي الْقَلْبِ وَاثَارَةً
يُحْزِنُ قَوْلُ ابْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ هَذَا فِي أُمِّ وَلَدِهِ :
أَلَا مَنْ رَأَى الطِّفْلَ الْفَارِقَ أُمَّهُ

بُعِيدَ الْكَرَى عَيْنَاهُ تَبْتَدِرَانِ
يَقُولُ فِيهَا :

أَلَا إِنْ تَجَلَّأَ وَاحِدًا قَدْ أَرَقْتُهُ مِنْ الدَّمْعِ أَوْ سَجَلَيْنِ قَدْ شَفَيَانِي
وَأِنْ مَكَانًا فِي الثَّرَى خُطَّ لِحْدُهُ

لَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِي بِكُلِّ مَكَانٍ
وَوْنُ أَشْجَى الشَّعْرِ رِثَاءُ قَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ :

فَهَنِي عَدِمْتُ الصَّبْرَ عَنْهَا لِأَنِّي جَلِيدٌ قَدْ بَالَصَبْرِ لِابْنِ ثَمَارٍ
فَهَذِهِ الطَّرِيقُ هِيَ الَّتِي يَجْرِي حُذَاقُ الشُّعْرَاءِ إِلَيْهَا وَيَقْتَمِدُونَ
فِي الرِّثَاءِ عَلَيْهَا مَا لَمْ تَكُنِ الْمُرِثَةُ مِنْ نِسَاءِ الْمَلِكِ وَبَنَاتِ
الْأَشْرَافِ وَغَيْرِ ذَوَاتِ مُحَارِمِ الشَّاعِرِ فَإِنَّهُ يُتَخَافُ عَنْ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ
إِلَى أَرْفَعِ مِنْهَا نَحْوُ قَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ :

وَلَوْ أَنَّ النِّسَاءَ كَمَنْ فَقَدْنَا لَفُضِّلَتِ النِّسَاءُ عَلَى الرِّجَالِ
وَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ :

مَشَى الْأُمَرَاءُ حَوْلَهَا حُفَاةً كَانَ الْمَرُوءُ مِنْ زِفْرِ الرِّيَالِ
وَقَوْلُهُ لِأَخْتِ سَيْفِ الدَّوَلَةِ :

يَا أُخْتَ خَيْرِ أَخٍ يَا بِنْتَ خَيْرِ أَبٍ كِنَايَةٌ بِهَا عَنْ أَشْرَفِ النَّسَبِ

أَجَلٌ قَدْرُكَ أَنْ تُسَمِّيَ مُؤَبَّتَةً وَمَنْ يَصِفُكَ فَقَدْ سَمَّاكَ لِلْعَرَبِ
وَرِثَاءِ الْأَطْفَالِ أَنْ يَذْكُرَ تَحَايِلَهُمْ وَمَا كَانَتْ الْفِرَاسَةُ تُعْطِيهِ
فِيهِمْ يَمْنٌ تَحْتَنُّ لِصَابِيهِمْ وَتَجْمَعُ بِهِمْ كَأَنِّي صَنَعْتُ أَبُو نَقَامٍ فِي ابْنِي
عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ

المبحث السادس

في الاقتضاء والاستنجاز

(من الكتاب نفسه)

حَسَبُ الشَّاعِرِ أَنْ يَكُونَ مَذْحُجَةً شَرِيفًا وَأَقْتِضَاوَهُ لَطِيفًا
وَهَجَاوَهُ إِنْ هَجَا عَنِيْفًا فَإِنَّ الْأَقْتِضَاءَ الْحَشِيْرُ رُبَّمَا كَانَ سَبَبَ الْإِنْعَامِ
وَالْحِرْمَانِ وَدَاعِيَةِ الْقَطِيعَةِ وَالْمُهْجَرَانِ. وَقَوْمٌ يُدْرِجُونَ الْعِتَابَ فِي
الْأَقْتِضَاءِ وَالْأَقْتِضَاءُ بِالْعِتَابِ وَأَنَا أَرَى غَيْرَ هَذَا الْمَذْهَبِ أَصَوْبَ
فَالْأَقْتِضَاءُ طَلَبُ حَاجَةٍ وَبَابُ التَّلَطُّفِ فِيهِ أَجْوَدُ فَإِنْ بَلَغَ الْأَمْرُ
الْعِتَابَ فَإِنَّمَا هُوَ طَلَبُ الْإِبْقَاءِ عَلَى الْمَوَدَّةِ وَالْمُرَاعَاةِ وَفِيهِ تَوْبِيخٌ
وَمُضَادَّةٌ لَا يَجُوزُ مَعَهَا بَعْدُ أَقْتِضَاءٌ إِلَّا أَنَّ النَّاسَ قَدْ خَلَطُوا هَذَيْنِ
وَسَاوَوَا بَيْنَهُمَا. فَمَنْ أَحْسَنَ الْأَقْتِضَاءَ عَلَى مَا تَحْيَرُوهُ وَنَحْوَتُ إِلَيْهِ
قَوْلُ أُمِّئَةِ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَدْعَانَ :

أَذْكُرُ حَاجَتِي أَمْ قَدْ كَفَانِي	حَيَاؤُكَ إِنْ شِيمَتَكَ الْحَيَاءُ
وَعِلْمُكَ بِالْحُقُوقِ وَأَنْتَ فَرَعٌ	لَهُ الْحَسَبُ الْمُهَذَّبُ وَالسَّنَاءُ
خَلِيلٌ لَا يُغَيِّرُهُ عَسَاحٌ	عَنِ الْخَلْقِ الْجَمِيلِ وَلَا مَسَاءُ

إِذَا أَثْنَىٰ عَلَيْكَ الْمُرَّةَ يَوْمًا كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ الشَّاءَ
فَأَنْتَ تَرَىٰ هَذَا الْإِقْتِضَاءَ كَيْفَ يُدِينُ الصَّخْرَ وَيَسْتَنْزِلُ الْقَطْرَ
وَيَحْطُ الْمَعْدَمَ إِلَى السَّهْلِ وَمِثْلُهُ. قَوْلُ الْآخَرِ:
لَا شُكْرَ لَكَ مَعْرُوفًا هَمَمْتَ بِهِ إِنْ أَهْتَمَّ بِكَ بِالْمَعْرُوفِ مَعْرُوفُ
وَلَا الْوُكُوفَ إِنْ لَمْ يُخْضِرْ قَدْرُ فَالْشَّيْءُ بِالْقَدْرِ الْخَتْمُ مَضْرُوفُ
فَوَمَا مَا نَأْسَبُ قَوْلَ مُحَمَّدٍ بْنِ يَزِيدَ الْأَمْوِيِّ لِعِيسَى بْنِ قَرْخَا
إِذَا يَقُولُ لَهُ مُسْتَبْطِئًا:

لَقَدْ كُنْتُ أَرْجِيكَ لَمَّا أَخَشَىٰ مِنَ الدَّهْرِ
فَقَدْ أَصْبَحْتَ مِنْ أَوْكِدِ مَسَائِي إِلَى الْفَقْرِ
أَرْضَىٰ لِي بِأَنْ أَرْضَىٰ بِتَقْصِيرِكَ فِي أَمْرِي
وَقَدْ أَفْنَيْتُ مَا أَفْنَيْتُ فِي شُكْرِكَ مِنْ عُمْرِي
فَهُوَ الْعِتَابُ الْحَضُّ وَالْتَوَيْجُ الَّذِي دُونَهُ الْجِلْدُ بِالسَّوْطِ بَلْ
بِالسَّيْفِ. وَمِمَّا صَنَعَهُ فِي الْعِتَابِ عَلَىٰ هَذَا الشَّكْلِ بَعْدَ الْيَأْسِ
الْحُكْمَ كَمَا شَرَطْتُ:

رَجَوْتُكَ لِلْأَمْرِ اللَّهُمَّ وَفِي يَدَيَّ بَقَايَا أَمْرِي النَّفْسَ فِيهَا الْأَمَانِيَا
فَسَاوَفَتْ فِي الْأَيَّامِ حَتَّىٰ إِذَا انْقَضَتْ

أَوَاخِرُ مَا عِنْدِي قَطَعْتُ رَجَائِيَا
وَكُنْتُ كَأَنِّي نَازِفُ الْبُيُوتِ طَالِبَا لِإِحْمَامِهَا أَوْ يَرْجِعُ الْمَاءُ صَافِيَا
فَلَا هُوَ أَبْقَىٰ مَا أَصَابَ لِنَفْسِهِ وَلَا هِيَ آعْطَتْهُ الَّذِي كَانَ رَاجِيَا
وَمِنْ أَمْلَحَ مَا رَأَيْتُ فِي الْإِقْتِضَاءِ وَالْإِسْتِبْطَاءِ قَوْلُ أَبِي

الْعَتَاهِيَةِ لِعَمْرٍو بْنِ الْعَلَاءِ. وَأَبْنُ الْمَعْتَرِ يُسَمِّي هَذَا النَّوعَ مَرْحًا
يُرَادُ بِهِ الْجِدُّ وَهُوَ:

أَصَابَتْ عَلَيْنَا جُودَكَ الْعَيْنُ يَا عَمْرُ
سَارِقِيكَ بِالْأَشْعَارِ حَتَّى تَمْلَأَهَا
فَقَحْنُ لَهَا نَبْغِي السَّائِمِ وَالشَّرْ
فَإِنْ لَمْ تُفِقْ مِنْهَا رَقِيئَاكَ بِالسُّورِ
وَكُنْتَ صَنَعْتُ فِي الْإِسْتِطَاءِ:

أَخَسَنْتُ فِي تَأْخِيرِهَا مِثْلَهُ
وَكَيْفَ لَا يَحْسُنُ تَأْخِيرُهَا
لَوْ لَمْ تُؤَخَّرْ لَمْ تَكُنْ كَامِلَةً
بَعْدَ يَقِينِي أَنَّهَا حَاصِلَةٌ
وَجَعْتُ الْفِرْدَوْسَ يُدْعَى بِهَا
أَجَلَةٌ لِلْحَرِّ لَا عَاجِلَةَ
لَكِنَّا أَضَعَفَ مِنْ نَبْغِي
أَيَّامُ عَمْرٍو دُونَهَا زَائِلَةٌ
وَالْعِتَابُ أَوْسَعُ جِدًّا مِنَ الْإِقْتِضَاءِ لِأَنَّهُ يَكُونُ مِثْلَهُ بِسَبَبِ
الْحَاجَاتِ وَقَدْ يَكُونُ بِسَبَبِ غَيْرِهَا كَثِيرًا وَالْإِقْتِضَاءُ لَا يَكُونُ
إِلَّا فِي حَاجَةٍ

المبحث السابع

في العتاب

(من الكتاب نفسه)

وَأِنْ كَانَ حَيَاةَ الْمَوَدَّةِ وَشَاهِدَ الْوَفَاءِ فَإِنَّهُ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ
الْحَدِيثِ وَسَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ الْقَطِيعَةِ وَالْجَفَاءِ وَإِذَا قَلَّ كَانَ دَاعِيَةً
الْأُلْفَةِ وَقَيْدَ الصُّحْبَةِ وَإِذَا كَثُرَ خَسَنَ جَانِبُهُ وَثَقُلَ صَاحِبُهُ. وَلِلْعِتَابِ
طُرُقٌ كَثِيرَةٌ وَالنَّاسُ فِيهِ ضُرُوبٌ مُخْتَلِفَةٌ رَفَنَهُ مَا يَمَارِجُهُ الْإِسْتِغْطَافُ

وَالْإِسْتِثْلَافُ وَمِنْهُ مَا يَدْخُلُهُ الْإِحْتِجَاجُ وَالْإِتِّصَافُ . وَقَدْ يَغْرِضُ
فِيهِ آثَانٌ وَالْإِجْحَافُ . مِثْلَ مَا يَشْرُكُهُ الْإِعْتِدَارُ وَالْإِعْثَرَا فُ . وَأَحْسَنُ
النَّاسِ طَرِيقًا فِي عِتَابِ الْأَشْرَافِ شَيْخُ الصَّنَاعَةِ وَسَيِّدُ الْجَمَاعَةِ أَبُو
عِبَادَةَ الْبُخْتَرِيُّ الَّذِي يَقُولُ :

يُرِيدُنِي الشَّيْءُ تَأْتِي بِهِ	وَإِكْبَرُ قَدْرَكَ أَنْ أَسْتَرِيَا
وَأَكْثَرُهُ أَنْ أَلْقَى عَلَى	سَبِيلِ اعْتِدَارٍ فَأَلْقَى شُعُوبَا
أَكْذِبُ ظَنِّي بِأَنْ قَدْ سَخِطْتُ م	وَمَا كُنْتُ أَعِدُّ ظَنِّي كَذُوبَا
وَلَوْ لَمْ تَكُنْ سَاقِطًا لَمْ أَكُنْ	أَذْمُ الزَّمَانِ وَأَشْكُو الْخُطُوبَا
وَلَا بُدَّ مِنْ لَوْمَةٍ أَنْتَحِي	عَلَيْكَ بِهَا مُخْطِئًا أَوْ مُصِيَا
أَيُّضُجُ وَرَدِي فِي سَاحَتِكَ م	طَرَقًا وَمَرَعَايَ مَحَلًّا جَدِيَا
فَفِي كُلِّ يَوْمٍ لَنَا مَوْقِفٌ	يُشَقِّقُ فِيهِ الْوَدَاعُ الْجُيُوبَا
وَالَّذِي يَقُولُ :	

وَأَعِيدَ إِنْ نَارَعْتَهُ اللَّحْظَ رَدَّهُ	كَلِيلًا وَإِنْ رَاجَعْتَهُ الْقَوْلَ جَجَمَا
ثَنَاهُ الْعِدَا عَنِّي فَأَضْجَحَ مُعْرِضًا	وَأَوْقَمَهُ الْوَأَشُونَ حَتَّى تَوَهَّمَا
وَقَدْ كَانَ سَهْلًا وَاضِحًا فَتَوَعَّرَتْ	رُبَاهُ وَطَلَقَا ضَاحِكًا فَتَجَهَّمَا
يُخَوِّفُنِي مِنْ سُوءِ رَأْيِكَ مَعَشَرٌ	وَلَا خَوْفَ إِلَّا أَنْ تَجُورَ وَتَظْلِمَا
أَعِيدُكَ أَنْ أَخْشَاكَ مِنْ غَيْرِ حَادِثٍ	

تَبَيَّنَ مِنْ جُرْمِ إِلَيْكَ تَقْدَمَا

أَلَسْتُ أَلُوَالِي فِيكَ نَظْمَ قَصَائِدٍ

هِيَ الْأَنْجَمُ اقْتَادَتْ مَعَ اللَّيْلِ أَنْجَمَا

فَهَذَا أَعْتَبُ كَمَا قَالَ :

عَتَابٌ بِأَطْرَافِ الْقَوَائِي كَأَنَّهُ طِعَانٌ بِأَطْرَافِ الْقَنَا أَلْتَكْتَبِرُ
وَقَدْ نَحَوْتُ أَنَا بَعْضَ هَذَا النُّحْوِ فِي كَلِمَةٍ عَاتَبْتُ بِهَا الْقَاضِي
جَعْفَرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْكُوفِيَّ قُلْتُ فِيهَا :

وَقَدْ كُنْتُ لَا آتِي إِلَيْكَ مُخَايَلًا لَدَيْكَ وَلَا أُثْنِي عَلَيْكَ تَصْنَعًا
وَلَكِنْ رَأَيْتُ أَلْمَذَحَ فِيكَ فَرِيضَةً عَلَيَّ إِذَا كَانَ الْمَسِيحُ تَطَوُّعًا
فَقُمْتُ بِمَا لَا تَخْفَى عَنْكَ مَكَانُهُ مِنْ الْقَوْلِ حَتَّى ضَاقَ رِمًا تَوْسَعًا
إِلَى أَنْ أَقُولَ :

فَوَاللَّهِ مَا طَوَّلْتُ بِاللُّومِ فِيكُمْ لِسَانِي وَلَا عَرَّضْتُ لِلذَّمِّ مِسْمَعًا
أَلُوذُ بِاِكْتِافِ الرَّجَاءِ وَآتَّقِي شِمَاتِ الْعِدَائِ إِنْ لَمْ أَجِدْ فِيكَ مَطْمَعًا
وَمِنْ مُعَاتَبَاتِ أَبِي تَمَامٍ قَوْلُهُ لِابْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الزَّيَّاتِ :
تَقَطَّعْتَ الْأَسْبَابُ إِنْ لَمْ تُعْرِهَا

قُوًى أَوْ يَصِلَهَا مِنْ يَمِينِكَ وَاعْمِلْ
سِوَى مَطْلَبٍ يَنْضَى الرَّجَاءُ بِطَوْلِهِ
وَتَخْلُقْ أَخْلَاقَ الْخُفُونِ الْوَسَائِلُ
وَقَدْ تَأَلَّفُ أَلْعَيْنُ الدَّجَى وَهُوَ قَيْدُهَا

وَيُرْجَى شِفَاءُ السَّمِّ وَالسَّمُّ قَاتِلُ

إِلَى قَوْلِهِ :

وَأَنَّ أَلْعَالِي يُسْتَرَمُّ بِنَاوِهَا وَشَيْكَا كَمَا قَدْ تُسْتَرَمُّ أَلْمَازِلُ
مَنْحُكُهَا تَشْفِي الْجَوَى وَهُوَ لَا عِجْ وَتَبَعْتُ أَسْجَانَ الْفَتَى وَهُوَ ذَاهِلُ

تُرَدُّ قَوَافِيهَا إِذَا هِيَ أُرْسِلَتْ هَوَامِلَ مَجْدِ الْقَوْمِ وَهِيَ هَوَامِلُ
فَكَيْفَ إِذَا حَلَّتْهَا بِجَانِبِهَا تَكُونُ وَهَذَا حُسْنُهَا وَهِيَ عَاطِلُ
وَقَالَ ابْنُ الْأَرَوَمِيِّ لِأَبِي الصَّغِيرِ يُعَاتِبُهُ فِي قَصِيدَةٍ جَيِّدَةٍ :
عَذْرُكَ لَوْ كَانَتْ سَمَاءً تَقَشَّعَتْ سَحَابَتُهَا أَوْ كَانَ رَوْضًا تَصَوَّحَا
فَيَا لَكَ تَجَرًّا لَمْ أَجِدْ فِيهِ مَشْرَعًا وَإِنْ كَانَ غَيْرِي وَاجِدًا فِيهِ مَسْجَعًا
مَدِيحِي عَصَا مُوسَى وَذَلِكَ أَنِّي فَزَرَبْتُ بِهِ تَجَرَ الْوَدَى فَتَضَخَّضَهَا
إِلَى أَنْ يَقُولَ :

سَاءَ مَدْحُ بَعْضِ الْبَاخِلِينَ لَعَلَّهُ إِذَا أَطْرَدَ الْإِقْيَاسُ أَنْ يَتَسَحَّحَا
فَهَذَا هُوَ الَّذِي لَا يُدْلَغُ جُودَةٌ وَلَا يُجَارَى سَقَاءٌ عَلَى أَنْ
لِلْخَثَرِيِّ قَدْ تَقَدَّمَ إِلَى بَعْضِ الْمَعْنَى فِي قَوَائِمِ الْقَتْمِ بْنِ خَاقَانَ :
غَمَامٌ خَطَا فِي صَوْبِهِ وَهُوَ مُسْبِلٌ وَبَحْرٌ عَدَا فِي فَيْضِهِ وَهُوَ مُنْعِمٌ
وَبَدْرٌ آصَاءَ الْأَرْضَ شَرْقًا وَمَغْرِبًا وَمَوْضِعُ رَحْلِي مِنْهُ أَسْوَدُ أَقْمٌ
وَمَا بَجَلِ الْقَتْمِ بْنِ خَاقَانَ بِالْوَدَى وَلَكِنَّهَا الْأَقْدَارُ تُعْطِي وَتَحْرِمُ
فَأَمَّا أَبُو الطَّيِّبِ فَكَانَتْ فِي طَبِيعِهِ غِلْظَةٌ وَفِي عِتَابِهِ شِدَّةٌ
وَكَانَ كَثِيرَ التَّحَامُلِ ظَاهِرَ الْكِبَرِ وَالْأَنْفَةِ وَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ يَقُولُ
إِسْنِيفِ الدَّوَلَةِ :

يَا أَعْدَلَ النَّاسِ إِلَّا فِي مُعَامَلَتِي فِيكَ الْجِصَامُ وَأَنْتَ الْخَضَمُ وَالْحَكَمُ
أَعِيدُهَا نَظَرَاتٍ مِنْكَ صَادِقَةٌ أَنْ تَحْسِبَ الشَّحْمَ فِي مَنْ يَتَحَبَّبُ وَرَمُ
وَمَا أُنْتِفَاعُ اخِي الدُّنْيَا بِنَاقِلِهِ إِذَا أَسْتَوَتْ عِنْدَهُ الْأَنْوَارُ وَالظُّلُمُ
وَفِيهَا يَقُولُ :

إِذَا رَأَيْتَ نُيُوبَ اللَّيْثِ بَارِزَةً فَلَا تَظُنَّنَّ أَنَّ اللَّيْثَ مُنْتِمِ
فَهَذَا الْكَلَامُ فِي نِهَايَةِ الْجُودَةِ غَيْرَ أَنَّهُ مِنْ جِهَةِ الْوَاجِبِ
وَالسِّيَاسَةِ غَايَةً فِي الْقُبْحِ وَالرَّدَاءَةِ وَإِنَّمَا عَرَضَ يَقُومُ يَنْتَقِصُونَهُ
عِنْدَ سَيْفِ الدَّوْلَةِ وَيُعَارِضُونَهُ فِي أَشْعَارِهِ . وَالْإِشَارَةُ كُلُّهَا إِلَى
سَيْفِ الدَّوْلَةِ . ثُمَّ قَالَ بَعْدَ آيَاتٍ :

يَا مَنْ يَعْزُّ عَلَيْنَا أَنْ نَفَارِقَهُ وَجَدَانُنَا كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَكُمْ عَدَمُ
مَا كَانَ أَخْلَقْنَا مِنْكُمْ يَتَكْرَمُهُ لَوْ أَنَّ أَمْرَكُمْ مِنْ أَمْرِنَا أَمُّ
وَبَيْنَنَا لَوْ رَعَيْتُمْ ذَاكَ مَعْرِفَةً إِنَّ الْمَعَارِفَ فِي أَهْلِ النَّهْيِ ذَمُّ
كَمْ تَطْلُبُونَ لَنَا عَيْبًا فَيُغْزِرُكُمْ وَاللَّهُ يَكْرَهُ مَا تَأْتُونَ وَالْكَرَمُ
مَا أَبْعَدَ الْعَيْبَ وَالنَّقْصَانَ مِنْ شَرِّ فِي

أَنَا الْثُرَيَّا وَذَانِ الشَّيْبِ وَالْهَرَمِ
وَلَيْسَ هَذَا عِتَابًا لِكِنَّهُ سَبَابٌ وَسَبَبُ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ كَادَ
يُقْتَلُ بَعْدَ أَنْصِرَافِهِ مِنْ مَجْلِسِ إِنْشَادِهَا . وَأَمَّا عِتَابُ الْأَكْفَاءِ
وَأَهْلِ الْمَوَدَّاتِ مِنَ الظُّرَفَاءِ فَهُنَا قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبَّاسٍ الصَّوَلِي
يُعَاتِبُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ الزِّيَّاتِ وَقَدْ تَغَيَّرَ عَلَيْهِ كَمَا وَرَدَ :

وَكُنْتَ أَخِي بِإِخَاءِ الزَّمَانِ فَلَمَّا نَبَا صِرْتَ حَرْبًا عَوَانَا
وَكُنْتَ أَدَمُ إِلَيْكَ الزَّمَانِ فَاصْبَحْتَ فِيكَ أَدَمُ الزَّمَانَا
وَكُنْتَ أَعْدَدُكَ لِلنَّائِبَاتِ فَهِيَ أَنَا أَطْلُبُ مِنْكَ الْإِمَانَا

وَهَذَا عِنْدِي مِنْ أَشَدِّ الْعِتَابِ وَأَوْجَعِهِ . وَمِنْ أَكْرَمِ الْعِتَابِ
قَوْلُ السَّيِّدِ أَبِي الْحَسَنِ :

وَأَنِّي لَا طَرِيَّ كُلَّ خَلٍّ صَحْبُهُ وَأَنْتَ تَرَى سَمِيَّ بِغَيْرِ حَيَاءٍ
وَمِنْ مَلِيحٍ مَا سَعَيْتُ قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ حَمِيدٍ يُعَاتِبُ صَدِيقًا
أَمَّهُ :

أَقْلِلْ عِتَابَكَ فَالْبَقَاءُ قَلِيلُ
لَمْ أَبْكُ مِنْ زَمَنٍ ذُتُّ صُرُوفُهُ
وَالْكُلُّ نَائِبَةٌ أَلَّتْ مُدَّةُ
وَالْمُنْتَشُونَ إِلَى الْإِخَاءِ عَصَابَةٌ
وَأَعْلَ أَحْدَاثِ الْمَنِيَّةِ وَالرَّدَى
فَلَنْ سَبَقْتُ لَتُسْكَبَنَّ بِحَجَرَةٍ
وَلَتُجْعَنَّ مُجَاصٍ لَكَ وَأَوْقِ
وَأَنْ سَبَقْتُ وَلَا سَبَقْتُ لِيَمْضِينَ
وَأَيْذَهَبَنَّ بَهَا كُلُّ مُرُوءَةٍ
وَأَرَاكَ تَكْلَفُ بِالْعِتَابِ وَوَدُنَا
وَدُّ بَدَا لَذَوِي الْإِخَاءِ كَمَالُهُ
وَأَعْلَ أَيَّامِ الْإِخَاءِ قَصِيرَةٌ
وَأِلَى هُنَا أَوْمًا أَبُو الطَّيِّبِ يَقُولُهُ :

ذَرِ النَّفْسَ تَأْخُذُ وَسَعَهَا قَبْلَ بَيْنِهَا فَمُفْتَرِقٌ جَارَانِ دَارُهُمَا الْعُمُورُ
وَأَشَارَ إِلَيْهِ أَيْضًا يَقُولُهُ وَأَرَدَتْ الْبَيْتَ الْآخِرَ :
وَصَلِيًّا نَصَلَكِ فِي هَذِهِ الدُّرُجَةِ يَا فَإِنَّ الْمَقَامَ فِيهَا قَلِيلُ
وَالْجَمِيعُ مِنْ قَوْلِ الْأَوَّلِ :

وَلَقَدْ عَلِمْتُ فَلَا تَكُنْ مُتَجَبِّئًا

أَنَّ الصَّدُودَ هُوَ الْفِرَاقُ الْأَوَّلُ
حَسْبُ الْأَحِبَّةِ أَنْ يَفْرُقَ بَيْنَهُمْ رَيْبُ الْأَمْنُونِ فَمَا لَنَا نَسْتَفْهِلُ
إِلَّا أَنْ أَنْبَى حَمِيدٍ قَدْ فَتَنَ وَبَيَّنَ وَشَرَحَ مَا أَجْمَلَ غَيْرُهُ بِقَوْلِهِ:
لَيْنَ سَبَقْتُ أَنَا وَلَيْنَ سَبَقْتَ أَنْتَ وَلَا سَبَقْتُ فَلَهُ بِذَلِكَ فَضْلٌ بَيْنُ
الرُّجْحَانِ ظَاهِرٌ. وَمَا أَحْسَنَ إِيجَازَ الَّذِي قَالَ:

الْعُرُ أَقْصَرُ مُدَّةٍ مِنْ أَنْ يُحَقِّقَ بِالْعِتَابِ

وَقَالَ أَبُو الْخُدَّائِينَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ:

إِذَا كُنْتَ فِي كُلِّ الْأُمُورِ مُعَارِبًا صَدِيقَكَ لَمْ تَلَقِ الَّذِي لَا تُعَارِبُهُ

البحث الثامن

في الوعيد والانذار

(من الكتاب نفسه)

كَانَ الْعُقَلَاءُ مِنَ الشُّعْرَاءِ وَذَوُو الْحَزْمِ يَتَوَعَّدُونَ بِالْهَجَاءِ
وَيَحْذَرُونَ مِنْ سُوءِ الْأُحْدُوثَةِ وَلَا يُحْذَرُونَ الْقَوْلَ إِلَّا ضَرُورَةً حِينَ
لَا يَخْشَنُ السُّكُوتُ. قَالَ أَنْبَى مُقْبِلٌ:

بَنِي عَامِرٍ مَا تَأْمُرُونَ لِشَاعِرٍ تَحِيَّرَ آيَاتِ الْكِتَابِ هِجَاؤِنَا
أَغْفُوا كَمَا يَغْفُو الْكَرِيمُ فَإِنِّي أَرَى الشَّعْبَ فِيمَا بَيْنَنَا مُتَدَانِنَا
أَغْمِضُ بَيْنَ اللَّحْمِ وَالْجِلْدِ غَمَظَةً بِبُرْدِ رُومِي يَقُطُّ الْوَأَصِيَا
فَأَمَّا سُرَاقَاتُ الْهَجَاءِ فَإِنَّهَا كَلَامٌ تَهَادَاهُ اللَّيَامُ تَهَادِيَا

وَعِنْدِي الدُّهْمُ لَوْ أُحِلَّ عَقَالُهَا فَتَضَيَّحَ لَمْ تَقْدَمَ مِنَ الْحَبْنِ حَادِيَا
 شَبَّهَ لِسَانَهُ بِمَبْرَدِ رُومِيٍّ لِضَاهِهِ وَشَبَّهَ الْقَصِيدَةَ الَّتِي لَوْ شَاءَ
 هِجَاءُهُمْ بِهَا بِالدُّهْمِ وَهُوَ الدَّاهِيَةُ. وَأَصْلُ ذَلِكَ أَنَّ الدُّهْمَ نَاقَةٌ عَمْرُو بْنُ
 زَبَانَ الثُّغَلِيَّةِ الَّتِي حَمَلَتْ رُؤُوسَ بَنِيهِ مُعَلَّقَةً فِي عُنُقِهَا فَجَاءَتْ بِهَا الْحَيَّ
 فَضْرِبَ بِهَا الْمَثْلَ لِلدَّاهِيَةِ. وَقَالَ جَرِيرٌ لَبَنِي حَنِيفَةَ وَكَانَ مِثْلَهُمْ
 مَعَ الْفَرَزْدَقِ عَلَيْهِ :

أَبْنِي حَنِيفَةَ حَكِمُوا سُفَهَاكُمْ رَأَيْتِي أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ أَغْضِبَا
 قَوْلُهُ حَكِمُوا أَيِ كُفُّوا. وَقَالَ لَتَيْمِ الرَّبَّابِ رَهْطِ عَمْرُو بْنُ حَبَّاءَ :
 يَا تَيْمَ تَيْمَ عَادِي لَا أَبَا لَكُمْ لَا يُلْفِيكُمْ فِي سَرَّاءِ عَمْرٍ
 وَمِمَّا قُلْتُهُ فِي هَذَا الْبَابِ :

يَا مُوجِعِي شَتَا عَلَى أَنَّهُ لَوْ تَرَكْتُ الْبُرْغُوثَ مَا أَوْجَعَا
 كُلُّهُ مِنْ نَفْسِهِ آفَةٌ وَآفَةُ النَّحْلَةِ أَنْ تَلْسَعَا

البحث التاسع

في الهجاء

(من الكتاب نفسه)

يُرْوَى عَنْ أَبِي عَمْرٍو بْنِ الْعَلَاءِ أَنَّهُ قَالَ : خَيْرُ الْهَجَاءِ مَا تُشِيدُهُ
 الْعَذْرَاءُ فِي خَذَرِهَا فَلَا يَنْجُبُ بِمِثْلِهَا. نَحْوَ قَوْلِ جَرِيرٍ :
 لَوْ أَنَّ تَغْلِبَ جَمَعَتْ أَحْسَابَهَا يَوْمَ التَّفَاخُرِ لَمْ تَحْزَنْ مِثْقَالَ
 وَقَوْلِ الْآخَرِ :

فَفُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ فَلَا كَعْبًا بَأْنَتْ وَلَا كِلَابًا
وَلَمَّا أَطْلَقَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ الْخَطِيْبَةَ مِنْ حَبِيبِهِ إِيَّاهُ بِسَبَبِ
هَيْجَانِهِ الزَّبْرَقَانَ قَالَ آهُ : تَدْعُ الْهَيْجَاءُ الْمُنْدِيعَ . قَالَ : وَمَا الْهَيْجَاءُ الْمُنْدِيعُ .
قَالَ : الْمُنْدِيعُ أَنْ تَقُولَ هُوَلَاءُ أَفْضَلُ مِنْ هُوَلَاءُ وَأَشْرَفُ وَتَبْنِي
شِعْرًا عَلَى مَذْحِرِ لِقَوْمٍ وَذَمٍّ لِمَنْ يُعَادِيهِمْ . قَالَ : أَنْتَ وَاللَّهُ يَا أَمِيرَ
الْمُؤْمِنِينَ أَعْلَمُ مِنِّي بِمَذَاهِبِ الشِّعْرِ لَكِنِّي حَبَانِي هُوَلَاءُ فَمَدَحْتُهُمْ
وَحَرَمْتَنِي هُوَلَاءُ فَذَكَرْتُ جِرْمَانَهُمْ وَلَمْ أَتْلُ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ شَيْئًا
وَصَرَفْتُ مَذْحِجِي إِلَى مَنْ أَرَادَهُ وَرَغِبْتُ بِهِ عَلَى مَنْ كَرِهَهُ وَزَهَّدَ
فِيهِ . يُرِيدُ قَصِيدَتَهُ الْمَهْمُوزَةَ وَهِيَ أَخْبَثُ مَا صَنَعَ وَفِيهَا أَوْ مِنْ أَجْلِهَا
قَالَ خَلْفُ الْأَحْمَرِ : أَشَدُّ الْهَيْجَاءِ أَعْفُهُ وَأَصْدَقُهُ . وَقَالَ مَرَّةً أُخْرَى :
مَا عَفَ لَفْظُهُ وَصَدَقَ مَعْنَاهُ . وَمِنْ كَلَامِ صَاحِبِ الْوَسَاطَةِ : فَأَمَّا
الْهَجْرُ فَأَبْلَغُهُ مَا قَرُبَتْ مَعَانِيهِ وَسَهْلَ حِفْظُهُ وَأَسْرَعَ عُلوْقُهُ
بِالْقَلْبِ وَلُصُوْقُهُ بِالنَّفْسِ فَأَمَّا الْقَذْفُ وَالْفُحْشُ فَبَابٌ مُخَضٌّ وَأَيْسَ
لِلشَّاعِرِ فِيهِ إِلَّا إِقَامَةُ الْوِزْنِ . وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ مَا قَالَهُ صَاحِبُ
الْوَسَاطَةِ وَحُسْنِ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ إِنْجَابُ الْخُذَّاقِ مِنَ الْعُلَمَاءِ
وَفُرْسَانِ الْكَلَامِ يَقُولُ زُهَيْرٌ فِي تَشْكُكِهِ وَتَهْزِيلِهِ وَتَجَاهُلِهِ فِيمَا
يَعْلَمُ :

وَمَا أَذْرِي وَسَوْفَ إِخَالُ أَذْرِي أَقَوْمُ آلِ حِضْنٍ أَمْ نِسَاءُ
فَإِنَّ هَذَا عِنْدَهُمْ مِنْ أَشَدِّ الْهَيْجَاءِ وَأَمْضِهِ . وَلَمَّا قَدِمَ النَّابِغَةُ بَعْدَ
وَقْعَةِ حُصَا سَأَلَ بَنِي ذُبْيَانَ مَا قُلْتُمْ لِعَامِرِ بْنِ الطُّفَيْلِ وَمَا قَالَ

لَكُمْ . فَأَنْشَدُوهُ . فَقَالَ : أَفَحَشْتُمْ عَلَى الرَّجُلِ وَهُوَ شَرِيفٌ لَا يُقَالُ
لَهُ مِثْلُ هَذَا وَلَكِنِّي سَأَقُولُ ثُمَّ قَالَ :

فَإِنْ يَكُ عَامِرٌ قَدْ قَالَ جَهْلًا فَإِنَّ مَظِنَّةَ الْجَهْلِ الشَّبَابُ (١)

فَلَمَّا بَلَغَ عَامِرًا قَوْلُ النَّابِغَةِ شَقَّ عَلَيْهِ وَقَالَ جَعَلَنِي الْقَوْمُ رَيْدِيًا
وَجَعَلَنِي النَّابِغَةُ سَفِيهَا جَاهِلًا وَتَهَكَّمَ بِـي . وَرَوِيَّ أَنَّ شَاعِرًا مَدَحَ
الْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ فَأَجْزَلَ عَطِيَّتَهُ فَلِيَمَ عَلَى ذَلِكَ فَقَالَ : أَتَرَوْنِي خِفْتُ
أَنْ يَقُولَ : لَسْتُ ابْنَ فَاطِمَةَ وَلَا ابْنَ عَلِيٍّ . وَلَكِنْ خِفْتُ أَنْ يَقُولَ :
لَسْتُ كَالرَّسُولِ وَلَسْتُ كَعَلِيٍّ . فَيَصْدُقُ وَيُحْمَلُ عَنْهُ وَيَبْقَى مُحَمَّدًا فِي
الْكِتَابِ مُحْفُوظًا عَلَى السِّنَةِ الرُّوَاةِ . فَقَالَ الشَّاعِرُ : أَنْتَ وَاللَّهِ أَعْلَمُ
مِثْلِي بِالْمَدْحِ . وَقَدْ وَقَعَ الْحَسَنُ بْنُ زَيْدٍ بِبَعْضِ مَا قَالَ فِيهِ أَبُو
عَاصِمٍ مُحَمَّدُ بْنُ حَمْزَةَ الْأَسْلَبِيُّ الْمَدِينِيُّ :

لَهُ حَقٌّ وَأَنْسَ عَلَيْهِ حَقٌّ وَمَهْمًا قَالَ فَأَلْحَسَ الْجَبِيلُ
وَجَمِيعُ الشُّعْرَاءِ يَرُونَ قَصْرَ الْهَجَاءِ أَجُودَ وَتَرَكَ الْفُحْشَ أَضُوبَ
الْأَجْرِيرِ فَإِنَّهُ قَالَ لِيْنِيهِ : إِذَا مَدَحْتُمْ فَلَا تُطِيلُوا وَإِذَا هَجَوْتُمْ
فَخَالِفُوا . وَأَنَا أَرَى التَّعْرِيزَ أَهْجَى مِنَ التَّضَرُّجِ لِإِسْعَاقِ الظَّنِّ فِي
التَّعْرِيزِ وَشِدَّةِ قَلْقِ النَّفْسِ بِهِ وَالْجُثِّ عَنْ مَعْرِفَتِهِ وَطَلَبِ حَقِيقَتِهِ
فَإِذَا كَانَ الْهَجْوُ تَضَرُّجًا أَحَاطَتْ بِهِ النَّفْسُ عِلْمًا وَقَلَّتْهُ يَقِينًا فِي أَوَّلِ
وَهْلَةٍ وَكَانَ كُلُّ يَوْمٍ فِي نَقْصٍ لِلنِّسْيَانِ أَوْ مَلَلٍ يَعْزِضُ . وَهَذَا الْمَذْهَبُ
الصَّحِيحُ عَلَى أَنْ يَكُونَ الْمَهْجُوُّ ذَا قَدَرٍ فِي نَفْسِهِ وَحَسَبِهِ . فَأَمَّا

(١) انظر تنبيه هذه القصيدة في ترجمة النابغة من كتاب شعراء النصارية

إِنْ كَانَ مِمَّنْ لَا يُوقِظُهُ التَّلْوِيجُ وَلَا يُؤْلِمُهُ إِلَّا التَّضَرُّجُ فَذَلِكَ .
وَلِهَذِهِ الْعِلَّةِ اخْتَلَفَ هِجَاءُ أَبِي نُوَّاسٍ وَكَذَلِكَ هِجَاءُ أَبِي الطَّيِّبِ فِيهِ
اِخْتِلَافٌ لِاخْتِلَافِ مَرَاتِبِ الْمُتَهَجِّجِينَ فَمَنْ التَّفْضِيلِ فِي الْهِجَاءِ قَوْلُ
رَبِيعَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الرَّقِّي :

لَشَتَّانَ مَا بَيْنَ الْيَزِيدَيْنِ فِي الدَّيِّ فَهَمْ أَلْفَتِي الْقَيْدِي اِتْلَافُ مَا لِي
يَزِيدُ سُلَيْمٌ وَالْأَعَزُّ بْنُ حَاتِمٍ وَلَكِنِّي فَضَّلْتُ أَهْلَ الْمَكَارِمِ
وَمَنْ إِلَّا خِصَارٌ وَإِلَّا سِتْحَافٌ قَوْلُ زِيَادٍ الْأَنْجَمِ :

قُمْ صَاحِرًا يَا شَيْخَ جُورٍ فَإِنَّمَا يُقَالُ لَشَيْخِ الصِّدْقِ قُمْ غَيْرَ صَاحِرٍ
فَمَنْ أَنْتُمْ إِنَّا نَسِيْنَا مَنْ أَنْتُمْ وَرِيحُكُمْ مِنْ آيِ رِيحِ الْأَعَاصِرِ
أَنْتُمْ أَوْلَى جِئْتُمْ مَعَ الرِّيحِ وَالْأَدْبَا فُطَارَ وَهَذَا شَيْخُكُمْ غَيْرُ طَائِرٍ
قَضَى اللَّهُ خَلْقَ النَّاسِ ثُمَّ خَلَقْتُمْ بَقِيَّةَ خَلْقِ اللَّهِ آخِرَ آخِرٍ
فَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَّا بَيْنَ كَانَ قَبْلَكُمْ

وَلَمْ تُذَكِّرُوا إِلَّا مَدَقَّ الْحَوَافِرِ

أَخَذَ مِنْهُ الطَّرِمَاحُ هَذَا الْمَعْنَى فَقَالَ :

وَمَا خُلِقْتَ تَيْمٌ وَعَبْدُ مَنَايَا وَضَبَةٌ إِلَّا بَعْدَ خَلْقِ الْقَبَائِلِ

وَمِنْ الْإِخْتِقَارِ قَوْلُ جَرِيرٍ فِي تَيْمٍ :

وَيُقْضَى الْأَمْرُ حِينَ تَغِيبُ تَيْمٌ وَلَا يُسْتَأْذَنُونَ وَهُمْ سُهُودُ

وَإِنَّكَ لَوْ رَأَيْتَ عَيْدَ تَيْمٍ وَتَيْمًا قُلْتَ أَيُّهَا الْعَيْدُ

وَمِنْ مَلِيحِ التَّهَكُّمِ قَوْلُ أَبِي هَفَّانَ :

سُلَيْمَانُ مَبْنُونُ النَّقِيبَةِ حَازِمٌ وَالْكِنَّةُ وَقَفٌ عَلَيْهِ الْهَزَائِمُ

وَفِيهِ يَقُولُ ابْنُ الرُّومِيِّ :

قَرْنُ سُلَيْمَانَ قَدْ أَضَرَّ بِهِ شَوْقٌ إِلَى وَجْهِهِ سَيُثْلِفُهُ

كَمْ يَبْعِدُ الْقَرْنَ بِاللِّقَاءِ وَكَمْ يَكْذِبُ فِي وَعْدِهِ وَيُخْلِفُهُ

أَخَذَ مَعْنَى الْبَيْتِ الْأَخِيرِ مِنْ قَوْلِ الْخَارِجِيِّ وَقَدْ قَالَ لَهُ الْمَنْصُورُ : أَيُّ أَصْحَابِي كَانَ أَشَدَّ إِقْدَامًا فِي مَبَارَزَتِكُمْ فَقَالَ : مَا أَعْرِفُ وَجُوهَهُمْ وَلَكِنْ أَعْرِفُ أَقْفَاءَهُمْ . وَأَجُودُ فِي الْهَجَاءِ أَنْ يَسْلُبَ الْإِنْسَانُ الْفَضَائِلَ النَّفْسِيَّةَ وَمَا تَرَكَّبَ مِنْ بَعْضِهَا . فَأَمَّا مَا كَانَ فِي الْخِلْقَةِ الْجِسْمَانِيَّةِ مِنَ الْعَلَايِبِ فَإِنَّ الْهَجَاءَ بِهِ دُونَ مَا تَقَدَّمَ وَقَدَامَةً لَا يَرَاهُ هَجْوًا أَلْسَنَةً وَكَذَلِكَ مَا جَاءَ مِنَ الْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ مِنَ النُّقْصِ وَالْفَسَادِ لَا يَكُونُ عَيْبًا وَلَا يُعَدُّ الْهَجَاءُ بِهِ صَوَابًا وَكَانَ النَّابِغَةُ الْجَعْدِيُّ يَقُولُ إِنِّي وَأَوْسًا لَنَبْتَدِرُ بَابًا مِنَ الْهَجَاءِ فَمَنْ غَلَبَ مَا إِلَيْهِ تَلَبَّ صَاحِبُهُ فَلَمَّا قَالَ أَوْسُ بْنُ مَفْرَاءَ :

لَعَمْرُكَ مَا تُبْلَى مَرَايِلُ عَائِرٍ مِنْ اللُّؤْمِ مَا دَامَتْ عَلَيْهَا جُلُودُهَا

قَالَ النَّابِغَةُ : هَذَا الْبَيْتُ الَّذِي كُنَّا نَبْتَدِرُهُ . وَالَّذِي أَرَاهُ عَلَى

كُلِّ حَالٍ أَنَّ أَشَدَّ الْهَجَاءِ مَا أَصَابَ الْغَرَضَ وَوَقَعَ عَلَى النُّكْتَةِ وَهُوَ

كَمَا قَالَ خَلْفُ الْأَحْمَرِ بَعِينُهُ



البحث العاشر

في الاعتذار

(من الكتاب نفسه)

وَيَنْبَغِي الشَّاعِرُ أَنْ لَا يَقُولَ شَيْئًا يَحْتَاجُ أَنْ يَعْتَذِرَ مِنْهُ فَإِنْ
أَضْطَرَّهَ الْقُدَارُ إِلَى ذَلِكَ وَأَوْقَعَهُ فِيهِ الْقَضَاءُ فَلْيَذْهَبْ مَذْهَبًا طَيِّفًا
وَلْيَقْصِدْ مَقْصِدًا عَجِيبًا وَلْيَعْرِفْ كَيْفَ يَأْخُذُ بِقَلْبِ الْمُعْتَذِرِ إِلَيْهِ مِنْ
بَابِ الْإِخْتِجَاجِ وَإِقَامَةِ الدَّلِيلِ لَا سِيَّمَا مَعَ الْمُلُوكِ وَذَوِي السُّلْطَانِ
وَحَقُّهُ أَنْ يُلَطِّفَ بُرْهَانَهُ مُدَرِّجًا فِي التَّضَرُّعِ وَالْذُّخُولِ تَحْتَ عَفْوِ
الْمُلُوكِ وَإِعَادَةِ النَّظَرِ فِي الْكَشْفِ عَنْ كَذِبِ الْمَاقِلِ وَالْحَايِدِ قَامًا
مَعَ الْإِخْوَانِ قِتْلِكَ طَرِيقَةً أُخْرَى وَقَدْ أَحْسَنَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الْأَصْبَهَانِيُّ
حَيْثُ يَقُولُ :

وَقَدْ أَسَاتُ فَبِالْتُّعْسَى الَّتِي سَلَفَتْ إِلَّا مَنَنْتَ بِعَفْوٍ مِمَّا لَهُ سَبَبُ
وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمُهْدِيِّ لِلْمَأْمُونِ مِنْ آيَاتِ يَعْتَذِرُ إِلَيْهِ :
اللَّهُ يَعْلَمُ مَا أَقُولُ فَإِنَّهَا جَهْدُ الْإِلَیَّةِ مِنْ مُقَرَّرِ خَاضِعِ
مَا إِنْ عَصَيْتُكَ وَالْعَوَاةُ تُمَدُّنِي أَسْبَابُهَا إِلَّا بِذِيَّةِ طَائِعِ
وَقَدْ سَلَكَ أَبُو عَلِيٍّ الْبَصِيرُ مَذْهَبَ الْحُجَّةِ وَإِقَامَةَ الدَّلِيلِ بَعْدَ
أَرْتِكَابِ الْجُنَايَةِ فَقَالَ :

لَمْ أَجْنِ ذَنْبًا فَإِنْ زَعَمْتَ بِأَنْ جَنَيْتُ ذَنْبًا فَقَعِيرُ مَعْتَبِدِ
نَحَوْتُ هَذَا النَّحْوَ فَقُلْتُ :

لَا يُبْعِدُ اللَّهُ أَبَا جَعْفَرٍ دَعَا بَتُّ عَلَى نَارِهَا
وَأِنْ تَأَذَّيْتُ فَيَارُبَّمَا تَأَذَّتِ الْعَيْنُ بِأَشْفَارِهَا
وَأَجَلُ مَا وَقَعَ فِي الْأَعْتَدَارِ مِنْ شَهُورَاتِ الْعَرَبِ قَصَائِدُ الْمَابِغَةِ
الثَّلَاثُ أَحَدَاهُنَّ «يَا دَارَ مَيَّةَ بِالْعَلْيَاءِ بِالسَّنَدِ» يَقُولُ فِيهَا :
فَلَا أَعْدُرُ الَّذِي مَسَّحَتْ كَفَّتُهُ وَهَاهُنَا عَلَى الْأَنْصَابِ مِنْ جَسَدِ
وَالْمُؤْمِنِ الْعَائِدَاتِ الطَّيْرِ تَنْسِيحُهَا رُكْبَانُ مَكَّةَ بَيْنَ الْغَيْلِ وَالسَّعْدِ
مَا قَاتَ مِنْ سَيِّءٍ مِمَّا أَتَيْتَ بِهِ إِذَا فَلَا رَفَعَتْ سَوِطِي إِلَى يَدِي
إِلَّا مَقَالَةً أَقْوَامٍ شَقِيتُ بِهَا كَمَا نَتِ مَقَاتِلَهُمْ قَرَعًا عَلَى الْكَيْدِ
أُنَبِّئُ أَنْ أَبَا قَاوُسَ أَوْعَدَنِي وَلَا قَرَارَ عَلَى زَائِرٍ مِنَ الْأَسَدِ
وَالثَّانِيَةُ (أَرْبَعًا جَدِيدًا مِنْ سَعَادَ تَحْنَبُ) يَقُولُ فِيهَا مُعْتَذِرًا
مِنْ مَدْحِ آلِ جَفَّةَ وَمُخْتَجًا بِإِحْسَانِهِمْ إِلَيْهِ :

مَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيَّةً وَلَيْسَ وَرَاءَ اللَّهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ
أَبْنٍ كُنْتُ قَدْ بَاغَتْ عَنِّي خِيَانَةً لِمَالِكِ الْوَائِي آغَشُ وَأَكْثَبُ
وَالْكَيْتِي كُنْتُ أَمْرًا لِي جَانِبُ مِنْ الْأَرْضِ فِيهِ مُسْتَرَادٌ وَمَذْهَبُ
مُلُوكٍ وَإِخْوَانُ إِذَا مَا أَتَيْتُهُمْ أَحْكَمُ فِي أَمْوَالِهِمْ وَأَقْرَبُ
كَفَعَلِكِ فِي قَوْمٍ أَرَاكَ أَصْطَفَيْتُهُمْ فَلَمْ تَرَهُمْ فِي سُكْرِ ذَلِكَ أَذْنُبُوا
فَلَا تَتْرُكْنِي بِالْوَعِيدِ كَمَا نَبِي إِلَى النَّاسِ مَطْلِي بِهِ الْقَارُ أَخْرَبُ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاكَ سُورَةَ تَرَى كُلَّ مَالِكٍ دُونَهَا يَتَذَبُّ بِذَبُ
يَا نَكَّ شَمْسُ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبُ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُونَهُنَّ كَوَاكِبُ
وَالثَّالِثَةُ (عَفَا ذُو حُسَى مِنْ فَرْنَا فَالْفَوَارِعُ) يَقُولُ فِيهَا تَعَدُّ

قَسَمَ قَدَمُهُ عَلَى عَادَتِهِ :

لَكَافَتَنِي دَنْبَ أَمْرِي وَتَرْكَتُهُ كَذِي الْعَرِّ يُكْوِي غَيْرُهُ وَهُوَ رَاتِعُ
وَإِنْ كُنْتُ لَا دُرَّ الصِّغْنِ عَنِّي مُكَذِّبُ

وَلَا حَلْفِي عَلَى السَّبَرَاءِ نَافِعُ
وَلَا أَنَا مَأْمُونٌ بِشَيْءٍ أَقْوَاهُ وَأَنْتَ بِأَمْرٍ لَا مَحَالَةَ وَاقِعُ
فَإِنَّكَ سَكَالِيلُ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ خِلْتَ أَنَّ الْمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ
وَقَدْ عَاقَ بِهَذَا أَلْفَنِي جَمَاعَةٌ مِنَ الشُّعْرَاءِ فَقَالَ سَلِمُ الْخَائِرُ
يَعْتَذِرُ إِلَى الْمُهْدِي :

إِنِّي آعُودُ بِخَيْرِ النَّاسِ كُلِّهِمْ وَأَنْتَ ذَاكَ لِمَا نَأْتِي وَتَحْتَبُ
وَأَنْتَ سَكَالِدَهْرٍ مَبْشُورًا حَبَانُهُ وَالْدَّهْرُ لَا مَلْحَأَ مِنْهُ وَلَا هَرَبُ
وَقَالَ عُمَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ :

وَأِنِّي وَإِنْ حَدَّثْتُ نَفْسِي بِأَنْتِي أَفْوَتُكَ إِنْ أَلَوَّاهُ مِنِّي لَعَارِبُ
وَأِلَى هَذِهِ النَّاحِيَةِ أَشَارَ أَبُو الطَّيِّبِ بِقَوْلِهِ :

وَلَكِنَّكَ الدُّنْيَا إِلَى حَبِيَّةٍ قَمَاعُكَ لِي إِلَّا إِلَيْكَ ذَهَابُ
غَيْرَ أَنَّهُ حَرَفَ الْكَلَامَ عَنْ مَوَاسِعِهِ وَأَخْتَارَ الْعُلَمَاءُ بِهَذَا الشَّانِ
قَوْلَ عَلِيِّ بْنِ جَبَلَةَ :

وَمَا لِأَمْرِي حَاقِلَةٌ عَنْكَ مَهْرَبُ وَلَوْ رَفَعْتُهُ فِي السَّمَاءِ لَطَالِعُ
بَلَى هَارِبٌ لَا يَهْتَدِي لِمَكَانِهِ ظِلَامٌ وَلَا ضَوْءٌ مِنَ الْفَجْرِ سَاطِعُ
لِأَنَّهُ قَدْ أَجَادَ مَعَ مُعَارَضَتِهِ النَّابِغَةَ وَزَادَ عَلَيْهِ ذِكْرَ الصُّبْحِ
وَأَظْنُهُ أَقْتَدَى بِقَوْلِ الْأَنْصَارِيِّ فِي بَيْتِ النَّابِغَةِ : لَيْسَ اللَّيْلُ أَوَّلِي

بِهَذَا الْمَثَلِ مِنَ النَّهَارِ . وَفِي هَذَا الْأَعْتَرَا ضِي كَلَامٌ يَأْتِي فِي مَوْضِعِهِ
مِنْ هَذَا الْكِتَابِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . وَأَفْضَلُ مِنْ هَذَا كُلِّهِ قَوْلُ
الْقُرْآنِ : إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
فَأَنْفُذُوا . وَوَجَدَ الْفَضْلُ بْنُ يُحْيَى عَلَى أَبِي الْهَوَلِ الْحَمِيرِي قَدْ خَلَّ
إِلَيْهِ فَأَنْشَدَهُ :

كَسَابِي وَعِيدُ الْفَضْلِ ثَوْبًا مِنْ أَلْبَلَى

وَإِعَاذُهُ عِنْدِي الَّذِي مَأَلَهُ رَدُّ
فَجَدُّ بِالرِّدَى لَا أَبْتَغِي مِنْكَ غَيْرَهُ وَرَأَيْكَ فِيمَا كُنْتَ عَوَّدْتَنِي بَعْدُ
فَقَالَ لَهُ الْفَضْلُ عَلَى مَذْهَبِ الْكِتَابِ فِي تَحْرِيرِ الْحُطَابِ : لَا
أَحْتَمِلُ وَاللَّهِ قَوْلَكَ (وَرَأَيْكَ فِيمَا كُنْتَ عَوَّدْتَنِي بَعْدُ) فَقَالَ أَبُو
الْهَوَلِ : لَا تَنْظُرْ إِلَى قِصْرِ بَاعِي وَقِلَّةِ تَمْيِيزِي وَأَفْعَلْ لِي مَا أَنْتَ
أَهْلُهُ . فَأَمَرَ لَهُ بِمَالٍ جَسِيمٍ وَرَضِيَ عَنْهُ وَقَرَّبَهُ

وَفِي اسْتِثْقَاءِ الْأَعْدَارِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ أَحَدُهَا أَنْ يَكُونَ مِنْ
الْخَوْرِ كَمَا أَنَّكَ مَحَوْتَ آثَارَ الْمَوْجِدَةِ مِنْ قَوْلِهِمْ أَعْتَذَرْتُ الْمَنَازِلُ إِذَا
دَرَسْتَ وَأَنْشَدَ قَوْلَ ابْنِ خُجَرٍ :
أَوْ كُنْتَ تَعْرِفُ آيَاتِي فَقَدْ جَعَلْتَ

أَطْلَالُ الْعَيْكِ بِالْوَدَّكَ . مَشْدُرُ
وَالثَّانِي أَنْ يَكُونَ مِنَ الْإِنْقِطَاعِ كَمَا أَنَّكَ قَطَعْتَ الرَّجُلَ عَمَّا أَمْسَكَ
فِي قَلْبِهِ مِنَ الْمَوْجِدَةِ وَيَقُولُونَ أَعْتَذَرْتُ أَلْمِيَاهُ إِذَا أَنْقَطَعَتْ :
وَأَقُولُ الثَّلَاثُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْحَجْرِ وَالْمَنْعِ . قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ

يُقَالُ عَذَرْتُ الدَّابَّةَ أَيِ جَعَلْتُ لَهَا عِذَارًا يَخْجُزُهَا مِنَ الشِّرَافِ
فَمَعْنَى اعْتَذَرَ الرَّجُلُ اخْتَجَزَ وَعَذَرْتُهُ جَعَلْتُ لَهُ حَاجِزًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ
الْعُقُوبَةِ أَوْ الْعَثَبِ وَمِنْهُ تَعَذَّرَ الْأَمْرُ وَاخْتَجَزَ أَنْ يُقْضَى وَمِنْهُ جَارِيَةٌ
عِذْرَاءٌ

البحث الحادي عشر

في سيورة الشعر والحظوة في المدح

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

كَانَ الْأَعَشَى أَسِيرَ النَّاسِ سِتْرًا وَأَعْظَمَهُمْ فِيهِ حَظًّا حَتَّى كَادَ
يُنْسِي أَصْحَابَهُ الْمَذْكُورِينَ مَعَهُ وَقَبْلَهُ زُهَيْرٌ وَالْدَّابِغَةُ وَأَمْرُوهُ الْقَيْسِ
وَكَانَ جَرِيرٌ بَاقِعَةً سَائِرَ الشَّعْرِ مَظْفَرًا. قَالَ الْأَخْطَلُ الْمَفْرُودَقُ وَأَنَا
وَاللَّهِ أَشَعْرُ مِنْ جَرِيرٍ غَيْرَ أَنَّهُ رُزِقَ مِنْ سَيُورَةِ الشَّعْرِ مَا لَمْ يُرْزَقْهُ
وَقَدْ قُلْتُ بَيِّنًا لَا أَحْسَبُ أَحَدًا قَالَ أَنَّهُمَا مِنْهُ

وَأَيْسَ مِنَ الْعَرَبِ قَبِيلَةٌ إِلَّا وَقَدْ نِيلَ مِنْهَا وَعُدَّتْ وَهَجِيَتْ فَحُطَّتْ
الشَّعْرُ مِنْهُمْ بَعْضًا بِمُوَافَقَةِ الْحَقِيقَةِ وَمَصَى صَفْحًا عَلَى الْآخِرِينَ لَمَّا لَمْ
يُؤَافِقِ الْحَقِيقَةَ وَلَا صَادَفَ مَوْضِعَ الرِّيَّةِ. فَمِنْ الْدِينِ لَمْ يُنْحَكْ فِيهِمْ هِجَاءُ
إِلَّا قَلِيلًا عَلَى كَثْرَةِ مَا قِيلَ فِيهِمْ تَقِيمُ بْنُ مُرَّةَ وَبَكْرُ بْنُ وَائِلٍ
وَأَسَدُ بْنُ خَزِيمَةَ وَنُظْرَاوُهُمْ مِنْ قَبَائِلِ الْيَمَنِ. فَأَمَّا مَنْ شَقُوا بِالْهَجَاءِ
وَمَزَّقُوا كُلَّ مُمَزَّقٍ عَلَى تَقَدُّمِهِمْ فِي الشُّجَاعَةِ وَالْفُضْلِ أَحْيَاءُ مِنْ قَيْسِ
أَحْوَعِيٍّ وَبَاهِلَةَ بْنِ أَحْصَرِ بْنِ سَعْدِ بْنِ قَيْسِ بْنِ غِيلَانَ وَأَسْمُ غَنِيٍّ

عَمْرُو وَكَانُوا وَآلِي عَامِرِ بْنِ صَعَصَعَةَ يَحْيَاوْنَ عَلَيْهِمُ الدِّيَاتِ وَالذَّوَابِ
وَتَحْوِ مُحَارِبِ بْنِ خُضْفَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ غِيلَانَ وَجَسْرِ بْنِ مُحَارِبِ
وَمِنْ وَائِدِ طَاهِجَةَ بْنِ إِلْيَاسِ بْنِ مُضَرَ تَيْمٍ وَعُكْلُ ابْنَا عَبْدِ مَنَاةَ
وَقَعَ عَلَيْهِمُ السَّبُّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَانْتَهَتْ الْعَرَبُ بِهِمْ وَأَنْطَبَعَ الْعِجَاءُ
فِيهِمْ وَعَدِيُّ بْنُ عَبْدِ مَنَاةَ كَانُوا قَطِينًا لِحَاجِبِ بْنِ رَدَّارَةَ وَآرَادَ أَنْ
يَسْتَمْلِكَهُمْ مَلِكُ رِقٍ بِسِجْلٍ مِنْ قَبْلِ الْنَذِيرِ وَالْحِطَّاتِ وَهُمْ وَائِدُ
الْحَارِثِ بْنِ عَمْرُو بْنِ تَيْمٍ وَسَبَى الْحِطَّاطُ لِعِظَمِ بَطْنِهِ شَبْهَهُ بِالْحِجَلِ
الْحِطَّاطِ وَهُوَ الَّذِي أَنْتَفَخَ بَطْنُهُ مِنْ كَلَابِ يَسْتَوِلُهُ . فَأَمَّا السَّائِلُ فَقَدْ
قَالَ فِيهِمْ أَبُو زَيْيَادٍ الْكِلَابِيُّ : كِرَامٌ مِنْ كِرَامِ صَعَصَعَةَ لَمْ يُخَالَفُوا فِي
أَمْرِ وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي صَغَارٍ وَإِنَّمَا كَلِمَةُ عَامِرِ بْنِ الطَّفِيلِ هِيَ الَّتِي
شَاءَتْهُمْ يُرِيدُ قَوْلُهُ : أَغْدَةُ كَعْدَةِ الْبَعِيرِ وَمَوْتًا فِي تَيْتِ سَلُولِيَّةِ .
قُلْتُ أَمَّا عَامِرُ فَقَدْ قَالَ هَذِهِ الْكَلِمَةُ حِينَ دَعَا عَلَيْهِ الرَّسُولُ فَمَا
يَضَعُ بِقَوْلِ السَّمَوَالِ بْنِ عَادِيَاءَ :

وَأَنَا لِقَوْمٍ لَا تَرَى الْقَتْلَ سَبَّةً إِذَا مَا رَأَتْهُ عَامِرٌ وَسَلُولُ

وَالسَّمَوَالُ فِي زَمَانِ أَمْرِ الْقَيْسِ وَبَيْنَ أَمْرِ الْقَيْسِ
وَمَبْعَثِ الرَّسُولِ مِئَةً وَآرَبَعٍ وَخَمْسُونَ سَنَةً . قَالَ الْحَاجِظُ لَمْ يُمْدَحْ
قَبِيلُهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ قُرَيْشٍ كَمَا مَدَحَتْ مَخْزُومٌ . قَالَ وَكَانَ عَبْدُ
الْعَزِيزِ بْنُ مَرْوَانَ أَخْطَا فِي الشَّعْرِ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ خُلَفَائِهِمْ . وَمَا
أَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ نِعْمَةً بَعْدَ وَلَايَةِ اللَّهِ أَعْظَمَ مِنْ أَنْ يَكُونَ
الرَّجُلُ مُمَدِّحًا . قُلْتُ أَنَا : أَمَّا هَذِهِ النِّعْمَةُ فَقَدْ أَحَلَّهَا اللَّهُ مُضَاعَفَةً

عِنْدَ السَّيِّدِ أَبِي الْحَسَنِ وَقَرَنَهَا مِنْهُ بِالْإِسْتِحْقَاقِ فَقَرَّتْ مَقَرَّهَا
وَرَزَلَتْ مَنَزِلَهَا الْخُتَارَ لَهَا . وَأَحْيَا اللَّهُ بِهِ لِبَنِي شَيْبَانَ حَمْدًا لَمْ
يَشْبَهُ ذَمٌّ وَجُودٌ لَمْ يُعْقِبْهُ نَدَمٌ مِمَّا زَادَ عَلَى يَزِيدَ وَلَمْ يَدَعْ لِمَنْ مَعْنَى
فِي الْجُودِ . وَقَالَ غَيْرُهُ : كَانَ عَمْرُو بْنُ الْعَلَاءِ تَمْدُوحًا وَفِيهِ يَقُولُ
بِشَّارِ بْنِ بُرْدٍ :

قُلْ لِلْخَلِيفَةِ إِنْ جِئْتَهُ نَصِيحًا وَلَا خَيْرَ فِي أَمْتِهِمْ
إِذَا أَيْقَظَتْكَ حُرُوبُ الْعِدَا فَنَبَهُ لَهَا عُمَرَا ثُمَّ ثُمَّ
فَتَى لَا يَبِيتُ عَلَى دِمْنَةٍ وَلَا يَشْرَبُ الْمَاءَ إِلَّا بِدَمٍ
وَقَالَ أَبُو الْعَتَاهِيَّةِ :

إِنَّ الْمَطَايَا تَشْكِيكَ لِأَنَّهَا قَطَعَتْ إِلَيْكَ سَبَابًا وَرِيَالًا
قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : لَمْ يَدَخْ أَحَدٌ قَطُّ بَنِي كَلْبٍ غَيْرُ
الْخَطِيئَةِ :

لَعَمْرُكَ مَا الْحُجَّارُ فِي كَلْبٍ يَمْقُصُ فِي الْجَوَارِ وَلَا مُضَاعِرِ
وَكَانَتْ قَيْسُ تَفْتَخِرُ عَلَى عِمِّمٍ لِأَنَّ شُعْرَاءَ عِمِّمٍ تَضْرِبُ الْمَثَلَ
بِقَبَائِلِ قَيْسٍ وَرِحَالِهَا . فَأَقَامَتْ عِمِّمُ دَهْرًا لَا تَرْفَعُ رُؤُوسَهَا حَتَّى
قَالَ لَيْدُ بْنُ رَبِيعَةَ :

أَبْنَى كَلْبٍ كَيْفَ تُنْفَى جَعْفَرُ وَبَنُو ضُبَيْعَةَ حَاضِرُوا الْأَجَابِ
قَتَلُوا ابْنَ عُرْوَةَ ثُمَّ لَطَّوْا دُونَهُ حَتَّى يُحَاكِمَهُمْ إِلَى جَوَابِ
يَرْعَوْنَ مُنْخَرَقَ اللَّدِيدِ كَأَنَّهُمْ فِي الْعِزِّ أَسْرَةٌ حَاجِبٍ وَشَهَابِ
مُتَظَاهِرٌ حَاقَ الْحَدِيدِ عَلَيْهِمْ كَبَنِي زُرَّارَةَ أَوْ بَنِي عَتَابِ

قَوْمٌ لَهُمْ عَرَفَتْ مَعَدَّةُ فَضْلِهِمْ وَالْفَضْلُ يَعْرِفُهُ ذَوُو الْأَلْبَابِ
وَقَالَ ابْنُ مَنظُورٍ بْنُ سَيَّارٍ الْفَزَارِيُّ :

فَجَاؤُوا بِجَمْعٍ مُجْزِلٍ كَانَتْهُمْ بَنُو دَارِمٍ إِذَا كَانَ فِي النَّاسِ دَارِمٌ
فَتَبَكَّلَتْ تَقِيمٌ وَأَفْتَحَتْ لِمَكَانِ هَذَيْنِ الشَّاعِرَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ
قَدْرًا فِي قَيْسٍ فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ قَيْسًا أَخْطَى بِالْمَذْحِ مِنْ تَقِيمٍ .
وَالْأَوَايِدُ مِنَ الشِّعْرِ الْآيَاتُ السَّائِرَةُ كَالْآيَاتِ الْفَالِ وَأَكْثَرُ مَا
تُسْتَعْمَلُ الْأَوَايِدُ فِي الْهَجَاءِ يُقَالُ : رَمَاهُ بِآيِدَةٍ فَتَكُونُ الْآيِدَةُ
هَهُنَا الدَّاهِيَةُ . قَالَ الْجَاهِظُ : الْأَوَايِدُ الدَّوَاهِي وَمِنْهُ أَوَايِدُ الشِّعْرِ
حَكَاهُ عَنْ أَبِي زَيْدٍ وَحَكَى : الْأَوَايِدُ الْإِبِلُ الَّتِي تَتَوَحَّشُ فَلَا
يُقَدَّرُ عَلَيْهَا إِلَّا بِالْعَقْرِ . وَالْأَوَايِدُ الطَّيْرُ الَّتِي تُتَقِيمُ صَيْفًا وَشِتَاءً .
وَالْأَوَايِدُ الْوَحْشُ فَإِذَا حُمِلَتْ آيَاتُ الشِّعْرِ عَلَى مَا قَالَ الْجَاهِظُ
كَانَتْ الْمَعَانِي السَّائِرَةُ كَالْإِبِلِ الشَّارِدَةِ الْمُتَوَحَّشَةِ وَإِنْ شِئْتَ
الْمَقِيَمَةَ عَلَى مَنْ قِيلَتْ بِهِ لَا تَفَارِقُهُ كَقَامَةِ الطَّيْرِ الَّتِي أَيْسَتْ
بِقَوَاطِعِ . وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ فِي بَعْضِهَا مِنَ الشُّعْرَاءِ وَامْتِنَاءِهَا عَلَيْهِمْ
كَالْوَحْشِ فِي نِفَارِهَا مِنَ النَّاسِ . وَأَمَّا الْخُحْدُودُ فِي الْكُتُبِ
بِالشِّعْرِ وَالْخُطُوةُ عِنْدَ الدُّوَلِ فَتَنْهَمُ مُسْلِمُ الْخَالِيسِ مَاتَ عَنْ مِائَةِ
أَلْفٍ دِينَارٍ وَلَمْ يَتْرُكْ وَارِثًا وَأَبُو الْعَتَاهِيَةِ كَمَنْعَ :

تَعَالَى اللَّهُ يَا مُسْلِمُ بْنُ عَمْرِو أَذَلَّ الْخُرْصُ أَغْنَاكَ الرِّحَالَ
وَكَانَ صَدِيقَهُ حِدًّا . فَقَالَ مُسْلِمٌ : وَيَلِي مِنْ هَذَا الرَّجُلِ جَمْعُ
الْقَطَايِرِ مِنَ الذَّهَبِ وَقَدْ نَسَبَنِي إِلَى مَا تَرَوْنَ مِنَ الْخُرْصِ . وَلَمْ

يَرَدُّ ذَلِكَ أَبُو الْعَتَاهِيَّةَ وَمَرْوَانَ بْنِ أَبِي حَفْصَةَ أُعْطِيَ مِائَةَ أَلْفِ
 دِينَارٍ مَرَّاتٍ عَدِيدَةً وَكَانَ لَا يُقَابِلُ إِلَّا بِالْكَثِيرِ وَهُوَ لَعْمَرِي مِنْ
 ذَوِي السُّوْتَاتِ وَالْمَعْرُوفِينَ فِي الْكُتُبِ وَالشَّعْرِ . وَكَانَ أَبُو نُوَّاسٍ
 مُحَظُوظًا لَا يُدْرَى لِمَا وَصَلَ إِلَيْهِ لِكِنِّهِ كَانَ مُتْلِفًا سَخَا وَكَانَ
 يَتَسَاجَلُ فِي الْإِنْفَاقِ هُوَ وَعَبَّاسُ بْنُ أَحْنَفَ . وَكَانَ الْبُخْتَرِيُّ مَلِيًّا
 قَدْ قَاصَ كُتُبُهُ مِنَ الشَّعْرِ . وَكَانَ يَرْكَبُ فِي مَوْكِبٍ مِنْ عِبِيدِهِ .
 وَأَمَّا أَبُو تَمَّامٍ فَمَا وَفَى حَقَّهُ مَعَ مَا صَارَ إِلَيْهِ مِنَ الْأَمْوَالِ لِأَنَّهُ تَبَذَّلَ
 وَجَابَ الْأَرْضَ وَكَذَلِكَ أَبُو الطَّيِّبِ

البحث الثاني عشر

في ما اشكل من المدح والهجاء

(من كتاب العمدة لابن رشيقي)

أَنشَدَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ النَّخْوِيُّ عَنْ أَبِي عَلِيٍّ
 الْحُسَيْنِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْأَمْدِيِّ لِرَجُلٍ مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ بْنِ سَعْدٍ بْنِ
 قَيْمٍ :

تَضِيفَنِي وَهَنَا فَقُلْتُ أَسَاقِي إِلَى الزَّادِ شَلَّتْ مِنْ يَدَيَّ الْأَصَابِعُ
 وَلَمْ تَلَقَ لِلسَّعْدِيِّ ضَيْفًا بِقَفْرَةٍ مِنْ الْأَرْضِ إِلَّا وَهُوَ غَرِيَابٌ جَائِعُ
 لَمْ يُرِدْ أَنَّهُ يَسْبِقُ ضَيْفَهُ إِلَى الزَّادِ فَيَكُونُ قَدْ هَجَا نَفْسَهُ
 اكْنَهَ وَصَفَ ذُبَابًا لَقِيَهُ لَيْلًا فَقَالَ : أَتَسْقِيْنِي أَنْتَ إِلَى الْأَكْلِ
 أَيُّ تَأْسُفٍ لِي شَلَّتْ إِذَا أَحَاقَبَنِي إِذَا لَمْ أَرْمِكَ فَأَقْتُلْكَ وَآكُلْ
 لَحْمَكَ . ثُمَّ قَالَ عَلَى الْمَثَلِ : لَمْ تَلَقَ لِلسَّعْدِيِّ يَعْنِي نَفْسَهُ ضَيْفًا فِي

قَفَرَةٌ يَعْنِي الذَّنْبَ إِلَّا هُوَ جَائِعٌ فَهُوَ لَا يُبْقِي عَلَيَّ لِأَنِّي أَقْتُلُهُ قَبْلَ
أَنْ يَشْبَعَ مِنْ لَحْمِي . وَمِنْ أَنَاشِيدِهِمْ :

أَبُوكَ الَّذِي نُبِتْتُ يَحْبِسُ خَيْلَهُ غَدَاةَ الدَّيِّ حَتَّى يَخْفَ لَهَا الْبَقْلُ
قَالُوا إِذَا أَخَذَ مَطَرُ الصَّيْفِ الْأَرْضَ أَنْبَتَتْ بَقْلًا فِي أَصُولِ
بَقْلٍ قَدْ يَبِسَ فَذَلِكَ الْأَخْضَرُ هُوَ النَّشْرُ وَهُوَ الْغَيْرُ فَتَأْكُلُهُ
الْأَيْلُ وَيَأْخُذُهَا السَّهَامُ وَلَا سَهَامَ فِي الْخَيْلِ فَعَابَهُ بِالْجَهْلِ بِالْخَيْلِ .
قَالَ الْأَضْمَعِيُّ : هَذَا الْقَوْلُ خَطَأٌ بَلْ مَدَحَهُ بِمَعْرِفَةِ الْخَيْلِ لِأَنَّ
النَّشْرَ مُؤْذٍ يَكُلُّ مَا أَكَلَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ثُمَّ سَهَامٌ . وَقَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ
قُتَيْبَةَ فِي رِثَاءِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ وَذَكَرِ آلَ الرَّسُولِ :

أَوَانِكَ قَوْمٌ لَمْ يَشِيسُوا سُيُوفَهُمْ وَلَمْ تَكْثُرِ الْقَتْلَى بِهَا حِينَ سَأَتْ
قَالَ قَوْمٌ أَرَادَ لَمْ يُغِيدُوا سُيُوفَهُمْ إِلَّا تَعَدَّ كَثْرَةُ الْقَتْلَى بِهَا كَمَا
تَقُولُ لَمْ أَضْرِبَكَ وَلَمْ تَحْنِ عَلَيَّ إِلَّا بَعْدَ أَنْ جَنَيْتُ عَلَيْكَ . وَقَالَ
آخَرُونَ : أَرَادَ لَمْ يَسْلُوا سُيُوفَهُمْ إِلَّا وَكَثُرَتْ بِهَا الْقَتْلَى كَمَا
تَقُولُ : لَمْ أَلْقَكَ وَلَمْ أُحْسِنِ إِلَيْكَ أَيَّ إِلَّا وَقَدْ أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ
وَالْقَوْلَانِ مَعًا صَحِيحَانِ لِأَنَّهُ مِنْ الْأَضْدَادِ وَيُشَدُّونَ قَوْلَ الْآخَرِ :
هَجَمْنَا عَلَيْهِ وَهُوَ يَكْفُمُ كَلْبَهُ دَعِ الْكَلْبَ يَلْبِجْ إِنَّمَا الْكَلْبُ نَائِجٌ
وَيُرَوَّى :

دَفَعْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَخْنُقُ كَلْبَهُ إِلَّا كُلُّ كَلْبٍ لَا أَبَاكَ نَائِجٌ
وَأَنشَدَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ :

فَجَنَيْتَ الْجِيُوشَ أَبَا حَبِيبٍ وَجَادَ عَلَى مَحَلَّتِكَ السَّحَابُ

وَيُرَوَّى أَنَّ أَبَا زَيْنَبٍ قَالَ : إِنْ دَعَا لَهُ فَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يُعَافِيَ مِنْ
الْجُيُوشِ وَأَنْ يَجُودَهُ السَّحَابُ فَتُخَصِّبَ أَرْضَهُ وَإِنْ دَعَا عَلَيْهِ قَالَ :
لَا أَبْقَى لَكَ خَيْرًا تَطْمَعُ فِيهِ الْجُيُوشُ فَهِيَ تَتَجَنَّبُ دِيَارَكَ لِاعْلَمِهِمْ
بِقِلَّةِ الْخَيْرِ فِيهَا وَيَدْعُو عَلَى مَحَلَّتِهِ بِأَنْ تَذُرْسَهَا آلَاءُ طَارٍ . وَقَالَ
غَيْرُهُ : إِنَّمَا مَعْنَاهُ جَادَ عَلَى مَحَلَّتِكَ السَّحَابُ فَأَخْصَبَتْ وَلَا مَاشِيَةَ
لَكَ فِيهَا فَذَلِكَ أَشَدُّ لَهْمِكَ وَنَعْمِكَ وَيَكُونُ الْمَعْنَى حِينَئِذٍ كَقَوْلِ
الْآخِرِ :

وَحَيْفَاءُ أَلْقَى اللَّيْثُ فِيهَا ذِرَاعَهُ فَسَرَّتْ وَسَاءَتْ كُلُّ مَاشٍ وَهُضِرِمِ
أَيَّ سَرَّتْ كُلُّ ذِي مَاشِيَةٍ وَسَاءَتْ كُلُّ فَقِيرٍ . وَأَنشَدَ أَبُو عَبْدِ
اللَّهِ أَيْضًا :

إِنِّي عَلَى كُلِّ رَيْسَارٍ وَغَسْرَةٍ أَدْعُو حَيْثَا كَمَا تُدْعَى ابْنَةُ الْجَبَلِ
وَرَوَى الْمُبَرَّدُ حَنِيفًا يُرِيدُ أَنَّهُ يُجِيبُهُ بِسُرْعَةٍ كَالصَّادِرِ وَهُوَ ابْنَةُ
الْجَبَلِ وَقِيلَ ابْنَةُ الْجَبَلِ الْفُخْرَةُ الْمُتَحَدِّدَةُ مِنْ أَعْلَاهُ . وَزَدَ أَبُو
زَيْدٍ فِي رِوَايَتِهِ بَيْتًا وَهُوَ :

إِنْ تَدْعُهُ مُوهِنًا يَفْجَلُ بِجَانِبِهِ عَارِي الْأَشَاجِعِ يَسْعَى غَيْرُهُ شَتْلُ
فَهَذَا مَدْحٌ لَا تَحَالَةٌ وَمِنْهُمْ مَنْ حَمَلَهُ عَلَى قَوْلِ الْآخِرِ :
كَأَنِّي إِنْ دَعَوْتُ بَنِي حَنِيفٍ دَعَوْتُ بِدَعْوَتِي لَهُمُ الْجَبَّالَ
وَرَوَاهُ قَوْمُ بَنِي سُلَيْمٍ فَمَنْ مَدَحَ جَعَلَهُ مِثْلَ الْأَوَّلِ فِي سُرْعَةِ
الْإِجَابَةِ وَمَنْ ذَمَّ نَسَبَهُمْ إِلَى الثَّقَلِ عَنْ إِجَابَتِهِ مِثْلَ الْجَبَّالِ . وَمِنْ
الدُّعَاءِ الَّتِي يَدْخُلُ فِي هَذَا الْبَابِ :

تَفَرَّقَتْ غَنَمِي يَوْمًا فَقُلْتُ لَهَا يَا رَبِّ سَلِّطْ عَلَيْهَا الذِّئْبَ وَالضَّبْعَا
 قِيلَ إِنَّهُمَا إِذَا اجْتَمَعَا لَا يُؤْذِيَانِ وَشَغَلَ كُلُّ مِثْمَا الْآخَرَ
 وَإِذَا تَفَرَّقَا آذَيَا وَقِيلَ : إِنَّ مَعْنَاهُ فِي الدُّعَاءِ عَلَيْهَا : قَتَلَ الذِّئْبُ
 الْأَخْبَاءَ عَشًّا وَاسْكَلَتِ الضَّبْعُ الْأَمْوَاتَ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا بَقِيَّةٌ . وَمِنْ
 لَطِيفِ مَا وَقَعَ فِي هَذَا الْبَابِ قَوْلُ الدُّبِّيَّانِ :

يَصُدُّ الشَّاعِرُ الثَّنِيَّانِ عَنِّي صُدُودَ الْكَرِّ عَنْ قَرْمِ الْهَجَّانِ
 وَلَمْ يُرِدْ أَنَّهُ يَغْلِبُ الثَّنِيَّانَ وَلَا يَغْلِبُ الْفَحْلَ لَكِنْ أَرَادَ التَّضْعِيرَ
 بِالَّذِي هَاجَاهُ فَجَعَلَهُ ثَنِيَّانًا . وَقَالَ آخَرُ :

وَمَنْ يَفْخَرُ بِمِثْلِ أَبِي وَجَدِّي نَحْيِي قَبْلَ السَّوَابِقِ وَهُوَ ثَانٍ
 أَرَادَ وَهُوَ ثَانٍ مِنْ عَنَانِهِ لَا يُسْتَقِ مَشْمَلًا . وَمِمَّا يُدْحُ بِهِ وَيَذَمُّ
 قَوْمَهُ بَيِّضَةُ الْبَلَدِ فَمَنْ مَدَحَ أَرَادَ أَنَّهَا أَصْلُ الطَّائِرِ وَمَنْ ذَمَّ أَرَادَ أَنَّهَا
 لَا أَصْلَ لَهَا . قَالَتْ أُخْتُ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ وَدٍّ فِي عَلِيٍّ لَمَّا قَتَلَ أَخَاهَا :
 لَوْ كَانَ قَاتِلُ عَمْرِو غَيْرَ قَاتِلِي لَقَدْ بَكَيتُ عَلَيْهِ آخِرَ الْأَبَدِ
 لَكِنْ قَاتِلُهُ مَنْ لَا يُعَاكِبُ بِهِ مَنْ كَانَ يُدْعَى قَدِيمًا بَيِّضَةَ الْبَلَدِ
 فَهَذَا أَمَدَحُ كَمَا تَرَاهُ وَقَالَ الرَّاعِي السَّمِيرِيُّ يَهْجُو عَدِيَّ بْنَ
 الرَّقَاعِ الْعَامِلِيَّ :

لَوْ كُنْتَ مِنْ أَحَدٍ تُفْجِي هَجْوَتَكُمْ

يَا ابْنَ الرَّقَاعِ وَلَكِنْ لَنْتَ مِنْ أَحَدٍ

تَأْتِي قُضَاءُهُ أَنْ تَرْضَى بِكُمْ نَسَبًا

وَأَبْنَا نِزَارٍ فَأَنْتُمْ بَيِّضَةُ الْبَلَدِ

وَأَنشَدَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ :
وَرَأَيْتِي لَطْلَامًا لِأَشْعَثَ بَائِسٍ
عَرَارًا وَمَقْرُورًا يُرَى مَالُهُ الدَّهْرُ
وَجَارٍ قَرِيبٍ الدَّارِ أَوْ ذِي جِنَايَةٍ
غَرِيبٍ بَعِيدِ الدَّارِ لَيْسَ لَهُ وَقْرُ
يَظُنُّهُ السَّامِعُ هَجَا نَفْسَهُ بِظُلْمٍ هُوَ لَاءُ الَّذِينَ ذُكِرُوا إِنَّمَا
مَدَحَهَا بِأَنَّهُ يَظْلِمُ النَّاقَةَ فَيَخْرُ لِلضِّيَافَةِ فَصِيلَهَا مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ وَلَا دَاءٍ
هَذَا هُوَ الْأَشْعَثُ وَالْجَارُ وَأَشْبَاهُهُمَا

البحث الثالث عشر

في البديهة والارتجال

(من كتاب العمدة لاس رشيق)

الْبَدِيْهَةُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُؤَسُّومِينَ يَعْلَمُ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ فِي
بَلَدِنَا وَمِنْ أَهْلِ عَصْرِنَا هِيَ الْإِرْتِجَالُ وَلَيْسَتْ بِهِ لِأَنَّ الْبَدِيْهَةَ
فِيهَا الْفِكْرُ وَالتَّائِيْدُ . وَالْإِرْتِجَالُ مَا كَانَ أَنْهَارًا وَتَدَفُّقًا لَا يَتَوَقَّفُ
فِيهِ قَائِلُهُ كَأَذِي صَنَعَ الْفَرَزْدَقُ وَقَدْ دَفَعَ إِلَيْهِ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ
الْمَلِكِ أَسِيرًا مِنَ الرُّومِ لِيَقْتُلَهُ فَدَسَّ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَبْسٍ سَيْفًا
كَهُامًا فَنَسَا حِينَ ضَرَبَ بِهِ وَضَحِكَ سُلَيْمَانُ فَقَالَ الْفَرَزْدَقُ أَرْتِجَالًا
فِي مَقَالَةٍ يَغْتَذِرُ لِنَفْسِهِ وَيُعَيِّرُ بَنِي عَبْسٍ بِأَبْوَرِ سَيْفٍ وَرَقَاءِ بْنِ
زُهَيْرٍ عَنْ رَأْسِ خَالِدِ بْنِ جَعْفَرٍ :

فَإِنْ يَكُ سَيْفٌ خَانَ أَوْ نَبَا حَدُّهُ

إِتِّأَخِيرَ نَفْسٍ حَيْنَهَا غَيْرُ شَاهِدٍ

فَسَيْفٌ بَنِي عَنِسٍ وَقَدْ ضَرَبُوا بِهِ

نَبَا يَدَيَّ وَزَقَاءَ عَنْ رَأْسِ خَالِدٍ

كَذَلِكَ سُيُوفُ الْهِنْدِ تَتَّبِعُ ظَبَائِهَا

وَيَقْطَعْنَ أَحْيَانًا مَمَاطَ الْقَلَائِدِ

وَلَوْ شِئْتُ قَطَّ السَّيْفُ مَا تَبِنَ أَنْفِهِ

إِلَى عَرَقِ دُونَ الشَّرَاسِيفِ حَايِدٍ

ثُمَّ جَلَسَ وَهُوَ يَقُولُ:

وَلَا نَقْشُ الْأَمْرِى وَلَكِنْ نَفْكَهُمْ

إِذَا شَغَلَ الْأَعْنَاقَ حَمْلُ الْمَكَارِمِ

وَاعْظُمُ ارْتِجَالِ وَقَعَ قَصِيدَةُ الْحَارِثِ بْنِ حِلْزَةَ بَيْنَ يَدَيَّ عَمْرٍو

أَبْنِ هِنْدٍ فَإِنَّهُ يُقَالُ آتَى بِهَا كَالْحُطْبَةِ . وَكَذَلِكَ قَصِيدَةُ عُبَيْدِ بْنِ

الْأَبْرَصِ . وَقِيلَ : أَفْضَلُ الْبَدِيَّةِ بَدِيَّةُ أَمْنٍ وَرَدَّتْ فِي مَوْضِعٍ

خَوْفٍ فَمَا ظَنُّكَ بِالْأَرْتِجَالِ وَهُوَ أَسْرَعُ مِنَ الْبَدِيَّةِ . وَكَانَ أَبُو

نُؤَاسٍ قَوِيَّ الْبَدِيَّةِ وَالْأَرْتِجَالِ لَا يَكَاذُ يَنْقَطِعُ وَلَا يَرُوي إِلَّا فَلَتَةً .

وَيُرُوي أَنَّ الْحُطْبَةَ قَالَ لَهُ مَرَّةً يُمَارِحُهُ وَهُوَ بِالمَسْجِدِ الْجَامِعِ :

وَأَنْتَ غَيْرُ مُدَافِعٍ فِي الشَّعْرِ وَلَكِنَّكَ لَا تَحْطُبُ . فَقَامَ مِنْ قُورِهِ

يَقُولُ مُرْتَجِلًا :

مَتَحْتُكُمْ يَا أَهْلَ مِصْرَ نَصِيحَتِي أَلَا فَتَحْذُوا مِنْ نَاصِحِ بِنَصِيبِ

رَمَّاكُمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِحَيَّةٍ أَكُولٍ لِحَيَاتِ الْبِلَادِ شُرُوبٍ
فَإِنْ يَكُ بَاقِي سِحْرِ فِرْعَوْنَ فِيكُمْ فَإِنَّ عَصَا مُوسَى بِكَفِّ خَطِيبٍ
تُحْمُ التَّفَتِ إِلَيْهِ : وَاللَّهِ لَا يَأْتِي بِمِثْلِهَا خَطِيبٌ مُضَقَّعٌ فَكَيْفَ
رَأَيْتَ فَأَعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَخَلَفَ : إِنْ كُنْتُ إِلَّا مَارِحًا . وَسَمِعْتُ جَمَاعَةً
مِنَ الْعُلَمَاءِ يَقُولُونَ : كَانَ مُسْلِمٌ بَنُ الْوَلِيدِ نَظِيرَ أَبِي نُوَّاسٍ فِي
وُقُوفِهِ عِنْدَ قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِ فِي أَشْيَاءٍ إِلَّا أَنَّ أَبَا نُوَّاسٍ
قَهَرَ بِالْبَدِيَّةِ وَالْإِرْتِجَالِ مَعَ تَقَبُّضٍ كَانَ فِي مُسْلِمٍ وَإِظْهَارٍ تَوَقُّدٍ
وَكَانَ صَاحِبَ فِكْرَةٍ وَرَوِيَّةٍ لَا يَبْتَدِئُهُ وَلَا يَرْتَجِلُ فَكَانَ أَبُو
الْعَتَاهِيَةِ فِيمَا يُقَالُ أَقْدَرَ النَّاسِ عَلَى ارْتِجَالٍ وَبَدِيَّةٍ لِقُرْبٍ مَأْخُذِهِ
وَسُهُولَةٍ طَرِيقِهِ

وَأَجْتَمَعَ عِدَّةٌ مِنَ الشُّعْرَاءِ فِيهِمْ أَبُو نُوَّاسٍ فَشَرِبَ أَحَدُهُمْ مَاءً
ثُمَّ قَالَ أَجِزُونَا : بَرَدَ الْمَاءُ وَطَابَا . فَكَلَّمَهُمْ تَلَعَّمُ حَتَّى طَلَعَ أَبُو
الْعَتَاهِيَةِ . قَالَ : فِيمَ أَنْتُمْ فَأَنْشَدُوهُ . فَقَالَ وَمَا تَرَدَّدَ : حَبَّذَا الْمَاءُ
شَرَابًا . فَأَتَى بِالْقَسِيمِ شَيْهًا بِصَاحِبِهِ . وَذَلِكَ هُوَ الَّذِي أَعْوَزَ الْقَوْمَ لَا
وَرَنُ الْكَلَامِ . وَصَحْبَ رِفْقَةٍ فَسَمِعَ رُقَاءَ الدُّيُوكِ . فَقَالَ لِلرَّفِيقَةِ :
هَلْ رَأَيْتِ الْخُبْجَ لَحَا . قَالَ نَعَمْ . قَالَ : وَسَمِعْتَ الذِّكَّ صَاحَا .
قَالَ نَعَمْ . قَالَ :

إِنَّمَا بَكَى عَلَى أَلْمَةٍ تَرَى بِالْدُّنْيَا وَنَاحَا

فَاسْتَيْقَظَ رَفِيقُهُ لِلْكَلَامِ أَنَّهُ شِعْرٌ فَرَوَاهُ . فَمَا جَرَى هَذَا الْحَجَرِ
فَهُوَ الْإِرْتِجَالُ . وَأَمَّا الْبَدِيَّةُ فَبَعْدَ أَنْ يُفَكِّرَ الشَّاعِرُ يَسِيرًا وَيَكْتُبَ

سريعاً إن حضرت آله إلا أنه غير بطيء ولا مترأخ فإن أ طال
حتى يفرط أو قام من مجلسه لم يعد بديها

وقالوا اجتمع الشعراء بباب الرشيد فاذن لهم وقال : من
يخبر هذا القسيم وله حكمة قالوا : ما هو يا أمير المؤمنين قال :

أملك لله وحده . فقال الجواز : وليليفة بعده وللحجب إذا ما
حبيبته بات عنده . فقال : أحسنت وآتيت على ما في نفسي وأمر

له بعشرة آلاف درهم . وقد كان أبو الطيب كثير البديهة
والأرتجال إلا أن شعره فيها نازل عن طاقته جداً وهو لعنري في

سعة من الفند إذا كانت البديهة كما قال ابن الرومي فيها :

نار الروية نار جد نضجة وللبديهة نار ذات تلويج

وقد يفضلها قوم إعاها لكن عاجلها يضي مع الريح

وقال ابن المعتز :

والقول بعد الفكر يوم زلفه شتان بين روية وبديهة

ومن الشعراء من شعره في الروية والبديهة سواء وعند

الآن والخوف لقدرة وسكون جاشه وقوة غريزة كهديئة بن

الحشرم العذري وطرفة بن العبد الكري ومرة بن مخكان

السفدي إذ يقول وقد أمر مضعب بن الربير رجلاً من بني

أسد بقتله :

بني أسد إن تقتلوني تحاربوا تيمناً إذا الحرب العوان أسمع

وأنت وإن كانت إلي حبيبة بك على الدنيا إذا ما تولت

وَهَذَا شِعْرٌ لَوْ تَرَوَى فِيهِ صَاحِبُهُ حَوْلًا كَامِلًا عَلَى أَمْنٍ وَدَعَةٍ
وَقَرَطٍ شَهْوَةٍ أَوْ شِدَّةٍ حِمِيَّةٍ لَمَّا آتَى بِهِ فَوْقَ هَذَا وَكَذَلِكَ عَبْدُ
يَاغُوثَ بْنِ صَلَافَةَ إِذَا يَقُولُ فِي كَلِمَةٍ لَهُ طَوِيلَةٍ :

أَقُولُ وَقَدْ شَدُّوا إِسَارِي بِنِسْعَةٍ أَمْعَشَرَ تَيْمٍ أَطْلَقُوا مِنْ لِسَانِيَا
أَيَا رَاكِبًا إِمَّا عَرَضْتَ فَبِلَغْنٍ نُدَامَايَ مِنْ تَجْرَانِ أَنْ لَا تَلَاقِيَا
وَكَلُّوا شَدُّوا إِسَانَهُ خَوْفًا مِنْ الْهَجَاءِ فَعَاهَدَهُمْ فَأَطَاعُوهُ
لِيُنْجَحَ عَلَى نَفْسِهِ وَعَرَضَ عَلَيْهِمْ فِي فِدَائِهِ أَلْفَ نَاقَةٍ فَأَبَوْا إِلَّا
قَتْلَهُ فَقَالَ :

فَإِنْ تَقْتُلُونِي تَقْتُلُونِي بِحَيْرِكُمْ وَإِنْ تُطْلِقُونِي تَخْرُونِي بِمَالِيَا
وَهَذِهِ شَهَادَةٌ عَظِيمَةٌ وَنِدَّةٌ . وَمِنْ قَوْلِهِ طَارِقَةُ بْنُ الْعَبْدِ لَمَّا
أَيَقَنَ بِأَلَمُوتِ :

أَبَا مُنْذِرٍ كَانَتْ غُرُورًا صَحِيفَتِي
وَلَمْ أَعْطِكُمْ فِي الطَّلُوعِ إِلَيَّ وَلَا عِرْضِي
أَبَا مُنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فَأَسْتَبِقَ بَعْضَنَا

حَنَانِيكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ
وَأَيْنَ هُوَ لَاءٍ مِنْ عُيَيْدِ بْنِ الْأَبْرَصِ وَهُوَ شَيْخٌ مِنْ شَيْوخِ
الْحِنَاغَةِ وَمُقَدَّمٌ فِي السِّنِّ عَلَى الْجَمَاعَةِ إِذَا يَقُولُ لَهُ النُّعْمَانُ يَوْمَ
بُؤْسِهِ : أَنَشِدْنِي . قَالَ : حَالُ الْجَرِيضِ دُونَ الْقَرِيضِ . قَالَ : أَنَشِدْنِي
قَوْلَكَ أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبٌ . فَقَالَ :

أَقْفَرُ مِنْ أَهْلِهِ عُيَيْدُ فَالْيَوْمَ لَا يُبْدِي وَلَا يُعِيدُ

فَبَلَغْتَ بِهِ حَالُ الْجَزَعِ إِلَى مِثْلِ هَذَا عَلَى أَنَّ فِي طَرَقَةِ
بَعْضِ الضَّرَاعَةِ

حَكَى عَلِيُّ بْنُ يَحْيَى قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ الْمُتَوَكِّلِ إِذْ آتَاهُ رَسُولُ
إِسْحَاقَ بْنِ إسماعِيلَ فَقَامَ عَلِيُّ بْنُ أَجْلَهْمَ يَخْطُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَيَقُولُ:
أَهْلًا وَسَهْلًا بِكَ مِنْ رَسُولٍ جِئْتَ بِمَا يَشْفِي مِنَ الْغَلِيلِ
بِرَأْسِ إِسْحَاقَ بْنِ إسماعِيلِ

فَقَالَ الْمُتَوَكِّلُ الْقُطُوبُ هَذَا الْخَوْهَرُ لَا يَضِيعُ . وَأَشْتَقُّ الْبَدِيهَةَ
مِنْ بَدَهِ بِمَعْنَى بَدَأَ أَبْدَلْتُ الْهَمْزَةَ هَاءَ كَمَا أَبْدَلْتُ فِي أَشْيَاءَ
كَثِيرَةٍ إِقْرَبَهَا مِنْهَا . فَقَدْ قَالُوا: مَدَحَ وَمَدَهُ وَلَهُمْكَ تَفْعَلُ كَذَا
بِمَعْنَى لِأَنَّكَ وَمِثْلُ ذَلِكَ كَثِيرٌ . وَالْأَرْتِجَالُ مَاخُودٌ مِنَ السُّهولةِ
وَالْإِنْصِبَابِ . وَمِنْهُ قِيلَ: شَعَرَ الرَّجُلُ إِذَا كَانَ شَعْرُهُ سَبْطًا مُسْتَقِيمًا
غَيْرَ حَمْدٍ . وَقِيلَ هُوَ مِنَ أَرْتِجَالِ الْبُيُوتِ وَهُوَ أَنْ تَنْزِلَهَا بِرِجْلَيْكَ مِنْ
غَيْرِ حَبْلِ

البحث الرابع عشر

في آداب الشاعر

(من كتاب العسدة لابن رشيق)

وَمِنْ حِكْمِ الشَّاعِرِ أَنْ يَكُونَ حُلُوَ الشَّمَائِلِ حَسَنَ الْأَخْلَاقِ
طَلَقَ الْوَجْهَ بَعِيدَ الْغُورِ مَأْمُونِ الْجَانِبِ سَهْلَ النَّاحِيَةِ وَطِيءَ
الْأَكْنَافِ فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُجَنِّبُهُ إِلَى النَّاسِ وَيُزَيِّنُهُ فِي عُيُونِهِمْ وَيُقَرِّبُهُ

مِنْ قُلُوبِهِمْ وَلَسِيكُنْ مَعَ ذَلِكَ شَرِيفَ النَّفْسِ لَطِيفَ الْحَسِّ عَرُوفَ
 الْهَمَّةِ نَظِيفَ الْبَرَّةِ أِنْفًا لِنَهَابِهِ الْعَامَّةِ وَيَدْخُلُ فِي جُمْلَةِ الْخَاصَّةِ فَلَا
 تَجِبُهُ أَبْصَارُهُمْ سَمَحَ الْيَدَيْنِ وَإِلَّا فَهُوَ كَمَا قَالَ ابْنُ أَبِي قَتَنِ:
 وَإِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِاللُّومِ شَاعِرٌ يُلُومُ عَلَى الْجُلِّ الرِّجَالِ وَيَجُلُّ
 وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى ذَهَبَ الطَّائِيُّ بِقَوْلِهِ:

أَلُومٌ مَنْ بَخِلَتْ يَدَاهُ وَاعْتَدَى لِلْجُلِّ جَرِيًا سَاءَ ذَلِكَ صَنِيعًا
 وَالشَّاعِرُ مَاخُودٌ بِكُلِّ عِلْمٍ مَطْلُوبٌ بِكُلِّ مَكْرُمَةٍ لِاتِّسَاعِ
 الشِّعْرِ وَاحْتِمَالِهِ كُلِّ مَا نَحَلَّ مِنْ نَحْوٍ وَلُغَةٍ وَفِقَةٍ وَجَبَرٍ وَحِسَابِ
 وَفَرِيضَةٍ وَاحْتِيَاجِ أَكْثَرِ هَذِهِ الْعُلُومِ إِلَى شَهَادَتِهِ وَهُوَ مُكَيِّفٌ
 بِذَاتِهِ مُسْتَعِنٌ تَمَامًا سِوَاهُ وَلِأَنَّهُ قَيْدُ الْأَخْبَارِ وَتَجْدِيدُ لِلْآثَارِ وَصَاحِبُهُ
 الَّذِي يَذُمُّ وَيُحْمَدُ وَيَهْجُو وَيَمْدَحُ وَيَعْرِفُ مَا يَأْتِي النَّاسُ مِنْ مَحَاسِنِ
 الْأَشْيَاءِ وَمَا يَذَرُونَهُ فَهُوَ عَلَى نَفْسِهِ شَاهِدٌ وَبِجَنَّتِهِ مَاخُودٌ. وَلِيَأْخُذَ
 نَفْسَهُ بِحِفْظِ الشِّعْرِ وَالْخَبَرِ وَمَعْرِفَةِ النَّسَبِ وَأَيَّامِ الْعَرَبِ يَسْتَعْمِلُ
 ذَلِكَ فِيمَا يُرِيدُهُ مِنْ ذِكْرِ الْآثَارِ وَضَرْبِ الْأَمْثَالِ لِيَعْلَقَ نَفْسُهُ
 بِغُضِّ أَنْفَاسِهِمْ وَيَقْوَى بِقُوَّةِ طَبَاعِهِمْ. فَقَدْ وَجَدْنَا الشَّاعِرَ مِنْ
 الْمَطْبُوعِينَ الْمُتَقَدِّمِينَ يَفْضَلُ أَصْحَابَهُ بِرِوَايَةِ الشِّعْرِ وَمَعْرِفَةِ الْأَخْبَارِ
 وَالتَّلَمُّدَةِ لِمَنْ فَوْقَهُ مِنَ الشُّعْرَاءِ فَيَقُولُونَ: فُلَانٌ شَاعِرٌ رَاوِيَةٌ
 يُرِيدُونَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ رَاوِيَةً عَرَفَ الْمَقَاصِدَ وَسَهَّلَ عَلَيْهِ مَاخُذُ
 اللَّفْظِ وَلَمْ يَضِقْ بِهِ الْمَذْهَبُ وَإِذَا كَانَ مَطْبُوعًا لَا عِلْمَ لَهُ وَلَا رِوَايَةَ
 ضَلَّ وَاهْتَدَى مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ وَرُبَّمَا طَلَبَ الْمَعْنَى فَلَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ

وَهُوَ مَائِلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ لِضَعْفِ آلَتِهِ كَأُلْمَقْعِدٍ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ الْقُوَّةَ عَلَى
النُّهُوضِ فَلَا تُعِينُهُ آلَاتُهُ . وَقَدْ سُئِلَ رُوْبَةُ بْنُ الْعَجَّاجِ عَنِ الْفَحْلِ
مِنَ الشُّعْرَاءِ . فَقَالَ : هُوَ الرَّاوِيَةُ يُرِيدُ أَنَّهُ إِذَا رَوَى اسْتَفْهَلَ . قَالَ
يُونُسُ بْنُ حَبِيبٍ : وَإِنَّمَا ذَلِكَ لِأَنَّهُ يَجْمَعُ إِلَى جَيْدِ شَعْرِهِ مَعْرِفَةَ
جَيْدِ غَيْرِهِ فَلَا يَحْمِلُ نَفْسَهُ إِلَّا عَلَى بَصِيرَةٍ . وَقَالَ رُوْبَةُ فِي
صِفَةِ شَاعِرٍ :

لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ تَكُونَ سَاحِرًا رِوَايَةً مُرًّا وَمُرًّا شَاعِرًا
وَأَنْتَعِظَ مَا هُوَ حَتَّى قَرَّبَهَا بِالسِّحْرِ . وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ : لَا يَصِيرُ
الشَّاعِرُ فِي قَرِيضِ الشِّعْرِ فَحْلًا حَتَّى يَرَوِيَ أَشْعَارَ الْعَرَبِ وَيَسْمَعَ
الْأَخْبَارَ وَيَعْرِفَ الْمَعَانِي وَتَدْوَرَ فِي مَسَامِعِهِ الْأَلْفَاظُ . وَأَوَّلُ ذَلِكَ
أَنْ يَعْرِفَ الْعَرُوضَ لِيَكُونَ بِإِذْنِهَا عَلَى قَوْلِهِ وَالنَّحْوُ يُضْلِحُ بِهِ لِسَانَهُ
وَيُقِيمُ بِهِ إِعْرَابَهُ وَالنَّسَبَ وَأَيَّامَ النَّاسِ لِيَسْتَعِينَ بِذَلِكَ عَلَى مَعْرِفَةِ
الْمَنَاقِبِ وَالْمَثَالِبِ وَذِكْرِهِمَا بِمَدْحٍ أَوْ ذَمٍّ . وَقَدْ كَانَ الْفَرَزْدَقُ
عَلَى فَضْلِهِ فِي هَذِهِ الْجِنَاةِ يَرَوِي لِلْحُطَيْئَةِ كَثِيرًا وَكَانَ الْحُطَيْئَةُ
رَاوِيَةً زُهَيْرٍ وَكَانَ زُهَيْرٌ رَاوِيَةً أَوْسَ بْنَ حَجْرٍ وَطُفَيْلَ الْعَنَوِيَّ جَمِيعًا .
وَقَدْ تَرَلَّ أَنْشَى بَنِي قَيْسٍ بْنُ ثَعْلَبَةَ بَيْنَ يَدَيْ النَّابِغَةِ الذُّبْيَانِيَّ
بِسُوقِ عُكَاظٍ وَأَنْشَدَهُ فَقَدَّمَهُ . وَأَنْشَدَهُ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ وَلَبِيدُ
أَبْنُ رَبِيعَةَ فَمَا عَابَهُمْ ذَلِكَ وَلَا غَضَّ مِنْهُمْ . وَكَانَ كَثِيرٌ رَاوِيَةً
جَمِيلٍ مُفَضَّلًا لَهُ . وَكَانَ أَبُو حَيَّةَ النَّسَرِيُّ وَأَسْمُهُ الْهَيْثَمُ بْنُ الرَّبِيعِ
وَهُوَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ شِعْرًا وَأَنْظَفِهِمْ كَلَامًا مُؤْتَمًا بِالْفَرَزْدَقِ

أَخِذْ عَنْهُ كَثِيرًا مُتَعَصِّبًا لَهُ . وَلَا يَسْتَعْنِي الْمَوْلَدُ عَنْ تَصَفُّحِ أَشْعَارِ
الْمَوْلَدِينَ لِمَا فِيهَا مِنْ حَلَاوَةِ اللَّفْظِ وَقُرْبِ الْمَأْخِذِ وَإِشَارَاتِ اللَّحْمِ
وَوُجُودِ الْبَدِيعِ الَّذِي مِثْلُهُ فِي شِعْرِ الْمُتَقَدِّمِينَ قَلِيلٌ وَإِنْ كَانُوا هُمْ
فَتَحُّوا بَابَهُ وَفَتَقُوا جِلْبَابَهُ . وَلِلْمُتَعَقِّبِ زِيَادَاتٌ وَأَفْتِنَاكَ . لَا عَلَى أَنْ
تَكُونَ عُدَّةُ الشَّاعِرِ مُطَالَعَةً مَا ذَكَرْتُهُ آخِرَ كَلَامِي هَذَا دُونَ مَا
قَدَّمْتُهُ لِأَنَّهُ مَتَى فَعَلَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مِنَ الْإِمَّةِ وَفَضْلِ الْقُوَّةِ مَا
يَبْلُغُ بِهِ طَاقَةٌ مَنْ تَبَعَ فَتَجَارِيَهُ . وَإِذَا آعَانَتْهُ فَصَاحَةُ الْمُتَقَدِّمِ وَحَلَاوَةُ
الْمُتَأَخِّرِ أَشَدُّ سَاعِدُهُ وَبَعْدَ مَرَامِهِ فَلَمْ يَقَعْ دُونَ الْفَرَضِ وَسَمِعَ
أَنْ يَكُونَ أَوْثَقَ سِهَامًا وَأَحْسَنَ مَوْقِعًا مِمَّنْ لَوْ عَوَّلَ عَلَيْهِ مِنْ
الْمُحَدِّثِينَ لَقَصَرَ عَنْهُ وَوَقَعَ دُونَهُ . وَلِيَعْمَلَ طَلَدٌ أَوَّلًا لِلْسَّالِمَةِ وَإِذَا
صَحَّتْ لَهُ طَلَبَ التَّجْوِيدَ حِينَئِذٍ وَلِيَرْغَبَ فِي الْحَلَاوَةِ وَالطَّلَاوَةِ رَغْبَتَهُ
فِي الْجَزَالَةِ وَالنَّحْوَةِ . وَلِيَجْتَنِبَ الشُّوْقِي الْقَرِيبَ وَالْوَحْشِيَّ الْغَرِيبَ
حَتَّى يَكُونَ شِعْرُهُ حَالًا بَيْنَ حَالَيْنِ كَمَا قَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ :

عَلَيْكَ يَا وَسْطَ الْأُمُورِ فَإِنَّهَا نَجَاةٌ وَلَا تَرْكَبْ ذُلُولًا وَلَا صُعْبًا
وَأَوَّلُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الشَّاعِرُ بَعْدَ الْجِدِّ الَّذِي هُوَ الْغَايَةُ وَفِيهِ
وَحْدَهُ الْكِفَايَةُ حُسْنُ التَّسَاتُي وَالسِّيَاسَةِ وَعِلْمُ مَقَاصِدِ الْقَوْلِ فَإِنْ
نَسَبَ ذَلِكَ وَخَضَعَ وَإِنْ مَدَحَ أَطْرَبَ وَأَسْمَعَ وَإِنْ هَجَا أَقْلَّ
وَأَوْجَعَ وَلِتَكُنْ غَايَتُهُ مَعْرِفَةُ أَغْرَاضِ الْمُخَاطَبِ كَانًا مَنْ كَانَ
لِيَدْخُلَ إِلَيْهِ مِنْ بَابِهِ وَيُدَاخِلَهُ فِي ثِيَابِهِ فَذَلِكَ هُوَ سِرُّ صِنَاعَةِ
الشِّعْرِ وَمَعْرَاهُ الَّذِي تَفَاوَتَ النَّاسُ وَفِيهِ تَفَاضُلُوا . وَقَدْ قِيلَ : اكْمَلِ

مَقَامٍ مَقَالَ . وَشِعْرُ الشَّاعِرِ لِنَفْسِهِ وَفِي مُرَادِهِ وَأُمُورِ ذَاتِهِ مِنْ مَذْحِ
وَعَزَلٍ وَمُكَاتَبَةٍ وَمُجُونٍ وَخَرِيَّةٍ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ غَيْرُ شِعْرِهِ فِي
قَصَائِدِ الْفُحْلِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا بَيْنَ السِّمَاطَيْنِ . يُقْبَلُ مِنْهُ فِي تِلْكَ الطَّرِيقِ
غَفُورُ كَلَامِهِ وَمَا لَا يَتَكَدَّفُ لَهُ وَلَا أَلْقَى بِهِ بَالًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهُ
فِي هَذِهِ إِلَّا مَا كَانَ مُحْكَمًا مُعَاوَدًا فِيهِ النَّظَرُ جَيِّدًا لَا غَثَ
فِيهِ وَلَا سَاقِطَ وَلَا قَلْبِي . وَشِعْرُهُ لِلْأَمِيرِ غَيْرُ شِعْرِهِ لِلْوَزِيرِ وَالْكَاتِبِ
وَمُخَاطَبَتُهُ لِلْقُضَاةِ وَالْمُقَفَّهَاءِ بِخِلَافِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ .
وَالْمُتَأَخِّرُ مِنَ الشُّعْرَاءِ فِي الزَّمَانِ لَا يَضُرُّهُ تَأَخُّرُهُ إِذَا آجَادَ
كَمَا لَا يَنْفَعُ الْمُتَقَدِّمُ تَقَدُّمُهُ إِذَا قَصَرَ وَإِنْ كَانَ أَهْ فَضْلُ السَّبْقِ
فَعَالِيهِ دَرَكُ التَّقْصِيرِ كَمَا أَنَّ لِلْمُتَأَخِّرِ فَضْلَ الْإِجَادَةِ وَالزِّيَادَةِ . وَلَا
يَكُونُ الشَّاعِرُ حَاقِدًا مُجَوِّدًا حَتَّى يَتَفَقَّدَ شِعْرَهُ وَيُعَيِّدَ فِيهِ نَظْرَهُ
فَيُسْقِطَ رَدِيهَ وَيُثَبِّتَ جَيِّدَهُ وَيَكُونُ بِالرَّكِيكِ مُطَرِّحًا لَهُ رَاغِبًا
عَنْهُ . فَإِنَّ بَيْتًا جَيِّدًا مَقَامُ أَلْفِ رَدِيٍّ . وَقَالَ أَمْرُؤُ الْقَيْسِ وَهُوَ
أَوَّلُ مَا زَعَمُوا أَنَّهُ اخْتِيرَ لَهُ وَعُلِمَ بِهِ أَنَّهُ أَفْضَلُ الشُّعْرَاءِ وَالْمُقَدَّمُ
عَلَيْهِمْ :

أَذُودُ الْقَوَائِي عَتِي ذِيَادَا	ذِيَادَ غُلَامٍ جَرِيءٍ جَرَادَا
فَلَمَّا كُنَّا وَعَيْنُهُ	تَخَيَّرَ مِنْهُنَّ سِتًّا جِيَادَا
فَاعْزَلُ مَرْجَانَهَا جَانِبًا	وَأَخَذُ مِنْ دُرِّهَا الْمُسْتَجَادَا

وَيُقَالُ إِنَّ أَبَا نُوَّاسٍ كَانَ يَفْعَلُ هَذَا الْفِعْلَ وَيُبْقِي الْجَيِّدَ
وَيَلْتَمِسُ لَهُ مِنَ الْكَلَامِ مَا سَهْلَ وَمِنْ الْمَعْنَى مَا كَانَ وَاضِحًا جَلِيًّا

يُعرفُ بديًّا . فَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْمُتَقَدِّمِينَ : شَرُّ الشِّعْرِ مَا سُئِلَ عَنْهُ .
وَكَانَ الْخَطِيئَةُ يَقُولُ : خَيْرُ الشِّعْرِ الْحَوْلِيُّ الْحَكَّكَ . أَخَذَ فِي ذَلِكَ
بِمَذْهَبِ زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سَلَمَى وَأَوْسٍ وَطُفَيْلٍ . وَلَا يَجُوزُ لِلشَّاعِرِ
كَمَا لَا يَجُوزُ لِغَيْرِهِ أَنْ يَكُونَ مُعْجِبًا بِنَفْسِهِ مُشْبِيًا عَلَى شِعْرِهِ وَإِنْ
فَضِيحَةً ظَاهِرَةً كَانَ غَنِيًّا عَنْهَا . وَكَانَ فِي الْجُبَّتَرِيِّ اعْجَابٌ شَدِيدٌ إِذَا
أَنشَدَ يَقُولُ : مَا لَكُمْ لَا تَعُجِبُونَ مَا أَحْسَنَ مَا تَسْمَعُونَ . فَأَنشَدَ
الْمُتَوَكِّلُ يَوْمَ مَا قَصِيدَتَهُ :

عَنْ آيٍ تَغْرِ تَبْتِمُ وَبِأَيِّ طَرْفٍ تَحْتَكِمُ
وَأَبُو الْعَبَّاسِ الصِّمِيرِيُّ حَاضِرٌ فَلَمَّا رَأَى اعْجَابَهُ قَامَ حِذَاءَهُ
وَقَالَ :

مِنْ آيٍ سَلَحَ تَلْتِمُ وَبِأَيِّ كَفٍ تَلْتِطِمُ
فَوَلَّى وَهُوَ غَضَبَانُ . فَقَالَ : وَعَلِمْتُ أَنَّكَ تَنْهَزِمُ . فَضَحِكَ
الْمُتَوَكِّلُ حَتَّى فَحَصَ بِرِجْلَيْهِ وَأَعْطَى الصِّمِيرِيَّ جَائِزَةً سَنِيَّةً

البحث الخامس عشر

في عمل الشعر وشخذ القريحة

(من كتاب العمدة)

لَا بُدَّ لِلشَّاعِرِ وَإِنْ كَانَ فَخْلًا حَازِقًا مُبِرِّزًا مُقَدِّمًا مِنْ فِتْرَةٍ
تَغْرِضُ لَهُ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ إِمَّا لِشُغْلٍ طَرَأَ أَوْ مَوْتِ قَرِيحَةٍ أَوْ
نُبُوِّ طَبَعٍ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ أَوْ ذَلِكَ الْحِينِ . وَقَدْ كَانَ الْفَرَزْدَقُ

وَهُوَ فُحْلٌ مُضَرٌّ فِي زَمَانِهِ يَقُولُ : تَمُرُّ عَلَيَّ السَّاعَةُ وَقَامُ خِرْسٍ مِنْ
 أَضْرَاسِي أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ عَمَلِ بَيْتٍ مِنَ الشَّعْرِ فَإِذَا تَقَادَى ذَلِكَ
 عَلَى الشَّاعِرِ قِيلَ : قَدْ أَصْفَى كَمَا يُقَالُ أَصْفَتِ الدَّجَاجَةُ إِذَا
 انْقَطَعَ بَيْضُهَا وَكَذَلِكَ يُقَالُ لَهُ أَجْبَلَ كَمَا يُقَالُ لِلْحَافِرِ الْبُيْرُ
 إِذَا بَلَغَ جَبَلًا تَحْتَ الْأَرْضِ لَا يَعْمَلُ فِيهِ شَيْءٌ أَجْبَلَ . وَأَفْهَمَ
 الشَّاعِرُ عَلَى أَفْعَلٍ وَقَالُوا : هُوَ مِنْ فَهَمَ الصَّبِيِّ إِذَا انْقَطَعَ صَوْتُهُ مِنْ
 شِدَّةِ الْبُكَاءِ . فَإِنْ سَاءَ لَفْظُهُ وَفَسَدَتْ مَعَانِيهِ قِيلَ لَهُ أَهْتَرَ فَهُوَ
 مُهْتَرٌ . وَقَدْ قِيلَ فِي الذُّبْيَانِيِّ إِنَّهُ كَانَ شِعْرُهُ تَظِيْفًا مِنَ الْعُيُوبِ
 لِأَنَّهُ قَالَهُ كَثِيرًا وَمَاتَ عَنْ قُرْبٍ وَلَمْ يُهْتَرْ وَاسْتُرَّ مَا جَاءَ الْإِهْتَارُ
 فِي صِفَةِ الْكَبِيرِ الَّذِي يَخْتَلِطُ كَلَامُهُ . وَقَوْلُهُمْ فِي شِعْرِ النَّابِغَةِ
 إِنَّهُ قَالَ كَثِيرًا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ بِهَذَا يُسَمَّى نَابِغَةً كَمَا عِنْدَ أَكْثَرِ
 النَّاسِ لَا يَقُولُهُ : « فَقَدْ نَبَغَتْ لَنَا مِنْهُمْ شُؤْنٌ » كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ
 قَوْلِ بَعْضِهِمْ . وَيُقَالُ أَخْلَى الشَّاعِرُ كَمَا يُقَالُ أَخْلَى الرَّامِي إِذَا
 لَمْ يُصِبْ مَعْنَى

وَيُحْكِي عَنْ الْبُحْتَرِيِّ أَنَّهُ قَالَ : فَأَوَضْتُ عَلِيَّ بْنَ الْجَهْمِيِّ فِي
 الشَّعْرِ وَذَكَرَ أَشْجَعَ السُّلَيْمِي فَقَالَ : إِنَّهُ يُحْلِي . فَلَمْ أَفْهَمْهَا وَأَنْفَتُ
 أَنْ أَسْأَلَهُ عَنْهَا . فَلَمَّا أَنْصَرَفْتُ فَصَكَّرْتُ فِيهَا وَنَظَرْتُ فِي شِعْرِ
 أَشْجَعَ فَإِذَا هُوَ رَبَّامًا مَرَّتْ بِهِ الْأَيَّاتُ مَعْسُولَةً لَيْسَ فِيهَا بَيْتٌ
 رَافِعٌ

ثُمَّ إِنَّ لِلنَّاسِ فِيهَا بَعْدُ ضُرُوبًا مُخْتَلِفَةً يَسْتَدْعُونَ بِهَا الشَّعْرَ

فَتَشْخِذُ الْقَرَائِمَ وَتُنَبِّهُ الْخَوَاطِرَ وَتُلِينُ عَرِيكَةَ الْكَلَامِ وَتُسَهِّلُ
طَرِيقَ الْمَعْنَى لِكُلِّ أَمْرٍ بِحَسَبِ تَذْيِيرِ طَبْعِهِ وَأِطْرَادِ عَادَتِهِ .
وَسَيَأْتِي ذَلِكَ فِي أَقَاوِيلِ الْعُلَمَاءِ بِمَا أَرْجُو أَنْ يَكُونَ فِيهِ هِدَايَةٌ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى

قَالَ بَكْرُ بْنُ الْأَنْطَاحِ الْخَنْفِيُّ: الشِّعْرُ مِثْلُ عَيْنِ الْمَاءِ إِنْ تَرَكْتَهَا
نَضَبَتْ وَإِنْ أَسْتَهْتَبْتَهَا هَتَّتْ . وَلَيْسَ مُرَادُ بَكْرٍ أَنْ تُسْتَهْتَبَ بِالْعَمَلِ
وَحَدَهُ لِأَنَّا نَحْدُ الشَّاعِرَ تَكِلُ قَرِيحَتُهُ مَعَ كَثْرَةِ الْعَمَلِ مِرَارًا وَتَتَرَفُّ
مَادَّتُهُ وَتَنْفَدُ مَعَانِيهِ فَإِذَا جَمَّ طَبْعُهُ آيَامًا وَرُبَّمَا زَمَانًا طَوِيلًا ثُمَّ
صَنَعَ الشِّعْرَ جَاءَ بِكُلِّ آيَةٍ وَأَتَمَّ بِكُلِّ قَافِيَةٍ شَارِدَةً وَقَبَّحَ لَهُ
مِنَ الْمَعَانِي وَالْأَلْفَافِ مَا لَوْ رَامَهُ مِنْ قَبْلِ لَأَسْتَفْلِقَ عَلَيْهِ وَأَبْهَمَ
دُونَهُ . لَكِنْ بِالْمَذَاكِرَةِ مَرَّةً فَإِنَّهَا تَقْدَحُ زِنَادَ الْخَاطِرِ وَتُفْجِرُ عَيْنَ
الْمَعَانِي وَتُوقِظُ أَبْصَارَ الْفِتْنَةِ وَبُطَالَةَ الْأَشْعَارِ كَرَّةً فَإِنَّهَا تَبْعَثُ
الْحَسَدَ وَتُولِدُ الشَّهْوَةَ . وَسُئِلَ ذُو الرُّمَّةِ كَيْفَ تَفْعَلُ إِذَا أَنْقَفَلَ
دُونَكَ الشِّعْرَ . فَقَالَ: كَيْفَ يَنْقِفِلُ ذُونِي وَعِنْدِي مَفَاتِيحُهُ . قِيلَ لَهُ:
وَعَنْهُ سَأَلْتُكَ مَا هُوَ . قَالَ: الْخُلُوءُ بِذِكْرِ الْأَخْبَابِ وَلَعْمَرِي إِنَّهُ إِذَا
أَنْفَتَحَ لِلشَّاعِرِ نَسِيبُ الْقَصِيدَةِ فَقَدْ وَلَجَ مِنَ الْبَابِ وَحَطَّ رِجْلُهُ فِي
الرِّسْكَابِ عَلَى أَنَّ ذَا الرُّمَّةَ لَمْ يَكُنْ كَثِيرَ الْمَدْحِ وَالْهَجَاءِ وَإِنَّمَا
كَانَ وَاصِفَ أَطْلَالٍ وَنَادِبَ أَطْعَامٍ وَهُوَ الَّذِي أَخْرَجَهُ مِنْ طَبَقَةِ
الْفُحُولِ . وَقِيلَ لِكَثِيرٍ كَيْفَ تَصْنَعُ الشِّعْرَ إِذَا عُسِرَ عَلَيْكَ . قَالَ:
أَطُوفُ فِي الرِّيَاضِ الْمُشْعَبَةِ فَيَسْهَلُ عَلَيَّ صَعْبُهُ وَيُسْرِعُ إِلَيَّ

أَحْسَنُهُ . وَقَالَ الْأَضْمِيُّ : مَا أَسْتُدْعِي شَارِدُ الشَّعْرِ بِبِشَلِ الْمَاءِ
 الْجَارِي وَالشَّرَفِ الْعَالِي وَالْمَكَانِ الْحَالِي . وَقِيلَ الْحَالِي يَعْنِي الرُّوضَ
 وَحَدَّثَنَا بَعْضُ أَصْحَابِنَا مِنْ أَهْلِ الْمَهْدِيَّةِ وَقَدْ مَرَرْنَا بِمَوْضِعٍ
 بِهَا يُعْرَفُ بِالْمَهْدِيَّةِ وَهُوَ أَشْرَفُهَا أَرْضًا وَهَوَاءً . قَالَ : جِئْتُ هَذَا
 الْمَوْضِعَ مَرَّةً فَإِذَا عَبْدُ الْكَرِيمِ عَلَى سَطْحٍ هُنَالِكَ قَدْ كَشَفَ الدُّنْيَا .
 فَقُلْتُ : أَبَا مُحَمَّدٍ . قَالَ : نَعَمْ . فَقُلْتُ : مَا تَصْنَعُ هَاهُنَا . قَالَ : أُلْقِ
 خَاطِرِي وَأَجْلُو نَاطِرِي قُلْتُ : فَهَلْ نَتَجَّ لَكَ شَيْءٌ . قَالَ : مَا تَقَرُّ بِهِ
 عَيْنِي وَعَيْنُكَ إِنْ ثَمَاءُ اللَّهِ تَعَالَى وَأَنْشَدَ شِعْرًا يَدْخُلُ مَسَامَ الْقُلُوبِ
 رَقْمَةً . قُلْتُ : هَذَا اخْتِيَارٌ مِنْكَ اخْتَرَعْتَهُ . قَالَ : بَلْ يَرَأِي
 الْأَضْمِيُّ

وَقَالُوا كَانَ جَرِيرٌ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُؤْتِدَ قَصِيدَةً صَنَعَهَا أَيْلًا يُشْعِلُ
 سِرَاجًا وَيَعْتَزِلُ أَهْلَهُ وَرُبَّمَا عَلَا السَّطْحَ وَحْدَهُ وَغَطَّى رَأْسَهُ رَغْبَةً فِي
 الْخَلْوَةِ فِي نَفْسِهِ . فَحُكِيَ أَنَّهُ صَنَعَ ذَلِكَ فِي قَصِيدَتِهِ الَّتِي أَخْرَجَ
 بِهَا ابْنِي مُنِيرٍ

وَرَوِيَ أَنَّ الْفَرَزْدَقَ كَانَ إِذَا عَصَتْ عَلَيْهِ صَنْعَةُ الشَّعْرِ رَكِبَ
 نَاقَةً وَطَافَ وَحْدَهُ مُنْفِرِدًا فِي شِعَابِ الْحَبَالِ وَبُطُونِ الْأَوْدِيَةِ
 وَالْأَمَاكِنِ الْحَالِيَةِ فَيُعْطِيهِ الْكَلَامُ قِيَادَهُ . حُكِيَ ذَلِكَ فِي قَصِيدَتِهِ
 الْفَائِيَّةِ :

عُرِفْتَ بِأَعْشَاشٍ وَمَا كِدْتَ تُعْرِفُ
 وَذِكْرَ أَنَّ فَتَى مِنَ الْأَنْصَارِ فَاخَرَ بِأَنْبِيَاءِ حَسَّانِ بْنِ

تَمَامٌ :

لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرُ يُلَمَعْنَ فِي الضُّحَى

وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمًا
وَأَنْظَرَهُ سَنَةً قَمَضَى حَقًّا وَطَالَتْ لَبْلُتُهُ لَمْ يَصْنَعْ شَيْئًا فَلَمَّا كَانَ
قُرْبَ الصَّبَاحِ آتَى جَبَلًا بِالْمَدِينَةِ يُقَالُ لَهُ ذُبَابٌ فَنَادَى : أَخَاكُمْ
أَخَاكُمْ يَا بَنِي لَبِينَا صَاحِبَكُمْ صَاحِبَكُمْ وَتَوَسَّدَ ذِرَاعَ
نَاقَتِهِ فَأَنشَأَتْ عَلَيْهِ الْقَوَارِي وَجَاءَ بِالْقَصِيدَةِ بُكْرَةً وَقَدْ أَنْجَزَتْ
الشُّعْرَاءُ وَبَهَرَتْهُمْ طُولًا وَجُودَةً

قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ : وَلِلشُّعْرِ أَوْقَاتٌ تُسْرِعُ فِيهَا قَوَافِيهِ مِنْهَا أَوَّلُ
الَّيْلِ قَبْلَ تَغَشِّي الْكَرَى وَمِنْهَا صَدْرُ اللَّيْلِ وَقَبْلَ الْغَدَاءِ وَمِنْهَا
يَوْمٌ شَرِبَ الدَّوَاءَ وَمِنْهَا الْخُلُوءُ فِي الْحَبْسِ . فَلِهَذِهِ الْأَسْبَابِ
تَخْتَلِفُ أَشْعَارُ الشَّاعِرِ وَرَسَائِلُ الْمُرْسَلِ . وَحُكِيَ عَنْ أَبِي تَمَّامٍ
وَقَدْ سَأَلَهُ الْجُبَّارِيُّ عَنْ أَوْقَاتِ صَنْعَةِ الشُّعْرِ فَقَالَ قَرِيبًا مِنْ هَذَا
لَا أَحْفَظُهُ وَلَا أَشْكُ أَنَّ ابْنَ قُتَيْبَةَ بِهِ أَقْتَدَى وَإِنْ كَانَ مِمَّا
رَوَاهُ

وَمِمَّا يَجْمَعُ الْفِكْرَةَ فِي طَرِيقِ الْفَلَسَفَةِ اسْتِلقاءُ الْمَرْءِ عَلَى ظَهْرِهِ
وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَلَيْسَ يَفْتَحُ مُقْتَلِ الْخَوَاطِرِ بِمِثْلِ مُبَاكَرَةِ الْعَمَلِ
بِالْأَسْحَارِ عِنْدَ الْمُبُوبِ مِنَ النَّوْمِ لِكَوْنِ النَّفْسِ مُجْتَمِعَةً لَمْ يَتَفَرَّقْ
حِسُّهَا فِي أَسْبَابِ اللَّهْوِ أَوْ الْمَعِيشَةِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ وَإِذَا هِيَ مُسْتَرِيحَةٌ
جَدِيدَةٌ كَأَنَّمَا نَشَأَتْ نَشَاءً أُخْرَى وَلِأَنَّ الشَّعْرَ الطَّفُّ هَوَاءٌ وَارَقٌ
نَسِيمًا وَأَعْدَلُ مِيزَانًا بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْعَشِيُّ كَالشَّعْرِ

وَهُوَ عَدِيْلُهُ فِي التَّوَسُّطِ بَيْنَ طَرَفِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لِدُخُولِ الظُّلُمَةِ
فِيهِ عَلَى الصِّيَاءِ بَعْدَ دُخُولِ الصِّيَاءِ بِالسَّحْرِ عَلَى الظُّلُمَةِ وَلِأَنَّ النَّفْسَ
فِيهِ كَالِةٍ مُرِيضَةٍ مِنْ تَعَبِ النَّهَارِ وَتَصَرُّفِهَا مُحْتَاجَةً إِلَى قُوَّتِهَا مِنْ
النَّوْمِ وَمُتَشَوِّقَةً لِحَوِّهِ فَالسَّحَرُ أَحْسَنُ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَضَعَ . فَأَمَّا لِمَنْ
أَرَادَ الْحِفْظَ وَالِدِّرَاسَةَ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ فَاللَّيْلُ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى وَهُوَ
أَمْدَقُ الْقَائِلِينَ : إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً . وَهَذَا
الْكَلَامُ لَا مَطْمَئِنَ فِيهِ وَلَا اعْتِرَاضَ عَلَيْهِ . وَكَانَ أَبُو تَمَّامٍ يُكْرَهُ
نَفْسَهُ عَلَى الْعَمَلِ حَتَّى يَظْهَرَ ذَلِكَ فِي شِعْرِهِ . حَكَى ذَلِكَ عَنْهُ بَعْضُ
أَصْحَابِهِ قَالَ : اسْتَأْذَنْتُ عَلَيْهِ وَكَانَ لَا يَسْتَشِيرُ عَنِّي فَأَذِنَ لِي
فَدَخَلْتُ فَإِذَا هُوَ فِي بَيْتٍ مُصْهَرَجٍ . قَدْ غَسَلَ بِالْمَاءِ يَتَقَلَّبُ يَمِينًا
وَشِمَالًا فَقُلْتُ : لَقَدْ بَلَغَ بِكَ الْحَرُّ مَبْلَغًا شَدِيدًا . قَالَ : لَا وَلَكِنْ غَيْرُهُ .
فَمَكَثَ سَاعَةً ثُمَّ قَامَ كَأَنَّمَا أُطْلِقَ مِنْ عِقَالٍ فَقَالَ : الْآنَ الْآنَ
أَرَدْتُ . ثُمَّ اسْتَمَدَّ وَكَتَبَ شَيْئًا لَا أَعْرِفُهُ ثُمَّ قَالَ : أَتَدْرِي مَا
كُنْتُ فِيهِ مُنْذُ الْآنَ . قُلْتُ : كَلَّا . قَالَ قَوْلُ أَبِي نُوَّاسٍ :
« كَالدَّهْرِ فِيهِ شِرَاسَةٌ وَلِيَانٌ » زَاوَلْتُهُ حَتَّى أَمْسَكَ اللَّهُ مِنْهُ
فَعَمِلْتُ :

شَرِيسَتْ بَلْ لَنْتَ بَلْ فَأَنْتَ ذَاكَ نَدَى

فَأَنْتَ لَا شَكَّ فِيهِ السَّهْلُ وَالْجَبَلُ

وَلَعَمْرِي لَوْ سَكَّتَ هَذَا الْحَاكِي لَتَمَّ هَذَا الْبَيْتُ بِمَا كَانَ

دَاخِلَ الْبَيْتِ لِأَنَّ الْكُلْفَةَ فِيهِ ظَاهِرَةٌ وَالتَّعَمُّلُ بَيْنَ . عَلَى أَنَّ مِثْلَ

حِكَايَةِ أَبِي تَمَّامٍ وَأَشَدَّ مِنْهَا وَقَعْتُ لِمَنْ لَا يُتَّهَمُ وَهُوَ جَرِيرٌ. صَنَعَ
الْفَرَزْدَقُ شِعْرًا يَقُولُ فِيهِ:
فَقُلْتُ أَنَا أَلَمْتُ الَّذِي هُوَ ذَاهِبٌ

بِنَفْسِكَ فَأَنْظُرْ كَيْفَ أَنْتَ مُحَاوِلُهُ
وَحَلَفَ بِالطَّلَاقِ أَنَّ جَرِيرًا لَا يَغْلِبُهُ فِيهِ فَكَانَ جَرِيرٌ يَتَسَرَّعُ
فِي الرِّهْضَاءِ وَيَقُولُ: أَنَا أَبُو حَرْزَةَ حَتَّى قَالَ مِنْ آيَاتِهِ
مَشْهُورَةٌ:

أَنَا الدَّهْرُ يُفْنِي أَلَمْتُ وَالدَّهْرُ خَالِدٌ

فَحِينِي مِثْلُ الدَّهْرِ شَيْئًا يُطَاوِلُهُ
وَكَانَ أَبُو تَمَّامٍ يَنْصِبُ الْقَافِيَةَ لِلْبَيْتِ لِيَعْلَقَ الْأَعْجَازُ بِالصُّدُورِ
وَذَلِكَ هُوَ التَّخْدِيرُ فِي الشِّعْرِ وَلَا يَأْتِي بِهِ كَثِيرًا إِلَّا شَاعِرٌ مُتَصَنِّعٌ
كَحَيِّبٍ وَنُظَرَائِهِ وَالصَّوَابُ أَنْ لَا يَصْنَعَ الشَّاعِرُ بَيْتًا لَا يَعْرِفُ قَافِيَتَهُ
غَيْرَ أَنِّي لَا أَجِدُ ذَلِكَ فِي طَبْعِي وَلَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ الْبَثَّةَ بَلْ أَصْنَعُ
الْقَسِيمَ الْأَوَّلَ عَلَى مَا أُرِيدُهُ ثُمَّ أَلْتَمِسُ فِي نَفْسِي مَا يَلِيقُ بِهِ
وَمِنَ الْقَوَائِي بَعْدَ ذَلِكَ فَأَبْنِي عَلَيْهِ الْقَسِيمَ الثَّانِي أَفْعَلُ ذَلِكَ فِيهِ
كَمَا يَفْعَلُ مَنْ يَبْنِي الْبَيْتَ كُلهُ عَلَى الْقَافِيَةِ وَلَمْ أَرِ ذَلِكَ يَجُلُّ عَلَيَّ
وَلَا يُزِيحُنِي عَنْ مُرَادِي وَلَا يُغَيِّرُ عَلَيَّ شَيْئًا مِنْ لَفْظِ الْقَسِيمِ الْأَوَّلِ
إِلَّا فِي النَّدْرَةِ أَلَّتِي لَا يُعْتَدُّ بِهَا عَلَى وَجْهِ التَّنْقِيجِ الْمَفْرُطِ

وَمِنَ الشُّعْرَاءِ مَنْ يَسْبِقُ إِلَيْهِ بَيْتٌ وَأَثْنَانِ وَخَاطِرُهُ فِي
غَيْرِهِمَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ بَعْدَ ذَلِكَ بِآيَاتٍ وَذَلِكَ لِقُوَّةِ طَبْعِهِ وَأَنْبِعَاطِ

خَاطِرِهِ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْصِبُ قَافِيَةَ بَعْضِهَا لِلْبَيْتِ بَعْضُهُ مِنَ الشِّعْرِ
مِثْلَ أَنْ تَكُونَ ثَالِثَةً أَوْ رَابِعَةً أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ لَا يَعْدُو بِهَا ذَلِكَ
الْمَوْضِعَ إِلَّا أَنْحَلَّ عَلَيْهِ نَظْمُ آيَاتِهِ وَذَلِكَ عِيٌّ فِي الصَّنْعَةِ شَدِيدٌ
وَنَقْصٌ بَيْنٌ لِأَنَّ الشَّاعِرَ يَصِيرُ مُحْضُورًا عَلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ بَعْضُهُ مُضَيَّقًا
عَلَيْهِ وَدَاخِلًا تَحْتَ حُكْمِ الْقَافِيَةِ . وَكَانُوا يَقُولُونَ لِيَكُنِ الشِّعْرُ
تَحْتَ حُكْمِكَ وَلَا تَكُنْ تَحْتَ حُكْمِهِ

وَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا أَخَذَ فِي صَنْعَةِ الشِّعْرِ جَمَعَ مِنَ الْقَوَائِي مَا
يَضِلُّ لِدَلَالَةِ الْوَزْنِ الَّذِي هُوَ فِيهِ . ثُمَّ أَخَذَ مُسْتَعْمِلَهَا وَشَرِيفَهَا وَمَا
سَاعَدَ عَمَانِيَهُ وَوَافَقَهَا وَأَطْرَحَ مَا سَوَى ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ
يَجْمَعَهَا لِيُكَرَّرَ فِيهَا نَظَرُهُ وَيُعِيدَ عَلَيْهَا التَّخَيُّرَ فِي حِينِ الْعَمَلِ .
هَذَا الَّذِي عَلَيْهِ حُذَاقُ الْقَوْمِ .

وَمِنْ الشُّعْرَاءِ مَنْ إِذَا جَاءَهُ الْبَيْتُ عَفْوًا أَنْتَبَهَ ثُمَّ رَاجَعَ فِيهِ
فَتَحَنَّنَ وَتَعَفَّى مِنْ كَدَرِهِ وَذَلِكَ أَسْرَعُ وَأَخْفُ عَلَيْهِ وَأَصَحُّ لِنَظَرِهِ
وَأَخْفُ لِإِبَالِهِ . وَآخِرُ لَا يُشَبِّهُ إِلَّا بَعْدَ إِحْكَامِهِ فِي نَفْسِهِ وَتَثْقِيفِهِ
مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ وَذَلِكَ أَشْرَفُ لِلْهَيْمَةِ وَأَدْلُ عَلَى الْقَدْرِ وَأَظْهَرُ
لِلْكَافَةِ وَأَبْعَدُ مِنَ السَّرِقَةِ . وَسَأَلْتُ شَيْخًا مِنْ شُيُوخِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ
فَقُلْتُ : مَا يُعِينُ عَلَى الشِّعْرِ . فَقَالَ : زَهْرَةُ الْبُسْتَانِ وَرَاحَةُ الْحَمَامِ .
وَقِيلَ : إِنْ الطَّعَامُ الطَّيِّبُ وَالشَّرَابُ الطَّيِّبُ وَسَمَاعُ الْغِنَاءِ يُرَوِّقُ
الطَّبْعَ وَيُصَفِّي الْمَزَاجَ وَيُعِينُ عَلَى الشِّعْرِ . وَلَمَّا أَرَادَتْ قُرَيْشُ
مَعَارِضَةَ الْقُرْآنِ عَكَفَ فَصَحَاؤُهُمُ الَّذِينَ تَعَاطَوْا ذَلِكَ عَلَى لُبَابِ

أَلْبَرِّ وَسَلَافِ الْخَمْرِ وَلَحُومِ الضَّانِ وَالْخَلْوَةِ إِلَى أَنْ بَلَّغُوا مَجْهُودَهُمْ .
 فَلَمَّا سَمِعُوا قَوْلَ الْقُرْآنِ : وَقِيلَ يَا أَرْضُ أَبْلَيْ مَاءُكَ وَيَا سَمَاءُ
 أَقْلَيْ مِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا
 لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . يَنْسُوا مِمَّا طَبِعُوا فِيهِ وَعَلِمُوا أَنَّهُ لَيْسَ بِكَلَامٍ مُخْلَقٍ .
 وَقِيلَ : مَقْرُودُ الشَّعْرِ الْعِتَابُ . وَذُكِرَ عَنْ أَبِي الطَّيِّبِ أَنَّ مُتَشَرِّفًا
 تَشَرَّفَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَضَعُ قَصِيدَتَهُ الَّتِي يَقُولُ فِي أَوَّلِهَا « جَلَّالًا كَمَا
 بِي فَلَيْكَ التَّهْرِيجُ » وَهُوَ يَتَغَنَّى وَيَضَعُ فَإِذَا تَوَقَّفَ بَعْضُ التَّرُوفِ
 رَجَعَ بِالْإِنْشَادِ مِنْ أَوَّلِ الْقَصِيدَةِ إِلَى حَيْثُ انْتَهَى مِنْهَا . وَقَالُوا :
 الْحَيَّةُ إِكْلَالُ الْقَرِيحَةِ أَنْتَظَارُ الْحَمَامِ . وَهَذَا عِنْدِي أَنْجَعُ الْأَقْوَالِ
 وَبِهِ أَقُولُ وَإِلَيْهِ أَذْهَبُ . وَقَالَ بَكْرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْأَزَنِّي : لَا
 تَكْذُوبُوا الْقُلُوبَ وَلَا تَهَيَّأُوهَا وَخَيْرُ الْفِكْرِ مَا كَانَ عَنْ عَقِبِ الْحَمَامِ .
 وَاتَّخِذُوا الْقُلُوبَ بِالْمَذَاكِرَةِ وَلَا تَيَاسُوا مِنْ إِصَابَةِ الْحِكْمَةِ إِذَا
 امْتَحَنَتْكُمْ بَعْضُ الْأَسْتِفْلَاقِ فَإِنَّ مَنْ آذَمَنْ قَرَعَ الْبَابَ وَصَلَ .
 وَقَالَ الْخَلِيعُ : مَنْ لَمْ يَأْتِ شِعْرُهُ مَعَ الْوَحْدَةِ فَلَيْسَ بِشَاعِرٍ .
 وَقَالُوا يُرِيدُ الْخَلَاةَ وَرُبَّمَا ارَادَ الْغُرْبَةَ كَمَا قَالَ دِيكَ الْجَنْ : مَا
 أَصْفَى شَاعِرٌ مُغْتَرِبٌ قَطُّ

وَمِمَّا لَا يَسَعُ تَرْكُهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ صَحِيفَةٌ كَتَبَهَا بَشَرُ بْنُ
 الْمُغْتَسِرِ ذَكَرَ فِيهَا الْبَلَاغَةَ وَدَلَّ عَلَى مَظَانِّ الْكَلَامِ وَالْفَصَاحَةِ يَقُولُ
 فِيهَا : خُذْ مِنْ نَفْسِكَ سَاعَةً فَرَانِكَ وَفَرَاغِ بَالِكَ وَإِجَابَتَهَا إِيَّاكَ فَإِنَّ
 قَلِيلَ تِلْكَ السَّاعَةِ أَكْرَمُ جَوْهَرًا وَأَشْرَفُ جِنْسًا وَأَحْسَنُ فِي الْأَسْمَاعِ

وَأَخْلَى فِي الصُّدُورِ وَأَسْلَمَ مِنْ فَاحِشِ الْخَطَاءِ وَأَخْلَبَ لِكُلِّ
عَيْنٍ وَغَرَّةٍ مِنْ لَفْظٍ شَرِيفٍ وَمَعْنَى بَدِيعٍ.

وَأَعْلَمَ أَنَّ ذَلِكَ أَجْدَى عَلَيْكَ مِمَّا يُعْطِيكَ يَوْمُكَ الْأَظْوَلُ
بِالْكَدِّ وَالْجَاهِدَةِ وَبِالتَّكْلُفِ وَالْمُعَانَدَةِ وَمَهْمَا أَخْطَاكَ لَمْ يُخْطِطْكَ
أَنْ يَكُونَ مَقْبُولًا قَصْدًا أَوْ حَقِيقَةً عَلَى اللِّسَانِ سَهْلًا كَمَا خَرَجَ مِنْ
يَبْرُوعِهِ وَنَجَّمَ عَنْ مَعْدِنِهِ وَإِيَّاكَ وَالتَّوَعَّرَ فَإِنَّ التَّوَعَّرَ يُسَلِّمُكَ إِلَى
التَّعْقِيدِ وَالتَّعْقِيدُ هُوَ الَّذِي يَسْتَهْلِكُ مَعَانِيكَ وَيَشِينُ الْقَاطِظَ . وَمَنْ
أَرَاغَ مَعْنَى كَرِيمًا فَلْيَأْتِيسْ لَفْظًا كَرِيمًا فَإِنَّ حَقَّ الْمَعْنَى الشَّرِيفِ
الْلَفْظُ الشَّرِيفُ وَمِنْ حَقِيقَتِهِمَا أَنْ يَصُونَهُمَا عَمَّا يُفْسِدُهُمَا وَيُهْجِنُهُمَا
وَعَمَّا يَعُودُ مِنْ أَجْلِهِمْ أَسْوَأَ حَالًا مِنْكَ قَبْلَ أَنْ يُلْتَمَسَ إِظْهَارُهُمَا
وَتَرْهَنَ نَفْسُكَ فِي مُلَابَسَتِهِمَا وَقَضَاءِ حَقِيقَتِهِمَا وَكُنْ فِي إِحْدَى ثَلَاثِ
مَنَازِلَ فَإِنَّ أَوَّلَ الثَّلَاثِ أَنْ يَكُونَ لَفْظُكَ رَشِيقًا عَذْبًا أَوْ فَحْمًا
سَهْلًا وَيَكُونَ مَعْنَاكَ ظَاهِرًا مَكْشُوفًا وَقَرِيبًا مَعْرُوفًا . إِمَّا عِنْدَ
الْخَاصَّةِ إِنْ كُنْتَ لِلْخَاصَّةِ قَصَدْتَ . أَوْ لِلْعَامَّةِ إِنْ كُنْتَ لِلْعَامَّةِ
قَصَدْتَ وَالْمَعْنَى لَيْسَ يَشْرَفُ بِأَنْ يَكُونَ مِنْ مَعَانِي الْخَاصَّةِ
فَكَذَلِكَ لَيْسَ يَتَصَنَّمُ بِأَنْ يَكُونَ مِنْ مَعَانِي الْعَامَّةِ وَإِنَّمَا مَدَارُ
الشَّرَفِ مَعَ الصَّوَابِ وَإِخْرَازِ الْمَنْفَعَةِ وَمَعَ مُوَافَقَةِ الْحَالِ وَمَعَ
مَا يَحِبُّ لِكُلِّ مَقَامٍ مِنَ الْمَقَالِ . وَكَذَلِكَ الْلَفْظُ الْعَامِّيُّ وَالْخَاصِّيُّ
فَإِنْ أَمْسَكَكَ أَنْ تَبْلُغَ مِنْ بَيَانِ لِسَانِكَ وَبَلَاغَةِ قَلَمِكَ وَلُطْفِ
مَدَاخِلِكَ وَأَقْبِدَارِكَ فِي نَفْسِكَ عَلَى أَنْ تُفْهِمَ الْعَامَّةَ مَعَانِي

الخاصة وتكسوها الألفاظ المتوسطة التي لا تلطف عن الدهاء
ولا تحفى عن الألفاء فانت اليلغ الثام فإن كانت المنزلة
الأولى لا تواتيك ولا تغريك ولا تسع لك عند أول نظرك
في أول تكلفك وتجد اللفظة لم تقع موقعها ولم تسع إلى
قرارها وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها والقاية لم تحل من
مركزها في إصابتها ولم تتصل بشكلها وكانت قلقة في مكانها
نافرة عن موضعها فلا تكرهها على اغتصاب مكانها والزلول في
غير أوطانها فإنك إذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون ولم تكلف
اختيار الكلام المشور لم يعبك بترك ذلك أحد . فإن أنت
تكلفها ولم تكن حاذقا مطبوعا ولا محكما لشأنك بصيرا بما
عليك ولك عابك من أنت أقل منه عيبا ورأى من هو دونك
أنه فوقك . فإن أنت أثبتت بأن تكلف القول وتعاصى
الصناعة ولم تسع لك الطباع فلا تعجل ولا تضجر ودعه يياض
يؤوك وسواد ليك وعادده عند نشاطك وفراغ بالك فرما لا تعدم
الإجابة والمواتاة إن كان هناك طبيعة أو جرئت في الصناعة على
عرف فإن تمنع عليك بعد ذلك من غير حادث شغل ومن غير
طول إهمال فالمنزلة الثالثة أن تتحول عن هذه الصناعة إلى
أشهى الصناعات إليك وأخفها عليك

إلا أن النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة ولا تسع بحزونها
عند الرغبة كما تجود به مع الشهوة والحبسة . وقال بعض أهل

الآدب : حسب الشاعر عوناً على صناعته أن يجمع خاطره بعد أن
يخلي قلبه من فُضول الأنفعال ويدع الأمتلاء من الطعام
والشراب ثم يأخذ فيما يريد. وأفضل ما استعان به الشاعر غنى
أو فضل طمع والفقر آفة الشعر وإنما ذلك لأن الشاعر إذا صنع
القصيدة وهو في غنى ووسعة نفحها وأمن النظر فيها على مهل
وإذا كان مع ذلك طمع غنى قوى أنبعثها من يذويعها وجاءت
الرغبة فيها في نهايتها محكمة. وإذا كان فقيراً مضطراً رضي بعفو
الكلام وأخذ ما أمكنه من نتيجة خاطر ولم يتدع في بلوغ
مراده ولا ألغ مجهود نفسه لما يحفره من الحاجة والضرورة فجاء
دون عادته في سائر أشعاره وربما قصر عن دونه بكثير. ومنهم
من تحيى الحاجة خاطره وتبعث قريحته فيجود فإذا أوسع أنف
وصعب عليه عمل الآيات اليسيرة فضلاً عن الكثيرة والعادة
في هذه الأشياء فعل عظيم وهي طبيعة خاسية كما قيل فيها

البحث السادس عشر

في المقاطع والمطالع

(من كتاب العمدة لار رشيق)

اختلف أهل المعرفة في المقاطع والمطالع . فقال بعضهم :
هي الفُصول والوُصول بعينها . فالمقاطع أواخر الفُصول والمطالع
أوائل الوُصول . والفصل آخر جزء من القسم الأول كما قدمت

وَهُوَ الْعَرُوضُ أَيْضًا . وَالْوُضُولُ أَوَّلُ جُزْءٍ يَلِيهِ مِنَ الْقِسْمِ الثَّانِي .
وَقَالَ غَيْرُهُمْ : الْمَقَاطِعُ مُنْقَطِعُ الْآيَاتِ وَهِيَ الْقَوَائِي وَالْمَطَالِعُ
أَوَائِلُ الْآيَاتِ . وَقَالَ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ فِي بَعْضِ تَأْلِيفِهِ وَقَدْ ذَكَرَ
التَّصْرِيعَ وَهُوَ أَنْ يَتَوَخَّى تَصْيِيرَ مَقَاطِعِ الْأَجْزَاءِ فِي الْبَيْتِ عَلَى سَجْعٍ
أَوْ شَبِيهِهِ أَوْ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ فِي التَّصْرِيفِ . فَأَشَارَ بِهَذِهِ
الْعِبَارَةِ إِلَى الْمَقَاطِعِ أَوْ آخِرِ أَجْزَاءِ الْبَيْتِ كَمَا تَرَى . وَقَدْ نَحَدُّ مِنْ
الشِّعْرِ الْمُرْصَعِ مَا يَكُونُ سَجْعُهُ غَيْرَ مَقَاطِعِ الْأَجْزَاءِ نَحْوَ قَوْلِ أُمِّ
مَعْدَانَ فِي مَرَثِيَّةِ لَهَا :

فَعِلُ الْجَمِيلِ وَتَفْرِيجُ الْجَلِيلِ وَرَاءَ مِ طَاءِ الْجَزِيلِ الَّذِي لَمْ يُعْطِهِ أَحَدُ
فَالسَّجْعُ فِي هَذَا الْبَيْتِ اللَّامُ الْمَطْرَدَةُ فِي ثَلَاثَةِ أَمَاكِنَ مِنْهُ
وَأَخِرُ الْأَجْزَاءِ الَّتِي هِيَ الْمَقَاطِعُ عَلَى شَرِيطَةِ الْبَاءِ الَّتِي قَبْلَ اللَّامِ .
اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُجْعَلَ السَّجْعُ هُوَ الْبَاءُ الْمَلْتَزِمَةُ فَحِينْدُ عَلَى أَنَا لَا نَعْلَمُ
حَرْفَ السَّجْعِ يَكُونُ إِلَّا مُتَأَخِّرًا فِي مِثْلِ هَذَا الْمَكَانِ وَمِثْلُ هَذَا
فِي أَنْوَاعِ الْأَعَارِضِ كَثِيرٌ

وَمِنْ الدَّاسِ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ الْمَقْطَعَ وَالْمَطْلَعَ أَوَّلُ الْقَصِيدَةِ
وَأَخِرُهَا وَلَيْسَ ذَلِكَ بِشَيْءٍ لِأَنَّا نَحْدُ فِي كَلَامِ جَهَابِذَةِ النُّقَادِ
إِذَا وَصَفُوا قَصِيدَةً قَالُوا : حَسَنَةُ الْمَقَاطِعِ حَمِيدَةُ الْمَطَالِعِ . وَلَا
يَقُولُونَ الْمَقْطَعَ وَالْمَطْلَعَ . وَفِي هَذَا دَلِيلٌ وَاضِحٌ لِأَنَّ الْقَصِيدَةَ
إِنَّمَا لَهَا أَوَّلٌ وَاحِدٌ وَآخِرٌ وَاحِدٌ وَلَا يَكُونُ لَهَا أَوَائِلُ وَأَوَاخِرُ إِلَّا
عَلَى مَا قَدَّمْتُ مِنْ ذِكْرِ أَبْتِدَآتِ الْآيَاتِ أَوِ الْاقْسِمَةِ وَأَنْتَهَائِهَا

وَسَأَلْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ بْنَ السَّيْنِ عَنْ
 هَذَا فَقَالَ : الْمَقَاطِعُ أَوَاخِرُ الْأَبْيَاتِ وَالْمَطَالِعُ أَوَائِلُهَا . قَالَ وَمَعْنَى
 قَوْلِهِمْ : حَسَنُ الْمَقَاطِعِ جَيِّدُ الْمَطَالِعِ أَنْ يَكُونَ مُنْقَطِعُ الْبَيْتِ وَهُوَ
 الْقَافِيَةُ مُتَمَكِّنًا غَيْرَ قَلْبٍ وَلَا مُتَعَلِّقٍ بِغَيْرِهِ وَهَذَا هُوَ حُسْنُهُ . وَالْمَطْلَعُ
 هُوَ أَوَّلُ الْبَيْتِ وَجُودُهُ أَنْ يَكُونَ دَالًّا عَلَى مَا بَعْدَهُ كَالْتَضْدِيرِ
 وَمَا شَاكَاهُ . وَرَوَى الْجَاهِظُ أَنَّ حَبِيبَ بْنَ شُبَّةَ كَانَ يَقُولُ : النَّاسُ
 مُوسَّكُونَ بِتَفْضِيلِ جُودَةِ الْإِبْتِدَاءِ وَيَمْدَحُ صَاحِبِهِ وَأَنَا مُوَكَّلٌ
 بِتَفْضِيلِ جُودَةِ الْمَقْطَعِ وَيَمْدَحُ صَاحِبِهِ . وَحَظُّ جُودَةِ الْقَافِيَةِ وَإِنْ
 كَانَتْ كَلِمَةً وَاحِدَةً أَرْفَعُ مِنْ حَظِّ سَائِرِ الْبَيْتِ أَوْ الْقَصِيدَةِ . حَكَاهُ
 الْجَاهِظُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَقْطَعِ آخِرُ الْبَيْتِ أَوْ الْقَصِيدَةِ وَهُوَ بِأَبْيَاتِ
 الْبَيْتِ لِيُذَكَّرَ حَظُّ الْقَافِيَةِ

وَحِكْمِي أَيْضًا عَنْ مَمْدُوحٍ لَهُ أَنَّهُ قَالَ لِلْعِتَابِيِّ مَا الْبَلَاغَةُ . فَقَالَ :
 كُلُّ كَلَامٍ أَفْهَمَكَ صَاحِبُهُ حَاجَتَهُ فِيهِ مِنْ غَيْرِ إِعَادَةٍ وَلَا حُسْنَةٍ
 وَلَا اسْتِعْمَالَةٍ فَهُوَ بَلِيغٌ . قَالَ : قُلْتُ قَدْ عَرَفْتُ الْإِعَادَةَ وَالْحُسْنَ فَمَا
 الْاسْتِعْمَالَةُ فَقَالَ : أَمَّا تَرَاهُ إِذَا تَحَدَّثَ قَالَ عِنْدَ مَقَاطِعِ كَلَامِهِ
 يَا هَذَا أَسْمَعْ مِنِّي وَأَسْتَمِعْ إِلَيَّ وَأَفْهَمْ وَأَلَسْتَ تَفْهَمُ هَذَا كُلُّهُ
 عَيٌّْ وَفَسَادٌ

قَالَ صَاحِبُ الْكِتَابِ وَهَذَا الْقَوْلُ مِنَ الْعِتَابِيِّ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ
 الْمَقَاطِعَ أَوَاخِرَ الْفُصُولِ . وَمِثْلُهُ مَا حَكَاهُ الْجَاهِظُ عَنْ الْمَأْمُونِ إِنَّهُ
 قَالَ لِسَعِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ وَاللَّهِ إِنَّكَ لَتُضْغِي لِحَدِيثِي وَتَقِفُ عِنْدَ

مَقَاطِعِ كَلَامِي. وَإِذَا جُعِلَ الْمَقْطَعُ وَالْمَطْلَعُ مَصْدَرَيْنِ بِمَعْنَى الْقَطْعِ
وَالطُّلُوعِ كَانَتْ الطَّاءُ وَاللَّامُ مَفْتُوحَتَيْنِ وَإِذَا أُريدُ مَوْضِعُ الْقَطْعِ
وَالطُّلُوعِ كُسِرَتِ اللَّامُ خَاصَّةً وَهُوَ مَسْمُوعٌ عَلَى غَيْرِ الْقِيَاسِ

البحث السابع عشر

في المبتدأ أو الخروج والنهاية

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

قِيلَ لِبَعْضِ الْحُذَّاقِ بِصِائَةِ الشِّعْرِ لَقَدْ طَارَ أَسْمُكَ وَأَشْتَهَرَ
فَقَالَ لِأَنِّي أَقَلَّتُ الْحَقَّ وَأَصَبْتُ مَقَائِدَ الْكَلَامِ وَقَرَّطْتُ نَصَّتَ
الْأَغْرَاضِ بِحَجَرِ الْفَوَاحِشِ وَالْحَوَاطِمِ وَلُطْفِ الْخُرُوجِ إِلَى الْمَدْحِ وَالْهَجَاءِ
وَقَدْ صَدَقَ لِأَنَّهُ حُسْنُ الْإِفْتِتَاحِ دَاعِيَةُ الْإِنْشِرَاحِ وَمَطِيَّةُ التَّجَاحِ
وَلَطَافَةُ الْخُرُوجِ إِلَى الْمَدْحِ سَبَبُ ارْتِيَاحِ الْمَدْحِ وَخَاتِمَةُ الْكَلَامِ
أَبْقَى فِي السَّمْعِ وَالصَّقِّ بِالنَّفْسِ لِقُرْبِ الْعَهْدِ بِهَا فَإِنْ حَسُنَتْ حَسُنَ
وَأِنْ قُبِحَتْ قُبِحَ وَالْأَعْمَالُ بِخَوَاطِمِهَا. وَيَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ أَنْ يُجَوِّدَ أَبْتِدَاءَ
شِعْرِهِ فَإِنَّهُ أَوَّلُ مَا يُقْرَعُ السَّمْعُ بِهِ وَبِهِ يُسْتَدَلُّ عَلَى مَا عِنْدَهُ مِنْ
أَوَّلٍ وَهَلَةٍ. وَقَدْ اخْتَارَ النَّاسُ كَثِيرًا مِنَ الْإِبْتِدَاءَاتِ سَأَذْكُرُ هُنَا مَا
أَمِكنَ مِنْهَا لِيُسْتَدَلَّ بِهِ نَحْوُ قَوْلِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ « قِفَا بَيْتُكَ رُونُ
ذِكْرِي حَيِّبٍ وَمَثَلِ » وَهُوَ عِنْدَهُمْ أَفْضَلُ أَبْتِدَاءٍ قَالَهُ شَاعِرٌ لِأَنَّهُ
وَقَفَ وَاسْتَوْقَفَ وَبَكَى وَاسْتَبَكَى وَذَكَرَ الْحَيِّبَ وَالْمَثَلَ فِي
مِضْرَاعٍ وَاحِدَةٍ. وَقَوْلِهِ « أَلَا عِمَّ صَبَاحًا أَيُّهَا الطَّلُّ الْبَالِي » وَمِثْلُهُ

قَوْلُ الْقَطَامِيِّ « إِنَّا مُحْيُوكَ فَاسْلَمْ أَيُّهَا الطَّلَلُ » وَكَقَوْلِ النَّابِغَةِ :
 كَلِّبْنِي لَهُمْ يَا أُمَيَّةُ نَاصِبٍ وَلَيْلٍ أَقَاسِيهِ بَطِيءُ الْكَوَاكِبِ
 وَقَوْلُهُ :

كَتَمْتُكَ لَيْلًا بِالْجُمُوعَيْنِ سَاهِرًا وَهَمَّيْنِ هَمًّا مُسْتَبْكَنَا وَظَاهِرًا
 هَذَا بَعْضُ مَا اخْتِيرَ لِلْقُدَمَاءِ وَمِمَّا اخْتِيرَ فِي الرِّثَاءِ قَوْلُ أَوْسِ
 ابْنِ حَجْرٍ :

أَيُّهَا النَّفْسُ أَخِمْ لِي جَزَاءً إِنَّ الَّذِي تَحْذَرِينَ قَدْ وَقَعَا
 وَمِمَّا اخْتِيرَ لِلْمُحَدِّثِينَ قَوْلُ بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ « أَبِي طَلَلٌ بِالْجَزْعِ
 أَنْ يَتَكَلَّمَا » وَهُوَ عِنْدَهُمْ أَفْصَلُ ابْتِدَاءٍ قَالَهُ مُحَدِّثٌ . وَقَوْلُ أَبِي
 نُوَّاسٍ :

لَمَنْ دَمَنُ تَزْدَادُ طِيبَ نَسِيمٍ
 عَلَى طُولِ مَا أَقَوْتُ وَحُسْنِ رُسُومِ
 وَقَوْلُهُ :

رَمَمُ الْكَرَى بَيْنَ الْجُفُونِ مَحِيلُ عَفَى عَلَيْهِ بُكَاءُ عَلَيْكَ طَوِيلُ
 وَقَوْلُهُ :

أَعْطَيْتُكَ رَيْحَانَهَا الْعُقَّارُ وَحَانَ مِنْ لَيْلِنَا أَنْسِفَارُ
 وَقَوْلُهُ :

دَعُ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللَّوْمَ اغْرَاءُ وَدَاوِنِي بِأَلَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ
 وَمِمَّا أَشْبَهَ ذَلِكَ لَوْ تَقَصَّيْتُهُ أَطَالَ وَكَثُرَ . وَلْيَرْغَبْ عَنِ التَّفْقِيدِ
 فِي الْإِبْتِدَاءِ فَإِنَّهُ أَوَّلُ الْعِيِّ وَدَلِيلُ الْفَهْمِ . وَقَدْ حُكِيَ أَنَّ دِغْبِيلَ

أَبْنِ عَلِيٍّ الْخُرَاعِيَّ وَرَدَ رِخْصَ فَقَصَدَ دَارَ عَبْدِ السَّلَامِ بْنِ رَغْبَانَ
 دِيكَ الْجِنِّ فَسَمَّ نَفْسَهُ عَنْهُ خَوْفًا مِنْ قَوَارِصِهِ فَقَالَ : مَا لَهُ
 يَسْتَتِرُ وَهُوَ أَشْعَرُ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَيْسَ الْقَائِلُ :
 بِهَا غَيْرُ مَعْدُولٍ فِدَاً وَحَمَارَهَا . وَهَلْ بِعَشِيَّاتِ الْغُبُوقِ ابْتِكَارُهَا
 فَظَهَرَ إِلَيْهِ وَأَعْتَذَرَ إِلَيْهِ وَأَحْسَنَ . ثُمَّ تَنَاشَدَا فَأَنشَدَ دِيكَ
 الْجِنِّ ابْتِدَاءً قَصِيدَةً :

كَأَنَّمَا مَا كَانَهُ خَلَلُ الْحَلَّةِ وَقَفُ الْهَلُولِ أَنْ بَعَمَا
 فَقَالَ لَهُ دُعِيلٌ : أَسَكْتَ فَوَاللَّهِ مَا ظَنَنْتُكَ تُتِمُّ الْبَيْتَ إِلَّا وَقَدْ
 غَشِيَ عَلَيْكَ أَوْ تَشَبَّهْتَ دِمَاعَكَ وَكَكَائِكَ فِي جَهَمٍ تُخَاطَبُ
 الزَّبَانِيَةَ أَوْ تَحْبَطُكَ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ . وَإِنَّمَا أَرَادَ الدِّيكَ أَنْ
 يَهْوَلَ عَلَيْهِ وَيَقْرَعَ سَمْعَهُ عَسَى أَنْ يُزَجِّجَهُ أَوْ يَرُوعَهُ فَسَمِعَ مِنْهُ مَا
 كَرِهَ . وَلَعَمْرِي مَا ظَلَمَهُ دُعِيلٌ وَلَقَدْ أَبْعَدَ مَسَافَةَ الْكَلَامِ وَخَافَ
 الْعَادَةَ وَهَذَا بَيْتٌ قَبِيحٌ مِنْ جِهَاتٍ مِنْهَا إِخْطَارُ مَا لَمْ يُذَكَّرْ قَبْلُ وَلَا
 جَرَتْ الْعَادَةُ بِمِثْلِهِ فَيُعْذَرُ وَلَا كَثُرَ اسْتِعْمَالُهُ فَيُشْهَرُ مَعَ إِحَالَةِ
 التَّشْبِيهِ عَلَى تَشْبِيهِ ثَقُلَ تَجَانُّسُهُ الَّذِي هُوَ حَشْوٌ فَارِغٌ لَوْ طُرِحَ مِنْ
 الْبَيْتِ كَانَ أَحْزَمَ وَأَسْتَدْعَى قَافِيَةً لَا لِشْيءٍ إِلَّا لِفَسَادِ الْمَعْنَى وَاسْتِحْجَالَةِ
 التَّشْبِيهِ مَا الَّذِي يُرِيدُ بِبُعَايِهِ فِي تَشْبِيهِ الْوَقْفِ وَهُوَ السِّوَارُ وَلَمْ
 كَانَ وَقَفُ الْهَلُولِ خَاصَّةً . وَمِثْلُهُ قَوْلُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الزُّيَّاتِ
 يَصِفُ نَاقَتَهُ فِي أَوَّلِ قَصِيدَةٍ مَدَحَ بِهَا الْحَسَنَ بْنَ سَهْلٍ :

كَأَنَّمَا حِينَ تَنَاهَى خَطْوُهَا أَجَشُّ مَوْشِي الشُّوَى يَرْعَى الْقُلَّ

فَالْبَيْتُ الْأَوَّلُ فِي مُخَالَفَةِ الْعَادَةِ لِأَنَّهُ وَمَعَ ذَلِكَ قَوْلُهُ « حِينَ تَمَاضِي خَطُوهَا » فَقَصَرَ بِهَا وَهُوَ يَقْدِرُ أَنْ يَقُولَ « حِينَ تَدَانِي خَطُوهَا » وَخَالَفَ جَمِيعَ الشُّعْرَاءِ بِذَلِكَ لِأَنَّهُمْ يَصِفُونَ النَّاقَةَ بِالظَّلِيمِ وَالْحِمَارَ وَالثَّوْرَ بَعْدَ الْكَلَالِ غَاوًا وَمُتَأَنِّةً فِي الْوَضْفِ . هَذَا هُوَ الْجَيْدُ فَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا لَمْ يَذْكُرُوا أَنَّهَا بَدَلَتْ جَهْدَهَا وَاسْتَفْرَغَتْ جَمِيعَ مَا عِنْدَهَا بَلْ يَدْعُونَ التَّأْوِيلَ مُحْتَمِلَ الزِّيَادَةِ . ثُمَّ قَالَ « تَرْنَعِي الْقُلُلَ » وَالثَّوْرُ لَا يَرْنَعِي قُلُلَ الْحَبَالِ وَإِنَّمَا ذَلِكَ الْوَعْلُ لِأَنَّهُ لَا يُسْهَلُ وَالثَّوْرُ فِي السُّهْلِ وَمَوَاضِعِ الرِّمَالِ إِلَّا أَنْ يُرِيدَ بِالنَّبَاتِ أَعَالِيهِ فَرُبَّمَا أَنْ يَكُونَ الْقُلُلُ نَبَاتًا بَعْضُهُ أَوْ مَكَانًا فَقَدْ يُمَكِّنُ وَمَا سَبَّغَتْ بِهَا

وَمِنْ الشُّعْرَاءِ مَنْ يَقْطَعُ الْمَضْرَاعَ الثَّانِي مِنَ الْأَوَّلِ إِذَا ابْتَدَأَ شِعْرًا وَأَكْثَرُ مَا يَقَعُ ذَلِكَ فِي النَّسَبِ كَأَنَّهُ يَدُلُّ بِذَلِكَ عَلَى وَلَهْ وَشِدَّةِ حَالِهِ كَقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ :

جَلَلًا كَمَا بِي فَلَيْكَ التَّبَرُّعُ أَغْذَاهُ ذَا الرِّثَا الْأَغْنِ الشَّيْخُ
فَهَذَا اعْتِدَارُ مَنْ اعْتَذَرَ لَهُ لَوْ وَقَعَ مِثْلُ هَذَا فِي الرِّثَاءِ
وَالشُّجْعِ لَكَانَ مَوْضِعَهُ أَيْضًا وَكَذَلِكَ عِنْدَ الْعَظَائِمِ مِنَ الْأُمُورِ
وَالنَّوَازِلِ الشَّدِيدَةِ . وَابْتِخَارُ مَا يَبَالُغُ فِيهِ زِيَادَةُ أَوْ يَقَعُ عَلَيْهِ مَطْمَئِنٌ
فَلَنْ أَبَا تَمَامٍ أَنْشَدَحَ أَبَا ذَلْفٍ بِخَضْرَةٍ مَنْ كَانَ يَكْرَهُهُ وَأَفْتَحَ
تَحِيدَتَهُ الْمَشْهُورَةَ « عَلَى مِثْلِهَا مِنْ أَرْبَعٍ وَمَلَايِبٍ » وَكَانَتْ فِيهِ
حُبْسَةٌ شَدِيدَةٌ . فَقَالَ الرَّجُلُ لَعَنَهُ اللَّهُ وَالْمَلَائِكَةُ وَالنَّاسُ أَجْمَعُونَ .

فَدَهَشَ أَبُو تَمَّامٍ حَتَّى تَبَيَّنَ ذَلِكَ عَلَيْهِ عَلَى أَنَّهُ غَيْرُ مَاخُودٍ بِمَا قِيلَ
وَلَا هُوَ مِمَّا يُدْخِلُ عَلَيْهِ عِيَا. وَلَا يُلْزَمُهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ إِلَّا أَنْ الْحَوَاطَةَ
وَالْتَحَفُظَ مِنَ النُّجْجَةِ الْبَارِدَةِ أَفْضَلُ وَالتَّفْرِيطُ أَرْذَلُ وَآخَبْتُ .
وَدَخَلَ جَرِيرٌ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ وَأَنشَدَهُ « أَتَضْحَكُونَ أَمْ فُؤَادُكَ
غَيْرُ صَاحِي » فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ : بَلْ فُؤَادُكَ يَا ابْنَ الْفَاعِلَةِ كَانَ
يَسْتَنْقِلُ هَذِهِ الْمَوَاجِهَةَ وَإِلَّا فَقَدْ عَلِمَ أَنَّ الشَّاعِرَ إِنَّمَا خَاطَبَ نَفْسَهُ
وَمِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ بِعَيْنَيْهَا عَابُوا عَلَى أَبِي الطَّيِّبِ قَوَاهُ يَكَا فُورٍ أَوَّلَ
لِقَائِهِ مُبْتَدِئًا وَإِنْ كَانَ إِنَّمَا يُخَاطَبُ نَفْسَهُ لَا كَا فُورًا :
كَفَى بِكَ دَاءٌ أَنْ تَرَى أَلَمْتَ شَافِيَا

وَحَسْبُ الْمَسَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا
فَالْعَيْبُ مِنْ بَابِ التَّادِبِ وَحُسْنِ السِّيَاسَةِ لَا يَزِمُ لِأَبِي الطَّيِّبِ
فِي هَذَا الْإِتِّدَاءِ لَا يِيَمًا وَهَذَا التَّوَعُّعُ أَغْنَى جُودَةً إِلَّا بَتْدَاءَ مِنْ
أَجَلِ تَحَايُنِ أَبِي الطَّيِّبِ وَأَشْرَفِ مَأْثَرِ شَعْرِهِ إِذَا ذُكِرَ الشَّعْرُ .
وَدَخَلَ ذُو الرُّمَّةِ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ فَأَسْتَنَشَدَهُ شَيْئًا مِنْ
شَعْرِهِ فَأَنشَدَهُ « مَا بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا أَلَمَّا يَنْسَكِبُ » وَكَانَ بِعَيْنِ
عَبْدِ الْمَلِكِ رِيْشَةٌ فِيهَا تَدْمَعُ فَتَوَهَّمُ أَنَّهُ خَاطَبَهُ أَوْ عَرَّضَ بِهِ فَقَالَ :
وَمَا سُؤَالُكَ يَا جَاهِلٌ عَنْ هَذَا وَمَقْتَهُ وَأَمَرَ بِإِخْرَاجِهِ وَكَذَلِكَ فَعَلَ
أَبْنُ هِشَامٍ بِأَبِي النُّجْمِ وَقَدْ أَنشَدَهُ فِي أَرْجُوزَةٍ :

صَفَرَاءُ قَدْ كَادَتْ وَلَمَّا تَفْعَلُ فَكَأَنَّهَا فِي الْأُفُقِ عَيْنُ الْأَحْوَلِ
وَكَانَ هِشَامٌ أَخْوَلُ فَأَمَرَ فَحُجِبَ عَنْهُ مُدَّةً وَقَدْ كَانَ قَبْلَ

ذَلِكَ مِنْ خَاصَّتِهِ يَسْمُرُ عِنْدَهُ وَهُوَ يُمَارِحُهُ وَإِنَّمَا يَأْتِي الشَّاعِرُ بِهِذِهِ
 الْأَشْيَاءُ إِمَّا مِنْ غَفْلَةٍ فِي الطَّبَعِ أَوْ مِنْ اسْتِغْرَاقٍ فِي الصَّنْعَةِ
 وَشُغْلٍ هَاجِسٍ بِالْعَمَلِ يَذْهَبُ مَعَ حُسْنِ الْقَوْلِ حَيْثُ ذَهَبَ.
 وَالْفُطْنُ الْحَادِثُ يُخْتَارُ لِلْأَوْقَاتِ مَا يُشَاكِلُهَا وَيَنْظُرُ فِي أَحْوَالِ
 الْخَطَاطِينَ فَيَقْصِدُ مُحَابِيَهُمْ وَيَمِيلُ إِلَى شَهَوَاتِهِمْ وَإِنْ خَالَفَتْ شَهَوَاتِهِ
 وَيَتَفَقَّدُ مَا يَكْرَهُونَ سَمَاءَهُ فَيَجْتَنِبُ ذِكْرَهُ. أَلَا تَرَى أَنَّ بَعْضَ الْمُلُوكِ
 قَالَ لِأَحَدِ الشُّعْرَاءِ وَقَدْ أَوْرَدَ نَبِيًّا ذَكَرَ فِيهِ «لَوْ خُلِدَ أَحَدٌ أَكْرَمَ
 لَكُنْتُ مُخْلَدًا بِكَرَمِكَ» وَقَالَ كَلَامًا نَحْوَ هَذَا. فَقَالَ الْمَلِكُ: إِنْ
 أَلَمْتُ حَقٌّ وَإِنَّمَا مِنْهُ نَصِيبٌ. غَيْرَ أَنَّ الْمُلُوكَ تَكْرَهُ مَا يُسَكِّدُ عَيْشَهَا
 وَيُنْقِصُ لَذَّتَهَا فَلَا تَأْتِيهَا بِشَيْءٍ مِمَّا تَكْرَهُ ذِكْرَهُ

وَمِنْ الْمَشْهُورِ أَنَّ النُّعْمَانَ بْنَ الْمُنْذِرِ أَتَى شَجَرَةَ ظَلِيَّةٍ مُلْتَفَّةٍ
 الْأَغْصَانِ فِي مَرْجٍ حَسَنٍ كَثِيرِ الشَّقَائِقِ وَكَانَ مُعْجَبًا بِهَا وَإِلَيْهِ
 أَصِيفَتْ فَقِيلَ شَقَائِقُ النُّعْمَانِ. فَقَالَ فَأَمَرَ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ
 فَأُخْضِرَا وَجَلَسَ لِلذَّيْتِ. فَقَالَ عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ الْعَادِيُّ وَكَانَ كَاتِبَهُ:
 أَتَعْرِفُ آيَةَ اللَّعْنِ مَا تَقُولُ هَذِهِ الشَّجَرَةُ. قَالَ: وَمَا تَقُولُ. قَالَ
 تَقُولُ:

رُبَّ رَكْبٍ قَدْ آتَاخُوا حَوْلَنَا يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ بِالْمَاءِ الزُّلَالِ
 عَطَفَ الدَّهْرُ عَلَيْهِمْ فَشَرُّوا وَكَذَلِكَ الدَّهْرُ حَالٌ بَعْدَ حَالٍ
 مَنْ رَأَى فُلْيُوطْنَ نَفْسَهُ إِنَّمَا الدُّنْيَا عَلَى قَرَطِ الزُّوَالِ
 كَأَنَّهُ قَصَدَ مَوْعِظَتَهُ فَنَقَّصَ عَلَيْهِ مَا كَانَ فِيهِ وَأَمَرَ بِالطَّعَامِ

وَالشَّرَابِ فَرُفَعًا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَأَزْتَحَلَ مِنْ قَوْرِهِ وَلَمْ يَنْتَفِعْ بِبَقِيَّةِ
يَوْمِهِ وَلَيْلَتِهِ . فَهَذَا شَأْنُ الْمُلُوكِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا وَمِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ أَكْثَرَ
النَّاسِ مِنْ الدُّعَاءِ لَهُمْ بِطُولِ الْعُمُرِ حَتَّى يَلْغُوا بِهِمْ مَا لَا يُصِحُّ
فَقَالُوا : عِشْ أَبَدًا وَأَسْلَمْ مَدَى الدَّهْرِ وَأَبْقِ بَقَاءَ الزَّمَانِ . وَأَعْتَزَّضَ
الْقَادُ فِي ذَلِكَ وَاخْتَلَفُوا بِحَسَبِ مَا يَنْتَحِلُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي قَوْلِ
آبِي نُوَّاسٍ :

يَا أَمِينَ اللَّهِ عِشْ أَبَدًا دُمَ عَلَى الْأَيَّامِ وَالزَّمَنِ
أَنْتَ تَبْقَى وَالْفَنَاءُ لَنَا فَإِذَا أَفِيدَتْنَا فَكُنْ

وَفِي كَثِيرٍ مِثْلِهِ فَإِذَا خَرَجَ الْكَلَامُ عَنْ حَدِّ الْإِمْكَانِ فَأَنَّمَا
يُرَادُ بِهِ بُلُوغُ الْغَايَةِ لَا غَيْرُ ذَلِكَ . وَمِنْ قَبِيحِ مَا وَقَعَ لِآبِي نُوَّاسٍ
الَّذِي أَسَاءَ فِيهِ آدَبُهُ وَخَالَفَ بِهِ مَذْهَبَهُ أَنَّ بَعْضَ بَنِي بَرْمَكٍ بَنَى
دَارًا اسْتَفْرَغَ فِيهَا تَجْهُودَهُ وَأَنْتَقَلَ إِلَيْهَا . فَصَنَعَ أَبُو نُوَّاسٍ لِذَلِكَ
الْحِينِ أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ قَصِيدَةً يَمْدَحُهَا بِهَا وَيَقُولُ أَوَّلُهَا :

أَرْبَعُ أَلْبَلَى إِنْ الْخُشُوعَ لَبَادٍ عَلَيْكَ وَإِنِّي لَمْ أَخُكْ وَدَادِي
وَحْتَمَهَا أَوْ كَادَ بِقَوْلِهِ :

سَلَامٌ عَلَى الدُّنْيَا إِذَا مَا قُذِّمْتُ بَنِي بَرْمَكٍ مِنْ رَائِحِينَ وَغَادِي
فَتَطِيرَ الْبَرْمَكِيُّ وَأَشَارَ ثُمَّ قَالَ : نَعَيْتَ إِلَيْنَا أَنْفُسًا يَا أَبَا
نُوَّاسٍ فَمَا كَانَتْ إِلَّا مُدَيَّدَةً حَتَّى أَوْقَعَ بِهِمُ الرِّشِيدُ وَصَحَّتْ بِهِمُ
الطَّيْرَةُ . وَزَعَمَ أَنَّ أَبَا نُوَّاسٍ قَصَدَ التَّشَارُفَ لَهُمْ لِشَيْءٍ كَانَ فِي نَفْسِهِ
مِنْ جَعْفَرٍ وَلَا أَظُنُّ ذَلِكَ صَحِيحًا لِأَنَّ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ مِنْ جَيْدِ شِعْرِهِ

الَّذِي لَا أَشْكُ أَنْ يُخْتَفَلَ لَهُ. اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَضَعَ ذَلِكَ حِيَّةً لَهُ وَيَسْتَرَا
عَلَى مَنْ قَصَدَ إِلَيْهِ بِذَلِكَ. وَلِلشُّعْرَاءِ مَذَاهِبُ فِي افْتِتَاحِ الْقَصَائِدِ
بِالنَّسِيبِ إِلَى مَا فِيهِ عَطْفُ الْقُلُوبِ وَأَسْتِدْعَاءُ الْقَبُولِ بِحَسَبِ مَا
فِي الطَّبَاعِ مِنْ حُبِّ الْغَزْلِ وَالْمِيلِ إِلَى الْهَوَى فَإِنَّ ذَلِكَ أَسْتِدْرَاجٌ
إِلَى مَا بَعْدَهُ. وَمَقَاصِدُ النَّاسِ تَخْتَلِفُ فَطَرِيقُ أَهْلِ الْبَادِيَةِ ذِكْرُ
الرَّجُلِ وَالْإِتِّقَالِ وَتَوَقُّعُ الْبَيْنِ وَالْإِشْفَاقُ مِنْهُ وَحِفَّةُ الطُّلُولِ
وَالْحُمُولِ وَالْإِبِلِ وَلَمَعُ الرِّقِّ وَمَرَّ اللَّيْمِ وَذِكْرُ الْمِيَاهِ الَّتِي يَلْتَقُونَ
عَلَيْهَا وَالرِّيَاضِ الَّتِي مِنْ خَزَائِمِ وَأُفْحْوَانِ وَبَهَارِ وَعَرَارِ وَمَا أَشَبَّهُ
مِنْ زَهْرِ الْبَرِّيَّةِ. وَأَهْلُ الْحَاضِرَةِ يَأْتِي تَغَزُّلُهُمْ فِي الصُّدُودِ
وَالْهَجْرَانِ وَالرُّقْبَاءِ وَمَنْعَةِ الْحَرَسِ وَالْأَبْوَابِ وَفِي ذِكْرِ الشَّرَابِ
وَالنَّدَامَى وَاللَّسْرِينَ وَالذَّبْلُوفِ وَمَا شَاكَلَ ذَلِكَ مِنَ النَّوَاوِيرِ الْبَلَدِيَّةِ
وَالرِّيَاحِينَ الْبُسْتَانِيَّةِ فِي تَشْبِيهِ الثُّفَاحِ وَالْثَّجِيَّةِ بِهِ وَدَسِ الْكُشْبِ
وَمَا تَمَاطَلَتْ ذَلِكَ مِمَّا هُمْ مُنْقَرِدُونَ بِهِ

وَالْعَادَةُ أَنْ يَذْكُرَ الشَّاعِرُ مَا قَطَعَ مِنَ الْمَفَاوِزِ وَمَا أَنْصَى مِنْ
الرَّكَابِ وَمَا تَجَشَّمَ مِنْ هَوْلِ اللَّيْلِ وَسَهَرِهِ وَطُولِ النَّهَارِ وَهَجْرِهِ
وَقِلَّةِ الْمَاءِ وَغُورِهِ. ثُمَّ يُخْرِجُ إِلَى مَدْحِ الْمَقْصُودِ لِيُوجِبَ عَلَيْهِ حَقَّ
الْقَصْدِ وَذِمَامَ الْقَاصِدِ وَيَسْتَحِقَّ مِنْهُ الْمَكَافَاةَ. وَكَانُوا قَدِيمًا أَصْحَابَ
خِيَامٍ يَنْتَقِلُونَ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى آخَرَ فَلِذَاكَ كَانَ أَوَّلُ مَا يَبْتَدِئُونَ
أَشْعَارَهُمْ بِذِكْرِ الدِّيَارِ وَتِلْكَ دِيَارُهُمْ وَلَيْسَتْ كَانِيَّةِ الْحَاضِرَةِ
فَلَا مَعْنَى لِدِكْرِ الْحَضَرِيِّ الدِّيَارِ إِلَّا مَجَازًا لِأَنَّ الْحَاضِرَةَ لَا تَنْسِفُهَا

الرَّيْحُ وَلَا تَخُوهَا إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بَعْدَ زَمَانٍ طَوِيلٍ لَا يُمَكِّنُ
أَنْ يَعِيشَهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ هَذَا الْحَيْلِ وَأَحْسَنُ مَا اسْتَعْمَلَهُ الْمُؤَلَّدُونَ
الْخُذُّونَ مَا تَنَسَّبَ قَوْلَ ابْنِ الرُّومِيِّ :

سَمَى اللَّهُ قَصْرًا بِالرِّصَاقَةِ شَاقِنِي بِأَعْلَاهُ قَصْرِي الدِّيَارِ رُصَافِي
أَشَارَ بِقُضْبَانٍ وَنَ الدَّرِّ قُبِعَتِ يَوَاقِيتُ نُحْمَرًا فَاسْتَبَاحَ عَفَافِي
وَكَانَتْ دَوَائِبُهُمُ الْإِبِلَ بِكَثْرَتِهَا وَعَدَمِ غَيْرِهَا وَصَبْرِهَا عَلَى
الْتِمَبِ وَقِلَّةِ الْمَاءِ وَالْعَافِ فَلِهَذَا أَيْضًا خَصَّوْهَا بِالذِّكْرِ دُونَ غَيْرِهَا وَلَمْ
يَكُنْ أَحَدُهُمْ يَرْضَى بِالْكَذِبِ فَيَصِفَ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ كَمَا يَفْعَلُ
الْخُذُّونَ إِلَّا تَرَى أَمْرًا الْقَدِيسَ لَمَّا كَانَ مَلِكًا كَيْفَ ذَكَرَ خَيْلَ
الْبَرِيدِ وَالْفَرَاتِقِ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَسْتَغْنِ عَنْ ذِكْرِ الْإِبِلِ لِلْعَادَةِ الَّتِي
جَرَتْ عَلَى السِّتِّهِمْ فَقَالَ يَصِفُ رَجُلَهُ إِلَى قَيْصَرَ :

إِذَا قُلْتُ رَوْحُنَا أَرَنْ فُرَاتِقُ

عَلَى هَزَجٍ وَاهِي الْأَبَاجِلِ ابْتَرَا
عَلَى كُلِّ مَقْصُوصٍ الذُّنَابِي مُكَادِرِ
بَرِيدَ السُّرَى بِاللَّيْلِ مِنْ خَيْرِ بَرَبَرَا
إِذَا رُعْتَهُ مِنْ جَانِبَيْهِ كَلَيْهِمَا

مَشَى الْهَيْدَلَى فِي دِقِّهِ ثُمَّ قَرَفَا
كَانَتْ الْخَيْلُ الْبَرَبَرِيَّةُ تُهَلَّبُ أَذْنَابُهَا كَالْإِبَالِ لِتَدْخُلَ مَدَاجِلَهَا
فِي خِدْمَةِ الْبَرِيدِ وَلِيُعْلَمَ أَنَّهُمَا لِلْمَلِكِ . وَقَالَ ابْنُ مِيَادَةَ فِي ابْنِ
هُبَيْرَةَ لَمَّا كَانَ أَمِيرًا :

جاءت به مُعْتَجِرًا بِبُرْدِهِ سَفَوَاءَ تَزْدِي بِنَسِيجِ وَحْدِهِ

تَقْدَحُ قَيْسٌ كُلَّهَا بِزَنْدِهِ

إِلَّا أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ خَالَفَ هَذَا كُلَّهُ فَوَصَفَ أَنَّهُ قَصَدَ الْمَمْدُوحَ
وَأَحْلَا إِمَّا إِخْبَارًا بِالْصِّدْقِ وَإِمَّا تَعَاظِي صَعْلَكَةٍ . قَالَ أَبُو نُوَّاسٍ
لِلْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى :

إِلَيْكَ آبَا الْعَبَّاسِ مِنْ بَيْنِ مَنْ مَشَى

عَلَيْهَا أَمْتَطَيْنَا الْخَضْرَمِيَّ الْمَلْسَنَا

قَلَانِصُ لَمْ تَعْرِفْ خَيْثًا عَلَى طَلَا

وَلَمْ تَذَرِ مَا قَرَعَ الْفَنِيْقَ وَلَا أَلْمَا

فَذَكَرَ أَنَّ قَلَانِصَهُمُ الَّتِي أَمْتَطَوْا إِلَيْهِ مَشْدُودَةٌ بِالْعَالِ
وَأَخْرَجَهُ كَمَا تَرَى مُخْرَجَ الْغُرِّ وَأَتْبَعَهُ أَبُو الطَّيِّبِ فَقَالَ :

لَا نَأْقِي تَحْمِيلَ الرَّدِيفِ وَلَا السَّوْطِ يَوْمَ الرَّهَانِ أَجْهَدُهَا
شِرَاكُهَا كُورُهَا وَمِشْقَرُهَا زِمَامُهَا وَالشُّسُوعُ مِقْوَدُهَا
وَقَالَ كَرَّةٌ أُخْرَى فِي مِثْلِ ذَلِكَ يَتَشَكَّى :

وَمَنْهُ جُبُّهُ عَلَى قَدَمِي تَفْجُرُ عَنْهُ الْعَرَامِسُ الذُّلُّ

وَلَوْ شَاءَ قَائِلٌ أَنْ يَقُولَ فَإِنَّ آبَا نُوَّاسٍ لَمْ يُرِدْ مَا ذَهَبَ
إِلَيْهِ أَبُو الطَّيِّبِ لَكِنْ أَرَادَ أَنَّهُ مَعَهُ فِي بَلَدٍ وَاحِدٍ قَصَدَهُ فِي حَاجَتِهِ
مُحْتَذِيًا نَعْلَيْهِ لَكَانَ أَظْهَرَ وَجْهًا مَا لَمْ يَكُنِ الْخَضْرَمِيُّ مِنَ الْجُلُودِ
مَخْصُوصًا بِهِ الْمُسَافِرُ دُونَ الْحَاضِرِ . وَظَاهِرُ الْكَلَامِ أَنَّ مَقْصِدَ
الشَّاعِرَيْنِ وَاحِدٌ . وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو الطَّيِّبِ الْخَيْلَ فِي كَثِيرٍ مِنْ شِعْرِهِ

وَكَانَ يُؤْثِرُهَا عَلَى الْأَيْلِ لَمَّا يَقُومُ فِي نَفْسِهِ مِنَ التَّهَيُّبِ بِذِكْرِ
الْحَيْلِ وَتَعَاطِي الشَّجَاعَةِ . فَقَالَ يَذْكُرُ قُدُومَهُ إِلَى مِصْرَ عَلَى خَوْفٍ
مِنْ سَيْفِ الدَّوْلَةِ :

وَيَوْمَ كَلِيلِ الْعَاشِقِينَ كَسَنَتْهُ

أَرَاقِبُ فِيهِ الشَّمْسُ آيَانِ تَغْرُبُ

وَعَيْنِي إِلَى أُذُنِي أَعَزُّ كَأَنَّهُ

مِنَ اللَّيْلِ بَاقٍ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَوَكَبُ

وَأَيْسَ مِنْ عَادَةِ بَلَدِنَا خَاصَّةً شَيْءٌ مِنْ هَذَا كُلِّهِ إِلَّا مَا يُعَدُّ

قَوْلَهُ فَالْوَاجِبُ اجْتِنَابُهُ إِلَّا مَا كَانَ مِنْهُ حَقِيقَةً لَاسِيًا إِذَا كَانَ

الْمَادِحُ مِنْ سُكَّانِ بَلَدِ الْمَدُوحِ يَرَاهُ فِي أَكْثَرِ أَوْقَاتِهِ فَمَا أَفْجَحَ ذِكْرُ

الْمَاقَةِ وَالْفَلَاةِ

وَمِنَ الشُّعْرَاءِ مَنْ يَهْجُمُ عَلَى مَا يُرِيدُهُ مُكَامَلَةً وَذَلِكَ عِنْدَهُمْ

هُوَ الْوُثْبُ وَالْبَثْرُ وَالْقَطْعُ وَالْكَسْعُ وَالْإِقْطَابُ كُلُّ ذَلِكَ يُقَالُ

وَالْقَصِيدَةُ إِذَا كَانَتْ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ بَثْرَاءً كَالْخُطْبَةِ الْبَثْرَاءُ

وَالْقَطْعَاءُ وَهِيَ الَّتِي لَا يُبْتَدَأُ فِيهَا بِحَمْدِ اللَّهِ عَلَى عَادَتِهِمْ فِي الْخُطْبِ

كَمَا قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ « إِذَا كَانَ مَدْحٌ فَالْأَسْبَابُ الْمَقْدَّمُ » فَأَنْكَرُوا

الْأَسْبَابَ وَزَعَمُوا أَنَّ أَوَّلَ مَنْ فَتَحَ هَذَا الْبَابَ وَفَتَحَ هَذَا الْمَعْنَى أَبُو

نُؤَاسٍ بِقَوْلِهِ « لَا تَبْكُ لَيْلِي وَلَا تَطْرَبُ إِلَيَّ هُمِدٌ » وَقَوْلِهِ عِنْدَ

الْحَاقِمِيِّ فِيمَا رَوَى بَعْضُ أَشْيَاخِهِ أَفْضَلُ أَيْتَادِ صَنْعَةِ شَاعِرٍ مِنْ

الْمَقْدَمَاءِ وَالْمُحَدِّثِينَ :

أَعَزَّ شِعْرَكَ الْأَظْلَالَ وَالْمَنْزِلَ الْقَفْرَا
 فَقَدْ طَالَ مَا إِنْ رَأَيْتُكَ الْخُمْرَا
 دَعَانِي إِلَى نَعْتِ الطُّلُولِ مُسَلِّطُ
 يَضِيقُ ذِرَاعِي أَنْ أَرُدَّ لَهُ أَمْرَا
 فَسَمِعَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَطَاءَةَ

وَأِنْ كُنْتَ قَدْ جَسَمْتَنِي مَرْكَبًا وَغَرَا
 فَجَاءَ هُوَ بِأَنْ وَصَفَ الْأَظْلَالَ وَالْقَفْرَا إِنَّمَا هُوَ مِنْ خَشْيَةِ
 الْإِلَهَامِ وَالْأَفْهَمِ عِنْدَهُ فَرَاغٌ وَجَهْلٌ. وَإِنْ فِي اللِّسَانِ وَكَثْرَةُ وَلُوعِهِ
 بِالشَّيْءِ لِشَاهِدًا عَدْلًا لَا تُرَدُّ شَهَادَتُهُ وَقَدْ قَالَ أَبُو تَمَّامٍ: «لِسَانُ
 الْمَرْءِ مَنْ خَدَمَ الْفُؤَادَا» وَمِنْ عُيُوبِ هَذَا الْبَابِ أَنْ يَكُونَ اللَّسِيبُ
 كَثِيرًا وَالْمَدِيحُ قَلِيلًا كَمَا يَضَعُ بَعْضُ أَهْلِ وَقْتِنَا

وَمِنْ الشُّعْرَاءِ مَنْ لَا يُجِيدُ الْإِبْتِدَاءَ وَلَا يَتَكَلَّفُ لَهُ ثُمَّ يُجِيدُ
 بَاقِيَ الْقَصِيدَةِ وَأَكْثَرُهُمْ فِعْلًا لِذَلِكَ الْبُخْرِيُّ كَانَ يَضَعُ الْإِبْتِدَاءَ
 سَهْلًا وَيَأْتِي بِهِ عَفْوًا وَكُلَّمَا تَمَادَى قَوِيَ كَلَامُهُ وَأَهُ مِنْ جَيِّدِ
 الْإِبْتِدَاءَاتِ كَثِيرٌ لِكَثْرَةِ شِعْرِهِ وَالْغَالِبُ عَلَيْهِ مَا قَدَّمْتُ غَيْرَ أَنَّ
 الْقَاضِي الْجَرَجَانِي فَضَّلَ بِجُودَةِ الْإِسْتِهْلَالِ وَهُوَ الْإِبْتِدَاءُ عَلَى أَبِي
 تَمَّامٍ وَأَبِي الطَّيِّبِ وَقَدْ فَضَاهُمَا بِالْخُرُوجِ وَالْحَاثِمَةُ وَلَسْتُ أَرَى
 لِدَلِيلِكَ وَجْهًا إِلَّا كَثْرَةَ شِعْرِهِ كَمَا قَدَّمْتُ فَإِنَّهُ لَوْ حَاسَبَهُمَا ابْتِدَاءً
 جَيِّدًا بِابْتِدَاءِ لَارُبِّي وَقَصْرًا عَنْ عَدَدِهِ

وَأَمَّا الْحَاثِمِيُّ فَإِنَّهُ يَغُضُّ مِنْ أَبِي عِبَادَةَ غَضًّا شَدِيدًا وَيَجُورُ

عَلَيْهِ جَوْرًا بَيْنًا لَا يُقْبَلُ مِنْهُ وَلَا يُسَلَّمُ إِلَيْهِ . وَكَانَ أَبُو تَمَامٍ فَحْمَ
الْإِبْتِدَاءِ لَهُ رَوَعَةٌ وَعَلَيْهِ أُجَبَةٌ كَقَوْلِهِ :
الْحَقُّ أَلْبَحُّ وَالسُّيُوفُ عَوَارُ فَحَذَارٍ مِنْ أَسَدِ الْعَرِينِ حَذَارٍ
وَقَوْلِهِ أَيْضًا :

السِّيفُ أَصْدَقُ رِثَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ

فِي حَدِيثِهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْحَدِّ وَاللَّعِبِ
وَقَوْلِهِ « يَا رَعُ لَوْ رَبَعُوا عَلَى ابْنِ هُمُومٍ » وَالْغَالِبُ تَحْتَ اللَّفْظِ
وَجَهَارَةُ الْإِبْتِدَاءِ

وَكَانَ أَبُو الْقَاسِمِ الْحَسَنُ بْنُ بَشْرِ الْأَمْدِيِّ يُفَضِّلُ ابْتِدَاءَاتِ
الْبُخَّارِيِّ جَدًّا وَهُوَ الَّذِي وَضَعَ كِتَابَ الْمَوَازِنَةِ وَالتَّرْجِيمِ بَيْنَ
الطَّائِفِينَ وَنَوَّهَ فِيهِ بِالْبُخَّارِيِّ أَكْظَمَ تَنْوِيهِ وَرَمَنَ جَيْدَ ابْتِدَاءَاتِهِ
قَوْلُهُ :

عَارَضْنَا أَصْلًا فَقَانَا الرَّبَّ حَتَّى آضَاءَ الْأَقْحَوَانُ الْأَشْنَبُ
وَقَوْلُهُ « ضَمَانٌ عَلَى عَيْنَيْكَ آتِي لَا أَسْأَلُ » وَقَوْلُهُ « نَرَى عِنْدَهُمْ
عِلْمًا بِشَجْوِي وَأَذْمِي » فَأَمَّا الْخُرُوجُ فَهُوَ عِنْدَهُمْ شَيْءٌ بِالْإِسْطِطْرَادِ
وَأَيْسَرُ بِهِ لِأَنَّ الْخُرُوجَ إِنَّمَا هُوَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ نَيْسَبَرٍ إِلَى مَدَحٍ أَوْ
غَيْرِهِ بِاطْفَافِ تَخْيِيلٍ ثُمَّ تَتِمَّادِي فِيهَا خَرَجْتَ إِلَيْهِ كَقَوْلِ أَبِي عِبَادَةَ
الْبُخَّارِيِّ :

سُقِيتَ رُبَاكَ بِكُلِّ غَيْثٍ جَاعِلٍ مِنْ وَبَلِهِ حَقًّا لَهَا مَعْلُومًا
وَلَوْ أَنَّنِي أُعْطِيتُ فِيهِنَّ أَلْمَنِي لَسَقَيْتُهُنَّ بِكُفٍّ إِبْرَاهِيمَا

وَأَكْثَرُ النَّاسِ أَسْتِعْمَالًا لِهَذَا الْقَنْ أَبُو الطَّيِّبِ لِأَنَّهُ مَا يَكَادُ
يَشُدُّ عَنْهُ حَتَّى رُبَّمَا قُبِحَ سُقُوطُهُ فِيهِ خَوْ قَوْلِهِ:
هَآ فَانْظُرِي أَوْ فَظُّتِي بِي تَرِي حُرْقًا

مَنْ لَمْ يَذُقْ طَرَفًا مِنْهَا فَقَدْ وَالَا
عَلَّ الْأَمِيرَ يَرَى ذُلِّي فَيَشْفَعُ لِي

إِلَى أَلَّتِي تَرَكْتَنِي فِي الْهَوَى مَشَلَا
فَقَدْ ظَنَنْتُ أَنْ يَكُونَ الْأَمِيرُ لَهُ قَوَادَا وَلَيْسَ هَذَا مِنْ قَوْلِ أَبِي نُوَاسٍ:
سَأَشْكُو إِلَى الْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ هُوَ أَنَا لَعَلَّ الْفَضْلَ يَجْمَعُ بَيْنَنَا
فِي شَيْءٍ، لِأَنَّهُ أَنَا نُوَاسٌ قَالَ: يَجْمَعُ بَيْنَنَا ثُمَّ أَتَمَّ ذَلِكَ ذِكْرُ
أَمَاءٍ وَالشَّجَاةِ فَقَالَ:

أَمِيرٌ رَأَيْتُ أَمَالًا فِي نَقْمَاتِهِ ذَلِيلًا مَهِينًا الْفَسْ بِالضَّمِّ مُوقِنًا
وَكَاَنَّهُ أَشَارَ إِلَى أَنَّ جَمْعَهُ بَيْنَهُمَا بِأَمَالٍ خَاصَّةٍ يَفْضُلُ عَلَيْهِ
وَيُجْزَلُ عَظِيمَتُهُ فَيَتَرَوَّجُهَا أَوْ يَتَسَرَّاهَا. وَأَبُو الطَّيِّبِ قَالَ لِيَشْفَعُ
وَالشَّفَاعَةُ رَغْبَةٌ وَسُؤَالٌ. ثُمَّ أَتَمَّ بَيْتَهُ بِمَا هُوَ مُقَوِّمٌ لِمَعْنَاهُ فِي
الْقِيَادَةِ فَقَالَ:

أَيَقُنْتُ أَنَّ سَعِيدًا طَالِبٌ بَدَمِي لَمَّا بَصُرْتُ بِهِ بِالرُّمَحِ مُعْتَقِلًا
فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ يَشْفَعُ فَإِنْ أُجِيبَ إِلَى مُسَاعَدَةِ أَبِي الطَّيِّبِ
فَذَلِكَ وَإِلَّا رَجَعَ إِلَى الْقَهْرِ وَالَّذِي يُشَاكِلُ قَوْلَ أَبِي نُوَاسٍ قَوْلُهُ:
أَحِبُّ الَّذِي فِي الْبَدْرِ مِنْهُ مَشَابَهُ

وَأَشْكُو إِلَى مَنْ لَا يُصَابُ لَهُ شَكْلٌ

فَلَفْظَةُ الشَّكْوَى تُحْمَلُ عَنْهُ كَمَا حُمِلَتْ عَنْ أَبِي نُوَّاسٍ
وَأَوَّلَى الشِّعْرِ بِأَن يُسَى تَخَاطُصًا مَا تَخَلَّصَ فِيهِ الشَّاعِرُ عَنْ مَعْنَى
إِلَى مَعْنَى ثُمَّ عَادَ إِلَى الْأَوَّلِ وَأَخَذَ فِي غَيْرِهِ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مَا كَانَ
فِيهِ كَقَوْلِ النَّابِغَةِ الذُّبْيَانِي أَخِرَ نَسِيبٍ قَصِيدَةٍ اُعْتَذَرَ بِهَا إِلَى
الْغُمَّانِ :

فَكَفَّكَتُ بِمَنَى عَذْرَةَ فَرَدَدْتُهَا
عَلَى النَّحْرِ مِنْهَا مُسْتَهْلٌ وَدَامِعٌ
عَلَى حِينَ عَانَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصِّي
وَقُلْتُ أَلَّا أَصْحُ وَالشَّيْبُ وَارِعٌ
ثُمَّ تَخَلَّصَ إِلَى الْإِعْتِذَارِ فَقَالَ :

وَلَكِنَّهُمَا دُونَ ذَلِكَ دَاخِلًا مَكَانَ الشَّغَافِ يَتَّبِعِيهِ الْأَصَابِعُ
وَعِيدُ أَبِي قَابُوسَ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ آتَانِي وَدُونِي رَاكِسٌ فَالضُّوَاجِعُ
ثُمَّ وَصَفَ حَالَهُ عِنْدَ مَا سَمِعَ مِنْهُ ذَلِكَ فَقَالَ :
فَبِتُّ سَكَاتِي مَا وَرَثَتْنِي ضَيْيَلَةٌ مِنْ الرُّقْشِ فِي أَيْيَابِهَا السَّمُّ نَاقِعٌ
يُسَهِّدُ مِنْ لَيْلِ التَّمَامِ سَائِلُهَا حِلْيَ النِّسَاءِ فِي يَدَيْهِ قَعَا قِعُ
فَوَصَفَ الْحَيَّةَ وَالسَّلِيمَ الَّذِي شَبَّهَ نَفْسَهُ بِهِ مَا شَاءَ ثُمَّ تَخَلَّصَ
مِنَ الَّذِي كَانَ فِيهِ فَقَالَ :

آتَانِي أَبَيْتَ اللَّعْنَ أَنَّكَ لُمْتَنِي وَتِلْكَ أَتَيْتُكَ مِنْهَا الْمَسَامِعُ
ثُمَّ أَطْرَدَ لَهُ الْقَوْلُ مَا شَاءَ مِنْ تَخَاطُصٍ إِلَى تَخَلُّصٍ حَتَّى انْقَضَتْ
الْقَصِيدَةُ وَهُوَ مَا اشْتَرَتْ إِلَيْهِ غَيْرُ خَافٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . وَقَدْ

يَقَعُ مِنْ هَذَا النَّوعِ شَيْءٌ يَعْتَرِضُ فِي وَسْطِ النَّسِيبِ مِنْ مَدْحٍ
مَنْ يُرِيدُ الشَّاعِرُ مَدْحَهُ بِتِلْكَ الْقَصِيدَةِ ثُمَّ يَعُودُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى مَا
كَانَ فِيهِ مِنَ النَّسِيبِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى الْمَدْحِ كَمَا فَعَلَ وَمِنْ قَوْلِ
أَبِي تَمَّامٍ بِمَدْحِهِ الَّذِي تَمَادَى فِيهِ مُنْقَطِعًا وَذَلِكَ فِي وَسْطِ النَّسِيبِ
مِنْ قَصِيدَةٍ :

لَا وَالَّذِي هُوَ عَالِمٌ أَنَّ النَّوَى
مُرٌّ وَأَنَّ أَبَا الْحُسَيْنِ كَرِيمٌ
مَا زِلْتُ عَنْ سَنَنِ الْوَدَادِ وَلَا غَدْتُ

نَفْسِي عَلَى رَأْفِ سِوَاكَ تَحُومُ
ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ :

بِحَمْدِ بْنِ أَهْلِيْمٍ بْنِ شَبَّانَةَ مَجْدٌ إِلَى جَنْبِ السَّمَاءِ مُقِيمٌ
وَلَيْسَ هَذَا النَّوعُ الْإِلْمَامُ. وَكَانَتْ الْعَرَبُ لَا تَذْهَبُ هَذِهِ
الْمَذَاهِبَ فِي الْخُرُوجِ إِلَى الْمَدْحِ بَلْ يَقُولُونَ بَعْدَ فَرَائِهِمْ مِنْ نَعْتِ
أَلَا إلَ وَذِكْرِ الْقِفَارِ وَمَا هُمْ بِسَبِيلِهِ دَعُ ذَا وَعَدِ عَنْ ذَا وَيَأْخُذُونَ
فِيمَا يُرِيدُونَ أَوْ يَأْتُونَ بِإِنَّ الْمُسَدَّدَةَ أَبْتِدَاءً لِلِكَلَامِ الَّذِي يَقْصِدُونَهُ
وَإِذَا لَمْ يَكُنْ خُرُوجُ الشَّاعِرِ إِلَى الْمَدْحِ مُتَّصِلًا بِمَا قَبْلَهُ وَلَا مُنْفَصِلًا
بِقَوْلِهِ : دَعُ ذَا وَعَدِ عَنْ ذَا وَخَوِ ذَاكَ سُبْحَانَ طِفْرًا وَأَنْقِطَاعًا. وَكَانَ
الْبُحْثِيُّ كَثِيرًا مَا يَأْتِي بِهِ كَقَوْلِهِ :

لَوْلَا الرَّجَاءُ لَمْتُ مِنَ أَلْمِ الْهَوَى لَكِنَّ قَلْبِي بِالرَّجَاءِ مُوَكَّلٌ
إِنَّ الرَّعِيَّةَ لَمْ تَزَلْ فِي سِيرَةٍ مَحْمُودَةٍ مُذْ سَاسَهَا الْمُتَوَكِّلُ

وَرَبَّمَا قَالُوا بَعْدَ صِفَةِ الذَّاقَةِ وَالْمَفَازَةِ إِلَى فُلَانٍ قَصَدْتُ وَحَتَّى
تَزَلْتُ بِفِنَاءِ فُلَانٍ وَمَا شَاكَلَ ذَلِكَ . وَأَمَّا الْإِنْتِهَاءُ فَهُوَ قَاعِدَةُ
الْقَصِيدَةِ وَآخِرُ مَا يَبْقَى مِنْهَا فِي الْأَسْمَاعِ وَسَبِيلُهُ أَنْ يَكُونَ مُحْكَمًا
لَا يُسَكِّنُ الزِّيَادَةَ عَلَيْهِ وَلَا يَأْتِي بَعْدَهُ أَحْسَنُ مِنْهُ . وَإِذَا كَانَ أَوَّلُ
الشِّعْرِ مُنْتَهَا لَهُ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ آخِرُهُ قُفْلًا عَلَيْهِ . وَقَدْ أَرَبَى أَبُو
الطَّيِّبِ عَلَى كُلِّ شَاعِرٍ فِي جُودَةِ هَذِهِ الْأَبْوَابِ الثَّلَاثَةِ إِلَّا أَنَّهُ
رَبَّمَا عَقَّدَ أَوَائِلَ الْأَشْعَارِ ثِقَةً بِنَفْسِهِ وَإِعْرَافًا عَلَى النَّاسِ كَقَوْلِهِ أَوَّلُ
قَصِيدَةٍ :

وَفَاوَكَمَا كَانَ رُبْعُ أَشْجَاهِ طَائِسُهُ بِأَنْ تُسْعِدَا وَالِدَمْعَ أَشْجَاهِ سَاجِدُهُ
فَإِنَّ هَذَا يَحْتَاجُ الْأَضْمَعِيَّ إِلَى أَنْ يُفْسَرَ مَعْنَاهُ . وَيَقَعُ لَهُ فِي
الْخُرُوجِ مَا كَانَ تَرْكُهُ أَوَّلِي بِهِ وَأَشْعَرُ لَهُ وَإِنَّمَا أَدْخَلَهُ فِيهِ حُبُّ
الْإِعْرَابِ فِي بَابِ التَّوْلِيدِ حَتَّى جَاءَ بِالْعَثِّ الْبَارِدِ وَالشَّيْبِ الْمَشْكَفِ
نَحَرَ قَوْلِهِ :

أُحِبُّكَ أَوْ يَقُولُوا جَرَّ نَمْلٍ ثَبِيرًا وَأَبْنُ إِبْرَاهِيمَ رَيْعًا
فَهَذَا مِنَ الْبَشَاعَةِ وَمِنَ الشَّاعَةِ بِحَيْثُ لَا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ . وَمَا
أُظْهِرَ سَرَقَ هَذَا الْمَعْنَى الشَّرِيفَ إِلَّا مِنْ كِذْبَةٍ كَانَ أَوْرَدَهَا أَبُو
الْعَبَّاسِ الْحَمِيرِيُّ عَلَى لِسَانِ رَجُلٍ فَرَّعَ أَنَّهُ قَالَ : رَأَيْتُ رَجُلًا
نَامَ فَجَرَّهُ النَّمْلُ ثَلَاثَةَ فَرَاسِخَ . وَقَدْ جَعَلَ أَبُو الطَّيِّبِ مَكَانَ الرَّجُلِ
جَبَلًا وَإِنْ عَلِمْنَا الْإِعْرَابَ فِي مُرَادِهِ وَلَفْظِهِ . وَقَالَ أَيْضًا :
أَعَزُّ مَكَانٍ فِي الدُّنْيَا سَرَجُ سَابِجٍ وَخَيْرُ جَلِيسٍ فِي الزَّمَانِ كِتَابُ

وَبَجَرُ أَبُو الْمَسْكَ الْحِظْمُ الَّذِي لَهُ عَلَى كُلِّ بَجَرٍ زَخْرَةٌ وَعُكَّابٌ
يُرِيدُ وَخَيْرُ بَجَرٍ أَبُو الْمَسْكَ وَهَذِهِ غَايَةُ التَّصْنَعِ وَالتَّكْلِيفِ. وَمِنْ
الْعَرَبِ مَنْ يَخْتِمُ الْقَصِيدَةَ فَيَقْطَعُهَا وَالنَّفْسُ بِهَا مُتَعَلِّقَةٌ وَفِيهَا رَاغِبَةٌ
وَلَمَّا مُشْتَبِيَةٌ وَيَبْقَى الْكَلَامُ مَشُورًا كَأَنَّهُ لَمْ يَتَعَدَّدْ جَعْلُهُ خَاتَمَةً
كُلُّ ذَلِكَ رَغْبَةٌ فِي اخْتِذِ الْعَفْوِ الْآتِرَى مُتَعَلِّقَةٌ أَمْرِي الْقَيْسِ كَيْفَ
خَتَمَهَا بِقَوْلِهِ يَصِفُ السَّيْلَ عَنْ شِدَّةِ الْمَطَرِ :

كَانَ السَّبَاعُ فِيهِ غَرَقَى غُدِّيَّةً بِأَرْجَانِهِ الْقُضْوَى عَنَابِيشُ عُضُلٍ
فَلَمْ يَفْعَلْ لَهَا قَاعِدَةً كَمَا فَعَلَ غَيْرُهُ مِنْ أَصْحَابِ الْمُعَلَّقَاتِ
وَهِيَ أَوْضَاهُنَّ. وَقَدْ كَرِهَ الْحَذَاقُ مِنَ الشُّعْرَاءِ حَتَمَ الْقَصِيدَةِ بِالْذِّعَاءِ
لِأَنَّهُ مِنْ عَمَلِ الضَّعِيفِ إِلَّا لِلْمُلُوكِ فَإِنَّهُمْ يَشْتَهُونَ ذَلِكَ كَمَا قَدَّمْتُ
مَا لَمْ يَكُنْ مِنْ جِنْسِ قَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ يَذْكُرُ الْخَيْلَ لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ
فِي آخِرِ قَصِيدَةٍ لَهُ :

فَلَا هَجَمْتَ بِهَا إِلَّا عَلَى ظَفَرٍ وَلَا وَصَلْتَ بِهَا إِلَّا عَلَى أَمَلٍ
فَإِنَّ هَذَا يُشْبِهُ مَا ذَكَرَ عَنْ بَغِيضٍ كَانَ يُصَاحِبُ الْأَمِيرَ
فَيَقُولُ « لَا صَبْحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ بِعَافِيَةٍ » وَيَسْكُتُ سَكْتَةً ثُمَّ يَقُولُ
« إِلَّا وَمَسَاءَهُ بِأَكْثَرِ مِنْهَا » وَيُمَاسِيهِ فَيَقُولُ « لَا مَسَى اللَّهُ الْأَمِيرَ
بِنِعْمَةٍ » ثُمَّ يَقُولُ « إِلَّا وَصَبْحَهُ بِأَكْثَرِ مِنْهَا » وَتَحْوُ هَذَا فَلَا يَدْعُو
لَهُ حَتَّى يَدْعُوَ عَلَيْهِ وَمِثْلُ هَذَا قَبِيحٌ لَا سِيَّامًا مِنْ مِثْلِ أَبِي الطَّيِّبِ



فهرس

المقالات

وجه	وجه
١٢	القسم الاول في علم الخطابة ١
٢٥	الفصل الاول في تعريف الخطابة
	واقسامها ومنافعها ١
	البحث الاول في تحديد الخطابة وما
	تشتمل عليه بوجه الاجمال ١
	البحث الثاني في تعريف الخطابة
	وموضوعها ٣
	البحث الثالث في المناسبة الموجودة
	بين الحدل والخطابة ٢
	البحث الرابع في ان الخطابة تحرري
	للتصديق اكثر منها للتأثير ٥
	البحث الخامس في فوائد علم
	الخطابة ٧
	البحث السادس في ان الخطابة صناعة
	اصالها في طبع الانسان ١١
	الفصل الثاني في بلاغة الخطيب ١٢
	البحث الاول في تعريف البلاغة
١٢	الحديرة بالخطيب
٢٥	البحث الثاني في وسائل الاقناع التي
	يتعدها الخطيب البليغ
	الفصل الثالث في الاقوايل
٢٨	المقنعة
	البحث الاول في ان الخطيب لا بد له
	للاقتناع من معرفة القياس وعلم
٢٨	المطلق
	البحث الثاني في الطريق اي الدليل
٣٠	وتنقيبه
٣١	البحث الثالث في المواضع
	البحث الرابع في التعريف والحد
٣٣	والرسم
	البحث الخامس في الكلي
٣٧	والجزئي
٣٩	البحث السادس في الجس والموع
	البحث السابع في تعريف العلة
٤١	والمعلول

وجه

البحث الاول في مبادئ الخطابة
والافتتاحات ٨٩

البحث الثاني في القضية والقياس ٩٠

البحث الثالث في القياس واقسامه
وانواعه ٩٢

البحث الرابع في ملحقات القياس ٩٥

البحث الخامس في القياسات المستعملة
في الخطابة واخصها القياس الاصماري
والتحتيل ٩٧

البحث السادس في مقدمات القياسات
الخطبية ١٠٢

الفصل السابع في التنفيذ ١٠٨

البحث الاول في المناظرة
والحدال ١٠٨

البحث الثاني في آداب
المناظرة ١١١

البحث الثالث في الحوارات على
المخيم ١١٢

البحث الرابع في المغالطة ١١٥

البحث الخامس في مقاطيع
الكلام ١١٩

الفصل الثامن في التعبير ١٢٢

وجه

الفصل الرابع في آداب الخطابة ٢٢

البحث الاول في آداب كلام
الخطيب ٢٢

البحث الثاني في خصال الخطيب ٢٦

البحث الثالث في طباع الناس على
اختلاف اطوار الحياة ٢٩

البحث الرابع في سياسة الخطيب مع
الجمهور ومواجهة طباعهم ٥٢

الفصل الخامس في الاخلاق
والامواء ٥٩

البحث الاول في تعريف
الاخلاق ٥٩

البحث الثاني في الاخلاق الحسنة ٦٢

البحث الثالث في الاخلاق
الردئية ٦٩

البحث الرابع في بعض الاخلاق التي
تكون في بعض الناس فضيلة وفي
بعضهم رذيلة ٧٤

البحث الخامس في الارتياض بمكارم
الاخلاق ٧٩

الفصل السادس في تدقيق الخطابة
وبيان القضية والقياس ٨٩

وجه

والسعادة ١٦٢

البحث الثامن في انه ينبغي للخطيب

المشير ان يعرف الاتياء النافعة

وفي مقابلة الخير مع النافع ومقابلة

الخير مع بعضها ١٧٢

البحث التاسع في اتيار الخيرون في

شروط تفضيل بعضها على بعض

والاسباب الموحدة لذلك ١٨١

البحث العاشر في ان الخطيب المشوري

ينبغي ان يعرف اصناف السياسات

وفي بيان احناس هذه السياسات

الاربعة ١٩٤

البحث الحادي عشر في ما ينبغي

للعطيب ان يعرفه في النوع الثبتي

وفي الفصل والنقيصة والمدح والذم

وتصرف الخطيب فيها وفي انواع

الامور العاضلة والناقصة ١٩٨

الفصل العاشر في انواع الخطب ومن

برع فيها ٢١١

البحث الاول في خطب التهنئة ٢١١

البحث الثاني في خطب التقليد ٢١٢

البحث الثالث في الارتجال والبدعة

واشارات الخطيب ٢١٤

وجه

البحث الاول في خواص تعبير

الخطيب ١٢٤

البحث الثاني في بلاغة كلام العرب

وكلام العجم ١٢٦

الفصل التاسع في احاس الخطابة

الثلاثة ١٣٧

البحث الاول في تقسيم الخطب الى

ثلاثة احاس ١٣٧

البحث الثاني في عايات الاحاس

الخطبية الثلاثة وانواع مقدماتها ١٣٩

البحث الثالث في مقدمات الحاس

المشوري ١٤٢

البحث الرابع في خمسة امور يدور

عليها البحث في النوع المشوري وفي

القياسات المختلفة هما ١٤٥

البحث الخامس في السبب الذي من

احله يشير الخطيب وهو سعادة

السامع وفي ماهية السعادة وانواع

الخير التي من مجموعها تتولد

السعادة ١٥٠

البحث السادس في الفرق بين الخير

والسعادة ١٦١

البحث السابع في اقسام الخير

و٥٠

البحث الثامن في اسطقات الاقاول
التعريف ٢٨٤

البحث التاسع في صناعة الاشعار
القصصية ٢٩٤

البحث العاشر في كيفية التماس الى
ما يراد محاكاته ٢٩٥

البحث الحادي عشر في انواع
المحاكاة غير المقولة ٢٩٦

الفصل الثاني في معرفة التمر ٣٠٠

البحث الاول في القدماء من
الشعراء ٣٠٠

البحث الثاني في المقنن من
الشعراء ٣١٢

البحث الثالث في المعلنين من
الشعراء ٣١٤

الفصل الثالث في فنون الشعر ٣٢١

البحث الاول في المصنوع
والمصنوع ٣٢١

البحث الثاني في اقسام الشعر ٣٢٧

البحث الثالث في صناعة المديح ٣٢٩

البحث الرابع في الافتخار ٣٤٣

البحث الخامس في الرثاء ٣٤٧

و٥٠

البحث الرابع في خطب الوعظة ٢١٦

البحث الخامس في غاية الوعظ ٢٢١

البحث السادس في فوائد الوعظ
وحمل صكتيرين من الخطباء في
هذا الفن ٢٢٣

البحث السابع في الخطب عند
العرب ٢٣١

القسم الثاني في علم الشعر ٢٤٠

الفصل الاول في تعريف الشعر
وانواعه ودرائده ٢٤٠

البحث الاول في تحديد الشعر ٢٤٠

البحث الثاني في صناعة الشعر وانواع
الاشعار ٢٤٣

البحث الثالث في المديح والشجوه ٢٤٧

البحث الرابع في العلم المولدة
للتعريف ٢٤٩

البحث الخامس في وزن الشعر
والحمير ٢٥٣

البحث السادس في صناعة المديح
واحرائها ٢٥٨

البحث السابع في احزاء صناعة
المديح من جهة الكمية ٢٦٦

وجه

البحث الثالث عشر في البديهة

والارتجال ٣٨٠

البحث الرابع عشر في اداب

الشعر ٣٨٥

البحث الخامس عشر في عمل الشعر

وشخذ القريجة ٣٩٠

البحث السادس عشر في المقاطع

والمطالع ٤٠١

البحث السابع عشر في المبتدا او

الخروج والنهاية ٤٠٤

وجه

البحث السادس في الاقتضاء

والاستنعار ٣٥٤

البحث السابع في الكتاب ٣٥٦

البحث الثامن في الوعيد

والانذار ٣٦٢

البحث التاسع في المعاء ٣٦٣

البحث العاشر في الاعتدار ٣٦٨

البحث الحادي عشر في سيرة

الشعر والحظوة في المدح ٣٧٢

البحث الثاني عشر في ما اشكل

من المدح والهجاء ٣٧٦



اصلاح غلط وقع في بعض النسخ

صفحة	طر	حطأ	صواب
٢	٥	الحدل	الحدل
٠	١٤	الحدل	الحدل
٢	١١	كالحال	كالحال
٠	١٤	كل	كل
٥	١٣	يُثبت	يُثبت
٢١	٠٤	استبهم الكلام	استبهم الكلام
٢٦	١٩	يقنع	يقنع
٤٢	١١	من كتاب الدنيا	من كتاب ادب الدنيا
٤٤	١١	فان	فان
٤٨	٠٤	س عتة س	س عتة س
٠٠	٨ و ٧ و ٦	وهو	وهو
٥٤	١٧	حاتها ودقها	جلها ودقها
٥٦	٠٨	التي	أما التي
٥٧	١٧	ألا كثرات	ألا كثرات
٥٨	٠٨	يعلم	يعلم
٥٩	١٤	والنشر	والنشد
٦٢	٠٧	والنقصير	والنقصير
٠٠	٠٨	وقصد	وقصد
٦٣	٠٢	والسجف	السجف
٧٠	٠٢	والطيش	والطيش
٧١	٠٥	يستودع	يستودع
٨٣	٠٣	الحروب وفي مجالسة	الحروب مجالسة
٨٦	٠٧	كثيرة	كثيرة
٩٠	٠٧	الشعب	الشعب
١٠٢	١٢	مقدمته	مقدمته

صفحة	سطر	خطاء	صواب
١٠٦	٠٩	من فلان الملك	من فلان الملك
١١٩	٠٥	التكرار	والتكرار
١٢٢	٠٣	العاظك	العاظك
١٢٤	٠٧	السكوني	السكوني
١٢٦	٠٣	من رسالة	من رسالة لابي هلال العسكري
١٢٨	٠٧	لحافيه	لحافيه
١٤٤	١٦	وغير ذلك مما يستعمله	وغيره يستعمله
١٤٦	٠٤	وبالقصان	بالقصان
١٥٢	١٠	والحسدانية	والحسدانية
١٥٧	٠٣	والملاكرة	والملاكرة
٠٠٠	١٩	ويجاورهم	ويجاورهم
١٦٠	٠٨	طلبة	طلبة
١٦٦	٢٠	إحما	إحما
١٨٠	٠٤	يسر	يسر
١٨١	٠٢	إبشار	إبشار
١٨٢	١١	فالدكران	فالدكران
١٨٤	١٢	واحد	واحد
٢١١	١٤	والتهريز	والتهريز
٢١٢	١١	الأحسن منها	الأحسن فيها
٠٠٠	٠٠	وتعتبر	وتعتبر
٠٠٠	١٣	لقب	لقب
٠٠٠	١٤	المطلع	المطلع
٢١٤	١١	واشتقاقا الارتمال والبديحة	الارتمال والبديحة
٠٠٠	١٧	بتقريبه	بتقريبه
٢١٥	٢٠	أما داود	أما داود
٢١٦	٠٠	الخطابة	الخطابة
٠٠٠	٠٦	بومون	بومون

صفحة	سطر	خطاء	صواب
٠٠٠	١٨	أَلَفَتْ	أَلَفَتْ
٢١٧	٠٩	لَتَسْمِعُ	لَتَسْمِعُ
٢١٨	١٥	تَأْكُلْنَ	تَلَسْكُوهُ
٢٢١	٠٧	ضُرِبَ	ضَرَبَ
٢٢٢	١٥	دَوْدَ	ذَوْدَ
٢٢٤	٠١	والفوز	والفوز
٢٣١	١٨	ومعانيه	بِمَعَانِيهِ
٢٣٣	٠٤	والذي	الذي
٢٣٦	١٥	ومن	ومن
٠٠٠	١٦	بَاهِلَةً	بَاهِلَةً
٢٣٨	٠٦	وذكر	وذكر بعضهم
٠٠٠	٠٠	تَسَامَةً	تَسَامَةً
٢٤٧	٠١	المبحث الثاني	المبحث الثالث
٢٤٩	١١	المبحث الثالث	المبحث الرابع
٢٥٣	٠١	المبحث الرابع	المبحث الخامس
٢٥٨	٠١	المبحث الخامس	المبحث السادس
٢٦٦	٠١	المبحث السادس	المبحث السابع
٢٨٣	١٤	ظَاهِرَةً	ظَاهِرَةً
٢٨٤	١٤	المبحث السابع	المبحث الثامن
٢٨٦	١٠	وطاهر	وطاهر
٠٠٠	١٠	المرحمة	المرحمة
٢٩٤	٠١	المبحث الثامن	المبحث التاسع
٢٩٥	١٣	المبحث التاسع	المبحث العاشر
٢٩٦	١٣	المبحث العاشر	المبحث الحادي عشر
٣٠٣	١٨	الضَلِيلُ	الضَلِيلُ
٢٢٥	١٥	في المديح والمحو	في غاية صناعة الشعر

واما ما وقع فيه من سقوط نقطة او حركة في ظهور امره غنى عن التنبيه اليه

